عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم

إدوارد وليم لاين

(مصر ما بين ١٨٣٣ - ١٨٣٥)

ترجمة: سهير دسوم



مكتبة مدبولي
القاهرة

الطبعة الثانية

١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م

الناشـــر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١

عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم

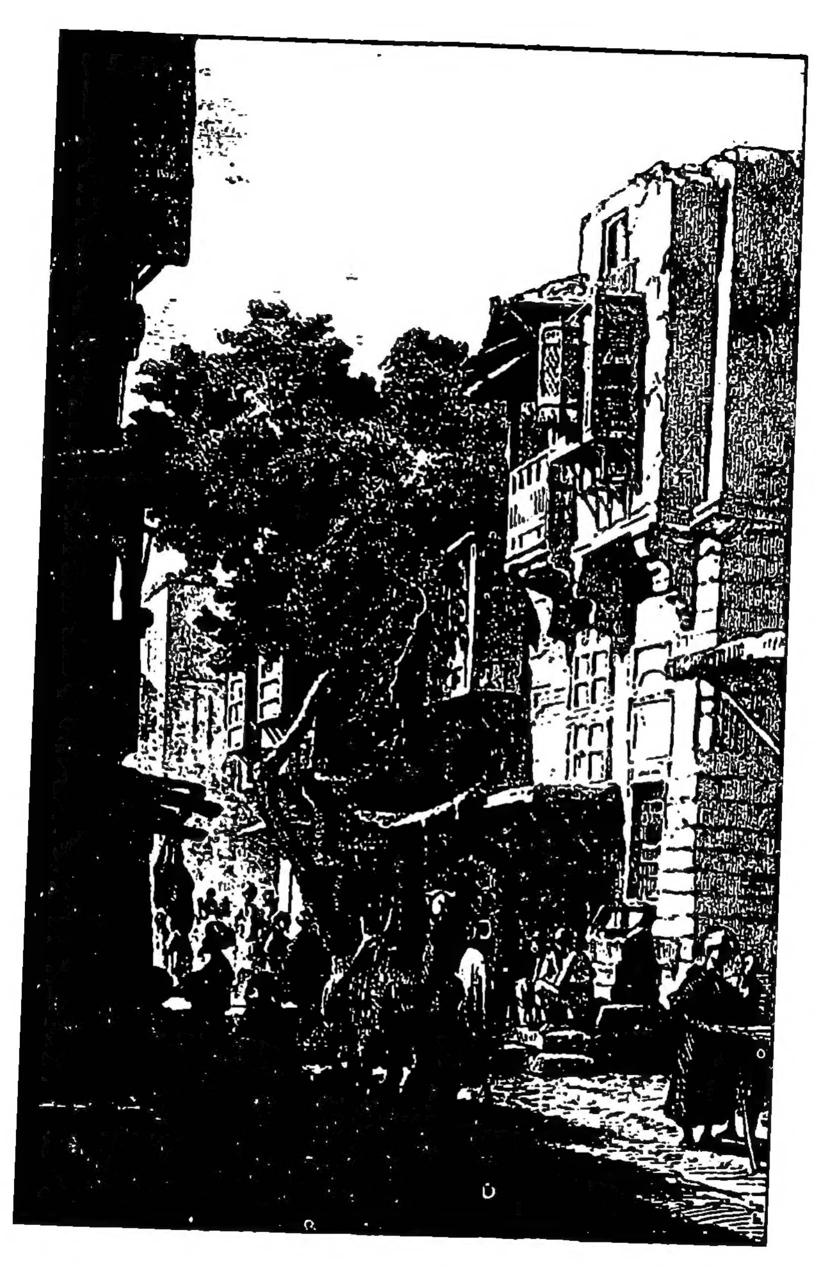
إدوارد وليم لاين

(مصر ما بين ١٨٣٣ - ١٨٣٥)

ترجمة
سهير دسوم

مكتبة مدبولي
القاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم



أحد شوارع القاهرة

لمحة عن سيرة المؤلف

وُلد « إدوارد لاين » مؤلف هذا الكتاب في « هيرفورد » Hereford في ١٧ سبتمبر ١٨٠١ وهو الإبن الثالث لِـ « ثيوفلوس لاين » الكاهن الفخري لكاتدرائية « هيرفورد » . تتلمذ بشكل مستقل على يد والديه خاصّة . فأمّه وهي ابنة أخ الرّسام « غاينسبورا » Gainsborough ، امرأة تتمتع بثقافة عالية ومبادىء رفيعة ، وإليها يعود الفضل في توسيع مدارك « لاين » الفكرية والأخلاقية . ولمّا كان متفوّقاً بشكل غير عادي في مادتَيْ الرياضيات والأدب ، قرّر والداه إرساله إلى جامعة « كامبريدج » بهدف الإنضمام إلى الكنيسة في مرحلة لاحقة . ولكنّ « لاين » ما لبث أن تخلّى بعد فترة بسيطة أمضاها في « كامبريدج » عن هذه الفكرة ولحق بأخ أكبر له في لندن حيث كان يعمل في مجال الطباعة الحجرية والنقش ، وانكبّ في الوقت عينه ينهل من منابع اللغة العربية فكانت له اليد الطّولى فيها . بيد أنّ ضغط العمل المتواصل وانكبابه على الدراسة أنهكا صحّته ، فأصيب بعارض حمّى سرعان ما تركه عليلاً سقيماً ، فكان لا بدّ له من الانتقال إلى الخارج طلباً للشفاء . وكان بديهيّاً أن يجعل الشرق قبلة أنظاره حيث قد تُتاح له فرصة الشفاء والمثابرة على دراسته الغالية على قلبه .

وهكذا كان وانتقل « لاين » إلى مصر في نهاية عام ١٨٢٥ وكان لمّا يزل بعد في الرابعة والعشرين ربيعاً ، وعقد العزم على دراسة اللغة العربية وطبائع الشعب المصري على حد سواء ولذا ارتدى الزي التقليدي المصري ، فأتى تنكّره بارعاً إلى درجة خَاله العامة تركيّاً وعهد إلى أستاذين مهمّة تعليمه اللغة

العربية والدين الإسلامي وأحكام الشريعة . واختلط بالناس فعاش في وسطهم وكأنّه واحد منهم ، متّخذاً لنفسه اسماً عربياً ومتّبعاً عاداتهم وتقاليدهم ومتبنياً حتّى أفكارهم إلى أبعد الحدود . كما امتنع عن أكل كل ما حرّمه دينهم من طعام وكفّ عن معاقرة الخمر وأقلع عن العادات غير المحبّبة إلى نفوسهم كاستعمال الشوكة والسكين عند تناول وجبات الطعام وارتاد « لاين » منازلهم وأسواقهم ودخل جوامعهم ـ حتّى الأقدس منها وفي أقدس المواسم ـ وهي مزدحمة بالأتراك فصلّى صلواتهم بحرارة الإيمان والتقوى وأسرّ لأصدقائه المقربين بدور العناية الإلهية في نشر دين الإسلام وعند سؤاله ، اعترف بالمسيح « قولُ الحق » بما ينسجم « وكلمات » القرآن

وبنتيجة ذلك ، اكتسب « لاين » ثقة العرب كاملة ، فنسوا أنّ « لاين » ليس واحداً منهم ؛ وما كانوا قط متحفّظين نحوه في خوض ألوان المواضيع وضروبها ومناقشتها ولم يتوانوا أبداً عن مفاتحته بمكنونات قلوبهم وبنات أفكارهم أو الأسباب الكامنة وراء أي تصرّف من تصرّفاتهم فتمكّن بذلك من التغلغل إلى أعماق أعماقهم متناسياً أنّه إنكليزي ومتفكّراً أفكارهم في لغتهم الأم

ولقد حذا حذو « لاين » العديد من الرّحالة السالفين منهم على سبيل المثال الأميركي « فرنسيس باركمان » Francis Parkman الذي عاش ردحاً من الزمن مع هنود أميركا الشمالية ، والهنغاري « أرمينيوس فامبري » Arminius Vambéry الذي تنقّل بين تتار آسيا الوسطى طوال سنتين متنحّلاً شكل أحد الدراويش . وتبقى ميزة « لاين » الخاصة أنّه كان الرائد السبّاق الذي تجرّأ وخاض غمار هذه التجربة واستمر فيها مدّة أطول من أسلافه .

كانت حياة « لاين » المصرية توطئة للعمل الكبير العظيم الذي وضع نصب عينيه تحقيقه ، ألا وهو تعريف العالم بالمصريين كما لم يعهد ذلك من قبل فجاب طوّافاً رحّالاً طيلة سنوات ثلاث في طول مصر وعرضها متنقّلاً بين الإسكندرية والقاهرة ، متسلّقاً الأهرامات وماخراً عُباب النيل . وعاد إلى إنكلترة

قُبَيل انتهاء عام ١٨٢٨ ، متأبطاً كتابه « في وصف مصر » Description of Egypt في حلّته الناجزة مرفقاً برسوم اختطّتها ريشته . ولكنّ « لاين » لم يفلح في إيجاد الناشر الذي يجازف في نشر هذا الكتاب متحمّلاً كافة تكاليفه ، رغم الإقرار العام بقيمته . وبعد طول انتظار وبناءاً على نصيحة اللورد « برواغهام » ، أخذت « دار نشر المعرفة المفيدة » The Society for The Diffusion of Useful Knowledge على عاتقها مهمّة نشر الكتاب . وارتأى « لاين » زيارة ثانية إلى مصر طمعاً في إمكانية تحسين مؤلّفه فعاد إلى أرض الكنانة عام ١٨٣٣ وقبع فيها مدة سنتين اكتسب خلالهما معرفة أكبر ونظرة أعمق وأشمل . فكان وليده الجديد كتاب « عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم » «The Manners and Customs of The Modern Egyptians» الذي صدر عام ١٨٣٦ في جزءين عن « مكتبة المعرفة الممتعة » Library of Entertaining Knowledge وأرفقه بكليشيهات خشبية رائعة رسمها المؤلف بنفسه حقق الكتاب نجاحاً سريعاً باهراً ، وراح الجميع يتحدّث عن دقّته ووضوحه وتماميّته وتميّز بأنّه « أفضل ما كُتِبَ في وصف شعب » . ويبقى كتاب « لاين » حتّى أيّامنا المقياس الأوّل الرئيسي في ما يتعلّق بمضمونه .

وبعد هذا الكتاب بعامين ، قام « لاين » بنشر ترجمة حديثة لكتاب « ألف ليلة وليلة » The Arabian Nights الذي نُقلت للمرّة الأولى قصصه بدقة متناهية ، وما تزال ترجمته مقياساً ومرجعاً إلى اليوم وأمّا الملحقات والإشارات المتعدّدة التي أضافها « لاين » ، فنشِرت لاحقاً في مؤلّف منفرد حمل عنوان : « المجتمع العربي في القرون الوسطى » . كما قام عام ١٨٤٣ بإصدار كتاب : « اصطفاءات من القرآن » Selections from The Kur-an وقبل صدور هذا المؤلَّف ، عاد إلى مصر مرة جديدة (عام ١٨٤٢) يعدّ العدّة لإصدار « المعجم العربي » Arabic Lexicon أهمّ أعماله فبقي في مصر سبع سنين يجمع المواد اللازمة لمعجمه . وتولّى « دوك نورثمبر لاند الرابع » بكلّ سعة ورحابة صدر نفقات الكتاب كاملة ولمّا وافته المنية ، أكملت أرملته هذه المهمّة فانكبّ « لاين » يدقّق ويمحّص في معجمه طوال عشرين عاماً قبل أن يسمح

بنشره . ولمّا فرغ أخيراً من وضع خمسة أجزاء في قطع الرُّبع ابتداءاً من عام ١٨٦٣ ، اعتبره مفكّرو أوروبا عملاً على أرفع المستويات . ولكنّ الموت أعجله قبل أن ينتهي من معجمه ، فمات في « ورثنغ » من أعمال سَاسِكس Sussex في ١٠ أغسطس ١٨٧٦ في الخامسة والسبعين من عمره . وأمّا الجزء المتبقّي من المعجم ، فتمّ نشره (بين ١٨٧٦ - ١٨٩٠) بإشراف حفيد أخيه الأكبر « س . لاين - بول » S. Lane-Poole الذي عمد إلى تدوين سيرته . ورغم عدم تقدير أيّة جامعة بريطانية لما أنجزه « لاين » ، فقد نال هذا الأخير درجة دكتوراه في الآداب في الذكرى المئوية الثالثة لجامعة ليدين Leyden ، كما انتخبه المعهد الفرنسي Institute of France عضواً مراسلاً . ومنحته الحكومة البريطانية في سنواته الأخيرة مخصصات ملكية وهي مخصصات تُمنح عادة للملك ولأسرته .

عاداتُ المصريين المحدَثين وتقاليدهم

مقدّمة

البلاد والمناخ / العاصمة / المنازل / السّكان

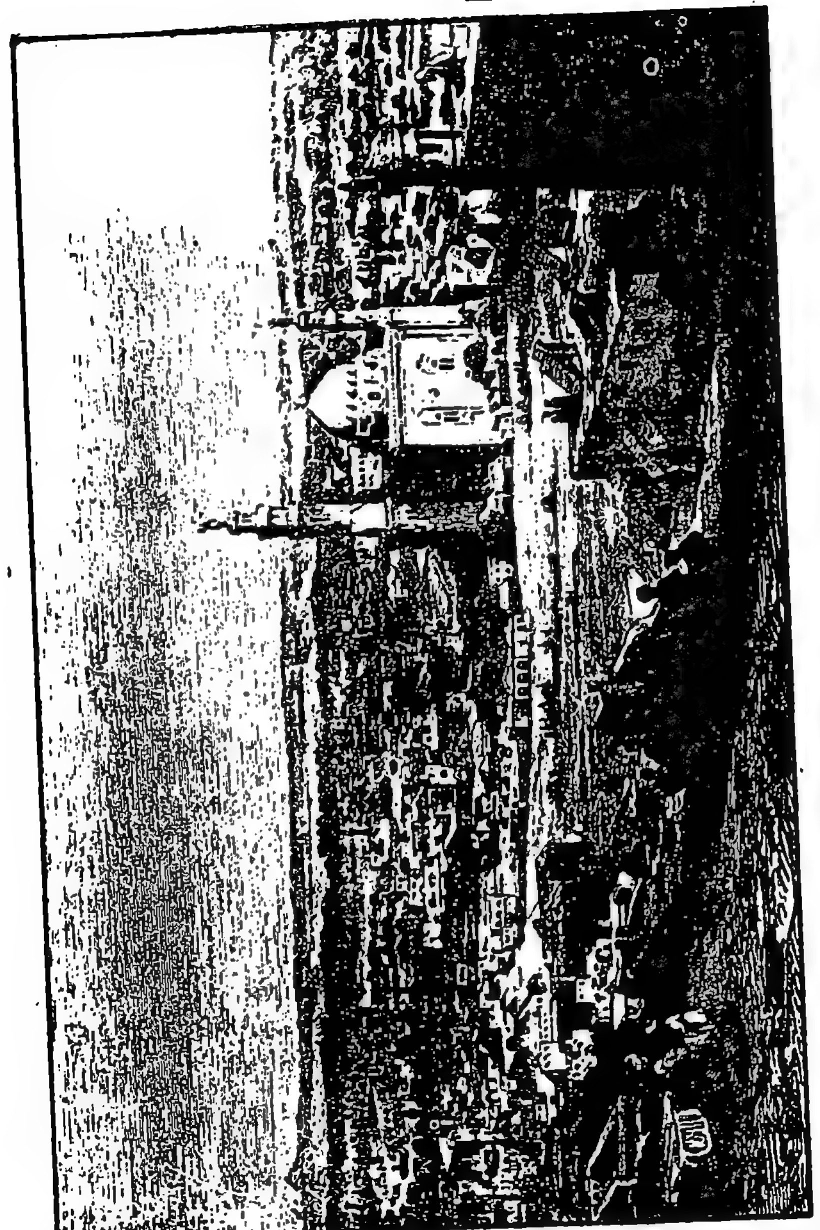
نلاحظ عامة أن أهم ما يميز بلداً في عاداته وتقاليده وطابعه مرتبط بمميزاته الطبيعية . فهذه المميزات تؤثّر تأثيراً بالغاً على الحالتين الأخلاقية والاجتماعية للمصريين المحدثين موضوع بحثنا ، لذا فهي تستلزم بعض الملاحظات التمهيدية غير الضرورية مع ذلك لتفسير تأثيراتها الخاصة التي ستظهر جليّة عبر فصول هذا الكتاب

تحدّ النيل الذي تحيط به الصحاري الرملية والجبلية في مجراه عبر وادي مصر العليا (الصعيد) الضيق والمتعرج وعبر سهل الدلتا حقول مزروعة مروية بمياهه إلّا في أماكن قليلة وليست الأراضي المزروعة مستوية تماماً ؛ فهي تنخفض نحو الصحاري أكثر منه في الأراضي المحيطة بالنهر وتنتشر فيها بساتين البلح والقرى وتتقاطعها العديد من القنوات وأمّا الأمطار الصيفية الغزيرة التي تعرفها بلاد الحبشة والبلدان المجاورة ، فتظهر تأثيراتها في مصر عند ارتفاع منسوب النيل قبيل فترة الإنقلاب الصيفي للشمس . ويبلغ النيل أعلى مستوياته خلال الاعتدال الخريفي فتكفي مياهه لملء القنوات التي تروي السهول والحقول ولغمر مساحات كبيرة من الأراضي المزروعة ثم ينخفض

منسوب النهر تدريجياً حتّى فترة ارتفاعه من جديد وتغطي الترسبات المهمة المتأتية عن الغمر الطبيعي للمياه أو الري الاصطناعي سنوياً الحقول المحيطة بالنيل بعد أن تكون هذه الترسبات قد أُشبعت تماماً خاصة خلال ارتفاع منسوب النهر بطبقة غنية من التربة مجروفة من البلدان الجبلية حيث يتدفق ، بينما يرتفع قاعه وللسّبب نفسه بدرجة مماثلة. ويعتمد المصريون اعتماداً كليّاً على مياه النيل لتخصيب تربتهم بسبب ندرة هطول الأمطار في بلادهم باستثناء المنطقة المحيطة بالمتوسط ويساعد انتظام الفصول الفلاح المصري على ترتيب عمله في الأرض بدقة كبيرة ؛ وعمله غير شاق عامة إلاّ عندما يكون مجبراً على رفع المياه للري

ومناخ مصر صحي جداً معظم أوقات السنة فرائحة التربة المنبعثة بعد فترة الغمر تجعل أواخر أيام الخريف غير صحية تماماً كما هي الحال خلال فصلَي الصيف والشتاء فهي تسبّب الرّمد (التهاب العين) والديزنطاريا وأمراض أخرى يكثر ظهورها في الخريف أكثر من أي فصل آخر . وأمّا خلال فترة هبوب الرياح الخمسينية (فترة الخماسين) التي تبدأ في شهر أبريل وتستمر حتّى شهر مايو ، فتطغى الرياح الجنوبية الحارة طوال ثلاثة أيام متواصلة تقريباً ورغم أنّه نادراً ما تتجاوز هذه الرياح الخمسينية الـ ٩٥ درجة على مقياس « فهر نهايت » في الدلتا أو الـ ١٠٥ درجات في صعيد مصر ، فهي رياح عاتية قاسية حتّى للسّكان أنفسهم ويضرب الطاعون مصر في الربيع عامة ، ويكون هذا المرض قاسياً مميتاً في فترة هبوب الرياح الخمسينية كما تهبّ على مصر خاصّة خلال فصلَي الربيع والصيف رياح « السّموم » السّاخنة التي هي أكثر قساوة من رياح الخماسين، بيد أن مدّتها أقصر ، نادراً ما تتجاوز الربع ساعة أو العشرين دقيقة وتهب هذه الرياح عامة من الجنوب الشرقي أو من جنوب الجنوب الشرقي حاملة معها سُحباً من الغبار والرمال ويتراوح المعدل العام لمقياس الحرارة في الدلتا أيام الشتاء الباردة خلال فترات بعد الظهر وفي الظل بين ٥٠ و ٦٠ درجة

تتراوح هذه الحرارة بين ٩٠ و ١٠٠ درجة في أكثر الفصول لهيباً وهي



القاهرة

عشر درجات أعلى في المناطق الجنوبية في الدّلتا. ورغم ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصّيف ارتفاعاً كبيراً، فنادراً ما تكون ثقيلة الوطأة وهي تترافق عامة مع نسيم عليل شمالي ، ويكون الهواء جافاً إلى أبعد الحدود . ومصدر الإزعاج الوحيد الناجم عن هذا الجفاف في الطقس يكمن خاصة في الكمية الهائلة من الغبار المنتشر في الجو ، إضافةً إلى جبلة أوبئة أخرى تنتقص من راحة المواطنين المصريين والسّياح الذين يطرحونها من مناخ هذا البلد الرائع . كما تكثر في الربيع والصيف والخريف أسراب الذباب المزعجة خلال فترات النهار وكذلك طوابير البعوض التي تزيد الطينة بلّة في المساء (إلاّ في حال استُعملت ناموسية خاصة لطردها وإبعادها) وأحياناً حتّى في النهار ؛ كما أنّ كلّ منزل يكثر فيه المنجور الخشبي (كما هي حال المنازل الجيدة) يسرح فيه البقّ ويمرح خلال الطقس الحار . وأمّا القمل ، فلا يمكن للمصري دائماً تحاشي إزعاجه في الفصول وإن كان سهلاً التخلص منه ؛ وكذلك البراغيث فطوابير طوابير في الطقس المعتدل .

وطقس الصعيد صحي أكثر من طقس الدلتا رغم ارتفاع درجة حرارته ونادراً ما تعرف القاهرة (العاصمة) وباء الطاعون ؛ وهو أكثر شيوعاً في المناطق السّبخة القريبة من المتوسّط . ولم تشهد البلاد خلال السنوات العشر الماضية سوى حالات نادرة من هذا المرض المميت باستثناء المناطق المذكورة آنفاً وفي تلك التي لم يكن فيها المرض ضارباً فتّاكاً[1] ، وذلك بفضل تحسن نظام تصريف المياه واعتماد قوانين الحجر الصحي الوقائية منعاً لتفشيه وتسلّله من البلدان الأخرى . ومن الأمراض الأخرى الشائعة الرّمد (التهاب العين)

---

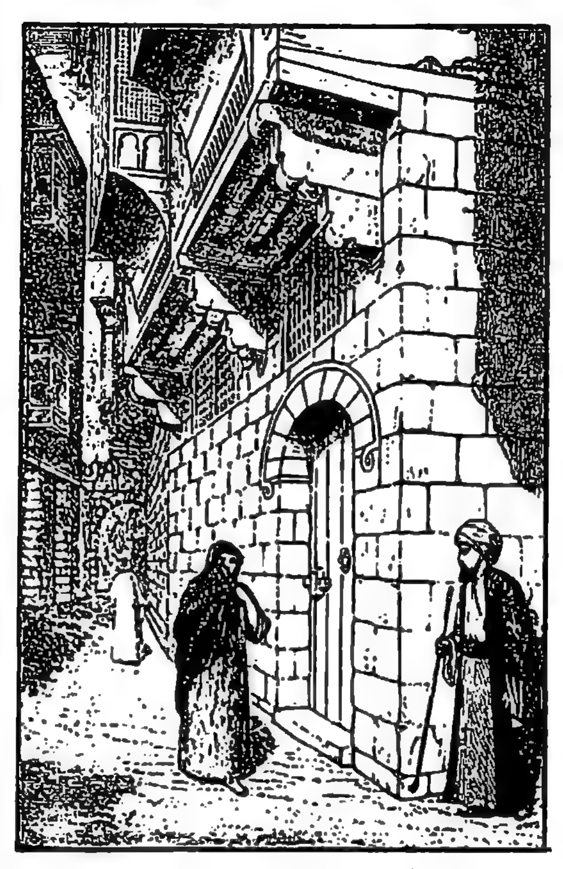
(١) تم تدوين هذه الملاحظة قبل الطاعون الرهيب الذي ضرب البلاد هذا العام (١٨٣٥) ؛ ومصدر الطاعون تركيا وقد آمتد إلى مصر كلّها رغم أن عواقبه لم تنعكس خراباً كبيراً على المناطق الجنوبية للبلاد . قضى هذا الطاعون على ما لا يقل عن ثمانية آلاف شخص في القاهرة وحدها (ما يعادل ثلث مجموع السكان) ، وأكثر من مئتي ألف شخص في مصر عامة . وقد أبرزت الحكومة تقريراً حدّدت فيه عدد الضحايا بأربعين ألفاً تقريباً ؛ وعلمتُ من مصادر موثوقة أنّ الحكومة آتّبعت قاعدة عامة تقضي بتقليص عدد ضحايا هذا الطاعون إلى نصف العدد الحقيقي فقط .

المنتشر في الدّلتا أكثر منه في المناطق الجنوبية ؛ وهو ينجم عادة عن التّعرق ، ويزيد من حدّته الغبار وجملة أوبئة أخرى ، والإسراع في التطبيب والمعالجة يقلّل من خطورة تفشّيه . بيد أنّ العديد من المواطنين المصريين يفقدون نعمة النظر إمّا بعين واحدة أو بالعينين معاً لجهلهم كيفيّة معالجة هذا المرض ولإصرارهم على تسليم أمورهم للأقدار .

وأمّا عن الوضع الصحي في مصر، فغالباً ما يبادر البعض إلى سؤالي عن نسبة الأشخاص المسنّين بين السّكان ، وقليلون هم الذين بالتأكيد يبلغون مرحلة متقدّمة من العمر . ولكن ما عساها تكون نسبة الأشخاص الذين يعمّرون في بلادنا ولا يعانون من مرض عضال لولا المساعدات والإسعافات الطبية التي لا تحصل عليها سوى القلة القليلة في مصر . وحرارة شهور الصيف ثقيلة الوطأة لدرجة تحمل معها الخمول والكسل ، كما تثير في نفس الإنسان المصري لذّة الإنغماس في المتع الحسية الشهوانية ويرافق خصوبة التربة الوافرة إحساس بالتراخي والكسل ، إذ تكفي كمية بسيطة من الغذاء لسدّ جوع السكان ، علماً أن التوصل إلى الكفاية لا يحتاج إلى بذل جهد كبير . يطلق السّكان على عاصمتهم المصرية الحديثة اسم « مَصر » (بفتح الميم) أو « مِصر » (بكسر الميم) توخياً للدقة وكانت تعرَف في البدء « بالقاهرة » عندما عمد الأوروبيون إلى تأليف اسم Cairo . وتقع « مِصر » (العاصمة) عند مدخل وادي الصعيد بين النيل والسلسلة الشرقية لجبل « المقطّم » . وأمّا بين « المقطّم » ونهر النيل فتمتد أراض مزروعة بمعظمها تبلغ في أقسامها الشمالية (حيث يقع ميناء بولاق) ميلا عرضاً ، وأقلّ من نصف ميل عرضاً في قسمها الجنوبي وتحتل العاصمة مساحة ثلاثة أميال تقريباً ويقدّر سكانها بنحو مئتي وأربعين ألف نسمة يحيط بالعاصمة سور تُغلق أبوابه عند انسدال الليل ، وتطلّ عليه قلعة كبيرة تقع في إحدى زوايا المدينة بالقرب من موقع الجبل . وشوارع « القاهرة » غير مرصوفة ومعظمها ضيّق متعرّج ، وهي في الواقع أزقّة أكثر منها شوارع

والمار في الشوارع لا يرى في القاهرة سوى مدينة ضيّقة المساحة مكتظّة

بالسكان ؛ والحال تختلف بالنسبة إلى الرائي الذي ينظر إليها من سطح منـزل عالٍ أو من مئذنة جامع كما ترتصف في الشوارع العريضة المتـاجر الـواحد



المنازل الخاصة في القاهرة

بجـانب الآخر وتقـع فوقهـا بيوت لا صلة لهـا البتة بهـا والتي نادراً مـا يقطنهـا الأشخـاص المستـأجرون لهـذه المتـاجـر . وأمّـا إلى يمين الشـوارع الكبيـرة ويسارها ، فتمتد الشوارع الفرعية والأحياء . ومعظم الشـوارع الفرعيـة كبيرة ، تشتمل على بوّابة خشبية واسعة في أطرافهـا تُغلَق ليلاً ويتـولّى حراستهـا بوّاب يفتح البوابة لكلّ راغب في الدخول تتألف الأحياء في معظمها من أزقة ضيقة

ذات مدخل واحد عام لها بوابة تقفل بدورها ليلاً كذلك تتقاطع الأحياء شوارع فرعية تمر عبرها

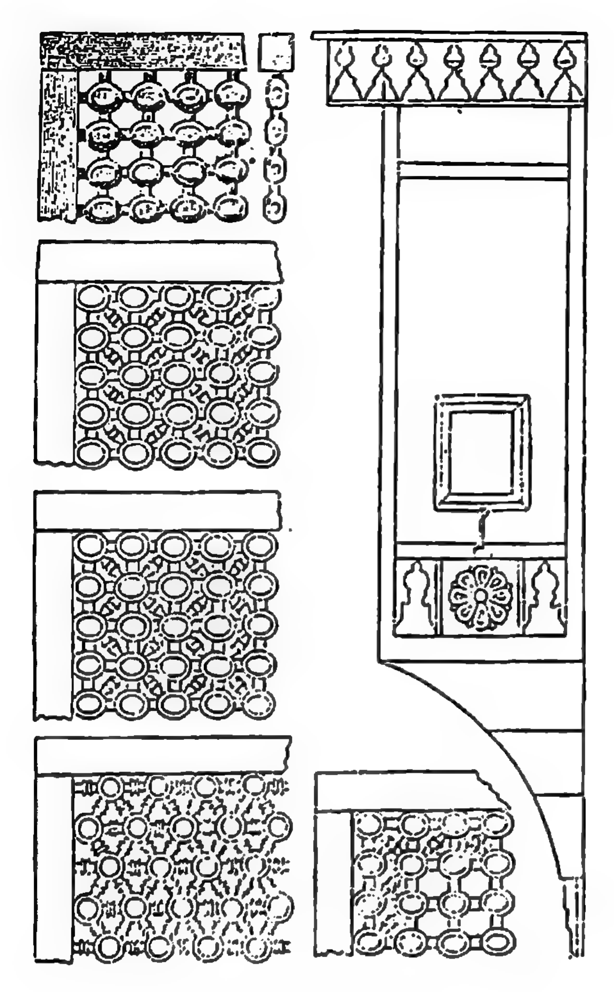
ولا بدّ من إعطاء وصف لمنازل العاصمة الخاصة . والصورة التالية تساعد القارىء على تكوين فكرة عامة عن المنظر الخارجي لهذه المنازل . تكون الجدران الداعمة والتي هي بمستوى ارتفاع الطابق الأول مغطاة من الخارج وغالباً من الداخل بالأحجار الكلسية الملساء المقتطعة من الجبل المجاور . وأمّا سطح هذه الأحجار فضارب إلى الصفرة الخفيفة عند اقتطاعه ما يلبث أن يصبح قاتماً بعد ذلك وتتلّون الطبقات المتعاقبة الأمامية أحياناً باللونين الأحمر والأبيض خاصة في المنازل الفسيحة كما هي حال معظم الجوامع . وتكون البنية الفوقية البالغة واجهتها عامّةً قدمين طولاً والمرتكزة على الطُّنف أو الدعام ، من الأجر ومجصّصة غالب الأحيان والأجر محروق أحمر باهت اللون والملاط مزيج من الوحل بمقدار النصف يُجبل بالكلس (الجير) بمقدار الرّبع ، إضافةً إلى رماد القش والنفايات ، فيصبح بذلك لون جدران الآجر غير المجصّصة وسخاً كما لو كانت ألواح الآجر غير محروقة . وأمّا السقف فمسطّح ومغطّى بطبقة من البحص .

يبيّن الرسم اللاحق النموذج الهندسي الأكثر شيوعاً لمدخل أحد المنازل الخاصة في القاهرة . فباب المدخل منقوش عادة بالطريقة التي يظهرها الرسم ويطلى القسم من الباب حيث الكلام المنقوش إضافة إلى الأقسام الأخرى ذات الشكل المشابه باللون الأحمر وتحدَّد باللون الأبيض ؛ وباقي مساحة الباب مطلي باللون الأخضر وأمّا الكلام المنقوش على الباب « هو الخلّاق الباقي » (والذي سأعمل إلى تفصيله عند معالجتي موضوع خرافات المصريين في فصول لاحقة من الكتاب) فتزدان به العديد من الأبواب وإن كان لا يشكّل القاعدة العامة والكلام المنقوش هذا مطلي باللونين الأسود أو الأبيض ، وهذا ما يظهر على أبواب المنازل الفسيحة . ولهذه الأبواب عادة قارع حديدي وقفل خشبي إضافةً إلى حجر عال عند جانب الباب



باب أحد المنازل الخاصة في القاهرة

نميّز في الحجرات الأرضية الموازية للشارع نوافذ شَعريّة خشبية صغيرة ، عالية بما فيه الكفاية لتمنع أيّاً كان من المارة في الشارع وحتّى من على صهوة جواده من إلقاء نظرة عبرها   وترتفع نوافذ الأدوار العليا حوالي القدم ونصف القدم أو أكثر وهي نوافذ مؤلفة من شَعريّات خشبية دائرية الشكل قريبة جداً الواحدة من الأخرى إلى درجة تكاد تمنع معها تسرّب النور وأشعة الشمس ، كما تحجب هذه النوافذ سكان الدّار عن أنظار المتطفّلين من المارة وتسمح في الوقت عينه بدخول الهواء منها   وهي عادة من الخشب غير المطلي ؛ وقد يُطلى بعضها جزئياً باللونين الأحمر والأخضر أو كاملاً   ويُطلق على هذه النوافذ اسم « روشان » أو « مشربية » كما هو شائع   ولهذه الكلمة الأخيرة (مشربيّة)



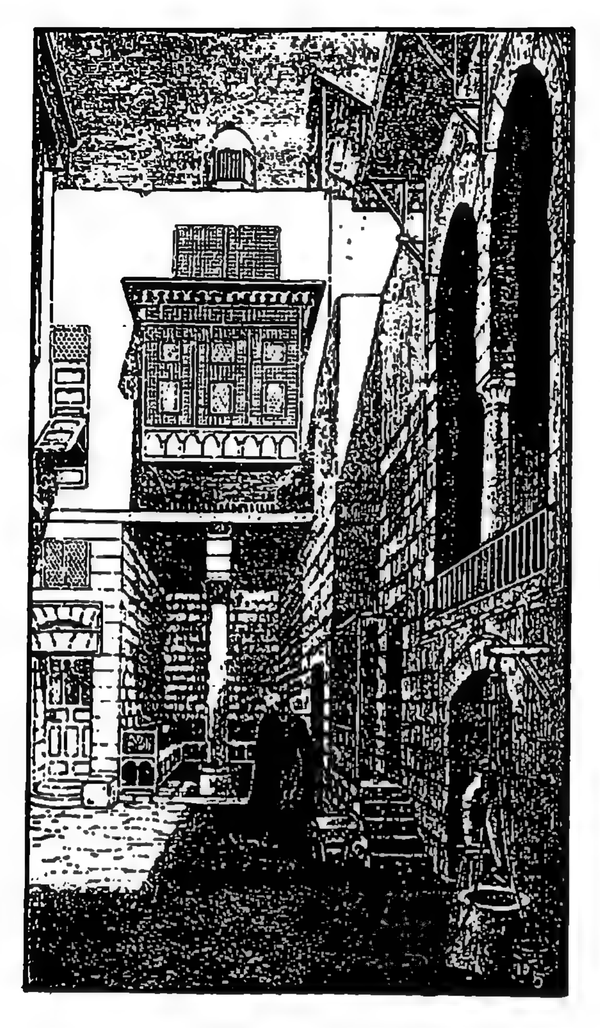
نماذج مختلفة لنوافذ شَمريّة

معنى آخر نورده لاحقاً والكثير من النوافذ ذات الأشكال المختلفة ممثّل في بعض الرسوم المعروضة في الكتاب إضافةً إلى بعض نماذج من النوافذ المشبكية الأكثر شيوعاً . وللنوافذ من هذا النوع مشرّبية صغيرة تشبه نوعاً ما الروشان بشكل مصغّر ، تكون ناتئة إما من الواجهة الأمامية أو عند كلّ جانب . ونجد على هذه المشربيّة أواني خزفية نفيذة توضع في مجرى الهواء تُستعمل لتبريد الماء بواسطة عملية التبخر . ومن هنا مشتقّة عبارة « مِشْربية » وتعني مكان

الشرب . وللنافذة الناتئة مشربيّة مسطّحة مشبكيّة أو أخرى شعرية خشبية أو زجاجيّة ملونة تقع مباشرة فوقها . وفي حال كانت هذه النافذة العلوية مشبكيّة ، فهي زخرفية الشكل أكثر من النوافذ الأخرى وتمثّل وعاءاً فوقه إبريق أو صورة أسد أو تحمل اسم « الله » أو عبارات أخرى مثل : « الله رجائي » . وبعض النوافذ الناتئة مبنية كلّها من الألواح الخشبية والقليل منها له أُطر زجاجية عند جوانبه . وأمّا النوافذ المشبكية في المنازل الأحسن بناءاً فمزوّدة بأُطر زجاجية من الداخل تُقْفَل بشكل محكَم في فصل الشتاء . ولا يتسلّل البرد إلى أوصال المصريين إلّا عندما يسقط مقياس فهر نهايت الحراري عن ٦٠ درجة . ونوافذ المنازل البسيطة مختلفة تماماً في معظمها حتّى أنها موازية لسطح الجدار الخارجي

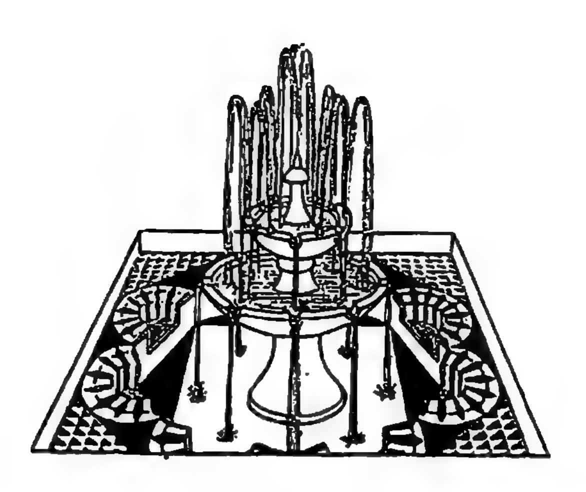
يكون الجزء العلوي من النافذة شَعرياً خشبياً أو هو عبارة عن حاجز مُشَبَّك ، وأمّا الجزء السفلي فمغلَق بمصراعين معلّقين والعديد من هذه النوافذ مزوّد بمشربيّة صغيرة ناتئة في الجزء السفلي مخّصصة لزقاق الماء (م زقّ) .

ترتفع المنازل عامة دورين أو ثلاثة أدوار . ويضم كلّ منزل فسيح تقريباً فناءاً غير مرصوف وغير مسقوف يُعرَف « بالحوش » بُني عند مدخله ممرّ ذات منعطف أو منعطفين بهدف منع المارة من اختلاس النظر إلى داخل الفناء ونجد في هذا الممرّ وراء الباب مباشرة مقعداً حجرياً طويلاً يُعرف « بالمصطبة » يستند في بنائه إلى الجدار أو إلى جانبه وهو مخصّص للبّواب والخدم الآخرين . كذلك تقع في الفناء بركة تتدفق مياهها المالحة بعض الشيء من نهر النيل عبر باطن الأرض ؛ وتطالعنا إلى جانب البركة المظلّل أكثر من غيره جرّتان للماء تُملآن يومياً بمياه النيل بواسطة الزّقاق . وتطلّ الحجرات الأساسية على باحة الفناء الواسع وتكون جدرانها الخارجية (المبنية من الآجر) مجصّصة ومبيّضة بماء الكلس . وتكثر الأبواب التي ندخل إليها من فناء المنزل ؛ من هذه الأبواب « باب الحريم » وهو يشكل مدخل السّلالم الذي يقودنا إلى الحجرات المخصّصة للنّساء ولسيّدهم ولأولاده .



فناء منزل خاص في القاهرة

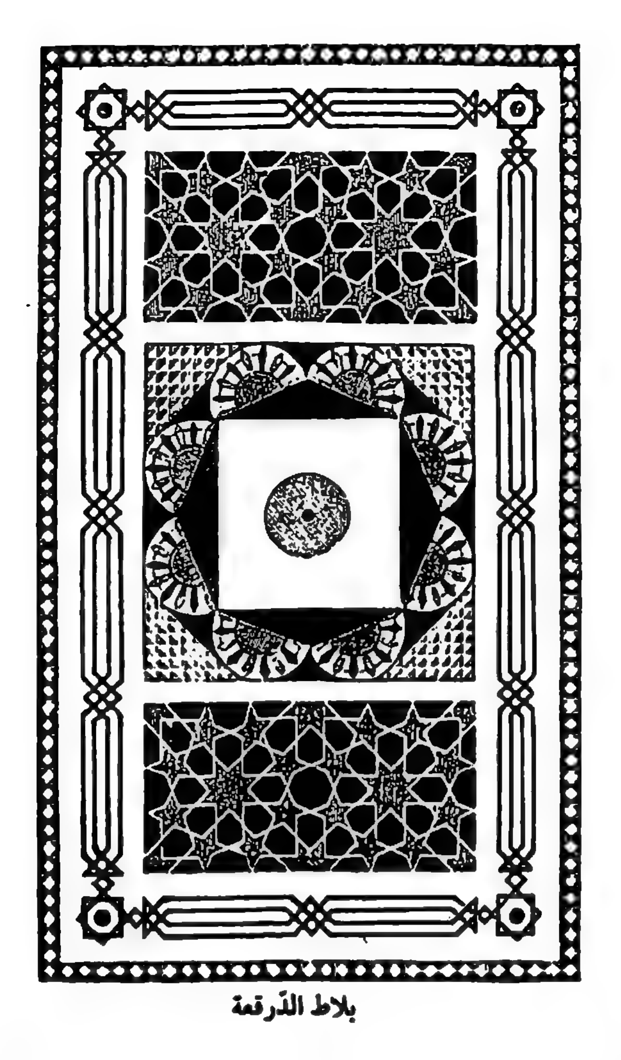
تقع في الدور الأرضي بصورة عامة حجرة اسمها « المندرة » يتمّ فيها استقبال الزائرين من الرجال « وللمندره » نافذة خشبية واسعة مشبكة أو نافذتان من النوع ذاته تطلّان على الفناء . كما يمتد قسم من الدور من الباب وحتّى الجهة المقابلة للغرفة مشكّلاً « الدُّرقعة » التي تكون أدنى بستة أو سبعة إنشات من باقي الأقسام وتُرصف دُرقعة المندرة في المنازل الفسيحة الأنيقة بالرخام



نافورة ماء

الأبيض والأسود وبقطع صغيرة من الآجر الأحمر المصقول منزْلة في أشكال معقّدة رفيعة الذوق . وفي وسط الدرقعة نافورة ماء هي « الفِسْقيّة » جُعلت في حوض صغير ضحل مرصوف بالحجارة ملوّنة من الرخام مثلاً كما الأرضية المرصوفة المحيطة به .

نتوقف عند النافورة التي يتم تصريف الماء المنبجس منها بواسطة أنبوب من الحوض . ويقع في نهاية الدّرقعة في مواجهة الباب رفّ من الرخام أو من الحجارة العادية يبلغ ارتفاعه نحو أربعة أقدام يُعرف « بالصُفَّة » يرتكز على قنطرتين أو أكثر أو على قنطرة واحدة تُرتّب تحتها الأواني ذات الاستعمال اليومي كأواني التّعطير والحوض والزّق المخصصة للإغتسال قبل تناول الطعام أو بعده إضافة إلى الوضوء تحضّراً للصلاة ؛ كذلك تُجعل زِقاق الماء وفناجين القهوة فوق «الصُّفّة». تكون قناطر «الصُّفّة» في المنازل الفخمة مكسوّة بطبقة من الرخام والآجر تماماً كحوض النافورة الممثّلة في رسم سابق . ويغطّى الجدار فوقها والذي يرتفع نحو أربع أقدام أو أكثر بطبقة رخامية مشابهة ـ بألواح عامودية عريضة في جزء منه وبألواح صغيرة في جزئه الآخر كما الدُّرقعة



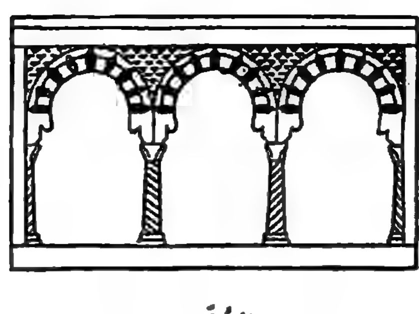
بلاط الدّرقعة

وأمّا القسم المرتفع البارز من أرضيّة الحجرة فيعرف «بالليوان» (والاسم تحريف لكلمــة «إيــوان» التي تعنــي المكــان النــاتــىء المخصّص لـلجلوس عـليــه كمــا تعني «البلاط»). وينـزع كلّ امرىء حذاءه عنـد الدّرقعـة قبل جلوسـه على الليوان[1] . والليوان مرصوف عادة بحجارة عادية ومغطى بحصير صيفاً وبسجادة

---

(١) يتبع المصريون هذه العادة في الدرجة الأولى تجنباً لمدّ حصيرة أو سجادة مخصصة أصلاً للصلاة .

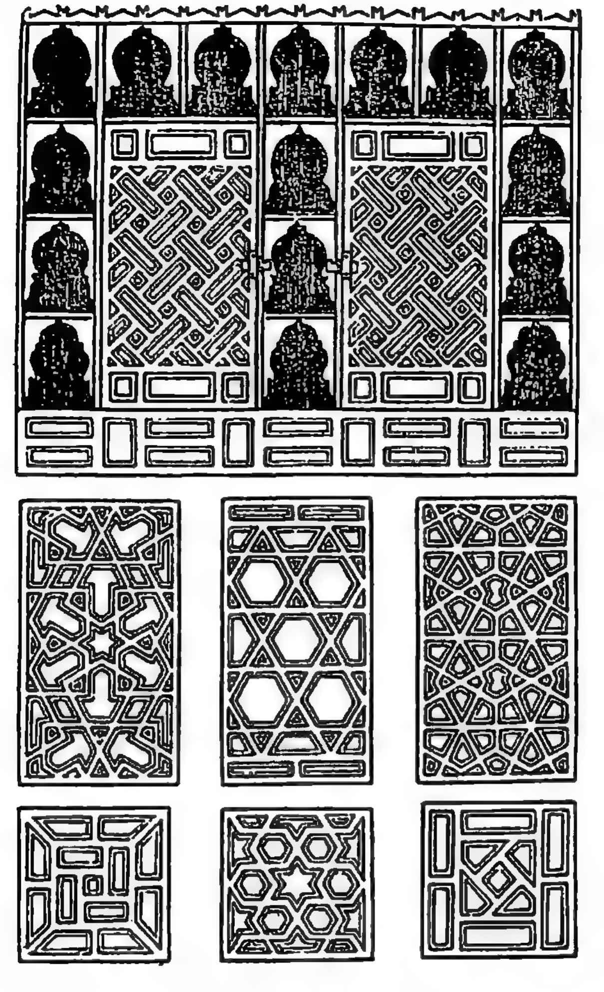
فوق الحصير شتاءاً   وتُلقى على جدرانـه الثلاثـة فرشـة ووسادات فتشَكِـل ما يُعرف « بالدّيوان »   وتوضع الفرشة البالغة ثلاث أقدام عرضاً وثـلاثة أو أربعـة



الصُفّه

إنشات سماكـة إمّا على الأرض أو على إطـار عـال   وتستنـد الوسـادات التي يضاهي طولها عرض الفرشة عادة وارتفاعها نصف هذا المقياس إلى الجدار وتُحشَى الفرشات والوسادات بالقطن وتغطّى بقماش الخام المطبوع أو بقماش آخـر غـالي الثمن . وتكـون الجـدران مجصّصـة ومبيّضـة بمـاء الكلس   وفي الجدران بصورة عامة خزانتان أو ثلاث مسطّحة ، تتألّف أبوابها من ألواح صغيرة جدّاً بسبب حرارة المناخ وجفافه اللذين يجعلان الخشب يلتوي ويتقلص كما لو كان موضوعاً في فرن

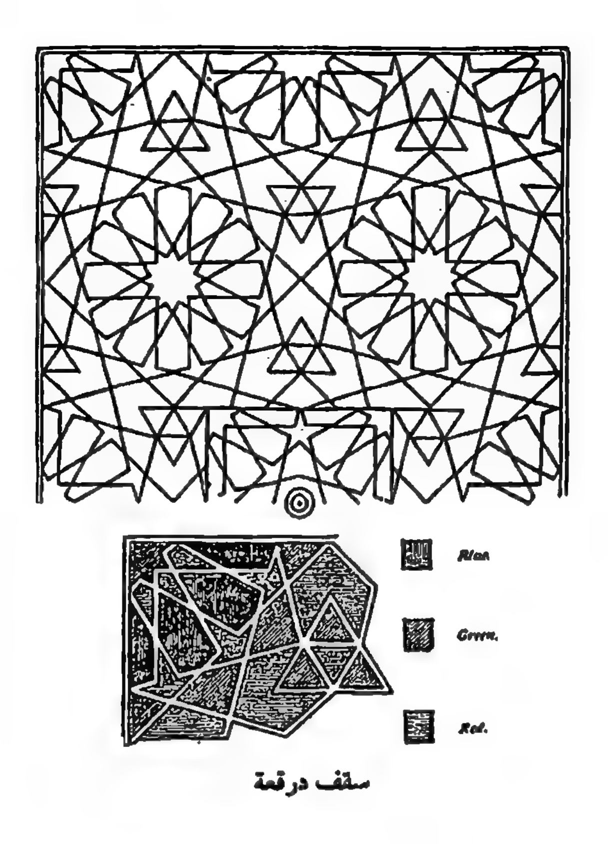
ولهذا السبب بالذات تبنى أبواب الحجرات بالطريقة نفسها ونلاحظ تنوعاً كبيراً وبراعة ظاهرة في طريقة تركيب هذه الألواح الصغيـرة وكيفيّة تـرتيبها كمـا يـظهر ذلـك في النماذج المعـروضة في الكتـاب   وسقـف الليوان خشبي ذات دعائم منقوشة يبلغ ارتفاعهـا نحو القـدم ؛ وهو مـطلي جزئيـاً وملبّـس بالـذهب أحياناً   ويتم عادة تزيين الجزء من السقف الواقع فوق الدّرقعة في منـزل فخم بشكل أنيق وغني   فبدلاً من الدعائم تُثبّت الألواح الخشبية الرقيقة بمسامير فوق الألواح الخشبية السميكة ، مشكّلة بذلك نماذج متشابكة بشكل يثير الغرابة مع أنّها منتظمة انتظاماً تامـاً وذات مستوى تـزييني زخـرفي رفيـع . وأتوقف هنـا عند



نماذج لأشكال خشبية

وصف الجزء النصفي لأحد السقوف ، وهو مزيّن أيضاً وإن ليس بطريقة متشابكة معقدة. تُطلى الألواح الخشبية الرقيقة باللون الأصفر أو الذهبي، وأمّا الفسحات فبالأخضر والأحمر والأزرق(*). فالألوان في المثل الذي أوردته ـ كما هو ظاهر في الرسم ـ هي نفسها وإن على مساحة أكبر ، إلاّ في المربّع وسط السقف حيث

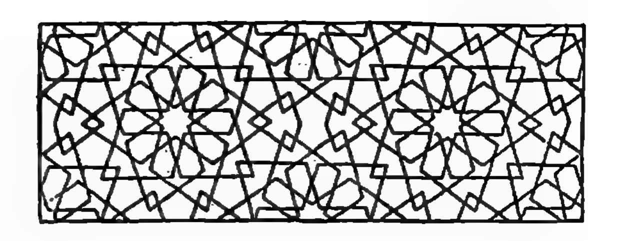
(*) (انظر نبوءة إرميا ، ٢٢/١٤)



سقف درقعة

الألـواح الخشبية سـوداء الألوان وتقـع فـوق أرضيـة صفـراء   وتتـدلّى ثـريّـا من وسط هذا المربع غالب الأحيان ـ والنماذج المماثلة كثيرة ـ وتكون الألوان موزعة تـوزيعاً واحـداً فيما بينهـا ، بيد أن السقـوف لا تكون مـطلية أحيـاناً في بعض المنازل . ويزيِّن عادة سقف النافذة الناتئة بالـطريقة عينهـا ، ويتّضح ذلـك في الرسم التالي   ويكفي تزيين الأجزاء التي لا ترتسم واضحة للنـاظر إليهـا بهذه الطريقة حتى يبرز الذوق الرفيع ، إذ أن التأمل مليّاً والتحديق بالخطوط العديدة المتشابكة المتداخلة في اتجاهات عديدة متعب للنظر

ولبعض المنـازل غرفـة أخرى هي « المَقْعَـد » تستخدم كـالمندرة تمـامـاً. وتمتـاز هذه الغـرفة بـواجهتها المفتـوحة وبقنـطرتيها الاثنتين أو أكثـر وبـدرابـزون منخفض العلو ، إضـافـةً إلى مُـخْـتـلى مـربّـع في الـدور الأرضـي يُعــرف

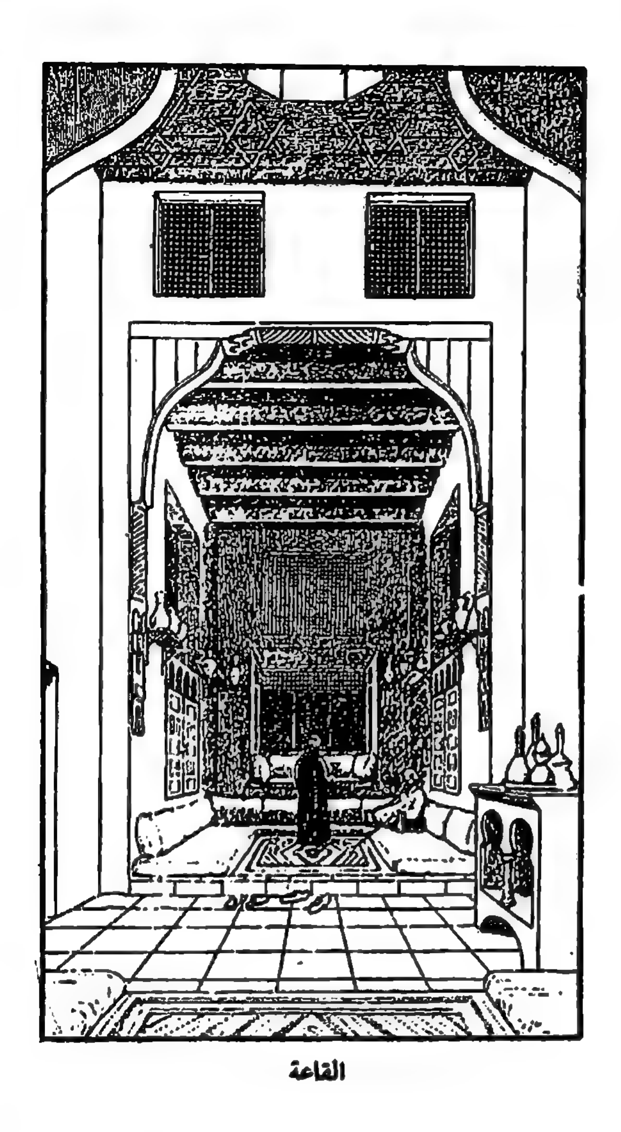


سقف نافذة ناتئة

« بالتخطبوش » واجهته مفتوحة مع دعامة للجدار فوقه ؛ وأرض التخطبوش عبارة عن ليوان مرصوف ؛ وهناك أريكة خشبية طويلة موازية لجدار واحد أو لجدارين أو لكل جدار من جدران الغرفة   وخلال فصل الصيف ، تُرشّ باحة الفناء بالماء غالباً ممّا يجعل حجرات الغرفة المحيطة أو حجرات الطابق الأرضي على الأقل باردة منعشة ؛ وتكون الغرف كلّها مفروشة بالطريقة عينها كما الغرفة الموصوفة آنفاً

ومن بين الحجرات العلوية أو حجرات الحريم ، حجرة معروفة «بالقَاعَة» تتميّز بعلوها المرتفع   وللقاعة ليوانان يقعان عند جانبي الشخص الداخل إليها ؛ ويكون أحد الليوانين أكبر من الآخر ويمثل الجزء المشرَّف أكثر في الغرفة . ويرتفع قسم من سقف القاعة ، وبالتحديد القسم الواقع فوق الدّرقعة والقاسم الليوانين قليلاً عن باقي السقف ؛ وله في وسطه مَنْوَر صغير يُعرف « بالمِمْرَق » مشبكي الجوانب كما النوافذ الموصوفة آنفاً ، إضافة إلى قبّة عند الجوانب .

وليس للدرقعة نافورة ماء ، ولكنّها مرصوفة بطريقة مشابهة للمندره   كما تشابه القاعة المندره « بالصُّفة » الأنيقة والخزانات المصنوعة من الألواح الخشبية   وفي هذه الحجرات كما في بعض الحجرات الأخرى إلى جانب هذه الخزانات رفّ خشبي ضيق يمتد على طول جدارين من الجدران الثلاثة أو كلّ واحد منها ، يحد الليوان ويرتفع سبع أقدام أو أكثر عن الأرض ، فوق



القاعة

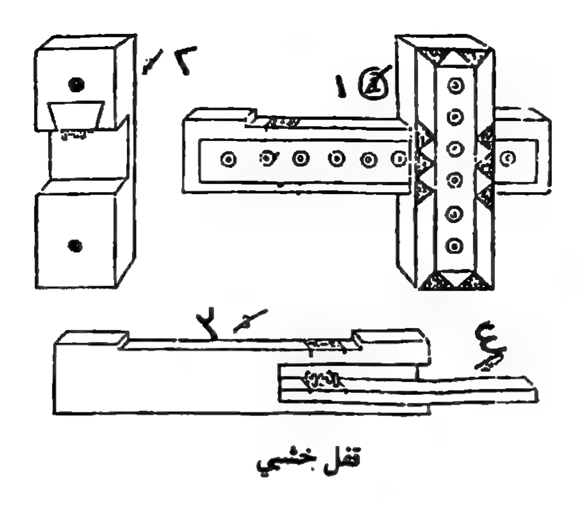
الخزانات مباشرة ويكون معترَضاً في بعض أجزائه ـ على الأقل في الأجزاء حيث النوافذ تـرتَّب فوق الـرف الأواني الصينيّة وهي للزينـة أكثر منهـا للاستعمـال العام والحجرات كلّها عالية ، ترتفع نحو أربـع عشرة قـدماً أو أكثـر ولكنّ القـاعة هي أوسـع الغرف وأعـلاها ، وقـد تشكل بهـواً كبيـراً فخمـاً في أحـد المنازل

نجـد في العديـد من الغرف العلويـة في منازل الميسـورين إلى جـانب

النوافذ الشعرية ، نوافذ أخرى من الزجاج الملّون ، تمثّل باقات ورد وطواويس ورسوماً مبهرجة زاهية أو مجرّد نماذج زخرفية تترك أثراً طيّباً في النفس. وترتفع هذه النوافذ الزجاجية الملونة والمسمّاة « قَمَرِيّات » (م قَمَرِيّة) من قدم ونصف القدم إلى قدمين ونصف القدم ، وأمّا عرضها فبين قدم وقدمين . وتتركّز هذه النوافذ عامة في موازاة الجزء العلوي للنافذة المشبكية الناتئة في صف واحد ، أو هي مرتبة فوق هذا النوع من النوافذ ضمن مجموعة فتشكّل بذلك مربّعاً واسعاً ، أو في الأجزاء العلوية للجدران ، وتكون عادة مفردة أو مزدوجة جنباً إلى جنب وتتألف هذه القمريّات من قطع زجاجية صغيرة مختلفة الألوان ، في كوادر من الجص الرقيق ومحدّدة في إطار خشبي ونشاهد فوق الجدران المجصّصة لبعض الحجرات رسومات بسيطة تمثل قبر الرسول ﷺ(*) أو أزهاراً وجملة أمور أخرى اختطتها ريشة رسامين مسلمين مصريين ليس عندهم أدنى إلمام بقواعد الرسم المنظوري ، فتشوّه بذلك ريشتهم ما يحاولون جاهدين تزيينه ولا تخلو الجدران أحياناً من نقوش عربية وحِكَم مدوّنة على الورق بأسلوب منمّق مزخرف ومحدّدة في أطر زجاجية. وما من غرف مفروشة كغرف النوم إذ يُطوى السرير أوقات النهار ويركّن في إحدى الزوايا أو في حجرة صغيرة مجاورة تُعرَف «بالخزنة» تستخدَم في فصل الشتاء مكاناً للنوم، بينما ينام الكثيرون في فصل الصيف فوق سطح المنزل . وأمّا الأثاث الكامل للغرفة فيقتصر على حصير أو سجادة تُفرش فوق المكان المرتفع في أرضية الغرفة الحجرية إضافةً إلى الديوان وبالنسبة إلى وجبات الطعام ، تركّز صينية مستديرة فوق كرسي صغير منخفض تتحملق الجماعة حولها على الأرض . ويخلو المكان من أي موقد[1] ، ويكفي إشعال الفحم في طبق الإحماء (كناية

(*) توخّينا وضع إشارة (ﷺ) في كلامنا عن الرسول ولم ترد مثل هذه الإشارة أصلاً في كتاب LANE الذي أكتفى بكلمتي Mohamad أو Prophet وذلك لعادة العرب عامة الصلاة على نبيِّهم عند ذكر اسمه وكذلك أردفنا إشارة (رضي الله عنه) في حديثنا عن الخلفاء الراشدين

(١) باستثناء المطبخ حيث توجد العديد من الأواني الصغيرة الحجم المخصصة لإشعال =



قفل خشبي

عن طبق معدني تحته مصباح أو مسخّن) ـ عند الضرورة ـ حتى ينبعث الدفء في أرجاء الغرفة كما أنّ للعديد من المنازل عند سطوحها سقيفة منحدرة من ألواح خشبية تُعرف « بالمَلْقف » موجّهة نحو الشمال أو الشمال الغربي حتى تبلغ « الفِسْحَة » أو « الفِسَحَة » (عبارة عن حجرة مفتوحة) حيث النّسمات الباردة التي تهبّ من تلك الأماكن .

ولكلّ باب قفل خشبي يُعرَف « بالدَبّة »، ويظهر الرسم أعلاه طريقة عمله فالرقم ١ في الرسم البياني يمثل القفل من واجهة أمامية مع مزلاجه وهو مسحوب وأمّا الأرقام ٢ ـ ٣ ـ ٤ فهي صُوَر خلفية للأجزاء المنفصلة للمفتاح . وتُدقّ مسامير حديدية صغيرة (أربعة ، خمسة أو أكثر) في الثقوب المخصّصة لها في المزلاج حالما يتم إدخال هذا المزلاج في ثقب عضادة الباب . وكذلك للمفتاح مسامير صغيرة الحجم تناسب الثقوب حيث تثبّت لفتح القفل . وعندما يتم دفع المسامير ، يمكن بالتالي ردّ المزلاج إلى الوراء ويبلغ

= النار والقائمة على مقعد من الآجر . لذا ، فنادراً ما يشبّ حريق في القاهرة لجملة أسباب مختلفة (منها عادات هذا الشعب البدائية المتّسمة بالاعتدال وغياب الستارات في الحجرات إضافة إلى طريقة بناء الطوابق من الخشب المغطى بطبقة من الحجارة) ، فإذا وقع حادث من هذا النوع ، تكون النتيجة المتوقعة إندلاع حريق هائل . وتستخدم كمية كبيرة من ألواح الخشب الجاف تماماً في بناء المنازل

طول القفل الخشبي لباب مطلّ على الشـارع نحو أربعـة عشر إنشـاً ، وتتراوح أقفال أبواب الحجرات والخـزانـات بين سبعة وتسعة إنشات ؛ وكذلك فـأقفال بوّابات الأحياء والمباني العامة من النوع ذاته ، وهي ترتفع نحو قدمين أو أكثر ؛ علماً أنّه لا يصعب انتقاء مثل هذا القفل

تبـرز في تصميم كلّ منـزل تقريبـاً حاجـة ملحّة ورغبـة مطلقـة للإنتـظام والانتسـاق . يختلف عـامـة ارتفـاع الحجـرات ، ممّـا يجبـر المـرء على صعـود درجــة أو أكثر ونــزولهـا للعبــور من غـرفــة إلى أخـرى مجـاورة والهـدف الأول من تصميم المنـزل بهذا الشكـل ، هو الاحتفـاظ بطابع الخصـوصية فيـه قدر المستطاع خاصّة القسـم الذي تقطنه النساء وعدم قيام أية نافذة ، فلا يـطلّ المنزل على حجرات منزل آخر . وأمّا الهدف الثاني الذي تنبغي مـراعاتـه في تصميم منزل لشخص رفيع المقام واسع الثراء ، فهو تشييد « باب سري » يمكن من خلاله لساكن المنزل التسلّل عبره إذا داهمه خطر ما أو جرت محاولة لاغتياله أو جعل هذا الباب مدخـلاً ومخرجـاً لخليلة أو حبيبة . ومن الشـائع أيضـاً بناء « مخبأ » في مكان ما في المنزل لإخفـاء المال والثـروة . كما يشيّـد في غرفـة الحريم في المنازل الكبيـرة الواسعـة حمّام يتمّ تسخينـه على غرار الحمّـامات العامة

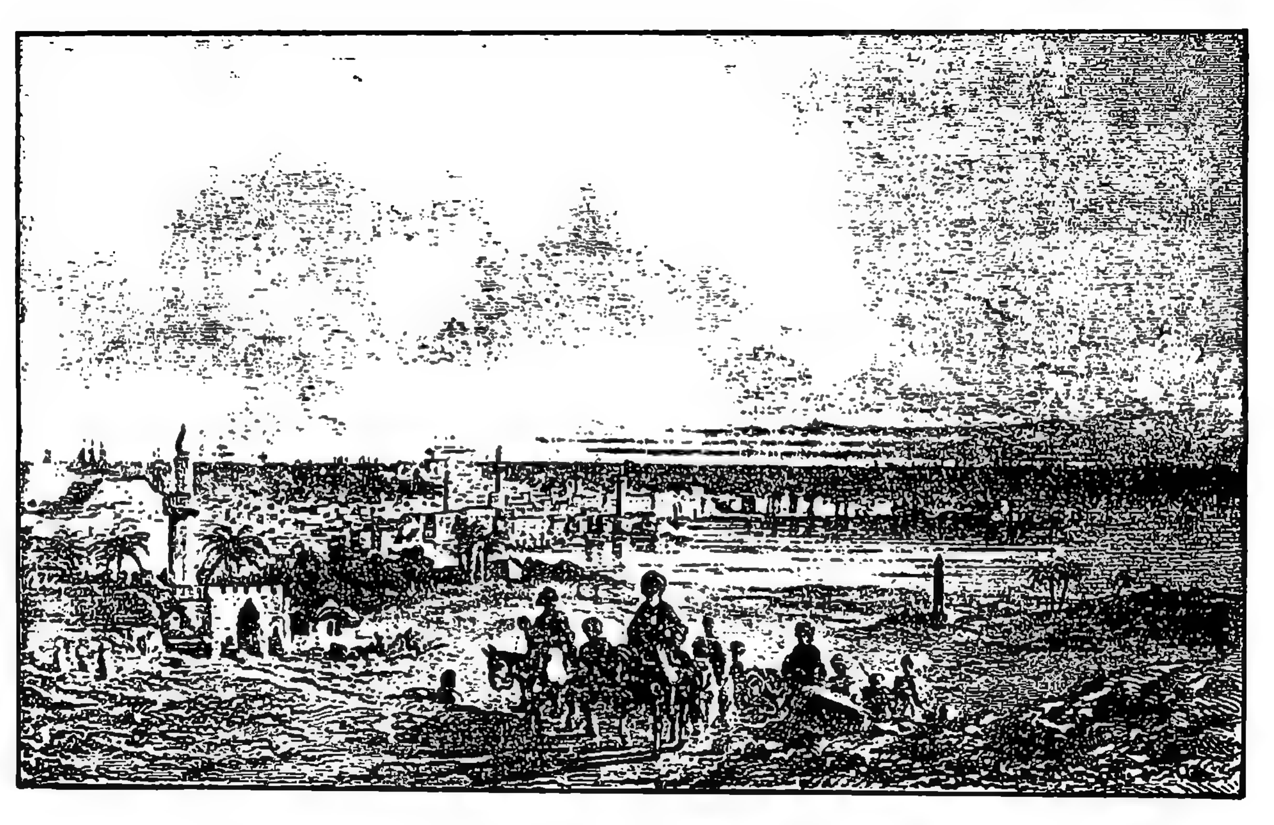
جرى مؤخراً اعتماد نمط آخر في بناء منازل الأغنياء المترفين ـ ولا تختلف منازل هؤلاء كثيراً عن تلك التي سبق وصفها خلا النـوافذ التي تكـون زجاجيـة ومتقاربة من بعضها البعض. تتميز كلّ نافذة في حجرة الحريم من الخارج بـإطار إنزلاقي شعري خشبي يغطي الجزء السفلي من النافذة . ولكنّ النوافذ الزجاجية المتعدّدة لا تتناسب والجو الحار .

عندما تحتل المتاجر الجزء الأرضي في المباني في شارع مـا (كما هي الحال عامةً في شوارع العاصمة الكبيرة وفي بعض الشوارع الفـرعية) ، يقسم البنـاء الفوقي إلى مسـاكن منفصلة ويُعرف « بـالـرَّبعـة » تكـون هـذه المسـاكن منفصلة عن بعضهـا البعض وعن المتاجـر الـواقعـة في القسم السفلي ، وهي

متروكة للعائلات التي لا تستطيع تحمّل دفع إيجار منزل بكامله . يضمّ كل مسكن في الربعة غرفة أو غرفتي جلوس أو نوم إضافة إلى مطبخ ومرحاض . ونادراً ما يكون لهذه المساكن مدخل منفصل عن الشارع ، فمدخلها واحد وكذلك سلالمها مشتركة تربط عادة مجموعة مساكن مختلفة . وتشبه هذه المساكن مساكن المنازل الخاصة الموصوفة آنفاً في الكتاب ، ولا يتم تأجيرها مفروشة أبداً ونادرة هي الحالات التي يُسمح خلالها لرجل لا زوجة أو جارية عنده أن يقطن تلك المساكن أو أن يقيم في منزل خاص (إلاّ إن كان لديه أهل أو أقرباء يسكن معهم) ، فتراه مجبراً على السكن في « الوكَالة » ، وهي عبارة عن مبنى مخصّص بشكل رئيسي لاستقبال التجار وبضائعهم ؛ ولم يعد يشمل هذا الحظر الفرنجة اليوم .

يقلّ في مصر عدد المنازل الفسيحة أو الفخمة إلاّ تلك الموجودة في العاصمة وبعض المدن الأخرى . ومنازل الطبقات الدّنيا خاصة طبقة الفلاحين غاية في البساطة ؛ فمعظمها مبني من اللّبن (الآجر) العادي المجبول مع الطين ، وبعضها الآخر مجرد أكواخ وتشتمل هذه المساكن بمعظمها على حجرتين أو أكثر رغم أنّ عدداً قليلاً منها يرتفع طابقين . وتحوي إحدى هذه الحجرات في منازل فلاّحي الدّلتا فرناً في النقطة الأبعد من المدخل يحتل عرض الغرفة كلّها ، وهو يشبه مقعداً عريضاً ويكون عالياً بمستوى الصدر . والفرن مصنوع من الآجر والطين ، وسقفه مقوّس من الداخل ومسطّح في أعلاه . ينام ساكنو المنزل الذين نادراً ما يتوفّر لهم غطاء يقيهم برد الشتاء فوق سطح الفرن بعد أن يكونوا قد أشعلوا النار داخله ، وقد ينعم الزوج وزوجته وحدهما بهذه الرفاهية بينما يفترش أطفالهما الأرض . وللغُرف فتحات صغيرة في أعلى الجدران تسمح بدخول الهواء والضوء ، وتكون مزودة أحياناً بشعرية خشبية

يتألف السقف من أغصان النّخل وأوراقه أو من سويقات الدّخن تُجعل فوق أرمات جذع النخل وتغطّى بمزيج من الطين والقش . ويشمل الأثاث



الإسكندرية

حصيراً أو حصيرتين للنوم وبعض الأواني الخزفية وطاحونة يدوية لطحن الذرة . ويعمد الفلاحون في العديد من القرى إلى بناء كوّات واسعة للحمام إمّا مربعة الشكل بحيث تُجَوَّف الجدران نحو الداخل قليلاً (كالعديد من المباني المصرية القديمة) ، أو تتخذ شكل كتلة مخروطية من السكر . وتُبنى هذه الكوّات فوق سطوح الأكواخ من مزيج اللِّبن الخام والفخار والطين . تقوم معظم قرى مصر فوق أكداس النفايات وترتفع أقداماً قليلة فوق مستوى الفيضان وتحيط بهذه القرى أشجار النخل أو تقع بعض هذه الأشجار في جوارها وتتألف أكوام النفايات خاصة من بقايا الأكواخ السابقة وهي ترتفع لتصل إلى مستوى السهول الغرينية وقاع النهر .

إنّه لمن شبه المستحيل في بلد لا تُسجّل فيه نسبة الولادات والوفيات تحديد نسبة عدد السكان بدقة. ولقد جرى منذ سنوات إحصاء عدد السكان إستناداً إلى عدد المنازل الموجودة في مصر والافتراض أن كل منزل في العاصمة يضمّ حوالي ثمانية أشخاص ، بينما لا تزيد هذه النسبة عن أربعة أشخاص في المناطق الريفية ويقارب برأيي هذا التقدير الواقع ، بيد أن ملاحظاتي الشخصية واستطلاعاتي تدفعانني إلى الاعتقاد بأن منازل المدن كالإسكندرية وبولاق ومصر العتيقة تضم خمسة أشخاص على الأقل ، بينما منطقة الرشيد شبه مقفرة بالمقارنة مع مدينة « دمياط » المكتظة بالسكان حيث نحصي حوالي ستة أشخاص في المنزل الواحد ، أو أنّ تقديراتنا بعيدة عن تعدادية السكان المعروفة عامة . كما أن إضافة شخص أو شخصين إلى كل منزل في المدن التي ذكرناها آنفاً لا يحدث فرقاً هاماً في تقدير العدد الإجمالي لسكان مصر الذي فاق ـ وفقاً لطريقة التقدير هذه ـ الـ ٢,٥٠٠,٠٠٠؛ ولكن هذه النسبة تقلّصت اليوم كثيراً. فمن أصل الـ ٢,٥٠٠,٠٠٠ ألف نسمة، نجد ١,٢٠٠,٠٠٠ هم من الرجال وثلث هذا الرقم (أي ٤٠٠ ألف) صالح لأداء الخدمة العسكرية وقد عمد باشا مصر الحالي إلى تطويع ٢٠٠ ألف منهم على الأقل (أي نصف النسبة من الذكور الصالحين للخدمة العسكرية) في قوات جيوشه النظامية وفي البحرية . كما أن النقص الحاصل في السكان والذي سببه إبعاد

العديد من الأزواج عن زوجاتهن أو منعهم من الزواج خلال فترة عشر سنوات ، لا بدّ أن يكون تجاوز الـ ٣٠٠ ألف وهذا يعني أن عدد السكان الحالي أقل من مليوني نسمة. وفي ما يلي تعداد يشمل الطبقات المختلفة التي تشكل سكان مصر :

ـ المسلمون المصريون (الفلاحون وسكان المدن)	١,٧٥٠,٠٠٠
ـ المسيحيون المصريون (الأقباط)	١٥٠,٠٠٠
ـ العثمانيون أو الأتراك	١٠,٠٠٠
ـ السوريون	٥,٠٠٠
ـ اليونانيون	٥,٠٠٠
ـ الأرمن	٢,٠٠٠
ـ اليهود	٥,٠٠٠

وأمّا ما تبقى من السكان (خاصة العرب وعرب شمالي أفريقيا والنوبيين والعبيد الزنوج والمماليك [أو العبيد البيض] ، والجاريات البيض والفرنجة) والذين تقارب نسبتهم الـ ٧٠ ألفاً ، فتجدر الإشارة إلى أن هذه الأرقام المذكورة غير دقيقة وقابلة للتغيير . ولا يدخل عرب الصحاري المجاورة في تعداد سكان مصر .

ذكرتُ سابقاً أنّ عدد سكان القاهرة يوازي الـ ٢٤٠,٠٠٠ نسمة تقريباً ولا ينبغي علينا احتساب عدد سكان القاهرة من خلال الحشود التي نلتقيها في الشوارع الرئيسية والأسواق ، فقليلون هم الأشخاص الذين نلتقيهم في الشوارع الفرعية والأحياء. كما لا يُفترض بنا إجراء التعداد السكاني من خلال اتساع المدينة وضواحيها، إذ أنّ العديد من الأماكن الشاغرة يقع داخل الأسوار والجدران ، ومنها البرك التي تظهر خلال موسم الفيضان « كبركة الأزبكية » و «بركة الفيل»، كما تحتل الجنائن والعديد من المدافن (القَرافات) وباحات المنازل والجوامع مساحات مهمة . وأمّا سكان العاصمة ، فنحو ١٩٠ ألفاً منهم من المسلمين المصريين ، وحوالي ١٠ آلاف من الأقباط وتتراوح نسبة اليهود بين ٣ و ٤ آلاف ؛ وأمّا باقي السكان فهم من الغرباء من بلدان مختلفة .

كـان عدد سكـان مصر زمن الفـراعنة يتـراوح بين ستّة وسبعـة ملايين . ويكفي انتاج الأرض في الوقت الحالي ـ في حال عـدم تصديـره إلى الخارج ـ لسدّ حاجات السكان البـالغ عـددهم نحو أربعـة ملايين نسمـة وفي حال تم استغلال كلّ الأراضي القابلة للزراعة ، فالإنتاج يكفي لسـدّ حاجـات نحو ثمـانية ملايين نسمة. ولكن ذلك يشكّل الرقم الأقصى الذي يمكن لمصر احتواؤه خلال سنوات الفياضانات الغزيرة وفي اعتقادي وصل عدد سكان مصـر قديمـاً أيّام شهدت فيها الزراعة حالة ازدهار كبيرة إلى الـرقم الذي سبق وذكـرته وأغلب الظن أن هذا الرقم لا يتجاوز نصف عدد السكان زمن البَـطَالِسة إلاّ بنسبـة طفيفة وأيضاً فـي الفترات التي تلت عندما كان يتم تصدير كمية كبيرة من الذرة سنوياً ويتفق هـذا الاحتساب لعـدد السكان مـع ما يقـوله « ديـودوروس سيكولـوس » Diodorus Siculus بأنّ عدد سكـان مصر زمن الملوك القُـدامى كان يبلغ نحـو سبعة ملايين نسمة ، ولا يقل هذا الرقم عن ثـلاثة مـلايين زمن « سيكولـوس » نفسه

وكم أن البون شاسع بين مصر اليوم ومصر التي يمكن أن تكون مع نسبة سكـان بالكـاد تتجاوز ربـع العدد الـذي يمكن أن تحويـه وكم يكـون التغييـر كبيـراً في ظل حكـومة مـدركة واعيـة وأمير يحثّ شعبـه على الاهتمام بـزراعة الحقول والسهول ـ بدلاً من إقفار الفلاحين بحرمانهم من أراضيهم ومن احتكاره لمنتجات الأرض وخيراتها ، وتسخيره نخبة شعبه لتحقيق أطماعه في الغزوات الخارجية واحتكار قسم كبير في محاولات فاشلة لمنافسة الصناعات الأوروبية ـ بغية الإرتقاء بمصر ـ كما خصّتهـا به الـطبيعة ـ إلى مصـاف الدول الـزراعية فإنتاج مصر للقطن وحده يفيض حاجة الصناعة الأجنبية إلى المواد الأولية وحاجة السكان إلى منتجات البلدان الأخرى الطبيعية .

وإحداث التغيير المرغوب به أمر سهل اليوم بعد أن بات الباشا في موقع جديد يخوّله اكتساب شهرة ذائعة مشرّفة برعايته فنون السلام أكثـر من مكاسب غزواته ـ مهما عظم شأنها ـ والتي جعلت صيته يطير في الناس . وما من متمعّن في تاريخ مصر الحديث ، خاصة الفترة الممتدة من الحملة الفرنسية ووصـول

محمد علي إلى منصب الخديوية يمكنه أن يشكّك لحظة واحدة في قدرات هذا الأخير ومواهبه في الحكم . ولنأمل أن تسخّر هذه المواهب في الاتجاه الصحيح ولكن إحداث التغييرات يحتاج ـ كما يؤكد محمد علي نفسه ـ إلى متسّع من الوقت .

الفصل الأول

المميزات الشخصية للمصريين المسلمين وأزياؤهم التقليدية

شكّل المصريون من أصل عربي لقرون طويلة سكّان مصر ، فغيّروا في لغتها وقوانينها وعاداتها العامة وجعلوا من عاصمتها مَركزاً رئيسياً للثقافة العربية والفنون . وأخصّص القسم الأكبر من هذا الكتاب لوصف شعب مصر خاصة الطبقتين المتوسطة والغنية في العاصمة المصرية و « مَصر » (أو القاهرة) هي بأتفاق الآراء أولى المدائن العربية في عصرنا . فعادات سكانها وتقاليدهم مثيرة للإهتمام ، فهي تمازج للعادات والتقاليد السائدة عامةً في مدن شبه الجزيرة العربية ومنطقة شمالي أفريقيا بكاملها وسوريا وتركيا بدرجة كبيرة . وما من مكان أفضل من مصر لاكتساب معرفة شاملة لأكثر الطبقات تحضّراً بين العرب .

يتبيّن لنا من الإحصاءات المذكورة في مقدمة الكتاب أنّ المسلمين المصريين (أو المصريين العرب) يؤلفون نحو أربعة أخماس سكان العاصمة (الذين يقارب عددهم ٢٤٠ ألفاً) ، وسبعة أثمان سكان مصر بكاملها

يتحدّر المصريون المسلمون من قبائل وعائلات عربية متعددة سكنت مصر في فترات مختلفة خاصة بعد فتح عمرو أوّل حاكم عربي لهذه البلاد . لكنّ التزاوج بين الأقباط وبين المهتدين إلى الإسلام وتغيّر نمط الحياة من نرحال وتجوال إلى إستقرار وتحوّل المصريين إلى ساكني مدن أو مزارعين ، أحدث تغييراً كبيراً في طبعائهم الشخصية ميّزهم تمييزاً واضحاً عن سُكان الجزيرة العربية . لذا، لا يمكن اعتبارهم في مرتبة أدنى من الأصالة عن سكّان،

الجزيرة العربية نفسها الذين شاعت بينهم عادة استرقاء النساء الحبشيات بدلاً من اقترانهم بنساء بلادهم أو جعلهنّ إلى جانب زوجاتهم العربيات (وتلك عادة شائعة في أوساط الأغنياء) ، فيشابهون والحال هذه أهل الحبشة وأهل البداوة أو عرب الصحراء مشابهة كبيرة . تجدر الملاحظة إلى أنّ عبارة « عـربي » تستخدم اليوم للإشارة إلى المناطق الناطقة باللغة العربية للدّلالة على البدو بصورة جماعية. كما تستخدم عبارة «عُربان» في الحديث عن قبيلة ما أو عن مجموعة صغيرة من الناس، وأمّا الفرد الواحد منهم فيُعرف «بالبدوي» . ونشير إلى أنّ التمايز بين القبائل في العاصمة وفي مدن مصر الأخرى بات شبه معدوم ، بينما يتجلّى واضحاً في أوساط الفلاحين الذين احتفظوا بالعديد من عادات البداوة يعرّف سكان القاهرة المسلمون أنفسهم «بالمَصْريين» و «أولاد مصر» (أو « أهل مصر ») و « أولاد البلد » ، ومفرد هذه العبارات : « مصري » و « ابن البلد » . وأكثر العبارات الثلاث شيوعاً في القاهرة هي عبارة : « ابن البلد »

أمّا أهل الأرياف فيُعرَفون بالفُلاحين . ويخلع الأتراك هذه التسمية على المصريين عامة إجحافاً فيعنون بها « السّاذجين » أو « المهرّجين » ، كما يصمونهم بصورة غير لائقة بـ « أهل فرعون » أو بـ « شعب فرعون »

يبلغ طول المصريين عامّة حوالي الخمس أقدام وثمانية إنشات أو تسعة إنشات ، وأمّا أطفالهم الذين هم مادون التاسعة و العاشرة فأوصالهم هزيلة متباعده وبطونهم منتفخة ، لكنّ شكلهم يأخذ بالتحسن كلّما كبروا ونموا ولما يبلغون أشدّهم ترتسم معالمهم في تناسق ، فترى رجالهم أقوياء شديدي البنية ونساءهم حسناوات ممتلئات الأجسام ، وكلاهما في اعتدال البدن دون وكس أو شطط. ولم أصادف أبداً بينهم أشخاصاً سمينين اللّهمّ إلاّ القليلين في العاصمة وفي مناطق أخرى بسبب حياة الخمول والكسل التي يحيونها . تكون سحنة الأشخاص القاطنين في القاهرة وبعض المناطق الريفية الشمالية والذين لا يتعرضون لأشعة الشمس كثيراً ضارية إلى الصفرة وبشرتهم صافية ناعمة الملمس ، أمّا باقي السكان فبشرتهم داكنة قاسية ملامحها ؛ وتكون بشرة سكان

مصر الوسطى صفراء أكثر بعكس سكان المناطق الريفية الجنوبية الذين تكون بشرتهم سمراء تصبح داكنة في منطقة النوبة حيث الحرارة الأكثر ارتفاعاً . والرجل المصري المسلم بيضاوي الوجه ، ذو جبين معتدل نادراً ما يكون مرتفعاً مع بروزه عامة ، وعينين سوداوين غارقتين يلتمع فيهما بريق ساطع وأنف مستقيم مفلطح وفم مرسوم مع شفتين ممتلئتين تكشفان عن أسنان جميلة ولحية سوداء جعدة خفيفة . قليلون هم الأشخاص الذين ألتقيتهم من هذا العرق وكانت عيونهم رمادية ـ أو بالأحرى الأشخاص الذين من المفترض انتماؤهم إلى هذا العرق ؛ فأنا شخصياً أميل إلى الإعتقاد أنّ هؤلاء يتحدّرون من نسل نساء عربيات ورجال أتراك أو غرباء . وقد اعتاد الفلاحون بفعل تعرّضهم المستمر لأشعة الشمس إغلاق عيونهم نصفياً ، وهذه ميزة من ميزات البدو ، والملاحظ أنّ الكثيرين من المصريين يعانون من العمى في عين واحدة أو في العينين معاً يحلق المصري عادة ذقنه في الجزء من خدّه الواقع فوق فكه الأسفل وكذلك يحلق جزءاً بسيطاً أدنى شفته السفلى فيترك الشعيرات تنمو في الوسط تحتها . وهو بدلاً من حلق هذه الأجزاء ، يعمل على اقتلاع الشعر منها ، كما يقوم بحلق جزء من اللحية تحت الذقن مباشرة ؛ ونادرون هم الرجال المصريون الذين يحلقون ما بقي من لحاهم بينما يتركون شواربهم تنبت[1] فهم يطلقون للحاهم العنان فتتدلّى تحت الذقن شبراً (كما كانت العادة المتبعة أيام الرسول ﷺ) ، ولا يسمحون لشواربهم بالإستطالة فهي تزعجهم في مأكلهم ومشربهم ولا تنتشر بين الرجال المصريين عادة صبغ اللحية ، لأنّ اللحية الشائبة أكثر هيبة وإجلالاً يحلق المصريون ما بقي من شعرهم ويتركون خصلة صغيرة أعلى الرأس تُعرف « بالشُوشَة » . وترجع هذه العادة (الكلية الإنتشار بينهم تقريباً) ـ كما قيل لي ـ إلى خوف المسلمين من الوقوع بين أيدي

---

(١) قليلون هم الخدم وغيرهم الذين يحلقون لحاهم . إذ يعير الشرقيون لحاهم اهتماماً بالغاً وآحتراماً مهيباً ؛ فتراهم يقسمون بها ؛ وكذلك فكل من يرتكب عملاً مؤذياً يلحق العار بلحيته .

الكافرين فيذبحوهم ؛ إذ يعمد الكافر إلى قطع رأس ضحيّته ، فلّما لا يجد شعراً يمسك به الرأس ، يلجأ إلى يده النجسة لحمل الرأس ، فقد لا تكون اللحية طويلة بما فيه الكفاية يعرف المصريون عادات أخرى تجنباً للنجاسة لا حاجة لنا للتحدث عنها ويوشم العديد من الطبقات الدّنيا أيديهم وصدورهم بعلامات زرقاء ، وأحياناً يوشمون أيديهم وصدورهم كما النساء

يعتمد المصري المنتمي إلى الطبقتين المتوسطة أو الغنية في لباسه أوّلاً على سروال تحتاني طويل من القطن أو الكتّان يلفه في وسطه بواسطة حبل مبروم أو حزام مطرّزة أطرافه بخيوط حريرية ملونة ، ويغيب هذا السروال تحت الرداء الخارجي فيصل إلى دون مستوى الركبة قليلاً بيد أنّ العديد من العرب لا يرتدون السراويل الطويلة لأنّ الرّسول ﷺ حرّم ارتداءها يلي السروال القميص ذات الأكمام الواسعة والقميص من الكتّان الفضفاض المفتوح أو هو من القطن أو من الموسلين أو الحرير أو مزيج من الحرير والقطن المقلّم ، ويكون أبيض اللون بكامله يرتدي معظم المصريين خلال فصل الشتاء « الصُدِيرة » وهي كناية عن سترة من القماش أو من القطن أو الحرير المقلّم الملوّن لا أكمام لها ويلجأون فوق القميص والصّديرة أو فوق القميص وحده إلى سترة طويلة من القطن والحرير المقلم تُعرف « بالقَفْطان » أو « القُفْطان » يصل إلى مستوى الركبتين وتكون أكمامه طويلة تتجاوز أطراف الأصابع قليلاً وهو يُقسم في جزء منه فوق الرسغ أو وسط الساعد قليلاً ، فيمكن لمرتدي القفطان كشف يده أو إخفائها بالكم عند الضرورة ، إذ درج المصري على إخفاء يديه في حضور شخص رفيع المقام ويشدّ القفطان بحزام عبارة عن شال ملوّن أو ثوب طويل من الموسلين الأبيض المزيّن .

وأمّا الرداء الخارجي العادي فعبارة عن رداء طويل مختلفة ألوانه (يطلق عليه الأتراك إسم « الجُبَّة » ويسميّه المصريون « جِبَّه ») ، لا تصل أكمامه إلى مستوى الرّسغ تماماً ويرتدي بعضهم « البِنيش » وهو رداء من القماش أكمامه كأكمام القفطان وإن أكثر وسعاً



رجال من الطبقتين المتوسطة والغنية

« والبنيش » لباس المناسبات يرتديه المصريون فوق الرداء الخارجي ، بيد أن العديد يرتدونه عوضاً عن « الجِبّه » . وهناك رداء آخر يُعرَف « بالفَرَجِيّه » يشبه البنيش . وأكمام « الفرجيّه » طويلة ولكنها غير مشقوقه ، وهي حكرٌ على رجال الفكر والتعليم . ويتدثر المصري أيام الطقس البارد « بعباية » سوداء فضفاضة من الصوف ، يلّف رأسه بها أحياناً

يغطي العديد من المصريين رؤوسهم وأكتافهم شتاءاً بقماش من

الموسلين أو بشال آخر (كقماش العمامة) وتتألف العَمْرة (أو الـرأسية) من قلنسوة من القطن ملتصقة بالرأس يمكن تغييرها ثمّ يضعون الطربوش عبـارة عن قبعة حمراء من القماش على قياس الرأس تماماً ذات شرّابة حريرية داكنـة في أعلاها ؛ وشاع مؤخراً استعمال قماش من الموسلين الأبيض مطبَّع عامة أو شال من الكاشمير يُلفّ لفّاً حول الطربوش. ولا يرتدي المصري شـال الكاشميـر إلاّ في الطقس البارد . وقد يعمد بعضهم إلى ارتداء طربوشين أو أكثر الـواحد فوق الآخر ؛ وأمّا الشريف (وهو من سلالة الرسول ﷺ) فيعتمر عمامة خضراء وله وحده حقّ هذا الإمتياز . كذلك وحده الشريف بين سائر المصـريين يتدثّـر برداء أخضر برّاق . والجوارب غير شائـع استعمالهـا ، لكن بعض المصريـين يـرتدون جـوارب قـطنيـة أو صـوفيـة في الـطقس البـارد . والحـذاء من الجلد المراكشي السميك مستدقّ الرأس معقوف عند الأصابع وينتعل بعضهم حذاءاً داخليـاً من الجلد المراكشي الأصفـر الناعم يكـون أخمصه من اللون نفسـه ، وينزعون حذاءهم الخارجي قبل أن تطأ أقدامهم سجادة أو حصيـراً ويحتفظون بحـذائهم الداخلي ؛ ولهـذا السبب يكون الحـذاء الخارجي مقلوبـاً عند عقب القدم

يضع المصري في خنصر يده خاتماً منقوشاً (خـاتم شعارات) من الفضـة عادة يثبت فيه حجـر العقيق الأحمر أو أي نـوع من الأحجار الكـريمة الأخـرى ويحضر عليه إسم واضع الخاتم . ويصحب الإسم عبـارة « عَبْدُه » (أي عبـد الله) وأحياناً كلمـات أخرى تعبّـر عن إيمان صـاحب الخاتم بـالله وقد حـرّم الرسول ﷺ لبس الذهب، لذا فنادراً ما يرتدي الرجال المسلمون خواتم ذهبية بعكس النسـاء اللواتي يقتنين الكثير من أدوات الـزينـة والتبـرّج (كـالخـواتم والأسـاور). ويستخدم هذا الخاتم لمهر الرسائـل والكتابـات الأخرى ، وهـو مُلزِم أكثر من أدوات الإمضاء الأخرى(*) وتستعمل لهذه الغاية كمية بسيطة من الحبر الذي

(*) تصديقاً لهذا الكلام ، فإنّ إعطاء الخاتم لشخص آخر ، أكبر دليل على الثقة الموضوعة فيه (انظر سفر التكوين ، ٤١/٤٢)

يمرَّر على أحد الأصابع ويُضغط به من ثمّ على الورق بعد أن يكون الشخص المستعمل الحبر قد لمس إصبعاً آخر بلسانه يرطّب به المكان المخصص للختم على الورق .

يمكن لكلّ شخص اقتناء مثل هذا الخاتم إن كانت حاله المادية تسمح له بذلك وإن كان مجرد خادم يتمنطق الناسخون المعتمدون ورجال الفكر وآخرين « بَدواية » فضية أو نحاسية ، هي عبارة عن صندوق صغير في داخله أوعية مخصصة للحبر وللأقلام(*) ويضع بعضهم بدلاً من هذا الصندوق أو علاوةً عليه ، سكيناً ذات غمد أو خنجر .

والبيبة (الغليون) رفيقة المصري أينما اتجه (إلاّ إذا توجّه إلى الجامع) يحملها له خادمه أحياناً رغم أن العادة الشائعة هي عدم تدخينه أثناء سيره أو امتطائه حصانه ويضع جزدان تبغه المحشو في صدره في قفطانه الواسع والمنثني في مقدمه ، إضافةً إلى منديل مشغول بخيوط حريرية ملونة ومنطوي بكل عناية لكنّ العديد من أبناء الطبقة المتوسطة الرّاغبين في تجنب مظاهر الغنى يخفون هذا الرداء برداء آخر طويل أسود من القطن مشابه لرداء أبناء الطبقات الدنيا

يتّسم زي أبناء الطبقات الدنيا بالبساطة الكبيرة. فهم يرتدون ـ إن لم ينتموا إلى الطبقات المدقعة ـ سروالاً تحتانياً ـ « العِري » ـ فوقه قميص فضفاض طويل أو عباءة من الكتان الأزرق أو القطن أو من الصوف البني ـ « الزعبوط » ـ مفتوح عند الرقبة حتّى الوسط تقريباً وذات أكمام واسعة. وقد يتزنّر بعض المصريين بحزام صوفي أبيض أو أحمر ويعتمرون عمامة مؤلفة من شال صوفي أبيض أو أحمر أو أصفر أو من القطن الخشن أو من الموسلين يُلف بها الطربوش فوق قبعة لبادية بنية اللون أو بيضاء . لكن بعضهم فقير جداً إلى درجة يكتفي معها باللبادة ، فلا يعتمر عمامة ولا يرتدي سروالاً أو ينتعل حذاءاً ، مكتفياً بالقميص الأزرق أو البني أو بأسمال رثة بالية بينما يرتدي بعضهم الآخر صُدِيرة تحت

(*) تلك عادة ترقى إلى عهد قديم (انظر نبوءة حَزْقِيال ، ٢/٩ ، ٣ ، ١١)

قميصه الأزرق ؛ وأمّا الخدم فيرتدون قميصاً أبيض وصديرة وقفطاناً أو جبّـة أو الإثنين معاً ويغطّون كلّ هذه الثياب بالقميص الأزرق تُرفع أكمام هذا القميص الفضفاضة بواسطة خيوط تلفّ الكتفين وتتقاطع من الخلف حيث تتعاقص في شكل عقدة   وهذا هو عامةً زي الخدم (خاصة سائسي الخيول) الذين يزدان بأشرطة قرمزية اللون أو هي من الحرير الأزرق الداكن   يعمد العديد من أبناء الطبقات الدنيا إلى ارتداء « العباية » التي عرّجتُ على وصفها آنفاً والتي تكون



رجال الطبقة الفقيرة

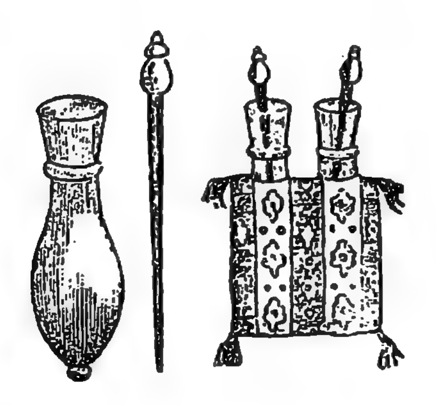
أكثر خشونة ومخططة في بعض الأحيان ـ بدلاً من اللون الأسود ـ بخطوط عريضة بنية وبيضاء أو زرقاء وبيضاء وإن نادراً   هناك نوع آخر من الدّثار فضفاض أكثر من العباية من الصوف الأسود أو الأزرق الداكن شائع الإستعمال يعرف « بالدِّفاية » . وأما الحذاء فمن الجلد المراكشي أو من جلد الماعز .

نجد في الكتاب نماذج مختلفة من العمامات ممثلة في بعض رسوماته والمسلمون متميزون عن الأقباط واليهود (إضافة إلى أتباع آخرين للسلطان العثماني من غير المسلمين) بألوان عماماتهم . فهؤلاء يعتمرون عمامات سوداء أو زرقاء أو رمادية أو بنية فاتحة ويرتدون أثواباً داكنة اللون . وعادة تمييز العائلات والسلالات من لون عمامات أبنائها وأزيائهم السائدة بين المسلمين العرب ترقى إلى عهد بعيد   فعندما أمر الخليفة الأموي « مروان » بقتل الإمام «إبراهيم بن محمد» الذي كان يطالب بالخلافة ، عمد العديد من أفراد عائلة العبّاس إلى الإتّشاح بالزي الأسود تعبيراً عن عميق حزنهم لمصير إمامهم ؛ ومنذ ذاك الوقت أضحى الزي الأسود والعمامة (ويكاد المسيحيون واليهود أتباع السلطان العثماني يتفردون بعادة آعتمار العمامة) ، الزي اا قليدي المميّز للخلفاء العباسيين ولقوّادهم . فلّما كان أحدهم يفقد الحظوة ، كان يُجبر على ارتداء الزي الأبيض اللون . وقد اعتمد النبي الكذّاب « المُقَنّع » الزي الأبيض لتمييز أتباعه عن العباسيين ، كما اتخذ الخلفاء الفاطميون في مصر (أو الخلفاء من سلالة فاطمة) وهم خصوم العباسيين الثوب الأبيض زياً رسمياً لهم . وكان الملك الأشرف « شعبان » سلطان مصر (وقد حكم مصر من عام ٧٦٤ هـ . إلى عام ٧٧٨ هـ . أي بين ١٣٦٢ م . و ١٣٧٦ م) أوّل من أمر « الأشراف » بتمييز أنفسهم عن غيرهم بالعمامة والدثار ذات اللون الأخضر . كما اعتمد بعض الدراويش من الطريقة الرفاعية وبعض المسلمين الآخرين العمامة الصوفية السوداء أو الزيتية الداكنة (شبه سوداء) المصنوعة من قماش الموسلين . وأمّا عمّامة الأقباط واليهود فهي من الموسلين الأسود أو الأزرق أو من الكتّان   وقليلة هي أشكال العمامات المستعملة في مصر اليوم ، فعمامات معظم الخدم نموذجية الشكل تقليدية . كذلك يُعتبر شكل العمامة الشائعة الإستخدام بين

أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية من التجار وسكّان المدن الأخرى والمدن الكبيرة غاية في التقليدية ولكن بدرجة أقل من تلك التي أتينا على ذكرها سابقاً . تعتبر العمامة التركية على رؤوس المصريين ذات شكل أنيق جميل ، وتمتاز العمامة السورية بوسعها وقد درج العلماء ورجال الدين ورجال الفكر ـ وما يزال بعضهم على عادته ـ على اعتمار العمامة التقليدية الواسعة المعروفة « بالمقْله » تفرض العمامة الإحترام والإجلال ، ويُخصّص لها في منازل الطبقة الميسورة الغنية كرسي ترتاح عليه ليلاً ويدخل هذا الكرسي في جهاز العروس ، تضع عليه رأسيّتها (وهي غطاء نسائي للرأس شائع الإستعمال) . ولا يُستعمل هذا الكرسي لغير هذا الغرض . وللدّلالة على مدى إجلال العمامة ، أسردُ وقائع هذه القصة التي رواها لي أحد أصدقائي ومفادها أنّ حماراً طرح ذات يوم عالماً في أحد شوارع العاصمة ، فوقعت مقلته وتدحرجت وبعدت مسافة لا بأس بها ، وإذ بأحد المارة يركض خلفها باكياً « إرفعوا تاج الإسلام ! » فيصرخ به العالم المسكين غاضباً حانقاً « إرفعوا شيخ الإسلام »

لابد من وصف سمات المرأة المصرية . فهي ابتداءاً من سن الرابعة عشر وحتى الثامنة عشر أو العشرين آية من الجمال في الجسم والأطراف وملامح معظم المصريات جذابة فاتنة ولكن سرعان ما تذوي فتنتهن ويخبو جمالهن عند اكتمال نموّهن ؛ إذ يفقد الصدر جماله فيستطيل ويتسطح بسبب طبيعة المناخ الباعثة على الإسترخاء ، بينما يحتفظ الوجه بسحره وجاذبيته فالزمن وإن لم يشوّه جمالهن باكراً ، فهو يجعل الكثيرات في سنيهنّ الأربعين قبيحات شنيعات وهنّ اللواتي كنّ في رَوْق شبابهنّ جذابات ساحرات . ترتسم الملامح الأنثوية في المرأة المصرية بين التاسعة والعاشرة من عمرها ، وهي تكتمل وتبلغ أعلى مرتبات الجمال بين الخامسة عشر والسادسة عشر ؛ وأمّا ما خصّ لون بشرتهن ، فنفس مميزات بشرة الرجل مع فارق وحيد وهو عدم خروجهن سافرات الوجه فلا تغدو بشرتهن داكنة كبشرة الرجال . وهنّ كالرجال بيضاويات الوجه عريضاته أحياناً وأمّا الكريمتان فسوداوان واسعتان لوزيتا الشكل عامّة

ذات أهداب طويلة جميلة وتعابير ساحرة رقيقة ، فلا يمكنك تصور لواحظ أجمل في صورتها . ويكاد سحر المآقي يحجب سمات المحيّا الأخرى (مهما بلغت هذه السمات من جمال) . وتعزّز جمال العيون عادة تعرفها نساء الطبقتين الغنية والمتوسطة وتألفها نساء الطبقة الفقيرة وهي تحديد طرف الجفون بمسحوق أسود يُعرَف « بالكُحل » . والكحل عبارة عن غسول للعين مزيج من الدخان الأسود الناتج عن إحراق « اللّبان » ـ نوع من الراتينج ذات رائحة عطرة ـ ونوع من البخور يُفضّل أستعماله ـ كما قيل لي ـ على أفضل أنواع البخور لأنّه رخيص الثمن وذات فائدة مماثلة . ـ يحضّر الكحل أيضاً من الدخان الأسود عن طريق إحراق قشور الجوز . يقتصر استخدام هذين النوعين من الكحل رغم فائدتهما الجمة للعيون على التبرج والتزين . وهناك أنواع عديدة منه تُستعمل لفوائدها الطبية ـ المفترضة والحقيقية ـ خاصة مسحوق الرصاص الذي يُضاف إليه الفلفل الطويل والسكاكر ورماد الترترة الفينيسية وأحياناً اللآلى المسحوقة . ويُقال إنّ الأنتميون استخدم في البداية لتحديد أطراف الجفون يوضع الكحل بواسطة مسبار خشبي أو عاجي أو فضي مستدق الطرف غير حاد . وقد يخضّل المسبار بماء الورد ثم يغمّس في المسحوق لرسم أطراف الجفون . وهو يُعرف « بالمِرْوَد » وأمّا وعاء الكحل الزجاجي « فبالمُكحُلة » .



نماذج لمكاحل ومراود

وتكحيل العيون وتزينتها عادة انتشرت بين الجنسين في مصر غابر

الأزمان ، ويتجلّى ذلك من خلال المنحوتات والنقوش في معابد مصر ومدافنها إضافةً إلى أواني الكحل ومسابره وحتّى بقايا الكحل التي عثر عليها في المدافن القديمة ، وأقتني شخصياً مكحلتين منها بيد أنّ طريقة رسم الكحل والتبرج به قديماً تختلف قليلاً عن طريق التكحل الحديثة ـ كما يُظهر ذلك الرسم المرفق . ومع ذلك فقد صادفت نساء متكحلات حسب الطريقة القديمة في ضواحي القاهرة ، وإن مرتين فحسب . وقد شاعت عادة التكحل بين نساء الإغريق واليهود قديماً(*). المعروف عن المرأة المصرية أن عيونها أحلى سمات وجهها. فالملامح وإن كانت متناسقة بمجملها فهي لا تضاهي العيون جمالاً وسحراً



عين وحاجب مكحلان

وكم سحرتني وجوه لرقة تعابيرها وقسماتها وتجسيدها روعة الجمال الأنثوي ، فتركت في نفسي بليغ الأثر لا أكاد أخال معه جمالاً (ولا أظنني مخطئاً) يوازي جمالهن في الأرض قاطبة فمن كانت لها جمال هاتين العينين ـ وهنّ كثيرات ـ فلا بد أن تتميز بمحيّا مليحة تقاسيمه إن كانت تقاسيم الوجه الأخرى متناسقة في اعتدال فالأنف مستقيم والصامغان ممتلئان أكثر من صامغَيْ الرجل وهما لا يشبهان شفاه الزنوج في شيء ؛ وأمّا الشعر فأسود لمّاع يلائم السحنة المعتدلة في لونها ، وهو في بعض الحالات خشن متموج ولكنّه ليس أبداً كثّاً جعداً

من عادات نساء الطبقتين الميسورة والمتوسطة وغيرهن من نساء الطبقة الفقيرة وشم أجزاء محدّدة من أيديهن وأقدامهن بأوراق شجرة الحنّاء التي تضفي لوناً أحمراً ضارباً إلى الصفرة أو لوناً برتقالياً داكناً ، ويكون الوشم جميلاً إلاّ في حالات نادرة وتكتفي بعضهن بتحنية أظافر أيديهن وأرجلهن ، بينما يمدّد بعضهنّ الآخر نقوش الحناء حتّى مفصل كلّ إصبع من أصابع اليد والقدم ، وتقوم أخريات بتخطيط مجموعة المفاصل الأخرى . وطرق وضع الحناء غريبة

(*) انظر سفر الملوك الرابع ، ٩/ ٣٠ ونبوءة حزقيال ، ٢٣/ ٤٠

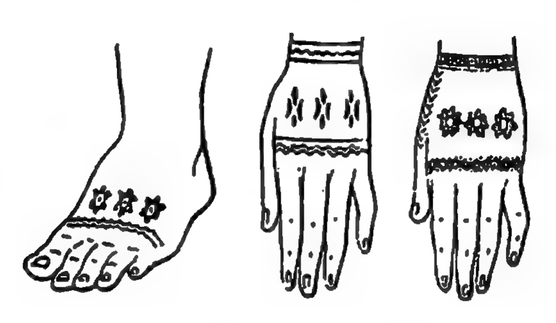
مبتكرة، لكنّ الطريقة المعروفة تقضي بتحنية أطراف الأصابع وجعلها بمستوى المفصل الأوّل وكامل باطن اليد وأخمص القدم إضافةً إلى طريقة التخطيط السابقة ـ وإن ليس دائماً ـ بموازاة مفاصل الأصابع الوسطى وأخرى مشابهة فوق مستوى أصابع القدم قليلاً. تحضّر الحناء بسحق كمية بسيطة منها ومزجها مع مقدار بسيط من الماء حتّى تصبح عجينة ، ثمّ يمدّد بعض من هذه العجينة في راحة اليد وفوقها بهدف تحنيتها ، وتكون الأصابع منثنية وأطرافها مغمّسة في العجينة الموجودة في باطن اليد ، ثمّ تُربط اليد جيّداً بقماش من الكتان وتبقى على هذا الشكل طوال الليل ؛ وطريقة التحنية نفسها تُطبّق على القدم لا يخبو لون الحنّاء إلاّ بعد أيام عديدة ، ويتمّ تجديده عادةً بعد أسبوعين أو ثلاثة . لا تقتصر عادة التحنية على مصر فحسب بل تنتشر في بلدان الشرق الأخرى التي يأتيها الحناء من ضفاف النيل. وتضفي الحناء على الأظافر لوناً براقاً يدوم أكثر من



فتاة موشومة

وضعه على الجلد . ويعتبر وضع الحناء على الأظافر وحدها أو على قسم كبير

من أصابع اليـد والقدم نـوعاً من التّجمـل والتّبرج فهي تجعـل لون اليـد أو القدم أكثر نعومة وزرقة. لكنّ العديد من النسـاء يعمدن إلى وشم أيـديهن بطريقـة تنافي الذوق، فيضعن بعد إزالة عجينة الحنّاء مباشرة عجينة أخرى هي مزيـج من الدّبق والدخان الأسـود المعروف إضـافةً إلى زيت بـزر الكتّان ، فيغيّـرن بذلـك لون الحناء الخفيف إلى لون الزيتون الأسود أو الضارب إلى السواد ، وغالباً ما نرى



يدان وقدم وشم كل منها

نساء مصر واشمات أظافرهن بهذا اللون أو واشمـات أصابعهن بـاللون الداكن نفسه من طرف الإصبع إلى المفصل الأول ، وباللون الأحمر من المفصل الأوّل إلى الثاني وباللون الداكن من المفصل الثاني إلى الثالث كما توشم راحة اليد بالطريقة ذاتها ، فيجعل تخطيط عريض داكن اللون في وسط اليد بينمـا توشم باقي اليد باللون الأحمر . وأمّا الإبهام فيكون داكناً من الـطرف وحتى المفصل الأوّل وأحمر اللون من المفصل الأول إلى الثـاني . وتعمـد بعض النسـاء إلى التحنية البسيطة ، فيحنّين أطراف أصابعهن وكامل راحة أيديهن بلون داكن

تسود بين نساء الطبقة الفقيرة في مدن مصر وقراها وكذلك بين نساء الطبقة نفسها في العاصمـة ـ وإن بدرجـة أقل ـ عـادة تشبه التحنيـة التي ذكرتهـا آنفاً ، تقضي بنقش رسوم يتعذّر محوها زرقاء أو ضاربة إلى الخضرة فوق الوجه أو فوق مقـدّم الذقن وظهـر اليد اليمنى وأحيـاناً فـوق اليد اليسـرى والـذراع اليمنى أو الذراعين معاً إضـافة إلى القـدمين ووسط الصدر والجبهة ، وأكثر أنـواع الوشم



نماذج لوشم الذقن

شيوعاً ظاهر في الرسم السابق تستخدم في الوشم عدّة أبر (سبع أبر عادةً) موثوقة بعضها ببعض لوخز الجلد في المكان المرغوب ، ثمّ يفرك فوقه بعض الدخان الأسود (من الخشب أو الزيت) ممزوجاً بحليب مأخوذ من ثدي المرأة . وبعد حوالي أسبوع وقبل براء الجلد ، تمدّد عجينة من أوراق الشمندر الأبيض أو البرسيم المسحوقة جيداً تضفي لوناً أزرق أو ضارباً إلى الخضرة وللحصول على النتيجة عينها بطريقة أسهل ، يفرك بعض الصبغ الأزرق (اللون النيلي) في الثقوب بدلاً من الدخان الأسود . وتقوم النساء الغجريات بهذه العملية في سن الخامسة أو السادسة وتُعرف « بالدّك » تشم معظم نساء المناطق العليا في الصعيد ذوات البشرة الداكنة شفاههنّ فقط فينقلب لونها الطبيعي إلى لون ضارب إلى الزرقة لا يروق للغريب مطلقاً .

ومن ميزات المرأة المصرية الواجب ذكرها طريقة مشيتها ونقلها الحمولة الثقيلة على ظهرها وهذه ميزة ملفتة في أوساط الفلاحات ترجع بدرجة كبيرة إلى عادة حملهنّ الوعاء الفخاري الثقيل وغيرها من الأثقال فوق رؤوسهن .

ولباس المرأة المنتمية إلى الطبقتين المتوسطة الغنية جميل وأنيق . فقميصهن فضفاض على غرار قميص الرجل ولكنه أقصر فلا يصل إلى مستوى الركبتين . وهو مصنوع عادة من نفس قميص الرجل أو من قماش الكريب الملوّن وأحياناً الأسود ، ويلف منطقة الأرداف سروال واسع جداً (« الشنتيان ») من الحرير المقلّم الملوّن والقطن أو من الموسلين الأبيض أو المطبّع والمشغول يُجعل تحت القميص مع « الدِّكة » . تصل أطراف الشنتيان السّفلي إلى تحت مستوى الركبة مباشرة مع شرائط متدلية؛ والشنتيان طويل يبلغ مستوى القدم أو يكاد يلامس الأرض عندما يتم ربطه بهذه الطريقة ترتدي المرأة فوق القميص والشنتيان ثوباً طويلاً يُعرَف « باليَلَك » من نفس قماش

الشنتيان و « اليلك » مشابه لقفطان الرجل ، بيد أنّه أكثر لصوقاً بالجسد والذراعين . والأكمام أطول أيضاً وهي مصنوعة بشكل يسمح بتزيرها من الأمام من منطقة الصدر إلى أدنى الحزام بقليل بدلاً من ثنيها ، كما أنّها مفتوحة عند جانبَيْ الأرداف نزولاً واليلك مصمّم بطريقة يكشف فيها نصف الصدر ما عدا القميص ، لكنّ العديد من النساء يجعلنه فضفاضاً عند هذا الجزء ؛ وحسب الزي المتعارف عليه ، ينبغي أن يكون الثوب طويلاً فيصل إلى الأرض أو أطول بإنشين أو ثلاثة . كما يستبدلن اليلك أحياناً بسترة قصيرة أدنى الخصر قليلاً ، تتميز عن اليلك بغياب الجزء السفلي منها كذلك تتمنطق النساء بشال مربع أو بمنديل مطرّز مطوي يُلَف حول الخصر ، بينما يتدلّى طرفاه المطويان من الخلف . ترتدي المرأة فوق اليلك « جبّه » من القماش أو من الحرير أو من المخمل مطرّزة بخيوط ذهبية أو حريرية ملونة ، وهي تختلف عن جبّة الرجل بعدم وسعها خاصة في جزئها الأمامي ، ويكون طولها من طول اليلك كما ترتدي المرأة « السُّلْطه » وهي سترة من القماش أو من المخمل مطرّزة كالجبّة، تتألف راسيّتها من « طاقيّة و « طربوش » إضافة إلى منديل مربّع ـ « الفَروديه » ـ من الموسلين المطبوع أو الملّون أو من الكريب ؛ وتلفّ الفروديه الرأس لفّاً فتشكّل « الربّطة » كما تستعمل النساء مندلين أو أكثر لربط عماماتهن المسطّحة والمرتفعة فتختلف بذلك اختلافاً كبيراً عن عمامة الرجال ؛ كذلك يلف الرأسية قرص وأدوات زينة تتبعه من زينة الرأس أيضاً « الطرّحه » وهي عبارة عن قماش طويل من الموسلين الأبيض المطرّز عند كل جانب بخيوط حريرية ملونّه وذهبية أو من الكريب الملون المزين بخيط ذهبي وحبات الترتر (اللّمع) . تغطي الطرحة الرأس وترتّد إلى خلفه فتكاد تلامس الأرض وهي تشكّل حجاب الرأس . وأمّا حجاب الوجه ، فيكون الشعر فيه خلا الجبهة والصدغين معقوصاً جدائل وضفائر ، تتراوح بين إحدى عشرة وخمس عشرة جدلة وضفيرة وَتَرِيَة العدد دائماً تنسدل الضفائر خلف الرأس وتزدان كل ضفيرة بثلاثة خيوط حريرية سوداء اضافة إلى حلى ذهبية صغيرة معلّقة بها تُعرَف « بالصَفا » يكون الشعر قصيراً عند الجبهة بينما تنسدل خصلتان كثيفتان عند



إمرأة في زيها الخاص

جانبي الوجه؛ تعقص هذه الخُصلات في حُلَيْقات وتُجدل أحياناً. وقليلات هنّ النساء المصريات اللواتي يلبسن الجوارب بينما ترتدي الكثيرات بينهن « المَزّ » (أو الحذاء الداخلي) المصنوع من الجلد المرّاكشي الأصفر أو الأحمر والمطرّز بالذهب أحياناً . كما ينتعلن فوق « المزّ » « البابوج » كلّما وطأت أقدامهن أقسام الأرض العارية ؛ والبابوج مستدق الرأس من الجلد المراكشي الأصفر ؛ وقد يستعملن القباقيب الخشبية المرتفعة أربعة أو خمسة إنشات عن



سيدة تضع القرص والصفا (اليد موشومة جزئياً بالحناء)

الأرض والمزينة بعرق اللؤلؤ أو بالفضة تستعمل النساء والرجال القباقيب في الحمّامات ونادراً ما تنتعلها النساء في منازلهن . وقد ينتعلها بعضهن إمّا لمنع أثوابهن من ملامسة الأرض وإمّا ليظهرن مشقاً في قدّهن



نماذج لقباقيب وأحذية

تُعرف ملابس التجوال (عند الركوب أو المشي) « بالتَّزْيرة » . ففي كلّ مرة تغادر المرأة منزلها ترتـدي إضافـة إلى ما أوردتُ وصفـه آنفاً « التُّـوب » أو « السَّبله » وهو رداء واسع فضفاض ، يضاهي وسع أكمامه تقريبـاً طول الـرداء كاملاً وهو مصنوع من الحرير ، ألوانه زهرية ورديّة أو بنفسجيّة يلي « التوب » « البُرقع » المتمثّل بشقة طويلة من الموسلين الأبيض تغـطي الوجـه برمّتـه عدا العينين وتكاد تلامس القدمين . يُعَلَّق البرقع من جهته العليا بشريط ضيق يمـرّ فوق الجبهة ويعلّق كما الحال بـالنسبة إلى طـرفي الحجاب العلويـين بعصـابة مشدودة حول الرأس .



لباس النساء عند خروجهن

تغـطي المرأة نفسهـا بعد ذلـك بملاءة هي « الحَبَـرَة » المؤلّفة ـ بـالنسبة للمـرأة المتزوجـة ـ من قطعَتي قمـاش من الحريـر الأسود اللّمـاع ، يبلغ طول القماش الواحد ذراع وثلاث ياردات . وتُخاط قطعتا القماش عند الحـواشي أو قريباً منها (حسب طول المرأة) ، ثم تأتي الدُّرزة (اللّفقة) بشكل أفقي حسب طريقة وضع الحبرة ، وبعدها يُلفّ الرأس بشريط ضيق أسود يُخاط داخل الجزء العلوي على بعـد ستة إنشـات من الحافـة . ويظهـر التالي طـريقة وضـع هذا الغـطاء . وأمّـا العـازبـات من النســاء فيضعن حبَـرة من الحــريـر الأبيض أو شالاً تلجأ بعض نساء الطبقة المتوسطة اللواتي لا تسمح لهن أحوالهن المادية



نماذج أغطية سوداء مزيّنة

بشراء حبَرة إلى وضع « الإزار » بدلاً منه . والإزار من الخام الأبيض يشبه الحبَرة شكلاً وحجماً وتضعه النساء بـالطريقـة نفسها ؛ وينتعلن « الخُفّ » وهـو حذاء قصير من الجلد المراكشي الأصفر قبل انتعال البابوج .

تعمد بعض النساء اللواتي لا تسمح لهنّ ظروفهن بتقليـد سيداتهنّ كـأن

يستأجرن حماراً لنقلهن إلى ارتداء هذا الزي المخصّص أساساً لنساء الطبقة الغنية اللواتي نادراً ما يتجوّلن مشياً على أقدامهن بين العامة ، علماً أنّ هذا اللباس يعيق النساء في مشيتهن . لا يجدر بنا التقليل من قيمة هذا الزي فنعتبره حاجباً لجاذبية لابسته أو كياستها أو مخفياً لزينتها، فهو منتقص بحد ذاته للحسن. ولا يغربنّ عن بالنا أنّ الحجاب فشل من جهة في تحقيق الغرض الذي رُسم له أصلاً ، فهو يبرز العينين الجميلتين غالب الأحيان ليزيد من روعة جمالهما بإخفائه قسمات الوجه الأخرى التي نادراً ما تضاهي المقلتين سحراً ، فلا يرى الغريب عن هذا البلد أدنى عيب في الوجه وراء المُلاءة بل يخال صاحبته حسنة المعارف . وقصة الحجاب غاية في القِدَم(*) ، ولا تُظهر نقوش المصريين القدماء ورسومهم أن نساءهم عهدته .

يقتصر زي الطائفة الكبرى من نساء الطبقة الفقيرة غير المدقعة على سروال تحتاني (مشابه لشنتيان سيداتهن من القطن الأبيض العادي أو من الكتان) وعلى قميص أزرق من القطن أو الكتان (غير فضفاض كسروال الرجال) وبرقع من الكريب الأسود الخشن إضافة إلى طرحة زرقاء داكنة من الموسلين أو الكتان . تعمد بعضهن إلى « التوب » الكتاني فوق القميص المشابه لتوب سيداتهن . تكون أكمام هذا « التوب » مرفوعة فوق الرأس فلا تزعج صاحبته وقد تغنيها عن الطرحة . إلى جانب هذا الزي ، ترتدي العديد من النساء اللواتي لا ينتمين إلى الطبقة الأكثر فقراً نسيجاً مربّع النقش يشبه الحبَرة مؤلَّف من قطعتين من القطن مموج في شكل مربّعات زرقاء وبيضاء في شكل خطوط متقاطعة موشحة باللون كالحبَرة أو الطرحة تزيّن المرأة الجزء العلوي من برقعها الأسود بلآلىء مزيفة وبقطع ذهبية صغيرة وحلى أخرى مسطّحة صغيرة من المعدن نفسه (البَرق) ؛ وأحياناً تزدان الملاية بخرزات مرجانية تتدلّى منها قطعة ذهبية أو بقطع فضية صغيرة لا قيمة لها؛ وقد يعلّق بجوانب الملاية زوجاً من الشرابات أو «العُيون» فضية أو نحاسية اللون. ويُلفّ

(*) انظر سفر التكوين ٢٤/٦٥ ونبوءة أشعيا ٣/٢٣



نساء وأطفال من الطبقة الفقيرة

الرأس « بعَصْبه » ، عبارة عن منديل حريري أسود مربع حافته حمراء وصفراء ، وتُلَّف العصبة لفّتين وتعقد من الخلف . وقد تستبدلها النساء بالطربوش والفروديّة ، علماً أن قليلات هنّ نساء الطبقة الفقيرة اللواتي يبدّلن عصباتهن .

يعتبر الحذاء المصنوع من الجلد المراكشي الأحمر والمعقوف طرفه من أفضل أنواع الأحذية التي تنتعلها نساء الطبقة الفقيرة . يشيع ارتداء البُرقع والأحذية بين نساء القاهرة خاصة وكذلك بين نساء الدّلتا ؛ وأمّا نساء الصعيد فنادراً ما يضعن

البرقع على وجوههن بينما يألفن عادة انتعال الأحذية . فبدلاً من البرقع تغـطي النساء عند الضرورة وجوههن بجزء من الطّرحة ، فيخفين بذلك سمات المحيا ويتركن عيناً واحدة مكشوفة. والملفت للنظر عدم تغطيـة العديـد من نساء الـطبقة



إمرأة مدثَّرة بملايتها

الفقيرة وجوههن على الإطلاق . يقتصر الزي الشائع في معظم أرجـاء القاهـرة على القميص الأزرق أو التوب والطرحة . وتتدثّر النساء في المناطق الجنوبيـة للصعيد خاصة فوق « أقحميم » « بالهُلاَليّـة » وهي من القماش الصـوفي البني الغامق ، تلفه المرأة حول جسدها وتجمع أطرافه العلوية حول كل طرف ، كما

تستعمل قطعة من القماش ذاته بشكل طرحه . يغطي هذا الرداء الباهت اللون والجميل في آن معاً تماماً الجسد كما الرداء الأزرق الذي تُنقِّله نساء مصر حتى مستوى الشفتين . تتبرج معظم نساء الطبقة الفقيرة بمجموعة واسعة من الحلى الكاذبة كالأقراط والعقود والأساور وأحياناً الحلق الذي يوضع في الأنف .



إمرأة من مناطق الصعيد الجنوبية

تعتقد نساء مصر أنّه واجب عليهن تغطية القسمين العلوي والخلفي من رؤوسهن أكثر من وجوههن ، ولزام عليهن أكثر إخفاء الوجه أكثر من أي جزء آخر من أجسامهن . ولقد التقيت في هذه البلاد نساءاً لا تغطي أجسادهن سوى ثياب رثة ، كما صادفت مراراً فتيات في مراحل بلوغهن الأولى وأخريات أكبر ما حيلتهن سوى قطعة قماش ضيقة من الأسمال تستر أردافهن .

الفصل الثاني

الطفولة والتربية الأولى

يسترشد المسلمون في معاملة أولادهم بتعاليم رسولهم ﷺ أوّلاً وبتوجيهات معلميهم الدينيين ثانية . وأولى الواجبات الملقاة على عاتق الأهل عند ولادة طفلهم هي تشنيف أذنه اليمنى «بالأذان»، وهذه مهمة الرجل؛ وقد يعمد بعض الأشخاص إلى ذكر « الإقامة » (وهي تشبه الآذان) في أذنه اليُسرى . وهدف هذه الأعمال حماية الطفل من تأثير الجن (م جُنّي) . ويعرف المصريون عادة أخرى في المنظور نفسه تكمن في ترديد جملة « باسم الرسول وابن عمه علي »

عرفت مصر والبلدان الإسلامية الأخرى عادة استشارة المنجّمين مسبقاً في تسمية الطفل والاحتكام إلى خيارهم. لكن هذه العادة آخذة بالزوال ولا تلتزم بها إلّا قلة من المصريين . يختار الأب اسم طفله بنفسه فلا يركن في خياره إلى أحد ؛ وأمّا الأم فتختار اسم ابنتها عادة . وغالباً ما يُسمَّى الأبناء تيمّناً بأحد أسماء الرسول ﷺ (محمد، أحمد أو مصطفى) أو نسبة إلى أحد أفراد البيت (علي، حسن، حسين. . .) أو صحابته (رضي الله عنهم) (عمر، عثمان، عمرو. . .) أو اقتداءاً بأسماء بعض الأنبياء والمبشرين قديماً (إبراهيم، إسحاق، إسماعيل، يعقوب، موسى، داوود، سليمان. . .) أو يعطون ابنهم اسماً يدل على طاعة الله (عبد الله، عبد الرحمن، عبد القادر. . .). وتسمى الفتيات اقتداءاً بأسماء أمهات المؤمنين زوجات الرسول ﷺ أو أهل بيته (خديجة ، عائشة ، آمنة ، فاطمة ، زينب) أو يتميّزن باسم يدل

على أنهنّ مبارَكات محبوبات غاليات ، فتطالعنا اسماء « محبوبة » و « مبروكة » و « نفيسة » ، أو يستقين اسماءهن من أسماء الزهور أو غيرها من الأشياء الممتعة المحبّبة .

لمّا لم يكن ضرورياً عامة انتقال اسماء الآباء إلى أبنائهم ، فلا بد من كنية تميّز الأفراد أو أكثر كأن تقول : « أبو علي » ، وهي كنية تشير إلى رابطة القُربى والنسب أو « ابن أحمد » للدلالة على مرتبة مشرفة ، و « نور الدين » و « الطويل » إشارة إلى لقب يُطلق على أحدهم ترفعاً ، إضافة إلى التسميات المتعلقة باسم البلد أو بمكان الولادة أو بالأهل أو العائلة أو نوع التجارة والمهنة كأن تقول : « الرشيدي » (نسبة إلى مدينة رشيد) و « الصبّاغ » (نسبة إلى مهنة الصباغة) والتاجر (نسبة إلى التجارة) وأما النوع الثاني من الكنيات وتلك المتعلّقة بأسماء البلدان فمتوارثة غالب الأحيان لتكرّس اسماء عائلات . ويأتي ترتيب الكنية عامة اليوم بعد اسم المرء الخاص .

يشبه لباس أطفال الطبقة المتوسطة والغنيّة لباس آبائهم ويكون أقل نظافة وترتيباً منه . فأبناء الفقراء يكتفون بقميص وقلنسوة ضيقة (درقه) أو يعتمرون طربوشاً أو يُتركون عراة تماماً ـ كما هي الحال في معظم القرى ـ حتى سن السادسة أو السابعة تقريباً إلّا إذا أنعم الله عليهم بخرقة بالية تغطي أجسادهم العارية ؛ وإذا خُصّت الفتيات الصغيرات بخرقة غير فضفاضة لستر رؤوسهن وأجسادهن ، فهنّ يفضّلن لف رؤوسهن بهذه الخرقة ، فيسدلنها جزئياً كأنّها حجاب ـ على وجوههن ويرحن يغدون متغندرات متمايلات بينما تكون مفاتن أجسادهن الغضة مكشوفة سافرة وتحذو السيدات الصغيرات ذوات الأربع أو الخمس سنوات حذو والداتهن فيغطين وجوههن بالغطاء الأبيض . ولمّا يبلغ الولد السنتين أو الثلاث سنوات من عمره أو قبل هذه السن أحياناً ، يُحلق له شعر رأسه فلا تُترك منه سوى خصلة صغيرة في أعلى رأسه وأخرى تتدلى فوق جبهته ، ولا يحلق شعر البنات الصغيرات إلّا نادراً[1] تحمل الأم أو المربية

---

(١) يعمد معظم الفلاحين عامة بمناسبة حلقهم شعر طفل من أطفالهم إلى ذبح معزاة عند قبر =

الطفل من الجنسين فوق أحد كتفيها فلا تحضنه بذراعيها ، ويتربع طفلها أحياناً لفترة وجيزة على أحد ردفيها

نلحظ دلالاً مبالغاً في معاملة نساء الطبقة المترفة لأطفالهن بينما لا يحظى أطفال الفقراء بهذا الغنج والإنتباه فتضن عليهم الحياة إلاّ من قليل الحاجات الملّحة الطبيعية . كذلك تحرّم الشريعة الإسلامية على المرأة فطم رضيعها قبل بلوغه السنتين من عمره إلاّ توافقاً مع الزوج ، فلا يتم الفطام إلاّ بعد بلوغ الرضيع سنته الأولى أو شهوره الثمانية عشر . ومن عادة الأغنياء إبقاء طفلهم أو طفلتهم في الحريم أو في المنزل على الأقل . وهكذا ينشأ الطفل ربيب الحريم سجيناً متخثناً حتّى يُعهد به إلى معلم يعلّمه مبادىء القراءة والكتاب . تجدر الملاحظة أنّ الاحترام العاطفي تجاه الوالدين وكبار السن الذي يترسخ في نفسية الطفل وهو حبيس الحريم يلازمه في مرحلة مغادرته الحريم على نحو أبتر . فعندما تخرج النساء تلبية لزيارة ما أو رغبة في التنزه يركبن على ظهور الحمير ويصطحبن أطفالهن معهن ، فتحمل كلّ جارية أو خادمة طفلاً من الأطفال أو تجلسه بين ركبتيها فوق مقدم السّرج ؛ فالحمير تقلّ عادةً السيدات وخادماتهن اللواتي يجلسن منفرجات الساقين . ولكن نادراً ما يحظى أطفال الأغنياء بهذا اللهو البسيط ؛ فصحّتهم تشكو من كثرة الحبس ودفق الدلال ، فتراهم نزويين متغطرسين وأنانيين . لا تسرف نساء الطبقة المتوسطة في تدليل أطفالهن ، وتقدير الزوج لزوجته وحتّى تقدير معارفها لها يتوقّف بشكل كبير على خصوبتها وعلى محافظتها على أولادها ؛ فالعقم بالنسبة إلى الرجل أو المرأة ومهما تفاوتت طبقات المجتمع التي ينتميان إليها وصمة عار وخزي مشين في الشرق ؛

= أحد أوليائهم في قريتهم أو أي مكان قريب منها وإقامة وليمة يدعون إليها بعض أصدقائهم لمشاركتهم في أكل لحم هذه المعزاة تنتشر هذه العادة خاصة في صعيد مصر وبين القبائل التي توطدت حديثاً في ضفاف النيل . وقد عرف أسلاف هذه القبائل في شبه الجزيرة العربية هذه العادة ، فكانوا يتصدقون على المساكين بإعطائهم وزن الشعر المحلوق فضة أو ذهباً وتعرف الضحية « بالعكيكة » ويفتدى بها لتخليص الولد من نار جهنم علماً أن رسول الله ﷺ كان حرّم عادة حلق قسم من رأس الطفل .

كما أنّه من أبغض الحلال أن يبادر الرجل إلى تطليق زوجته التي تحمل طفله في أحشائها دونما أسباب وجيهة مقنعة خاصة بعد ولادته وإذا طمعت الزوجة في حب زوجها أو أرادت فرض احترام الآخرين لها ، يُعتبر وضعها لطفل مصدر فرح لها ولزوجها ويفجّر في نفسها عاطفة الأمومة علماً أن الذرية الكبيرة في مصر لا تُوجب على الأب نفقات طائلة

وبقدر ما يغدق الأهل العاطفة والحنان على أولادهم بقدر ما يظهر هؤلاء عميق الامتنان والاحترام تجاه والديهم . يعتبر المسلمون عقوق الوالدين خطيئة الخطايا فيدرجونها في خانة الخطايا السّت الشائنة وهي عبادة الأصنام والقتل واتهام المحصنات بالزنا باطلاً وأكل مال اليتيم وأخذ الرّبا والفرار من وطيس معركة ضد الكفار. ونادراً ما تسمع بعقوق طفل بين المصريين أو العرب عامة. فمن عادات الطبقتين المتوسطة والغنية أن يقبّل الولد يد والده صباحاً ويقف في حضرته بكل تواضع جاعلاً يده اليمنى فوق يده اليسرى بانتظار أوامر الوالد أو حتى يأذن له هذا الأخير بالإنصراف. وبعد تقبيل اليد المتّسم بالاحترام، يأخذ الوالد ولده في حضنه ، ويبدي الولد الاحترام نفسه تجاه والدته . والاحترام نفسه واجب على الولد أمام أفراد عائلته الآخرين حسب العمر ومنزلة القربى والمركز ، فتتجلّى طَبَعية الطفل الخارج من الحريم ومسلكه في مجتمعه وولاؤه الذي يُنظر إليه بصورة خاطئة وكأنّه وليد الاستبداد الشرقي . وقلّما يجلس الأبناء إلى مائدة والدهم أو يشاركونه المأكل والمشرب أو يدخنون في حضرته إلاّ في حال دعيوا للقيام بذلك وهم غالباً ما يقومون بخدمته وخدمة ضيوفه عند تناوله الطعام أو في أية مناسبة أخرى ، ولا يقلعون عن خدمته عندما يصبحون رجالاً وذات يوم دُعيتُ لتناول طعام الإفطار إلى مائدة تاجر مصري خلال شهر رمضان أمام باب منزله (وكان الوقت بُعيد الغروب) ، وكان هذا الصديق كلّما مرّ أحدهم وإن فقير الحال يدعوه لمشاطرته الطعام . وكان يقوم على خدمتنا ولدان من أولاد مضيفي ـ كبيرهما في الأربعين من عمره ولمّا كانا صائمين طوال النهار ولم يبللا ريقهما إلا بجرعة ماء ، رجوت والدهما أن يسمح لهما بالجلوس وتناول الإفطار معنا فسمح لهما بالجلوس على الفور . ولكنّهما رفضا هذه

الدعوة . كذلك يعبر الأولاد عن عواطفهم بشكل أكبر تجاه أمهاتهم منه تجاه آبائهم وإن لم يظهروا تجاههن دلائل الاحترام عينها التي يخصّون بها والدهم ولقد عرفت خادمات يدخرن أجورهن لأمهاتهن ونادراً لآبائهن .

وأطفال مصر باستثناء أطفال الطبقات الغنية وسخون جداً عامة وثيابهم رثة رغم أنهم موضع اهتمام وعناية فيشمتز الغريب من منظرهم ويعجّل في إصدار حكمه على المصريين المحدثين فينعتهم بالشعب القذر فلا يستجمع الأسباب والدوافع التي تحمله على تكوين هذه الفكرة عن المصريين . والملفت أن الأطفال المدلّلين المحبوبين المغنجين هم أكثر الأطفال قذارة وأقلّهم تأنقاً في ثيابهم . فلا عجب إن وقع نظرك في القاهرة على سيدة تتهادى وتتبختر في مشيتها مدثّرة في « توبها » الفضفاضي و« حبرتها » ذات الخيوط الحريرية البراقة الجديدة الغنية ، وترى أخرى تمرّ فيعبق الشارع بكامله برائحة المسك والزباد ، وكلّ ما يظهر منها إنّما ينمّ عن نظافة ونعومة ، وإذا استرقت النظر إليها رأيت عينين رسمهما الكحل وكانت تأنّت في وضعه، وأمّا يداها فيكشفان عن أصابع طُليت حديثاً بالحناء ، وإلى جانبها يسير صبي أو بنت ـ ابنها وابنتها ـ وقد علت القذارة وجههما وتلطّخت ثيابهما وسخاً وكأنّها لم تُغسل منذ شهور طوال . ولقد أدهشتني مشاهد في هذا النوع لمّا حططت الرّحال في هذه البلاد لأوّل مرة ومن البديهي أن أستوضح الأسباب الكامنة وراء هذه المشاهد التي صعقتني لغرابتها وعدم تناغمها وتناسقها ـ فعلمتُ بعد بحث واستقصاء أن الأمهات الحنونات الرقيقات العواطف يهملن مظهر أولادهن وهندامهم فيتركونهم وسخين مرتدين ثياباً رثة قذرة عمداً خاصة عندما يرافقهن بين العامة خوفاً من عين الحسود التي لا تسود والتي تبعث الفزع في النفوس ، فما حال الأطفال وهم الثمرة المباركة والعطية الإلهية التي يبتغيها الكثيرون ! وقد يكون الخوف من الحسد السبب غير المباشر الذي يدفع الكثيرات من الأمهات إلى إلزام أطفالهن الإقامة في الحريم . وبعض الأمهات يُلبسن أبناءهن لباس بناتهن لأنّ هؤلاء أقل عرضة للحسد البغيض .

وأطفال الفقراء أكثر إهمالاً . ولا يكفي أن تراهم شبه عراة أو عراة تماماً ،

فهم قـذرون وسخون جـداً وفي عيونهم تـرتاح نصف دستـة ذباب أو أكثـر فلا تزعجهم أو تضايقهم . ويعتبر الأهل أن غسل العينين أو حتى مجرد لمسهما ضار جداً عندما يسيل منهما الخِلط الحارق اللاذع الذي يجـذب أسراب الـذباب ، ويذهبون إلى حدّ التأكيد أنّ غسل العينين أو لمسهما عند إصـابتهما يؤدي إلى فقدان البصرة علماً أن الاغتسال أفضل وسيلة للتخفيف من حدة الإصابة

يختَن الصبي عند بلوغه الخامسة أو السادسة من عمـره وأحيانـاً لاحقاً . ويعمد الوالدان ـ إن سمحت أحوالهما المـاديـة ـ قبـل المبـاشـرة بشعـائـر هـذا « الطقس » المعروف في العاصمة وفي مناطق مصرية أخرى إلى عرض ابنهما وتجواله في شوارع متعدّدة واقعة في جوار مسكنهما ويستغلّون مناسبة الاحتفال بعرس ما لتقليص نفقات العرض . ويتزعّم الصبي ومرافقوه هذا الحفل ، فيعتمر الصبي عادةً عمّامة من الكاشمير الأحمر ولكنّه في حالات أخرى يكون متهندماً تهندم البنات ، فيلبس « اليلك » و« السّلطة » ويضع « القـرص » و« الصفـا » وغيرها من الحلى النسائية لجلب العين إلى منـظر لباسـه فيحوّلهـا بذلـك عن شخصه وثيابـه أجمل من أن تـوصف ، إذ تتمّ استعارتهـا من إحدى السيـدات وتكون فضفاضة من غير مقاس الصبي ؛ وكذلك يُستـأجر حصان يغطّى سرجه بغطاء مزركش لنقله ، ويُجعل في يد الصبي اليمنى منديل مطوي يخفي بعضاً من قسمـات محيـاه فيحميـه بـذلـك من العين الشـريـرة . ويمشي أمـامـه خـادم الحلاق منفّذ عملية الخِتان واثنان أو ثلاثة من « المـزيكاتيين » (المـوسيقيين) الذين يعتمدون في مزيكتهم على المزمـار والطبلة ويـأتي خادم الحـلاق في المقام الأول في عملية الختان هذه ، فيضع على رأسه « الجمل » وهو عبارة عن صندوق خشبي اسطواني الشكل تقريباً ذات أقدام أربع صغيرة ؛ وتُغطّى واجهة الصندوق (الجهة المسطحة منه) بمرايا نحاسية مزخرفة وأمّا ظهره فيختفي وراء ستارة . هذه هي بكل بساطة إشارة الحلاق ، إذ يحمل خادم الحلاق الصندوق كما يصور ذلك الرسم التالي ؛ ويتبع الخادم فريق المزّيكاتيين (أو قد يتقدمون الجمل) يليهم الصبي وسائس حصانه وتمشي الوافدات من قريباتـه ولفيف الأصحاب وراءه . . ويحصل أن يتم عرض صبيين في وقت واحد وقد يحملهما

الحصان نفسه أحياناً   وأمّا احتفالات الأفراح والأعراس فسأتوقف عندها في فصل لاحق وكذلك عادات عملية الخِتان في إطار الاحتفالات الخاصة . لا يولي الآباء تعليم أولادهم وتثقيفهم عناية كبرى ، فيكتفون بتلقينهم بعض



العرض السابق لعملية الخِتان

المبادىء الدينية ويعهدون بهم ـ إن كان بمقدورهم ـ إلى أحد المدرّسين ويتعلّم الولد في مرحلة مبكرة شهادة أنّ « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » ، كما يتلقى دروساً في الاعتزاز الديني وفي مقت النصارى وكل المِلل والطوائف الأخرى خلا طائفته ، تماماً كما المسلم البالغ الراشد   ويتعلم معظم أولاد الطبقتين المتوسطة والغنية وبعض أبناء الطبقة الدنيا على يد معلمهم قراءة القرآن

وتلاوة بعض سوره أو كلّها عن ظهر قلب ، يليه علم الحساب في مرحلة لاحقة

تكثر المدارس ليس في العاصمة فحسب بل في كافة المدن الكبيرة ، وتضم كل قرية مدرسة واحدة على الأقل . وهناك « كُتّاب » واحد لكلّ جامع و« سبيل » و« حوض » في العاصمة يتعلّم فيه الأولاد مقابل أجر زهيد يدفعونه . ويحصل الشيخ أو « الفقيه » (معلّم المدرسة) على نحو نصف قرش نهار كل خميس تدفعه له كلّ عائلة من عائلات تلامذته كما يحصل معلّم الكُتّاب المرتبط بالجامع أو بأيّ مبنى عام آخر في العاصمة سنوياً على طربوش وقطعة من قماش الموسلين الأبيض للعمامة وكذلك قطعة من الكتان وزوج حذاء . وبالمقابل ، يحصل كلّ صبي على قلنسوة من الكتان وأربعة أو خمسة أذرع من القطن؛ وقد يحظى بنصف قطعة من الكتان (تتراوح بين عشر أذرع واثني عشر ذراعاً) وبزوج حذاء وفي بعض الحالات بقرش أو نصفه ويؤمّن صندوق أموال خاص بالمدرسة هذه الهدايا ، وتُجمع الأموال خلال شهر رمضان يحضر الصبية إلى الكُتّاب خلال حصص التعليم فقط ليعودوا بعد ذلك إلى بيوتهم والدروس تكتب عادة على ألواح خشبية مطلية باللون الأبيض ، فما أن يتم حفظ الدرس حتّى يُغسل ما هو مكتوب على هذا اللوح ويُدوَّن درس آخر . يتمرّس الأولاد بالكتابة على اللوح نفسه ، ويجلس المدرّس وحوله تلاميذه على الأرض كلٌّ يحمل لوحه بين يديه أو الكتاب العزيز أو أحد أجزائه الثلاثين يضعونه على مِقرأ مصنوع من أعواد النخل . وبينما هم يتعلمون القراءة والتلاوة بصوت عالٍ ، يحرّكون أجسادهم ورؤوسهم دون هوادة من الأمام إلى الوراء ، وتلك عادة نلاحظها عند معظم الأشخاص الذين يرتّلون القرآن ، فهي ـ كما يعتقدون ـ تساعد على الحفظ ، ولا حاجة بي لوصف الضجة التي يحدثها هذا الأمر .

أوّل ما يتعلّمه الأولاد حروف الأبجدية ، تليها الصوتيات وعلامات الوقف ثم القيمة العددية لكل حرف من حروف الأبجدية . ومن عادة المعلّم قبل بلوغ المرحلة الثالثة هذه في مسيرة تقدم التلميذ ومواظبته

تزيين اللوح بالحجر الأسود والأحمر والطلاء الأخضر، فيكتب عليه لاحقاً أحرف الأبجدية حسب ترتيبها العددي ويرسل اللوح إلى والد التلميذ فيعيده هذا الأخير مع قرش أو قرشين فوقه . وتتكرّر العملية مع تعاقب مراحل تحسن التلميذ عندما يبدأ بتعلّم آياتِ القرآن الكريم وكذلك ستّ أو سبع مرات كلمّا مضى قدماً في تعلّم كتاب الله العزيز ، وفي كلّ مرة يُكتب الدرس التالي على اللوح . ولمّا يألف الولد هذه الأحرف يدوّن له المعلم كلمات بسيطة كأسماء الرجال ثم أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين تليها سورة الفاتحة من القرآن فيقرأها التلميذ ويكرّرها حتّى يحفظها غيباً يباشر التلميذ بعد ذلك بتعلّم سُوَر القرآن الأخرى ، فيتعلّم آخر سورة من الفرقان ، وكان تعلّم السورة الأولى منه (أي الفاتحة) ، ثم السورتين الأخيرتين وهكذا دواليك في ترتيب معكوس حتى يختم التلميذ بالسورة الثانية ؛ فسور القرآن تقصر من السورة الثانية وصولاً إلى السورة الأخيرة . ونادراً ما يعمد معلم المدرسة إلى تعليم تلاميذه الكتابة ـ وقليل عدد الصبية الذين يتعلّمون الكتابة ـ إلاّ إذا كانوا موجهين توجيهاً مهنياً يفرض عليهم تعلّمها ؛ وهم والحالة هذه يتعلّمون فن الكتابة . وكذلك يعلّم « القباني » التلميذ علم الحساب ؛ ووظيفة القباني أصلاً وزن السلع في السوق أو البازار . ومن يكرّس نفسه لعلوم الدين أو لأيّ من المهن الفكرية ، يتابع دراساته العليا في جامع الأزهر الكبير .

لا يتمتع معظم معلمي مصر بمستوى تعليمي عالٍ والقليلون منهم أطلعوا على المؤلفات الأدبية خلا القرآن الكريم وبعض الصلوات ؛ ويُدفع لهم أجر لتلاوة بعض من آيات الذكر الحكيم في المناسبات الخاصة . ولقد حدّثني بعض أصدقائي عن رجل يجهل أصول الكتابة والقراءة ولكنّه توصّل مع ذلك إلى أن يكون معلّماً لإحدى المدارس في جواري ولمّا كان هذا المعلم قادراً على تلاوة القرآن بكامله ، كان بمقدوره سماع تلاميذه يردّدون دروسهم ؛ وهو يلجأ عند كتابتها للعارِف (وهو رئيس الصبية ومرشد المدرسة) متحجّجاً بضعف بصره . وبعد أيام من توليّه هذا المنصب ، أتته امرأة مسكينة برسالة ليقرأها لها وكانت من ابنها الذي ذهب ليؤدي مناسك الحج وأخذ الفقيه الرسالة زاعماً

قراءتها ولكنّه لم ينطق بكلمة واحدة . فبادرته المسكينة التي استخلصت من صمته أن الرسالة لا بد أنها حاملة أخباراً سيئة في طياتها بقولها «أَصَوَّت؟» فأومأ إيجاباً ، ثم تابعت : « أَشُقّ هدومي؟ » فقال لها أن تفعل . وعادت المسكينة إلى منزلها تلطم وتنتحب هي وصديقاتها نادبةً ابنها كما هي العادات الخاصة بالموت . ولم تمضِ أيام حتى رجع ابنها من الحج فاستفسرت منه عن أمر الرسالة ومفاد خبر موته المزعوم الذي حملته في ثناياها. ولمّا شرح لها ما جاء فيها ، ذهبت إلى المعلّم ورجته أن يقول لها لماذا طلب منها تمزيق ثيابها والولولة طالما أن الرسالة تعلمها أنّ ابنها بصحة جيدة وها أنّه وصل إلى منزله وهو يرفل بالصحة . فأجابها المعلّم دون أن ترتسم على وجهه أدنى علامات الإرتباك والدهشة : « الله وحده يعرف المُقَدّر والغيب » فكيف لي يا امرأة أن أعرف أنّ ابنك وصل بالسلامة ؟ كان من الأفضل أن تظنّيه ميتاً فلا تنتظرين عودته وقد يخيب ظنك » . ولمّا فرغ من كلامه ، تملّكت الدهشة بعض من كان حاضراً وأُعجب بحكمته فقالوا « حقاً ، إن فقيهنا الجديد ذو حكمة كبيرة » . فذاع صيت هذا المعلم بسبب هفوة ارتكبها[1]

قد يعهد بعض الأهل بأولادهم إلى « شيخ » أو « فقيه » يعلّمهم في المنزل . ويعلّم الأب ابنه فرائض « الوضوء » وغيره من وسائل التطهر إضافةً إلى الصلوات والواجبات الدينية والأدبية قدر المستطاع. وكان الرسول ﷺ يوجّه أتباعه ليجبروا أولادهم على تعلّم الصلاة وهم في السابعة من عمرهم وليضربوهم إن أغفلوا صلاتهم وهم في العاشرة وإجبارهم وهم في هذه السن على النوم في أسرَّة منفصلة . وأمّا في مصر فقليلون هم المصريون الذين يؤدون فريضة الصلاة قبل بلوغهم سن الرجولة

---

(١) عثرت في طبعة القاهرة لكتاب « ألف ليلة وليلة » على نادرة مشابهة تقريباً . فإمّا أن يكون الذي قصَّ عليّ هذه النادرة غير صادق أو دقيق في روايته وإمّا أن يكون الرجل الذي أشار إليها مقلّداً في الأساس والاحتمال الثاني أقرب إلى الواقع ؛ فلقد سمعت عن تقليدات مشابهة ، منها تقليد متأكد شخصياً من حقيقته

لا نعهد أطفال جنس حواء بتعلمن القراءة والكتابة في المجتمع المصري ، ولا نصادف الكثيرات منهن حتّى اللواتي ينتمين إلى الطبقة الغنية يتعلّمن تأدية صلواتهن ويوكل البعض أمر هذه المهمة إلى « شيخة » تدأب على زيارة الحريم يومياً فتعلّم بناته وجارياته تلاوة بعض سور القرآن والقراءة والكتابة ولكنها إنجازات نادرة في مصر وإن انتمت الفتاة إلى الطبقة الغنية وتنتشر بالمقابل في البلاد المدارس التي تعلم الفتيات أشغال الإبرة والتطريز ، وقد تزور « المعلّمة » منازل الأغنياء فتعلّم بناتهن هذه الأشغال .

الفصل الثالث

الدين والأحكام

لا بد قبل الولوج في دراسة ظروف المصريين الاجتماعية وعاداتهم في مرحلة الرجولة من التمعن في فهم الدين والأحكام وهما النقطتان الأهم في تعليم المصريين والركيزتان الأساسيتان لعاداتهم وتقاليدهم ليس في إطار مبادئهم العامة فحسب بل في العديد من صغائر أمورهم

أدّى اختلاف الآراء بين المسلمين حول بعض أمور الدين والشريعة إلى بروز أربعة مذاهب تعتبر نفسها صاحبة الرأي السديد بالنسبة إلى المسائل الجوهرية تعرّف نفسها « بالسّنة » في تمايزها عن المسلمين الآخرين أو « الشّيع » التي ترادف وفقاً لتصوّرهم ومفهومهم عبارة « الهراطقة » و « السّنة » هي موضوع دراستنا في هذا الفصل ، وهي تقسم إلى أربعة مذاهب : « الحنفي » و « الشافعي » و « المالكي » و « الحنبلي » تبعاً لأسماء فقهائها . ويُعتبر الأتراك من أتباع المذهب الأول ـ الحنفي ـ وهو أكثر المذاهب حصافة ومنطقاً. وسكّان القاهرة ـ ما عدا فئة قليلة من الحنيفية ـ إمّا شافعيون أو مالكيون، وهم عامة من الشافعية كما هي الحال بالنسبة إلى سكان شبه الجزيرة العربية ؛ وكذلك سكان محافظة « الشرقيّة » الواقعة شرقي الدلتا فمن الشافعية ؛ وأمّا سكان محافظة « الغربية » أو الدلتا فمن الشافعية مع قلّة مالكية بالمقارنة مع سكان « البحيرة » الواقعة غربي الدلتا الذين هم من المالكية وسكّان الصعيد (أو وادي مصر العليا) الذين هم من المالكية أيضاً باستثناء فئة بسيطة منهم وكذا

الأمر بالنسبة إلى أهل النوبة وعرب شمالي إفريقيا ؛ وفي ما خص المذهب الحنبلي فقليلون هم أتباعه

تستقي المذاهب الأربعة المذكورة مبادىء دينها وشريعتها من مصادر أربعة هي القرآن الكريم والأحاديث النبوية واتفاق الصحابة الأولين (رضي الله عنهم) والقياس

يعرّف العرب الدين الذي نشر محمد ﷺ تعاليمه « بالإسلام » وأمّا « الإيمان » فجوهره و « الدين » فتطبيقه

تتلخص مبادىء الإيمان الكبرى في ركنين : أولهما شهادة أنّ « لا إله إلاّ الله » فالله فاطر السموات والأرض والحفيظ والقاضي والخالد الأزل الكليّ القدرة والعِلم والوجود والواحد القهّار . ويظهر مبدأ التوحيد في سورة الإخلاص (١١٢) : ﴿ قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ والله لا شريك أو ذرية له حسب عقيدة الإنسان المسلم ويسوع المسيح (ولا يذكر المسلم اسمه ما لم يرد قبله « عليه السلام ») مولود من بتول ، وفي ولادته أعجوبة وهو من لدن الرحمن لا أب بشري له ، فهو « المسيح » و « قَولُ الحق » الذي نقله الله إلى مريم فكان روحاً منه : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويًّا ﴾، وهو رسول ومبشر حتّى أنه في مرتبة أدنى من مرتبة محمد بقدر ما يأتي القرآن ليبطل الإنجيل ويؤمن المسلم أنّ الله بعد إتمام « سيّدنا عيسى » (عليه السلام) رسالته رفعه إلى السماء فخلّصه من اليهود الذين أرادوا قتله وأن شخصاً آخر طبعه الله في صورة المسيح صُلب مكانه كما يؤمن بأنّ الله تعالى سيبعث عيسى ابن مريم فيرسّخ الإسلام ديناً ويُحلّ سلاماً وأمناً فيهلك المسيح الأعور الدجال ، إشارة في ذلك إلى قيام الساعة

وامّا الشهادة الثانية فهي شهادة « وأنّ محمداً رسول الله » :

يؤمن أتباع محمد أنّه خاتم الأنبياء وآخر الرسل وأعظمهم على الإطلاق . وستّة من النبيين آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد أوحى الله إليهم بشريعة منزّلة (وهي نظام دين وأخلاق) ، وما أُوحي لآدم أبطله النبي الذي

تلاه ، وهكذا كانت تأتي كلّ شريعة لتبطل سابقتها وإن كانت الشرائع السماوية كلّها تلتقي في نقاطها الجوهرية ولذا ، فكل من اعتنق الديانة اليهودية من أيام موسى وحتى عهد المسيح كان مؤمناً صادقاً ، وكل من اعتنق الديانة المسيحية (غير المحرَّفة كما يقول المسلمون بسبب المعتقد الزاعم أنّ المسيح هو ابن الله) حتّى عهد محمد ﷺ فمؤمن صادق بدوره . لكنّ الأسفار الخمسة الأولى لموسى من العهد القديم وكذلك مزامير داوود (التي يؤمن المسلمون بمصدرها الإلهي) والأناجيل الموجودة حالياً شهدت تحريفاً كبيراً فلا تشتمل إلاّ على القلة القليلة من « كلمة الله » الصحيحة ، والقرآن وحده في اعتقادهم لم يشهد أدنى تحريف أو تشويه .

وعلى المسلم أن يؤمن أيضاً بوجود الملائكة والجن الصالح والطالح ـ الطالح منها رمز للشياطين وعلى رأسهم إبليس . كما يؤمن المسلمون بخلود الروح والقيامة والبعث والحساب والثواب والعقاب في الجنة والنار والموازين التي توزن بها الصالحات والطالحات من الأعمال ، وكذلك يؤمنون « بالصراط » فوق جهنم « وهو أدقّ من الشّعر وأحدّ من السيف . فمنهم من يمرّ عليه مثل البرق ومنهم من يمرّ عليه مثل عدو الفرس ومنهم من يمرّ عليه ماشياً ومنهم من يمرّ عليه حبواً ومنهم من يمر عليه متعلّقاً فتأخذ النار منهم شيئاً وتترك منهم شيئاً » والمسلم يؤمن كذلك أنّ كل من دخل في دين الإسلام وكان مؤذياً وضيعاً في مسلكه لا يبقى في النار بصورة أبدية بعكس معتنقي الديانات الأخرى . والثواب والعقاب كذلك درجات ؛ فللظالمين « نار أحاط بهم سُرادِقُها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمُهل يشوي الوجوه » وأمّا من عمل الصالحات « فنِعم الثواب » لهم ، جزاؤهم ما لذّ من أطايب الطعام ومشاربه فيصاحب بنات الجنة ذوات العيون الواسعة الداكنة السواد والباسقات الهامات كما الرجال أو شجر النخل أو نحو ستين قدماً طولاً وتبقى أرواح الشهداء خالدة حتى يوم الحساب في حواصل الطيور الخُضر التي تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها ولا تُبعد النساء عن الجنة حسب الدين الإسلامي رغم تأكيد العديد من المسيحيين أن المسلمين يؤمنون بأنّ النساء لا أرواح لهن . وفي مواضع

عديدة من القرآن الكريم يعد الله المؤمنين بالجنة ذكوراً وإناثاً. ولا تكفي المرء أعماله ليدخل الجنة بل لا يدخلها أحد إلاّ بمشيئة الله وواسع رحمته وحسب درجة إيمان المسلم . وجزاء الصالحات هناء وافر ظليل . وأمّا أكثرهم تواضعاً فيعدهم الله « بثمانين ألف خادم » ـ هم « الوِلْدان » ـ وباثنتين وسبعين زوجة من بنات الجنة ـ هنّ « الحور عين » إلى جانب زوجاته في الدنيا إن أرادهن معه (والصالح راغب ولا شك بالصالحة) ، ﴿ في جنات النعيم ثلّة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلّدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يُصدَّعون عنها ولا ينزفون وفاكهة ممّا يتخيّرون ولحم طير ممّا يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (سورة الواقعة). وأمّا الخمر المحرّم على المسلم شربه في الدنيا فيُحلَّل له في العُقبى ولا خطر عليه منه لأنّ خمر الجنة لا يذهب بالعقول » كما أنّ فيض أجساد سكان الجنة يُنقَل بواسطة التعرق فينشر رائحة كرائحة المسك و ﴿ يلبسون ثياباً خُضراً من سُندس واستَبْرَق ﴾ ، يوعدون بالشباب الدائم وينجبون أطفالاً قدر ما يشاؤون . وتسحر هذه الملذات مجتمعة مع أغاني الملاك إسرافيل وملذات أخرى ممتعة للحواس أكثر سكان الجنة وضاعة ولا قيمة لكلّ المُتع هذه للأشخاص المُنعم عليهم أكثر الذين يبلغون أعلى مرتبات الشرف ـ تلك المتعة الروحية بمشاهدة وجه الباري ليلاً نهاراً كذلك يؤمن المسلم بمحاسبته في قبره على يد ملاكين مُنكر ونكير فتّانيْ القبور ـ يحاسبانه محاسبة شديدة حتّى يستقيم جسده في قبره (وتعود الروح لتتحد معه) ، ويسألان الميت حسب إيمانه ، فيعذّبان الشرير شديد العذاب ولا يؤذيان الصالح

وواجب على المسلم أخيراً أن يؤمن بما قدّر له الله في أموره بخيره وشره ؛ وقد أثار ذلك جدالاً بين المسلمين كما بين المسيحيين والفرق أن المسلمين يؤمنون بالقضاء والقدر الذي لا مفر منهما

ودائماً في إطار الأحكام الشعائرية والخلقية فرائض يُسأل عنها المسلم

أهمّها : الصلاة والزكاة والصوم وحج البيت الحرام .

تـرتدي عمليّـة التّطهـر أهميـة قصـوى وهي نـوعـان ، أوّلهمـا الـوضـوء (الغسل) العادي السابق للصلاة وثانيهما غسل الجسم كلّه مع القيام بالوضوء . ولا تقبل الصلاة ـ وهي « مفتاح الجنة » لأهميتهـا من إنسان غيـر متطهـر نِجس البدن ، كما أن تقليم الأظافر وتنظيفها وما شابه ذلك ضروري منعاً للنجـاسة . ولا ينسى المسلم الاغتسـال الجزئي (أو عمليـة التّطهـر) الذي يلجـأ إليه في بعض المناسبات حتّى وإن أغفل صلاته والذي يدخل في باب الأعمال الدينية تعتبر عملية الاغتسال التي تحدثت عنها جزءاً من عملية الوضوء ، وأمّا عمليات الاغتسال الأخرى فهي ليست ضرورة ملحة حتى يقـوم بها المسلم فـوراً ولكن قُبيل تحضّره لتأدية صلواته ، وتتمّ في الجامع أو في المنزل بين حلقات العامة أو بشكل منفرد وفي كل جامع حوض ماء ـ « المِيضَاءة » أو « الحنفيـة » ـ عبارة عن خزان ماء مرتفع حول ميازيب (صنابير) يتدفق الماء منها . وقد نشاهد في بعض الجوامع الميضأة والحنفية معاً . يتوضأ مسلموالمـذهب الحنفي (مذهب الأتـراك) عند الحنفيّـة (والتي تستقي اسمها من اسم المـذهب ؛ ويتـوضـأ المسلمون بينما المياه تسيل من هـذه الحنفية أو من حـوض ماء أو خـزان يبلغ عشـر أذرع طولاً وعمقاً وأغلب الظن افتقـار القاهـرة إلى ميضأة بهـذا العمق باستثناء ميضأة جامع الأزهر الكبير . تتمّ عملية الوضوء في المنزل بواسطة حنفية صغيرة من النحاس المطلي بالقصدير مركزّة فوق رف منخفض وحوض كبير أو إبريق صغير أو حوض من المعدن نفسه

يرفع المسـلم أكمـامه ثنيـاً مباشـرة فوق مسـتوى المرفقين ويـردّد بصوت منخفض أو يردّد في قلبه : « نـويت فرائض الـوضوء » ، ثم يغسـل كفيّه ثـلاثاً بالطريقة عينها ويقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي أنزل الماء للتطهر وجعل الإسلام منـارة وهدى ومـرشداً للجنـات ، جنات الفـرح ومسكن السلام » .

ثم يغسل فمه ثلاث مرات ويتمضمض بيده اليمنى مردّداً : « اللهم أعني

على تلاوة القرآن وعلى ذكرك وشكرك واسقني من نهر الكوثر يوم العطش الأكبر . ثم يغسل بالماء أنفه بيده اليمنى (فيستنشق الماء في الوقت نفسه) ويخرجه ضاغطاً منخره بإبهام اليد اليسرى وأحد أصابعها ثلاث مرات ، فيقول : « اللهم أرحني رائحة الجنة ولا ترحني رائحة النار » . ويغسل وجهه ثلاث مرات ويشطفه بالماء بيديه الاثنتين مردّداً « اللّهم بيّض لي وجهي يوم تُبَيّض وجوه وتسود وجوه[1]

ويغسل يده اليمنى وذراعه حتى المرفق ثلاثاً ويجعل الماء ينساب على طول ذراعه عدة مرات من راحة يده حتى مرفقه فيقول : « اللهم أعطني كتابي بيميني[2] وحاسبني حساباً يسيراً » . ويغسل بالطريقة عينها يده اليسرى فيقول : « اللهم لا تعطني كتابي بشمالي ولا من وراء ظهري ولا تحاسبني حساباً عسيراً ولا تجعلني من أهل النار » . بعد ذلك يمسح رأسه بالماء كله أو بعضه رافعاً عمامته أو طربوشه بيده اليسرى مرّة واحدة فقط متضرّعاً إلى الباري بالعبارات التالية « اللهم اشملني برحمتك وانزل بركتك علي وأظلني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظل عرشك » فإن كانت للمسلم لحية ، يسّرحها بأصابع يده اليمنى المبلّلة ماسكاً يده من راحتها إلى الأمام وممرّراً أصابعه في لحيته من حلقه صعوداً ثمّ يجعل طرف سبّابتَيْ يديه في أذنيه فيحرّكهما حركة دائرية ممرّراً الإبهامين في آن معاً حول الأذن من الخارج نزولاً وصعوداً قائلاً : « اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » ثم يمسح عنقه بظهر أصابع يديه الاثنتين ، فيجمع أطراف أصابعه خلف عنقه ثم يسحبهما إلى الأمام فيقول : « اللهم أعتق رقبتي من النار » . ويغسل أخيراً رجله حتّى الكاحل ويفرك أصابع قدميه بأصابع يديه ويبدأ بغسل قدمه اليمنى قائلاً : « اللهم ثبّت

---

(١) يؤمن المصريون أن الرجل الصالح سيبيض وجهه يوم الحساب بينما يسود وجه الشرير . ويقولون إن الرجل يكون أبيض الوجه أو أسوده حسب سمعته الطيبة أو السيئة . ومن هنا تعبير « سوّد الله وجهك » في اللغة العربية .

(٢) لكل أمرىء كتاب خاص يدوّن فيه كل الأعمال التي يقوم بها في حياته فالإنسان الصالح يلقى كتابه بيمينه وأمّا السيء فبشماله وتكون يده اليمنى مشدودة إلى عنقه

قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام ». ولمّا يغسل رجله اليسرى يقول : « اللهم وفّقني لأحسن الأعمال واجعل ذنبي مغفوراً وسعي مشكوراً ولا تجعل تجارتي كاسدة واشملني بواسع رحمتك يا أرحم الراحمين » .

ولمّا يفرغ من عملية الوضوء ، يشخص المسلم ببصره نحو السماء فيقول : « يا عليّ يا عظيم يا صمد . أشهد أن لا إله إلاّ أنت لا شريك لك ، ألتمس غفرانك وأعود إليك توّاباً » . وينظر إلى الأرض فيضيف : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله » . وبعد التلفظ بهذه الكلمات ، يتلو سورة القدر (سورة ٩٧) مرة ومرتين أو ثلاث مرات .

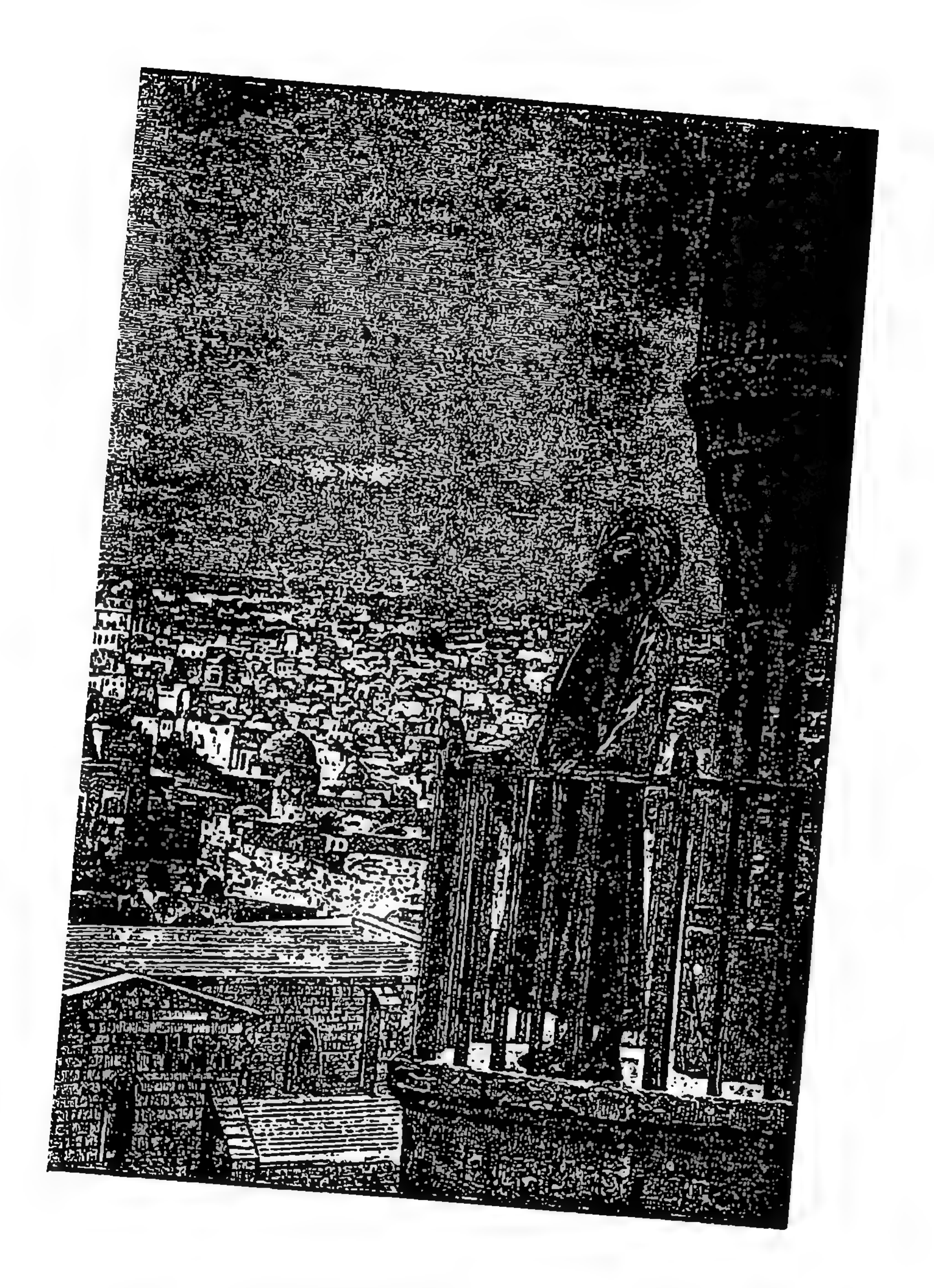
لا يستغرق الوضوء أكثر من دقيقتين. ويستعجل المسلمون في أدائه فيحذفون الصلوات كلّها تقريباً التي ينبغي أن ترافق كل حركة فيه . والوضوء غير إلزامي تكراره لأداء الصلوات الخمس على مدار النهار ، إذا كان المصلي مدركاً واعياً متجنّباً أنواع النجاسة على اختلافها من آخر مرة قام بها بعملية الوضوء . وفي حال وجد المرء صعوبة في تأمين الماء اللازم للوضوء أو عندما يكون هذا الماء مضرّاً بصحته ، فيمكنه والحال هذه التّطهر بالرماد أو بتراب طاهر ، وهذا ما يُعَرف « بالتّيمم » فالمصلي في وضع التيمم يملأ راحة يديه بالتراب الطاهر أو الرماد ويمسح بكلتي يديه وجهه (ويكفي أن يمسح يديه بثوبه لاحتوائها بالضرورة على شيء من الغبار) ، وبعد أن يملأ راحتيه بالتراب يمسح يده اليمنى وذراعه حتى المرفق ، ثمّ يمسح يده اليُسرى وذراعه بالطريقة عينها منهياً بذلك عملية الوضوء . وأمّا غسل الجسم بكامله فيتمّ ابتغاءاً للنظافة لا أكثر بعيداً عن أي اعتبار ديني إلاّ في حالات استثنائية كما في صباح يوم الجمعة وبمناسبة العيدين ، وهذا هو « الغُسل »

لا تقتصر النظافة على المتعبّد المصلي بل تشمل الأرض والحصر والسجادة والثوب أو أي شيء آخر يصلي عليه المسلم غالباً ما يصلي ابناء الطبقات الدنيا على الأرض العارية التي يعتبرونها نظيفة إن كانت جافة ؛ وهم نادراً ما يمسحون الغبار العالق على أنوفهم وجبهاتهم وهم ساجدون ، فالغبار

برأيهم زينة لوجه المؤمن . وعندما يكون المرء مرتدياً عباءة أو ثوباً فضفاضاً يمكنه خلعه ولا يظهره بمظهر غير لائق فيبسطه على الأرض كمصلّية ، وهي « سجادة » الصلاة التي تكون بحجم بساط المصطلى تقريباً ، وقد رسمت عليها مشكاة موجهة نحو القبلة في مكة وإنّه لمن الخطيئة بمكان أن يمرّ أحدهم أمام مصلٍّ يؤدي صلاته

والصلاة فرض على المسلم ، يؤدّيها خمس مرات في اليوم الواحد وفي مصر العديد من الأشخاص الذين يهملون فرض الصلاة أحياناً أو يغفلون هذا الواجب أو حتّى لا يقربونها إلاّ نادراً وتُعرف بعض مقاطع الصلوات العادية « بالفَرض » وهي حدّدها القرآن ، وأمّا المقاطع الأخرى فهي « السُّنَة » وقد حدّدها الرسول ﷺ ولا صفة ربانية لها

تبدأ أولى الصلوات عند المغيب (صلاة المغرب) أو بُعيده بنحو خمس دقائق، تليها صلاة العِشاء بعد أن يسدل الليل ستائره ويخيّم الظلام؛ وأمّا الصلاة الثالثة فصلاة « الفجر » أو « الصُّبح » عند انبلاج النهار وتكون الرابعة عند « الظهر » أو بُعيده عندما تأخذ الشمس بالأفول ، وآخرها صلاة « العصر » (أي الفترة ما بين الظهيرة والمساء) تنتهي كل صلاة عندما تبدأ الصلاة التي تليها ما عدا صلاة الفجر التي تنتهي عند شروق الشمس. ولم يكن الرسول ﷺ يسمح لأتباعه بمباشرة صلواتهم عند شروق الشوس ولا عند الظّهر أو عند المغرب تحديداً لأنّ الكُفّار كانوا حسب رسول الله ﷺ يتعبّدون الشمس في تلك المواقيت . وإن حانَ وقت الصلاة وهم يأكلون أو يستعدون لتناول الطعام ، فلا يقومون لصلاتهم حتّى يفرغوا من طعامهم وعليهم أداء الصلوات في مواعيدها قدر الإمكان ، ويمكنهم تأديتها لاحقاً وليس قبلاً و « المؤذّن » هو الذين يعلن عن مواعيد الصلاة في كل جامع ؛ فيصعد إلى شرفة المئذنة ويرفع الآذان كما الآتي : « الله أكبر (أربع مرات) أشهد أنّ لا إله إلاّ الله (مرتين) وأشهد أن محمداً رسول الله (مرّتين) ، حيّا على الصلاة (مرّتين) ، حيّا على الفلاح (مرتين) ، الله أكبر (مرتين) ، لا إله إلاّ الله » يتمتّع معظم مؤذّني القاهرة بصوت رخيم رنّان يرفعونه إلى أعلى طبقة ممكنة



الآذان

وفي تلاوتهم لحن بسيط جليل ملفت يخرق هدأة الليل وسكونه يفضّل عامة أن يرفع الأذان رجال أكفّاء ، فلا يكشف المؤذن وهو أعمى من أعلى المئذنة منازل الحريم وسطوح المنازل المحيطة .

كما يرفع المؤذن الأذان مرّتين ليلاً لإيقاظ الأشخاص الذين يرغبون في أداء صلوات غير مفروضة عليهم . فبُعَيد منتصف الليل ، يصعد المؤذن في الجوامع الملكيّة الكبرى في القاهرة ـ وهي الجوامع التي شيّدها السلاطين ويُعرف واحدها « بجامع السلطان » ـ وفي بعض الجوامع الكبيرة الأخرى إلى المآذن ويدعون إلى الصلاة « الأولى » وهي إحدى الدعوتين اللّيليتين إلى الصلاة ، وهي غير الدعوة إلى الصلوات الإلزامية المفروضة على المصلين في مواقيتها المحددة . وبعد رفع المؤذن الأذان المعروف المتضمّن الجملة التالية « الصلاة خير من النوم » يضيف إليها : « لا إله إلاّ الله » (ثلاث مرات)، «وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد ؛ يُحيي ويميت وهو الحي الباقي بيده الخير وهو العلي العظيم ، لا إله إلاّ الله (ثلاث مرات) ، لا نعبد إلاّ إيّاه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إله إلاّ الله ، محمد أفضل خلق الله » .

وقبل انبلاج النهار بساعة ، يدعو المؤذنون في معظم الجوامع إلى الصلاة الثانية وهي « الأبد » ، وتعرف كذلك بسبب ورود هذه الكلمة في البداية .

وتكثر في الصلوات التي يؤديها المصلي المسلم يومياً في الفترات الخمس « الرّكعات » (ومفردها ركعة) . يقف المصلي ووجهه نحو القبلة (أي نحو مكة) وقدماه غير مقربتين من بعضهما تماماً ويردّد بصوت خافت أنّه نوى تأدية الصلوات وركعاتها (السنة أو الفرض) صلاة الصباح (أو الظهر . . .) لهذا اليوم (أو المساء) ؛ ثمّ يرفع يديه المفتوحتين عند جانبي وجهه ويقول بعد أن يلمس شحمة أذنيه بأطراف إبهاميه « الله أكبر » وهذا هو التكبير ، ثم يباشر بتأدية الصلوات والركعات المفروضة لكل صلاة .

يقف المصلي ويجعل يديه أمامه أدنى منطقة حزامه قليلاً ، يده اليمنى

فوق اليسرى ويتلو ـ وعيناه مسمّرتان نحو النقطة حيث يطأ رأسه الأرض ـ سورة الفاتحة وهي السورة الأولى في القرآن ويتبعها بثلاث سور أو أكثر من السّور القصيرة خاصّة سورة الإخلاص /١١٢ فلا يكرّر البسملة قبل التلاوة الثانية ويضيف : « الله أكبر » ويحني رأسه وجسده إلى الأمام جاعلاً يديه فوق ركبتيه ومباعداً بين أصابعه قليلاً ويقول وهو في هذه الوضعية : « سبحان ربي العظيم (ثلاث مرات) سمع الله لمن حمده ، ربّنا لك الحمد والشكر » . ويرفع رأسه وجسده مردّداً : « الله وأكبر » . ثمّ ينحني على ركبتيه مكرّراً « الله أكبر » ويجعل يديه على الأرض فوق ركبتيه قليلاً ويلامس بأنفه وجبهته الأرض (الأنف أوّلاً) بين يديه ، ويقول وهو في صلاته « سبحان ربي الأعلى » (ثلاث مرات) . ويرفع رأسه وجسده (مع إبقاء ركبتيه أرضاً) ، ثم يرجع إلى الوراء على عقبيه ويضع يديه فوق فخذيه مردّداً في الوقت نفسه : « الله أكبر » ويكرّر التكبير وهو يحني رأسه للمرة الثانية . وكما في التضرع الأول ، يعيد في تضرّعه الثاني الكلمات عينها ، وبينما يرفع رأسه من جديد ليردّد التكبير كما في



أوضاع الصلاة المختلفة

السـابق . وهكذا تنتهي ركعـات الركعـة الواحـدة . ولا يحرّك المصلي خـلال أوضاع التضرع المختلفة أصابع قدمه اليمنى من المكان الذي كانت فيه أوّلاً ، ويحرّك قدمه اليسرى قليلاً

لمّا ينتهي من تأدية صلوات الركعة الواحدة ، ينهض المصلي على قدميه فلا يحرّك أصابع قدميه من موضعها (خاصة أصابع قدمه اليمنى) ويطفق يردد العبارات عينها ، مضيفاً سورة أخرى أو جزء من سورة بعد الفاتحة غير السورة التي يكون ذكرها سابقاً كسورة الكـوثر /١٠٨ ولا يـرفع المصلي ركبتيـه عن



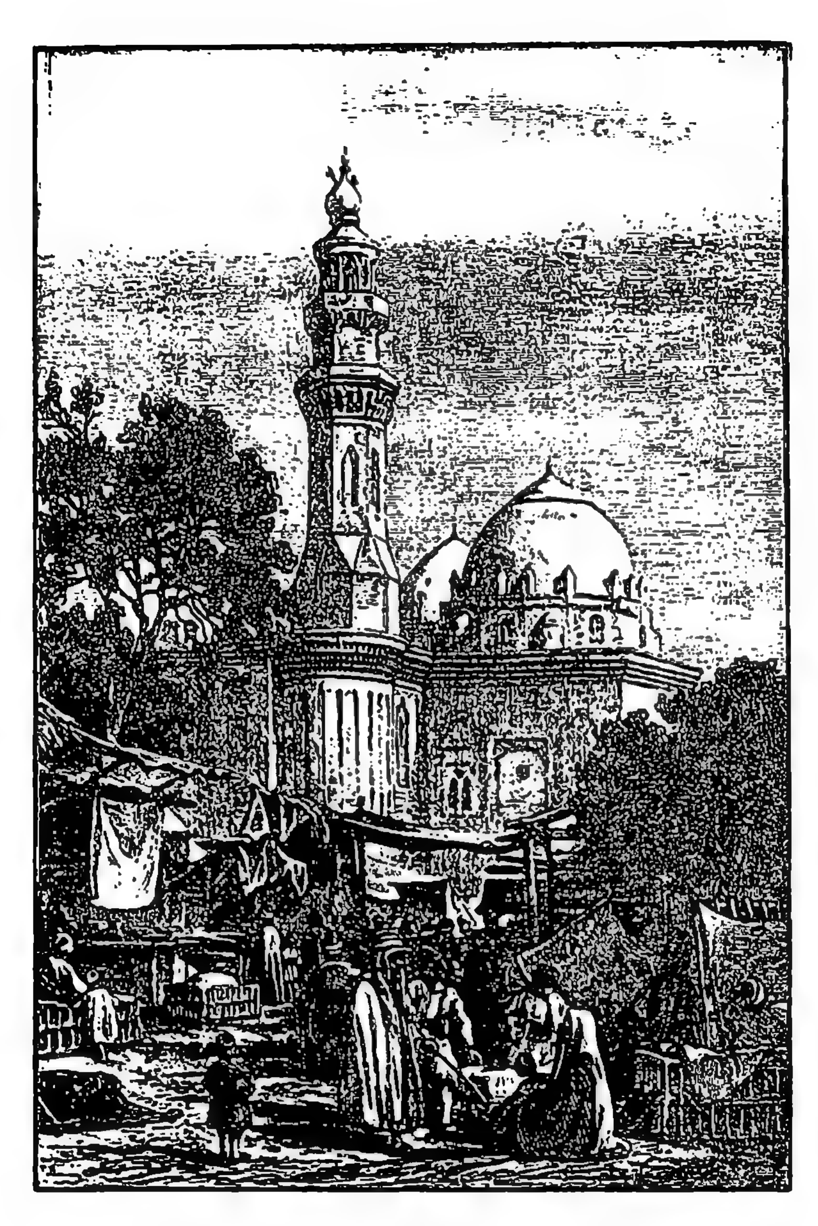
أوضاع الصلاة

الأرض فوراً بعد كلّ ثاني ركعة (وبعد آخـر ركعة تكـون وتريـة العدد كمـا في فرض المساء) ، بل يعمل على ثني قدمه اليسرى تحته ويجلس عليها ويجعل يديه فوق فخذيه مع تباعد أصابعه قليلاً ويطفق يقول وهو في هذه الوضعية « التحيات المباركات الصلوات الطيّبات لله السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ويضيف وهو يرفع خنصر يده اليمنى (وليس يده كلها) « أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأشهـد أنّ محمداً عبـده ورسوله »

وبعد آخر ركعة من كل صلاة (أي بعد أداء صلوات السنة والفرض) وبعد أن يردد المصلي الحمدلة ينظر إلى كتفه اليمنى فيقول : « السلام عليكم ورحمة الله » وناظراً إلى كتفه اليسرى يردّد العبارة نفسها وحسب البعض ، فإنّ هذا التسليم موجّه إلى الملائكة الحارسة التي ترافق المؤمن وتلحظ كلّ تصرفاته ؛ وأمّا البعض الآخر فيعتبر التسليم موجّهاً إلى الملائكة والرجال الحاضرين الى حد سواء (المؤمنين فقط) ، علماً أن أحداً لا يردّ السلام ، وقد يصلي المؤمن قبل التسليم في الصلاة الأخيرة تضرّعاً قصيراً ـ قد يؤخذ من أي كتاب مقدس غير كتابه ، وبينما هو يقرأ هذا التضرع ، ينظر إلى راحتي يديه الاثنتين اللّتين يجعلهما ككتاب مفتوح أمامه ثمّ يمرّرهما فوق وجهه من جبهته نزولاً

ولمّا ينتهي من صلوات السنة والفرض ، يمكن للمصلي أن يتلو آيات إضافية وهو جالس (ويمكنه بعد ذلك الجلوس على راحته) منها آية الكرسي » وهي الآية ٢٥٦ من السورة الثانية في القرآن (أي سورة البقرة) فيقول: «يا عليّ يا عظيم يا صمد»، ثم يردّد « يا صمد » (ثلاث وثلاثين مرة) و « الشكر والحمد والثناء للّله كثيراً (مرة واحدة) ، « الحمد لله » (ثلاث وثلاثين مرة) ، ولا إله إلاّ هو (مرة واحدة) ، الله أكبر (ثلاث وثلاثين مرة) ، الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً (مرة واحدة) ويسبّح بواسطة « السِّبحة » (أو « السُّبحة » وهي الأصح) ؛ ويبلغ عدد الخرزات تسع وتسعين خرزة ونجد فاصلاً بين كل ثلاث وثلاثين منها ، وهي مصنوعة من الألوة أو من أي خشب ثمين ذات رائحة طيبة أو من المرجان أو من نواة التمر أو البزور .

لا يصح أن يشرد المصلّي في فكره أو نظره أو أن يقاطع صلاته سعال وما شابه ، كأن يجيب على سؤال يُطرح عليه أو يقوم بأية حركة في غير محلّها (إلاّ إذا حصل بين صلوات السنة وصلوات الفرض) أو كان صعباً تحاشيها. لذا، يُسمح للمصلي بثلاث حركات بسيطة غير متناسقة تتنافى والتصرف السليم؛ وإلاّ كان لزاماً عليه أن يكرّر صلواته من الأول بالإجلال الموجَب وإنّه لمن



جامع السلطان حسّان في القاهرة

الخطيئة بمكان مقاطعة رجل وهو يتعبّد ويصلي . ولا تستغرق صلوات الأربع ركعات عادة ـ دون الإضافات ـ أكثر من أربع دقائق أو حتى ثلاث . ويؤدي المسلم فريضة صلواته الخمس اليومية في منزله أو متجره أو في الجامع حسب ما يراه مناسباً . ونادراً ما يتوجّه من منزله إلى الجامع لتأدية الصلاة إلاّ للمشاركة الجماعية لتأدية صلاة يوم الجمعة ويصلّي معظم مسلمي الطبقات الدّنيا في الجوامع لافتقارهم إلى منزل مريح فسيح ـ كمنازل ميسوري الحال ـ أو على حصير أو سجادة صلاة .

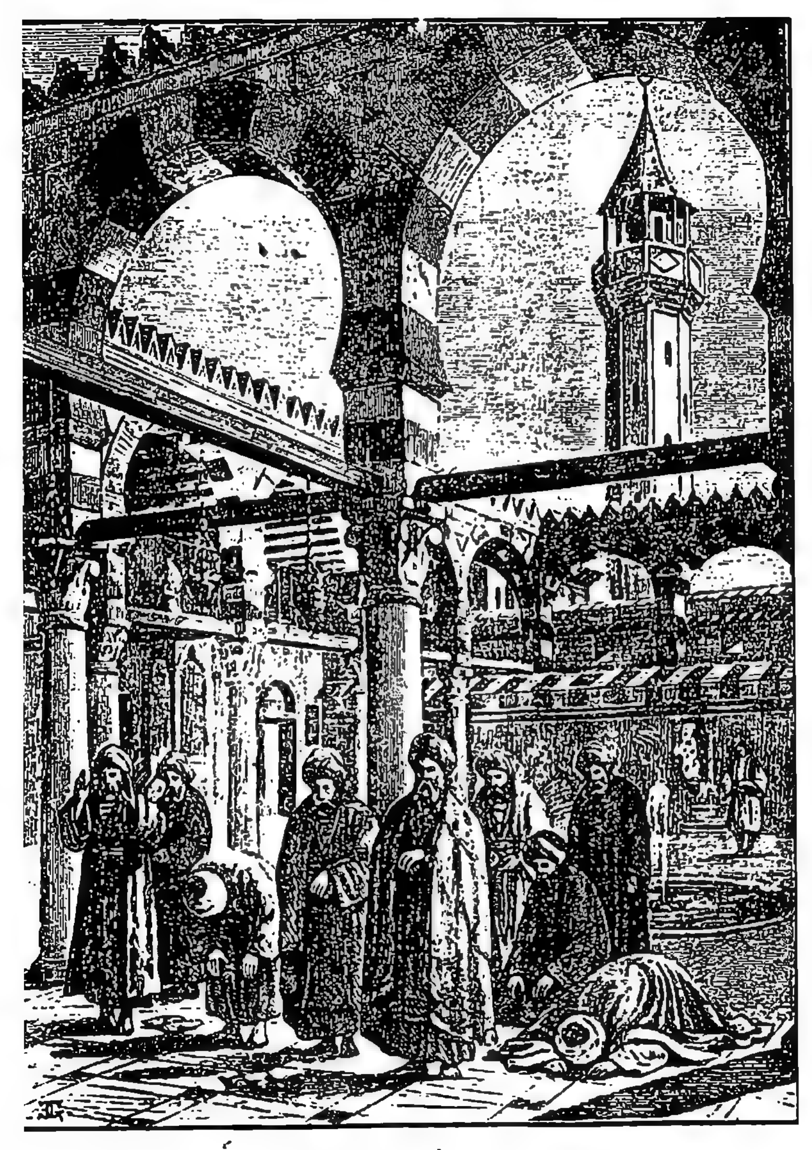
تقوم جماعة المصلين بتأدية الصلوات نفسها في الجامع ظهر يوم الجمعة ، وتُزاد عليها شعائر أخرى يقوم بها الإمام أو غيره من رجال الدين بهذه المناسبة وأمّا الأسباب الرئيسية للأهمية التي يكتسيها نهار الجمعة ـ كما يوم السبت عند اليهود ـ فهي أنّ آدم خُلق في هذا اليوم ومات في اليوم نفسه أيضاً ، ولأنّ يوم البعث ـ حسب النبوءة ـ حاصل يوم جمعة ومن هنا ، جاءت تسمية « الجُمعة » والكلمة تعني الاجتماع أو التجمع ولا يمتنع المسلم نهار الجمعة عن مزاولة أعماله الدنيوية إلاّ وقت الصلاة وفقاً لما جاء في القرآن

لا بدّ ـ بهدف تكوين فكرة واضحة عن ابتهالات يوم الجمعة ـ من دخول الجامع . والجامع هو المكان الذي يحتشد فيه المؤمنون ويجتمعون لأداء صلوات نهار الجمعة تحفل مصر بالجوامع ، ولذا فهي لا تشهد اكتظاظاً خانقاً نهار الجمعة ؛ ويكون بعضها فسيحاً بحيث تتراوح مساحته بين ثلاث أو أربع مئة قدم مربعة ومعظم هذه الجوامع مبني من الحجر ومطلي من الخارج باللونين الأحمر والأبيض. ويتألف الجامع الفسيح عادة من أروقة يحيط بها فناء رحب مربّع شيّدت في وسطه نافورة ماء للوضوء وأحد جوانب الجامع موجّه نحو مكّة المكرّمة ويُجعل رواق هذه الناحية مكان الصلاة الأساسي ويكون أوسع وأكبر من جوانب الفناء الثلاثة الأخرى. يتألف الرواق عادة من عامودين أو أكثر ؛ وتشكل هذه العواميد مماشي متوازية مع الجدار الخارجي يكون الرواق في بعض الحالات كما الأروقة الثلاثة الأخرى مفتوحاً على الفناء ؛ وهو

في حالات أخرى مفصول عن الفناء بحواجز خشبية تربط مجموعة العواميد الأمامية ويقع في وسط جدار الرواق الخارجي « المحراب » الذي يشير إلى اتجاه مكة ؛ ويقع إلى يمين « المحراب » « المنبر » . ومقابل المحراب عند جهته الرواق الأمامية أو في وسطه منصّة هي « الدِّكة » يحيط بها حاجز خشبي وتدفعها عواميد صغيرة ؛ وإلى جانب هذه الدِّكة أو قبلها مقعد أو مقعدان جُعل فوقهما مِقرأ يمكن وضع القرآن عليه لتلاوة إحدى سُوره لحشد المصلين وأمّا جدران الجامع فبسيطة مبيّضة بماء الكلس فحسب . وفي جوامع أخرى يكون الجزء السفلي للمقرأ مخططاً بالرخام الملون وجزؤه الآخر مزخرفاً بنقوش من الجص هي في معظمها كتابات قرآنية ، بالغة الجمال في مجموعة طُنفها ؛ ولا تزخرَف الجدران قط برسومات لكائنات حية وأمّا أرض الجامع فمغطّاة بالحُصر يؤدي عليها الغني والفقير الصلاة معاً ، فلا يحظى الإنسان الميسورة حاله أو صاحب المقام الرفيع بحظوة خاصة إلاّ إذا حمل له خادمه سجادة الصلاة وبسطها أمامه كما هي الحال أحياناً

لم يمنع الرسول ﷺ النساء من حضور الصلوات العامة في الجامع، لكنّه فضّل لهن الصلاة في منازلهن ومع ذلك ، فغير مسموح للمرأة أو الصّبية في القاهرة تأدية واجب الصلاة مع حشد المصلين في الجامع أو حتى الحضور إلى الجامع في أوقات الصلاة . ولقد سُمح للنساء سابقاً ـ وربّما مايزال مسموحاً لهن في بعض البلدان ـ بتأدية الصلاة جماعة ، ولكنّهن كنَّ يُجبَرن على فصل أنفسهن عن الرجال والوقوف وراءهم ، لأنّ المسلمين ـ كما لاحظ « سيل » (Sale) يعتقدون أنّ وجود المرأة بينهم إنّما يوحي لهم بنوع آخر من العبادة مختلفة تماماً عن تلك الموجبَة في مكان خُصِّص أصلاً لعبادة الله ، علماً أنّ القلة القليلة من نساء مصر يُصلين حتّى في منازلهن

يرأس كل جامع في مصر « الناظر » وهو القيّم على الأموال المحصّلة من الأراضي والمنازل والتي يوصي بها مشيّد الجامع وغيره آخرين إلى الجامع ؛ كذلك يعيّن الناظر رجال الدين والخدم المرتبطين بالجامع



داخل أحد الجوامع

يتولّى إمامان أمور الجوامع الكبيرة ويُعرف أحدهما بالخطيب وهو الذي يقوم بالوعظ وبالصلاة أمام حشد المصلين نهار الجمعة ؛ وأمّا ثانيهما فهو « الإمام الرّتيب » الذي يتلو الصلوات الخمس كلّ يوم في الجامع ويترأس حشد المصلين الذين قد يصادف وجودهم في أوقات الصلاة المحددة . ويتولّى إمام واحد مقام هذين الإمامين معاً في جوامع مصر الأصغر . ولكلّ جامع مؤذّنه الخاص أو مؤذّنيه إضافة إلى البّوابين ، ويتوقف ذلك على وجود مئذنة واحدة أو أكثر إضافة إلى المداخل. ويتولى خدم آخرون تكنيس الجامع وتنظيفه وبسط الحُصر وإضاءة المصابيح وجلب الماء من الساقية لملء الأحواض المخَصصة للوضوء . ويحصل الإمامان والأشخاص الآخرون ذات المراتب الأدنى والأعمال الوضيعة على أجورهم من الأموال المخّصصة للجامع وليس من المساهمات المجموعة من الشعب .

يختلف وضع الأئمّة اختلافاً كبيراً عن وضع الكهنة المسيحيين فهم لا يتمتعون بأية سلطة على الآخرين وليس احترامهم موجباً إلّا بقدر تقواهم أو تعلّمهم ؛ ولا هم يشكّلون طبقة مميّزة خاصة من الرجال يعنون بالأمور الدينية كرجال الكهنوت المسيحيين أو يشكّلون أخويّة سرمدية . ومن حق ناظر الجامع إقالة إمامه الذي يفقد بفقدانه وظيفته وراتبه لقبه كإمام ولا أمل له أن يتم اختياره ثانية كممثل ديني مفسحاً المجال لشخص كفء غيره بتولّي واجبات الإمام . وللإمام سبل أخرى يطرقها في تحصيله معيشته وقوته إضافة إلى خدمته الدينية في الجامع بسبب ضآلة الراتب المُعطى له ، فلا يحصل الخطيب على أكثر من قرش سنوياً وأمّا الإمام فراتبه خمسة قروش وكذلك يتعاطى بعض الأئمة الأمور التجارية ، فترى العديد منهم عطّارين وآخرين معلمي مدارس . والذين لا عمل ثابت يزاولونه يعتمدون في تحصيل عيشهم على تلاوة القرآن في المنازل الخاصة مقابل أجر . ويتم اختيارهم عادة من بين أئمة جامع الأزهر الفقراء

تفتح الجوامع الكبيرة أبوابها من الفجر وحتى بُعَيد صلاة « العِشاء » أو حوالي السّاعتين بعد المغيب ، في الوقت الذي تقفل فيه الجوامع الأخرى

أبوابها من وقت صلاة الصباح وحتى صلاة الظهر . وكذلك توصد معظم الجوامع أبوابها أيام الشتاء الممطر (إلاّ في مواقيت الصلاة) خشية أن يدخل الجامع أشخاص لا ينتعلون حذاءاً فيوسخّون أرضه والحصر ؛ ويدخل هؤلاء عادة من الباب الأقرب إلى حوض الماء (إن وُجد أكثر من باب) ، وقد يغتسلون قبل ولوجهم مكان الصلاة . ووحده هذا الباب يترك مفتوحاً أيام الطقس الممطر الموحل وتبقى أبواب جامع الأزهر مشرّعة مفتوحة طوال الليل ما عدا باب المكان الرئيسي المخصص للصلاة وهو « المقصورة » ويكون مفصولاً عادة عن باقي الجامع . وترى الناس في العديد من الجوامع الكبيرة خاصة فترات بعد الظهر يمضون الوقت متبطّلين أو يتحادثون أو يأكلون أو ينامون وأحياناً يغزلون ويخيطون أو يمتهنون أعمالاً حرفية بسيطة . وإذا غضضنا النظر عن هذه الممارسات المخالفة لتعاليم الرسول ﷺ، نرى أن المسلمين يكنّون جليل الاحترام لجوامعهم . وفي القاهرة جوامع (كجامع الأزهر وجامع الحسنين) لم يكن مسموحاً حتّى مؤخراً لأيٍ من الفرنجة أو من المسيحيين أو اليهود المرور أمامها منذ الحملة الفرنسية على مصر .

يصعد مؤذن الجامع نهار كل يوم جمعة قبل آذان الظهر بنصف الساعة إلى باحة المئذنة ويتلو «السّلام» وهو دعاء للرسول ﷺ لا تعبّر عنه نفس الكلمات دائماً ويقول « السّلام » : « الصلاة والسلام عليك ، لك العزة يا رسول الله ، الصلاة والسلام عليك ، الصلاة والسلام عليك يا أوّل خلق الله وخاتم رسل الله ، والصلاة والسلام عليك وعلى آلك وأصحابك أجمعين » . فلمّا يسمعون هذه الأدعية يبدأ الناس بالتجمع والاحتشاد في الجوامع .

يتصرف المسلم في الجامع بكل ما أوتي من رزانة ولباقة وإجلال . ولا ينمّ مظهره ومسلكه في الجامع عن عبادة متأجّجة متقدة بل عن تقوى هادئة متواضعة ، ولا يزلّ لسانه فينطق بكلمات في غير موضعها ولا هو يقوم بعمل شائن خلال صلاته ، فكأنه يرمي جانباً عندما تطأ قدماه المسجد اعتداده وتعصبه المعروفين عنه في حياته العامة أو في طريقة تعامله مع أناس من دينه أو من

غيره ؛ فإذا به الخاشع السّاجد في تعبّده خالقه ، متواضع من غير تصلف أو تكلّف .

يخلع المسلم حذاءه عند باب الجامع ويحمله في يده ، جاعلاً النعل على النعل ، وتطأ قدمه اليمنى العتبة أولاً فإن لم يكن توضّأ سابقاً ، يحضّر نفسه للتوجه إلى حوض الماء للاغتسال وأداء واجب الوضوء وقبل المباشرة بصلواته ، يضع حذاءه (وسيفه أو مسدّسه في حال توفّرهما) فوق الحصير على قيد أنملة من الموضع حيث يلمس رأسه الأرض للصلاة ويضع حذاءه الفردة فوق الفردة ويصطف الأشخاص الذين تجمعوا لأداء صلاة الظهر نهار الجمعة في صفوف متقابلة في الجهة حيث المحراب وفي الجهة المواجهة له ولا يتوجّه الكثيرون إلى الجامع حتّى يحين موعد آذان الظهر أو قبيله فلمّا يذهب المصلي إلى الجامع أو بُعيد سماعه السلام ، يعمل على تأدية ركعتين بعد أن يأخذ مكانه بين جموع المصلين ويبقى جالساً على ركبتيه أو القرفصاء ويقوم قارىء تربّع على كرسي القراءة مباشرة بعد « السلام » فيتلو سورة الكهف (سورة ١٨) عادة غيباً أو بعض آياتها دون الاستعانة بالقرآن ولمّا يتوقف عن التلاوة يكون حان وقت رفع آذان الظهر . وحالما يسمع جمهور المصلين الآذان (الذي لا يختلف عن الآذان باقي أيام الأسبوع) ، يجلسون على ركبهم وأقدامهم ولمّا ينتهي الآذان يقفون ويؤدون ركعتين ـ كلٌّ بمفرده ـ تشكلاّن « سنّة الجمعة » يختمانهما كباقي الصلوات بالتسليمَيْن المعروفَيْنْ . بعدها يفتح « المُرَقّي » الأبواب المصرّعة عند قدم أدراج المنبر ، فيستل سيفاً خشبياً مستقيماً من وراء الباب ويقف إلى يمين المدخل جاعلاً جانبه الأيمن صوب القبلة حاملاً السيف بيمينه وواضعاً رأسه على الأرض ، ويروح يقول وهو في هذا الوضع « إن الملائكة تفضّل حقاً رسول الله والملائكة حقاً تباركه فيا أيها المؤمنون باركوه وسلّموا عليه تسليماً » . ثمّ يقف « المُبَلِّغ » أو « المبلّغون » على « الدِّكة » فيردّدون [ما معناه] « اللهم احفظ وبارك أنبل العرب والأعجام ، إمام مكة والمدينة والمسجد الأقصى الذي خلّصه العنكبوت فنسجت خيوطها على كهفه وباضت الحمامة بقربه وانشق القمر إكراماً له ـ سيدنا محمد وآله وصحبه » ثمّ

يرفع المرقّي الآذان (والذي يكون المؤذّن رفعه قبلاً) ويلجأ إلى وقفة قصيرة بعد ترتيله كلمات قليلة ، فيعيد « المبلّغ » من على « الدكه » الكلمات عينها في تلاوة جهورية رنانة . وقبل انتهاء الآذان ، يحضر الخطيب أو الإمام إلى قدم المنبر ويأخذ السيف الخشبي من يد « المرقّي » ويصعد إلى المنبر فيجلس على الدرجة العليا أو على المنصّة . وتزين منابر الجوامع الكبيرة اليوم رايتان ترتسم عليهما المجاهرة بالإيمان أو تظهر أسماء الله الحسنى واسم الرسول ﷺ ؛ وتثبّت هاتان الرايتان أعلى الدرجات وتميلان إلى الأمام قليلاً. ولما ينتهي المرقّي والمبلّغ من رفع الآذان ، يعمد الأوّل إلى تكرار حديث للرسول ﷺ [ما معناه] : إذا تكلّمت إلى صديقك وكان الإمام يخطب نهار الجمعة، فاحفظ الصمت ولا تندفع في الكلام لُذ بالصمت يجازيك الله ويكافئك . ثم يجلس فينهض الخطيب حاملاً السيف الخشبي كما المرّقي ويلقي ما يعرف « بخطبة الوعظ »، وهي من خطب الوعظ التي تثير في نفس القارىء الفضول للإلمام ولو قليلاً بالخطب التي يلقيها المسلمون في أول نهار جمعة من السنة العربية . والخطبة هذه منثورة ذات إيقاع منسجم يقول مطلعها « الحمد لله مقلّب الأحوال مضاعف الحسنات ، خلق الأيام والشهور فصوّرها أحسن تصوير وكرّم الأشهر الهجرية على سائر الأشهر فبدأها بمحرّم وأنهاها بذي الحجة »

وبعد إنهاء الخطيب خطبته يتوجّه إلى حشد المصلّين قائلاً : « ابتهلوا إلى الله » ، ثم يجلس ويصلي بشكل منفرد . ويعمد كلّ مصلّ من المصلين في الوقت نفسه إلى ابتهالات خاصة كما بعد انتهائه من صلواته العادية ويرفع يديه أمامه (ناظراً إلى باطنهما) ويمسح بهما وجهه . فلمّا ينتهي يختم المبلّغ بدوره « آمين ، آمين يا رب العالمين » . عندها ينهض الخطيب مرّة أخرى فيتلو خطبة أخرى ، هي « خطبة النّعت »

تزخر خطبة الخطيب خلال ارتفاع منسوب النيل بالدعوات والصلوات فيأتي الفيض خيراً ولمّا ينتهي الخطيب أو الإمام من خطبته يترجّل من على المنبر فيرتّل « الإمامة » ، ثم يقف أمام محرابه فيصلي صلوات نهار الجمعة « الفرض » ـ كناية عن ركعتين مشابهتين للصلوات العادية الأخرى ، فيحذو

المصلون حذوه بصمت وخشوع ، ويرافقون الإمام في أوضاع الصلاة المختلفة ومن كان بين جمع المصلين من المالكيّة ، يغادر الجامع لمّا يفرغ من صلاته وكذا مصلّو المذاهب الأخرى ؛ وأمّا بعض الشافعية والحنيفيّة (ولا تعرف القاهرة سوى نسبة ضئيلة من الحنبلية) فيبقون في الجامع ليؤدوا فرض صلاة الظهر ، فيحتشدون جماعات جماعات منفصلة ، ويَؤمّ كل جماعة منها إمام ولمّا يغادر الأغنياء الجامع ، يتصدّقون على الفقراء والمساكين المتجمعين خارجاً ما قدّرهم الله عليه من مال .

كما يؤدي المسلم صلوات أخرى في مناسبات خاصة ، في العيدين السنويين المهمّين وكذلك إحياءاً لشهر رمضان المبارك وبمناسبة كسوف الشمس أو القمر أو ابتهالاً بقدوم الشتاء؛ وأحياناً قبل خوضه المعارك الحامية الوطيس أو في مواسم الحج وفي المآتم والأحزان .

وأفيض في الحديث عن عبادة المسلم بسبب عدم تبلور الصورة في ذهن أبناء يجدتي الأوروبيين والأخطاء واللغط السائد حول هذا الموضوع إذ يتخيل البعض أنّ المسلم يصلي لرسوله كما لربه . ويرفع المسلمون الإبتهالات لرسولهم متلمّسين شفاعته خاصة عند قبره حيث يردّد الأتقياء : « نسألك الشفاعة يا رسول الله » ، وكذلك يلتمس المسلمون شفاعة العديد من أوليائهم

والغرض الثاني الذي يلي الصلاة أهمية هو إعطاء الحسنة وإيتاء « الزكاة » حسب ما تنص عليه الشريعة . وأمّا أنواع الحسنات الأخرى فتُعرف « بالصَّدَقات » وهي طوعية خيارية لا تفرضها الشريعة . وكان يجمع الزكاة ـ وهي المفروضة ـ في أوّل عهد الإسلام أشخاص يعيّنهم الحاكم لأغراض دينية كبناء الجوامع . وأمّا اليوم فيترك النّصاب الشرعي حسب ما تسمح به نفس كلّ مسلم وبالطريقة التي يراها مناسبة ، يقدّمها للمستحقين من الفقراء والمساكين يختارهم بنفسه . وتجب الزكاة مرّة واحدة كلّ سنة تؤخذ من القطيع والأغنام بمعدّل خروف أو ما شابه لكلّ أربعين خروفاً أو إثنين لكلّ مئة وعشرين ،

وبمعدّل شاة لكلّ خمسة جمال ؛ أو ناقة تليدة لكل أربع وعشرين ناقة . والأمر نفسه ينطبق على الزكاة الموجبة في المال والتي قد تقتطع من المال ومن أصناف التجارة عند الحنيفيين . ومن كان معه من المال ما يُعادل (وتُحسب هذه القيمة عند الحنيفيين ذهباً وحليّ فضية) ، وجَب عليه إخراج الزكاة بمعدل ربع العشر أو ما يعادل هذه القيمة .

والصوم هو الفرض الثاني في الإسلام ؛ فقد فرض اللّه على كل مسلم أن يصوم شهر رمضان المبارك من طلوع الفجر أو بالأحرى من ساعة انبلاج الضوء بشكل يسمح للمرء بالتمييز بوضوح بين خيط أبيض وآخر أسود (نحو ساعتين قبل الشروق في مصر) حتّى المغيب . وعلى المسلم الإمساك عن المأكل والمشرب والتدخين واستنشاق العطور والكفّ عن كل متاع دنيوي ، والصائم يمتنع حتى عن بلع لعابه عمداً وإذا حلّ رمضان صيفاً يأتي الصوم قاسياً ، فيشعر الصائم بوطأة الإمساك عن الشرب . وأمّا المرضى أو من هم على سفر والمحاربون زمن الحروب فقد أباح الله لهم أن يفطروا خلال شهر رمضان على أن يصوموا أيام فطورهم لاحقاً ، وكذلك أعفى الإسلام المرأة الحامل والمرَضعة من الصوم. كما كان الرسول ﷺ يعترض على صوم الصائم الذي لا يقوى على تحمل الصوم ، فلم يكن يحث آيّاً كان على الصوم والإجهاد إن كان الصوم يضرّ بصحته أو كان يؤخره عن قيامه بواجباته . ويعتبر المسلمون المحدثون صوم رمضان من أهمّ الواجبات الدينية المفروضة عليهم ؛ فالعديد منهم يصومون وهم عن صلاتهم ساهون ، وحتّى الذين يقطعون صلاتهم يُدعون للمحافظة على وتيرة صيامهم . ويفطر العديد من مسلمي الطبقات الغنية بشكل سري خلال شهر رمضان ؛ بيد أن أكثرهم يحافظون على صيامهم متشدّدين فيه وإن كان مهلكاً للعديدين في سقيمي الصحة ومعتلّيها وهناك أيام أخر يعتبر فيها الصوم حلالاً وإن ليس ضرورياً وأمّا أيام العيدين ـ خاصة عيد الفطر بعد رمضان ـ فلا يجوز الصوم خلالها وقد حرّم الرسول ﷺ ذلك بشكل واضح

والحج آخر فرائض الإسلام الأربع . فلقد أمر الله تعالى المسلم البالغ

أداء فريضة الحج والتوجه إلى جبل عرفات ولو مرة واحدة في العمر إذا استطاع له سبيلاً ، وكان لديه المال الكافي وكان صحيح الجسم . فإذا كان المسلم حنيفياً ، يُرسل شخصاً آخر ينوب عنه في أداء فريضة الحج ويدفع له كل النفقات . ومع ذلك يهمل الكثيرون من المسلمين فريضة الحج ، فلا تكون عندهم حجة شرعية لذلك ولا هم يُلامون ولا يكفي المسلم أن يقوم بزيارة مكة فيؤدي كلّ واجباته كأن يطوف حول الكعبة المشرّفة سبع مرات وأن يقبّل الحجر الأسود في كل مرة إضافة إلى الشعائر الأخرى في المدينة المنورة حتّى نخلع عليه لقب الحج وسدرة المنتهى في الحج الذهاب إلى جبل عرفات الذي يبعد حوالي ست ساعات عن مكة . ويرتدي المسلم خلال أدائه فريضة الحج وخلال زيارته لجبل عرفات وحتّى انتهاء مناسك الحج رداءاً خاصّاً هو « الإحِرام » (والكلمة الشائعة هي الحِرام): عبارة عن قطعتين من القماش أو الكتان أو الصوف غاية في البساطة تغيب عنه أية بهرجة أو زينة بحيث يلف الحاج نصفه الأعلى بقطعة قماش غير مخاطة ويأتزر بقطعة أخرى تلفّ نصفه الأسفل بينما يبقى الحاج مكشوف الرأس حافي القدمين. وحديثاً بدأ الحجاج يستعينون بالمظلات إتقاءاً من حرارة الشمس . ومن الضروري أن يكون المسلم حاضراً عند إلقاء الخطبة في جبل عرفات من بعد ظهر التاسع من شهر ذي الحجة . ويبدأ الحجاج في الليلة التالية بعد المغيب ، بالعودة إلى مكة ويذهبون قبل طلوع شمس العيد إلى وادي مِنى (أو مُنَى ، وهو موضع خارج مكة في طريق عرفات) ، وينهون مراسيم الحج بالأضحية وتشمل الغنم والماعز والإبل والبقر وهذه هي الأنعام ، ويأكلون من لحم الأضحية ويوزعون منها على الفقراء والمساكين كما يقوم الحاج بقص شعره والإغتسال وتقليم أظافره ، ثمّ يلبس ملابسه العادية أو لباساً جديداً إن كان متوفراً وتُعرف الأضاحي « بالفِدَى » تخليداً لذكر افتداء إسماعيل بخروف وكان أبوه على وشك أن يضحي به ؛ ويعتقد المسلمون أنّ إبراهيم كان ليضحي بابنه « إسماعيل » وليس « بإسحاق »

وكذلك ترتبط احتفالات أخرى بتلك التي فرغت من الحديث عنها . ومن

هذه الاحتفالات العيدان : « العيد الصغير » و « العيد الكبير » إذ تقام بهاتين المناسبتين الصلوات العامة ويستقبلهما المسلمون بالفرح والابتهاج . وأمّا « العيد الصغير » فأيامه ثلاثة وأمّا « العيد الكبير » فثلاثة أو أربعة .

وواجب على المسلم في أوّل أيام عيد الأضحى (وهو يوم الأضاحي) ذبح أضحية إن كان بميسوره شراء واحدة . ويضحي الأغنياء بأكثر من خروف وجاموس ويوزّعون معظم لحم أضاحيهم على الفقراء والمساكين . وقد يكلّفون نائباً عنهم للذبح الأضحية .

وأمّا الحرب ضد أعداء الإسلام فواجب مقدّس وهو « الجهاد » الذي فرضه الله على المسلمين لردّ المعتدين . وقد جعل الله الجنة جزاءاً للمجاهدين في الآخرة . ويتفق بعض فقهاء المسلمين البارزين أنّه على المسلمين قتل كل الوثنيين الذين يرفضون الإسلام ديناً خلا الأطفال والنساء اللواتي يجعلون منهن جاريات وإماء[1] ؛ بيد أن مثل هذا التأكيد يتعلق بالعرب الوثنيين الذين نكثوا عهودهم وناصبوا محمد وأنصاره العداء . وتختلف الأحكام ـ بالنسبة للفقهاء الأكثر حصافة وتمحّصاً ـ المتعلّقة بالوثنيين وكذلك بالنصارى واليهود الذين جرّوا على أنفسهم عدائية المسلمين . فإن تمّ التغلب على مثل هؤلاء الأعداء وقهرهم بقوة السلاح بعد رفضهم الاستسلام من تلقاء ذواتهم ، يمكن قتل الرجل أو استرقاقه وكذلك استرقاق النساء والأطفال في ظل تلقاء أنفسهم شرط أن يؤمنوا بالإسلام ديناً أو أن يدفعوا مكساً (ضريبة معينة) إلا في حال خانوا عهد الإسلام كما فعل بنو قريظة الذين نكثوا عهدهم مع النبي وتحالفوا مع القريشيين في غزوة الأحزاب ، فحاصرهم في معاقلهم وأعمل فيهم

---

(١) لقد أضلّني اتفاق هؤلاء الفقهاء والرأي السائد في أوروبا ، فصوّرت أحكام « الجهاد » بشكل قاسٍ يتنافى وروح القرآن عند انكبابي إلى دراسة أحكام القرآن وأحكام المذهب الحنفي . وأنا مدين للسيد «أوركهارت Urquhart » الذي اقترح عليّ ضرورة مراجعة تعليقي السابق حول هذا الموضوع ؛ ولا بد لي من أن أعبّر عن اقتناعي التام بأن النصوص القرآنية لا تبرّر قيام حرب عبثية

السيف ، فقُتِل رجالهم ؛ وجُعل نساؤهم وأطفالهم إماءاً وعبيداً . وكذلك يحرَّم على المسلمين التصادق مع الكافرين . ولا بدّ من التوقف عند بعض الأحكام المُحَرِّمة في القرآن والمتعلّقة بالمسلك الخُلقي والإجتماعي لأتباع الإسلام .

يحرَّم على المسلمين شرب الخمر أم الخبائث والمسكرات الأخرى « فسيئاتها أكثر من حسناتها » . ويبادر العديد من المسلمين المصريين إلى شرب الخمر على أنواعه خفيةً ، ولا يرى بعضهم خطيئة في شربه باعتدال ، فلا يشربونه علناً . وقليلون هم المصريون الذين يشربون الخمر بشكل فاضح ويشرب المراكبيون وناس الطبقات الدنيا « البوظة » وهي شراب مسكر من خبز الشعير المفتّت الممزوج بالماء الذي يُصفى ويترك حتى الإختمار . وأمّا الأفيون وغيره من المخدرات التي تحدث الأثر نفسه فغير شرعية رغم أن ذكرها لم يرد في القرآن . كما يُعتبر الأشخاص المدمنون على هذه المخدرات من أصحاب الطبائع السفيهة ونسبتهم ضئيلة في مصر . وكذلك اعتبر بعض المسلمين تدخين التبغ وحتى شرب القهوة من المحظورات والمحرَّمات وأمّا أكل لحم الخنزير فمحرَّم تماماً ويكفي تأثيره الضار في المناخ الحار ليكون سبباً للتحريم . والمسلمون ينفرون من الخنزير لقذارته . ونلاحظ أنّ كلّ ما حرّمت شريعة موسى تناوله من لحم الحيوان تحرّمه أيضاً الشريعة الإسلامية إلاّ لحم الجمل ؛ وكذلك يحرّم الإسلام أكل لحم الميتة والدم ولجم الخنزير ولحم أي حيوان ذُكر عند ذبحه اسم غير الله وكذلك يحرَّم أكل لحم المنخنقة والموقوذه والمتردّية والنّطيحه وما أكل السّبع ـ أي تلك التي قتلها حيوان مفترس ـ والمضحّى بها للأوثان . ويذبح الحيوان الذي أحلّ الإسلام للإنسان أكل لحمه بطريقة خاصة . فعلى الذابح أن يذكر اسم الله عند ذبحه الحيوان بأن يقول « بسم الله ، الله أكبر » ثم يقطع بسكينه الحاد حلقوم هذا الحيوان ومرئه (مجرى التنفس) والودجين (وهما عِرقان في جانبي العنق) . وأمّا إذا كان الحيوان جملاً أو ناقة ، فعلى الصائد طعن الحلقوم عند الجهة القريبة من الصدر . ويحرَّم عند ذبح الحيوان العبارة التي يتم ذكرها عادة في مناسبات أخرى وهي البسملة كاملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ فالرحمة من صفات

الله ولذا فقد يعتبر البعض أنّ ذكر هذه الكلمات نوع من السخرية أمام العذاب الذي يواجهه الحيوان المذبوح. يردّد بعض المصريين وخاصة النساء قول: « بسم الله ، الله أكبر » عند شروعهم في ذبح أي حيوان إبتغاء أكل لحمه ، ويضيفون : « صَبَّرك اللّه على الألم الذي خصّك به » فإذا كان الشخص الذابح صادقاً في دعائه ، تكون الطيبة من صفاته الحميدة . وقد يُسمح للمسلم في حالة الفاقة القصوى وخوفاً من المجاعة أن يأكل أي نوع من اللحوم التي حرّم الإسلام أكلها في ظروف أخرى . وطريقة الذبح المذكورة آنفاً لا تُطبّق إلاّ على الحيوانات الأليفة . ومعظم أنواع الأسماك محلّل أكله وكذا العديد من الطيور ، والداجنة تُقتل بالطريقة عينها كالأغنام وأمّا البريّة فتُرمى بالسهم أو بالرصاص ويجوز أكل لحم الأرنب والغزال والأرنب الوحشي وتُرمى هذه الحيوانات بسهم أو يقتلها كلب الصائد شرط أن يذكر اسم الله عند إطلاقه آلة الصيد أو إرساله كلب الصيد وأن لا يكون الكلب قد أكل جزءاً من طريدته ؛ ومع ذلك يعتّبر الكلب من الحيوانات النّجسة ويعتبر أهل الشافعية أنفسهم متنجّسين إن هم لمسوا أنف الكلب وهو رطب وإذا لمس الكلب أي جزء من ثيابهم فعليهم غسل هذا الجزء سبع مرّات بالماء وبالتراب النظيف مرّة واحدة . ويحرص البعض عدم ترك الكلب يلعقهم أو يلعق ثيابهم فينجّسهم وينجّس ثيابهم . وفي حال رُميت الفريسة بآلة صيد ولم تمت ، ينبغي قطع حلقومها فوراً وإلاّ حُرِّم لحمها وتقول الشافعية : « طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أوّلهن بالتراب » . يحرّم الإسلام القمار والرّبا وألعاب الحظ وكذلك تشخيص الصور أو أي كائن حي ينبض حياة . ويقول الرسول ﷺ إنّ أي تصوير من هذا النوع سيُجْعل أمام صاحبه يوم الحساب ، فيُؤمَر هذا الأخير أن ينفخ الحياة في هذه الصُّوَر ، فإن عجز ، يُرسَل إلى النار لوقت معين .

يبقى علينا تحديد الأحكام المدنية والجنائية الأساسية التي يمكن أن نردّها جزئياً إلى عادات الوثنيين العرب وإلى الكتابات اليهودية والأحاديث النبوية بمعظمها

تنحدر الأحكام المدنية والجنائية من القرآن مباشرة . ولكنّ القرآن ـ وهو

المرجع الديني الأعلى والأوّل للمسلمين ـ يغفل في بعض الحالات ذكر هذه الأحكام، فيلجأ القاضي إلى أحاديث الرسول ﷺ مسترشداً بها. ونجد مع ذلك حالات هامّة وأخرى أقل أهمية لم يبتّ القرآن ولا الأحاديث حكماً فيها أو كانا غير مستقرّين على رأي حيالها ؛ وتكون التفسيرات والإيضاحات المسهبة المنبثقة إمّا من توافق آراء الصحابة الأوّلين أو من قياس الأئمة الأربعة الكبار ـ مؤسسي المذاهب السنية الأربعة في الإسلام ـ الفاتق الراتق في أمّهات المسائل المطروحة . وهي تُبتّ عامةً بالعودة إلى إمام المذهب الحنفي الذي تنتمي إليه السلطة الحاكمة في مصر وسائر الإمبراطورية التركية . وفي حال لم تتناول أحكام الإمام القضية موضوع الخلاف (وهذا نادراً ما يحدث) ، يتم إصدار الحكم وفقاً لحكم أحد الفقهاء البارزين على أساس مبدأ القياس . ولن أتناول في معرض حديثي إلاّ الأحكام الأساسية التي وردت في القرآن وفي الأحاديث النبوية الشريفة .

تكرّس الأحكام المتعلقة بالزواج وتعدّد الزوجات وسهولة الطلاق والسماح بالتّسري (إتخاذ المحظيات) النتائج الطبيعية والضرورية للمبدأ الرئيسي في تركيبة المجتمع الإسلامي أي تحريم الاتصال الجنسي قبل الزواج. وقليلون هم الرجال الذين قد يتزوجون ثانية إذا خاب أملهم في زوجة لم يرونها قط قبل الزواج . وفي حال قيام الرجل بالزواج مرّة ثانية ، فإنّ سعادته الشخصية أو سعادة زوجته الأولى أو سعادة الزوجين معاً تحتم عليه إمّا الإحتفاظ بزوجته أو تطليقها . وآمل أن يتفهم قارئي هذه الأحكام فيعتبرها موضوعة للمسلمين فقط . وكما أن ألواح موسى تسمح لشعب الله المختار أمام قساوة قلوب أبنائه بإبعاد زوجاتهم محرّمة بذلك تعددية الزوجات والتسري ، فلا بد للذين يؤمنون بأنه أوحي اموسى سنّ أحسن القوانين لشعبه من تقبّله فكرة هذه الممارسات واعتبارها أقل مساساً بالأخلاقيات بدلاً من منعها وتحريمها في أوساط شعب مشابه للشعب اليهودي القديم فالسماح بهذه الممارسات التي تؤثر دون شك على السعادة المنزلية وتسيء إلى الأخلاقيات يمنع التهتك

والخلاعة أكثر بكثير من تلك المنتشرة في البلدان الأوروبية حيث يتّحد الزوجان برابط الزواج بعد معاشرة حميمة

وأمّا ما خصّ جواز تعدّد الزجات الذي يعرقل تحقيق الهدف الأساسي للزواج وجعله القوى الفكرية السامية في حالة تقهقر ، فتجدر الملاحظة أن المشرِّع الاسلامي لم يدخله بل حدَّ من انتشاره . صحيح أنّه أعطى لنفسه حق تعدد الزوجات أكثر ممّا سمح به لغيره ، لكنّه لم يفعل ذلك إلاّ بدافع الإكثار من ذريته بعيداً عن أيّة حوافز شهوانية

والأحكام المتعلقة بالزواج والتسري واضحة جداً بالنسبة إلى عدد الزوجات المسموح للمسلم الزواج بهن في وقت واحد ، بينما لا تحدّد هذه الأحكام عدد الجاريات الخليلات وقد ورد في كتاب الله العزيز : ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مَثنى وثلث ورُبَع فإنْ خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمنكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا ﴾ (سورة النساء) . لذا نجد أن العديد من المسلمين يقترنون بزوجتين أو ثلاث أو أربع إلى جانب خليلاتهم من الجاريات ؛ والكثيرون من أصحاب الشأن المبجّلين وحتى صحابة الرسول ﷺ حذوا الحذو عينه . ويظهر هذا المسلك أن الشريعة لم تحدد ـ برأي أهل السنة ـ عدد الخليلات اللواتي كان يحق للرجل الواحد اتخاذهن

أباحت الشريعة للمسلم الزواج بنصرانية أو يهودية إن أحبّها حبّاً يفوق الوصف أو أنه لم يستطع الإقتران بزوجة من دينه . وفي هذه الحال يتبع الأولاد دين والدهم ولا ترث الأم عند وفاة الزوج ؛ وأمّا المرأة المسلمة فلا يحق لها مهما كانت الظروف الإقتران برجل من غير دينها إلاّ إن هي أُجبرت على ذلك ويحرّم القرآن والسّنة على الرجل الزواج من والدته أو ابنته أو أخته أو شقيقته ، أو شقيقة والده أو امّه أو ابنته أخيه أو أخته وأي من أولادهما ، أو مرضعته أو أية أمرأة تربطه بها صلة الرضاعة أيّاً كانت هذه الصلة التي من شأنها أن تعيق زواجه بها أو هي مرتبطة به بفعل قرابة العصب ؛ كما يحرّم عليه القرآن الزواج من والدة زوجته حتّى وإن لم يعاشر زوجته ، وكذلك ابنة زوجته إن عاشر الزوجة وكانت

ما تزال على ذمّته ، وكذلك زوجة أبيه وزوجة إبنه ؛ كما يحرِّم عليه القرآن الإقتران بزوجتين هما أختان في الوقت نفسه أو الإقتران بخالة وابنة أختها معاً ، أو الإقتران بأمَتِه إن كان لم يعتقها أو بأمة رجل آخر إن كان مقترناً بزوجة حرّة في الوقت نفسه . كما أنّه مباح للرجل المسلم رؤية وجوه النساء اللواتي يحرّم عليه دينه الزواج بهن ولا يرى وجوه غيرهن باستثناء وجوه زوجاته وإمائه. ويتم زواج الرجل والمرأة أو زواج الرجل بفتاة وصلت مرحلة البلوغ شرعاً بإعلانهما عادة موافقتهما بالإقتران من بعضهما البعض (وتعيّن الفتاة البالغة عادة وكيلاً عنها) وبحضور شاهدين (إذا أمكن) وبدفع المهر كاملاً أو جزئياً . ولا يُسمح بأخذ موافقة الفتاة غير البالغة بعد ؛ ويتولّى أمر الموافقة والدها ، وفي حالة وفاته فأقرب أنسبائها البالغين من الذكور أو أي شخص يتم تعيينه وكيلاً عنها طوعيّاً أو يعيّنه لها القاضي والمهر إلزامي ، وأقلّ مهر تسمح به الشريعة يساوي عشرة دراهم . ويحق للرجل قانوناً الزواج من أمرأة دون تحديد المهر ؛ ويحق للزوجة بعد الزواج إجبار الزوج على دفع ما يعادل عشرة دراهم .

يمكن للرجل تطليق زوجته مرّتين وإعادتها في كلّ مرة دون احتفال . ولكن إن طلّقها مرة ثالثة أو طلّقها بالتلفظ ثلاث مرّات بالطلاق في وقت واحد فلا تعود إلى كنفه إلاّ ذا تزوجت غيره وتطلقت منه ، على أن يدخَل هذا الزوج عليها ولمّا يطلّق الرجل زوجته (وهذا يحصل بأن يقول لها : « أنت طالق » أو « طلّقتك ») يدفع لها جزءاً من مهرها (ثلث المهر عادة) ، يقتطعه منذ البداية ليدفعه في حالة الطلاق أو عند وفاته . وعندما طلاقها ، تأخذ الزوجة معها أثاثها التي تكون أحضرته معها عند زواجها كما يمكن للزوجة تطليق زوجته لمجرّد أنّه كرهها دون الحاجة إلى ذكر سبب وجيه لذلك ، بينما لا يحق للمرأة الإنفصال عن زوجها دون رغبته إلاّ إن كانت الغلطة قد ارتكبها من جانبه ، كمعاملتها معاملة قاسية أو إهماله لها ، ومع ذلك عليها التوجه إلى القاضي لإرغام زوجها على تطليقها على أن يدفع لها ما بقي من مهرها .

وأمّا الطلاق الأوّل والثاني ـ « الطلاق الرّجعي » ـ فيحصل دون موافقة الطرفين على حصول المرأة على تعويضها أو تقديمها آية تضحية مالية من

جانبها ؛ ويحق للزوج في « الطلاق الرجعي » إرجاع زوجته دون موافقتها خلال فترة « العِدَّة » وليس بعد العِدَّة ، إلاّ بموافقتها وبناءاً على عقد زواج جديد وقد تطلب الزوجة الطلاق من الزوج إن طلّقها هذا الأخير مرّةً ومثنى مقابل تعويض كأن تقول له : « طلقني لما أنت مدين لي به » أو « بما لي عندك » (ويشمل ذلك المهر والأثاث وما شابههما) أو مقابل مبلغ إضافي من المال، ولا يمكنه استرجاعها إلاّ إن هي وافقت أو حسب عقد زواج جديد ـ وهذا هو « الطلاق الباين » أو « الإنفصال الأدنى » في تمييزه عن الطلاق الثالث أي « الإنفصال الكبير » وأمّا العدّة فهي تفيها قبل زواجها ثانية . فإن كانت حاملاً في أيّ من الحالتين المذكورتين ، فحتّى وضعها حملها وإلاّ فعلى المطلّقة انتظار انقضاء ثلاث فترات قمرية أو ثلاثة شهور وأمّا الأرملة فأربعة شهور وعشرة أيام . وتنتظر المرأة المطلّقة الحامل انقضاء فترة أربعين يوماً قبل دخول زوجها عليها وإن كان يحق لها إبرام عقد زواج جديد مباشرة بعد وضعها . وواجب على الرجل الذي يطلق زوجته الإحتفاظ بزوجته في منزله أو منزل والديها أو غيره خلال فترة العدّة على أن يكف عن معاشرتها بابتداء فترة العِدّة . ويمكن للمرأة المطلقة الإحتفاظ بطفلها الذي لم يبلغ بعد السنتين من عمره حتى يبلغ هذه السن ، وقد تجبرها الشافعية على ذلك ، وأمّا المالكية فحتّى سن البلوغ ؛ بيد أن الحنيفية تحدّد فترة بقاء الطفل في رعاية أمّه بسبع سنوات ؛ وأمّا الإبنة فتبقى في عهدة أمها حتى سن التاسعة حتى بلوغها وإذا طلّق الرجل زوجته قبل معاشرتها ، يدفع لها نصف المبلغ الذي وعدها به كمهر لها . وفي حال لم يحدّد قيمة المهر ، يدفع نصف قيمة المهر الأدنى الذي تحدده الشريعة ، ويمكنها الزواج بعد ذلك مباشرة

وإذا رفضت الزوجة إطاعة أوامر زوجها ، فيمكن للزوج ـ وهذا ما يفعله عادة ـ جلبها أو جلب شاهدين ضدّها أمام القاضي فيرفع شكوى ضدها. فإذا ثبت ذلك، يكتب القاضي شهادة تؤكد أن الزوجة «ناشزة» أي عاصية زوجها. وتعفي هذه الشهادة الزوج من واجب إيوائها وإلباسها والإحتفاظ بها ؛ كما أنه غير مُجبر على تطليقها ، فيمنعها بذلك من الإقتران برجل آخر طالما هو على

قيد الحياة ؛ ولكن إن أعلنت إطاعتها زوجها ، فواجب على زوجها إرجاعها والاحتفاظ بها أو تطليقها ـ فإن رفض تطليقها وكان للزوجة أهل أو أقرباء قادرين على إعالتها ، يمكن لها رفع شكوى أمام القاضي تشكو فيها سلوك زوجها معها بشكل لا يجعلها قادرة على العيش معه ، فيسجلّها القاضي في خانة الزوجة « الناشزة » وتنفصل عنه   ويصرّ الزوج عامّة في هذه الحالة على رفضه تطليق زوجته .

وبما أنّ الخليلات هن الإماء (الجاريات) فلا بد من التحدث عنهن مع ذكر الأحكام الرئيسية المتعلّقة بالخليلات وذريّتهن . والجارية تكون عادة إمّا واقعة في الأسر خلال خوض الحروب وإما أخذت عنوةً من بلاد غريبة معادية ؛ وهي تعتبر كافرة وقت أسرها   وقد تكون الجارية من نسل جارية وعبد أو من ذرية رجل لا يكون مالك هذه الجارية أو كان مالكها في حال عدم إقراره بأبوّته . ولا يمكن للمرء أن يصبح عبداً بفعل علاقة تندرج في إطار الدرجات الممنوعة المحرّمة في الزواج . وسلطة مالك العبد قوية لدرجة يمكنه معها قتل عبده دون أن يوجّه إليه تهمة إجرام ، فلا يلحق به سوى عقاب بسيط (كفترة سجن قصيرة حسب حكم القاضي) إن كانت فعلته من باب الإستهتار . ويمكن للمالك بيع عبده أو تقديمه في بعض الحالات الخاصة ؛ وقد يعمد إلى تزويجه بمن شاء ، لكنّه لا يمكنه فصله عن زوجته عند زواجه . ولا يحق للعبد برأي معظم الفقهاء الإقتران بأكثر من زوجتين في وقت واحد . وكذلك ينزل بالعبد نصف العقاب الذي ينزل بالإنسان الحرّ ، لأنّ العبد يتمتّع بامتيازات أدنى من الإنسان الحرّ ، وبالتالي تكون عقوبته حتّى أقل من نصف عقوبة الحرّ للعمل نفسه الذي استحق عليه هذا الأخير عقوبة . وإن تعلّق الأمر بعقوبة أو بغرامة ما أو بتعويض مالي ، فعلى مالك العبد دفع المبلغ المستحق عليه لدرجة قد يعادل معها هذا المبلغ قيمة العبد أو قد يُعطى العبد كتعويض عن المبلغ   وأمّا العبد غير المعتَق ، فيصبح عند موت مالكه ملكاً لورثة المالك المتوفّى   وعند موت العبد المعتوق ولم يكن قد ترك أية ذريّة من الذكور أو أقرباء ، يكون المالك السابق الوريث . وفي حال موت المالك السابق يرث وارثوه ملكيّة العبد ؛ ولا يحق للعبد غير

المعتوق الحصول على ملكية خاصة دون إذن المالك ـ وأحياناً يُعتق العبد بشكل تام وفوري إمّا مقابل لا شيء أو مقابل تعويض مالي يسدّده في المستقبل ، ويتمّ ذلك من خلال وثيقة مكتوبة أو تصريح شفهي بحضور شاهدين أو بتقديم العبد مع شهادة بيعه التي يحصل عليها من المالك السابق . وقد يتم الإتفاق على إعتاق العبد في المستقبل إذا توفرت بعض الشروط وغالباً بمناسبة وفاة المالك . ولا يمكن للمالك في هذه الحالة بيع العبد الذي يكون قطع له وعداً . ولمّا لا يستطيع المالك أن يوصي بموجب الوصية بأكثر من ثلث ما يملك، فالقانون يلزمه إذا تجاوزت قيمة العبد هذه الحصة أن يحصل العبد على المبلغ الإضافي ويدفعه لورثة المالك. ويمكن للرجل المسلم إتخاذ أيّة جارية من جارياته خليلة له مسلمة كانت أم نصرانية أم يهودية في حال لم يزوّجها إلى رجل آخر ؛ ولكن لا يمكنه أن يتّخذ في الوقت نفسه خليلتين أو أكثر هما أختان أو مرتبطتان بأي من الصلات التي تمنعانهما أن تكونا زوجتيه في الوقت نفسه إن كانتا حرّتين وبالمقابل لا يحق للنصراني ولا لليهودي أن يتّخذ جارية مسلمة خليلة له . فعلى السّيد المالك انتظار فترة معينة (تتراوح عادة بين شهر واحد وثلاثة شهور) بعد امتلاكه جارية قبل أن يتخذها خليلته . وعندما تحمل الجارية من سيدها ، يكون طفلها حراً إذا اعترف به الوالد ؛ وإن لم يعترف ببنوّة الطفل يصبح الطفل عبده . ولا يستطيع السيد في الحالة الأولى بيع الجارية أو إقصاءها (وإن كانت مجبَرة على البقاء في خدمته فتكون خليلته طالما رغب بذلك) ؛ ولها حق الإنعتاق عند وفاته . ويكون حملها منه سبب انعتاقها وحرّيتها ـ ولكن ذلك لا يحتم على الزوج إعتاقها طالما هو على قيد الحياة ، رغم أنّه يُستحسن ذلك فيجعلها زوجته شرط ألاّ يكون على ذمّته أربع زوجات أخريات ـ ولا يمكنه أن يزوجّها لرجل آخر إلاّ برغبتها ولا يمكن للشخص الحرّ أن يكون الزوج أو الزوجة لجاريته أو لعبدها دون إعتاق هذا العبد وتلك الجارية أوّلاً . ويعتبر زواج الحرّ بجارية غيره باطلاً في حال أصبح الإنسان الحرّ مالكاً للجارية ، ولا يمكن تجديد الزواج إلاّ بإعتاق الجارية وبموجب عقد زواج قانوني ومن أهّم أحكام

الوراث التي تسترعي انتباهنا حرمان البكر من الإرث(*) . وأمّا الأنثى فتعُطى حصّة تُعادل نصف حصة الذكر تربطها به نفس درجة القُربى بالنسبة إلى الشخص المتوفّى . ويمكن للمرء أن يوصي بثلث ما يملكه فقط وليس بجزء أكبر إلاّ في غياب وريث ، ولا يمكنه تخصيص أي جزء من ملكيته إلى وريث شرعي ما عدا الزوجة أو الزوج ودون موافقة الورثة الآخرين . كذلك يرث أولاد الشخص المتوفى كلّ ملكية هذا الأخير أو ما يبقى من الورثة بعد إيفاء الديون المستحقة وكلّ ما هو موصى به ، علماً أن حصّة الذكر تساوي حصّة أنثيين . وأمّا إذا كان أولاد المتوفّى من الإناث فقط ، ابنتين ، أو أكثر فهما ترثان معاً بموجب أحكام القرآن الثلثين ، وأمّا إذا لم يكن للمتوفّى سوى ابنة واحدة ، فهي لا ترث سوى النصف . وفي حال عدم وجود وريث شرعي آخر يُنقل الثلث المتبقي إلى البنات أو الإبنة حسب أحكام السنة التي تطبّق في الحالات الأخرى أيضاً . وفي حال لم يكن للمتوفى وريث مباشر ، فإن أبناء وبنات ولده يرثون وكأنّهم من ذرّيته المباشرة (وهكذا دواليك) . وفي حال ترك المتوفّى طفلاً أو طفل ابنة ، يرث كلّ واحد من أهل المتوفى السّدس . وفي حال وفاة الوالد ، تعود حصّته إلى والده ، (وفي حال وفاة الأم ترجع حصّتها إلى والدتها) . وإن لم يكن للمتوفّى طفل أو إبن ، ترث الأم ثلث ما يملكه أو ما يبقى بعد احتساب حصة الزوجة أو الزوجات وحصة الزوج ، ويرجع الباقي إلى الأب ، إلاّ إن كان للمتوفّى أخان أو أختان، عندها ترث الأم السّدس ويرث الأب الباقي، بينما لا يحصل الإخوة والأخوات على شيء (إذا كان للمتوفّى أب أو أيّة ذرية من جهة الذكور) . ويرث الرجل ما يبقى من ملكية زوجته بعد دفع موجبات وصيّتها في حال لم يكن لها إبن أو أولاد إبن . وتبلغ حصة الزوجة أو الزوجات مجتمعات الرّبع في حال لم يكن للزوج المتوفّى إبن أو أولاد إبن . وتتدنّى الحصة إلى الثّمن في حال كان للمتوفى ذرية . وفي حال لم يكن للمتوفى أب (أو أية ذرية من الذكور) أو ولد (أو ولد الولد) فأحكام الشريعة واضحة :

(*) تختلف الشريعة الإسلامية عند هذه النقطة عن شريعة موسى التي تحدد حصتين للبكر .

١ - يرث الابن الوحيد أو الابنة الوحيدة من جهة الأم السدس فقط وفي حال وجود أخين أو أختين أو أكثر ودائماً من جهة الأم ، أو ولد أو أكثر من أولاد كلّ من الجنسين فيرثون مجموعين الثلث الذي يُقسمُ بصورة متساوية دون أدنى تمييز بين الذكر والأنثى .

٢ - في حال كان للمتوفّى أخت وحيدة من أبيه وأمّه (وليس أخاً)، فهي ترث النصف ، وأمّا الرجل فيرث كلّ ما تملكه هذه الأخت (أو ما يبقى من تركتها بعد دفع موجبات الوصية) في حال لم تترك أولاداً . ولكن إن كان لهذه الأخت ولد ذكر (أو ولد الولد) ، فلا يرث الأخ شيئاً ؛ وإن تركت ابنة ، فيرث الأخ ما يبقى من التركة بعد احتساب حصة الولد (وبعد دفع موجبات الوصية) . وفي حال كانت للمتوفّى أختان أو أكثر من أبيه وأمه (ولم يكن عنده إخوة ذكور) ، فترث الأختان معاً مقدار الثلثين . وفي حال كان للمتوفى أخ أو أكثر أو أخت أو أكثر من أبيه وأمه ، فيرث هؤلاء كلّ ما يملكه المتوفّى (أو ما يبقى بعد دفع موجبات الوصية) إضافة إلى أن حصة الذكر هي ضعف حصة الأنثى .

٣ - في حال عدم وجود أخ أو أخت من الأب والأم معاً يرث الإخوة والأخوات من جهة الأب فقط كما الإخوة والأخوات من الأب والأم . ولا فرق بين ولد زوجة وبين ولد أمة حملت من سيدها (في حال اعتراف السيد ببنوة الطفل) ؛ فكلاهما يرث بصورة متساوية . والشيء نفسه ينطبق على ابن الزوجة أو الإبن بالتبني . وأمّا ابن الزّنا فيرث من جهة أمّه فحسب والعكس صحيح وفي حال عدم وجود وريث شرعي أو وارث بوصية (موصى له) ، تعود الملكية إلى خزانة الحكومة وهي « بيت المال » . ولم أجد ضرورة للتحدث عن القوانين المتعلقة بالأنسباء البعيدين ؛ وتقسم ملكية المتوفّى إسمياً حسب القيراط (أو ٢٤٠ حصة) ؛ وتقدَّر حصة كلّ ولد أو كل وريث نسبة إلى القيراط .

والشريعة متساهلة بصورة ملحوظة مع المدينين ، وقد جاء في القرآن : ﴿ وإن كان ذو عُسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (سورة البقرة/ ٢٨٠) .

ويأمر القرآن المسلم عند تعاقده بخصوص دين بجعل هذا الدين مكتوباً وأن يشهد عليه شاهدان أكثر أو شاهد وشاهدتان من دينه . وفي حال عدم إيفائه الدين يتم سجن المدين ، فإن ثبتت عدم سيولته يُعفى من الدين الموجَب عليه ، وقد يُجْبَر على العمل لإيفاء دينه إن كان قادراً على العمل .

كما بشًّر القرآن القاتل بالقتل ؛ فيموت للحر مقابل الحرّ والعبد مقابل العبد والمرأة مقابل المرأة . ويدفع مرتكب الجريمة إلى ورثة الشخص المقتول ـ إن هم سمحوا له ـ غرامة تُقسم وفقاً لأحكام الميراث . كما يأمر القرآن بالتكفير عن الجريمة غير المتعَّمدة بتحرير مؤمن من عبوديته وكذلك بدفع غرامة إلى عائلة الشخص المقتول إلاّ إن هم غفروا له . وكل هذه الأحكام مشروحة ومفصّلة في القرآن وفي كتب الفقهاء والأئمة . ولا تُقبل الغرامة عن جريمة القتل إلاّ إذا خُفِّفت ظروف الجريمة. وتوازي هذه الغرامة والتي هي ثمن الدم مئة ناقة أو ألف دينار تؤخذ من القاتل الذي يملك ذهباً ، وألف ومئتي دينار من الذي يملك فضة. وإن كان المقتول امرأة فنصف هذا المبلغ؛ وأمّا بالنسبة إلى العبد أو الأمة فقيمته أو قيمتها. ولا يكفي هذا المبلغ للتعويض عن دم الإنسان الحر. وأمّا الشخص الذي لا يستطيع تحرير رقبة مؤمن فيتوجّب عليه صوم شهرين كما صومه في شهر رمضان ، وأمّا شركاء المجرم في جريمته فعقابهم الموت . ووفقاً للسّنة ، يكون الرجل عرضة للعقاب الكبير إذا قتل أمرأة . وترى الحنيفية أنّ الرجل يتعّرض للعقاب الكبير لقتله عبد امرىء آخر . ويُعفى من العقاب الذي يقتل ولده أو أي من نسله أو يقتل عبده أو عبد ابنه أو عبداً يكون مالكاً له جزئياً، وينطبق ذلك على شركائه في القتل. وأمّا الشافعية فتعتبر أنّ المسلم وإنْ عبداً لا يُقتَل لقتله كافر وإن كان الكافر حرّاً. وفي عصرنا الحديث ينال القاتل عقاب الموت ، ولا تسمح الحكومة بالتعويض مالاً فالذي يقتل إنساناً في حالة الدفاع عن النفس أو لحماية ملكيته من السرقة يُعفى من كلّ عقاب . وثمن الدم دين موجَب على عائلة القاتل أو قبيلته أية رابطة أخرى ينتمي إليها ، كما تكون موجبة على سكان منطقة منغلقة أو على مالك (أو مالكي) الحقل حيث تم العثور على جثة الشخص الذي قتله مجهولون ، إلا في حال وُجِد الشخص

مقتولاً في منزله . وأمّا المرأة التي تُنزَل بها العقوبة القصوى (الموت) فيتم إغراقها في نهر النيل .

شرّع البدو مبدأ الثأر للدم فغالوا في طبيعته الظالمة المجحفة وضربوا عرض الحائط بكلّ الحدود التي نص عليها القرآن وأهدروا دم أي شخص من نسل القاتل أو من نسل أبيه ، ومن جدّه أو جدّه السالف ، ومن والد الجد السالف ، وأحقٌّ لأقرباء المقتول المتحدرين من نسل مماثل الأخذ بالثأر للشخص الذي اغتيل أو قُتل في أرض المعركة . لكنّ القبائل عادة تقبل دفع الكفّارة بدلاً من إحلال الدم وحالات الثأر للدم شائعة كثيراً في أوساط الفلاحين المصريين الذين وكما لاحظت يحتفظون كثيراً بعادات أسلافهم البدو . فأهل المقتول في القرية المصرية يثأرون عادة بأيديهم دون العودة إلى الحكومة ؛ وانتقامهم وحشي فظ غالب الأحيان حتى أنّهم يعمدون إلى تشويه جثة ضحيتهم وشتمها ، وينشد أقرباء القتيل الإحتماء في قرية أخرى . وتدوم العداوة بين الطرفين سنوات طويلة حتّى بعد أخذ الثأر . وقد يشمل ثأر الدم سكان قريتين أو أكثر ويدخلهم في متاهات العدائية التي قد تظهر في فترات متواترة خلال الأجيال المتعاقبة العديدة

يسمح في حالات الانتقام والثأر بإحداث الجروح والتشويهات المتعمدة كما في حالة القتل : « العين بالعين » . وقد تُقبل الغرامة بدلاً من إحداث التشويه كما تحدّدها الشريعة بالنسبة إلى إلحاق الضرر غير المتعمّد. وتعادل غرامة عضو وحيد (كما الأنف) ثمن الدم بكامله كما في القتل ، وهي توازي نصف ثمن الدم بالنسبة إلى عضو يوجد منه اثنان لا ثالث لهما (كاليد) ، وأمّا العضو الذي يوجد منه عشرة (كالإصبع) فعُشر ثمن الدم . وكذلك تُحدَّد الغرامة الموجبة على الرجل الذي يعمد إلى جرح المرأة أو تشويهها بنصف الغرامة الموجبة للجرح نفسه عند الرجل . وتختلف الغرامة الموجبة على الإنسان الحر الذي يجرح عبداً حسب قيمة العبد ، وأمّا تلك الموجَبة في حال حرمان إنسان من إحدى حواسه الخمس أو جرحه بشكل بالغ وخطير أو تشويهه تشويهاً لمدى الحياة فثمن الدم كاملاً

وأمّا السرقة فيعاقب عليها القرآن ـ أكان مرتكبها رجلاً أو امرأة ـ بقطع يد السارق اليمنى للسرقة الأولى ؛ وتأمر السّنة بعدم تنزيل العقاب في حال لم تتجاوز قيمة الغرض المسروق ربع الدينار . كما أنّه من الضرورة بمكان عدم جعل السارق عرضة لهذا العقاب ؛ إذ كان من المفروض وضع الغرض المسروق في مكان لا تطاله يد السارق بسهولة . وانطلاقاً من هنا ، لا ينزل العقاب بالشخص الذي يسرق منزل أحد الأشخاص من ذوي القربى ولا بالعبد الذي يسرق منزل سيده. وأمّا السرقة الثانية فجزاؤها كسر قدم السارق اليُسرى؛ وأمّا الثالثة ـ حسب المذهب الشافعي فاليد اليسرى ، وجزاء الرابعة القدم اليمنى وإذا تتالت السرقات والاعتداءات من النوع نفسه ، فالجلد عقاب السارق أو ضربه ضرباً مبرحاً ويعتبر المذهب الحنفي أن السجن لمدة طويلة يكون جزاء السرقة الثالثة وما يعقبها من سرقات . ويمكن للرجل سرقة مولود حرّ دون تعريضه لعقاب القانون ، فالمولود لا يدخل في إطار الملكية ؛ ولا ينسحب ذلك على العبد ، فلا تقطع يده لسرقته أي من أنواع الطعام التي تتلف وتفسد بسرعة ، فهو قد يكون عمد إلى السرقة لسد جوعه . وهناك حالات أخرى يُعفى فيها السارق من العقوبات السابقة الذكر ، علماً أن مصر لم تعرف مثل هذه العقوبات في السنوات السابقة . إذ كان الضرب المبرح والعمل الشاق عقاب السرقة الأولى والثانية والثالثة ، وكان الموت عقاب السرقة الرابعة ، وأمّا السرقات الصغيرة فعقابها الضرب « بالكرباج » أو بالعصا الطويلة على أخمص قدمي السارق .

والزّنا أكثر الأعمال التي ينزَل بها العقاب القاسي ويتطلب هذا النوع من الجرم شهادة أربعة شهود عيان لإثباته ضد الزوجة . فإن ثبت ارتكاب الزوجة للفاحشة فعقابها الموت رمياً بالحجر . ولم أصادف مثل هذه الحالات إلاّ نادراً لصعوبة توفر الشهادة فيها . والقرآن يحدّثنا عن الزنا في آياته البيّنات ، ويضع أحكاماً أخفّ للمرأة الزانية ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلاّ الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم والذين يرمون

أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلاّ أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة أنّ لعنت الله عليه إن كان من الكاذبين ويدرؤوا عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين والخامسة أنّ غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ (سورة النور) .

ولقد أجمع المفسّرون والمحامون على حل الزواج في هذه الحالات . وأمّا السورة التي أخذت منها هذه الآيات فترى في آيتها الثانية ضرورة جلد الزاني والزانية كلّ منهما مائة جلدة ، وتجعلهما السنة عرضة لعقاب النفي والإبعاد لسنة كاملة . وأمّا العقاب المنزّل بالمرأة المتهمة بالفسق وارتكاب الفحشاء في القاهرة فسأورد الحديث عنها في الفصل اللاحق ، إذ يعتبر عملاً اعتباطياً استبدادياً من جانب الحكومة لا يرتكز على أحكام القرآن والأحاديث النبوية الشريفة .

والسكر عاقبه الرسول ﷺ بالجَلد ؛ والجلد شائع في القاهرة وإن ليس غالباً وأمّا « الحدّ » أو عدد الجلدات لهذا الإثم فثمانين جلدة للرجل الحرّ وأربعين جلدة للعبد .

والارتداد عن دين الإسلام خطيئة شنيعة عقابها الموت إلاّ إذا ارتد المرتد عن خطئه بعد تحذيره ثلاث مرات . ولقد شاهدتُ بأمّ العين امرأة تمر في شوارع القاهرة ثمّ أُغرقت في مياه النيل لارتدادها عن دين محمد وزواجها برجل نصراني. ولسوء طالعها، كانت هذه المرأة قد وشمت ذراعها بصليب أزرق اللون ممّا أدّى إلى افتضاح أمرها من قبل إحدى صديقاتها القديمات وهنّ في الحمّام ويوم تنفيذ العقاب فيها ، أُصعِدت هذه السيدة على ظهر حمار مسرّج كما تفعل سيدات مصر عند خروجهن وكانت أُلبست أفخر ثيابها ؛ وتولّى حراستها جنود وأحاطت بها حشود الناس الذين بدلاً من يرثوا لحالها ويؤاسوها راحوا يوجهون إليها أفظع الشتائم ويكيلون لها اللعنات . وكان القاضي الذي أصدر عليها الحكم يتوسّل إليها دونَ طائل علّها ترجع إلى دينها والأمر الذي يثير العجب أن والدها هو متّهمها واقتيدت هذه السيدة في مركب إلى وسط

النهر وخلعت عنها ثيابها فبانت شبه عارية ثمّ خُنِقت ورميت في النهـر ـ وأسِف الأوروبيون الذين كانوا يعيشون في القاهرة أن يكون الباشا غائباً في الاسكندرية يوم تنفيذ الحكم فيتـوسّطوا ليغفـر لها . وكـانوا قبـلاً توسّـطوا لامرأة حُكِم عليهـا لارتكابها الزنا والفحشاء ؛ وأمر الباشا وقتها بإحضار المرأة أمامه . فلمّا حضرت حضّها الباشـا على طلب التوبـة والإرتداد عن فحشـائها فلمّـا صمّمت على الرفض ، أعلن الباشا جنونها وأرسلها إلى منزلها وأمر بعدم إلحاق الأذى بها

وأمّا التجديف فأكثر قساوة منِ الفحشاء وفقاً للشريعة فكلّ من يجـدّف بالله أو بمحمد أو المسيح أو الموسى أو أي من الأنبياء ، يكون عقـابه المـوت فـوراً حتى وإن أعلن توبتـه ، لأنّ التوبـة مستحيلة في التجـديف . فـإذا كـان الارتـداد أو الكفر وليـد الخطأ في الفهم أو التقـدير ، فـالتجديف وليـد الفساد والفسوق .

وأتوقف في معرض حديثي عن الدين وأحكامه عنـد الحركـة الوهـابية التي أسّسها « محمد بن عبد الوهّاب » منذ حوالي القرن ؛ وهو أحد شيوخ مقاطعـة نجد في شبه الجزيرة العربية . ولقد استطاع « محمد بن عبد الوهاب » استمالة أحد زعماء « الدّرعية » (عاصمة نجد) الأقوياء وأصبح هـذا الزعيم ـ «محمـد بن سعود» سيد هذا المذهب الجديد وزعيمـه السياسي والـديني ، فانتشـرت الحركـة الوهابية في عهده وعهد من خلفه في شبه الجزيرة العربية . وكان أول من خلفه في الحكم ابنه « عبد العـزيز » ثم « سعـود بن عبد العـزيز » وهـو ابن « عبد العزيز » وأعـظم الزعمـاء الوهـابيين . ثم عقبه في الحكم « عبـد الله بن سعود » الذي استسلم بعد حرب ضروس مع جيش محمد علي لأعدائه المنتصـرين ؛ فـأرسل إلى مصـر ثم إلى القسطنـطينية حيث قُطع رأسـه . والحـروب الحـامية الوطيـس التي خاضها « محمد علي » ضد الوهابيين كانت تهدف بشكل رئيسي إلى تقويض قوة هذا المذهب السيـاسية ومـا يزال العـديد من العـرب يتبعون العقائد الدينية لهذه الحركة ، كما يعتبر معظم علماء مصر عقائد الوهابيين على مـذهب السنة . والـوهابيـون إصلاحيـون يؤمنون بنقـاط الإسلام الجـوهـريـة إضافة إلى العقائد الأخرى الواردة في القرآن وأحاديث الرسول ﷺ

إنّ عقائد الوهابيين هي باختصار عقائد المسلمين الأولين . فهم يحرّمون بناء القبور والأضرحة الضخمة ، ويهدمونها فوراً إن كانت لهم سلطة عليها . وكذلك يدين الوهابيون ـ كما الوثنيين ـ كل مظاهر التبجيل الفائقة حيال الأولياء المتوفين . ويذهبون إلى حدّ إعلان كل المسلمين الآخرين من المهرطقين والمزندقين للاحترام المبالغ الذي يظهرونه للرسول ﷺ . وهم يحرّمون ارتداء الحرير والحلى الذهبية وكلّ الزينة الغالية وكذلك تدخين التبغ ، فإن كان لا بد من التعويض عن رغبة التدخين الملحة ـ والتدخين ترف وتبذير ـ فقليل من القهوة كافية لإشباع هذه الرغبة ونجد العديد من رجال الفكر بينهم ؛ ولقد جمعوا الكثير من الكتب القيّمة (خاصة التاريخية منها) من مناطق عديدة في شبه الجزيرة العربية وكذلك من مصر .

الفصل الرابع

الحكومة

شهدت مصر خلال السنوات الماضية تغييرات سياسية هامة وتحرّرت تحرّراً شبه كامل من تبعيتها للإمبراطورية العثمانية . فلقد نصّب باشا مصر الحالي « محمد علي » نفسه تقريباً أميراً مستقلاً بعد قضائه على « الغُزّ » (الأوغوز) والمماليك الذين شاركوا أسلافه الحكم. لكن «محمد علي» أبدى ولاءه للسلطان وللقسطنطينية كما جرت العادة . و « محمد علي » ملزم باحترام الأحكام الجوهرية الواردة في القرآن والأحاديث ، وعدا ذلك فسلطته واسعة لا حدود لها فهو قد يصدر حكم الموت على أحد أتباعه دون محاكمته مسبقاً لإدانته أو تبرير دوافع الحكم . ويكفي أن يكتب مذكرة بخط يده حتّى يصدر حكم الإعدام. وكلامي لا يعني قط أن «محمد علي» ميّال إلى إراقة الدماء بشكل اعتباطي . فالقساوة هي ميزة هذا الأمير بعيداً عن الفظاظة والوحشية المستهترة وطموحه لا يعرف حدوداً وهو لا يتردّد قط في القيام بأي عمل يجذب إليه المدح أو النقد والإستهجان[1]

---

(١) لم تتغير الحكومة المصرية كثيراً منذ فتح العرب لهذه البلاد وحتى اليوم في تأثيرها الكبير على عادات وتقاليد السكان وطبائعهم. لذا، لا أرى ضرورة لعرض تاريخيّ أبرزه في هذا الكتاب . وتجدر الإشارة أنّه لا يسمح للمصريين معاملة الكافرين بفظاظة أو تعصب أعمى كما في سابق عهودهم . والمسافرون الأوروبيون ممتنون « لمحمد علي » . فقد يلحظ الأجنبي تحفظاً في البداية ما يلبث أن يزول تدريجياً مع مرور الأيام ، فيخبو معه التعصب .

يقـع في قلعة القاهرة «الديوان الخديويّ» وهو المحكمة القضائية؛ ويرأس الـديوان في غيـاب الباشـا نائبـه «الكخيـا» حبيب أفنـدي. وأمّا الحـالات التي لا تقع في المنطقة التي يتواجد فيها القاضي أو تلك التي تكون واضحة فلا تتطلب الرجوع إلى المحكمة أو أي مجلس آخر للبت في شأنها ، ويفصل فيها رئيس الديوان الخديوي . كما شيّدت في القاهرة محاكم عديـدة يسهر على حمـايتها حـرس « النّظام » (أي القـوات النظاميـة) ، ويُعرف الحـارس « بـالكُلك » أو « الكـراكول » وهي العبـارة الشائعـة . ويتم تسليم المتهمين بأعمـال السـرقـة والاعتداءات في القاهرة إلى أحد جنود الحرس ، فيصطحبهم هذا الأخير أمام رئيس المحكمة في « الموسكي » وهـو أحد شـوارع القاهـرة يعيش فيه معـظم الفرنجة ويعد إدانة المتهم وتدوين التهمة الموجهة إلى السارق أو المعتدي ثمّ يـأخذهم إلى « الـظّابط » وهو رئيس قسم الشـرطة في العـاصمة . فلمـا يفرغ الظابط من سماع تفاصيل القضيـة ، يحوّل المتهم إلى ديـوان الخديـوي حيث يقدَّم للمحاكمة . وإذا أنكر المتّهم التهمة الموجهة إليه وفي حال غياب الأدلـة الـدامغة والبـراهين والاكتفاء بـالتشكك ، يُضـرب المتهم بالعصـا لحمله على الإقرار بذنبه ؛ وبعد ذلك ـ وإن لم يكن قبلاً ـ يعترف المتهم بذنبه إن كان مذنباً في حال كانت جريمته لا تعرّضه لعقاب قاس . وعادة يعترف السارق بسرقته بعد ضربه بأن يقول « أغواني الشيطان فسرقت » وأمّا العقـاب فيُسَوى بـطريقة اعتباطية ولكن حكيمة ومتساهلة . ويقضي العقاب بأن يعمل المتّهم في بعض الأشغال العامة مقابل أجر زهيد كرفـع النفايـات وحفر القنـوات ؛ ويتـمّ أحيـاناً إلحـاق الشباب الأقـوياء البنيـة الـذين وُجّهت إليهم تهم بسيـطة بالجيش. ففي استخدامه المجـرمين والأشرار في أعمـال تهدف إلى تحسين البـلاد ، يستحق « محمد علي » كلّ الثناء والمدح الذي قيل في « سـاباكـون » الفاتـح الإثيوبي وملك مصر الذي يُقال إنّه أول من طبّق هذه السياسة . والباشا قاس جـداً في معاقبة السرقات وكـل الجرائم التي تُـرتَكب بحقه ، ويكـون الموت نصيب من يرتكب هذه الأعمال .

تُعنى العـديد من المجـالس الأدنى بتصريف شؤون الـدوائر الحكـوميـة

المختلفة أهمّها أوّلاً « مجلس المِشْوَرَة » الذي يطلق عليه أيضاً اسم « مجلس المشورة الملكيّة » لتمييزه عن المجالس الأخرى . والباشا هو من يختار أعضاء هذا المجلس وغيره من المجالس المشابهة حسب كفاءاتهم ومؤهلاتهم ؛ فلا بد أن تطغى مصالحه على مختلف القرارات التي يتخذونها . فهم الآلية التي بها يتحرك ويشكّلون اللجنة التي ترأس الحكومة العامة في البلاد وتدير أعمال الباشا التجارية والزراعية . كذلك ترفع إليهم عادة العرائض الموجهة إلى الباشا أو لديوانه والمتعلقة بالمصالح الخاصة أو بشؤون الحكومة حتى ينظروا إليها ويحكموا فيها إلاّ إن كانوا خاضعين لسلطة مجالس أخرى .

يلي « مجلس المشورة » في الأهمية « مجلس الجِهاديّة » المعروف أيضاً « بمجلس المشورة العسكرية » ثمّ « مجلس الترسخانة » (أو البحرية) يليه «ديوان التّجار» . ويرأس هذا المجلس الأخير الذي ينتمي إليه التجار من مناطق وديانات مختلفة « الشاهبندر » (رئيس تجار لقاهرة). وقد أنشىء هذا المجلس للنظر في بعض المعاملات التجارية الحديثة التي لا توضّحها تماماً أحكام القرآن الكريم والسنة الشريفة

يرأس قاضي القاهرة المحكمة في مصر لمدة سنة واحدة ؛ وعند انتهاء ولايته يُعيّن مكانه قاض جديد آتٍ من القسطنطينية حيث يعود القاضي الأول . وجرت العادة أن ينطلق القاضي من القاهرة في قافلة الحجاج الكبيرة المتجهة إلى مكة المكرمة ، فيؤدي مناسك الحج ويعيّن قاضيها لمدة سنة واحدة وسنة أخرى في المدينة المنوّرة . وهو يشتري منصبه سرّاً في الحكومة التي لا تعير مؤهلاته أيّ اعتبار خاص ، علماً أن عليه أن يلّم ببعض جوانب المعرفة وأن يكون عثمانيّاً ومن أتباع المذهب الحنفي . ويعرف مكان إصداره الأحكام «بالمحكمة». وقليلون هم القضاة الضالعين في اللغة العربية والذين لا حاجة بهم لاكتساب حدّ أدنى من المعرفة وسعة الإطّلاع . يقتصر عمل القاضي في القاهرة على تأكيد حكم نائبه الذي ينظر في القضايا العادية البسيطة والذي يختاره من بين عُلماء اسطنبول أو يأخذ بحكم مفتي مذهبه المقيم في القاهرة بصورة مستمرة والذي يبتّ في القضايا الصعبة . ونادراً ما يجيد النائب التحدث باللهجة

المصرية . ولمّا كان معظم المتنازعين الماثلين أمام المحكمة في القاهرة من العرب ، يكلّف القاضي « الباش ترجمان » ويمنحه كامل الثقة فيجعل مكانه في المحكمة دائماً ؛ ويكون هذا « الباش ترجمان » متآلفاً مع عادات المحكمة خاصة ما تعلّق منها بنظام الرّشوة ، ويكون على أتم الاستعداد لنقل معرفته هذه إلى كلّ قاض جديد أو نائب . ومن الممكن أن يكون القاضي جاهلاً للقانون عامة ومع ذلك يُعيَّن في منصب قاضي القاهرة (والأمثلة على ذلك عديدة) ؛ وأمّا النائب فمن الضروري أن يكون محامياً متعلّماً متمرّساً .

عندما يعمد أحدهم إلى رفع دعوى في المحكمة ضد شخص آخر أو فريق ، يتوجّه إلى المحكمة ويطلب من « باش الرسل » (رئيس رُسل المحكمة الذين ينفذ الأحكام والقرارات) أن يبعث برسول لتوقيف المتّهم ، ويحصل الرسول على قرش أو قرشين يعطي نصفه عادة إلى رئيسه بصورة سرية . بعدها يتقدّم المدّعي والمدَّعى عليه أمام قاعة المحكمة الكبرى وهي عبارة عن قاعة كبيرة مقابلة لباحة فسيحة تتميّز بواجهة مفتوحة مؤلفة من صف من الأعمدة والقناطر . ويجلس « الشّهود » (مفردها شاهد) في هذه القاعة ، وتقضي مهمّتهم بسماع بيانات القضية المرفوعة للحكم فيها؛ وهم يعملون تحت سلطة « الباش كاتب » .

يعرض المدّعي قضيّته ويتوجه إلى أحد الشهود غير المشغولين الذي يعمل على تدوين جوانبها مقابل أجر قدره قرش أو أكثر . فإن كانت القضية بسيطة وفي حال أقرّ المدَّعى عليه بعدالة القضيّة ، يُترك الأمر للشاهد ليبتّ فيها وإلّا فهو يحمل الفريقين على الامتثال أمام النائب الذي يعقد جلسة في غرفة داخلية مغلقة في المحكمة . وبعد سماع النائب القضية المطروحة ، يحث المدّعي على الحصول على « فتوى » من مفتي المذهب الحنفي الذي يتلقى بدل أتعاب لا يقل عن عشرة قروش وقد يزيد أحياناً عن المئة أو المئتي قرش . هذه هي بصورة عامة حال كل القضايا والنزاعات المطروحة أمام المحكمة ، البسيطة منها التي تُسوّى بأقل حد من المتاعب والمعقدة منها إلى ترتدي طابعاً

مهماً . وينظر في القضايا المعقّدة في حجرة القاضي الخاصة أمام القاضي نفسه والنائب ومفتي المذهب الحنفي الذي يتم استدعاؤه للاسترشاد برأيه وإعطاء حكمه . وإن بلغت القضية ذروة التعقيد والأهمية ، يستدعي لفيف من علماء القاهرة بالطريقة نفسها فيستمع المفتي إلى القضية ويدوّن حكمه الذي يؤكّده القاضي فيمهر ورقة الحكم بختمه ، وهذا كل ما يتوجب عليه القيام به في أية قضية . ويمكن للمتهم تبرئة نفسه بإقسامه اليمين عندما لا يكون للمدّعي شهود يبرزهم: إذ يضع يده اليمنى على المصحف الذي يقدّم له فيردّد «والله العظيم» ثلاث مرات مضيفاً : « بكل ما في هذا الكتاب من كلام الله » . وينبغي أن يكون الشهود من الطّيبي السمعة ولا تربطهم مصالح شخصية في القضية المرفوعة. والمطلوب وجود شاهدين(*) على الأقل في كل قضية (أو رجل واحد وامرأتين) كما ينبغي أن يشهد كلّ شاهد باستقامة الشاهدين الآخرين . ولا يمكن للكافر الشهادة ضد مسلم في قضية تنزّل فيها العقوبة القصوى أو عقوبة قاسية وكذلك لا تقبل شهادة الشاهد لابنه أو لحفيده أو للأب أو للجد ، ولا شهادة العبد ولا شهادة السيد في عبده .

جرت العادة أن يدفع الفريق الرّابح أتعاب قضيّة ، ولكنّ الفريق الآخر هو الذي يدفعها حالياً . ويبلغ بدل أتعاب القاضي في الأحكام التي يصدرها في ما خصّ بيع الملكية إثنين في المئة من مجمل قيمة الملكية ؛ وهو يصل إلى أربعة في المئة في قضايا التركات إلاّ إن كان الوريث يتيماً قاصراً ، فلا يحصل القاضي والحالة هذه إلاّ على إثنين في المئة . وأمّا ما اختص بأحكام الملكية في المنازل أو في الأرض وفي حال كان ثمن الملكية المتنازع عليها معروفاً ، فتقدّر أتعاب القاضي باثنين في المئة . ولكن عندما لا يكون ثمن الملكية معروفاً فريع إيجار سنة كاملة . هذا هو عامة بدل الأتعاب القانونية المعروف ؛ وغالباً ما تتجاوز هذه النسبة معدّلها المعروف . ويعمد نائب القاضي في القضايا التي تخرج عن إطار الملكية إلى تحديد بدل الأتعاب بنفسه ولا ننسى بدل

(*) هذا القانون مأخوذ عن اليهود .

الأتعاب الإضافي - غير بدل أتعاب القاضي - الذي يُدفع بعد صدور الحكم في القضية . فإن تراوح مثلاً بدل أتعاب القاضي بين المئتي أو الثلاثمائة قرش ، يتلقّى « الباش ترجمان » بدل أتعاب يقدَّر بنحو قُرشين ، ويحصل الباش رُسل على القيمة نفسها تقريباً كما يُدفع قرش واحد إلى « الرسول » أو إلى كل رسول استخدم في هذه القضية

تؤثر مكانة المدّعي أو المدّعى عليه أو الرشوة التي يدفعها أي منهما على حكم القاضي ويأخذ المفتي والنائب عامة رشوة وأمّا القاضي فيأخذ رشوته من نائبه . وفي بعض الحالات خاصّةً في النزاعات الطويلة ، تُعطى الرشوات من طرفَي النزاع ؛ ويأتي الحكم دائماً لصالح الفريق الذي يدفع الرشوة الأكبر . تلك هي حال القضايا القانونية الصعبة وحتى في الحالات التي يكون فيها القانون واضحاً جليّاً لا تكون العدالة حاسمة جازمة بسبب الرشوات والشهادات المزوّرة التي يلجأ إليها أحد الفريقين. ولقد بلغ أخذ الرشوات والإدلاء بالشهادات المزورة في المحاكم الإسلامية وبين المسلمين في محكمة قاضي القاهرة حداً مذهلاً فبات لا يُعَوَّل عليها إلاّ نادراً لكشف الحقيقة وقد تحتاج بعض القضايا إلى أدلّة قوية لا يمكن دحضها ، كما الحال بالنسبة للقضية التي أطلعني عليها الوكيل وإمام الشيخ المهدي الذي شغل منصب مفتي القاهرة الأعلى (وكان مفتي الأحناف) بعد مناقشتها في محكمة القاضي

ومختصر القضية أن تاجراً تركياً مقيماً في القاهرة توفي وقدّرت ثروته بستّة آلاف كيس نقود ، ولم يكن له من وريث سوى ابنة وحيدة . فلمّا سمع بخبر الوفاة قام الشاهبندر (رئيس تجار القاهرة) « السيد محمد المحروقي » يغري أحد الفلاحين للإدلاء بشهادة كاذبة ؛ وكان هذا الفلاح بواب أحد الشيوخ الجليلين ، وكان والداه (وهما عربيان) معروفين للعديد من الناس ، فراح يعلن ويؤكد أنّه ابن أخ المتوفّى ورُفِعت القضية أمام القاضي ؛ ونظراً لأهميّتها استدعى لفيف من العلماء البارزين في القاهرة للنظر فيها ، وكان « المحروقي » قد رشاهم كلّهم أو أنّه مارس نفوذه عليهم . وجُلب شاهدان مزوّران للإدلاء بقسمهما حول إدّعاءات البواب وكذلك استدعِي آخرون للإدلاء

بشهادات تؤكد صدق الشاهدين الأوّلين . وحُكِم للإبنة الوريثة بثلاثة آلاف كيس من الدراهم ، وأمّا نصف الثروة الآخر فحصل عليه البواب وحصل « المحروقي » بدوره على حصة هذا الأخير واقتطع منها ثلاثمائة قرش فقط للبواب . وكان المفتي المهدي غائباً عن القاهرة عندما تم النظر في هذه القضية ولدى عودته بعد الحكم بأيّام ، أتته إبنة التاجر المتوفّى وأطلعته على قضيّتها وطلبت منه النظر مجدداً فيها . ورغم اقتناع المفتي بالظلم الذي لحق بها وعدم شكه بصدق ما قالته عن دور المحروقي في القضية ، لم يخفِ خشيته من عدم إمكانية إلغاء الحكم الصادر فيها إلاّ في حال ثبت أنّ محاضر الجلسات غير رسمية في بعضها ، وأكّد لها أنّه سيطّلع على ملف القضية في سجلات المحكمة . ولمّا فعل ، توجّه إلى الباشا وكانت تربطه به معروفة وطيدة نظراً لمعرفته الواسعة ولنزاهته واستقامته ، فشكا إليه القضية وارتكاب المحكمة الظلم الواضح وكيف أن العلماء قبلوا بشهادات مزورة مهما كانت هذه الشهادات واضحة وجلية ، وأضاف أن الحكم الذي صدر فيها على كل الشفاه والألسن وموضوع لغط كبير في المدينة فاستدعى الباشا القاضي وكل العلماء الذين حكموا في هذه القضية للقاء المفتي في القلعة فلمّا اجتمعوا أطلعهم الباشا على شكوى المفتي ، فأبدى القاضي والعلماء امتعاضهم الشديد واستهجانهم الكبير وطلبوا الإطلاع على البراهين التي يستند إليها المفتي فأجابهم الباشا أنّ التهمة عامة وتستند بشكل خاص إلى القضية التي قُبِل فيها ادّعاء البواب بصلة النسب وحقه المزعوم في الميراث . وهنا تدخّل القاضي وأصرّ على أنّه أصدر حكمه وفقاً للحكم الإجماعي للعلماء المجتمعين . عندها طلب الباشا قراءة ملف القضية . ولمّا انتهى الوكيل من قراءة تفاصيلها ، ردّ القاضي بصوت مسموع « وحكمتُ على هذا الأساس » ، فأجابه المفتي بصوت أعلى وبنبرة حازمة متعجباً : « فأتى حكمك مزوّراً » وعلت الدهشة وجوه الحاضرين فأخذوا ينقّلون عيونهم بين المفتي والباشا وطائفة العلماء ، وأطرق القاضي والعلماء رؤوسهم وراحوا يشدّون لحاهم ، وضرب القاضي على صدره وقال مندهشاً متعجباً : « أوَ أصدر أنا قاضي مصر حكماً باطلاً مزوّراً ؟

والعلمـاء بدورهم : « ونحن يـا شيخ مهـدي ، نحن علماء الإسـلام أوَ نصدر حكمـاً مزوّراً ؟ » فقـال « المحـروقي » : يـا « شيـخ مهـدي ـ (وقـد استـطاع المحـروقي بفضل صفقـاته التجـارية مـع الباشـا الحصول على مكـانة لـه في مجالسه) ـ احترم العلماء كما هم يبادلونك الاحترام » فصرخ بـه المفتي : « يا محروقي ، هل أنت معني بهذه القضية ؟ فإن كان لك دخل فيها ، فـاعلن عن دورك وإلاّ فالزم الصمت . واذهب وتحدث في مجالس التجار ، ولكن إيّاك أن تفتح فاهك في مجالس العلماء! ». وعلى الفور غادر « المحروقي » البـلاط وكان استشفَّ خواتم هذه القضية وتوجّب عليه ترتيب أموره . وطلب العلماء من المفتي إبراز دليل على بطلان حكمهم في القضية فقام المفتي بانتزاع كُتيّب من جيبه يتعلّق بأحكام الميراث وراح يقرأ منه :

« لا بد في إدّعاءات علاقات النّسب والميراث من التّحقق من أسماء والد المدّعي ووالدته وكذلك أسماء والد والده ووالدته » . وأمّا في قضية البواب فلم يقم الشهود المزيفـون بإبـراز أسماء والـد البواب ووالـدته ، وهـذا النّقص في الشهادة (والذي تغافل عنه العلماء) يجعل الحكم باطلاً ملغياً . وأُحضِر البواب أمام المجلس ، ولكنّه أنكر الخديعة التي كان هو أداتها الرئيسية ؛ فما كان من الباشا إلاّ أن أمر بجلده جلداً قاسياً والاعتراف الوحيد الذي أمكن الحصول عليه بعد تعذيبه عذاباً شديداً هو أنّه لم يتلقَّ س الثلاثة آلاف كيس من المال غير ثلاث مائة قرش . وكان المحروقي في ذلك الوقت قد توجه للقاء سيد البواب ، فأخبر السيد بما حصل في القلعة وما توقع حدوثـه ووضع في يـده ثلاثـة آلاف كيس من النقود ورجاه أن يذهب إلى المجلس فـوراً وأن يسلّم هذا المبلغ من المال وأن يقول إنه كان في عهدته أمانة لخادمه . فكان له ما أراد ودُفِع المال إلى ابنة الرجل المتوفّى

وكان « المهدي » يفضح العلماء بالطريقة عينها في قضايا أخـرى عندمـا كان الباشا (غير محمـد علي) يؤثر على الأحكـام التي كان القـاضي ومجلس العلماء يصدرونها ، فكانوا يمرّرون أحكاماً مخالفة للقانون . وكان هذا المفتي مثالاً نادراً في النزاهة والاستقامة ؛ فهو لم يكن يأخـذ مالاً مقـابل إصـداره أية

فتوى . ولقد وافته المينة بعد أول زيارة لي إلى هذا البلد بفترة وجيزة . وتحضرني الذاكرة في قضايا رشوات عديدة في محكمة قاضي القاهرة ، لكن القضية التي أثرتها سابقاً كافية .

وفي القاهرة خمس محاكم ثانوية إضافة إلى المحكمة الواقعة في ميناء القاهرة الأساسي « بولاق » وأخرى في مينائها الجنوبية في مصر العتيقة . وكان شاهد من المحكمة الكبيرة يترأس جلسات هذه المحاكم كنائب للقاضي الرئيسي فيثبت أحكامهم وقراراتهم . والقضايا المطروحة أمام هذه المحاكم الثانوية تتعلق خاصة ببيع الممتلكات والتركات وقضايا الزواج والطلاق . وكان القاضي يُزوِّج اليتيمات القاصرات اللواتي لا أقارب لهن ليلعبوا دور وكلائهن ، كما كانت الزوجات يحتكمن إلى القانون لإجبار أزواجهن على منحهن الطلاق . ويعيّن في كل منطقة ومدينة قاضٍ يكون من مواليد هذه المنطقة عادة ، غير تركي على الإطلاق ينظر في كل القضايا ويحكم فيها سواء من خلال معرفته الخاصة بالقانون أو من خلال تفويض المفتي له . وكان القاضي الواحد ينظر في أمور قريتين أو ثلاث

لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة المعروفة للمسلمين (الحنيفية والشافعية والمالكية والحنبلية) شيخه الخاص يتم اختياره من بين أكثر الشيوخ علماً ومعرفة ويكون مقيماً في القاهرة. وقد شكّل شيخ جامع الأزهر الكبير (والذي هو دائماً من الشافعية وأحياناً شيخ المذهب) وطائفة الشيوخ الآخرين الذين ذكرتهم والقاضي والنقيب الأشرف (سيد الأشراف من سلالة الرسول ﷺ) وأشخاص عديدون آخرون مجلس العلماء، فبثّوا الهيبة والإجلال في نفوس الباشاوات والقادة المماليك وحدّوا من طغيانهم وجبروتهم ، بيد أن سلطة هؤلاء العلماء على الحكومة قد تقلّصت تقريباً وأمّا النزاعات البسيطة فتُرفَع بعد تراضي الأطراف إلى أحد شيوخ المذاهب الأربعة وهم مفتيو تلك المذاهب لينظروا فيها ، وأبلغ التقدير وأجلّ الاحترام يظهره الناس إلى شيوخ هذه المذاهب . وأمّا القضايا الدقيقة المتعلقة بأحكام القرآن والأحاديث فغالباً ما يحيلها الباشا إلى شيوخ هذه المذاهب ولكنّه لا يلتزم دائماً بأحكامهم فمثلاً

بعد ركون الباشا إلى هؤلاء الشيوخ بالنسبة إلى شرعية تشريح الأجسام البشرية خدمةً للعلم التشريحي وبعد تلقيه قرارهم بمخالفة ذلك لأحكام الدين سمح لطلبة التشريح المسلمين القيام به .

أمّا شرطة العاصمة فهي تحت إشراف السلطة العسكرية أكثر منها السلطة المدنية. وكانت هذه الشرطة لسنوات خلت تحت سلطة «الوالي» و«الظابط»؛ لكنّ سلطة الوالي أُلغيت منذ زيارتي الأولى لمصر. ومهمّة الظابط إلقاء القبض على السارقين والمجرمين وكذلك ملاحقة فتيات الهوى اللواتي كان يحتفظ بلائحة أسمائهن فيوجب على كل واحدة منهن دفع ضريبة معينة . كما كان يطّلع على سلوك النساء عامة . فإذا وجد إحداهن مذنبة وكان مسلكها بعيداً عن الاحتشام ولو مرة واحدة أضاف اسمها إلى لائحة فتيات الهوى وطلب منها دفع الضريبة إلاّ إذا فضّلت التخلص من سلوكها المخزي وسمحت لها إمكانياتها بدفع رشوة له أو للشرطيين العاملين تحت إمرته . ويتولّى أحد الأشخاص مسؤولية جمع الضرائب من بنات الهوى غير المتزوجات وكذلك من المتزوجات أحياناً ولكنْ قد تُقتل غير المتزوجات بشكل سري إن لم يتمكنّ من إنقاذ أنفسهن إن بالرشوة أو بأية حيلة أخرى . وهذه الإجراءات مخالفة في نقطتين للقانون الذي يأمر بجلد الشخص الذي يتهم المرأة بالزنا أو الفسوق دون إبرازه أربعة شهود على ذلك ثمانين جلدة ؛ كما يسنّ هذا القانون عقوبات أخرى غير عقوبات الإنحطاط الخلقي والضريبة المفروضة على النساء المتهمات بارتكاب الفاحشة .

يشغل « الظابط » حالياً منصب رئيس الشرطة وينتشر العاملين تحت إمرته الذين لا تميّزهم علامات خاصة تجعلهم معروفين كرجال شرطة في أرجاء العاصمة . وهم غالباً ما يتردّدون على المقاهي فيراقبون سلوك المواطنين وتصرّفاتهم ويستمعون إلى أحاديثهم ، ومن بينهم سارقون تابوا عن السرقة يرافقون الحرّاس العسكريين في جولاتهم الليلية في شوارع العاصمة . ولا يُسمح لغير العميان بالخروج من منازلهم ليلاً لأكثر من ساعة ونصف الساعة بعد المغيب دون مصباح أو ضوء يحملونه معهم . ونادراً ما يتجّول الناس في

الشـوارع بعد سـاعتين أو ثلاث من المغيب . وإذا مـا تنقّلت في طـول البـلاد وعـرضها بعـد خمس أو ست ساعـات من المغيب لا تصادف أكثـر من عشـرة أشخاص أو عشرين شخصـاً باستثنـاء الحرّاس والبـوابين عند مـداخل الأحيـاء والشـوارع الفرعيـة . وينادي الحـارس إذا وقع نـظره على أحد المـارة باللغـة التركية « من أنت ؟ » فيأتيه جواب المار بالعربية : « مواطن » وإذا صادف الخفير الخاص مارّاً بدوره يصرخ به : « إشهد بوحدانية الله » ، أو بكل بساطة « إشهد بالوحدانية » ، فيأتيه الجواب : « لا إلّـه إلاّ الله » ، والشهادة لا يمـانع إعلانها حتى المسيحيين علماً أن النصراني يفهم هذه الكلمات بشكل مغاير عن المسلم . والاعتقـادِ السائـد أن السارق أو الشخص الـذي ارتكب عمـلاً غيـر قـانوني لا يجـرؤ على التلفظ بالشهـادة وأمّا بعض الأشخـاص فيردّون على مـا يأمرهم به الخفير بصوت مسموع واضح « لا إلّه إلاّ الله محمد رسول الله » ومهمّة الحارس الخاص حراسة الأسواق وبعض المنـاطق في العاصمـة ليلاً ، ويحمـل لهـذا الغـرض « النّبـوت » (عصـا غليـظة) ولا يستنيـر قط بمصبـاح أو فانوس

وغالباً ما يتجوّل الظّابط (أو آغا الشرطة) في شوارع العاصمة ليلاً ، يـرافقه المنفّذ و « الشيّالجي » ـ حامل « الشّيالة » ـ وهي مصباح شائع الاستعمال . ينير هذا المصباح فور إشعاله فلا يحـدث لهباً إلاّ إذا حـرّك في الهواء. ويكـون طرف « الشيـالة » المشتعـل مخفياً في قـدر صغيـر أو مغـطّى إذا لم يـرغب حـاملهـا بإشعالها ويُقال إن السـارقين يشتمّون رائحتهـا في الوقت المنـاسب فيلوذون بالفرار من حـاملها وإذا حصـل وأوقفت الشرطـة شخصاً لا يحمـل مصباحـاً مساءاً ، فلا يحاول هذا الشخص عادة مقاومة رجال الشـرطة أو الهـرب . وأمّا عقابه فالضرب . وكذلك يستطيع رئيس الشرطة إصدار حكم بالموت على أي مجرم أو معتدٍ بصورة تعسفيّة دون محاكمته ، ويمكنه أيضاً أن ينزل به العقـوبة القصوى (الإعدام) عنـدما لا يحكم عليـه القانـون بذلـك . كما يتمتّـع بهذه الصلاحية العديد من رجال الشرطة الأدنى مرتبة ولكن لم نشهد خلال السنتين أو الثلاث الماضية مثل هذه الحالات التعسفية إلاّ نادراً ولا أعتقد أنّها مسموحة

اليوم . ويقوم شرطيو الظابط بجولاتهم الليلية برفقة الحراس العسكريين لكونهم أكثر اعتياداً على ممارسات السارقين ورجال السوء ؛ ولكن الظابط لا يتمتع بأية سلطة جزائية غير الضرب والجلد .

لجأت الشرطة في القاهرة إلى وسائل غريبة كتلك التي نقرأ عنها في قصص « ألف ليلة وليلة » لاكتشاف المعتدي قبل التجديدات الحديثة التي شهدتها . ومن الأمثلة على ذلك القضية التي سأسردها عليكم كما سمعتها تماماً ، وهي وغيرها من القضايا الأخرى المشابهة لها معروفة تماماً حضر ذات يوم رجل فقير إلى آغا الشرطة وقال له : « يا سيدي ، حضرت إليّ امرأة وقالت لي خذ هذا القرص وابقه معك لفترة واقرضني خمسمائة قرش . فأخذت يا سيدي القرص منها وأعطيتها الخمسمائة قرش ثم رحلت . ولمّا ابتعدتُ قلت في سري : فلأنظر إلى القرص . نظرتُ إليه وحملته فوجدته من النحاس الأصفر. وهنا لطمتُ وجهي وقلتُ: سأذهب إلى الآغا وأخبِره روايتي فيحقّق في القضية ويوضّحها . فلا أحد غيرك يا سيدي يساعدني في هذه القضية » وأجابه الآغا : « إسمع ما سأقوله لك يا رجل . إذهب إلى متجري وخذ ما شئت منه ولا تترك شيئاً ، ولمّا تنتهي إقفلْ المحل إذهب في الصباح الباكر وعند فتحك المحل إصرخ بصوت عال : واحسرتاه على ما أملك . ثمّ خذ بين يديك كُتلَتي تراب وألطم نفسك بهما وابك متحسّراً : « واحسرتاه على ملكية الآخرين! ». ومن يسألك عن أمرك أجبهُ : ضاعت ملكية الآخرين . لقد ضاعت عهدة وضعتها امرأة أمانة عندي فلو أنّ الملكية ملكيّتي لَمَا تحسّرت . وهكذا تتوضح القضية » ووعد الرجل الآغا بأن يفعل ما يريد فقام بإخلاء كلّ أغراض المتجر ثمّ خرج في اليوم التالي وفتحه وبدأ يبكي « واحسرتاه على ملكية الآخرين » . وأخذ كُتلَتي طين ولطم نفسه بهما وانطلق في أزقة المدينة يبكي : واحسرتاه على ملكية الآخرين . لقد ضاعت عهدة وضعتها امرأة في أمانتي فلو أنّ الأمانة أمانتي لما تحسّرت هكذا » . وسمعت المرأة التي أعطته القرص هذا الكلام واكتشفت أنّه الرجل الذي خدعته فقالت في نفسها : « فلأذهب وارفع قضية ضدّه » . فذهبت إلى متجره على ظهر حمار لتعطي

لنفسها أهمية وقالت له : « يا رجل أعطني ملكيتي التي هي في عهدتك » . فأجابها : لقد ضاعت فصرخت به : « يقطع لسانك . هل أضعت ملكيّتي ؟ والله لأذهبنَّ إلى الآغا وأخبره القضية » . « إذهبي » كان ردّه لها . فذهبت إلى الآغا وأطلعته على قصّتها . فأرسل الآغا يطلب الرجل . فلمّا حضر ، سألها : « مالك عنده » ؟ فأجابته قرص من الذهب» فقال لها الآغا « يا امرأة ، عندي قرص ذهبي وأودّ أن أريه لك » فقالت له « دعني أنظر إليه فأعرف قرصي » عندها فتح الآغا منديلاً وأخرج منه القرص الذي وضعته أمانة وقال : « أنظري » فنظرت إلى القرص وعرفته وأطرقت رأسها . فقال لها الآغا « إرفعي رأسك وقولي لي أين ذهبت بالخمسمائة قرش التي أخذتها من الرجل ؟ » فأجابته : « سيدي ، المال في منزلي » فذهب الجلاد معها إلى منزلها لا يحمل سيفه . فلمّا وصلت إلى منزلها ، أخرجت كيساً فيه نقود وأقفلت عائدة معه وأعادت المال الذي أخذته من الرجل . فأمر الآغا الجلّاد باقتيادها إلى « الرُّميلة » (وهو مكان فسيح تحت القلعة) حيث قطع لها رأسها

يشرف « المحتسب » على أسواق القاهرة ومقاييس التجار وموازينهم ، فيتجول في أرجاء المدينة بسيفه أحدهم حاملاً ميزاناً كبيراً ويتبعه الجلّادون وخدم كثيرون آخرون . وعند مروره بين المتاجر أو في الأسواق ، يأمر « المحتسب » أصحاب المحلات الواحد تلو الآخر أن يبرزوا موازينهم ومقاييسهم فيجرّبوها ليتأكّد من دقّتها كما يطلب « المحتسب » معرفة أسعار السّلع في المتاجر وهو غالباً ما يوقف أحد الخادمين أو أحد المارة في الشارع يلتقيه صدفة حاملاً سلعة غذائية إشتراها لتوّه فيسأله عن الثمن الذي اشترى به السلعة وعن وزنها فإذا وجد أنّ موازين صاحب المتجر ومقاييسه غير صحيحة أو أنّه باع السلعة ناقصة الوزن أو بسعر أكثر من السعر المحدّد لها ، يُعاقبه على الفور . ويقضي العقاب العام بالضرب المبرح أو بالجلد . وذات مرة إلتقيت برجل تمّ تعذيبه بشكل مختلف لأنّه قام ببيع خبز ناقص الوزن ، فكان عقابه أن جُعلت في أنفه حلقة عُلّقت إليها قطعة خبز سميكة سماكة الإصبع وعرضها عرض متر بواسطة خيط . وجُرِّد الرجل من ثيابه إلاّ من قطعة من الكتّان عند

خاصرته وثُبِّت ويداه مربوطتان إلى حديد نافـذة جامـع « الأشرفيـة » القائم في شارع العاصمة الرئيسي ، ووُضِعت قدماه على الأسكفة (عتبة النافذة) . ويقي هكذا نحو ثلاث ساعات على مرأى من الجماهير المحتشـدة في الشارع تحت أشعة الشمس الملتهبة

ومن الأشخاص الذين عُيِّنوا في منصب « المحتسب » بعد زيارتي السابقة بفترة وجيزة « مصـطفى كاشف» من الأكراد ، وقـد مارس هـذا الأخير وظيفتـه بشكل فظ ، فكان يشوّه آذان الرجال (فيقطع شحمة أذنه) ليس لأنَّهم خـالفوا القـانون مخـالفة بسيـطة بل مقـابل لا شيء البتـة إحيانـاً والتقى « مصـطفى كاشف » مرّة رجلاً عجوزاً يسوق حميراً عديدة محمّلة بطيخاً ؛ فأشار إلى أكبر بطيخة وسأله عن سعرها . فوضع العجوز إصبعه وإبهامه على شحمة أذنه وقال له : « إقطعها يا سيدي » . وعاد فسـأله مـراراً وتكراراً ، فكـان العجوز يعـطي الجواب نفسه كلّ مرة ؛ فاستشاط المحتسب غيظاً ؛ ولمّا كان عاجزاً عن تمالك نفسه عن الضحك قال : « يا صديقي ، هل أنت مجنون أم أطرش؟ » - « لا ، أجابه العجوز ، ما أنا بمجنون ولا بأطرش . ولكنّني أعرف أنّني لو قلت لك أنّ سعر البطيخ هو عشر فضّات لأمرتَ بقطع أذني وإن قلت إن السعر هو خمس فضّات أو حتى فضّة واحدة لأمرت أيضاً بقطع أذني ، فلذلك إقطع لي شحمـة أذني على الفور ودعني أمضي في سبيلي » . وهكذا أنقذت الفكاهة العجوز من براثين المحتسب . وتشويه الأذن كان العقاب العادي الذي كان ينزله المحتسب بالشخص ، ولكنّه كان يلجأ أحيـاناً إلى وسـائل تعـذيب أخرى . ففي إحـدى المرّات قطع أوقيتَيْ لحم من ظهر أحد الجزارين وكان هذا الأخير قد باع شيئاً من اللحم وأراد اقتطاع أوقيتين من وزن اللحم الإجمالي ولم ينجُ أيضاً بـائع « الكُنافة » الذي جعل زبائنه يدفعون الشيء البسيط فوق الثمن المفروض لهذه الحلوى ؛ فمـا كـان من المحتسب إلّا أن أمـر بتعـريتـه وجعله فـوق الصينيـة النحاسيّة الدائرية حيث تخبز الكنافة وأبقاه على هذه الحال حتى احترق بشكل مروع كان المحتسب يعاقب الجزارين الغشاشين عادة بـأن يضع في أنـوفهم خُطّافاً يعلّق إليه قطعة لحم ويُروى أنّه التقى ذات مرة رجلاً يحمل قفصاً مليئاً

بقناني مياه فخارية من « سمنود » كان يبيعها على أساس أنّها من « قِنا » ، فأجبر زبائن هذا الرجل على كسر كل قنينة على رأس البائع

وتبرز جولات وصولات طغيان « مصطفى كاشف » في ميادين أخرى لا تقع ضمن صلاحيّاته . وحدث أن خطرت له خاطرة غريبة ، فأرسل أحد أحصنته إلى أحد الحمّامات في جواره وطلب من صاحب الحمام الاستعداد لاستقبال الحصان وتنظيفه جيداً وتنعيم وبره . وتضايق صاحب الحمام من هذا الأمر الغريب العجيب فتجرّأ واقترح إرسال محتوى مياه حوض الحمام في دلاء إلى الإسطبل ، لأنّ بلاط الحمام من الرخام وقد يتزلق الحصان ويقع ، وأنّه قد يُصاب بالبرد لدى خروجه من الحمام؛ فمن الأفضل تنظيف الحصان في الإسطبل . فأجابه « مصطفى كاشف » : « هكذا إذن لا تحب أن يدخل حصاني إلى حمّامك » . وطلب من خدمه طرح صاحب الحمام أرضاً وضربه بالعصى حتّى يأمرهم هو بالكف عن ذلك . فكان له ما أراد وضُرب صاحبنا المسكين حتى مات .

جرت العادة منذ سنوات أن يتقدّم المحتسب ميزاناً أكبر من الموازين المستخدمة في أيّامنا عند قيامه بجولاته للتدقيق في الموازين والمقاييس . وكان عاتق الميزان عبارة سن أنبوب فارغ يحتوي على زئبق ويمكن لحامله أن يعرف الأشخاص الذين رشوا سيّده أو لم يرشوه ، ممّا يسهّل عليه ترجيح كفة الميزان حسب ما يشاء .

وكما المحتسب هو مراقب الأسواق العامة ، هناك مستخدمون مهمّتهم الإشراف على كل فروع تجارة الباشا ومصانعه ، ولا يتوانى بعضهم عن ارتكاب أفظع أعمال الطغيان . ومن هؤلاء : « علي بيه » وهو « ناظر القماش » الذي كان كلمّا وجد شخصاً يمتلك نولاً خاصّاً به أو وجده يبيع نتاج هذا النول ، يربطه بقطعة من نتاج نوله مخضبة بالزيت والقار ويعلّقه بعد لفّه إلى فرع شجرة ويشعل النار في القماش . وتشاء الأقدار أن يموت « علي بيه » احتراقاً مع آخرين بفعل انفجار مستودع بارود عند المنحدر الشمالي لقلعة القاهرة عام ١٨٢٤ قبل زيارتي الأولى لمصر بسنة واحدة بعد أن قتل رجالاً كثيرين بهذه الطريقة

الفظيعة وقال لي أحد أصدقائي وهو يحدّثني عن أعمال هذا المختسب الوحشية « لمّا حُمل جثمانه للدفن ، صلّى عليه الشيخ العروسي (وهو شيخ جامع الأزهر الكبير) صلاة الجنازة في جامع الحسين وكنت أقوم بدور المبلّغ (مردّداً كلمات الإمام) . فقال الشيخ « إشهدوا له »؛ ولمّا ردّدت كلام الشيخ ، لم ينطق أحداً من الموجودين وكانوا كُثُر . ولمّا أضاف الشيخ « لقد كان من الصالحين » ، أطبق الجميع في صمت عميق ولأبثّ الحماس في نفوس الحاضرين كرّرت « إشهدوا له » فلم أسمع جواباً . فارتبك الشيخ وقال بصوت خافت : « فليرحمه الله » - وحسبك يا صديقي أن تقول (والكلام دائماً لصديقي) إن هذا الرجل اللعين ينعم في الجحيم الآن . فزوجته تقرأ له دوماً ختمة من القرآن في منزله وتضيء له شمعتين لراحة نفسه كل مساء في جامع الحسنين »

يُعيَّن لكل حي من أحياء القاهرة شيخ معروف « بشيخ الحارة » مهمّته الحفاظ على الأمن وتسوية الخلافات البسيطة التي تنشب بين أهل الحارة الواحدة وطرد كل من يعكر صفو جيرانه وتقسم العاصمة إلى ثماني مناطق على رأس كل منها شيخ هو « شيخ الثُمْن » (نسبة إلى ثمانية)

وكذلك فللتجار وأصحاب المصانع في العاصمة وفي المناطق الواسعة الأخرى شيوخهم الذين يرفعون إليهم النزاعات المتعلقة بقضايا التجارة أو الحرفيات للحكم فيها وموافقتهم ضرورية بالنسبة إلى قبول الأعضاء الجدد .

وللخادمين في العاصمة أيضاً شيوخهم فمن يحتاج إلى خادم ، يتوجه إلى أحد هؤلاء الشيوخ المعتمدين الذي يصبح مسؤولاً عن مسلك الخادم الذي يوصي به مقابل قرشين أو ثلاثة قروش يحصل عليهما الشيخ أجراً له فإذا حصل وسرق الخادم سيده ، يخبر هذا الأخير الشيخ المسؤول الذي سواء استطاع إرجاع المسروقات أو لم يستطع مُجبر بالتعويض على السيد المسروق .

وللسارقين أيضاً شيخهم . فلقد اعتاد هؤلاء لسنوات خلت احترام أحد الأشخاص المسؤول عنهم - شيخهم - وكان على هذا الشيخ البحث عن الأشياء

المسروقة وجلب المذنبين للمثول أمام العدالة . والملفت أن هذا النظام نفسه كان شائعاً بين المصريين القدماء .

يحكم البطريرك القبطي - رئيس الكنيسة القبطية - في القضايا البسيطة التي تنشب بين الأقباط في القاهرة ، وأمّا رجال الإكليروس الأدنى مرتبة فينظرون في مثل هذه القضايا في أماكن أخرى في البلاد . ويمكن استئناف القضية أمام القاضي وقد يلتمس المسلم الذي أساء إليه أحد الأقباط عدالة البطريرك أو القاضي ؛ وعلى القبطي الذي يطلب تعويضاً من مسلم مراجعة القاضي وكذلك يفعل اليهود . وأمّا الفرنجة أو الأوروبيون عامة فلا يحتكمون إلّا لقنصليّاتهم إلّا إن كانوا اعتدوا على شخص مسلم . فهم يُسلَّمون في هذه الحالة إلى السلطات التركية التي تحكم لصالح الفرنجي

. يخضع سكان المدن والقرى في مصر عامة لسلطة حكومة موظفين أتراك ومواطنيهم وتقسم مصر إلى أقاليم عديدة كبيرة ، يرأس كلّ إقليم منها «عثماني» ، وبدورها تُقسم الأقاليم إلى مناطق يرأسها موظفون من مواليد هذه المناطق . ويعرف واحدهم « بالمأمور » و « النّاظر » ولكلّ قرية وبلدة شيخها الخاص بها يُعرَف « بشيخ البلد » ويكون من سكان القرية المسلمين . ولا بد من التذكير بأنّ كل الموظفين الذين ذكرتهم في الأوّل هم من الأتراك ، وكذلك حكّام بعض المناطق الصغيرة الأتراك ويُعرف واحدهم « بالكاشف » و « بالقائمقام » . ويشكو الفلاحون من تردّي أحوالهم عن السابق ولكن ذروة شكواهم تكمن في طغيان حكّامهم الكبار الأتراك وقد تعطي القصة التي سأوردها الآن فكرة عن حالة الفلاحين المصريين في بعض الأقاليم . فذات مرة توجه أحد الأتراك المعروفين بأعمالهم الوحشية والذي كان يرأس مدينة طنطا ليلاً إلى مخزن القمح الحكومي في المدينة - فوجد فيه فلاحَيْن اثنين نائمين ؛ فسألهما عن هويتها وعملها في المخزن . فأجابه الأوّل بأنّه أحضر ١٣٠ إردباً من الذرة من إحدى القرى إلى المنطقة ؛ وأمّا الثاني فأجابه بأنّه أحضر ٦٠ إردباً من الأرض التابعة للمدينة ، فصرخ الحاكم بالفلاح الثاني : « أيّها الوغد النذل! . لقد أحضر هذا الرجل ١٣٠ إردباً من أراضي قرية صغيرة وأنت لم

تحضر سوى ٦٠ منها من أراضي المدينة » . فردّ فلاح طنطا : « لكنّ هذا الرجل لا يحضر الذرة سوى مرة في الأسبوع وأنا أحضرها كل يوم فنهره الحاكم وأمره بالسكوت ثمّ أشار بيده إلى شجرة قريبة وطلب من أحد الخدم تعليق الفلاح المسكين إلى أحد غصونها ـ فكان له ما أراد وعاد الحاكم أدراجه .

وفي اليوم التالي توجّه الحاكم إلى المخزن فرأى رجلاً يُدخل إلى المخزن كمية كبيرة من الذرة فسأل عنه وعن الكمية التي أحضرها : وأتاه الجواب من جلّاد الليلة السابقة : « هذا هو الرجل الذي أمرت يا سيدي بتعليقه البارحة ، ولقد أحضر ١٦٠ إردباً » . فصرخ الحاكم مدهوشاً : « ماذا ؟ وهل قام من بين الأموات؟ » ـ « كلايا يا سيدي ـ أجابه الجلاد ـ لقد علّقته حتى وطأت أصابع رجليه الأرض ، ولمّا رحلتَ فككتُ الحبل . فأنت يا سيدي لم تأمرني بقتله » وهنا راح التركي يتمتم « آه ، كم أنّ اللّغة العربية غنية ! في المرة القادمة سأستعمل عبارة : إقتل . انتبه إلى أبي داوود » (وأبو داوود هو لقب الرجل)

وقصة أخرى أعرضها لك يا قارئي العزيز عن طبيعة الحكومة التي كان يخضع لها سكان مصر . فلقد طلب مرّة أحد الفلّاحين الذي عُيّن كناظر لمنطقة « المنوفية » (الواقعة أقصى جنوبي الدلتا) من فلاح فقير ـ وكان الناظر يجمع الضرائب من إحدى القرى ـ مبلغ ستين ريالاً . وأكّد له الفقير أنه لا يملك سوى بقرة واحدة بالكاد تكفيه لإعالته وأسرته وبدلاً من أن يطبق الفلاح العادة المتبعة عند إعلان أحد الفلاحين عجزه عن دفع الضريبة المتوجبة عليه وهي ضرب الفلاح ضرباً مبرحاً ، أرسل الناظر شيخ البلد لجلب بقرة الفلاح وطلب من الفلاحين شراءها ولمّا أبلغه الفلاحون بعدم توفر المال اللازم لشراء البقرة ، أرسل الناظر يطلب جزّاراً ليذبح البقرة . ولمّا حضر الجزار طلب الناظر منه تقطيع البقرة ستين قطعة . وطلب الجزار أجره فأعطي رأس البقرة . ثمّ أحضر الناظر ستين فلّاحاً وأجبر كلّ واحد منهم على شراء قطعة من البقرة مقابل ريال واحد ، فذهب صاحب البقرة يبكي ويشكو أمره إلى رئيس الناظر « محمد

بيه دِفتردار » وقال له : « يا سيدي أنا في بؤس مدقع ، لا حيلة لي سوى بقرة حلوب أعيش من حليبها مع عائلتي ؛ وهي تحرث لي أرضي وتدرس لي حنطتي وهي زادي وقوتي ؛ ولقد أخذها الناظر وقتلها وقطّعها ستين قطعة وباعها إلى جيراني، وجعل القطعة الواحدة بريال ، فحصل بذلك على ستين ريالاً لكن ثمن البقرة يزيد عن مئة وعشرين ريالاً . وأنا أعاني الضيق والعوز ، كما أنّني غريب عن هذه المنطقة ، فأنا من قرية بعيدة . لكن الناظر لم يشفق علي وها إنني أصبح مع عائلتي من المتسوّلين ، ولم يبق لي شيء . فارحمني يا سيدي وانصفني ، ده أنا في « عرضك » .

فأحضر الدفتر الناظر أمامه وسأله « أين هي بقرة الفلاح ؟ فأجابه الناظر : « لقد بعتها » .

- « بكم ؟ »

- « بستين ريالا » .

- « ولماذا ذبحتها وبعتها؟ »

- كان يتوجب على الفلاح دفع ستين ريالاً للأرض . فأخذت بقرته وذبحتها وبعتها مقابل هذا المبلغ »

- « وأين الجزار الذي ذبحها ؟ » .

- « في منوف » .

وتمّ إحضار الجزار فسأله الدفتردار .

- « لماذا ذبحت بقرة هذا الرجل؟ »

- « هذا ما أمرني به الناظر ولم أستطع معارضته . فإن أنا امتنعتُ ضربني وهدم منزلي فذبحتُ البقرة وأعطاني الناظر رأسها أجراً لي »

- « يا رجل - سأله الدفتردار - هل تعرف الأشخاص الذين اشتروا اللحم؟ » فأجابه الجزار بالإيجاب وطلب الدفتردار من أمينه تدوين أسماء الستين رجلًا وأصدر أمراً إلى شيخ قريتهم بإحضارهم إلى « منوف » حيث تم تسجيل هذه الشكوى . وزُجّ الناظر والجزار في السجن حتى صباح اليوم التالي فلمّا

حضر شيخ القرية والفلاحون السّتون، أُحضِر السجينان أمام الدفتردار الذي سأل الشيخ والفلاحين الستين

- « هل كانت بقرة هذا الرجل تساوي ستين ريالاً ؟ »

- « كلا يا سيدي ، فثمنها أكثر بكثير »

فأرسل الدفتردار في طلب قاضي « مَنوف » فقال له « يا قاضي ، أمامك رجل ظلمه الناظر الذي أخذ بقرته وقتلها وباع لحمها مقابل ستين ريالاً فما حكمك ؟ فأجابه القاضي « إنه لطاغية ولظالم كبير كلّ من يظلم إنساناً تحت سلطته . أوَ لا تساوي البقرة مئة وعشرين ريالاً ؟ والناظر باعها بستين فقط . هذا ظلم مجحف لحق بصاحب البقرة »

عندها توجّه الدفتردار إلى بعض عسكره آمراً إياهم « خذوا الناظر وجرّدوه من ثيابه وأربطوه » ثم قال للجزار : « يا جزّار ، أوَ لا تخاف الله ؟ لقد ذبحت البقرة بغير ذي حق » فأصرّ الجزار على أنّه أُجبر على إطاعة الناظر . فسأله الدفتردار : « لو أنا أمرتك القيام بعمل فهل تقوم به ؟ فأومأ الجزار بالإيجاب « إذن إذبح الناظر » قال له الدفتردار . وعلى الفور أمسك العسكر بالناظر وطرحوه أرضاً فدقّ الجزار عنقه كما هي الطريقة المتبعة في قتل الحيوانات للطعام ثم أردف الدفتردار : « والآن قطّعه ستين قطعة » ففعل الجزار . وكان الناس ينظرون إلى ما يحصل ولا يجرؤون على الكلام ثمّ استدعى الستين فلاّحاً الذين كانوا اشتروا لحم البقرة الواحد تلو الآخر ، وأخذ كل واحد منهم قطعة من لحم الناظر ودفعوا ريالين ثمن كل قطعة وهكذا تم تحصيل مئة وعشرين ريالاً من هؤلاء . ولمّا انصرفوا بقي الجزار فسأل القاضي « ما عساها تكون مكافأة الجزار؟ » وكان جواب الدفتردار « أنّه ينبغي دفع القيمة عينها التي دفعها الناظر له » ثم أمر بإعطاء رأس الناظر إلى الجزار الذي انصرف وهو يحمل أثقل عبء حمله في حياته ، شاكراً ربّه أن سوء الطالع لم يلاحقه أكثر من ذلك فما صدّق أنّه نجا إلاّ عند وصوله قريته . وأمّا المال الذي دفع ثمن لحم الناظر فأُعطي لصاحب البقرة .

يمارس معظم حكام الأقاليم والمناطق طغياناً وظلماً يتخطى الحدود التي رسمها الباشا لهم . وشيخ القرية نفسه يسيء استعمال السلطة القانونية المعطاة لـه ويتأثـر ـ كما غيـره من الحكّام ـ بـالرشـوات وأواصر القـربى والصـداقـة والزواج ، فيخفف وطأة الظلم عن بعضهم ويزيدها إجحافاً لا يُطاق على البعض الآخر . ومع ذلك فمركز شيخ القرية أبعد من أن يكون مجرّد مركز « للعَوَاطْلِيَّة » (أي أن يتقاضى راتبه دون أن يبذل مقابلة جهداً كبيـراً) . فعنـدما يحين وقت جمع الضرائب وتسليمها ، يُجلد الشيخ جلداً قاسياً أكثـر من هم دونه مـرتبة . وكذلك عندما لا يـدفع أهـل القريـة المبلغ المطلوب منهم ، يُضـرب شيخهم لعدم إيفائهم الأمـوال المستحقة عليهم في وقتهـا ؛ وهو لا يبـرز دائماً حصتـه الخاصة التي اقتطعها من المبلغ المُجبى حتى يُجلد بالسوط . ويفتخر الفلاحون بالجلدات التي تنهال على أبدانهم لتمنّعهم عن دفع مساهماتهم قبل أن يدفعوا المـال المتـوجب عليهم . ويبـرز « أميـانــوس مـارسْيلينــوس » Ammianus Marcellinus طبائع المصريين في زمنه بشكل دقيق في مؤلفاته .

يُقال إن مدخول باشا مصر يـرتفع إلى نحـو ثلاثـة ملايين من الجنيهـات الاسترلينية ؛ ويأتيه نصف هـذا المبلغ من الضرائب المبـاشرة المفـروضة على الأرض ومن ابتـزازه غير المبـاشـر للفـلاحين ، وأمّـا النصف الثـاني منـه فمن الضرائب الجمركية والضرائب على أشجار النخيل وتلك المفروضة على الدخل وغلال الأرض ، ويحصل من بيع هذا المنتوج للحكومـة على ربح يـزيد على الخمسين في المائة . وقد رفع باشا مصر دخله بوسائل ظالمة مجحفـة فلقد انتزع ملكية أراضي معظم المالكين في مصر وخصّص لكل مالك تعويضاً جزئياً عن أرضه لمدى الحياة حسب مساحتها وخصوبتها فلا يتـرك المزارع لأولاده سوى كوخه ولربّما بعض المواشي ومدخرات بسيطة تكاد لا تذكر .

وأمّا الضرائب المباشرة المفروضة على الأرض فتُحسَب نسبة إلى خصوبة التربة الطبيعية . ويصل متوسط هـذه الضرائب إلى نحـو إكر إنكليـزي للفدان الواحد (والإكر هو مقياس للمساحة)، بينما لا يمكن للمـزارع احتساب المبلغ

الكامل الذي تطلبه الحكومة منه بشكل دقيق . فهو يعاني الأمرّين من ابتزاز الأموال بصورة غير المباشرة المفروضة على كميات الزبد والعسل والشمع والصوف وسِلال أوراق النخل وحبال ألياف أشجار النخل والسلع الأخرى ؛ كما أنّه مجبر على دفع ثمن استئجار الجمال التي تنقل حبوب أرضه إلى « شونة » الحكومة (ويعني المخزن) إضافةً إلى تحمّله نفقات أخرى . وتأخذ الحكومة قسماً من نتاج أرضه وأحياناً تضع يدها على نتاج الأرض كاملاً فتحدّد سعراً واحداً معتدلاً يشمل العديد من مناطق القاهرة للتعويض عن ديون الفلاحين الذين تنقصهم السيولة. وقد يجد الفلاح نفسه مجبراً على السرقة لسد ضرورات العيش الصعبة ، فينقل إلى كوخه سرّاً أقصى ما يمكنه أخذه من نتاج أرضه . ويمكنه أن يؤمّن لأرضه البذور اللازمة لها أو أن يحصل عليها كقرض من الحكومة لكنّه في هذه الحالة نادراً ما يحصل على الكمية الكافية ، إذ أنّ جزءاً كبيراً من هذه الكمية يسرقه الأشخاص الذين يستولون عليها قبل أن تصل إليه . وتكاد صفحات هذا الكتاب لا تكفي للتحدث عن ألوان الظلم والإجحاف التي يرزح تحتها الفلاح المصري بسبب عدم نزاهة المأمورين . وأمّا القلة القليلة من الفلاحين التي تواظب على الزراعة والاعتناء بالأرض فيدفعها إلى ذلك ضغط رؤوسائهم الذين يجبرونهم على العمل بشكل دؤوب .

لم يكتف الباشا بحيازة أراضي المالكين الخاصة بل عمد إلى إغناء خزينته و « تسمينها » بنسبة مهمة من عائدات المؤسسات الدينية والخيرية بحجّة ثروات هذه المؤسسات المكدّسة الفائضة فلقد فرض بادىء الأمر ضريبة توازي نحو نصف الضريبة المفروضة على الأرض العادية عن كل أرض أصبحت « وَقْفاً لأي جامع أو نافورة أو مدرسة عامة » . . . بعدها عمد الباشا إلى حيازة الأراضي بشكل مطلق مقابل « سناهيّة » (دخل سنوي) تُدفع بدلاً عن الأراضي لإشرافه الدائم على إصلاح هذه المباني والحفاظ على الأشخاص التابعين لها كالناظرين ورجال الدين والخدم والطلاب وغيرهم من الأشخاص المتقاعدين فكرهه معظم رجال الدين ورجال الفكر خاصة الناظرين في الجوامع الذين كانوا يغتنون من الأموال التي ائتمنوا على حفظها ؛ وحتّى

ممتلكات الجامع والمؤسسات العامة الأخرى لم يتردّد الباشا لحظة واحدة عن انتهاك حرمتها

وأمّا الضريبة المفروضة على أشجار النخل فتقدّر بنحو مئة ألف جنيه إسترليني وتُثمّن الأشجار وفقاً لجودتها ، فتوازي كل شجرة منها نحو القرش ونصف القرش . وتبلغ ضريبة الدخل المعروفة « بالفَرْضة » عامة نسبة اثنتي عشرة مرّة دخل المرء السنوي أو مرتبه . ويصل الحد الأقصى إلى خمسمائة قرش. وتحسب الضريبة في المدن الكبرى نسبة إلى السكان ، وأمّا في القرى فنسبةً إلى المنازل . وتصل الضريبة المفروضة على جميع سكان العاصمة إلى ثمانية آلاف كيس من المال أو نحو أربعين ألف جنيه استرليني

يدفع سكان العاصمة وسكان المدن الكبيرة ضريبة كبيرة على الحبوب وتبلغ الضريبة على كل نوع من الحبوب نحو ثمانية عشر قرشاً للأردب الواحد ، وتعادل هذه القيمة سعر القمح في البلاد بعد موسم حصاد جيد(١)

---

(١) جرت كتابة هذا العرض عن الحكومة المصرية بين ١٨٣٤ و ١٨٣٥ ، وهو لا يتوافق تماماً مع الزمن الحالي (١٨٤٢) . فلقد شهدت معظم القطاعات تغييرات هامة وأصبح بمقدور الباشا إيلاء شعبه اهتماماً أكبر وتحسين ظروفه المعيشية بعد أن كان مشغولاً بتعزيز قدرته العسكرية وقوته البحرية . وترجع المصائب التي عانى منها الشعب المصري بمعظمها إلى نفقات الحرب الهائلة وأعمال السخرة وعدم نزاهة معظم قوّاد الباشا .

الفصل الخامس

الحياة المنزلية

نتطرّق الآن بعد أن أوفينا الحالة الإجتماعية والخلقية لمسلمي مصر حقّها إلى حياة هؤلاء المنزلية وعاداتهم اليومية البسيطة ، فنركّز في البداية على الطبقتين المتوسطة والغنية .

يخلع العامة لقب « الشيخ » على سيد العائلة أو الرجل الذي بلغ مرحلة الرجولة ولا يعاني من ضيق الحال وشظافة العيش ويسبق هذا اللقب عادة إسمه وكلمة « شيخ » تعني حرفياً المتقدم في السن، ولكنّها غالباً ما تستعمل كمرادف لكلمة « مستر » Mister في اللغة الإنكليزية رغم التصاقها خاصة برجال الفكر والأولياء المباركين الذائعي الصيت . وأمّا « الشريف » أو المتحدر من سلالة الرسول ﷺ فيُعرف «بالسيد» مهما كان وضعه ومركزه. ويعمل العديد من الأشراف في الأعمال الدنيا ؛ فمنهم الخدم والزبالين والمتسولين من سلالة الرسول ﷺ المكرّمة ويحق لكل واحد منهم حمل لقب «السيد» المميّز وارتداء العمامة الخضراء. وليس كل الأشراف معدمي الحال . فمن الأشراف من ينتمي إلى طبقة الأغنياء الميسورين خاصة المتعلمين منهم ؛ ولا يتمتعون مع ذلك بمثل هذه الإمتيازات مفضّلين أن يطلق عليهم لقب « الشيخ » واعتمار العمامة البيضاء . وأمّا الرجل الذي أدّى مناسك الحج فهو « الحاج » وأمّا المرأة فهي « الحاجة » ويفضّل مع ذلك العديد من الحجاج ـ كما الأشراف ـ لقب « الشيخ » ؛ ونشير إلى أن التسمية العامة التي تطلق على المرأة هي « الستّ » بمعنى السيدة

لابد قبل التطرق إلى عادات سيد العائلة اليومية من ذكر طبقات الناس المختلفة التي تكوّن الأسرة تخصَّص للنساء خجرات مختلفة لا يسمح لأيّ ذكر بدخولها باستثناء ربّ العائلة وبعض الأطفال والأقارب (وتعرَف هذه الحجرات بالحريم وكذلك نازلاته) . يضم الحريم أوّلاً الزوجة أو الزوجات (أربع زوجات على الأكثر) والإماء ثانيةً بعضهنّ بيض وكذلك الجاريات الحبشيات وهنّ الخليلات . وأمّا بعضهن الآخر (السوداوات) فيُلزمن بالأعمال الوضيعة كأعمال الطبخ والسهر على راحة النساء ، وثالثاً الخادمات الحرّات اللواتي لسن في وضع الخليلات شرعاً وأمّا الخدم من الرجال التابعين فهم العبيد البيض والسود والخدم الأحرار وأكثرهم من الفئة الأخيرة . وقليلون هم المصريون الذين يقترنون بأربع زوجات وفقاً لما يسمح لهم به دينهم . ونادراً ما يتخّذ الرجل لنفسه أكثر من زوجتين إلى جانب خليلاته . ويفضّل معظم الرجال الذين لا يتعدّى عدد زوجاتهم الواحدة عدم الإحتفاظ بخليلات حفاظاً على كيان الأسرة وراحتها وقد يلجأ بعضهم إلى امتلاك جارية عباسية للإهتمام بالزوجة كما يحتفظون بجارية سوداء أو بخادمة مصرية للقيام بأعمال التنظيف وترتيب حجرات الحريم وتولي أعمال الطبخ ولا يحتفظ الرجل بزوجتين أو أكثر تحت سقف منزل واحد إلاّ نادراً ؛ وإذا جمعهما ، فلا بد أن تكون حجراتهما متباعدة عامة . كذلك يبقي الرجل خادماً أو أكثر إن كانت إمكانياته المادية تسمح له بذلك للسهر على راحته وراحة ضيوفه الرجال . ومن الخدم أيضاً « السّقا » أي ناقل الماء . ويكون السّقا خادماً في الحريم كما يلازم النساء عند خروجهن ، إضافةً إلى البواب الذي يجلس بصورة دائمة أمام باب المنزل و « سايس » الأحصنة والحمير والبغال ؛ والقلة القليلة من المصريين تمتلك « المماليك » وهم العبيد البيض ، لأن معظم هؤلاء يمتلكهم العثمانيون الأغنياء (إشارةً إلى الأتراك) كما أنّه من النادر أن يحتفظ أتراك الطبقة الرفيعة المستوى بمخصيين ؛ وأمّا الرجل المصري الميسور الحال فيمشي الهُوينا مزهواً متفاخراً بعبده الأسود الذي يسير وراءه ويحمل له غليونه .

ينهض المصري في ساعة مبكرة ويخلد إلى النوم في ساعات المساء

الأولى فالواجب يحتم عليه أن يكون جاهزاً مرتدياً ثيابه قبل انبلاج الصباح مستعداً لأداء صلاة الصبح. وتعدّ له زوجته أو جاريته فنجان القهوة وتملأ له غليونه بينما يتوضأ ويتلو صلاته؛ فلمّا يفرغ من تعبّده لرب العالمين يحتسيه على مهل.

يكتفي معظم المصريين عادةً بتناول فنجان القهوة وبتدخين الغليون « البيبة » حتى الظهر، فإذا تناول بعضهم الفطور فوجبة خفيفة لا تثقل معدتهم تتألف وجبة الفطور من الخبز والبيض والزبد والجبن واللّبن الزبادي أو من « الفطيرة » وهي نوع من العجين والزبد رقيق يُطوى كما المنديل؛ وتؤكل الفطيرة أو بعضها مع شيء من العسل أو السكر فوقه. ومن ألوان الطعام الشعبية المعروفة « الفول المدمّس » الذي يتم سلقه طيلة ليلة كاملة في وعاء من الفخار. ويوضع هذا الوعاء حتّى عنقه في رماد الفرن الساخن. ويُضاف إلى الفول المدمّس الزيت والزبد أحياناً مع شيء من عصير الليمون، ويتم بيعه صباحاً في أسواق القاهرة وغيرها من المناطق. والذين لا تسمح لهم إمكانياتهم بالتمتع بهذه اللذائذ فيأكلون « الدُّقة » المؤلفة من خليط الخبز والملح والفلفل مع قليل من الزعتر أو النعناع أو الكمّون. وتُؤكل « الدّقة » مع الكزبرة والقرفة والسمسم والحمص، وتغمّس في طبقها لقمات الخبز المستدير الشكل كالعجينة المسطحة بحيث لا تتعدى سماكته سماكة الإصبع

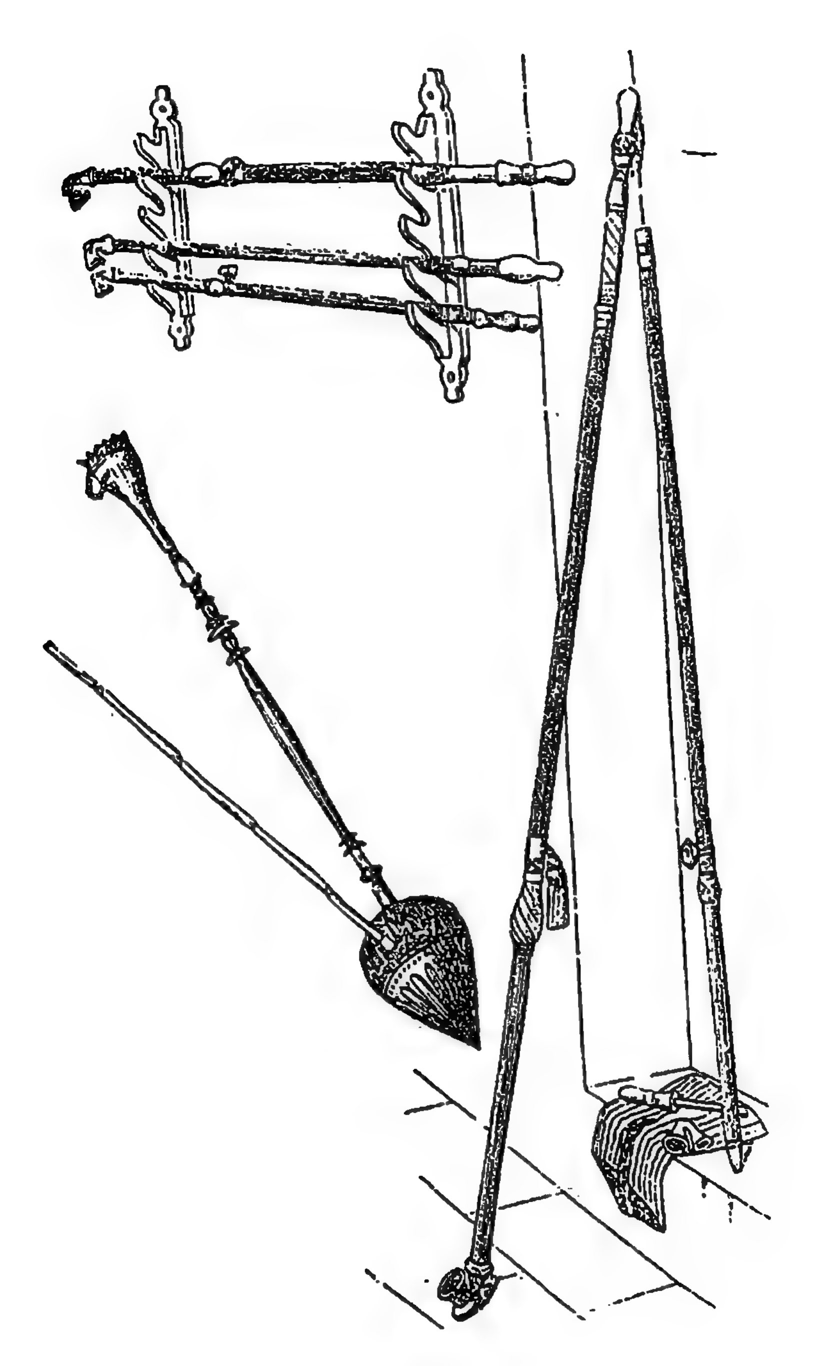
وكلّ من تسمح له ظروف المادية بتدخين الغليون واحتساء فنجان القهوة صباحاً، فلا يوفر مثل هذه الكماليات حتى خلال فترات النهار. وقلّما تشاهد مصرياً لا يحمل بيبته في يده أو يحملها له خادمه وراءه ويحتفظ المدخن بتبغ البيبة لاستعماله اليومي في كيس مصنوع إما من الحرير أو المخمل؛ ولهذا الكيس جيب صغيرة فيه صوّان ومادة سريعة الإلتهاب؛ ويحمل المدخن كيسه في صدره.

يتراوح طول البيبة عادة (والمعروفة «بالشابوق») و«العود» بين أربع وخمس أقدام. وقد ينقص طولها أو يزيد عن حدّها المعروف. وأكثر أنواع

البيبات شيوعاً في مصر الغليون الخشبي الذي يكون مغطّىً في جزئه الأكبر (من الفم وحتى نحو ثلاثة أرباع طوله) بالحرير؛ وهو مزوّد عند طرفيه بخيط حريري تتداخل فيه بعض الخيوط الحريرية الملونة أو بأنبوب فضي برّاق، إضافة إلى شرّابة من الحرير عند الطرف السفلي للجزء المغطّى. ولقد صُمّم هذا الغطاء ليترطب بالماء فتبرد البيبة ويخفّ الدخان عن طريق تبخّره . ولا تطبّق هذه الطريقة إلاّ في حال كانت البيبة قديمة أو غير أنيقة . ويستعمل العديد من المصريين البيبة الحمراء غير المغطاة خاصة في الشتاء ولا يتبخر الدخان صيفاً في مثل هذه البيبة كما في البيبة السابقة . ووعاء البيبة مصنوع من الطين المطبوخ الأحمر أو البني ، وأمّا فمها فمزوّد بقطعتين أو أكثر من الكهرمان الفاتح اللون غير الشفاف ومرصّع بالذهب المصقول والعقيق واليشب والعقيق الأحمر أو غيرها من الجواهر الثمينة ؛ والفم أغلى جزء في البيبة ويتراوح سعر البيبة الواحدة من هذا النوع بين جنيه وثلاثة جنيهات استرلينية ويدخّنها أبناء الطبقة المتوسطة. ويمر في الفم أنبوب خشبي يمكن تغييره عندما يصبح شبه مسدود بسبب زيت التبغ لذا ، لابد من تنظيف الغليون باستمرار بواسطة قماش من نُسالة الكتان وسلك طويل . ويكسب العديد من الفقراء في القاهرة رزقهم بتنظيفهم البيبات .

ورائحة التبغ الذي يدخنه الأغنياء وغيرهم في مصر زكية ، ويأتي معظمه من مدينة اللاذقية في سوريا . وأفخر أنواعه « التبغ الجبلي » المزروع في تلال تلك المدينة وهناك نوع آخر أقوى يشتق إسمه من مدينة صور يمزج أحياناً مع التبغ الجبلي يدخنه أبناء الطبقة المتوسطة. ويسحب أبناء مصر وبلدان الشرق الأخرى عند التدخين نفساً طويلاً ، فيعشعش الدخان في الرئتين . ويستخدم المصريون تعبير « شرب الدخان » في معنى « تدخين التبغ » ، ونادراً ما يبصقون وهم يدخنون .

يلجأ بعض المصريين إلى الغليون الفارسي في تدخينهم ويمرّ الدخانِ في هذا الغليون في الماء ويُعرف هذا الغليون « بالنارجيلة » التي يدخنها أبناء



أشكال مختلفة من البيـات

الطبقات الميسورة . والنارجيلة كلمة فارسية تشير إلى وعاء الماء في آلة التدخين هذه المصنوع من «النارجيل» (واحدها نارجيلة) أي الجوز الهندي . ومن آلات التدخين التي يعهدها المصريون «الشيشة» المميّزة بوعائها الزجاجي . ولكلّ من « النارجيلة » و « الشيشة » أنبوب طويل قابل للإنثناء . ويستعملْ التنبك لهذا الغرض وهو نوع من نبات التبغ من بلاد فارس له طعم خاص يدخّن ورقه بالنارجيله والشيشة معاً ويتم غسل النارجيله عدة مرات قبل استعمالها ؛ بعدها توضع في الوعاء وهي مرطبَه وتجعل في أعلاها عند الرأس قطعتان أو ثلاث من الفحم . والاستنشاق الطويل ضروري في عملية تدخين النارجيله ، وهو مضرّ للعديد من الأشخاص ذوي الرئتين الضعيفتين . وبقدر ما يدفع المرء الدخان إلى رئتيه عند استعماله النارجيله الفارسية بقدر ما يستنشق الهواء النقي . وتعود أوجاع الكبد المنتشرة بكثرة في شبه الجزيرة العربية إلى استعمال النارجيله وكذلك يعاني العديد من المصريين من الأوجاع عينها . ويستوقفنا نوع ثالث من آلات التدخين مشابه للنارجيله ـ « الغُزَّة » ـ مع الفرق الوحيد أن للغزّة نربيشاً قصيراً من القصب بدلاً من الحية (وهو الأنبوب المرن القابل للإنثناء) ولا قاعدة تُثبّت عليها ؛ والغُزَّة أنيسة إبن الطبقة الفقيرة يستعملها لتدخين التنبك والحشيش المضّر أو القنب



النارجيله

وأمّا القهوة فقوية الطّعم لا يُضاف إليها السكر أو الحليب . وفنجان القهوة صغير الحجم يحتوي على مقدار بسيط من السائل وهو مصنوع من الخزف الصيني أو الهولندي لا مسكة له ويوضع فوق فنجان آخر يُعرَف « بالظَّرف » من النحاس أو الفضة حسب ظروف صاحب الفنجان المادية ولتحضير القهوة لابد من غلي الماء أوّلاً قبل إضافة البن الطازج إليه ثمّ تحريك المزيج جيداً ويوضع هذا المزيج على النار من جديد حتى تأخذ القهوة بالغليان مرّة أو مرّتين . بعد ذلك تُرفع القهوة عن النار وتُسكب في فناجين والقشدة تعلو سطحها والمصريون مولعون باحتساء القهوة الصافية القوية المذاق ونادراً ما يضيفون إليها السّكر ، ولا يضيفون السكر إلا إذا شعروا بالتعب . وهم لا يحبون تحلية قهوتهم بالسكر أو بالقشدة اللهم إلّا القليل من حَبّ الهال وقد ينكّهون قهوتهم بشيء من المصطكى ؛ والميسورون قد يطعّمون قهوتهم أحياناً بشذا العنبر فيعمدون إلى إضافة بعض منه في وعاء القهوة وتحريكه فوق النار؛ وعندما ينتهون من التحريك، يصبّون القهوة في وعاء آخر، فلمّا تركد قليلاً ، تُسكَب في الوعاء حيث العنبر يستخدم بعض المصريين العنبر بطريقة



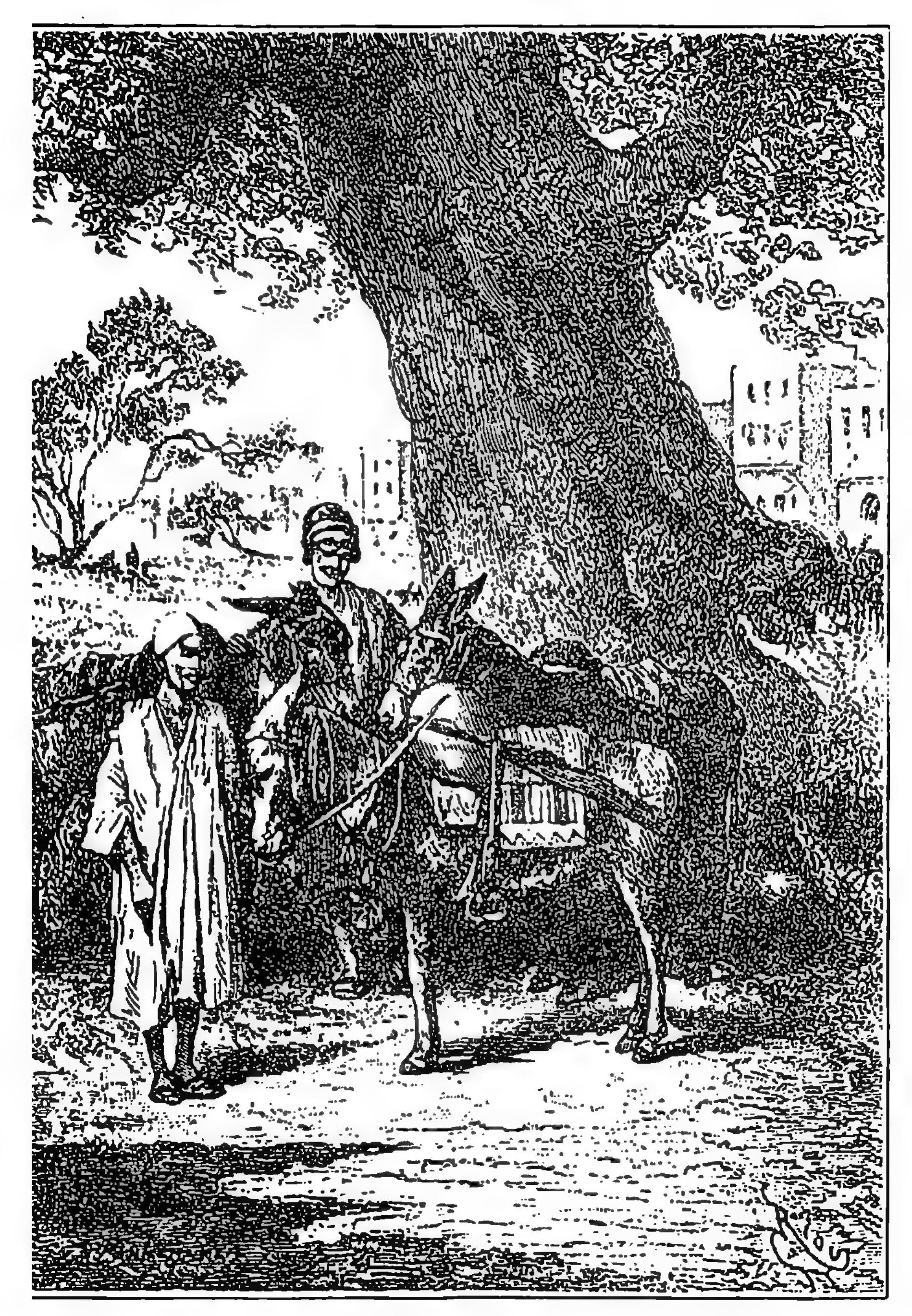
طقم قهوة

مختلفة ؛ فيلصقون شيئاً منه في كعب الفنجان قبل أن يصبّوا القهوة يكفي الشارب لأسبوعين أو ثلاثة. ويعتمد هذه الطريقة كل من يستذوق شرب القهوة مطعّمة بهذه النكهة العطرة ؛ وهم لا يشركون كلّ زائريهم بهذه الحظوة ويتم

أحياناً إحضار إبريق القهوة في آنية فضية أو نحاسية - «العَزقه» - المحتوية على الفحم المشتعل . وتتدلّى ثلاث سلاسل من الإناء ؛ ويحمل الخادم عند تقديمه القهوة « الظَّرف » من كعبه بواسطة إبهامه وسبّابته ويمسك الفنجان بكلتي يديه جاعلاً يده اليمنى فوق اليسرى .

يلجأ المصريين أيّام البرد القارس إلى « المَنْقَل » (أو المنقد) المصنوع من النحاس القصديري يُملأ المنقل فحماً ويُثبَّت على الأرض ويُحرق فيه أحياناً أحد أنواع الطيب . والمصريون عاشقون للطيوب والعطور ، ويعبقون حجرات منازلهم بعبيرها ويستعملون لهذا الغرض « اللّبان » (البخور) ذات النوعية الرديئة ويُعرَف «ببخور البرّ» ؛ كما يستعملون الميعة (اللبان الجاوي) وخشب الألوة (الصّبر) للغاية نفسها

لا ترى مصرياً يمشي أبعد من عتبة منزله إن مكّنته حاله المادية من اقتناء حصان أو بغل أو حمار أو حتى استئجار أيّ من هذه الدّواب وقليلون هم الذين من سكّان القاهرة أو المدن المصرية الأخرى يتباهون بغناهم الفاحش وباقتنائهم الأحصنة ، فيجعلون بذلك أنفسهم عرضةً لمزيد من الضرائب الحكومية وسرج الحصان الحديث لبادي عامة مغطىّ بالقماش أو المخمل ومطرّز أو مزخرف ؛ وأمّا العِذار (وهو ما سال من اللجام على خدّ الفرس) والصدر الجلدي فمزيّنان بشرابات حريرية أو بزخارف أخرى من الفضة يمتطي التجار وكبار العلماء البغال عادة . وسرج البغل مشابه لسرج الحمار كما يظهر ذلك في الرسم المقابل . وإذا عادت ملكية هذا البغل إلى أحد العلماء ، فيغطّي ظهره بسجّادة . وينسحب هذا الأمر على سرج بغال النساء المغاير بعض الشيء لسرج بغال الرجال. تستخدم الحمير عادة للتنقل في شوارع القاهرة الضيقة والمكتظة والكثير منها مخصص للإستئجار ، فترى الحمير تسير في الشوارع وهي ترهو زهواً ؛ ومصر معروفة بحميرها الممتازة ويتراوح سعر الحمار العادي من السلالة الجيدة والمدرّب أحسن تدريب بين ثلاثة أو أربعة جنيهات أسترلينية يفرش ظهر البغل بقماش جلدي أحمر ، ويغطّى مقعده بتخريم صوفي ناعم من اللونين الأحمر والأصفر عامة ، ويكون مِعلاق الرِّكاب



حمير مصرية

قصيراً جداً يسبق السّائس خادم أو خادمان لفتح الطريق ، ويسير كذلك خادم إلى جانب الحمار أو وراءه وأحياناً أمامه فيصرخ في المارة لإفساح الطريق يمنة أو يسرة أو للانتباه لظهورهم ووجوههم وأقدامهم أو أعقاب أقدامهم . وينبغي على ممتطي الدّابة أن يكون متيقّظاً فلا يعتمد كلّ الإعتماد على خادمه وإلاّ طرحه جمل أثقلته حمولته صادف مرورة أثناء مرور الدابة في الشوارع الضيقة المكتظة . ولا ينسى الراكب بيبته التي يحملها له خادمه ، فيشعلها إن توقف أمام منزل أو متجر .

قد يمضي المصري معظم نهاره يتجوّل على ظهر دابته إن لم يشغله عمل ثابت ، فيتبضع ويتردّد على أصدقائه أو تراه يدخّن ويحتسي القهوة متبادلاً أطراف الحديث مع صديق له أمام منزله . وقد ينعم لحوالي الساعة بدفء حمام عمومي وإن كان متّبعاً لتعاليم دينه بحذافيرها يؤدي واجب صلاة الظهر المفروضة عليه . ومن المفارقات التي تستوقفنا أن عدداً قليلاً من المصريين ينصرفون إلى صلواتهم فلا هم عنها ساهون في الوقت الذي نادراً ما يؤدي البعض صلواته المفروضة عليه . ويتناول صري طعام عشائه مباشرة بعد انقضاء فترة الظهيرة إن لم يكن تناول طعام الفطور في وقت متأخر . فلمّا يفرغ من عشائه يتناول غليونه وفنجان قهوته ، وقد يكرّم نفسه بقيلولة هادئة أيّام الطقس الحار . وهو قد ينسحب إلى حجرات الحريم فتسهر على راحته زوجة أو جارية تدلّك له أخمص قدميه بيديها . وإذا ما رغب في الاختلاء إلى نفسه يطلب من خادمه أن يخبر كلّ من يأتيه زائراً أنّ « السيد في الحريم » فلا ينتظر الصديق أن يدعوه السيد إلاّ إذا طرأ طارىء . ويعود ليستمتع ببيبته وفنجان قهوته بعد صلاة الظهر وحتّى المغيب موعد الصلاة بين لفيف أصحابه في المنزل أو خارجه . وما تكاد تأفل شمس المغيب حتى يبادر فوراً إلى تناول عشائه .

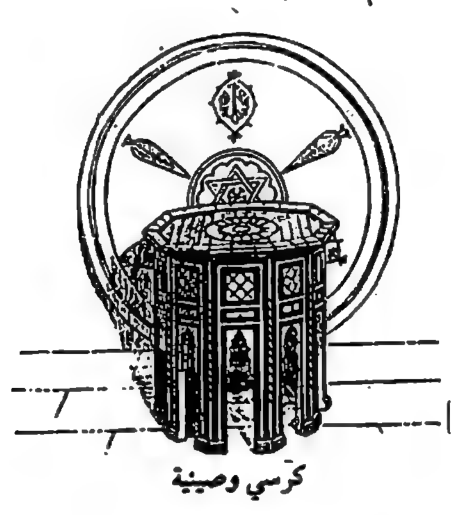
أتوقف عند وجبتي « الغدا » و « العشا » وطريقة تناولهما فألحظ أنّ الفرق الوحيد بينهما يكمن في أنّ العشا هو وجبة الطعام الأساسية . ويتم تحضير العشاء في فترة بعد الظهر ، وما يبقى منه يُترَك لعشاء اليوم التالي إن لم يكن على العشاء ضيوف . ويتناول رب الأسرة غداءه مع زوجته وأولاده . ويتباهى

من الرجال المنتمين إلى الطبقة الغنيـة بذلـك بينما نـرى بعضهم ا
طاًبشـكل كبير في المجتمع فلا وقت عنـده لتناول الطعام مع الأسر
ض المناسبات ونجد في المقابل العديد من أبناء الطبقات الدُّنيا ا
ون مع زوجاتهم وأولادهم إلاّ نادراً وإذا صادف وجود أحـد الأص
حان وقت الغداء أو العشاء ، فمن واجب سيد المنزل إعطاء الأمر بإ
لهذا الصديق ، ولا فرق بين صاحب وغريب



غسل اليدين قبل الطعام وبعده

وقبل جلوسه إلى طاولة الطعام أو تربّعه حول الصينية يغسل المرء يديه ويتمضمض أحياناً بالماء والصابون ، أو يسكب على الأقل بعض الماء فوق يده اليمنى ويحمل له الخادم حوضاً وزقّاً (يُعرَفان « بالطّشت » و « الإبريق ») من النحاس القصديري أو من النحاس الأصفر . ويكون للطّشت غطاء مثقوب ووعاء يوضع الصابون في وسطه . ويمر الماء عند صبّه فوق اليدين من خلال هذا الغطاء فيطرح خارجاً ؛ وهكذا لا يمكن رؤية الماء الذي اغتسل به الشخص الأول عندما يُحمل الطشت عينه إلى شخص ثان . ولمّا يفرغ الشخص من غسل يديه تُقدّم له « فوطة » ينشفهما بها .



كرسي وصينية

أمّا طاولة الطعام فعبارة عن طبق مستدير يُعرَف « بالصِّينية » (أو « الصِّينية » من النحاس القصديري أو الأصفر . يرتفع قطر هذه الصينية قدمين أو ثلاث وتُجعل فوق كرسي نحو خمسة عشر إنشاً طولاً . وهي مصنوعة من الخشب ومغطّاة أحياناً بعرق اللؤلؤ أو بالذَّبل (عظم ظهر السلحفاة) أو العظام . ويشكّل الكرسي والصينية « السُّفْرَة » . وتوزَّع حول الصينية قطع الخبز المستدير المقطّع أحياناً إلى أنصاف في وسطه إضافة إلى قطع الليمون المقطّعة نصفين فتُعصر فوق الأطباق التي ترتوي بعصيره ولكلّ امرىء متحملق حول الصينية ملعقة من خشب البَقْس أو الأبنوس أو الذَّبل وقد يُستخدم الخبز أحياناً بدلاً من

الطبق   وتزيّن أطباق عديدة من النحاس القصديري محتوية على أشكال الطعام وألوانها من لحوم وخضار الصينية كما هي عـادة تلك البلاد ؛ وقـد يجعل طبق واحد وسط الصينية تبعاً للطريقة التركية

يتحملق الأشخـاص الذين سيتقـاسمون هـذا الطعـام على الأرض حول الصينية ، كلّ واحد فوطته على ركبتيه ؛ فإن كانت الصينية بمستوى حافة ديوان منخفض ـ كمـا هي العادة غـالباً ـ يجلس بعضهم على هـذا الديـوان ويفترش بعضهم الآخر الأرض. فإن كثـر عدد الآكلين ، تـوضَع الصينيـة وسط الغـرفـة ويجلس هؤلاء حولها ، فيثبِّت واحدهم ركبته الأولى على الأرض وأمّـا الأخرى (اليمنى) فيرفعها   ويمكن بهذه الطريقـة أن يتجمع نحـو اثني عشر شخصـاً حول الصينية   ويرفع كـل واحد ذراعـه اليمنى حتى المرفق أو يعمـد إلى ثني طرف كمه الواسع   وقبل المباشرة بالطعام ، يـردّد الجميع البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) بصوت منخفض مسموع   ويـبـدأ رب المنزل بـذكر البسملة وهي في الـوقت نفسه شكـر لنعمة الله ودعـوة موجّهـة لكائن من كـان لتقـاسم الـطعام . فـإذا ما وُجّهت « البسملة » لأحـدهم أو قيل لـه « تفضّـل » ، يجيب الشخص الذي وجّهت إليه مثل هذه الـدعوة ـ وإن لم يقبـل الدعـوة بمشاركـة الطعام ـ بعبارة : « هنيئاً » أو بأيّة عبارة مشابهة ؛ وإلاّ يخاف المتجمعّون حول الـطعام من تسلّط عين شـريرة على طعـامهم ، فتسمعهم يردّدون : « الـطعـام المحسـود مـا يسود »   وتـظهر الـطريقة التي يلحّ بهـا المصـري على الغـريب لمشاطرته الطعام أنّ حسن الضيافة عنده تمليـه عليه هـذه « البسملة »   ورب المنزل أول من يبدأ الطعام ثمّ يتبعه ضيوفه والباقون . وتغيب السكاكين والشوك عند تناول الطعام ، ويستعيض عنها الآكل بإبهامه وبإصبعين من يـده اليمنى وأمّا الملاعق فقـد تُستَخدم لشـرب الحساء أو أكـل الأرز أو أي لون من ألـوان الطعام التي يستصعب أكلهـا بيده ، ولا يتـردّد قط في استعمال كلتي يـديه في بعض الحالات   فعندما توضع أطباق عديدة فوق الصينية ، يأخذ الآكل منها ما يحلو له تناوله ، أو يأكل ما يشاء من كل طبق لما يفرغ من الطبق السابق . ولكن عندما لا تحمل هذه الصينيةسوى طبق واحد في كل مرّة أثناء تنـاول الطعـام ،

يأخذ الآكل منها بعض اللُّقمات قبل أن يُرفَع هذا الطبق مخلياً مكانه لطبق آخر(*) فإذا اختار أحدهم لقمة من أحد الأطباق وقدّمها لأحد أصدقائه الجالسين معه ، فهذا من باب اللياقة والتهذيب. والطريقة التي يأكل بها المصريون أو غيرهم من أهل بلدان الشرق الأخرى مراعية للذوق والكياسة أكثر ممّا قد يتصوّره الأوروبيون الذين لم يشاهدوهم وهم يأكلون عن كثب أو أن هذه الطريقة لم تُنقل إليهم في قالبها الصحيح يقوم كل واحد من المتجمعين حول الطعام باقتطاع جزء صغير من الخبز يغمسه في الطبق قبل أن يمضغه في فمه مع قطعة لحم صغيرة أو أيّ نوع من الطعام الموجود في الطبق(*) وقد تُجمل



جمع على العشاء

(*) كان المسيح وتلامذته يأكلون في طبق واحد .

(*) قد يغمّس لقمته بكل بساطة في الطبق .

قطعتان من الخبز فوق بعضهما البعض لالتقاط قطعة اللحم الكبير ، فلا يستعين من أصابع يده سوى بإبهامه وسبّابته والوسطى . وإذ تناول أحدهم قطعة كبيرة من اللحم يضعها عادة فوق قطعة خبزه . والطعام مرتب بشكل يسهل على الآكل تناوله كما الطريقة التي سبق وذكرتها ويتألف هذا الطعام بمعظمه من « اليخنه » والبصل المفروم أو من « الباميه » مع الخضار أو من « القاورما » مع شرائح البصل أو من « ورق المحشي » مع طبق الأرز واللحم المفروم (المتبَّل بالملح والفلفل والبصل وأحياناً بالثوم والبقدونس) ، إضافة إلى الكباب المشوي على الفحم والخضار سيدة المائدة كالكرنب (الملفوف) والسبانخ والرِّجله (نبات عشبي) وكذلك الحمص والعدس . ومن الأطباق المصرية الشعبية السّمك المعدّ بالزيت . تُطهى اللحوم عامة بالزبده الخفيفة بسبب قلة نسبة الدّهن فيها وتكون غنية جداً في حُرَيراتها ؛ ويكون هذا الزّبد سائلاً تماماً في الموسم الحار . ويلجأ المصري إلى يديه الإثنتين عند أكله لحم الطيور في محاولة منه لفصل أجزائه أو قد يقطّع شخصان هذا الطير ، كل واحد بيده اليمنى ، وقد لا يحتاج البعض لأدنى مساعدة فيقوم وحده بهذه العملية بمهارة كبيرة فلا يستعين إلاّ بيد واحدة . ولا يسمح العرب عامة لأنفسهم بأن يمسكوا الطعام باليد اليُسرى مهما كانت الظروف إلاّ في حال كانت اليمنى مشوّهة أو مبتورة . ومن الأطباق المصرية المعروفة أيضاً الطير المحشي المسحَّب بالعنب والفستق مع الخبز المفتّت والبقدونس . وقد يُجعل الخروف محشيّاً كاملاً بالفستق ولا يصعبُ مع ذلك انتزاع لحمه بيد واحدة وتُمزَج السُّكريات أحياناً مع اللحم المطبوخ كالعنّاب مثلاً والدّراق والمشمش ، وقد يمزَج السكر مع اليخنه وتقدّم أحياناً أنواع عديدة من الحلويات لا دخل لها بأنواع اللحوم ، منها « الكُنَافة » وهي من أطباق الحلويات المفضّلة عند المصريين وهي تُصنَع من دقيق القمح وفتائل العجين الدقيقة وتُقلَى بقليل من الزبد المخفّف ثمّ تُحَلّى بالسّكر أو العسل . والبطيخ ملك الفاكهة ـ إن كان في موسمه ـ ويقطع قبل ربع ساعة من الطعام ويُترَك حتى يبرد في الهواء الطلق إلى أن يجفّ عصيره . وتبقى العيون تراقب البطيخ وهو خارج الدار مخافة أن يقربه ثعبان فينفث سمه

فيه إذ يُقال إن هذا النوع من الزواحف مُغرَم بالبطيخ الأحمر ويشمّ رائحته عن مسافة بعيدة ويكثر البطيخ الأحمر في مصر وهو لذيذ الطعم نافع للصحة وآخر طبق يُشبع منه المصري جوعه هو طبق الأرز المسلوق المعروف « بالأرز المُفَلفَل » (واسمه Pilàv عند الأتراك) . وقد يلي هذا الطبق في بيوت الأغنياء فنجان « الخِشاف » وهو شراب حلو المذاق يحضّر من الماء والعنب المغلي ويُحلّى بالسكر فلمّا يبرد قليلاً يرّش فيه شيء من ماء الورد . ويحلّ البطيخ الأحمر أحياناً محل هذا الشراب .

والمصريون معتدلو الوتيرة في تناولهم طعامهم حتى وإن أنهوه بسرعة فلما يفرغ الواحد منهم من الأكل ، يشكر ربّه ويحمده على نعمته وينهض دون أن ينتظر الآخرين ، فيقرِّب له الخادم الطشت والإبريق ليغسل يديه وفمه بالماء والصابون وماء النيل الشراب الوحيد الذي يرتوي به الآكلون وقد تزيّن كؤوس « الشَّربات » موائد الأغنياء والعربي لا يشرب الماء تقريباً وهو يتناول طعامه بل ينتظر حتى ينتهي فيروي ظمأه بجرعة كبيرة تبلّ عروقه ومياه النيل حلوة لذيذة بعكس مياه الآبار الموجودة في القاهرة والتي تتميز بملوحتها النسبية . ويُشرب الماء عادة بواسطة الآنية الفخارية أو بالفنجان النحاسي وقناني الماء نوعان : « الدَّوْرَق » (ج . دَوارق) وهو إبريق كبير له عروتان ولا بلبلة له ، و « القلّة » وهي كوز صغير واسع البلبلة وهما مصنوعان من الفخار الذي تنفذ إليه السوائل والضارب إلى اللون الرمادي ، فيبرد الماء بالتبخر ويصبح الماء لذيذ الطعم . وتوضع هذه القناني في الهواء الطلق عادة . ويعطّر بعد ذلك بدخان «الكَفَل» والخشب والمصطقى. وتستخدم لهذا الغرض «المِبْخَرَة» التي تحتوي على الفحم المشتعل الضروري لإشعال الخشب والمصطقى وتوضع قنينة الماء بشكل معكوس فوق المبخرة . وكذلك يلف عنق « الدّورق » بخرقة تبعد نحو الإنش عن البلبلة فتمنع تسرّب الدخان الأسود إلى داخل القنينة ويرش العديد من المصريين ماء الزهر في هذه القناني مّما يضفي نكهة لذيذة جداً على الماء وللقناني سِدادات من الفضة والنحاس والقصدير والخشب أو من أوراق النخل وهي توضع عامة فوق صينية من النحاس فما يفيض من القناني يُخضل

الصينية   وتستخدم منازل عديدة القناني الخزفية بـدلاً من تلك التي وصفناهـا آنفاً مما يجعل الماء بارداً جداً   وبعض أقداح الشرب منقـوش داخلها بـآيات قرآنية أو بأسماء أصحاب الكهف . يردّد المرء قبل الشرب وبعده الدعاء نفسه كما قبل الأكل وبعده وما ينفك يردّده كلّما شرب أثناء تناوله طعامه . فمن كـان حاضراً من أصدقائه يقول له : « هنيئاً » فيأتيه جواب الشارب : « اللّه يهنّيك »

وتطالعنا «ألف ليلة وليلة» بقصـة رفع « طـاولة اللحـوم » وإنزال « طـاولة النبيذ » ولكن موائد عامة المسلمين المصريين لا تزخز بالمُدام الممنوع لا وقت الطعام ولا بعـده ولا في أوقات أخـرى   ومع ذلـك يتجـالس الكثيـرون منهم ويتنادمون ومعارفهم على الشراب . ويعرف خدم مُعَاقِرِ الخمر حلقة أصـدقائـه المتنادمين في حال زاروه وهو يحتسي المدام ؛ فإذا حضر صـديق لا يمت إلى حلقة الشاربين بصلة ، يُسارع الخدم متذرّعين بوجود صاحب الدار في الحريم أو أنّه خارج منزله. ويقوم بعضهم بشرب الخمر قبل العشاء أو بعده أو خلاله بينما يفضّل بعضهم الأخر التلذّذ بـطعمه قبـل العشاء لأنّـه ـ على حد قـولهم ـ يفتح شهيّتهم   ولقد حدّثني صديق لي تاب عن شرب الخمر عن كيفية إعداد « طاولة النبيذ » ـ ولا أستطيع التحدث عن هذا الموضوع عن سابق تجربة فأنا لا أقرب الخمر ولذا لمْ يـدعني أحد للمشـاركة في حفلة سمـر لشرب الخمـر مع أحـد المسلمين ـ : تُجعل صينية مطلية باللّك (ضرب من الورنيش) أو طبق زجاجي كبير فوق الكرسي الذي وصفته في مقطع سـابق ؛ ويوضـع فوق هـذه الصينية إبريقان مزخرفـان مصقولان ، أحـدهما يحتـوي على النبيذ وأمّـا الثاني فعلى شراب يُعرف بالـ Rosoglio إضافة إلى قنينتين أو أكثر احتياطاً   وتتوزع الأقداح الصغيرة فوق الصينية للشرب كما يزينها طبقـان زجاجيان من الفاكهة المجفّفـة والطازجة والمخلّلات أحياناً   وقد أضيفت مـوخراً إلى صينية التنـادم شمعتان مزدانتان بباقة ورد ومثبتتان في شمعدان فوقها

تتلّون أصنـاف « الشربـات » (المشروبـات السكـريـة) على مـوائـد المصريين   وأشهرهـا خمسة أنـواع هي   شربـات الماء والسكـر المكثّف ثم شـربات الليمـوناضـة (عصير الليمـون الحامض) وكـذلك شـربات البنفسـج



من صور العشاء

المحضَّر من البنفسج المغلي بالسكر بعد سحق أعواد البنفسج وهو أخضر اللون إضافة إلى شربات التوت وشربات الحُمَّاض . يُبَاع في شوارع القاهرة نوع آخر من الشربات محضّر من العنب : « شربات العنب » وآخر عبارة عن نقيع عرق السوس ويُعرف بإسمه ، وثالث يحضَّر من ثمرة شجرة الخرنوب : « شربات الخرنوب » . تُسكب الشربات في أقداح زجاجية ملوّنة تُعرف « بالقُلَل » (مفردها قلّة) يزيّن بعضها بالأزهار المطلية بالذهب . وتوضع أقداح الشربات فوق صينية مستديرة تُغطّى بقطعة من الحرير المطرّز أو بقماش ذهبي ؛ وتتدلّى من ذراع السّاقي (ساقي الشربات) اليمنى فوطة عريضة مستطيلة مطرّزة حافاتها بخيوط ذهبية وحريرية ملوّنة ، تُستعمل لمسح الشفاه بعد تناول الشربات ؛ ولكنّها في الواقع للمنظر ونادراً ما تلمسها الشفاه .

يمضي المصري الفترة ما بين العشاء وصلاته مدخّناً بيته ومحتسياً فنجان قهوته ، فلا يقطع عليه لذة التدخين سوى فرض الصلاة التي ما إن يفرغ منها حتّى يعود لبيته. وقد يشغل نفسه بلعب الداما أو الشطرنج أو بمنسامرة الأصدقاء . وأمّا أفراد العائلة فيستمتعون بوقتهم في هدأة الليل بعيداً عن أجواء الصخب والضجيج كما يزور الرجال أصدقاءهم مساءاً أو بعد تناول طعام العشاء ، ويضيء لهم « الفانوس » طريقهم. والفانوس من القماش المشّمع فوق حلقات سلكية معدنية ويكون من رأسه وحتى كعبه من النحاس القصديري . وأمّا « القنديل » الشائع الإستعمال فعبارة عن وعاء زجاجي صغير الحجم جُعِل في أسفله أنبوب صغير ثُبّتت داخله فتيلة من القطن ملفوفة حول قطعة من القش . ويصّب الماء أولاً ثم الزيت . يعلّق « القنديل » أو « الفانوس » عند مدخل المنزل إذ تلّف العتمة مداخل هذه المنازل ليلاً أكثر ممّا هي عليه نهاراً ويكفي أن تضيء شمعة أو شمعتين لتنير داراً فسيحة عالية السقف . وقليلون هم المصريون الذين يبقون ساهرين متسامرين في الصيف أكثر من ثلاث أو أربع ساعات بعد مغيب الشمس ، وهم يحسبون الوقت ابتداءاً من فترة المغيب في كل موسم من مواسم السنة ؛ وتراهم يطيلون السهر شتاءاً إلى خمس أو ست ساعات .

هكذا يقضي الرجال المتوسطي الحال الذين لا تقيّدهم وظيفة أو عمل يومي يشرفون عليه أوقاتهم . ومن عادة التاجر التوجه بعد الفطور مباشرة إلى متجره أو مخزنه والبقاء فيه حتّى قُبيل المغيب فيستمتع ببيته قدر ما يشاء ويشاركه بعض زبائنه أحياناً متعته هذه وقد يقدّم لأحدهم بيبته ـ إن لم يكن هذا الأخير حاملاً إياها كما يحتسي معه فنجان قهوة يطلبه من أقرب مقهى إلى متجره ويمضي ردحاً من نهاره يتحادث وزبائنه أو التجار القريبة متاجرهم من متجره وهو يؤدي فروض الصلاة في متجره عادة فلا ينتقل منه . ويتناول بعد صلاة الظهر مباشرة أو قُبيلها أو بُعيدها وجبة خفيفة كطبق من « الكباب » وقطعة من الخبز (يحضره له الولد أو الخادم من منزله أو قد يشتريه من السوق) وقد يأكل شيئاً من الخبز والجبن أو المخلّل يشتريه من الشارع ؛ فإن حضر زبون يظل يلحّ عليه حتى يقاسمه الطعام ويحتفظ التاجر في متجره بفخّارة ماء يملأها له الساقي المار في الشارع كلّما فرغت ؛ ويعود مساءاً إلى منزله ويتناول عشاءه ويخلد إلى فراشه لاحقاً

والعادة جرت أن ينام الزوج وزوجته في سرير واحد عدا أبناء الطبقات الميسورة الذين يفضلون الخلود إلى النوم في أسرّة منفصلة وسرير إبن الطبقة المتوسطة عبارة عن فرشة محشوة قطناً طولها ست أقدام وعرضها ثلاث أو أربع أقدام توضع فوق إطار منخفض إضافة إلى وسادة للرأس وغطاء يمدّد فوق الوسادة والفرشة وغطاء الصيف الوحيد حرام رقيق ، وأمّا غطاء الشتاء فلحاف سميك محشو قطناً توضع الفرشة بغياب إطار السرير لتثبيته على الأرض أو تُجعل فرشتان فوق بعضهما البعض مع أغراضهما من غطاء ووسادة قد توضع وسادة من الديوان عند كل جانب من هذا السرير وقد تتدلى الناموسية فوق السرير بواسطة أربعة أسلاك مثبّتة بمسامير في الجدار . والمصري لا يغيّر لباسه عند خلوده إلى النوم إلاّ نادراً وهو ينام كغيره كثيرين بكامل ثيابه فلا يخلع إلاّ « الجبّة » ؛ وأمّا في الصيف فينام شبه عارٍ . ويُفرش السرير شتاءاً في « الخزنَه » (وهي خزانة صغيرة) ، ويُجعل صيفاً في غرفة فسيحة . وتُطوى آلية السرير كلّها خلال النهار وتُركن في زاوية من الزوايا أو في « الخزنة » وإذا اشتد لهب

الصيف وثقلت وطأته ، يصعد المصري إلى « الفِسْحة » (أو الفِسَحة) وهي حجرة مكشوفة فوق سطح منزله . ولكنّه قد يُصاب بالتهاب العين (الرَّمد) وبأمراض أخرى بسبب تعرّضه للهواء الطّلق مساءاً . وأشهر أنواع أطر الأسرّة تلك المصنوعة من أعواد النخل التي تجذب البق صيفاً والذباب شتاءاً . ولقد تحدّثت في فصل سابق عن هذه الحشرات والأوبئة التي يعاني منها سكان مصر ليلاً نهاراً . وأكثرها إزعاجاً ونفوراً القمل الذي يستحيل تفاديه حتّى بين الأشخاص الموسوسي النظافة الذين يغيّرون أثوابهم الكتانية كل يومين أو ثلاثة أيام ؛ ويسهل التخلص من هذه الحشرات فهي لا تعلق على الجسم بل على الثياب الكتّانية . ويمكن الحفاظ على نظافة المنزل من الحشرات بوضع ناموسيات فوق الأبواب والنوافذ ؛ وأمّا البق فيستحيل التخلص منه في البيوت المصرية ذات المنجور الخشبي .

يحيا الخدم من الذكور حياة بسيطة خالية من التعقيدات باستثناء « السايس » الذي يسير إلى جانب معلّمه أو خلفه كلّما امتطى دابّته . فلا يعرف كللاً أو مللاً وهو يسير في الطقس الحار لساعات طويلة . ولكلّ أمرىء ميسور الحال في القاهرة بوّاب يجلس دائماً أمام باب المنزل يحرسه وخدم كثيرون معظمهم من المصريين إضافةً إلى العديد منهم من أهل النوبة الذين أتوا القاهرة ومناطق أخرى يعملون فيها خدماً ، مع الإشارة إلى أنّ غالبية البوابين من النوبيين وهم أكثر نزاهةً من الخدم المصريين . وأميل إلى الاعتقاد من خلال تجربتي الشخصية وآراء بعض الأصدقاء أنّهم اكتسبوا هذه الصفة لمكرهم الشديد وحذاقتهم . وراتب الخدم ضئيل لا يتجاوز الدولار أو الدولارين شهرياً ، بيد أنّهم يتلقون في المقابل هدايا عديدة . فأيّام العيد بعد رمضان ، يهدي سيد المنزل كل خادم من خدمه ثياباً كاملة أو بعضاً منها ، عبارة عن « عِرّي » أزرق اللون (وهذا هو لباسه الخارجي) إضافة إلى طربوش وعمامة . وأمّا باقي أنواع الملبس التي يحتاج إليها الخادم على مدار السنة فهي من مستلزماته الخاصة لا دخل لسيّده بها (باستثناء الحذاء أحياناً) . كما يتلقّى الخادم إضافة إلى ما يعطيه له سيّده العديد من الهدايا النقدية من زوّار السيد

ومن التجار الذين يتعامل معهم خاصّة عند عقده صفقة مهمة . وهو ينام في الثياب التي كان يلبسها طوال النهار فيفترش حصيراً صغيراً ، ويغطي نفسه في الشتاء بحرام أو عباءة . وقد تراه يمازح سيّده ويضاحكه تارة ويطيعه ويبجلّه طوراً ؛ فيتحمّل العقاب الجسدي من يد سيده بكل صبر وأناة .

يلقى العبد الأسود معاملة أفضل واعتباراً أكبر من الخادم الحرّ ، ويمضي حياة تناسب عمله المتكاسل . وله الحق إن لم يرضَ عن وضعه أن يطالب سيّده ببيعه . ويرتدي العبيد بمعظمهم اللباس العسكري التركي وهم عامة أكثر أهل الشرق تعصباً وتزمّتاً ـ فتسمعهم يكيلون النصارى قدحاً وذمّاً وكذلك ينزلون لعناتهم وسبابهم بكل من لا يتبع الدين الذي اعتنقوه دون أن يكونوا أنفسهم مطلعين تماماً على عقائد هذا الدين وتعاليمه أكثر من اطلاع أولاد العرب الذين لم يتردّدوا على المدارس لأكثر من أسبوع

يقودنا الحديث عن عادات الرجال المصريين المحدثين وعاداتهم إلى مقابلتها بعادات أوروبيي القرون الوسطى . وكم تدهشنا نقاط التقارب التي تطغى على نقاط الاختلاف بينهما ؛ ولكنّ التحفظ واجب بالنسبة إلى وضع النساء عامة .

الفصل السادس

الحياة المنزلية ـ تابع

نترك الحجرات وندخل عالم الحريم فتستوقفنا أمور الزواج واحتفالاته .

أن يمتنع الرجل عن الزواج ما إن يبلغ السن المناسبة وفي حال عدم وجود عائق يمنعه عن ذلك عمل خاطىء في نظر المصريين يذهبون إلى حد اعتباره ضاراً بسمعته . ولأنني ارتكبت شخصياً هذا الذنب ـ أي عدم الزواج ـ (حتى لا أستعمل تعبيراً أقسى) فلقد عانيت ما عانيته من عدم الراحة والإزعاج طوال فترة إقامتي في هذا البلاد وسمعت ما سمعته من عبارات اللوم . وذهب بي الأمر إلى حد انتقالي من المنزل الذي كنت أسكن فيه خلال زيارتي السابقة لأرض الكنانة طوال شهور والواقع في أحد شوارع القاهرة الكبيرة إلى منزل آخر في ضاحية مجاورة . فكتبتُ عقد الإيجار ودفعت مبلغاً من المال سلفاً . ولكن أتاني وكيل المنزل بعد يومين يعلمني أن سكان الحي ومعظمهم من « الأشراف » يعارضون عيشي في وسطهم لأنني رجل غير متزوج ، وأردف أنهم يرحّبون بوجودي إن قمت بابتياع جارية تغنيني عن أي مسلك مخزٍ سببه حاجتي الماسة إلى زوجة . فكان جوابي له أنني مقيم لفترة مؤقتة في مصر ولذا لم أشأ أن أتخذ لنفسي زوجة أو جارية اضطر لهجرها بعد حين . عندها أعاد إليّ الوكيل المبلغ الذي كنت دفعته فانتقلت إلى حي آخر حيث حالفني الحظ أكثر ؛ ولم ألقَ مثل هذه الاعتراضات على عدم زواجي وكان عليّ أن أقطع وعداً بعدم استقبالي لأشخاص يعتمرون قبعات يأتون الحي لزيارتي ولم يألُ شيخ الحي بعد استقراري جهداً لإقناعي بفكرة الزواج . ويبدو أن حججي كانت واهية بالنسبة

إليه ، وقد قال لي ذات يوم : « تقول إنك ستغادر هذه البلاد خلال سنة أو سنتين . وأنا أعرف أرملة شابة سمعت أنّها لبقة جميلة وهي تعيش على بعد أمتار من منزلك ويسعدها أن تصبح زوجتك وهي تدرك وتتفهم تماماً أنك ستطلّقها عندما تغادر البلاد ؛ ويمكنك تطليقها قبل ذلك إن لم تسعدك » . وكم مرّة حاولت تلك الشابة استمالتي بأنْ تجعلني أختلس نظرة إلى وجهها الجميل كلّما مررتُ أمام المنزل الذي كانت تسكنه مع أهلها . فما عساه يكون جوابي ؟ وأجبت الشيخ على الفور أنني رأيت وجه الشابة صدفة وأنّها آخر امرأة أتمنّى الإقتران في هذه الظروف لأنني كنت متأكداً من عدم استطاعتي مطلقاً اتخاذ قرار الزواج . ولكنني أدركت أنّه يصعب إسكات شيخنا الفضولي . وكنتُ ذكرت في مستهل كتابي أنّه ينبغي على الرجل غير المتزوج أو الرجل الذي لا يمتلك جارية الإقامة في وكالة إلاّ إن كان عنده أقرباء يعيش معهم ، وتجدر الملاحظة أنّ هذا الخطر ما عاد يشمل الفرنجة الآن .

تصل المصرية مرحلة البلوغ قبل الكثيرات غيرها من بنات جنسها اللواتي يعشن في المناخ البارد . والكثيرات منهن يتزوّجن في الثانية عشرة من عمرهن أو الثالثة عشرة ، وأمّا اللواتي ترتسم أمارات البلوغ باكراً عندهن فيتزوجن في العاشرة وإن كانت زيجات من هذا النوع نادرة الحدوث . وقليلات هن الفتيات اللواتي يبقين دون زواج بعد سن السادسة عشرة وقد تصبح الفتاة المصرية في سنيها الثلاث عشرة أو حتى قبل هذه السن أمّاً . ونساء مصر ولودات كثيرات النسل بعكس نساء البلدان الأخرى اللواتي يعشن في مصر ولا أولاد لهن ـ كما أن أولاد الغرباء المولودين في مصر نادراً ما يعيشون حتى يبلغوا سن النضوج وإن كانت أمهنّ مصرية ولهذا السبب كان المماليك المعتقون (وهم العبيد العسكر) يتبنون مماليك مثلهم .

الشائع بين عزب مصر وعرب البلدان الأخرى ـ وأقلّ في القاهرة منه في المناطق المصرية الأخرى ـ أن يتزوج الرجل من كبرى بنات عمه ـ فيتنادى الزوج والزوجة في هذه الحال « بابن العم » و « ابنة العم » . فصلة الدم لافكاك منها ولكن صلة القربى هذه محفوفة بالمخاطر . ورابطة من هذا النوع تدوم عامة

بسبب صلة الدم هذه والاتصال المتبادل الذي من شأنه توطيد العلاقات بين الفريقين في طفولتهما. ولكن إن انتمى الإثنان إلى الطبقتين المتوسطة والغنية فنادراً ما يسمح للشاب برؤية وجه ابنة عمّه أو حتى لقائها والتحادث معها بعد وصولها مرحلة البلوغ إلى أن تصبح على ذمّته.

تختلف زيجة البتول عن زيجة الأرملة أو المطلّقة اللّتين لا يُحتفل بزواجهما احتفالاً مبهرجاً صاخباً ولقد جرت العادة أن تنقل الأم أو بعض قريبات الفتاة للشاب أو الرجل الراغب في زوجة مواصفات العروس الشابة التي تكون الأم أو القريبة على معرفة وطيدة بها فتوجّهه في اختياره(*) ؛ وقد يعمد الرجل إلى توكيل « خاطبة » لمساعدته في انتقاء العروس المناسبة ، أو يُوكّل امرأتين أو أكثر لهذه الغاية . وتقدم له الخاطبة تقريرها بشكل سري ، فتصف له الفتاة الأولى على أنّها كالغزال مليحة الوجه أنيقة الملبس شابة ، والفتاة الثانية بأنّها حسنة المعارف ميسورة الحال وهكذا دواليك . وأمّا إن كانت للرجل أم وقريبات، فتتحضّر إثنتان منهنّ أو ثلاث للذهاب مع الخاطبة لزيارة أماكن حريم عديدة ، ويمكن لهذه الأخيرة دخول الحريم من خلال صفة عملها . ويوكلّها في هذه المهمّة الرجال والنساء على حد سواء . وأحياناً تلعب الخاطبة دور « الدّلالة » فتبيع الزخارف والحلى والثياب الأمر الذي يساعدها على دخول الحريم . كذلك يسمح للنساء اللواتي يصحبنها بارتياد الحريم كمجرّد زائرات ؛ فإن خاب أملهن في العروس يستأذنّ بالإنصراف ويكون هدف زيارتهن واضحاً من جانب الفريق الآخر . ولكنهن إن وجدن بين بنات العائلة (وكنّ تأكّدن من رؤية كل البنات في سن الزواج) فتاة أو امرأة شابة تتمتّع بالمواصفات المطلوبة ، يحدّدن غرض الزيارة ويسألن ـ في حال لم يرفض طلبهن ـ عن ما تملكه الفتاة من حلى وزينة . . . فإن كان والد العروس متوفًّى فقد ترث منزلاً أو أكثر ومتاجر الخ. ومهما كانت حالها من فقر أو غنى، تملك كل

(*) شنابه مسلك العرب المحدثين في أمور الزواج مسلك « إبراهيم الخليل » عندما بعث رسولاً إلى بلاده يبحث له عن زوجة لابنه إسحاق.

فتاة صالحة للزواج تقريباً مجموعة من الحلي والمجوهرات . ولمّا تنتهي الزائرات من أسئلتهن واستفاداتهن تنقل الزائرات تقريرهن لمرشح الزواج . فإن أعجبه التقرير المرفوع إليه يقدّم للخاطبة هدية ويرسلها من جديد إلى أهل الزوجة المرشّحة للإقتران به ويحمّلها رغباته الخاصة لتنقلها إلى أهل العروس . وتبالغ الخاطبة أحياناً في وصف محاسن العريس وغناه ؛ فهي قد تقول للفتاة عن أي شاب بسيط يكاد لا يملك شروى نقير ولا تعرف شيئاً عن ميوله : « يا ابنتي إن الرجل الراغب بالزواج منك حلو الشمائل أنيق المظهر أمرد يملك المال الكثير ، أنيق الهندام محب للكياسة واللباقة . لكنّه لا يستطيع التمتع بهذا النعيم وحده ويرغب بك شريكة لحياته . كما أنّه سيؤمن لك عيشة رغيدة بكل ما أوتي من مال وهو ملازم لبيته وسيقضي كل وقته معك يدلّلك ويحبّك » .

قدَ يعطي الأهل ابنتهم لمن يعجبهم فيزوجونها له دون موافقتها إن لم تكن وصلت بعد مرحلة البلوغ . وأمّا وقد بلغت هذه السن فتختار الزوج المناسب لها وتعيّن أي رجل لترتيب أمر زواجها فتبذل الخاطبة وأقرباء العروس جهدهن للحصول على موافقتها . وغالباً ما يعارض الأب تزويج ابنته لرجل لا يمتهن نفس مهنته أو تجارته أو تزويجه ابنته الصغرى قبل الكُبرى . ونادرة هي المرّات التي يختلس خلالها العريس النظرات إلى محيا عروس حتى تصبح ملكه التام إلاّ في حال انتمت الفتاة إلى الطبقات الدنيا ، فيسهل عندئذٍ على العريس رؤية وجهها

لمّا يزف موعد الزواج ، ينبغي على العروس أن تختار لها « وكيلاً » لإبرام عقد زواجها . فإن كانت قاصراً ، فلا بد من وجود وكيل عنها . أمّا إذا كان والدها ما يزال على قيد الحياة (وحتى في حالة وفاته) يكون وكيلها أقرب أقربائها أو حارس يعيّنه لها القاضي بموجب وصية . وإن كانت بالغة راشدة ، تعيّن وكيلها بنفسها أو تبادر إلى إبرام العقد وإن كان ذلك نادر الحدوث .

يبدأ العريس بعد أن يقع اختياره على المرأة التي سيطلبها للزواج وفقاً لتقرير قريباته أو تقرير الخاطبة وبموجب تفويض وكيلها بإعداد الترتيبات الأولية

مع العروس وأهلها في الحريم . فيتوجّه إلى وكيل العروس مع إثنين أو ثلاثة من أصدقائه . فلمّا يحصل على موافقة الوكيل بالزواج وكانت العروس قاصراً يستوضح أمر مهرها .

والمهر جزء أساسي في الزواج كما ذكرت آنفاً وهو يُحسب بالريال (مقدار تسعين فضة للريال الواحد) والريال نقد خيالي وليس عملة حقيقية . ويصل المبلغ الاعتيادي للمهر إن كان الفريقان ادّخرا مبلغاً متوسطاً لا بأس به إلى نحو ألف ريال وقد لا يزيد أحياناً عن نصف هذا المبلغ . ويجمع العريس الميسور الحال المهر بأكياس النقود ، فيجعل خمسمائة قرش في كل كيس ويحدِّد المهر بعشرة أكياس أو أكثر ؛ ولا يغربنَّ عن بالنا أن هذا هو مهر العروس البتول . وأمّا مهر الأرملة والمطلّقة فأقل بكثير . وتحصل عند تسوية أمر المهر وقدره ـ كما في الصفقات المالية ـ مماحكة بسيطة . فإن طلب الوكيل ألف ريال ، فقد يعرض فريق العريس ست مئة ريال . عندها يبادر فريق العروس إلى تخفيض طلبه بينما يأخذ الفريق الثاني برفع العرض ويتوافق الفريقان بعد قيل وقال وطول مجادلة إلى تحديد المهر بثماني مئة ريال . والشرط أن يُدفع ثلثا المهر قبل إبرام عقد الزواج مباشرة وأمّا الثلث الباقي فيحفظ جانباً على أن يدفَع للزوجة في حال طلاقها رغماً عنها أو عند وفاة الزوج .

بعد تسوية أمر المهر وبعد تثبيته من قبل الحاضرين بقراءة الفاتحة ، يحدِّد الموجودون يوماً غير بعيد (قد يكون اليوم التالي مباشرة) لدفع المبلغ المتوجّب ولإبرام عقد الزواج والمعروف «بعقد النكاح» . وأمّا عملية الزواج فهي « كتب الكتاب » ومن النادر جداً أن تكتب أية وثيقة تُثبت الزواج إلاّ إن كان العريس على أهبة السفر إلى مكان آخر فيخشى أن يضطر إلى إثبات زواجه في مكان لا يمكنه تأمين وجود شاهدين على زواجه . ويتمّ إبرام عقد الزواج بعد ترتيب أمر المهر أو بعد يوم أو يومين على ذلك كما هي الحال غالب الأحيان. ويتوجه العريس في اليوم المحدّد لهذه المناسبة مع إثنين أو ثلاثة من أصدقائه إلى منزل العروس عند الظهر عادة ، ويجلب معه الجزء من المهر الذي وعد بدفعه بهذه المناسبة فيستقبلهم وكيل العروس وجمع من أصدقاء الوكيل ومن الضروري

وجود شاهدين مسلمين شرطاً لإبرام عقد الزواج إلاّ في حال استحال توفّرهما .
ويقرأ الحاضرون الفاتحة ثم يدفع العريس المهر ويبرم عقد الزواج والعقد غاية في البساطة : يجلس العريس ووكيل العروس على الأرض وجهاً لوجه فيرفع كل واحد منهما ركبته ويمد للآخر يده اليُمنى رافعين إبهاميهما ضاغطين عليهما . ويكون « الفقيه » موجوداً ليعلّمهما ما عليهما قوله . ثم يضع منديلاً فوق اليدين المتشابكين ويمهد للعقد « بخطبة » تتضمن أدعية وصلوات مع آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة حول ميزة الزواج ومنافعه . ثم يطلب من الوكيل أن يردّد : زَوَّجْتُك ابنتي [أو الفتاة التي جعلتني وكيلاً لها] فلانة [ويسمى اسم العروس] البتول [أو البتول البالغة] مقابل مهر قدره كذا » (ويحذف أحياناً تعبير مقابل مهر) . وبعد انتهاء الوكيل من الكلام ، يتوجه الفقيه إلى العريس الذي يقول : « قبلت منك تزويجها لنفسي وأن أرعاها وألتزم حمايتها ؛ فأشهدوا يا أيها الحاضرون على ذلك » . ويعيد الفقيه كلامه مرة ثانية وثالثة على العريس الذي يكرّر الجملة عينها في كل مرّة ويقولون عامة بعد ذلك : « على بركة الرُّسل والحمد لله رب العالمين ، آمين » وأخيراً يقرأ الجميع الفاتحة من جديد . وتختلف الخطبة في مثل هذه المناسبات ، ويمكن استعمال أية صيغة وقد يكرّرها أشخاص كثر ؛ وهي ليست ضرورية حتى وغالباً ما تحذف كلّها وبعد الانتهاء من إبرام عقد الزواج يعمد العريس أحياناً (ولكن نادراً إلاّ إذا كان ينتمي إلى الطبقات الدنيا في المجتمع) إلى تقبيل أيدي أصدقائه والآخرين الموجودين . ثمّ تُقدّم الشّربات ويبقى الجميع على العشاء ويحصل كل واحد منهم على منديل مطرّز بداخله قطعة ذهب صغيرة من العريس ؛ وقبل أن يتفرّق الأشخاص المجتمعون لهذه المناسبة يحدّدون موعد « ليلة الدّخلة » وهي الليلة التي تُجلب العروس إلى منزل عريسها الذي يراها للمرة الأولى

ينتظر عادة العريس عروسه حوالي ثمانية أو عشرة أيام بعد إبرام عقد الزواج ويرسل لها في هذا الوقت مرّتين أو ثلاث أو أكثر الفاكهة والحلويات أو يقدّم لها هدية قيّمة (شال مثلاً) . وأثناء ذلك تنصرف عائلة العروس إلى إعداد أثاث المنزل (كالديوان والحصر والسّجاد والأسرّة وأدوات المطبخ) وفستان

العروس . فالمهر الذي يكون العريس دفعه لعروسه إلى جانب مبلغ إضافي من جانب أهل العروس يُصرَف في شراء الأثاث والفستان وزينة العروس . وتكون هذه الأغراض كلّها من خاصة العروس وتشكّل «جهازها» ؛ وهي في حال طلاقها تأخذ جهازها معها . وفي الواقع لا يمكننا البتة القول إنّ العروس ابتيعت . يُرسل الأثاث إلى منزل العريس على ظهور الجمال . ومن بين الجهاز كرسي خاص لوضع العمامة التي تحدّثت عنها في مرحلة سابقة . وحجم هذا الكرسي كبير ولكنّه دقيق الصنع ؛ ويكون أسفله وظهره من الخيزران عادة إضافة إلى ظلّة أحياناً وهذا الكرسي غير مخصص للجلوس عليه على الإطلاق وتغطّى العمامة عندما تُجعل عليه بمنديل من الحرير السميك مزخرف بخيوط ذهبية . وقد يُرسل كرسيان من هذا النوع واحد من العريس وآخر من العروس .

يستقبل العريس زوجته عشية الجمعة[1] أو الاثنين . ويفضّل المصريون يوم الجمعة لأنّه برأيهم أكثر الأيام حظاً . فإذا حضرت العروس عشية الجمعة ، يُزين الشارع أو الحي الذي يعيش فيه العريس قبل يومين أو ثلاثة من موعد حضورها بالشمعدنات والمصابيح أو بالمصابيح وبأنوار أخرى صغيرة تتدلّى بواسطة حبال عند جوانب المنازل المقابلة الأخرى . وتعلّق بهذه الحبال أعلام صغيرة من الحرير حمراء وخضراء عادة وتُعقد حلقات السهر والسمر في كل ليلة من هذه الليالي خاصة في الليلة الأخيرة قبل الزواج في منزل العريس . ومن عادات هذه المناسبة إرسال الهدايا من جانب الأصدقاء المقرّبين

---

(١) لقد أخطأ بوركهارت عندما ذكر أنّ الإثنين والخميس هما اليومان اللذان تجري فيهما احتفالات الزواج مباشرة قبل ليلة الدخلة . وكان عليه أن يقول الأحد والخميس . كما وقع بوركهارت في أخطاء عدة بالنسبة إلى ما ذكره عن احتفالات الزواج عند المصريين في كتابه : « الأمثال العربية » (ص ١١٢ ـ ١١٨) . وأشعر بعبء الواجب الملقى على عاتقي وأنا أنوه بهذه الملاحظات التي لا بد منها ، فلا يظن قارئي أنني مخطىء وأنّ أوركهارت المعروفه عنه دقته على صواب في هذه الحالة . وأنا أدون كلماتي هذه في القاهرة وكتابه مفتوح أمامي وبعد بحث وتدقيق .

والأشخاص المدعوين للزفاف قبل يوم أو يومين من الحفلة التي يتهيأون لحضورها . وهم يرسلون عامة السكاكر والقهوة والأرز والشموع أو خروفاً [سميناً] . وتُجعل هذه الأصناف فوق صينية من الخشب أو النحاس وتغطّى بمنديل حريري أو مطرّز . ويستمتع المدعوون في مثل هذه المناسبات بسماع الموسيقيين والمغنين رجالاً ونساءً ومشاهدة الراقصات أو يشنّفون آذانهم « بالذّكر » والختمة .

وأمّا في منازل الأغنياء فتجتمع الخاطبة أو الخاطبات و « داية » العائلة و « البَلّانة » (التي تساعد في الحمام) ومربية العروس بعد يوم أو يومين من إبرام عقد الزواج . وتحصل كل واحدة منهن على قطعة من الذهب وشال من الكاشمير أو على قماش من الحرير المقلّم من ذات القماش إضافة إلى اليلك والشتيان. وتضع الواحدة منهن هذا الشال على كتفها اليسرى وتربط حافاته على الجانب الأيمن ويركبن الحمير بصحبة رجلين أو أكثر يمشيان أمامهن يضربون الطبلة وينقرون على الدف حتى منازل أصحاب العروس لدعوة النساء لاصطحاب العروس إلى الحمام والمشاركة في الحفلة التي تُقام بهذه المناسبة . وفي كل منزل يُدْعون إليه تُمدّ لهن مائدة الطعام بعد أن يَكُنّ قد أرسلن خبراً بحضورهن قبل يوم ، وهنّ يُعرفن « بالمُدنات » ولقد صادفتهن مراراً يمشين ولا طبول تُقرع أمامهن ، ويعمدن بدلاً من ذلك إلى إطلاق « الزغاريد » كدليل على فرحتهن .

تتوجه العروس نهار الأربعاء الذي يسبق الزفاف (أو يوم السبت في حال كان الزفاف سيتم عشية الاثنين قبيل الظهر ويعيده إلى الحمام تستعد فيه للزفاف وتعرف هذه العملية « بزفة الحمام » ترأس هذه الزفة مجموعة من الموسيقيين يقرعون الطبول وينفخون مزماراً أو مزمارين . وينتهز بعضهم هذه المناسبة لختن ولدهم قبل الأوان ، فيمشي الولد ومرافقيه وراء الموسيقيين ويترأس أحياناً فرقة زفة العروس رجلان يحملان لوازم حمّام العروس فوق صينيتين مستديرتين ، كلّ واحدة منهما مغطاة بمنديل حريري بسيط التطريز ؛ كما يشارك السّقا في مثل

هذه المناسبات فيقدّم الماء لكل عابر سبيل يسأله شربة ماء ؛ وكذلك آخران أحدهما يحمل « القمقم » وهو عبارة عن آنية فضية برّاقة عادية في داخلها ماء الورد أو ماء الزهر يرشّها على المارة وأمّا الثاني فيحمل « المِبْخَرة » من الفضة عامة اشتعل داخلها بطيب رائحته كرائحة خشب الألوه . وتحل في الصدارة في زفة العروس العديدات من قريباتها المتزوجات وصديقاتها يمشين اثنتين اثنتين وتليهن العذارى . وأمّا المتزوجات فيرتدين الزي التقليدي ويغطين وجوههن « بالحَبَرة » الحريرية السوداء ؛ وأمّا العذارى فوجوههن مغطاة بحبرات بيضاء من الحرير . وتلحقهن العروس التي تسير تحت ظُلّة من الحرير مزركشة بألوان زهرية صفراء وردية أو هي خليط من لونين في خطوط مقلمة عريضة وردية وصفراء عادة . ويحمل أربعة رجال الظلّة بواسطة ساريات عند الجوانب وتكون الظلّة مفتوحة من الأمام وقد عُلّق فوق كل سارية منديل مطرّز . ويخفي فستان العروس وجهها تماماً ؛ فهي تُغطّى من رأسها إلى أخمص قدميها بشال من الكاشمير الأحمر أو الأبيض أو الأصفر وإن نادراً ، وتُجعل فوق رأسها قبعة كرتونية صغيرة أو تاج يوضع الشال فوقه فيخفي عن أنظار العامة وجهها وجواهرها وفستانها الجميل الثمين خلا بعض الزينة من الألماس والزمرد التي تُعلّق بالجزء من الشال الذي يغطي جبهتها وترافق العروس تحت هذه الظلّة إثنتان أو ثلاث من قريباتها . وتسير في الطقس الحار خلف العروس أحياناً امرأة وظيفتها أن تهوّي للعروس بواسطة مروحة كبيرة من ريش النعام الأسود ؛ وتكون واجهة هذه المروحة مزيّنة بمرآة صغيرة . وقد تُزفّ عروسان معاً فتسيران جنباً إلى جنب تحت ظلة واحدة . ويتقدّم موكب العروس ببطء شديد ويسلك عادة طريقاً غير مباشرة فيعرض العروس عرضاً أكبر ؛ وهو يسير يمنة عند انطلاقه من منزل العروس وتحيط به فرقة ثانية من الموسيقيين مشابهة للفرقة الأولى واثنان أو ثلاثة من الطبالين .

أمّا العروس المنتمية إلى الطبقات الدنيا فتزفّ الزّفة إلاّ أن الزغاريد تنطلق رنّانة من أفواه النساء ابتهاجاً وتشاركهن النساء الفقيرات إن كنَّ مجرّد مشاهدات للزفة. وكلّ الحمام للعروس وفرقتها حيث يمضين ساعات طوال ـ أقلّها ساعتين ـ

يستمتعن بوقتهن ويغتسلن ويقمن ببعض التمارين ويتناولن الأطايب . وتقوم « العَوالم » (مفردها عالمة) بتسليتهن في الحمام . ولمّا ينتهين يعدن كما أتين . ويتحمل أهل العروس تكاليف الزفة ويتكفّل العريس بالطعام .

تتناول العروس وصديقاتها لدى عودتهن من الحمام طعام العشاء معاً . وإن شاركت العوالم في حفلة الحمام يعدن مع العروس لإحياء حفلتهنّ، فيركّزن في أغانيهن على الحب والحدث السعيد الذي سمح لهن بفرصة المشاركة . وبعد الاستمتاع بلذائذ الطعام وغناء العوالم ، تتناول العروس كمية من الحنّاء التي تم تحضيرها مسبقاً وتبدأ بتلقي « النقوط » من ضيوفها ، فتضع كل واحدة من الحاضرات قطعة معدنية (من الذهب عادة) في كتلة الحناء التي تحملها العروس بيدها فلّما تلتصق القطع المعدنية بكتلة عجينة الحناء ، تُفلتها العروس من يدها عند حافة حوض ماء . وبعد أن تكون جمعت ما جمعته بهذه الطريقة من ضيوفها ، يُجعل بعض هذه الحنة على يدَي العروس ورجليها ويُلفّان بعد ذلك بقماش من الكتان ؛ وتبقى الرجلان واليدان مربوطة حتى صباح اليوم التالي بعد التأكد من أنّ الحناء قد اصطبغت بعد تخضّلها بشيء من ماء الزهر . وأمّا ما تبقى من عجينة الحنّاء فتأخذها ضيفات العروس لتحنية أيديهن ؛ وتعرف هذه الليلة « بليلة الحنّاء »

وأمّا العريس فيقيم خلال الليلة نفسها وأحياناً خلال النصف الثاني من الليلة التي تسبقها حفلته فيحتفل « المهبّذون » (وهم هزليون بسيطون) أمام المنزل أو داخله إن كان المنزل فسيحاً .

تتوجه العروس في موكب في اليوم التالي إلى عريسها فتُزفّ « زفّة العروس » مقارنةً مع زفة الحمام التي تسبقها وقد تتوجه العروس أحياناً في بعض الحالات إلى الحمام بمفردها بهدف التخفيف من نفقات حفلات الزواج ، فلا تحظى إلاّ بزفة يتيمة وهي في طريقها إلى منزل عريسها. وتنطلق العروس بعد تناولها الفطور مع صديقاتها بُعيد الظهر ، فيسرن بخطوات بطيئة كما في « زفة الحمّام » . فإن كان منزل العريس قريباً ، يسلكن طريقاً غير مباشرة فيعبرن الشوارع الرئيسة ، ويدوم هذا الاحتفال حوالي ثلاث ساعات .

يتبارز أحياناً مُثاقِفان (مبارزان بالسيف) لا يرتديان سوى سروال تحتاني مبارزة صورية زائفة أمام موكب العروس أو يضرب فلّاحان بعضهما بعضاً « بالنبوت » .

يلقى كل شخص بارع يعرف كيف يسلّي المتفرجين ترحيباً كبيراً في موكب العروس المنتمية إلى الطبقة الغنية ، ويحصل مقابل ما يؤديه على هدية لائقة قيمة[1]. وأتوقف عند حفل زواج إبنة السيد «عمر النقيب الأشرف» الذي كان له الدور الأبرز في وصول محمد علي إلى الباشاوية ـ وترجع هذه الحادثة لسبع وعشرين سنة خلت ـ حيث سار أمام موكب العروس شاب عمد إلى شق بطنه فأخرج منه الجزء الأكبر من معاه حملها على صينية من الفضة . ولمّا انتهى الاحتفال أعاد معاه إلى بطنه ولازم سريره أياماً عديدة قبل شفائه تماماً من آثار عمله المجنون والمثير للإشمئزاز . كذلك قام آخر أمام حشد المتفرجين بطعن ذراعه بسيف ثمّ لفّ الجرح والسيف ما يزال مغروزاً في ذراعه بمناديل عديدة تخضّبت دماً ثاخناً وقد روى لي هاتين الحادثتين أحد الذين كانوا حاضرين أثناء الحفل ، علماً أنّ مثل هذه الأعمال المستهجنة ليست بغريبة في مثل هذه المناسبات وإن تقلّصت . ويقوم « الحُواة » (مفردها حاوي) بعرض ألعاب خفة متنوعة . وتبقى مع ذلك المبارزة الصورية أهم أنواع الألعاب والأداء ، وهي عروض نشاهدها عند الاحتفال بعملية ختان ولد .

وبعد وصول العروس ومن معها إلى منزل عريسها يجلس الجميع لتناول الطعام . ولمّا يفرغوا بفترة بسيطة ، تغادر صديقات العروس فيتركن هذه الأخيرة

---

(١) من أبرز الإحتفالات التي يشهدها المجتمع المصري في مثل هذه المناسبة ما يقوم به السّقا الذي يحمل زق ماء مملوءاً بالتراب والماء ثقيل الوزن لفترة طويلة. ويتكبّد كل هذا العناء الذي لا يجرؤ أحد غيره على القيام به حتى يحصل على هدية صغيرة ويحمل لقب «القيّم» . ويقوم بهذا الأداء دون أن يجلس إلاّ للراحة . ويبدأ «القيّم» في احتفالات الأعراس بحمل الزق المملوء بالتراب والماء الذي يزن حوالي المئتي باوند عند المغيب في اليوم السابق ؛ فيحمله طوال الليل واليوم الذي يعقبه ـ قبل الزواج وبعده ـ حتّى المغيب .

مع أمّها وأختها أو إحدى قريباتها ومع امرأة أو امرأتين من « البلاّنات » اللواتي يحضّرنها « لليلة الدّخلة » .

أما العريس الجالس في حجرة سفلية فينطلق قبل المغيب إلى الحمّام حيث يغير ثيابه ـ أو قد يغيّر ثيابه في منزله . وبعد تناوله العشاء مع أصدقائه يتوجّه قبل ثلاث أو أربع ساعات من « صلاة العشاء » إلى أحد المساجد المعروفة ـ حسب العادات والتقاليد ـ « كجامع الحسنين » ليؤدي فريضة الصلاة . فإن كان العريس شاباً يحظى بشرف زفّة بهذه المناسبة ويتقدّمه وهو في طريقه إلى الجامع حشد من الموسيقيين يقرعون الطبول وينفخون المزامير إضافة إلى مجموعة من أصدقائه وآخرين غيرهم يحملون « المَشَاعِل » عبارة عن سارية ذات إطار اسطواني حديدي في أعلاه مملؤ بالخشب للاستعمال أو له أطر قد يصل عددها إلى خمسة لإضرام النار. ويسير موكب العريس إلى الجامع بخطى حثيثة ودون ترتيب . وتنهي مجموعة ثانية من الموسيقيين الاحتفال مستخدمة الآلات عينها أو مكتفية بقرع الطبول وحدها ويرتدي العريس «القفطان» عادة المخطط باللون الأحمر إضافة إلى جبّة حمراء مع شال من الكاشمير من اللون نفسه لعمامته ، ويسير بين صديقين له يرتديان ثياباً مماثلة . وتتلى الصلوات عادة كنوع من الاحتفال ولا يقوم العريس غالباً بأداء الصلاة أو أنّه يصلي دون التوضؤ المفروض قبل الصلاة كالمماليك الذين يتلون صلاتهم خوفاً من أسيادهم . ثم يعود الجميع من الجامع بترتيب أكبر ويخطى بطيئة متثاقلة ، إذ يعتقدون أنّه من غير اللائق أن يسرّع العريس خطاه حتى يمتلك عروسه بأقرب وقت . وتتقدم الموكب مجموعة من الموسيقيين إضافة إلى حاملين أو أكثر للمشاعل ـ ويتبعهم عادة رجلان رافعان إطاراً معلقاً بواسطة سارية يثبتانها على أكتافهما وقد علّق على هذا الإطار نحو ستّون ضوءاً صغيراً في دائرات أربع . وتكون الأضواء العُليا مرتبة بطريقة تسمح لحاملها بتحريكها بسهولة . وتضيء الأضواء والمشاعل هذه الشوارع التي يمرّ فيها الموكب ، فتترك أثراً طيباً في النفوس. ويتقدم العريس وأصدقاؤه وبعض الخدم الموكب فيتحملقون في حلقة مستطيلة ـ وجوهم كلّهم داخل الحلقة ـ حاملاً كل واحد

منهم شمعةَ أو أكثر في يده وأحياناً عسلوجاً من الحنّاء أو نوعاً من الورود إلاّ العريس والصديقين المتواجدين إلى جانبه . ويشكّل هؤلاء الثلاثة آخر الدائرة التي تضم عادة حوالي العشرين شخصاً . ويتوقف الموكب على فترات متلاحقة بضع دقائق ، فيعمد أحدهم من داخل الحلقة إلى غناء مقطوعة من إحدى أغاني الزفاف ، فيتوقف قرع الطبول ويسكت المزمار (وهي أصوات تسمعها العروس قبل نصف ساعة من وصول الموكب إلى المنزل) . ويختم فريق من الموسيقيين هذه الوصلة الغنائية .

قد يُزَّف العريس حسب « زفّة السّاداتي » وهي أكثر احتراماً . ويصحب العريس في هذه الزفة أصدقاؤه كما في الزفة السابقة ويسبقه حاملو المشاعل بينما يغيب الموسيقيون عن الموكب ، ويُستعاض عنهم بستة أو ثمانية رجال يُعرَفون بـ « أولاد الليالي » وهم مغنّيو مثل هذه المناسبات . ويتوجه العريس إلى الجامع ويسير وهو في طريقه إلى المنزل سيراً بطيئاً بينما يغني له المغنّون « الموشّحات » في مدح الرسول ﷺ ، ويتلون لدى وصولهم إلى المنزل آيات من الذكر الحكيم للترفيه عن الضيوف ثمّ يتلون جميعهم سورة الفاتحة تتبعها قصيدة في مدح الرسول ﷺ والموشحات في نهاية المطاف ـ فلمّا يفرغوا من تلاوتهم يتلقون النقوط من العريس وأصدقائه .

يترك العريس لدى عودته من الجامع أصدقاءه في إحدى الحجرات السفلية يستمتعون بتدخين البيبة وشرب « الشربات » . وأمّا أمّ العروس وأختها وقريباتها اللواتي يبقين مع العروس فيقبعن في حجرة علوية بينما تنزل العروس والبلّانة في حجرة منفصلة . ومن اللائق أن يُظهر العريس ـ كما العروس ـ شيئاً من الخجل فيحمله أحدأصدقائه قليلاً وهو في طريقه إلى الحريم . وحالما يدخل العريس حجرة العروس تنسحب البلانة من الغرفة بعد أن يغدق عليها بهدية وتكون العروس قد غطت وجهها بشال . ومن واجب العريس أن يقدّم لعروسه هدية مالية تُعرف « بثمن كشف الوجه » قبل أن يرفع الغطاء عن وجهها وتبدي العروس في خفر ظاهر اعتراضاً بل مقاومة عنيفة في محاولة منها لإظهار حياء التبول في شخصيّتها ولمّا يكشف الغطاء يقول العريس : « بسم الله

الرحمن الرحيم » ويهنىء عروسه بـ« ليلة مباركة » فتجيبه إن لم يدركها خجلها : « الله يبارك فيك » . وعندها يرى العريس وجه عروسه للمرة الأولى ، ويجدها عادة كما الصورة التي رسمها لها في خياله ، وما يلبث أن يتركها بعد دقائق معدودة . وبعد أن يشبع فضوله بمحاسنها ومفاتنها يدعو النساء (ويكنَّ مجتمعات حول الباب منتظرات بقلق) لإطلاق زغاريد الفرح التي تطنّ في آذان الموجودين في الحجرات السفليّة وفي الجوار ، فترد عليها نساء آخريات بأحسن منها دليلاً على أن العريس راضٍ عن عروسه . وينزل العريس بعد ساعة لملاقاة أصحابه فيبقى معهم حوالي الساعة أو الأكثر قبل أن يدخل على زوجته من جديد . ولا يطلّق العريس زوجته أو يهجرها بعد زواجهما مباشرة إن خاب أمله فيها إلاّ في حالات استثنائية ؛ فهو يبقيها عنده لمدة أسبوع أو أكثر قبل هجرها

يقودني الحديث عن أمور إتمام الزواج ومراسيمه في القاهرة إلى احتفالات الزواج التي تُقام بالنسبة إلى البتول والأرملة أو المطلقة .

لا تتوجه بنات « الكُبار » والطبقات الميسورة إلى الحمام العام قبل زواجهن بل يستحممن في بيوتهن ؛ وإذا لم يتوفر مثل هذا الحمام في المنزل تذهب عروس العائلة الميسورة وصديقاتها وقريباتها إلى الحمام الشعبي الذي يتم استئجاره على شرفهن. بعدها ينتقلن إلى منزل العريس دون موسيقيين أو ظلّة راكبات على الحمير ؛ وترتدي العروس شالاً من الكاشمير كما في وضعها الحبرة .

وقد يسير بعض المخصيين أمام العروس إن توفّروا في منزل العريس أو العروس . كما يركض أحياناً رجل على رأس الموكب صارخاً : « تباركت يا رسول! » وعند دخوله المنزل ينثر بعض أوراق نبات « السَلَق » على عتبته فيسير موكب النساء فوقه . ويعتقد المصريون أن أوراق السلق جالبة للحظ والثروة . ويعلو صوت هذا الرجل من جديد مردّداً : « بعون الله ونصراً سريعاً » .

قد يقيم المصريون أعراسهم بلا حفلات ولا زينات حتى وإن كانت العروس بتولاً . ويتم هذا الزواج بالتوافق والتراضي بين العريس وعائلة العروس

أو بموافقة العروس نفسها . وأمّا الأرامل والمطلّقات فلا يحظين أبداً بمثل هذه الزفة عند زواجهن مرة ثانية . وبمجرد أنْ تقول الأنثى البالغة للرجل الذي يتقدّم للزواج منها : « زوّجتك نفسي » (حتى بغياب الشهود إن استحال تأمينهم) تصبح زوجته شرعاً على سنة الله ورسوله . ويتّم زواج الأرملة أو المطلقة في أوساط المسلمين المصريين وغيرهم من العرب بطريقة بسيطة خالية من التعقيدات ؛ ويقدَّر مهرها عادة بربع أو ثلث أو نصف مهر البتول

تتم مراسيم الزواج في القاهرة بين أبناء الطبقة غير الفقيرة المدقعة تماماً ورغم بساطة عيشهم كما مراسيم الزواج بين أبناء الطبقة المتوسطة فإن لم تتوفر إمكانية دفع نفقات الزفة كما وصفتها آنفاً ، تستعرض العروس بصورة بسيطة جداً ، ويغطى وجهها بشال (أحمر عادة) وتحيط بها بعض صديقاتها وقريباتها في أبهى حلّة لهن أو في ثياب استعرنها ؛ فيطلقن زغاريد الفرح مراراً وتكراراً .

تختلف زفة أهل القرى عن الزفة التي تحدّثت عنها . فالعروس تجلس عادة على جمل ويغطى وجهها بشال إلى أن تصل إلى منزل عريسها . وأحياناً تجلس على الجمل وتجلس معها أربع أو خمس نساء ، واحدة إلى جانبها واثنتان أو ثلاث وراءها ؛ ويكون المقعد فسيحاً جداً ومغطّى عادة بسجادة أو بأي غطاء فضفاض آخر . ويتبع العروس فريق من المغنيات . ويلتقي عشية الزواج وغالباً في الليالي السابقة لهذه الليلة أصدقاء وصديقات العريس والعروس في منزل العريس فيمضون ساعات طويلة في الهواء الطلق يغنون ويرقصون على صوت الرّق والطبلة . ويغني الرجال والنساء معاً ووحدها النساء ترقص .

أعود بعد هذه النقلة السريعة عن احتفالات زواج الفلاحين في القرى إلى عادات سكان القاهرة وتقاليدهم . فصبيحة الزواج يرقص « الخوّال » أو « الغازية » في الشارع أمام منزل العريس أو في الباحة . فإن كان العريس شاباً يصحبه في اليوم نفسه صديقه الذي كان رفعه عالياً حتى غرفة عروسه وبعض أصدقائه الآخرين للاحتفال في المدينة حيث يقضون النهار بكامله . ويُعرَف هذا الاحتفال « بالهُروبة » وأحياناً يرتب العريس بنفسه أمر هذا الاحتفال

فيدفع جزءاً من التكاليف إن فاقت ما دفعه أصدقاؤه ، فهم يقدّمون « النقوط » بهذه المناسبة . ويتم استئجار الموسيقيين والراقصات لهذا الاحتفال . فإن كان العريس من أبناء الطبقة الفقيرة ، يرجع العريس في موكب ويسبقه ثلاثة أو أربعة موسيقيين مع طبولهم ومزاميرهم ، ويحمل كل واحد من أصدقائه والحاضرين الآخرين باقة زهر صغيرة كما في زفة الليلة السابقة ؛ فإن هم عادوا بعد المغيب يرافقهم رجال يحملون المشاعل والمصابيح وكذلك يحمل أصدقاء العريس شموعاً مضاءة إضافة إلى باقات الورد الصغيرة[1]

يفضل الزوج ـ إن استطاع ـ أن تقيم والدته معه وزوجته حتى تحمي شرف زوجته وبالتالي شرفه ، ولهذا السبب ربّما تُعرف أم العريس « بالحماه » . ويُقال إن نساء مصر ميّالات بطبعهن إلى الحيل الإجرامية وأخشى أن يكون الاتّهام الموجّه إليهن غير مجحف بحقهن تماماً : ويبقي أحياناً الزوج زوجته في منزل أمّها ويدفع النفقات اليومية لكليهما ممّا يحمل الأم على أن تكون في غاية الحرص في ما خصّ المصروف متشدّدة حيال مسلك ابنتها وتصرّفاتها مخافة أن يصل بها المطاف إلى الطلاق . وتلعب الأم دور القوّادة فتعلم ابنتها حيلاً عديدة عن كيفيّة تسلّطها على زوجها وسحبها الأموال منه . وتكبر المخاوف من تأثير أم العروس كلّما سنحت الفرصة لهذه الأخيرة بالتردد على ابنتها . ولذا ، يعتبر المصريون زواج الرجل من فتاة لا أم ولا قريبات لها عملاً تعقلياً حكيماً . ويمنع الزوج أحياناً زوجته من استقبالها صديقاتها باستثناء قريباته وإن كان عدد اللواتي يُفرض عليهن مثل هذه القيود قليل .

لا يصعب على الرجل المتآلف مع مجتمع الرجال المصريين في القاهرة

(١) يلتقي أقارب العريس والعروس في أوساط الفلاحين في صعيد مصر في اليوم التالي للزواج . وتؤدي العروس رقصة قصيرة فيصفّق لها الرجال وينسّقون تصفيقهم على نغمات طبلتين وغيرها من الآلات . وتغطي العروس وجهها بحجاب يصل إلى ركبتيها إضافة إلى منديل قطني مطبوع يغطي وجهها ؛ وترتدي أحلى ما تقتنيه من زينة. وتستمر النساء في رقصهن ، وهن مغطيات الوجه ومرتديات أحلى ثيابهن أو قد يستأجرن هذه الثياب لمدة ساعتين أو أكثر .

والباقي دون زواج الحصول ـ بطريقة أو بأخرى ـ على معلومات صحيحة حول عادات نساء هذا المجتمع وأوضاعهنّ . إذ يطلق بعض أزواج الطبقتين المتوسطة والغنية العنان لألسنتهم فيتحدثون عن شؤون الحريم إمّا مباشرة مع هذا الشخص الغريب الذي يبدي تعاطفه معهم وإمّا بواسطة أحد المترجمين تسهيلاً للتحادث .

وليست الزوجات حبيسات بيوتهن رغم تخصيص حجراتهن في المنزل؛ فلهن مطلق الحرية في الخروج والقيام بالزيارات واستقبال الزائرات كما يحلو لهن . ولكن الجاريات الخاضعات للزوجات أو لسيدهن أو لهذا السيد وحده لا يمتلكن مثل هذه الحرية؛ فهنّ واقعات تحت سلطة لا حدود لها. وأهم الدوافع الكامنة وراء تخصيص حجرات منفصلة للزوجات تكمن في حجبهن عن أنظار المتطفلين من الخدم والرجال الآخرين وهنّ سافرات الوجه طبقاً لمبادىء دينهن . والنص القرآني واضح في هذا الخصوص حول ضرورة أن تغطي المرأة المسلمة كلّ ما يجذب الرجل إليها باستثناء بعض أقاربها :﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلاّ لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيّه المؤمنون لعلّكم تفلحون ﴾ (سورة النور /٣١) وتشير هذه الآية إلى عادة لبس نساء العرب زمن الرسول ﷺ الخلاخل في أرجلهن وضربهن هذه الخلاخل بعضها ببعض علماً أن هذه العادة ما تزال منتشرة بين نساء مصر عامة .

وأتوقف عند ملاحظتين هامّتين لبعض المعلّقين البارزين على القرآن في شرح الآية السابقة؛ وهذا ما يمليه علي الواجب حتى لا يقع القارىء في متاهات الأفكار المضلّلة عن العادات الحديثة حيال قبول بعض الأشخاص في الحريم وعدم قبولهم .

الملاحظة الأولى تتعلق بكلمة « نسائهن » والتي وزد فيها التفسير التالي في ترجمة Sale : « هكذا كانت النساء زمن محمد . إذ يرى البعض أنّه غير شرعي بل بعيد عن باب اللياقة والاحتشام أن تعمد المرأة المؤمنة الصادقة إلى الكشف عن وجهها أمام أحد الرجال الكافرين ، لأنّ هذا الكافر لن يتردّد لحظة في وصف محاسنها إلى الرجال الآخرين ويرى البعض الآخر أن كلّ النساء مقبولات وإن اختلف الفقهاء حول هذه النقطة الخاصة » .

ولا يعتبر غير لائق في مصر الحديثة ولا في أي بلد مسلم آخر أن تدخل الحرة أو الخادمة أو الجارية نصرانية كانت أم مسلمة أم يهودية حريماً مسلماً.

أمّا الملاحظة الثانية المتعلقة بـ « ما ملكت أيمانهن » فهي التالية : « يشمل الاستثناء العبيد من الجنسين وكذلك ـ برأي البعض ـ الخدم في المنزل من غير العبيد والقادمين من بلد مختلف . ويقال إنّ محمداً قدّم ذات مرة هدية لابنته فاطمة عبارة عن عبد . فلمّا أتاها به ، كانت فاطمة تضع كساءاً رقيقاً لدرجة كان عليها أن تترك إمّا رأسها وإمّا قدمها مكشوفين فلاحظ الرسول ارتباكها وطلب منها ألّا تقلق لأنّ الموجودين هما أبوها وعبدها فقط » وربّما تكون هذه العادة ما تزال منتشرة بين عرب الصحراء ولكنني لم أسمع قط بعبد بالغ يُسمح له بدخول حريم رجل محترم سواء انتمى هذا العبد إلى الحريم أم لم ينتمِ . وأنا على يقين بأن ذلك غير مسموح به على الإطلاق . وقد يعود سبب هذا الامتياز الذي منحه القرآن للعبد برؤية امرأة إلى استحالة إمكانية أن تصبح هذه الأخيرة زوجته شرعاً طالما بقي عبدها ويبقى هذا السبب غير كاف تماماً للسّماح للعبد بدخول الحريم في مثل تركيبة هذه المجتمعات ـ والملاحظ أنّ الآية القرآنية المذكورة لم تسمح للخال ـ أو العم برؤية ابنة أخته أو أخيه مكشوفة الرأس . وفي اعتقاد البعض لا يسمح للخال ـ أو العم ـ بذلك مخافة أن يصف سمات ابنة أخته ـ أو أخيه ـ لابنه ؛ فمن غير اللائق أن يصف رجل سمات امرأة لأحد من أبناء جنسه (كأن يصف جمال عيونها ودقة أنفها وصغر فمها) ، غير مسموح له شرعاً رؤيتها ؛ وبالمقابل فمن الجائز أن يصف الرجل المرأة عامة كأن يقول فيها : « إنها فتاة طيبة تضع الكحل والحنّاء » .

والجدير ذكره كقاعدة عامة أنّه يُسمح للرجل برؤية زوجاته سافرات الوجه وكذلك جارياته والنساء اللواتي يحرّم عليه الشرع الزواج بهن بسبب قرابة العصب أو الروابط العائلية أو صلة الرضاعة أو قربة من مرضعته . ولقد أشرت إلى قدم الحجاب في الفصل الأول من الكتاب كما ذكرت أنّه على المرأة المصرية أن تغطي القسمين العلوي والخلفي من رأسها أكثر من وجهها ؛ وهي ملزمة كذلك بتغطية وجهها أكثر من أي جزء آخر في جسدها. فإن لم تكن المرأة مثلاً لتقتنع بكشف وجهها في حضور رجل، فهي لا تبدي خجلاً كبيراً في إظهار مفاتن صدرها أو القسم الأكبر من ساقها . صحيح أن الكثيرات من بنات الطبقات الدنيا يظهرن بين العامة سافرات الوجه ، ولكنهن يُجبرن على ذلك بسبب الحاجة إلى وضع « البُرقُع » وصعوبة تكييف « الطرحة » التي تزيّن رؤوس معظم النساء والتي حلّت محل البرقع ـ خاصة عندما تكون يداها الاثنتان مشغولتين في حمل ثقل فوق رأسها . وإذا صادف ووقعت عينا رجل على امرأة محترمة وهي سافرة الوجه ولم يكن مسموحاً له التمتع بمثل هذا الامتياز ، تعمد بسرعة إلى تسوية طرحتها فيسمعها الرجل تقول : « يا خيبتي ، يا دَهْوتي » وأحياناً تستفيق غريزة الأنثى في داخلها ، فتكشف وجهها عمداً لرجل يخيّل إليه أنها لم تتعمد ذلك أو أنّه لم يكن مفترضاً بها مصادفته أو رؤيته وقد تسنح الفرصة أحياناً للرجل برؤية وجه سيدة تكون مكشوفة الوجه لاعتقادها أنّ ما من أحد يراقبها ، وتتسنّى له رؤيتها من خلال الشعريّة أو من سطح أحد المنازل وتغيب في الكثير من المنازل الصغيرة في القاهرة الحجرة الأرضية لاستقبال الزوار من الرجال الذين يضطرون للصعود إلى غرفة علوية . ونسمعهم يردّدون عند صعودهم « دستور ! » أو « يا ساتر » أو يلجأون إلى مقولة مشابهة لتنبيه أية امرأة يُصادف وجودها في الطابق حتى تنسحب أو تغطي وجهها ، فتسدل جزءاً من طرحتها على وجهها فلا تكشف المآقي إلاّ عن عين واحدة . ويتجلّى تبجيل المرأة في الإسلام في منع الرجل من دخول قبور بعض النساء كزوجات الرسول ﷺ أمّهات المؤمنين ونساء أخريات من أهل الرسول ﷺ في مدفن « المدينة المنورة » ؛ ولا يسمح إلاّ للنساء بدخول هذا المدفن وكذلك لا يُدفن الرجل والمرأة في المدفن نفسه إلاّ إذا فُصل جسداهما بجدار . وقليلون



سيدة مصرية عند النافذة

هم المصريون الذين لا يتشدّدون عند هذه النقطة ، ومنهم أحد أصدقائي المسلمين الذي يسمح لي برؤية والدته عندما أقوم بزيارته . ووالدة هذا الصديق أرملة في عقدها الخامس ، بدينة جداً لدرجة لا يبدو عليها أنها متقدّمة في السن فتخالها لا تزيد عن الأربعين ؛ وهي تحضر إلى باب حجرة الحريم التي يتم فيها استقبالي (بسبب عدم وجود حجرة أرضية في المنزل للرجال من الضيوف) فتفترش الأرض ولا تدخل الغرفة مطلقاً . وقد يحدث أن أرى ـ بمحض الصدفة ـ سمات وجهها كاملة فيتبين لي الكحل الكثيف مظلّلاً عينيها ؛ وهي لا تحاول إخفاء ما تلبسه من حلى ومجوهرات . ولا يسمح لي مطلقاً برؤية الزوجة خلا مرّة واحدة تحدّثت إليها في حضور زوجها عند زاوية ممر في أعلى السلالم .

أعتقد أن المرأة المصرية غير مقيّدة تماماً كما المرأة في معظم بلدان الإمبراطورية العثمانية . لذا ، لا يستغربنّ الواحد منّا رؤية نساء الطبقات الدّنيا يمازحن الرجال ويضاحكنهم علناً فتلامس أيديهن أيديهم بمنتهى الحرية . وقد يخال البعض أن المرأة المنتمية إلى الطبقتين المتوسطة والغنية مقيّدة وغير راضية عن حال العزل الخاضعة لها . والأمر غير صحيح ؛ إذ تميل الزوجة المصرية المتعلقة بزوجها إلى الاعتقاد بأنّ زوجها إن هو منحها حرية لم تعتد عليها يهملها وتنطفىء جذوة الحب في قلبه فتراها تحسد الزوجات اللواتي هنّ مقيّدات في حريتهن وتحركاتهن .

ليس شائعاً كثيراً أن يكون للرجل المصري أكثر من زوجة واحدة أو خليلة رغم أن الشرع يسمح له بأربع زوجات (كما شرحت ذلك سابقاً) وبالعدد الذي يرغب به من الخليلات حسب الاعتقاد السائد. ومع ذلك فقليلون هم الرجال في القاهرة الذين لم يطلّقوا زوجتهم الأولى إن كانوا تزوجّوها منذ فترة طويلة . ويمكن للرجل أن يطلّق زوجته متى شاء بأن يقول لها : «أنت طالق سواء أكانت رغبته في الطلاق منطقية الدوافع أو غير منطقية. وتعود الزوجة المطلقة إلى كنف أهلها وأصحابها. ومثل هذا الطلاق الجائر مصدر إزعاج للكثيرات من الزوجات وأكثر مضايقةً من المشاكل التي قد يتعرّضن لها. فقد يعاني بعضهن الفقر المدقع بعكس

البعض الآخر . ذكرت في فصل سابق أن الرجل قد يطلّق زوجته مثنى ويرجعها بعد ذلك في كل مرة دون أي احتفال أو زينة ؛ ولا يمكنه إرجاعها بعد طلاق ثالث إلاّ إذا تزوجت رجلاً غيره ثمّ طلّقته . ونتائج الطلاق الثلاثي في جملة واحدة هي نفسها إلاّ إن وافق كلّ من الزوج والزوجة على مخالفة الشريعة ، فينكر الزوج تلفّظه بجملة الطلاق . ويصعب في هذه الحالة على المرأة تأكيد إذعانه للشريعة إن وافقته على عمله . وتوضيحاً لهذا الموضوع أذكر حادثة كان فيها أحد أصدقائي شاهداً على جملة الطلاق. وكان هذا الصديق يجلس في أحد المقاهي مع رجلين آخرين أحدهما مستاء من فعل أو قول لزوجته . وبعد مماحكة كلامية حول ما حصل أرسل الزوج الغاضب في طلب زوجته ؛ فلمّا حضرت قال لها : « أنت طالق بالثلاث » ثم أردف موجّها الكلام لصديقيه : « أنتما يا إخوتي شاهدان». وما لبث صديقنا أن ندم على فعلته بعد فترة قصيرة وأراد إرجاع زوجته المطلقة التي رفضت العودة إليه وأرادت الاحتكام إلى « شرع الله » . هكذا ، رُفعت القضية أمام المحكمة حيث ذكرت المدّعية أنّ المدّعى عليه هو زوجها وأنّه تلفظ بجملة الطلاق الثلاثي ويريد الآن إرجاعها ومعاشرتها كزوجة خلافاً للشرع فيعيش معها في الخطيئة . لكن المدّعى عليه نفى قيامه بتطليقها وطلب القاضي من المدّعية إبراز شهودها فكان ردّها : « عندي شاهدان وهما الرجلان اللذان كانا جالسين في المقهى عندما تلفّظ الزوج بجملة الطلاق » ؛ فطلب منهما القاضي الإدلاء بشهادتيهما فذكرا أنّ المدّعى عليه طلّق زوجته طلاقاً ثلاثياً بحضورهما . ولكنّ المدّعى عليه زعم أنّ التي طلّقها في المقهى زوجة أخرى له ، وأكّدت المدّعية بدورها أنّ زوجها لا زوجة أخرى له ؛ ولفت القاضي نظرها إلى أنّه يستحيل عليها معرفة ذلك . وسأل الشاهدان عن اسم المرأة التي طلّقها المدّعى عليه في وجودهما ، فأجاباه بأنّهما يجهلان اسمها . وعاد القاضي فسألهما إن كان باستطاعتهما القسم بأنّ المدعية هي المرأة التي طلّقها الزوج أمامهما . فأجاباه أنّهما لا يستطيعان القسم لأنّهما لم يريا قط وجهها سافراً . فارتأى القاضي رفض الدعوى وأُجبرت الزوجة على العودة إلى كنف زوجها . وكان يمكن للزوجة أن تطلب من الزوج تقديم

المرأة التي أدّعى تطليقها في المقهى وكان من السّهل على الزوج إيجاد مثل هذه الزوجة بإبرازه وثيقة الزواج التي تبرّم عادة في مصر في غياب عقد مكتوب وأحياناً في غياب الشهود .

من الشائع أن يعمد الزوج إلى تطليق زوجته ثلاثاً ويعيدها (بعد أن توافق الزوجة على جمع شملها من جديد ولا يكون هناك من شهود على جملة التطليق) فيخالف الشرع . وليس بغريب في مثل هذه الحالات أن يستخدم الزوج رجلاً ليتزوّج مطلّقته شرط أن يعيدها بعد يوم من زواجهما إلى حضن زوجها الأوّل فترجع زوجته من جديد بعد إبرام عقد زواج ثان مع أنّ هذا العمل مخالف تماماً لروح الشرع الإسلامي . وإن كانت الفتاة قاصراً تمتنع عن إعطاء موافقتها ويمكن لوالدها أو وكيلها الشرعي في هذه الحالة تزويجها لمن يشاء . ويقع الاختيار عادة على رجل فقير (دميم الخلقة أعور) للقيام بهذه المهمة . ويُعرَف هذا الرجل «بالمُستَحِلّ» أو «المُستحَل» الذي قد يؤخذ بجمال المرأة التي يقدَّم إليها وفقاً للشروط المحدّدة وقد يطمع في ثروتها وغناها فيرفض تطليقها . والشرع لا يجبره على ذلك إلاّ في حال أساء معاملتها كزوج ، وهذا ما يحاول الزوج جاهداً عدم الوقوع به . ويمكن للزوج اللجوء إلى « المستحلّ » دون أن يعتبر ذلك مجازفة كبرى . فمن عادة العديد من الأتراك الأغنياء وبعض المصريين استخدام عبد أسود يكون ملكهم ليلعب دور المستحل . وأحياناً يتم ابتياع العبد خصيصاً لهذه المهمة . فإن كان الشخص الذي يطلب مثل هذه الخدمة يعرف تاجر عبيد ، يطلب من هذا الأخير أن يمنحه عبداً وهذا يعني أنّه سيعيد العبد إليه . وكلّما كان العبد دميم الوجه كلّما كان ذلك مستحسناً . ويقع اختيار الأتراك عادة على عبد لم يصل بعد إلى مرحلة البلوغ حسب ما تسمح لهم معتقداتهم به . وبعد أن تفي المرأة « عدّتها » (وهي الفترة التي تجبر خلالها المرأة على الانتظار قبل أن يسمح لها بالزواج من جديد)، يقدّم الزوج الذي طلّقها ـ وبعد أن يكون قد حصل مسبقاً على موافقتها بما سيقوم به ـ العبد لها ويعرّفها به فيطلب منها إن كانت ستتزوجه فتومىء إيجاباً . وهكذا يتم تزويجها للعبد بحضور شاهدين ويقدّم لها مهر لجعل الزواج قانونياً تماماً ويدخل العبد

على المرأة ويصبح زوجها الشرعي . وفي صباح اليوم التالي مباشرة يقدّم زوجها السابق العبد لها كملك خاص لها ولحظة قبولها به يُعتبر زواجها باطلاً ، إذ أنّ الشرع لا يسمح للمرأة أن تكون زوجة عبدها الخاص وإن كانت تستطيع الزواج به إن أعتقته . ويمكنها عندما يبطل زواجها بمجرّد موافقتها على العبد هدية أن ترجع العبد لزوجها . ومن النادر جداً أن يسمح الزوج للشخص الذي لعب دور المستحلّ بالبقاء في منزله . وتستطيع الزوجة بعد هـذا الإجراء وبعـد إنهائهـا عدّتها أن تعود إلى زوجها السابق بعد أن تكون انفصلت عنه لاضـطرارها وفـاء عدّتين لمدة سنة تقريباً وما يزيد .

إنّ لسهولة الـطلاق عواقب وخيمـة على المرأة والـرجل . فـالعديـد من الرجال في مصر تزوجوا خلال عشر سنوات مثنى وثلاثاً ، وكذلك كانت العديد من النساء غير المتقدمات في السن زوجات بدورهنّ لعشرة رجال أو أكثر بصورة متعاقبة . ولقد سمعت عن رجل اعتاد الزواج من امرأة كلّ شهر تقريباً . ويمكن للرجل القيام بذلك وإن لم يكن يملك الشيء الكثير. وقد يختار الرجل من بين نساء الطبقات الدنيا في شوارع القاهرة أرملة شابة جميلة المحيا أو امرأة مطلّقة ترضى أن تكون زوجته مقابل مهر بسيط قدره عشر شللينات ، فلا يحتـاج عند تطليقها لأكثر من ضعف هذا المبلغ المذكور لينفق عليها خلال عدّتها. والحق يُقال إن هذا المسلك يعتبر مخزياً شـائناً وأنّ قـلّة هي التي ـ سواء انتمت إلى الطبقة المتوسطة أو الغنية ـ تزوّج ابنتها لرجل طلّق عدة زوجات قبلها .

لا يشيـع كثيراً تعـدّد الزوجات الذي تنعكس آثاره سلبـاً على معنويـات الزوج والزوجة بين أبناء الطبقتين المتوسطة والميسورة. وفائدته الوحيدة الحد من انتشار الفسوق والفجور علماً أنّه ليس شائعاً جداً بين أبناء الطبقات الدنيا ؛ وقد يعمد الرجل الفقير إلى الزواج من امرأتين وأكـثـر ، وينبغي أن تؤمّن كل واحدة منهما ـ أو منهن ـ معيشتها بنفسها تقريباً بمزاولتها عملاً أو حرفة ما . بيد أن أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية يمتنعن عن مثل هذه الـزيجات بسبب كثـرة النفقات والمضايقات التي قـد تنجم . كما أنّـه من الممكن أن يلجأ الـزوج الذي تكون

زوجته عاقراً ويكون متعلّقاً بها وغير راغب بتطليقها إلى الإقتران بزوجة أخرى تنجب له ذرية صالحة ، فيتزوج مثنى وثلاث وأربع . وتقلّب العواطف والمشاعر هو الحافز الأساسي على تعدّد الزوجات وأمور الطلاق . وقليلون هم الذين يعون هذه الرغبة المتأججة في نفوسهم من الزواج الأول ، وأميل إلى الاعتقاد أن رجلاً واحداً من أصل عشرين على ذمته زوجتان .

وعندما تكون على ذمة الرجل الواحد زوجتان أو أكثر ، تحظى الزوجة الأولى بالمرتبة الأعلى وتُعرف « بالهانم الكبيرة » . لذا ، عندما يرغب الرجل المتزوج من الزواج مرة ثانية من فتاة أو امرأة ، لا يرضى والد الفتاة غالباً بمثل هذا الزواج إلاّ إذا عمد الرجل إلى تطليق زوجته الأولى قبلاً . وبالطبع لا توافق الأنثى أن يكون للرجل أكثر من زوجة واحدة . ويعمد معظم الرجال الميسوري أو المتوسّطي الحال وحتى الفقراء منهم - إنْ كانت لهم أكثر من زوجة - إلى جعل كل زوجة من زوجاتهم تقيم في منزل مختلف. ومن حق الزوجة أن تشترط على زوجها مسكناً تحدّد هي حجمه - فقد يكون المسكن عبارة عن منزل منفصل أو مجموعة حجرات (مؤلفة من غرفة تنام وتمضي النهار فيها ومطبخ وحمام) والزوجة الثانية تعرف « بالضُرّة » . ويحكى الكثير عن مشاكل الضرائر وخناقاتهن : فالزوجتان اللّتان تتشاطران قلب رجل واحد ، لا يكونان دائماً في حالة وفاق وانسجام ، وهذه هي حالة الزوجة والخليلة التي تعيش في منزل واحد وفي ظل ظروف مماثلة . فإن كانت « الهانم » عاقراً وحملت سيدة أدنى منها مرتبة زوجة كانت أم جارية من زوجها أو سيّدها، تصبح الحامل محبوبة قلب الرجل وترى « الهانم » والخليلة بعيون الإزدراء والاحتقار كما كانت زوجة إبراهيم في عيون « هاجر » للسبب نفسه . وليس غريباً أن تفقد الزوجة الأولى امتيازاتها وحظوتها وأن تحلّ محلّها زوجة أخرى تلقى المعاملة نفسها التي كانت تلقاها الزوجة الأولى من خصماتها وزائرات الحريم من احترام وتبجيل . وقد تلجأ الزوجة الثانية إلى تسميمها لإزاحتها من الصدارة . وتفضيل الزوجة الثانية يجعل الزوجة الأولى « ناشزة » بالنسبة إلى زوجها أو المحكمة . وتكثر الأمثلة عن زوجات منسيات مهمّلات يظهرن خضوعاً مثالياً وعاطفة متّقدة نحو

أزواجهن وتودّداً ومحبة للزوجة المفضلة[1]

تمتلك بعض الزوجات جاريات قد يتم شراؤهن لهن قبل الزواج ، ولا يمكن أن تكون هؤلاء الجاريات خليلات للزوج دون إذن سيّدتهن التي قد تسمح لهن بذلك (كما حصل مع هاجر جارية سارة) وإن في حالات نادرة . وغالباً ما تمنع الزوجة جاريتها من الظهور سافرة الوجه بحضور الزوج . فإن حصل وأصبحت هذه الجارية خليلة لزوجة ـ دون إذن سيّدتها ـ وحملت منه ، يكون المولود عبداً إلاّ إنْ تمّ ـ قبل ولادته ـ بيع أمّه إلى أبيه أو قُدّمت له هدية .

يمتلك معظم الأغنياء من الأتراك الجاريات البيض . وأمّا الخليلات ـ الجاريات في منازل المصريين المنتمين إلى الطبقة الميسورة والمتوسطة فهن حبشيات على وجه العموم ذوات سحنة داكنة أو برونزية ، وتُظهر سماتهن كما لونهن أنهن عرق وسطي بين الزنوج والبيض . والفرق بينهم وبين هذه الأعراق كبير جداً وهنَّ أنفسهن مقتنعات أنهن لا يختلفن عن السكان البيض إلاّ اختلافاً بسيطاً ، فلا يمكن بالتالي إقناعهن بالعمل كخادمات وتقديم الطاعة المطلقة لزوجات أسيادهن. وشعور الجارية السوداء مشابه لشعور الجارية الحبشية ولكنّها لا تمانع قط في خدمة السيدات البيض . والجدير ذكره أن الجاريات الحبشيات لا ينتمين إلى البلد المنسوب إليهنّ - أيّ بلاد الحبشة ـ بل إلى أراضي « الجلاّس » المجاورة ومعظمهن بهيات الطلعة . يتراوح السعر المتوسطي للحبشية بين عشرة وخمسة عشر جنيهاً استرلينياً إن كانت متوسطة الجمال ؛ وهذا هو في الواقع نصف المبلغ الذي كان يدفع للواحدة منهن منذ سنوات . ويقدّر المصريون المنغمسون في الشهوات هؤلاء الحبشيات أعظم

---

(١) تعتبر أحلى نساء الرجل أو أحلى جارياته معشوقته المفضلة عامة ؛ بيد أن هذه القاعدة لا تنسحب على الجميع ؛ إذ ليس ضرورياً أن تكون المعشوقة الدائمة أجمل واحدة منهن . وحب الرجل المسلم ليس حبّاً شهوانياً حسياً فحسب ، وكذلك لا تتوقف راحة زوجته أو زوجاته كثيراً على نزواته أو على جاذبيتها ومفاتنها بقدر ما تتوقف على مكانتها وطريقة تصرّفاتها

تقدير ويفضلونهن على سواهن . لكن بنية هؤلاء ضعيفة وكثيرات منهن توافيهن المنيّة في هذه البلاد بسبب إصابتهن بداء السل . وأمّا سعر الجارية البيضاء فثلاث مرات وحتى عشر مرّات أكثر من سعر الحبشية ؛ وأمّا سعر السوداء (الزنجية) فنحو نصف سعر الجارية البيضاء أو ثلثه أو أكثر إن كانت تجيد فن طهو الطعام بينما تعمل الجارية السوداء كخادمة وضيعة .

يدخل معظم العبيد والجاريات دين الإسلام لكن معلوماتهم بسيطة بالنسبة إلى عقائد دينهم الجديد ومذاهبه . والملاحظ أن السواد المعظم من الجاريات البيض اللواتي التقيتهن في مصر خلال زيارتي السابقة لهذه البلاد كنَّ من اليونانيات . ولقد وقعت أعداد هائلة منهن السيئات الحظ في أسر الجيش التركي والمصري بقيادة إبراهيم باشا كما أرسلت طوابير بهمة - ذكوراً وإناثاً - وحتّى أطفالاً - بالكاد يستطيعون السير - إلى مصر ليتم بيعهم . وحديثاً خف الطلب على الجاريات البيض بسبب هبوط ثروات الطبقات الغنية في هذه البلاد . وأمّا القليلات منهن اللواتي خضعن لتنشئة تحضيرية (من موسيقى وغيرها في القسطنطينية) فيتم إحضارهن من بلاد القفقاس وجيورجيا . والجاريات البيض هنّ غالباً المرافقات الوحيدات لكبار الأتراك وأحياناً زوجاتهم ؛ وهم يفضّلونهن على نساء مصر الأحرار ويتمتّعن بمرتبة أعلى من هؤلاء الأخيرات بين العامة . فهن يرتدين ثياباً فاخرة ويتزينّ بأغلى المجوهرات فينغمسن في كل وسائل الترفيه المتوفرة لهن . وقد يشعرن بالسعادة في بعض الحالات إن لم يقع الاختيار عليهن ليسهرن على راحة الآخرين . فلقد تبيّن منذ انتهاء الحرب في اليونان أن العديد من نساء تلك البلاد وهن حبيسات الحريم رفضن إعطاءهن حريتهن ؛ ولا يعود رفضهن إلى جهلهن ما آل إليه أهلهن وأقرباؤهن أو مخافة مواجهتهن الفقر . ورغم أن بعضهنَّ سعيدات دون أدنى شك - وإن لفترة قصيرة - فعددهنّ صغير ؛ ومن واجب معظمهن السهر على رفيقات لهن سجينات يلقين حظوة أكبر أو على راحة الهوانم التركيات أو هنّ مجبرات على احتمال مداعبات رجل خرف غني أو آخر أنهك انغماسه في الشهوات قواه العقلية والجسدية . وعندما يتعب سيّدهن أو سيّدتهن منهن ، يُطرحن للبيع من جديد (إن لم يحمَلْن) أو يتم إعتاقهن وتزويجهن من شخص يحيا حياة

متواضعة لا يستطيع أن يؤمن لهن الحياة الرغيدة التي اعتدن عليها . والملاحظ أن الجاريات يرتحن في منازل الطبقة المتوسطة في مصر أكثر منه في حريم الأغنياء . فهنّ سواء حظين بوضع الخليلات فلا منافسات لهن يقضضن عليهن مضاجعهن ، أو كنّ مجرّد خادمات وضيعات فخدماتهن في الحالتين ضئيلة والقيود عليهن أقل . وإن قامت في الواقع علاقة حميمة بين الجارية البيضاء وسيدها ، فوضعها كخليلة له أفضل بكثير من وضع الزوجة ؛ فالزوج قد يعمد إلى تطليق زوجته في سورة غضبه تطليقاً لا رجوع عنه ، وقد تعرف الزوجة بنتيجة ذلك حالة فقر وبؤس في الوقت الذي لا يصرف السيد جاريته إلاّ في حالات نادرة جداً ؛ وهو إن فعل فهو غير مضطر لإعالتها والنهوض بأعبائها مباشرة ؛ فالخليلة إن كانت اعتادت حياة الترف فلا تعاني كثيراً بفعل هذا التغيير بل ان سيدها يقوم بإعتاقها ويقدّم لها مهراً معيناً ويعمد إلى تزويجها بشخص طيب السمعة أو تقديمها إلى أحد أصدقائه . ولقد سبق وذكرت أن السيد لا يمكنه أن يبيع جارية حملت منه أو أن يهبها إن هو اعترف ببنوة الطفل ، فتصبح تلك الجارية مخوّلة لتنال حريتها عند مماته . ويحدث أحياناً أن يعتق السيد جاريته بعد ولادة الطفل مباشرة ويتزوجها لتصبح بذلك زوجة سيدها . ولا يمكنها عندما تنال حرّيتها أن تحل محل الزوجة إلاّ إن تزوّجها
ويعتبر بعضهم أنّه لعمل مخزٍ أن يبيع جارية ظلت في خدمته فترة طويلة . ويعامل « الجلّاب » (وهم تجار الرقيق) من منطقتي الصعيد والنوبة معظم الجاريات الحبشيات والزنجيات معاملة سيئة بعد أن يجلبهنّ من بلادهن . . وكذلك يقسو « الجلّاب » على الأطفال خاصة الحبشيين منهم ممّا يدفع ببعضهم أحياناً إلى إغراق نفسه في النيل خلال رحلته . وتلقى الأنثى الجارية عند كل الطبقات معاملة أفضل وتجعل في مرتبة أعز من العبد في العمر نفسه . وأمّا الذين لم يصبهم مرض الجدري فيتم بيعهم بثمن أقل من الآخرين . ويحق للشاري فترة ثلاثة أيام كتجربة يبقي خلالها الفتاة التي اشتراها عنده أو في حريم صديق له ترفع بعدها النساء تقريرهن إليه . ويكفي أن تكون الفتاة تغط في نومها أو تصرّ بأسنانها أو تهذي خلال نومها حتى يعيدها شاريها إلى البائع . ونشير إلى أن زي الجارية مشابه لزي المرأة المصرية . وأمّا الخادمات المصريات ـ نساءاً وفتيات ـ فيعهد إليهن بالأعمال

الوضيعة . فهن يغضضن الطرف بحضور أسيادهن ويسدلن جزءاً من حجابهن على وجوههن فلا يظهرن إلاّ عيناً واحدة يـزون من خلالهـا ويداً واحـدة يعملن بها . وتستقبل الخادمة ـ مغطاة الوجه عادة ـ ضيوف السيد من الرجال في حجرة الحريم (وتوضع النساء بهذه المناسبة في حجرة أخرى) .

ننتقل نقلة سريعة إلى عادات الطبقات الاجتماعية المختلفة وأعمالها بعد عرض الظروف الملازمة لهـا . يمكن للزوجة ـ كمـا الجاريـة ـ أن تنعم بتناول الطعام مع سيد العائلة ولكن يطلب منها السهر على راحته وهو يأكل أو يـدخن غليونه أو يحتسي قهوته في حجرات الحريم . فتخدمه الـزوجة وكـأنها خـادمة وضيعة ، تملأ له الغليون وتحضر له القهوة وتعدّ له أطايب الطعام والحق يُقال ـ من خلال تجربتي الشخصية ـ إن معظم الزوجات المصريات طباخات ماهرات فما من طبق أكلته وكانت زوجة مضيفي قد أعدّته بنفسها إلاّ وجدته لذيذ المذاق حلوه . وتحاول زوجات رجال الطبقتين المتوسطة والغنية بشتى الوسائل إرضاء أزواجهن ويهزهن دون كلل أو ملل ـ فيعمدن إلى إظهـار مفاتنهن والتغنـدر في مشيتهن عنـد خروجهن فيلفتن إليهن الأنـظار بهزة خصـرهن . وأمّا في حضـرة الزوج الكريم فيتحفّظن في الغندرة . لذا ، تراهن سعيدات مسرورات إن لم يتردّد الـزوج كثيراً إلى المنـزل خلال النهـار ويرحن في غيـابه يـطلقن العنان لمـرحهن الصاخب .

أمّا نظام المرأة الغذائي فمشابه لنظام الرجل ولكنّه اقتصـادي أكثر علمـاً أن طـريقتهمـا لا تختلف في تنـاول الـطعـام ويسمـح للكثيـرات بـالتمتـع بلذة التـدخيـن ، إذ لا تعتبر عادة التدخين عادة مستهجنة وغير لائقة للمرأة مهما علت مرتبتها كما أنّ رائحة التبغ المستعمل في مصر زكية طيبة . والفرق أن بيبـات النسـاء أكثر رفعـاً ودقة من بيبـات الـرجـال وأكثـر زخـرفـة ، وفتحـاتهـا مـرصّعـة بالمرجان بدلاً من الكهرمان . وهن يتمرّسن عادة بـالأطايب كـالمسك والـزّباد وأدوات التجميل إضافة إلى تركيبات عديدة يشربنها أو يأكلنها بهدف الحصول على قوام ريّان . ومن هذه التركيبات واحدة تثير الاشمئزاز في النفس مؤلفة من

الخنفساء المهروسة . ومن عادة بعضهن مضغ اللبان واللّاذن ممّا يضفي رائحة زكية على النفس ؛ وكذلك تزيد عادة الوضوء المتكرر من نظافتهن فلا يقضين وقتاً طويلاً يتبرّجن ونادراً ما يغيّرن ثيابهن خلال النهار بعد أن يرتدينها صباحاً ويعقصن ضفائرهن وهنّ في الحمام فلا يفككنها إلاّ بعد أيّام .

تولي سيدات مصر العناية القصوى بأولادهن ويشرفن على الأعمال المنزلية في الوقت الذي يكون الزوج مسؤولاً عن النفقات المادية . ويمضين ساعات فراغهن في أشغال الإبرة خاصة تطريز المناديل وأغطية الرأس بواسطة « المَنْسِج » ذات الألوان الحريرية والذهبية . وتملأ المصريات حقائبهن بمناديل مطرّزة ويصطحبن « الدّلالة » في الأسواق وداخل الحريم لبيع أشغالهن اليدوية . وتقضي النساء نهاراً بكامله ينتقلن من حريم إلى آخر . ومن وسائل تسليتهن الأكل والتدخين واحتساء القهوة والشربات والقيل والقال وعرض لباسهن وحلاهن المبهرجة . ولا يسمح في هذه المناسبة لسيد المنزل قط بدخول الحريم إلاّ إذا دعت الضرورة لذلك وعليه في هذه الحالة التنبيه بقدومه حتى يكون للزائرات متّسع من الوقت لتغطية وجوههن أو الإنسحاب إلى غرفة مجاورة . وهكذا بعد أن تطمئن نفوسهن إلى عدم دخول سيّدهن المباغت وبعيداً عن التحفظات في مسلكهن ، ينغمسن في المسرّات والمباهج ويمرحن مرح الشباب . وعندما تفرغ جعبتهن من المواضيع العادية ، تبادر إحداهن إلى تسلية الباقيات فتخبرهن قصة طريفة عجيبة ولا تتقن النساء المصريّات فنّ الموسيقى أو الرقص إلاّ قليلاً ولكنّهن يستسغن أداء الموسيقيين المحترفين والراقصات ويسلّين أنفسهن وضيوفهن - بغياب مؤدّين أفضل وآلات أحسن - فيضربن على « الدّربوكة » (نوع من الطبل) و « الطارة » وإن نادراً في مثل هذه المنازل التي تمكّن المارة من سماع صخب الاحتفال وتغني « العَوالم » (مفردها عالمة) في الاحتفالات الكبرى التي تُقام بين النساء (كالإحتفال بولادة صبي أو بختنه أو بزفاف) ؛ وهنّ لا يغنين لتسلية النساء فحسب في المناسبات العامة بين العائلات المحترمة لأنّ ذلك يعتبر عملاً يخرج عن إطار الحشمة واللياقة وأمّا « الغازيات » (مفردها غازية وهن الراقصات



الشعبيات) اللواتي يظهرن في الشارع سافرات الوجه فلا يستقبلن عامة داخل الحريم . وترقص الغازيات أمام المنزل أو في الباحة رغم أن الكثيرين لا يعتبرون هذا الرقص لائقاً مهذّباً . وكذلك « الآلاتي » (وهو العازف على الآلة) فمهمته الترفيه عن الرجال وإطرابهم ولا دخل له بالترويح عن نفوس السيدات ؛ فتراه يعزف في مجالس الرجال فتطرب لسماعه نزيلات الحريم .



سيدة مصرية على ظهر حمارها

تتنقل نساء الطبقتين المتوسطة والغنية عند خروجهن لزيارة أو لأي غرض آخر على ظهور الحمير فيجلسن منفرجات الساقين فوق سرج عال جداً وعريض مغطى بسجادة صغيرة . ويقوم رجل بجر الحمار عند كل جهة منه أو عند جهة واحدة . وتخرج عادة نساء الحريم مع بعضهن البعض على ظهور هذه الدواب الواحدة وراء الأخرى . ومنظرهن ملفت للنظر وهنّ متربعات فوق السرج . ويبدين للناظر إليهن وهنّ مرتفعات فوق « الحمار العالي » إنهن غير مرتحات في قعدتهن . فالحقيقة أنّ الحمار ثابت السّرج والقدم ويسير بخطى بطيئة لا صعوبة فيها . وتتنقل سيدات الطبقة المتوسطة والغنية على مثل هذه الحمير المجهزة وقلّما تراهن ممتطيات الأحصنة أو راكبات البغال . ويتم عادة استئجار الحمير . وعندما لا تستطيع المرأة استئجار مثل هذا « الحمار العالي » تتنقل بواسطة الحمير المجهزة للرجال وتفرش لها « سجّادة » فوق سرج الحمار . وتحذو حذوها نساء الطبقة المتوسطة . ولا تمشي النساء مطلقاً من الخارج إلاّ إن اضطرتهم الظروف للخروج إلى مكان قريب ؛ فيمشين في الشارع مشية متثاقلة فيجررن أقدامهن بسبب صعوبة تثبيت الحذاء في أرجلهن ويرفعن دائماً في مشيتهن الحافة الأمامية لخبرتهن وهنّ إنْ في مشيتهن أو في سيرهن ينظر إليهن العامة نظرة احترام وتبجيل ، فلا ترمقهنّ نظرات رجل أصيل النسب بل يشيح بعيونه في اتجاه آخر . ولا تراهن قط خارج منازلهن ليلاً إلاّ إذا اضطررن للخروج والعودة في حالات الضرورة القصوى . ومن عاداتهن العودة إلى الحريم قبل هبوط الليل بعد زيارة يقمن بها . ولا تخرج نساء الطبقة الغنية قط إلى المتاجر لشراء حاجياتهن بل يرسلن في طلب ما يحتجن إليه . وتكثر الدلاّلات اللواتي يسمح لهن بدخول الحريم فيحملن معهن كل أنواع الزينة والحلى لبيعها ؛ كما لا تذهب هؤلاء السيدات عامة إلى الحمام الشعبي إلاّ إذا دُعين لمرافقة بعض صديقاتهن فهنّ يمتلكن في معظمهن حمامات خاصة في بيوتهن .

الفصل السابع

الحياة المنزلية - تابع

نتناول في هذا الفصل الحياة المنزلية للطبقات الدّنيا . وحياة أبنائها غاية في البساطة قد لا تسترعي إنتباهنا كثيراً بالمقارنة مع حياة الطبقتين المتوسطة والغنية التي تحدّثنا عنها في فصول سابقة .

تتألف الطبقات الدنيا في مصر باستثناء نسبة ضئيلة تقيم في المدن الواسعة من الفلاحين خاصة ويعمل السواد الأعظم من أبناء تلك الطبقات في المدن . والقليلون يعملون في المدن الأصغر وبعض القرى تجاراً أو حرفيين أو يكسبون عيشهم بعملهم كخدم . ويبقى دخلهم في كل هذه الحالات محدوداً جداً يكاد لا يكفيهم لتأمين الحد الأدنى من متطلبات العيش الرخيصة لعائلاتهم .

أمّا غذاؤهم فيقتصر على الخبز (المصنوع من الدُّخن والذّرة) والحليب والجبن الطازج والبيض والسمك المملّح والخيار والبطيخ الأصفر والقرع على أنواعه إضافة إلى البصل والكُرّاث والفاصوليا والحمص والباذنجان الأسود والعدس . . . والبلح الطازج والمجفّف) إضافة إلى المخلّلات . ويأكلون معظم الخضار وهي فجة . وعندما تنضج الذرة (أو الحنطة الهندية) تقريباً ، يبدأ الفلاحون بقطف الأكواز منها وتحميصها أو طبخها قبل أن يأكلوها وأمّا الأرز فغالٍ جدّاً ليكون طعاماً شائعاً للفلاحين واللحم نادراً ما يعرفون طعمه . ووسيلة ترف الفلاحين الوحيدة تكمن في تدخين التبغ الرخيص في بلادهم بعد

تجفيفه وتقطيعه . ويكون هذا النوع من التبغ باهت اللون ضارب إلى الخضرة عند تجفيفه وذات نكهة غير حادة . ورغم رخص ثمن أنواع الطعام هذه ، فالعديد من الفقراء لا يجدون شيئاً لتتبيل خبزهم القاسي سوى « الدّكة » وهي خليط وصفته في فصل سابق . ومن المفارقات التي تلفت انتباهنا بساطة طعام الفلاح المصري بالمقارنة مع قوة بنيته وسلامة صحته وقساوة عمله

لا تبقى نساء الطبقات الدنيا ساكنات طوال نهارهن . فهن يكدحن كما أزواجهن وتُلقى عليهن أعباء ثقيلة كتحضير طعام الزوج وجلب الماء (إذ يحملن وعاء الماء الكبير على رؤوسهن) وغزل القطن أو الصوف إضافة إلى صنع « الجِلَّة » من روث الماشية المجبول مع القش المقطّع والتي تجعل بعد ذلك على شكل كتلات متراصة مسطّحة مستديرة ، ثم تُثبَّت هذه الكتلات فوق الجدران أو سقوف منازل الفلاحين أو تُفرش أرضاً حتى تجف تحت أشعة الشمس لتستعمل بعد ذلك في تسخين الفرن أو لأغراض أخرى .

تعيش نساء الفلاحين عيشة خنوع لأزواجهن أكثر بكثير من نساء الطبقات الأعلى ؛ فلا يسمح لهؤلاء الفقيرات المسكينات دائماً بتناول الطعام مع أزواجهن . وإذا خرجت الواحدة منهن من المنزل برفقته ، فهي تسير عادة خلفه . وواجب عليها حمل الأغراض أيّاً كانت اللّهم إلاّ إن كان هذا الغرض مقتصراً على البيبة أو العصا . كذلك تتولّى بعض النساء في المناطق أعمال المتاجر وبيع الخبز والخضار فيساهمن قدر مساهمة أزواجهن بل وأكثر في إعالة عائلاتهن . وإذا ما رغب رجل مصري فقير في الزواج ، ينحصر همّه الأول في جمع المهر الذي يتراوح ما بين عشرين ريالاً أو أربعة أضعافه ، والمهر يقتصر على المال فحسب . وقد يكون هذا المبلغ أقل كما هي الحال في القسم الأكبر من المناطق المصرية حيث لا يزيد المهر عن مجموعة من الثياب . وإن استطاع للمهر سبيلاً فلا يتأخر عن دفعه والزواج بالتالي . فإذا ضاعف جهده يصبح بمقدوره إعالة زوجة وولدين أو ثلاثة ولمّا يبلغ الطفل سن الخامسة أو السادسة من عمره يكون اعتاد على القطيع والماشية ويساعد هؤلاء الأطفال



اطفال يبعدون العصافير عن الحبوب

حتى يبلغون سن الزواج آباءهم في الزرع ومختلف أعمال الفلاحة . ويعتمد الفقراء في مصر اعتماداً كلياً على أبنائهم لإعالتهم في شيخوختهم . وقد يُحرم هؤلاء الشيوخ من مساعدات أبنائهم فيصل بهم الأمر إلى حد التسول أو التضوّر جوعاً . ومنذ شهور قليلة كان الباشا يقوم برحلة من الإسكندرية إلى القاهرة حيث يقطن فصادف أن توقّف في إحدى القرى الواقعة على ضفاف النيل فركض في اتجاهه أحد الفقراء المساكين فأمسك بطرف ثوب الباشا بشدة لدرجة لم يستطع معها المساعدون المحيطون بالباشا إبعاده . وشكا الفقير حالته للباشا فهو كان ميسور الحال في الماضي ولكنّه وقع في الفقر المدقع والإملاق بسبب فرض الجنديّة على أولاده عندما تقدّم به العمر . وسمع الباشا قصته (وهو يعير الإلتماسات الشخصية آذاناً صاغية) فأفرج عنه همّه وكربه وأمر أن يعطيه أغنى رجل في القرية بقرة يعتاش منها .

تشكّل العائلة الغنيّة حملاً ثقيلاً أحياناً على الأهل الفقراء . فلا عجب أن تعمد أمّهات الأطفال أو النساء اللواتي يعملن في خدمة الآباء إلى بيعهم علناً . ولكن ذلك لا يحدث إلاّ في حالة العوز الشديد . وأمّا الأب الذي تموت زوجته وتترك له طفلاً رضيعاً وكان هو نفسه أو غيره من الأقارب في حالة فقر لا تسمح له بتأمين مرضعة، فيتصرف بالطفل على طريقته الخاصة ويتركه أحياناً عند باب الجامع خاصة ظهر نهار الجمعة عند اجتماع حشد المصلين لأداء الصلاة . ويحدث أن يعثر مصَلٍّ من المصلّين عند خروجه من الجامع على طفل لقيط لا حول له ولا قوة فتتملّكه الشفقة فيحمله إلى بيته ويربّيه أحسن تربية على أساس أنه طفل تبنّاه وليس عبداً يمتلكه ، وإلاّ يظل يرعاه حتى يعثر على أب وأم مناسبين يتبنّياه. ولقد قامت إحدى السيدات منذ فترة قصيرة ببيع طفل ادّعت بأنّها وجدته على باب أحد الجوامع لإحدى ربّات البيوت ـ وتربطها صداقة بإحدى السيدات من معارفي ـ ولم يكن هذا المولود قد تجاوز الأيّام من عمره . وقرّرت هذه السيدة أن تأخذ الطفل وتربيه حسنة لوجه الله آملة أن يكافئها الله فيحفظ لها ولدها الوحيد مقابل هذه الحسنة . وأعطت المرأة التي حملت الطفل إليها مبلغ عشرة قروش ولكن المرأة رفضت هذا المبلغ . وهذه القصة أبلغ

مثال على أنّ الأطفال يُجعَلون أحياناً موضع بيع وشراء. فقد يجعل بعض الذين يشترون الأطفال هؤلاء عبيداً لهم أو قد يعمدون إلى بيعهم من جديد . وأعلمني مؤخراً أحد المتاجرين بالرقيق ـ وقد أكّد لي أقواله آخرون ـ أنّه يتم أحياناً بيع الفتيات المصريات اليانعات كجاريات في بلدان أخرى إمّا عن طريق أحد الأهل أو أحد المعارف . وقد ألمح لي تاجر الرقيق هذا أنّ العديد من الفتيات يُحملن إليه ليتمّ بيعهن وبرضاهن الشخصي . ولقد فُرشت لهنّ الدروب وروداً وأثواباً جميلة فاخرة ونعماً وترفاً وتعلّمن القول إنهنّ حُملن من بلدانهن ولمّا يتجاوزن الثالثة أو الرابعة من عمرهن بعد وإنهن بالتالي يجهلن لغتهن الأم فلا يستطعن التحدث إلاّ بالعربية .

يحدث أن يعمي المال بصيرة فلاح في حالة الفقر الشديد فيجعل ابنه في حالة أسوأ بكثير من حالة الإسترقاق العادية . إذ يعمد شيخ القرية عند طلب بعض المجندين للخدمة إلى تطبيق خطة لا تكلفه جهداً كبيراً في الحصول على مثل هؤلاء المجندين . وتقضي الخطة بأن يأخذ شيخ القرية أبناء الأشخاص الملاكين في القرية . وبدلاً من أن يتخلّى الأب عن ابنه ، يعرض عامة على أحدَ أكثر أبناء قريته فقراً مبلغاً من المال يساوي قيمة جنيه استرلينياً واحداً أو جنيهين فيقدّم الفلاح أحد أولاده ليحل محل ولد الغني فينجح الشيخ في خطته مع أن حب الإنجاب شعور قوي يطغى بين المصريين كما العاطفة الأبوية ؛ ويصاب معظم الأهل بهلع كبير من مجرد فكرة الإبتعاد عن أبنائهم خاصة إن هم أخذوا للتجنيد والدليل على ذلك ما يقومون به لتلافي أمر التجنيد . ونادراً ما تقع عينك اليوم ونحن في عام ١٨٣٤ في أي من القرى على شاب قوي البنية سليم أو آخر لم تُكسر له سن أو سنين أو يقطع له إصبع أو تقلع له عين أو أصيب بالعمى التام وكلّ ذلك حتّى لا يؤخذ للتجنيد .

وتتولّى العجائز وأخريات غيرهن مهمّة التشويه ، فتجوب القرى لإتمام هذه العمليات على الصبية . وقد يتولاّها الأهل أنفسهم ودوافعهم محض عاطفية حتى لا يُحرم الأطفال من طفولتهم

لا يمكن تصوير فلاّحي مصر بأفضل صورة نظراً لحالتهم الإجتماعية والمنزلية وتقاليدهم. وهم يشبهون البدو من أسلافهم في أسوأ صفاتهم دون أن يطبعوا مع ذلك بطبائع أهل الصحراء وفضائلهم كثيراً كما تؤثر العادات التي ورثوها عن أجدادهم تأثيراً مميتاً على حياتهم المنزلية .

ذكرتُ في مقطع سالف من الكتاب أن الفلاحين المتحدّرين من قبائل عربية متعدّدة سكنوا مصر في مراحل مختلفة وأنّ التمايز بين سكان القرى في هذه البلاد ما يزال الصفة الغالبة على هذه القبائل . وبمرور الأيام والسنين إنقسم المتحدرون من كل قبيلة من المستوطنين إلى فروع أصغر ثانوية أعطت أسماءها المتميزة للقرى والمناطق التي عاش فيها سكان القبيلة .

أمّا الذين أقاموا في مصر منذ فترة أطول فلا يحتفظون بكثير من عادات أهل البدو بل انتهكوا نقاوة عرقهم فتزاوجوا مع الأقباط المهتدين إلى الإسلام المتحدرين منهم لذا تراهم منبوذين غالب الأحيان من جانب القبائل التي سكنت هذه البلاد ، فيطلقون عليهم إزدراءاً إسم « الفلاحين » في الوقت الذي يعرّفون أنفسهم بالعرب أو « البدو » . ويستطيع هؤلاء « العرب » أن يتزوجوا - متى شاؤوا - بنات « الفلاحين » بينما لا يسمحون بالمقابل لبناتهم بالزواج بهم فإن قتل أحدهم شخصاً من قبيلة أدنى يقتلون شخصين أو ثلاثة أو حتى أربعة أشخاص مقابله ليثأروا لدمه ، ولقد تحدّثت سابقاً عن قانون ثأر الدم بين سكان القرى . إذ يقتل القاتل أو أي شخص متحدر من سلالته أو سلالة جدّه الأكبر على يد أحد أقرباء المغدور به وغالباً ما تنشب حرب صغيرة بين قبيلتيهما قد تطول أو تتجدّد كلّ ردح من الزمن وقد تدوم سنوات طويلة كما قد تنشب الحرب بين الجانبين في حال جرح أحد أفراد القبيلة الأولى أحد أفراد القبيلة الثانية جرحاً بسيطاً كما قد يؤخذ الثأر بعد مرور قرن أو ما يزيد على ارتكاب الذنب الذي أدى إلى الأخذ بالثأر . فتطفو الأحقاد والضغائن من جديد بعد أن كنّا ظنناها خبت جذوتها وأنطفأت . ومن القبائل المعروفة بحفظ الضغائن في الصدور قبيلتا « سعد » و « حرام » في منطقة الدلتا ويُطلق اسما هاتين

القبيلتين على كلّ شخصين أو فريقين يناصبان بعضهما العداء . ومن المدهش أن يكون مسموحاً في أيامنا هذه بمثل هذه العدائيات والأعمال (التي إن ارتكبت في مدينة أو بلدة مصرية لكان عقاب مرتكبها الموت ولربّما شمل هـذا العقاب أكثر من شخص). ولقد تحدثت في الفصـل السـابق عن بعض الخصـائص المتعلقة بالثأر وعواقبه . والقرآن سمح بالثأر ولكن الإعتدال والحق واجبان عند تنفيذه . وكذلك الحروب التي تنشب في أيّامنا تتعارض وقول الـرسول ﷺ في أحد أحاديثه : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار » .

يشبه فلاّحو مصر البدو في نقاط عديدة . فإن تبيّن أنّ الفلاحة غير مخلصة لزوجها ، يعمد هذا الزوج العزيز أو أخوها إلى إغراقها في نهر النيـل ، فيربط حجراً إلى رقبتها أو يقـطّعها إربـاً إرباً ويلقي أشـلاءها في النهـر . وفي معظم الحالات يعاقب الوالد أو الأخ ابنته غير المتـزوجة - أو أختـه - التي ثبت عليها الفسق والفجور بالطريقة عينها فهم يعتبرون مثل هذه العلاقات مشينة أكثر من جريمة قتل الزوج لزوجته وينبذون الإبنة إن لم يعاقبوها .

الفصل الثامن

أعراف المجتمع الشائعة

تساعد الطريقة التي يتبعها المسلمون في ميدان التجارة كثيراً على اتساع دائرة معارفهم مع أشخاص من مراتب مختلفة علماً أن حرية اتصال المصري المسلم بالرجال أمثاله يشجعها كثيراً قانون فصل الجنسين ، كما يساعده هذا القانون على الإختلاط بالآخرين بغض النظر عن فوارق الغنى والمراتب ودون الخوف من حدوث ارتباطات زواج غير سوية . والنساء بدورهنّ ـ كما الرجال ـ يوطّدن عرى الصداقة مع بنات جنسهن .

يتسم سلوك المسلمين عادة بالإحترام الشديد والنظامية الدقيقة في مسلكهم الإجتماعي وعاداتهم رغم تساهلهم إلى أبعد الحدود في تصرّفاتهم الشخصية وحريتهم التامة في أحاديثهم وترتكز معظم أعرافهم الشائعة على تعاليم دينهم وهي تميّزهم في مجتمعهم عن سائر أفراده الآخرين . ومن بين عاداتهم المعروفة عادة السلام ؛ إذ يقول الواحد منهم للآخر عندما يلتقيه : « السلام عليكم » فيجيبه من يتلقّى هذه التحية : « وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته » ولا يلقي المسلم هذه التحية على أمرىء من غير دينه والعكس صحيح وسلام المسلم على المسلم واجب . وإن أغفل السلام فليس ذلك بإثم ؛ وإعادة السلام أمر إلزامي . فالسلام من « السُّنن » وأمّا ردّه « ففرض » . وإن حدث وسلّم المسلم على من ليس من دينه فعلى هذا الأخير عدم ردّ السلام ، وإن تدارك المسلم خطأه هذا يسحب عادة سلامه ؛ والأمر ينطبق على المسلم الذي يرفض ردّ سلام مسلم آخر ، فما على المسلم الذي ألقى السلام

إلّا أن يقول : « السلام علينا وعلى أتقياء الله الصالحين » وأمّا قواعد السلام الرئيسية كما أمر بها الرسول ﷺ وكما يتبعها المسلمون اليوم فهي كالتـالي : يلقي الشخص على الدابة السـلام أوّلاً على الشخص السائـر على قـدميـه ، وبـدوره يسلمّ الشخص المار على الأشخاص الجالسين الواقفين ويتوجّب كذلك على المجموعة الصغيرة أو على واحد منهـا إلقاء السّـلام على المسّنين . فكما من واجب المجموعة إلقاء السلام فمن واجب المجمـوعة الأخـرى الرّد على هـذا السلام . والزامي كذلك على المسلم إلقاء السلام عند دخوله أحد المنازل على أهل الدار وعند خروجه . ولا بد من السلام قبل بدء الكلام ولكن لهذه القواعد الأساسية بعض الإستثناءات . فليس ضرورياً مثلاً في المدن المكتظة ـ وهـذا شبه مستحيل ـ التسليم على العديد من الذين يمرّ بهم ؛ وليس لزاماً عليه إلقاء السلام وهو مـارّ في الطريق على المـارة وهم كثر . والعـادة الشائعـة أن يعمد الـرجل الميسـورة حالتـه أو المتهندم المتـأنق أو أحد الشيـوخ الجليلين أو أي شخص آخـر رفيع المقـام عالي المـركز إلى إلقـاء السـلام على الشخص ذي المكانة الرفيعة أو رجل الغنى والعلم وإن في شارع مزدحم بالمارة . وكذلك من العادات الشائعة بين الناس المهذبين في إلقائهم السـلام وردّهم عليه وضع يدهم اليمنى فوق صدورهم وقت إلقائهم السلام أو مـلامسة شفاههم ثم جبهتهم أو عمامتهم باليد نفسها. وتعـرف هذه الحـركة «بـالتيمينة» وتكـون «التيمينة» ـ وهي أكثر الطرق إجلالاً واحتراماً ـ موجّهة لصاحب المقام العالي ليس خلال السلام فحسب بل خلال التحادث ، ولا يُلقى السلام في هذه الحالة .

لا يؤدي الشخص المنتمي إلى الطبقات الدنيا السلام دائماً عند دنوه من شخص ذي مقام رفيع خاصة إن كان هذا الأخير تركيـاً ويكتفي « بالتيمينـه » . وهو يظهر احترامه لمثل هذا الرجل عن طريق إحناء يده أرضاً وجعلها على فمه ثم جبهته دون أن ينطق لسانه بالسّلام وكذلك جرت العادة أن يقبّل الرجل يد صاحب المقام (ويقبّل عادة ظهر اليد وأحياناً ظاهرهـا وباطنهـا) ثم يضع يـده على جبهته كدليل احترام خاص . ولا يسمح صاحب المقام بمثل هذا التصرف فيعمد إلى لمس اليد التي تمدّ نحوه فيرفع الأوّل يده إلى فمه وجبهته . ولا يتردّد

المحتاج قط في تقبيل قدم صاحب المقام بدلاً من يده في خضوع مذل لاستسماح ذنب أو للتوسط لشخص آخر أو توسّل مساعدة . وكذلك يقبّل الإبن يد والده والزوجة يد زوجها والعبد ـ وغالباً الخادم الحرّ ـ يد معلّمه . ومن عادة العبيد والخدم تقبيل ردن رداء سيّدهم أو أو القسم السفلي من هذا الرداء .

وعند تسليم صديقين على بعضهما البعض يجمعان اليد اليمنى ويقبّل كل واحد منهما يده الخاصة أو يرفعها إلى شفتيه وجبهته أو إلى جبهته وحدها وقد يجعلها على صدره بكل بساطه دون تقبيلها ويقبّل واحدهما الآخر بعد غياب طويل وفي بعض المناسبات ، فينكب الواحد على عنق الآخر فيقبّله على الجهة اليمنى لوجهه أو رقبته ثمّ يقبّل الجانب الأيسر من الوجه أو الرقبة وهناك طريقة سلام أخرى شائعة جداً بين أبناء الطبقات الدنيا : فعندما يلتقي صديقان أو قريبان بعد رحلة يسلّمان على بعضهما بأن يضّما اليد اليمنى فيهنىء كل واحد منهما الآخر على سلامته ويعبّر له عن عن أمانيه بالخير والصحة فيردّد على مسمعه كلمات مثل : « سَلامات » و « طيّبين » . ويضم المصريون في بداية عملية التسليم التي تستمر نحو الدقيقة قبل انتقالهم إلى الإستفسارات الشخصية أيديهم كما نحن مجمع الأوروبين . ويبدّلون موضع اليدين عند كل تغيير للعبارتين اللتين ذكرتهما وعند تكرار العبارة الثانية يقلب الواحد منهما أصابعه فوق إبهام يد الثاني . وتتكرّر العملية السابقة عند تكرار الكلمة الأولى ثانية .

يتبع السّلام العادي في المجتمع الرفيع المهذّب الكثير من عبارات التسليم الرسمية والتهاني ولكلّ من هذه التعابير جوابه الخاص ، أو قد تستعمل صيغ إجابات مختلفة؛ وكلّ إجابة لا يضمّها قاموس الأعراف دليل جهل أو هي من الكلام السوقي فإن سأل صديق صديقه عن صحّته : « كيف صحّتك » ؟ (إزاي صحّتك ؟) يجيبه هذا الصديق « الحمد الله » فيعرف الصديق السائل من نبرة صوت صديقه إن كان بصحة جيدة أو سيئة . وإذا ردّ الصديق بعبارة : « طيّبين » يأتيه الجواب المعتاد : « الله يباركك » أو « الله يحفظك » . وعندما يلتقي صديق أو قريب صديقاً لم يره منذ سنوات طويلة ، يبادره بالقول بعد السلام « خضّيتنا عليك يا رجل وشغلت بالنا » فيجيبه

الصديق : « ربنا ما يشغلّك بال » . وتتعدّد تعابير الترحيب والتهاني في المجتمع المصري لدرجة لا تكفي معها صفحات هذا الكتاب لذكرها .

وعندما يحضر شخص لزيارة صديق له لمجرّد الزيارة أو لهدف آخر تراه لا يدخل مطلقاً على حين غرّة ، فذلك يحرّمه القرآن خاصّة إذا كان الزائر يريد الصعود إلى الطابق العلوي - يرفع صوته حتى يُسمح له بالدخول أو ليعلن عن قدومه . وإن لم يجد أحداً في الطابق السفلي يطرق الباب بيده أو ينتظر في الباحة حتى ينزل الخادم إليه أو يُسمح له بالجلوس في حجرة مستقلة أو بالصعود إلى غرفة علوية . فلمّا يدخل الغرفة حيث يجلس سيد المنزل يبادره بالسلام ؛ فيردّ سيد المنزل السلام بأحسن منه مرحّباً بالضيف بكل مودة ولباقة وهو يهبّ واقفاً عادة لمن هم أعلى منه مركزاً أو لأنداده . وأمّا الأشخاص الذين هم أعلى منه مرتبة بسيطة فيستقبلهم في الباحة أو بين الباحة والغرفة أو عند مدخل الغرفة أو في وسطها أو يترجل خطوة واحدة من المكان الذي يجلس فيه . وإذا كان الضيف أحد أنداده يقوم بحركة اندفاعية بسيطة كما لو أنّه سينهض، وأمّا إذا كان الضيف أدنى مستوى فلا يحرك ساكناً . ويخصّص سيد المنزل ركناً في الديوان - وهو المكان الأكثر تشريفاً وتكريماً - لمن هم أعلى منه وأحياناً لأنداده ، وبالتحديد الزاوية الواقعة إلى يمين الشخص والمواجهة « لصدر » الغرفة ، وأمّا باقي المقعد الممتد فهو أكثر تشريفاً من المقاعد الممتدة في موازاة « الأَجْنَاب » (مفردها جَنَب). ولا يجلس زوّار المضيف ذوو المراتب الأدنى أبداً في الطرف العلوي إلاّ إذا دعاهم السيد إلى ذلك ؛ وغالباً ما يرفض الضيف هذه الدعوة المشرّفة في الجلوس . ويرتاح أنداد السيد في مجلسهم متربعين أو تراهم يرفعون رجلاً واحدة ويتكئون على المساند بينما يجلس من هم أدنى مرتبة (في الأوّل على الأقل) على أعقابهم أو يتخذون لأنفسهم مكاناً عند حافة الديوان . وإن كانت مرتبتهم أدنى بكثير من مرتبة السيد فيجلسون من تلقاء أنفسهم على الحصير أو السجادة . ولا يظهر الزائر يديه حفاظاً على آداب الشكليات والرسميات عند دخوله الغرفة أو عند جلوسه ويغطيهما بردن ثوبه . كما لا يمدّ رجليه عند جلوسه في الديوان ولا

يسمح لنفسه بظهورهما . ويتبع الزائر مثل هذه الشكليات في بيوت الكبار وذوي المراتب الرفيعة . وتسمع بعد إلقاء السلام العديد من كلمات الإطراء والتسليم الرسمية منها خاصة « طيّبين » و« إيش حالكم » اللّتين يكرّرهما مرات عديدة في اللقاء ذاته .

يحضر أحياناً خادم الزائر الخاص بيبة هذا الأخير الخاصّة . فيخرج الزائر كيس تبغه من صدره ويعطيه للخادم الذي يأخذ القليل منه ثم يعيد الكيس بعد ملء البيبة إلى مكانه أو ينتظر حتى ينهي زيارته . وقد يحمل خادم المضيف بيبة إلى الزائر وأخرى لسيده . ويعد البيبة موعد مع القهوة الطيبة لكل الجالسين « فالتبغ بلا قهوة - كما تقول العرب - كاللحم بلا ملح » . ولمّا يأخذ الضيف البيبة والقهوة ، يقوم بتحية سيد المنزل بالتيمينة فيردّها هذا الأخير بأحسن منها . والتحية نفسها عند إعادة الفنجان إلى الخادم . ويحيّي سيد المنزل ضيفه بالطريقة عينها إن كان الزائر غير ذي مرتبة أدنى بكثير عند تناوله فنجان القهوة وإرجاعه . ولا يغادر الخادم الغرفة طوال فترة الزيارة ، ويجلس في الطرف السفلي للغرفة بطريقة تنم عن احترام كبير ضامّا يديه الإثنتين (اليمنى فوق اليسرى) فوق منطقة الحزام . وإذا أراد السيد طلب الخادم أو أي مساعد آخر غير حاضر فما عليه سوى التصفيق ضارباً راحة يده اليسرى بأصابع اليد اليمنى ولمّا كانت النوافذ شعرية فيرجع صدى هذا التصفيق في أرجاء المنزل . وتدور الأحاديث عامة عن أخبار اليوم وحالة التجارة وأسعار السلع ، وأحياناً يتطرّق المتحدّثون إلى مواضيع الدين والعلم والقصص الطريفة الظريفة . ويعمد الكثيرون في المجتمعات الرفيعة إلى سرد الفضائح وضرب الأمثال ذات النوع البذيء ، ونادراً ما يتطرقون إلى أخبار حريمهم . ولا يتقيد مع ذلك الأصدقاء المقرّبون والحميمون بقواعد التهذيب فيتناولون هذه المواضيع بأسلوب منافٍ للذوق والكياسة أحياناً وأمّا لبقو الحديث فيسألون عن « بيوت » بعضهم البعض للإطمئنان على صحة زوجاتهم وعائلاتهم . وتدوم الزيارات غالب الأحيان ساعات عديدة (خاصة زيارات الحريم) وقد تستغرق يوماً كاملاً تقريباً . وتملأ خلال الزيارة البيبات أو تستبدَل بغيرها عند الضرورة .

ويستمر الزائر في تدخينه بيبته طوال وقت الزيارة ؛ وقد يرتشف القهوة أو يشرب الشربات أكثر من مرة . ويسمع الشخص كلمات الإثناء والإطراء نفسها بعد شرب كوب شربات أو جرعة ماء ويردّ عليها بأحسن منها .

تنتشر بين الأغنياء عادة رش الضيف قبل نهوضه للرحيل بماء الورد أو بماء الزهر وتعطيره بطيب زكي إلاّ أن هذه العادة بدأت تختفي منذ سنوات. و «القمقم» فضي برّاق أو نحاسي أو صيني خزفي أو زجاجي وله غطاء مثقوب صغير . وكذلك « المبخرة » فمصنوعة كما القمقم . وأمّا الوعاء المخصص للفحم المشتعل فمطلي أو محشو في نصفه جصّاً ومثقوب الغطاء لإطلاق الدخان . والمبخرة متروكة لآخر الزيارة ويحملها الخادم أو الزائر أو سيد المنزل الذي ينفخ الدخان في وجهه ولحيته بيده اليمنى . وكذلك تكون مفتوحة لإطلاق الدّخان براحة أكبر . وأمّا مواد التبخير فتشمل خشب الألوة أو اللبان الجاوي (الأَصْطُرَك) أو قشر العنبر (كينا عطرية) ويتم تخضيب الخشب فوق الفحم المشتعل وأمّا العنبر فيقتصر استعماله على منازل الأغنياء والميسورين لغلاء ثمنه . وبعد أن يتمرّس الزائر بالطيب يغادر المنزل ويستأذن قبل الإنصراف فيلقي « السّلام » ويُحَيًّا بمثله إضافة إلى عبارات أخرى من التحيات والتمنيات لها أجوبتها المعروفة . وإن كان الزائر أرفع مرتبة من سيد المنزل فلا يكتفي هذا الأخير بالنهوض من مجلسه بل يرافقه حتى مطلع الدرج أو باب الغرفة ثم يتركه بأمان الله .

ومن عادة الشخص الزائر بعد الإنتهاء من زيارة إحتفالية وفي بعض المناسبات الأخرى إعطاء الخادم أو الخدم عند مغادرته هدية صغيرة (قرشين أو ثلاثة قروش أو أكثر حسب الظروف) . وإن كان الزائر قد ربط قبل دخوله حصانه أو بغله أو حماره خارجاً أو في الباحة فيخرج معه أحد الخدم ليرتب له رداءه عند امتطائه الدابة . وينتظر هذا الخادم الفضولي هدية بالمقابل . وعلى سيد المنزل في هذه الحالة أن يحذو حذو زائره عندما يقوم بردّ زيارته .

يرسل الأصدقاء الهدايا لبعضهم البعض التزاماً منهم بالعادات والأعراف

الشائعة . وعند احتفال أحدهم بمناسبة خاصة يتلّقى الهدايا من معظم أصدقائه . وتقضي الأعراف بأن يرد هدية مشابهة أو تحمل القيمة ذاتها لمن وهبه هدية وفي مناسبة مماثلة ؛ ومن واجب متلقي الهدية أن يعبّر لمقدّم الهدية عن أمله في أن يتمكّن من ردّ هذه المبادرة الحلوة بالمثل . والإقرار المصحوب بمثل هذا التلميح إلى إيفاء واجب الهدية وردّها ـ وهذا ما قد يعتبره الأوروبي الكريم أمراً مزعجاً ـ إنّما ينّم في مصر عن فائق التهذيب واللباقة . تكون الهدية ملفوفة عادة بمنديل مطرّز تتّم إعادته إلى حامله إضافة إلى هدية مالية بسيطة . ومن الهدايا المعروفة في المجتمع المصري وضع الفاكهة فوق أوراق الشجر وكذلك الحلويات فوق طبق أو صينية وتغطيتها بمنديل . وغالباً ما يقدّم أحدهم هدية لمن هو أعلى منه مرتبة ممنيّاً النفس في الحصول على هدية بالمقابل أكثر قيمة ؛ وكذلك يقدّم الخادم هدية لسيده الذي نادراً ما يرفضها وهو يردّها مالاً على الفور ليجاوز قيمتها . وهذا ما يحفز العربي على تقديم هدية للأوروبي وكذلك فإنّ عادة إعطاء المال لخدم أحد الأصدقاء بعد الإنتهاء من زيارته عادة غير شائعة اليوم كثيراً كما كانت لسنوات ، بيد أن العديد من الأشخاص ما يزالون يعطون المال في مناسبات احتفالية مختلفة خاصّة في العيدين (الصغير والكبير) . ويعتبر رفض الهدية إهانة كبيرة تلحق الخزي والعار بحاملها .

يعرف المجتمع المصري عادات رسمية لا تقتصر على الزيارات الإحتفالية أو مرافقة الغرباء أو انعقاد اللقاءات بين الأصدقاء فحسب بل وتشمل أيضاً اللقاءات العادية لمعارف العائلة . فإذا عطس أحدهم يقول : « الحمد لله » فيجيبه الحاضرون (ويستثنى الخدم عادة) : « اللّه يرحمك » فيرد العاطس : « اللّه يهدينا ويهديكم » . أو يعيد كلمات الإطراء بأخرى من زبدة الكلام عينه . وإذا تثاءب جعل ظاهر يده اليسرى على فمه قائلاً : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . ولا يسمع على تثاؤبه كلمات إطراء أو ثناء لأنّ التثاؤب عادة ينبغي تجنبها ، فهم يعتقدون أنّ من عادة إبليس الوثوب إلى داخل فم مفتوح . ومن الأفضل في مثل هذا الخرق لقواعد السلوك الحسن إستغفار الله بدلاً من إستسماح عذر الموجودين بأن يقول : « استغفر الله العظيم » . ويسمع

المرء كلمات إطراء خاصّة لها ردودها الخاصّة كلّما فرغ من حلاقة وجهه أو كان متوجهاً للإستحمام أو عند انتهائه من الوضوء وقبل أدائه الصلاة وعند تأديته لصلواته أو قيامه بعمل يستحق عليه جزاءاً حسناً أو لمّا ينهض من نومه أو يبتاع له غرضاً أو يضع رداءاً جديداً

ومن الموجبات على المسلم تفضيل يده اليمنى على اليسرى وتقديم قدمه اليمنى على اليسرى واستعمال يده اليمنى لأغراض مشرّفة ويده اليسرى للأعمال غير النظيفة ـ وإن ضرورية ـ وكذلك انتعال حذائه الأيمن أو انتزاعه قبل حذائه الأيسر وتقديم قدمه اليمنى أوّلاً عند وطوئها عتبة الباب .

يتميّز المصريون بذمائتهم ولباقتهم مع بعضهم البعض ويتجلّى حسن تصرفهم في طريقة إلقائهم السلام وفي تصرّفاتهم العامة المتّسمة بسهولة كبيرة في أسلوب حديثهم مع الآخرين وهم لا يتكلفونها بل هي مترسخة في طبيعتهم ؛ ونشهد مثل هذه اللياقة والكياسة في الحديث في أوساط الفلاحين . ويتباهى أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية من ساكني المدن برفع تهذيبهم ولباقة تصرّفاتهم وظرفهم وفكاهتهم وطلاقة لسانهم . وهم غير مقيّدين مطلقاً في جديثهم بالمقارنة مع سكان الأرياف الكيّسين البارعين . فعذوبة المعاشرة ميزة هامة في نفوس المصريين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية . ويسهل على الغريب الولوج في الحديث وحتى عند دخوله أحد المتاجر بعد تبادله السلام مع أهل هذه البلاد ؛ فلا تكلف أو تصنّع في الحديث ويشعر أنّه على معرفة قديمة بهم وقد يقدّم أحدهم بيته لآخر لا يبة لديه . وليس بالأمر الغريب أن يتبادل الأشخاص الذين يلتقون للمرة الأولى أسماء بعضهم البعض ويستفسرون عن المهنة ونوع التجارة ومكان الإقامة . وقد تتوطد صداقات في مثل هذه المناسبات تدوم طويلاً ولا يلقي أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية عادة الكلام على عواهنه ؛ فنادراً ما تسمع أحدهم يوجّه كلاماً جارحاً لصديق من أصدقائه ولا يجسر أحد على التهكم على الدين الصادق الحنيف . ولا يلتزم مع ذلك معظم المصريين على اختلاف طبقاتهم الإجتماعية بالقواعد الصارمة في أحاديثهم ؛ وهم مولعون بالمزاح والدعابة ومفعمون بالحياة والحركة . ولا

يضجون أو يصخبون في مرحهم أو يقهقهون بصوت عالٍ بل يكتفون بابتسامة تفترّ عنها ثغورهم أو ترتسم على وجوههم أمارات التعجب في تعبيرهم عن فرجهم ومرحهم

الفصل التاسع

اللغة/الأدب/العلوم

اشتهرت القاهرة منذ قرون طويلة بأنّها مهد المدارس الأدبية والعربية ومنارة الفقه الإسلامي والإجتهادات . والواقع أن التعليم تراجعت نسبته بين العرب عامة بيد أن انحدار الثقافة وتقهقرها لم يكن له بالغ الأثر في القاهرة . وبالتالي فلا منازع لشهرة أساتذة القاهرة. وما يزال جامع الأزهر جامع الدراسات الكبير يستقطب عدداً لا يحصى من الطلاب أتوا يطلبون العلم فيه من كل بقاع العالم العربي .

وأمّا اللهجة العربية التي يتكلّمها أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية في القاهرة فأدنى مستوى عامة من حيث الدقة اللغوية واللفظية بالمقارنة مع لهجات أهل البداوة في شبه الجزيرة العربية وسكان المناطق الواقعة في محيطهم . ولكن لهجة أهل مصر محبّبة إلى النفوس أكثر بكثير من لهجات أهل سوريا وعرب شمالي إفريقيا . وأهم الخصائص المميزة للهجة الشعب المصري هي التالية :

يلفظ سكان القاهرة والسواد الأعظم من سكان مصر الحرف الخامس من الأبجدية العربية ـ حرف الجيم ـ مثل حرف g في الأبجدية الإنكليزية كما في لفظة give، بينما يلفظ معظم سكان شبه الجزيرة العربية وسوريا وبلدان أخرى « الجيم » كما هي دون تحريف كما في لفظة joy بالإنكليزية . وتجدر الملاحظة أن قسماً من سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية الذين ـ كما يقال ـ

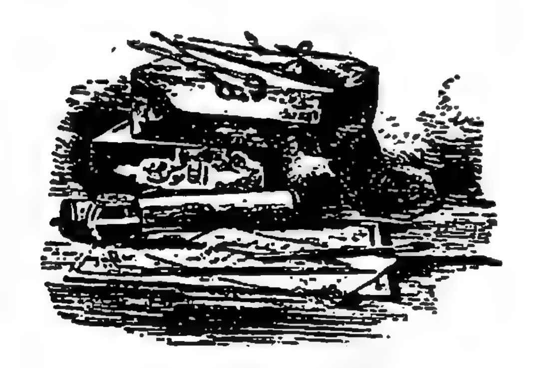
أوّل الناطقين باللغة العربية يلفظون الجيم كما المصريين . وأمّا في المناطق حيث يلفظ الحرف الخامس (الجيم) على هذا النحو ، فيقوّى لفظ الحرف الحادي والعشرين (القاف)« بالهمزة » إلاّ في حلقات المتعلمين والمثقفين الذين يعطون هذه اللفظة لفظها الصوتي الصحيح كما حرف K بالإنكليزية ؛ ونجد في المقابل أن لفظ الحرف الخامس في المناطق المصرية الأخرى يشابه لفظ « J » في كلمة joy بينما يلفظ الحرف الحادي والعشرين كحرف g في كلمة give . ويلفظ كل المصريين الحرفين الثالث والرابع ـ أي التاء والثاء ـ من الأبجدية كما كل الناطقين باللغة العربية تقريباً ويقابلهما حرف « t » بالإنكليزية ؛ ويقابل الحرفين الثامن والتاسع من الأبجدية ـ أي الداء والذّاء ـ حرف « d » في الأبجدية الإنكليزية . وتستوقفنا في تركيبة اللهجة المصرية عملية إلحاق حرف « الشين » عند نفي الجملة ، كما كلمة Pas الدالة على النفي في اللغة الفرنسية كأن يقول المصري : « ما يرضاش » بدلاً من « ما يرضا » أو « ما هوش طيب » واللفظ الشائع « مش طيب » بدلاً من « ما هُوَّا طيب » . ونلاحظ كذلك إضافة اسم الإشارة بعد الكلمة التي يرتبط بها اسم الإشارة هذا كما في « البيت ده » وكذلك الاستعمال غير الضروري والمتكرّر لصيغة التصغير في النعوت كـ « الصُغَيَّر » تعبيراً عن « الصَغِير » و « القُرَيِّب » عن « القَرِيب » .

لا فرق كبير في الواقع بين اللهجة الأدبية وتلك الدارجة في اللغة العربية كما تصوّر ذلك بعض المستشرقين الأوروبيين ويمكن مقارنة اللغة المصرية الدارجة باللهجة القديمة المبسّطة خاصّة عن طريق حذف الصوتيات الأخيرة واللّاحقات (كلّ ما يضاف إلى آخر الكلمات) التي تميّز حالات الأسماء المختلفة وبعض الأفعال بحد ذاتها . وكذلك ما من فرق كبير بين اللهجات في البلدان العربية المختلفة كما تصور ذلك بعض الأشخاص الذين لم يتخالطوا مع سكان هذه البلدان فعلى العكس ، تتشابه هذه اللهجات أكثر بكثير من لهجات المناطق الإنكليزية المختلفة . وتزخر اللغة بالمرادفات : فقد تطالعنا مثلاً مجموعة كلمات هي مرادفات ، تختلف طريقة استعمالها من بلد إلى

آخر . فالمصريون يأخذون مثلاً كلمة « لبن » في معنى الحليب . بينما يستعمل السوريون كلمة « حليب » ويشيرون بكلمة « لبن » إلى نوع خاص من الحليب الرائب . وكذلك يستخدم المصريون كلمة « عيش » للدّلالة على « الخبز » كما في البلدان العربية الأخرى وهلّماً جرًّا . ويتّسم لفظ أهل مصر بالعذوبة والانسياق أكثر من لفظ أهل سوريا ومعظم الدول الأخرى الناطقة باللغة العربية . وأدب العرب واسع شامل ، بيد أن عدد مؤلفاتهم أكثر لفتاً للنظر من تنوعها . إذ تقدر نسبة مؤلفاتهم التي تعالج أمور الدين والإجتهاد بنحو الربع ، تليها المؤلفات المتعلقة بالقواعد والبلاغة والفيلولوجيا بأقسامها المتنوعة وتعقبها في الدرجة الثالثة كتب التاريخ (خاصة تاريخ الأمة العربية) وكتب الجغرافيا وأخيراً المؤلفات الشعرية . وأمّا مؤلفات الطب والكيمياء والحساب والجبر وغيرها من العلوم فقليلة بالمقارنة مع باقي المؤلفات الأخرى .

تزخر القاهرة بالمكتبات الكبيرة ومعظمها مرتبط بالجوامع . وتشمل هذه المكتبات مؤلفات حول الفقه والإجتهاد والفيلولوجيا . ويملك العديد من أغنياء التجار وغيرهم مكتبات جيدة . وعلمتُ أن بائعي الكتب في القاهرة لا يزيد عددهم عن الثمانية ومحلاّتهم مكدّسة بالكتب بطريقة غير مرتّبة . وما إن يصبح كتاب قيّم في حوذة أحد هؤلاء الباعة حتى ينتقل به بين زبائنه المعتادين ويكون على تمام الثقة في ايجاد الشاري المناسب . ونادراً ما تكون صفحات الكتب مخاطة ببعضها البعض . وهي تجعل عادة في غلاف موثوق بقطعة جلد وغالباً ما تكون مغلّقة بالورق المقوّى والجلد ؛ وقد توضع خمس أوراق مضاعفة فوق بعضها فتشكّل ما يُعرَف «بالكُراس» . وتُجمع هذه الأوراق في رُزَم صغيرة دون خياطتها فيتسنّى تداول الكتاب بين عدد من الأشخاص في الوقت نفسه فيأخذ كل واحد منهم كرّاساً وتتخذ الكتب شكلاً مسطحاً ، الكتاب فوق الكتاب ويدوّن الإسم على واجهة الغلاف الخارجي أو على حافة الأوراق . والورق سميك مصقول ؛ فهو يستورد بمعظمه من البندقية ويتم صقله في مصر . وأمّا الحبر فكثيف صمغي يستعمل المصريون بدلاً من الأقلام أعواد القصب التي تناسب كتابة الحرب العربي أكثر . وعند المباشرة بالكتابة ، يثبت

العربي الورق على ركبتيه أو على راحة يده اليسرى أو يجعله فوق « المِسْنَدَة » المؤلفة من مجموعة عشر أوراق أو أكثر مشدودة في زواياها الأربع فتشابه كتاباً رقيق الحجم . ويجعل الكاتب المسندة فوق ركبتيه ويعمد إلى وضع الحبر والأقلام في « الدَّواية » وتحدّثت عنها في الفصل الأول من الكتاب إضافة إلى سكين القلم و « المِقَطّع » (آداة عاجية) حيث يُسنَّن القلم . ويُسطر الكاتب الورقة فيجعل تحتها قطعة من الورق المقوّى مع خيوط مشدودة ومغرّاة (وتُعرف بالمِسْطَرة) فيضغط الورق على كل خيط . والمقصّ أيضاً في أدوات الكاتب وهو يستخدمه في قصّ الورق وتقطيعه . فمن غير اللائق ترك حافة الورقة ممزّقة . كما يكسب العديد من الأشخاص في القاهرة عيشهم بنسخ المخطوطات . وتبلغ تكاليف نسخ كرّاس واحد من عشرين صفحة من قطع الرّبع بمعدّل خمسة وعشرين سطراً في الصفحة الواحدة بخط عادي نحو ثلاثة قروش تقريباً . ويرتفع المبلغ إن كان الخط أنيقاً جميلاً ويبلغ الضعف عند تشكيل النص .

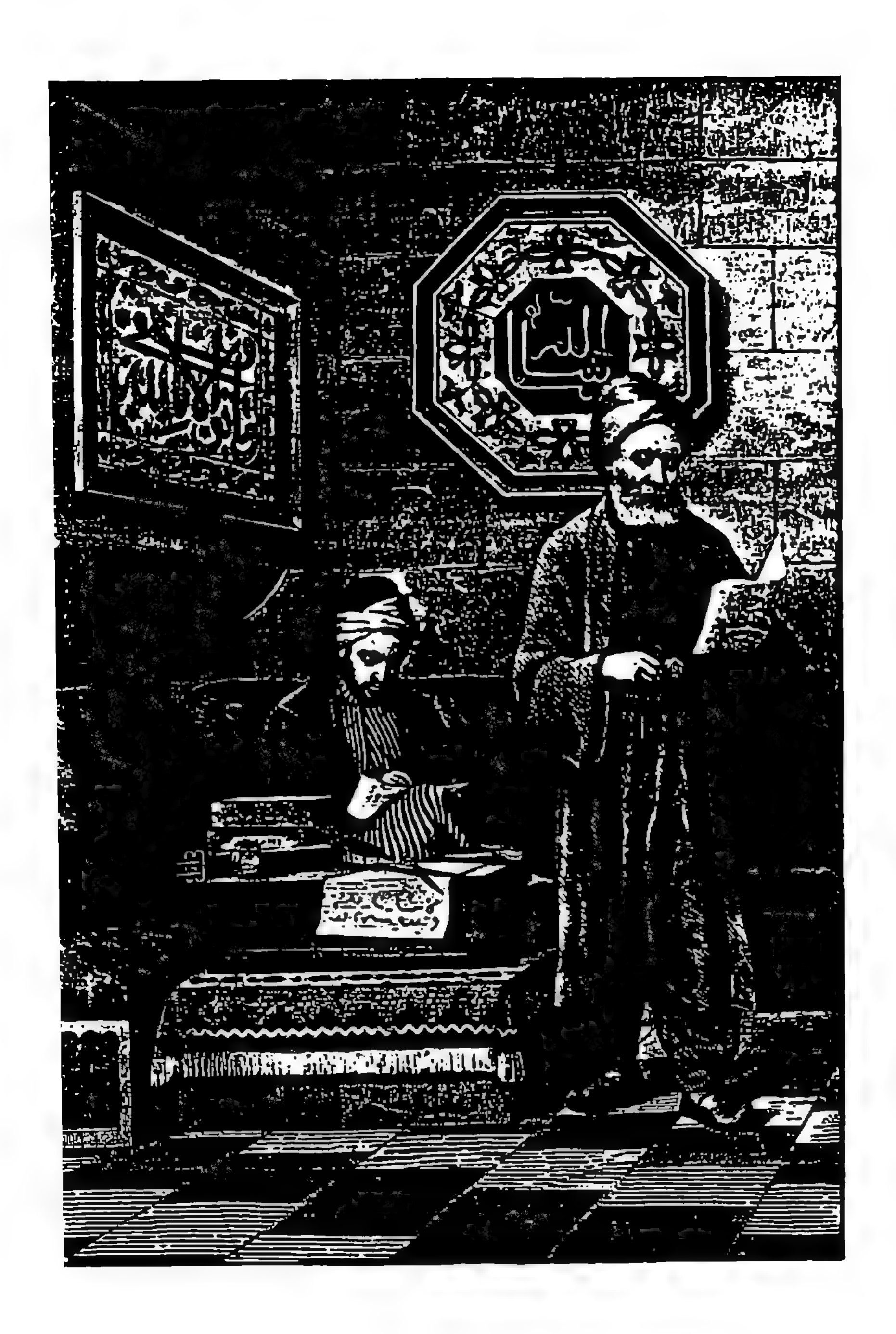


أدوات الكتابة

يتابع معظم الشبان أو الرجال ـ خاصة في العاصمة المصرية ـ الراغبين في تكريس أنفسهم للعمل الديني أو لأي من المهن الفكرية دراساتهم العليا في جامع الأزهر الكبير علماً أنهم لم يكونوا تعلّموا قبل ذلك أكثر من القراءة أو الكتابة وتلاوة القرآن .

والأزهر الذي يعتبر الجامعة الرئيسية في الشرق ومنارة الإسلام عبارة عن مبنى ضخم تحيط به باحة مربّعة واسعة. ويقع في إحدى زوايا هذه الباحة الموجّهة نحو مكّة رواق فسيح حيث مكان الصلاة الرئيسي . وأمّا الزوايا الثلاث الأخرى فعبارة عن « أروقة » صغيرة مقسّمة إلى حجرات مختلفة . ويخصّص كلّ رواق لمواطني بلد معيّن أو منطقة خاصة في مصر.

ويقع هذا البناء في العاصمة ؛ وهو لا يلفت النظر في ناحية هندسته كما أنّه محاط بالعديد من المنازل ، فلا يمكن رؤية إلا القليل من الخارج . ويُعرَف طلبة الأزهر « بالمُجَاوِرين ». وتخصص مكتبة في كل رواق لطلبته ، فينهل هؤلاء العلم من الكتب الموجودة داخل المكتبة ومحاضرات الأساتذة . تشمل مواضيع الدراسة : علم الصرف والإعراب والبلاغة ونظم الشعر وعلم المنطق والفقه ودراسة القرآن والأحاديث النبوية الشريفة وعلم الإجتهاد كاملاً في أحكام دينية وأدبية ومدنية وجنائية قائمة على القرآن والأحاديث إضافة إلى علم الحساب الذي يساعد أحياناً في مسائل الشريعة . وتُلقى كذلك محاضرات في علم الجبر والتقويم الهجري ومواقيت الصلاة . ويقرأ الطلاب في المذاهب الأربعة مختلف أنواع الكتب . وتجدر الإشارة إلى أن معظم الطلبة من أبناء القاهرة ينتمون إلى المذهب الشافعي ويكون الشيخ أو رئيس الجامع دائماً من الشافعية . ولا يدفع الطلبة مالاً مقابل التعليم الذي يتلقونه وهم ينتمون بأكثريتهم إلى الطبقات الدّنيا . كذلك يحصل معظم الطلبة الغرباء الذين لهم أروقتهم الخاصة بهم على حصّتهم اليومية من الطعام تؤمنها لهم الأموال المجموعة بصورة رئيسية من إيجار البيوت المخصص لإعالتهم . ويتلقى سكان القاهرة وجوارها إعانات مشابهة ولكنّهم لا يتمتّعون اليوم بمثل هذه الإعانات إلاّ خلال شهر رمضان لأنّ باشا مصر الحالي وضع يده على كل الأراضي المزروعة التي تمتلكها الجوامع ففقد جامع الأزهر الكبير بذلك الجزء الأكبر من ممتلكاته تكتفي الحكومة بتغطية نفقات التصليحات الضرورية ودفع رواتب الموظفين الأساسيين فيه ولا يتلقى الأساتذة رواتب محدّدة ؛ وليس لهؤلاء وسيلة انتظامية يؤمنون بها عيشهم إلاّ في حال ورثوا ملكاً أو كان لهم أقرباء يعيلونهم ؛



ناسخ عربي

ووسيلة كسب رزقهم الوحيدة هي التدريس في المنازل الخاصة أو نسخ الكتب . وقد يتلقون الهدايا أحياناً من الأغنياء . ويمكن لأي شخص ضالع أن يصبح أستاذاً بحصوله على إذن خاص من شيخ الجامع . يكسب معظم الطلاب رزقهم كما الأساتذة أو بتلاوتهم القرآن في المنازل الخاصة وفي المدافن أو الأماكن الأخرى . وإذا برّز أحدهم في دراسته يصبح قاضياً أو مفتياً أو إماماً لأحد الجوامع أو معلّم مدرسة في قرية أو بلدة ما أو حتى في القاهرة . وأمّا الآخرون فيعملون في ميدان التجارة وقد يكرّس بعضهم الآخر حياته للدراسة في الأزهر طامحاً لبلوغ مصافي العلماء . ولكن عدد الطلاب الذين لا يخصص لهم رواق تقلّص بنسبة كبيرة منذ مصادرة الأراضي التابعة للأزهر . ويبلغ عدد الطلاب ـ حسب ما ذكره لي أحد الأساتذة ـ من مختلف الطبقات باستثناء المكفوفين نحو ألف وخمسماية طالب .

تخصص في الجامع زاوية خاصة للمكفوفين تُعرف « بزاوية العميان » متاخمة للزاوية الشرقية في الأزهر وهي إحدى الزوايا التابعة للجامع حيث يعيش حوالي ثلاثمائة فقير مكفوف تتم إعالتهم من الأموال الموهوبة لهذا الغرض . وتتّسم تصرّفات هؤلاء المكفوفين بالعنف والتمرد ويتميّزون بتعصبهم الأعمى وحدث أن دخل منذ فترة قصيرة أحد السائحين الأوروبيين جامع الأزهر وانتشر خبر وجوده فما كان من الرجل الأعمى إلاّ أن استفسر متلهفاً : « أين هو هذا الكافر ؟» وأردف « سنقتله ». وراح يتلمّس طريقه في آن معاً علّه يتحسّس وجود الأوروبي فيقبض عليه . وكان المكفوفون الوحيدون الذين أظهروا عنفاً في مسلكهم تجاه هذا الأوروبي الدخيل . وكان هؤلاء قبل وصول الباشا إلى الحكم يتصرّفون بطريقة عنيفة شائنة عندما يشعرون بأنّهم مضطهدون أو أنّ حصّتهم من الطعام لا تكفي ، فيعمدون في مثل هذه الحالات إلى اصطحاب بعض المرشدين ليدلّوهم على الطريق حاملين هراواتهم ، فينتزعون عمامات المارة في الشوارع وينهبون المتاجر . وأشهر أساتذة الأزهر الشيخ « الكُوَيسيني » الأعمى الذي عُيّن منذ سنوات شيخ زاوية العميان . وما كاد يستلم وظيفته حتى أمر بجلد كلّ العميان لكنّهم ثاروا عليه فربطوه وجلدوه جلدة

أشد قساوة من تلك التي انهال بها عليهم وأجبروه على اعتزال منصبه .

عرف التعليم في القاهرة حالة نهضة وازدهار قبل دخول الجيش الفرنسي منه في السنوات الأخيرة . وعانى التعليم كثيراً بسبب هذا الغزو وإن لم يكن عن طريق الإضطهاد المباشر بل نتيجة للهلع الذي زرعه هذا الحادث والمشاكل التي عقبته . وكان يمكن لشيخ درس في الأزهر قبل تلك الفترة أن يعيش في النعيم والترف إن عمد إلى تعليم صبيين هما ابنا فلاح معتدل الغنى. إذ كان هذان التلميذان يسهران على خدمته ينظفان له منزله ويعدّان له الطعام. وهما وإن يشاطرانه منزله يعملان كخادمين وضيعين له في كل الأوقات ما عدا وقت الطعام؛ فيتبعان شيخهما أينما يذهب ويحملان له حذاءه (ويقبلان الحذاء عندما ينتزعه الشيخ) عند دخوله الجامع فيبجّلانه كأنّه أمير من الأمراء . ويمكن تمييز الشيخ من ردائه الفضفاض وعمامته الرسمية الواسعة ـ « المُقْلَة ». وإذا مرَّ شيخنا الجليل في الشارع سيراً على الأقدام أم راكباً على بغله أو حماره ، يحثّ المارة خطاهم نحوه ملتمسين منه صلاة صغيرة عفوية لهم ؛ والذي ينجح في تحقيق أمنيته يعتبر أن البركات الحميدات حلّت عليه. وإن مرّ الشيخ بفرنجي ممتطياً دابته ، فمن واجب الفرنجي الترجل احتراماً وإن ذهب إلى الجزّار للحصول على شيء من اللحم ـ وهذا أفضل من إرسال نائب عنه ـ يرفض الجزار أخذ ثمن اللحم وينكبّ على يديه يقبّلهما ممنّياً النفس ببركة يغدقها عليه الشيخ المهيب . وكثيرون هم الذين يمتهنون اليوم مهنة الشيخ مما يجعل صعباً على واحدهم تأمين إعانة بسيطة إلّا إن كان يملك مواهب خارقة .

والعلماء المسلمون هم بالتأكيد مقيّدون أكثر في متابعة بعض طرائق التعليم التي يمليها عليهم دينهم . وتأتي المعتقدات الخرافية لتعالج نقطة عالقة ظلت موضع جدال لسنوات طويلة . وهناك طريقة فريدة لتسوية أي جدال حول أي موضوع في الإيمان والعلوم أو الواقعة وأورد على ذلك قصة أخبرني إيّاها إمام المفتي الراحل الشيخ المهدي وكنت دوّنتها باللغة العربية كما أملاها علي. كان الشيخ « محمد البهائي » (وهو رجل متعلم يعتبره الناس وليّاً من الأولياء أي من سكان الجنة المفضّلين) يستمع إلى موعظة يلقيها الشيخ الأمير

الكبير (وهو شيخ المالكية) عندما قرأ هذا المعلم من كتاب « الجامع الصغير » للسيوطي قولاً للرسول ﷺ [ما معناه]: «حقاً إنّ الحسن والحسين هما سيّدا شباب الجنة في الجنة». وأورد في معرض كلامه ملاحظة بعد إعطائه لمحة موجزة عن حياة الحسن والحسين أنّه حسب ما هو شائع بين سكان مصر (ويعني سكان القاهرة) فالقول بأنّ رأس الحسين موجود في « المشهد » المشهور في المدينة (أي جامع الحَسَنِين) لا أساس له ولا يرتكز إلى مرجع موثوق . وقال « البهائي » : « لقد تأثرت بالغ التأثر بهذه الملاحظة ، فأنا أؤمن كما يؤمن الناس الطيبون الصادقون أن الرأس الشريف كان في المشهد هذا . ولا أشك قط في ذلك بيد أنني لا أعارض الشيخ الأمير لما معروف عنه من شهرة كبيرة وطول باع في العلم والمعرفة . ولمّا انتهت المحاضرة ذهبت أدراجي أكفكف دمعي . ولمّا لفّ الليل المسكونة، نهضتُ أصلي متضرّعاً إلى المولى الكريم مسلّماً أمري إلى رسوله الأعظم ﷺ راجياً أن أراه في نومي فيطالعني وأنا في غفوتي بحقيقة أمر الرأس الشريف . فرأيت في نومي أنني كنت أمشي قاصداً مشهد الحسين المشهور في مصر ، واقتربت من القبّة فانبعث منها نور ملأها دخلتُ باب القبة ووجدت أحد الأشراف واقفاً على الباب . سلّمتُ عليه فردّ التحية قائلاً : « سلّم على رسول الله ﷺ ونظرت تجاه القبلة فوجدت الرسول ﷺ يجلس فوق عرش وعلى يمينه رجل وعلى يساره رجل آخر . فرفعت صوتي قائلاً : « تباركت يا رسول الله » وكررت كلامي مرّات عديدة سافكاً الدمع ، فسمعت رسول الله يقول لي « إقترب يا ابني يا محمد » . فأمسك بيدي الرجل الأول وقادني نحو رسول الله ﷺ وجعلني بين يديه النبيلتين. فسلّمت عليه فردّ علي السلام وقال لي « لقد جزاك الله خيراً لزيارتك رأس الحسين يا بني » . وسألته : « يا رسول الله ، هل رأس الحسين هنا؟ » فأجابني : « نعم إنّه هنا » . فاغتبطتُ وانقشع الحزن عن قلبي فعدتُ أقول لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله سأقص عليك ما أكده لي شيخي ومعلّمي الأمير في محاضرته » فرددت على مسمعه كلام الشيخ ؛ فأطرق رسول الله ﷺ رأسه ثم رفعه قائلاً : « الناسخون معذورون » . وهنا أفقتُ من نومي جذلاً مبتهجاً وشعرت

أن الليل طال فضقت ذرعاً توّاقاً إلى الشروق فأسرعُ إلى الشيخ أطلعه على حلمي ممنياً النفس بأن يصدّقني ولمّا انسلخ الليل من النهار صلّيتُ وتوجهت بعدها إلى منزل الشيخ ووجدتُ بابه موصداً . فطرقت عليه بعنف ، فأتى البواب محذّراً وسائلاً : « من هنا؟ » ولمّا عرفني ـ فهو يعرف مسكني من الشيخ ـ فتح لي الباب . فلو أن شخصاً آخر حضر لانهال علي ضرباً . دخلت باحة المنزل ورحتُ أناديه : « سيدي ، سيدي » . فاستفاق الشيخ وسأل : « من هنا! » فأجبته : « هذا أنا تلميذك ، محمد البهائي » . وكان الشيخ يضرب أخماساً بأسداس متسائلاً عن سببِ مجيئي في هذا الوقتِ وقال متعجّباً « الكمال لله وحده . ما الأمر؟ ما الخطب؟» معتقداً أن طامة كبرى وقعت بين الناس . ثم قال لي « إنتظر حتى أفرغ من صلاتي » . ولم أجلس حتى نزل الشيخ إلى البهو وقال لي « إنهض » . فنهضتُ ولم ألقِ عليه السلام أو اقبّل يده من وقع الحلم وأثره في نفسي فبادرته بالقول « إن رأس الحسين موجود في المشهد المعروف في مصر لا شك في ذلك » . فردّ الشيخ عليّ ما هو دليلك ؟ فإن كان ما قلته صحيحاً فأتني بالدليل » . فقلت له : « وأمّا من كتاب فلا » فسألني الشيخ « هل رأيت رؤية ما؟ » فأومأتُ إيجاباً وسردتُ له ما رأيت في نومي وكيف أن رسول الله ﷺ أخبرني بأن الرجل الذي كان واقفاً عند الباب كان « علي بن أبي طالب » (كرّم الله وجهه) ، والرجل على يمين الرسول بالقرب من العرش كان « أبا بكر » (رضي الله عنه) وأمّا الرجل على يساره « فعمر بن الخطّاب » (رضي الله عنه) ، وأنّهم أتوا ليزوروا رأس الإمام الحسين . وهبّ الشيخ واقفاً وأمسك بيدي وقال : « فلنذهب ونزور مشهد الحسين » . ولمّا دخل القبة قال : « السلام عليك يا ابن بنت رسول الله » أؤمن بأن الرأس الشريف هنا بسبب رؤية هذا الشخص ورؤية الرسول حقيقية فهو قال [ما معناه] « من يراني في نومه يراني حقيقة لأن إبليس لا يمكنه أن يتنحل شكلي » ثم قال لي الشيخ « أنت آمنت وأنا آمنت وهذه الأنوار ليست من نسخ الخيال » . وحديث الرسول ﷺ المذكور أدّى غالباً إلى بروز نقاط اختلاف أخرى سوّيت بالطريقة عينها ، بحلم . ولمّا كان الحالم شخصاً ذائع الصيت فلا أحد لم يجرؤ أحد على تفنيد كلامه .

أشير بالملاحظة التي أدرجتها في بداية هذا الفصل إلى وجود الكثير من الرجال المتعلمين في العاصمة المصرية اليوم وغيرهم في مناطق أخرى من هذه البلاد . ومن أشهر علماء القاهرة الحديثين الشيخ « حسن العطّار » شيخ الأزهر الحالي وهو ليس ضالعاً في أمور الفقه والإجتهاد كبعض معاصريه خاصة الشيخ « الكويسيني » ، ولكنّه مبرّز في الأدب الرفيع . فهو مؤلّف « الإنشاء » ـ عبارة عن مختارات رائعة من الرسائل العربية تشمل مواضيع مختلفة ، يُحتذى بها في كتابة الرسائل و« الإنشاء » من منشورات « بولاق » . ولا بد عند ذكري لهذا المؤلف من إيفائي وعداً قطعته له وهو أنّه في حال نشرت في بلادي كتاباً عن أهل القاهرة أن أورد اسمه في كتابي من بين معارفي فأثني على براعته . وأنّوه كذلك بالشيخ « شهاب » وهو شهاب علم حقاً وضليع مبّرز في اللغة العربية وآدابها وشاعر من الدرجة الأولى . وكان الشيخ « شهاب » حلو المعشر راجح العقل حصيفه . وكان يستقطب إلى داره كلّ مساء شلة من الأصدقاء الذين كنت أشاطرهم أحياناً لذّة الجلوس إليه وكان يستقبلنا في غرفة صغيرة مريحة جداً ، وكان كل واحد يجلب معه بيبة فيكتفي بتقديم القهوة إلينا . وحديث الشيخ « شهاب » ألذّ مأدبة يعدّها لنا ـ وفي القاهرة أشخاص آخرون مبرزون في الشعر والفيلولوجيا ـ منهم الشيخ « عبد الرحمن الجَبَرتي » مؤلف معاصر من مواليد القاهرة يستحق أن نذكره لوضعه مؤلّف رائع عن الأحداث التي شهدتها مصر منذ بداية القرن الثاني عشر للهجرة . ولقد وافته المنية عام ١٨٢٥ أو ١٨٢٦ بُعَيد أوّل زيارة لي للقاهرة . وتتحدّر عائلته من « الجَبَرت » (المعروفة أيضاً « بالزّيلع ») من أعمال الحبشة المتاخمة للمحيط . و« الجَبَرتيون » من المسلمين لهم رواقهم الخاص بهم في الأزهر الشريف وكذلك في مكة والمدينة .

لم تُفهم أعمال الشعراء العرب القُدامى فهماً تاماً (فالعديد من كلمات هذه المؤلفات غير شائعة الاستعمال) طوال قرنين أو ثلاثة إلاّ بعد زمن الرسول ﷺ ولا نستنتج من الفقرة السابقة أن الأشخاص القادرين على تفسير المقاطع الصعبة للأدباء العرب الأوّلين موجودون الآن في القاهرة أو سواها

ونجد مع ذلك في مصر العديد من المبرّزين في علم القواعد العربية والأدب الرفيع رغم أن العلوم الشائعة في هذه البلاد تقتصر على الفقه والإجتهاد . وقليلون هم العلماء في مصر المتعمّقون في دراسة تاريخ بلادهم والمطّلعون بدرجة أقل على تاريخ الشعوب الأخرى .

أمّا المؤهلات الأدبية للأشخاص الذين لا ينتمون إلى صُنّاع الأدب وممتهنيه فذات مستوى أدنى والعديد من التجار الأغنياء ضليعون في فنون القراءة والكتابة بيد أن القلة القليلة منهم تخصّص وقتاً أكبر للتحصيل الأدبي وأمّا الذين حفظوا بعض مقاطع من القرآن أو حفظوه كاملاً وكان بإمكانهم إلقاء قصيدتين أو ثلاث مشهورة أو أرفقوا حديثهم باستشهادات أتت في محلّها فهم « مبرّزون ضليعون » . وكثيرون هم التجار في القاهرة الذين لا يجيدون الكتابة أو القراءة أو أنّ بمقدورهم القراءة فقط فيضطرون للإستعانة بصديق يدّون لهم حساباتهم ورسائلهم ويدهشك مثل هؤلاء في جمعهم الأرقام والحسابات المعقّدة فكرياً وتستوقفك سرعتهم ودقة حساباتهم .

الاعتقاد السائد بين مسيحيي أوروبا أنّ المسلمين أعداء لكل فروع المعرفة . وهذه فكرة خاطئة ؛ والصحيح أن دراساتهم الحالية مقتصرة على معارف ضيقة الأفاق . وقلّما تجد مسلمين يدرسون الطب والكيمياء (وهي علوم مدينون نحن للعرب بها) أو الحساب وعلم الفلك . فمعظم المطبّبين المصريين والجرّاحين من الحلاقين الجاهلين للعلوم التي يمارسونها وغير ماهرين في عملهم ويعود ذلك جزئياً إلى أنّ دينهم يحرّم عليهم تشريح الأجسام البشرية . وأمّا اليوم فإنّ عدداً كبيراً من الشبان المصريين يتلقون تعليماً أوروبياً في مجالات الطب والتشريح والجراحة وعلوم أخرى على نفقة الحكومة ويسقط العديد من المصريين من حسابهم دور الطب والمساعدات التي يقدّمها عند مرضهم متّكلين على العناية الإلهية أو التعويذات وتدرس في مصر اليوم الخيمياء بدلاً من الكيمياء وكذلك علم التنجيم بدلاً من علم الفلك . ويعتبر الأسطرلاب والرُّبعية الآلتين الفلكيتين الوحيدتين المستخدمتين في مصر . ولا يستعمل المصريون التلسكوب والإبرة المغناطيسية إلاّ لمعرفة اتجاه

مكـة . ويلجأون لهـذا الغرض إلى بـوصلات صغيـرة (تُعـرف « بـالقِبْليّـات » ـ مفردها قبليّة ـ) تريهم اتجاه القبلة في بلدان عديدة وهي مركّزة بمعظمها في دمياط ومزوّدة بمزولة (ساعة شمسية) تحدّد الظهر والعصر في أماكن وفصـول مختلفة . والأشخاص في مصر الذين يزعمون أنّهم واسعو المدارك جوّابو الآفاق في مجال التنجيم بعيدون كـل البعد عن مبـادىء العلم الحقيقية . فـالقول إن الأرض تدور حول الشمس هـرطقة مـطلقة بـالنسبة إليهم ويجعلون علم الفلك الصّرف تابعاً لحسابات تقويمهم .

تتألف السنة الهجرية من إثني عشر شهراً قمرياً هي على التوالي :

١ ـ محرّم .

٢ ـ صفر .

٣ ـ ربيع الأول .

٤ ـ ربيع الثاني

٥ ـ جُمادى الأول (جمادى الأولى) .

٦ ـ جمادى الثاني (جمادى الثانية) .

٧ ـ رجب .

٨ ـ شعبان .

٩ ـ رمضان .

١٠ ـ شوّال .

١١ ـ ذو القعدة (أو القعدة) .

١٢ ـ ذو الحجة (أو الحجّة)[1]

(١) تجمع آراء مؤرّخينا على أن اليوم الأول للفترة الهجرية الإسلامية يصـادف يوم الجمعـة الواقع في ١٦ يوليو ٦٢٢ م . وتجدر الملاحظة أن العرب يحسبون بداية الشهر حسب الليلة التي يرون خلالها هلال القمر لأوّل مرة. وتكون هذه الليلة في معظم الحالات الليلة الثانية وقد تكون الليلة الثالثة في بعض الأماكن بعد الفترة الحقيقية للهلال ؛ فإن لم يروا القمـر في الليلتين الثانيـة والثالثـة، يبدأون الشهـر في الليلة الثالثـة. ولقد ظهـر الهلال في=

تسير هذه الشهور بشكل تراجعي خلال مختلف فصول السنة الشمسية في فترة ثلاث وثلاثين سنة ونصف السنة تقريباً . لذا ، يقتصر استعمالها على تحديد الأعياد الدينية وتواريخ الأحداث التاريخية والرسائل ولا تشمل أمور التنجيم أو تحديد الفصول . وفي هذه الحالة ، تنتشر استعمال الشهور القبطية . وأورد في ما يلي أسماءها وأعطي مقابلها في التقويم الأوروبي :

١ ـ توت Toot يبدأ في ١٠ أو ١١ سبتمبر .
٢ ـ بابه Bàbeh يبدأ في ١٠ أو ١١ أكتوبر .
٣ ـ هاتور Hàtoor يبدأ في ٩ أو ١٠ نوفمبر .
٤ ـ كيهك Kiyahk يبدأ في ٩ أو ١٠ ديسمبر .
٥ ـ طوبة Toobeh يبدأ في ٨ أو ٩ يناير .
٦ ـ أمشير Amsheir يبدأ في ٧ أو ٨ فبراير .
٧ ـ برمهات Barmahàt يبدأ في ٩ مارس .
٨ ـ برمودة Barmoodeh يبدأ في ٨ إبريل .
٩ ـ بشنس Beshens يبدأ في ٨ مايو .
١٠ ـ بؤونة Ba-ooneh يبدأ في ٧ يونيو .
١١ ـ أبيب Ebeeb يبدأ في ٧ يوليو .
١٢ ـ مسرى Misra يبدأ في ٦ أغسطس .

= عام ٦٢٢ م (السنة الأولى للهجرة) بين الساعة الخامسة أو السادسة صباحاً في الرابع عشر من الشهر ؛ وهكذا يكون السادس عشر منه أول يوم في الفترة الهجرية . ولا تبدأ هذه الفترة في اليوم الذي هاجر فيه الرسول ﷺ من مكة المكرمة (كما يفترض ذلك معظم المؤلفين الغربيين) ولكن في اليوم الأول للقمر أو شهر محرّم السابق لهذا الحدث التاريخي . ويقال إنّ الرسول ﷺ بدأ هجرته إلى المدينة المنورة بعد أن بقي مختبئاً ثلاثة أيام في كهف بالقرب من مكة مع « أبي بكر » (رضي الله عنه) في اليوم التاسع من الشهر الثالث (ربيع الأوّل) بعد ثمانية وستين يوماً من بداية الفترة الهجرية ـ وهكذا كان الشهران الأوّلان مؤلفين من ثلاثين يوماً كلّ شهر ؛ ويمكن القول إن الهجرة من الكهف بدأت في ٢٢ سبتمبر . ويعزز ذلك الإفتراض بأنّ الفترة الهجرية بدأت في ١٦ يوليو ، إذ لم يكن القمر ظاهراً عشية الخامس عشر منه .

وتكمل « الأيام النسيء » (الأيام الكبيسة) السنة ومدّتها خمسة أو ستة أيام .

تتألف هذه الشهور من ثلاثين يوماً كل شهر وتضاف خمسة أيام كبيسة في نهاية كل ثلاث سنوات متعاقبة وستة أيام في نهاية السنة الرابعة . وتسبق السنة الكبيسة القبطية السنة الميلادية الأوروبية مباشرة ؛ فتبدأ السنة القبطية في ١١ سبتمبر فقط عندما تلي سنتهم الكبيسة أو عندما تكون سنتنا الميلادية التالية سنة كبيسة وهكذا تتساوى بعد شهر فبراير التالي أيام التقويم القبطي والشهور الميلادية كما في السنوات الأخرى . والأقباط يبدأون حسابهم التقويمي بعهد ديوقليتيانس سنة ٢٨٤ (ب . م) Diocletian .

يحسب النهار في مصر كما في سائر البلدان الإسلامية من المغيب إلى المغيب ، وأمّا الليل فيحسب مع اليوم الذي يليه . وهكذا تُعرف الليلة قبل الجمعة بليلة الجمعة. وساعات المغيب تدوم إثنتي عشرة ساعة : فساعة بعد المغيب هي الساعة الواحدة وأمّا ساعتان بعده فتشكّلان الساعة الثانية وهكذا دواليك حتى نبلغ الساعة الثانية عشرة . وبعد الساعة الثانية عشرة صباحاً تعود عقارب الساعة إلى دورتها فتكون الساعة الواحدة أو الثانية أو الثالثة الخ . ويضبط المصريون ساعاتهم (عند الضرورة) وقت المغيب أو بُعيده بدقائق عادة عندما يسمعون آذان صلاة العشاء . ولا بد من ضبطهم ساعاتهم ـ لتكون غاية في الدقة ـ وفقاً لنظام احتسابهم الوقت من المغيب كل ليلة بسبب تفاوت فترات النهار

يظهر الجدول التالي مواقيت الصلاة عند المسلمين يقابلها التوقيت الأوروبي للمغيب في القاهرة قريباً من خطوط الغرض عند بدء كل شهر بروجي

	المغيب			العشاء		الفجر		الظهر		العصر	
	تو. أوروبي	تو. مسلم		تو. مسلم		تو. مسلم		تو. مسلم		تو. مسلم	
	س. د	س	د	س	د	س	د	س	د	س	د
يونيو ٢١	١٢	٧	٤	١	٣٤	٨	٦	٤	٥٦	٨	٣١
يوليو ٢٢ مارس ٢١	.١٢	٦	٥٣	١	٣٠	٨	٣٠	٥	٧	٨	٤٣
أغسطس ٢٣ أبريل ٢٠	.١٢	٦	٣١	١	٢٢	٩	٢٤	٥	٢٩	٩	٤
سبتمبر ٢٣ مارس ٢٠	.١٢	٦	٤	١	١٨	١٠	٢٤	٥٠	٥٦	٩	٢٤
أكتوبر ٢٣ فبراير ١٨	.١٢	٥	٣٧	١	١٨	١١	١٨	٦	٢٣	٩	٣٥
نوفمبر ٢٢ يناير ٢٠	.١٢	٥	١٥	١	٢٢	١١	٥٩	٦	٤٥	٩	٤١
ديسمبر ٢١	١٢	٥	٤	١	٢٤	١٢	١٥	٦	٥٦	٩	٤٣

(*) تو = توقيت .
س = ساعة .
د = دقيقة .

تطبع الروزنامات الجيبية سنوياً في مطبعة بولاق الحكومية، وهي تشمل فترة السنة الشمسيّة التي تبدأ وتنتهي مع الاعتدال الرَبيعي وتحدّد هذه الروزنامة يومياً يوم الأسبوع والشهور الهجرية والقبطية والسورية والأوروبية مرفقة بمكان الشمس في البرج الفلكي Zodiac ووقت شروق الشمس والظهر والعصر . وتكون الروزنامة ممهدة بملخص لأهم التواريخ والأعياد عند المسلمين والأقباط وغيرهم إضافة إلى الملاحظات حول الفصول . كما أنّها مرفقة ببيانات حسيّة وزراعية وغيرها لكل يوم من أيام السنة مع ذكر أوقات الكسوف وجملة أمور أخرى تتوافق وخرافات المصريين . وقد قام بهذا العمل « يحيى أفندي » وهو راهب مسيحي سوري الأصل عانق الإسلام .

لا يفقه المصريون كثيراً علوم الجغرافيا عامة باستثناء نخبة المتعلمين والمثقفين منهم . فهم يجهلون تماماً تقريباً أوضاع البلدان الأوروبية الكبيرة

بغياب الخرائط الجيدة . وإذا تجاسر بعض المتعلمين فأكد أنّ الأرض كروية عارضه السواد الأعظم من العلماء فالفكرة الشائعة بين طبقات المسلمين هي أنّ أرضنا عبارة عن امتداد منبسط يحدّه المحيط الذي ـ كما يقولون ـ مطوّق بسلسلة من الجبال تُعرَف « بالكفّ » . وهم يعتقدون أن الكف يشكل ذروة الأراضي السبع ؛ وهم يؤمنون كذلك بوجود سموات سبع متدرجة الواحدة فوق الأخرى .

لا يستغّربنّ القارىء بعد عرض حالة العلوم بين أوساط المصريين المعاصرين الكلام المسهب عن الخرافات الشائعة بين المصريين والضروري حتى يتمكن من فهم طبائع هذا الشعب ولإظهار بواطن أخطاء مثل هذه الخرافات وعدم صوابيّتها ونأمل ـ بل نتوقّع ـ تقدماً كبيراً للحالتين الفكرية والأدبية للشعب المصري بعد إدخال العلوم الأوروبية التي مكّنت حاكم مصر الحالي من إدخال بعض التعديلات على حكمه المتسلّط . ولا نتوقع أن يتجسّد الحلم حقيقة في درجة مهمة[1]

(١) يعتبر « بارون هامر بورغستول » Baron Hammer-Purgstoll هذا الفصل ناقصاً جداً . وكان أحبّ إلى قلبي أن أتوسّع في مضمونه ولكنني ارتأيت الإختصار فلا أزعج قارئي بكثرة المعلومات التي لا تهمّ سوى المستشرقين . ولقد أدرجت بعض الملاحظات في كُتابي بعد أن لمستُ أن شعاع العلم الأوروبي يقتصر على الموظفين التابعين للحكومة الذين أجبروا على تلقي العلم على أيدي أساتذة من الفرنجة إضافة إلى القلة القليلة من الأتراك التي تبنّت العادات الأوروبية في مسلكها الاجتماعي . ولقد أعرب لي بعض المصريين الذين تابعوا دراساتهم لسنوات عديدة في فرنسا إنهم لم يستطيعوا غرس المعلومات التي تلقّوها حتى في أذهان أقرب أصدقائهم .

الفصل العاشر

الخرافات

المصريون هم أكثر الشعوب العربية إيماناً بالخرافات ؛ فهي تشكل جزءاً مهماً في ديانتهم وقد نزلت في آيات القرآن الكريم ؛ وأهم هذه الخرافات إيمانهم بالجن .

والجن حسب معتقدهم موجودون قبل آدم ؛ فهم يشكلون طبقة وسطية بين الملائكة والإنس ولكنّهم أدنى مرتبة من كليهما. والجن مخلوقون من نار وقادرون على اتخاذ أشكال الإنس والبهائم والوحوش والاستتارة والإختفاء عن الأبصار متى شاؤوا . وهم يأكلون ويشربون ويتكاثرون (مع بعضهم البعض أو بالإتحاد مع الإنس) ويموتون رغم أنهم يعيشون قروناً طويلة عامة . يتخذ الجن سلسلة « الكَفّ » الجبلية مسكناً لهم والتي باعتقاد المصريين تشمل المعمورة قاطبة كما ذكرت في الفصل السابق . يتخذ بعض الجن الإسلام ديناً لهم وأمّا بعضهم الآخر فكافر وهم طبقة « الشياطين » التي خرج منها « إبليس » رئيسهم . وأبليس هذا ـ كما هو راسخ في الأذهان ـ جني (كباقي الشياطين) مخلوق من نار بينما الملائكة مخلوقة من النور ومعصومة عن الخطأ وخالية من العيوب . يقف العرب وقفة ملؤها الخشية والرهبة أمام نوعي الجن الصالح منها والشرير ويكنّون مع ذلك احتراماً كبيراً للنوع الأول . ومن عادات المصريين الشائعة عند رشهم الماء على الأرض التلفّظ بعبارة «دَسْتور» فيستسمحون بذلك أي جني قد يصادف وجوده في المكان لأن الجن برأيهم يتغلغلون في المادة الصلبة . وهم ينتشرون في الأرض كما في السماء حيث يسترقون السمع عند

دنوّهم في تخوم السماء السفلية إلى حديث الملائكة حول الأمور المستقبلية فيتمكنون بذلك من مساعدة العرافين والسحرة . كما يعتقدون أن الجن يسكنون الأنهار والمنازل والآبار والحمّامات ووالأفران حتى المراحيض . وهكذا عندما يدخل المصري إلى المرحاض أو يلقي دلواً في بئر أو يضرم ناراً يقول : « السماح ، السماح يا مبارك ! » ويسبقون كلماتهم هذه أحياناً عند دخولهم المرحاض بصلاة تحميهم من الأرواح الشريرة . بيد أنّ بعضهم يتجنب ذكر إسم الله بعد دخولهم (باعتبار أنه من غير اللائق ذكر اسم العزيز الحكيم في هكذا مكان) ويكتفون بالقول : « أعوذ بك من الشياطين ذكوراً وإناثاً ». ويرد في كتاب « ألف ليلة وليلة » تعليق على هذه القصة مفاده أنّ أحد التجار قتل جنيّاً بطرحه جانباً نواة حبة تمر أكلها ونقرأ في القصة نفسها قصص أخرى من المجموعة عينها أن الجني يدنو وسط زوبعة رملية أو غبارية ؛ والشائع السائد بين المصريين أن الزوبعة التي ترفع الرمل أو الغبار وترتفع عالياً جداً في شكل عامود فتضرب الحقول والصحاري في البلاد يحدثها طيران أحد الجن ، أو بعبارة أخرى « يركب الجني الزوبعة ». ويتمتم المصريون تعويذة تجنّباً لمثل هذه الزوبعة عندما يستشعرون دنوّها ، فيصرخون هاتفين : «حديد يا منحوس! » لأن الجن حسب اعتقادهم يخشون هذا المعدن . ويجهد الآخرون لطرد الشبح فيهتفون : « الله أكبر! ». وكذلك فإن الشّهاب برأيهم عبارة عن سهم يصيب به الله جنياً شريراً . فلما يلمح المصريون هذا الشهاب يصرخون : « فليطعن الله عدو الإيمان ! ». وأما الأشرار من الجن فيعرفون « بالعفاريت »؛ وقد ورد في القرآن ﴿ قال عفريت من الجن ﴾. (سورة النمل / ٣٩) والتي ترجمها SALE بـ : « قال جني رهيب ». والمصريون يعتقدون أن هذا النوع من الجن مختلف عن الجن الآخرين ؛ فالجني منهم ضخم جبار ماكر أحياناً ، ولكنّه ذات طبيعة مشابهة في أطر أخرى . و« المارد » هو أكثر الجن طبيعة شريرة .

ترتبط بتاريخ الجن خرافات عديدة لا يقرّها القرآن ولا يأخذ بها العقلاء من المسلمين إلاّ أقلّهم سعة إدراك واطّلاع . والآراء متفقة على أن الجن مخلوقون قبل البشر بينما يميز البعض طبقة أخرى من المخلوقات وجدت قبل

آدم ذات طبيعة مشابهة . يؤمن المصريون أن جنساً من الكائنات مغايراً لجنسنا الأنسي شكـلاً وأكثـر قـوة سكن الأرض قبـل آدم وأن أربعين ملكـاً قبـل آدم (ويحدّدهم البعض بأثنين وسبعين) كلّ منهم يحمل اسم « سليمـان » تعاقبـوا على حكم هذه الكائنات . وآخر هؤلاء الملوك كان يعرف بالجان إبن الجان ؛ ومنه ـ بأعتقـاد البعض ـ يستقي « الجن » (أو الجـان) اسمهم . وفي هـذا المنطلق ايمان البعض بـأنّ الجن هم تلك الكائنـات قبل الأدميـة التي ذكرتهـا آنفاً ، في الوقت الذي يؤكد البعض الآخر أنّ هؤلاء الجن كانـوا يشكلون طبقة متميزة من الكائنات أخضعها الجنس قبل الآدمي .

يتخذ الجن حسب معتقدات المصريين أشكال القطط والكلاب وغيـرها من البهائم . وكأن الشيخ « خليل المدابغي » أحد أشهر علماء مصـر وصاحب مؤلفات علمية عديدة والذي توفي في سن متقدمة خلال زيارتي السـابقة لهـذه البلاد يردد دائماً النادرة التالية ومفادها أنّه كان عنـد شيخنا الجليـل قطة سـوداء اعتادت النوم عند طرف ناموسيته ، وذات مرّة سمع عند منتصف الليل نقراً على بـاب منزلـه فتوجهت القـطة وفتحت مزلاج النـافـذة المعلّق وصـرخت : « من هنا ؟ » فأجابها صوت : « أنا الجني فلان (وذكر اسماً غريباً) ، إفتحوا الباب » فـردت القطة : « إنّ القفـل يحمل اسم الله عليـه » . فقـال لهـا الجني : « إذن إطرحي لي من تحت الباب قطعتين من الخبز . فأتاه صوت القطة : « ولكن سلّة الخبز تحمل اسم الله عليها أيضاً » . فردّ الغريب : « حسناً ، إعطني جرعة ماء على الأقل » . وأجابته القطة ثانية : « إن الماء محصّنة بالطريقة عينها » . وهنـا سألها الغريب ما عساه يفعل وهو على شفير الهلاك عطشاً وجوعاً ؛ فطلبت منه القطة التوجه إلى باب المنزل المجاور . ففعل الغريب وتوجه إلى المكان وفتح الباب ولكنه ما لبث أن رجع . وعمد الشيخ في صباح اليوم التالي إلى تغيير عادة درج عليها : إذ أعطى قطته نصف فطيرته الصباحية بدلاً من قطعة صغيرة منها ثم توجه إليها قائلاً : تعرفين يا قطتي أنني رجل فقير الحال ، فأحضري لي قطعـة ذهب صغيرة » وما كاد الشيخ يتلفظ بهذه الكلمات حتى توارت القطة عن أنظاره إلى الأبد . ومهما بلغت هذه النوادر والحكايات من سخافة يستحيل علينا دونها

تكـوين فكرة واضحـة عن أفكـار الشعب المصـري الـذي أسعى جـاهـداً إلى وصفه .

يؤكد المصريون أنّ الجني الماكر والمزعج يستقر فـوق السطوح أو عنـد نوافذ المنازل في القاهرة وفي مدن مصرية أخرى ويتغلغل فـي ألـواح القرميـد والحجر في الشوارع والباحات. وسمعت منذ أيام قليلة بمحادثة من هـذا النوع بثت الذعر في نفوس سكان الشارع الرئيسي في العاصمة طوال أسبوع ؛ ومفاد الحادثة أن ألواحاً قرميدية كانت تقع يومياً من بعض المنازل خلال هذا الأسبوع دون أن يُصاب أحد من النـاس بسوء . ولمّـا سمعت هذه القصـة توجهت إلى مسرح دعابات الجني المزعومة فأشهدهـا بأم العين وأستـوضح أمـرها . ولكن « الـرّجم » كان تـوقف ـ كما قيـل لي ـ لدى وصـولي ولم أستطع العثـور على شخص واحد ينفي حصول تساقط القرميـد أو ينكر أن هـذا من عمل الجـان . والملاحظة اللاّزمة التي سمعتها على كل الشفاه والألسنة كانت : « ليحفظنا الله من أعمال الشياطين ! »

وبهذه المناسبة لفت أحد أصدقائي نظري أنّه كـان التقى بعض الإنكليز الذين لا يؤمنون بوجود الجن ؛ ولكنّه ختم بأنّ هؤلاء لم يشهدوا قط أداءاً عاماً أو « كوميديا » ـ كما يسمون هذا الأداء ـ من هذا النوع رغم شيوعها في بلادهم . وعنى صديقي بكلامه كل أنواع الأداء المسـرحي . وأردف موجهاً الحديث إلى أحد مواطنيه ومستعيناً بي لتأكيد فحوى كلامه : « لقد أطلعني أحـد أصدقـائي الجـزائريـين على استعـراض من هذا النـوع شاهـده في لندن ». فقـاطعه مـواطنـه متسـائلاً : « أو ليست إنكلتره في لندن ؟ أو أنّ لنـدن هي مدينـة في انكلتره »؟ فارتبك صـديقي بعض الشيء وأجابـه وهو ينـظر إليّ أنّ لندن عـاصمة انكلتـره ثم تابع حـديثه عن المسرح فقال: « إنّ المنـزل الذي جـرى فيه هـذا الإستعراض لا يمكن وصفه ، فالمسـرح دائري الشكـل تحيط به مقـاعد خشبيـة على الأرض وتصطف حوله حجيرات منفصلة تقع الواحـدة فوق الأخـرى يجلس فيها أبنـاء الطبقات الغنية ؛ ولهذا المسرح كذلك منفذ كبير مربع تغطيه ستارة . ولمّا يغصّ المكان بالناس الذين يدفعون أمـوالاً طائلة ليسمـح لهم بالـدخول تلف العتمـة

المكان . كان الوقت مساءاً وكانت أضواء عديدة تنير هذا المنزل ؛ بيد أنّ هذه الأضواء خفّت وخبت في الوقت نفسه وحدها دون أن يلمسها كـائن من كان . بعد ذلك ، فُتحت الستارة ، فسمع الحاضرون دوي الريح وهدير البحر فأدركوا في الظلمة أن الأمواج تزيد وترتفع وتتكسّر على الشـاطىء . ثمّ سمعوا قصف الـرعد, بعـد أن ومـض بريق واضـح سمـح للمتفـرجين بتمييـز البحـر الهـادر المزمجر، تبعه هطول أمطار حقيقية. وسرعان مـا انبلج النهار، فميّـز هؤلاء البحر ورأوا سفينتين في عرضه . ثم تقدّمت السفينتان تـطلقان النيـران على بعضهما وتلت ذلك مشاهد رائعة مدهشة . ولمّا فرغ من وصفه أردف صديقي « بات واضحاً الآن أنّ مثل هذه العجائب هي من اجتراح الجن أو أن هؤلاء ساعـدوا على اجتـراحها » . ولم تنفـع تفسيراتي في إقنـاع صديقي بـأنـه مخـطىء في تقديراته لهذه الظواهر .

والجن ـ كما الإعتقاد السائد ـ نزلاء السجون خـلال شهر رمضـان . لذا تقوم النساء عشيـة عيد الفـطر الذي يلي شهـر الصيام بـرش الملح على أرض حجرات منازلهن فيمنعن ـ برأيهن ـ هذه الكائنات المخيفـة من دخول المنـازل ويرددن وهن ينثرن الملح البسملة أي « بسم الله الرحمن الرحيم ».

لا بـد في معرض حديثي عن الخرافـات التي يؤمن بها المصـريـون من التوقف عند معتقد بالٍ قـديم يقضي بوجـود جني حارس خـاص لكلّ حي من أحيـاء القاهـرة يتجسد في شكـل أفعى . كذلـك يعتقد أبنـاء هذا الشعب بـأنّ العفاريت يسكنون الأضرحة القديمة في مصر وأعماق المعـابد المـظلمة . ولم أفلح في إقناع أحد من خدمي بدخول الهرم الكبير ـ هرم خوفو ـ معي ومثل هذه الخرافات معشعشة في أفكارهم . ويعزو كثيرون من العرب بناء الأهرامات وكلّ الآثار المذهلة المتبقية من سالف العهود والأزمان في بـلادهم إلى « الجان إبن الجان » وخدمه من الجن ، إذ يستحيل أن تكون أيادي بشرية قـد شيدت هـذه الإهرامات .

تستخدم كلمة « عفريت » للدلالة خاصة على جني شرير علماً أن أرواح

الأشخاص الميتين تُعرف بهذا الإسم أيضاً ؛ وما تنفكّ الحكايات والـروايـات الغريبة العجيبة تتداول أخبار هذه الأرواح التي ترتعد لذكرها فرائض المصريين وتهتز لها أوصالهم . ولكننا نجد في المقابل أشخاصاً لا يخافون قط من هؤلاء الجن ومنهم طباخي الظريف المدمن نوعاً ما على الحشيش فلقد سمعته ذات ليلة بُعيد بدء عمله في منزلي يتمتمُ ويتحدث بلهجة تعجبية على السلالم كما لو أن حدثاً ما أثار دهشته ثم يردف بكل تهذيب واحترام : « ولكن لماذا أنت جالس في مجرى الهواء ؟ تعال واجلس معي في المطبخ تسلّيني بحديثك قليلاً » . ولمّا لم يلقَ خادمي جواباً على طلبه أعاده مراراً وتكراراً حتى صرخت به وسألته إلى من يتحدث ؛ فأجابني بكل بساطة : « إلى عفـريت جندي تـركي يجلس على السلالم يدخن غليونه ويرفض التزحزح من مكانه . فلقد صعـد من البئر تحت المنزل ؛ أرجوك أن تتقدم خطوة حتى تـراه » . فصعدت السـلالم ولكنني قلت لخادمي إنني لا أميّز شيئاً ؛ فأكتفي بملاحظة أنني لا أملك « الكشف » . وعرف خادمي لاحقاً أنّ المنزل مسكون منـذ زمن طويـل ولكنّه أكّـد أنّه لم يكن يعلم مسبقاً أن سبب ذلك مقتل جندي تركي في المنزل . وزعم خادمي أنه كان يرى لاحقاً هذا العفريت كثيراً .

وأمّا « الغيلان » (ومفردها غول) فتحـظى بشعبيـة كبيرة بين المصـريين المحدثين وكذلك بين العديد من أبناء دول الشرق الأخرى . وهم يعتقدون أن الغيلان طبقة من الجن الأشرار يتخذون ـ كما يقولون ـ أشكال البهائم المختلفة والأشكـال الوحشيـة الأخرى ؛ تستـوطن الغيلان المـدافن والأماكن المعـزولـة وتتغذّى من جثث الأموات ولا تتوانى عن قتل والتهام أي مخلوق أنسي يصادف وجوده لسوء طالعه في طريق هؤلاء الجن . ومن هنا ، تطلق عبارة « غول » عامة على كلّ آكلي لحم البشر .

لا تدهشنا مثل هذه التخيلات والأوهام الراسخة في معتقدات شعب غير متنور أو متفتح كالشعب محور حديثنا في هذا الكتاب . والمصريون لا يكنّـون احتراماً مهيباً خرافياً للكائنـات الخياليـة فحسب بل أنّ احتـرامهم يشمل بعض

الأفراد من أبناء جنسهم فيبدون غالباً إجلالاً للذين لا يستحقون مطلقاً مثل هذا الإحترام . وينظرون إلى المجنون أو « المغفَّل » نظرتهم إلى كائن طار عقله إلى السماء بينما القسم الأكبر من جسده يختلط مع البشر ، لذا يعتبرونه من المفضَّلين المميَّزين في السماء . ولا تلوّث الفظاظات على اختلافها التي يرتكبها وليّ مشهور قط (والكثيرون يخالفون تعاليم دينهم باستمرار) حرارة تقواه ؛ فهم يعتبرون أنّ أعمال الأولياء وأفعالهم وليدة تجرّد ذهنهم عن الأشياء الدّنيوية ، بينما تكون روحهم أو مَلَكاتهم الفكريّة مأخوذة بالعبادة والتضرع لدرجة لا تمكّنهم من السيطرة على أهوائهم ونزعاتهم . وأمّا المجانين الخطير وجودهم في المجتمع فيتم عزلهم في الوقت الذي يعتبر فيه غير المؤذين منهم في مصاف الأولياء. ونلاحظ أن الأولياء الذائعي الصيت في مصر مجانين أو مغفَّلون أو أفّاكون دجّالون . ولا تستغربنَّ قارئي العزيز إن صادفت أحد هؤلاء الأولياء يركض عارياً كما خلقه الله في الشارع العام فلا تنتفض النساء لرؤيته ولا يغضضن الطرف بل يبجّلنه ويذهبن إلى حدّ مضايقة هذا التّعس والتحرش به « على عينك يا تاجر »، ولا تعتبر الطبقات الدنيا في المجتمع مثل هذه الأعمال مشينة مخزية وإن ندر حدوثها . وقد تلتقي وليّاً آخر مدثّراً بعباءة فضفاضة طويلة مخاطة في أسمال ثياب مختلفة الألوان تُعرف « بالدِّلك » مزدانة بخيوط خرزية ومعتمراً عمامة بالية وحاملاً عصاً عُلِّقت على رأسها قطع من الثياب الرثة ذات الألوان المتعددة . ويأكل بعض هؤلاء الأولياء القش أو خليطاً من القش المقطّع المفروم والزجاج المكسور فيلفت إليه الأنظار بأعماله السخيفة التي يرفضها العقل والمنطق . وتستوقفني ذاكرتي عند رجل مشوّه كنت أصادفه دائماً خلال زيارتي الأولى لهذه البلاد في شوارع القاهرة ، كان يركب حماراً استعاره من أحدهم وهو شبه عار وشعره منسدل في جدائل طويلة . وكان هذا الرجل يوقف دائماً حماره أمامي مباشرة معترضاً سبيلي فيتلو عليّ سورة الفاتحة ثم يمدّ يده طالباً حسنة . حاولت جاهداً في المرة الأولى التي اعترض فيها سبيلي تجنّبه ، لكنّ أحد المارة لامني على فعلي ولفت نظري إلى أنّ هذا الرجل وليّ من الأولياء. إذاً، ينبغي عليّ احترامه والإذعان لطلبه وإلا أصابني مكروه ولاحقني

سوء الطالع. ويعيش مثل هؤلاء الأولياء من الصدقات التي يحصلون عليها دون الإلحاح في طلبها ، ويعرف واحدهم « بالشيخ » و « المرابط ». وإن كان هذا الوالي معتوهاً أو مغفلاً أو قليل الذكاء فتلصق به صفة « المجذوب » أو « المسلوب ». وأمّا مرتبة « الوالي » فأرفع مرتبات التقوى وتعني « أحد المفضّلين في الجنة » ولكن صفة « الوالي » باتت ملازمة عامة للمغفّلين الحقيقيين أو المزعومين ممّا دفع بعض الظرفاء إلى إضفاء طابع جديد على العبارة فجعلها مرادفة لعبارة « بليد » التي تعني « المجنون » أو « الساذج ». ولاحظ هؤلاء أن هاتين العبارتين مرادفتان في المعنى وفي القيمة العددية للحروف التي تؤلفها . وتفسيراً لذلك نشير إلى أن كلمة « ولي » مؤلفة من حروف ثلاثة هي « الواو » و « اللام » و« الياء » تعادلها قيمة عددية هي على التوالي ٦ و ٣٠ و ١٠ أو ٤٦ للحروف معاً . وأمّا كلمة « بليد » فمؤلفة من حروف « الباء » و « اللام » و « الياء » و «الدّال » وتبلغ قيمتها العددية : ٢ و ٣٠ و ١٠ و ٤ أو ٤٦ مجموعة . وترادف صفة « الساذج » من باب الدعابة صفة « الوالي ».

وخرافات المسلمين المصريين غريبة مثيرة للفضول حيال أوليائهم بالمقارنة مع مسلمي البلدان الأخرى . وكم حاولت الإطلاع على أكثر هذه الخرافات غموضاً وفي كل مرة كان يأتيني الجواب : « أنت تتطفل على أمور «الطريقة» - وهي تيار الدراويش الديني . ولكنني اطّلعت بكل حرية على الآراء العامة حول هذه المواضيع وهي تكفي لمؤلف كهذا ؛ وسأتوقف كذلك عند آراء الأشخاص المتعلمين والدراويش لتوضيح المعتقدات الشعبية المصرية .

إن شكّك أحدهم في المقام الأول بحقيقة هؤلاء الأولياء فهو كافر ملحد لا محالة وإدانته واردة في القرآن الكريم : ﴿ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (سورة يونس / ٦٢).

وهذا دليل كافٍ يثبت لنا وجود طبقة من الناس مميزة فوق طبقة الإنس . وإذا تساءلت عن هؤلاء الناس يأتيك الجواب : « إنهم أناس نذروا أنفسهم

لمحبة الله وإيمانهم راسخ عميق ؛ وتأتي قدرتهم على اجتراح المعجزات حسب درجة ايمانهم ».

و « القطب » أكثر الأولياء تقوى ؛ أو أنَّ أثنين برأي البعض مخوّلان لحمل هذا اللقب وقد يصل العدد إلى أربعة عند البعض الآخر . و « القطب » هو الولي الذي يحكم الآخرين الذين يكونون تابعين وخاضعين له . وتستخدم عبارة « قطب » إشارة إلى الحّكام الدّنيويين وكذلك إلى شخص ذي سلطة قوية . وأمّا الآراء التي تُجمع على وجود أقطاب أربعة فهي تشير ـ كما قيل لي ـ إلى « الأقطاب الأربعة » مؤسسي الطرائق الدرويشية الأربع المشهورة ونعني بها : الرفاعية والقادرية والأحمدية والبراهيمية ، وكانت كل طريقة من هذه الطرائف قطب زمنها وعصرها . وعلمت أيضاً أن الإعتقاد العام الذي يزعم وجود قطبين خطأ شائع إنّما يرتكز على اسمين هما : « قطب الحقيقة » و « قطب الغوث » يعودان إلى الشخص عينه . وأمّا « القطب المتولّي » فيشير إليه الذين يؤمنون بوجود قطب واحد يحكم في الزمن الحالي وكذلك الذين يؤمنون بوجود قطبين إشارة إلى القطب المتحرك المتصرّف. ويعمل تحت سلطة القطب الذي يشرف على كل الأولياء الآخرين (سواء وُجد قطب آخر أم لم يوجد ـ ويكون في الحالة الأولى في مرتبة أدنى من القطب الأوّل) أولياء من مراتب متفاوتة توكل إليهم أعمال مختلفة ؛ ومن هؤلاء الأولياء « النقيب » و « النجيب » و « البديل » الذين يعرفون وحدهم ـ وقد ينسحب ذلك على باقي الأولياء ـ أعمال بعضهم البعض .

يعتقد المصريون أنّ القطب يظهر غالب الأحيان ولكن أحداً لا يتعرّف عليه على هذا الأساس وكذا الأمر بالنسبة إلى كل العاملين بإمرته . ومسلك القطب ولباسه غاية في التواضع ؛ ولا يوبّخ توبيخاً عنيفاً الذين يصادفهم ينحرفون عن خط التقوى خاصة الذين يتمتعون بشهرة زائفة في تقواهم . ومخطاته المحببة إلى قلبه معروفة وواضحة رغم عدم انكشافه على العالم ؛ ومع ذلك فلا تراه العين في هذه الأماكن إلاّ نادراً ويذهب المصريون إلى حد التأكيد أن مركز « القطب » في مكة المكرمة فوق سطح الكعبة تحديداً . ورغم

أن أحداً لا يراه هناك فيتردد صوته منتصف الليل ينادي مرتين : « يا أرحم الراحمين »! التي يعيدها المؤذن في مئذنة الكعبة . وقد أسرّ إليّ أحد الحجّاج الجليلين كنتُ سألته أن يوضّح لي جوانب المسألة أنّه رأى شيخ الجامع المسؤول يطلق هذا الصوت كل ليلة ؛ وقليلون هم الحجاج الذين يعرفون ذلك ويؤمن هذا الحاج مع ذلك أن سقف الكعبة هو « المركز » الرئيسي للقطب .
ومن المراكز الأخرى التي يفضّلها هذا القطب الجليل المجهول بوابة القاهرة المعروفة « بباب الزويلة » الواقع عند الطرف الجنوبي لمصر القديمة ؛ ويقع هذا الباب حالياً في قلب المدينة التي توسّعت كثيراً نحو الجنوب كما نحو الغرب ويعرف « باب الزويلة ».« بالمتولي » بسبب الإفتراض الزاعم أنّه مركز هذا المخلوق الغامض . ويخفي أحد مصراعي بابه الخشبي الكبير (والذي لا يغلق قط) فسحة صغيرة شاغرة يُقال إنّها مركز القطب . ويتلو المارة عند مرورهم أمام هذا الباب سورة الفاتحة ويتصدّقون على متسول جالس في هذا المكان يعتبرونه أحد خادمي القطب . ويجعل الكثيرون من الناس المصابين بآلام في الرأس ظفراً من أظافرهم في الباب فيرقون الألم ؛ ويعمد آخرون يعانون من أوجاع في أسنانهم إلى اقتلاع سن منها وتثبيته في شق في الباب فيتأكدون بذلك أنّ أيّاً من الأمراض لن يصيبهم . ويحاول بعض المارة اختلاس النظر من خلف الباب ممنّين النفس دون طائل بلمح القطب الذي يعتقدون بضرورة وجوده في هذه اللحظة وإن بشكل غير مرئي ويتخذ القطب لنفسه مراكز أخرى ذات شهرة أدنى في القاهرة عند ضريح « السيد أحمد البدوي » في طنطا وفي المحلّة في الدلتا (مثل طنطا) إضافة إلى أماكن أخرى . ويعتقد المصريون أنّ القطب ينتقل من مكة إلى القاهرة في طرفة عين وكذلك من مكان إلى آخر . ولا يلتزم القطب بالمراكز المذكورة آنفاً وهي من المراكز المفضّلة لديه بل يتنقّل في أرجاء المعمورة ويطوف بين الناس من جميع الشّيع والملل فيعرفهم من مظهرهم ولباسهم ولغتهم ، ويوزع على البشر عبر الأولياء التابعين له لعناته وبركاته خاصة وهي مكافآت القدر . وما إن يموت قطب حتى يخلفه في منصبه قطب آخر .

يؤكد العديد من المسلمين أن النبي إيليا الذي تخلطه العامة مع « الخُضر »[1] كان قطب زمانه وأنّه أعطى السلطة للأقطاب المتعاقبين بعده . ويؤكدون أن القطب لم يمت أبداً فهو شرب من نهر الكوثر. ومن المفارقات المثيرة إمكانية مقابلة هذه الخاصة في خرافاتهم المتعلقة بالأقطاب وما تخبرنا به التوراة عن النبي إيليا وانتقاله من مكان إلى آخر بواسطة روح الله ، وقد خصَّ الله إيليا بالقوة العجائبية ومنحه القدرة على إخضاع الأنبياء الآخرين لسلطته وسلطة من يخلفه مباشرة . ويزهد بعض الأولياء في الدنيا ومتاعها ويرغبون عن بني البشر وينصرفون إلى التعبد في مكان بعيد معزول معوّلين على العناية الإلهية لدعمهم ؛ ويعرف الجميع بأمر تنسّكهم ويحضر العربان لهم الطعام يومياً .

وتذكّرنا حالة هؤلاء الأولياء بتاريخ النبي إيليا حيث يقرأ بعض النقاد كلمة « الغربان » الواردة في سفر الملوك الثالث في الآيتين الثالثة والرابعة بدلاً من « العربان » : آية ٤ : . . . « وقد أمرتُ الغربان أن تقوتك هناك » .
آية ٦ « فكانت الغربان تأتيه بخبز . . . ».
يسند القطب إلى بعض الأولياء مهام غير سهلة على الإطلاق حسب ما نقله لي بعض أصدقائي . وهم يعرفون « بأصحاب الدَّرَك ». وإبرازاً للمهام الموكلة إليهم أورد نادرة سمعتها منذ أيام قليلة مفادها أنّ تاجراً تقياً ورعاً في المدينة رغب في أن يصبح ولياً فقصد أحدهم يُقال إنّه ينتمي إلى طبقة الأولياء وحثّه على مساعدته ليرتب له شرف مقابلة القطب . وبعد طول تفحص وتمحيص بالنسبة إلى دوافعه طُلب إليه أن يتمسَّح باكراً للصلاة في اليوم التالي ويتوجه بعد ذلك إلى جامع « المؤيّد » (الواقع في زاوية « باب الزويلة » أو « المتولي »)

(١) لم يكن هذا الشخص الغامض حسب اتفاق آراء الفقهاء والمفكرين نبيّاً بل رجلاً عادياً ـ أو وليّاً ـ فشغل منصب الوزير في عهد « ذي القرنين » الذي كان ملكاً عادلاً وفاتحاً مشهوراً وشخصية تفرض هيبتها على الجميع في الوقت عينه . يُقال إنّ «الخضر» شرب من نهر الكوثر لذا فهو سيعيش حتى يوم الحساب وإنّه يظهر غالباً للمسلمين في ارتباكهم ويكون مدثّراً برداء أخضر ومن هنا تسميته بالخضر حسب بعضهم .

فيمسك بأوّل شخص يراه خارجاً من باب الجامع الكبير . ففعل التاجر الورع ما أمر بها ، وكان أول شخص خرج من الجامع رجلاً عجوزاً مهيب الطلعة رث الثياب مرتدياً « زعبوطاً » بنياً من الصوف ؛ فتأكد له أنّه القطب ، وآنهال صاحبنا يقبّل يده متضرعاً متوسلاً أن يقبله بين « أصحاب الدَّرك » . وقبل « القطب » تضرعه بعد طول تردد وقال له : « تولَّ أمر منطقة درب الأحمر وجوارها » ؛ وهكذا فوراً وجد التاجر نفسه ولياً وأدرك أنه مُنح « الكشف » الذي لا يتمتع به سائر بني البشر : إذ يقال إن الله يمنح الوالي القدرة على الإلمام بكل الأسرار الضرورية له معرفتها ؛ وكذلك يعرف الولي الأسرار وكل ما لا تدركه الأبصار ، وهذا يتعارض بوضوح مع ما نقرأه في القرآن الكريم في مواضع عديدة بأنّ أحداً لا يعرف مكنونات الأمور وبواطنها إلاّ الله عز وجلّ . ويرى المسلمون الذين نادراً ما يخسرون في مناقشة أنّ المقاطع المذكورة في القرآن تشير إلى معرفة الأسرار بطريقة غير محدودة ؛ فالله يخص الأولياء بهذه الأسرار بالطريقة الحُسنى

نعود إلى التاجر الولي الذي ما إن تسلّم مهامه الجديدة حتى راح يتجول في طول المنطقة وعرضها ؛ فوقع بصره على رجل واقف في متجره وأمامه جرة مليئة بالفاصوليا المسلوقة يقدّم منها لزبائنه كعادته ؛ فأمسك بحجر وكسر به الجرة . وهنا هبّ بائع الفاصوليا وتناول عود نخل وجده أمامه وانهال يضرب الولي به ضرباً مبرحاً، ولكن الوالي لم يتذمر أو يصرخ ومشى بعيداً حالماً تركه ضاربه . فلمّا آبتعد حاول بائع الفاصوليا جمع ما استطاع من حبوبه المبعثرة وكان بقي في الجرة بعض من هذه الحبوب ؛ فنظر البائع إليها ولدهشته رأى ثعباناً ساماً ميتاً في الجرة . فصرخ متعجباً من هول ما فعل : « لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ! أستغفر الله العظيم ! ما الذي صنعته يداي ؟ هذا الرجل ولي من الأولياء ولقد أنقذ زبائني من الموت تسمّماً ». وانصرف ينظر إلى كل مار في الشارع ذاك اليوم ممنياً النفس في رؤية الوالي الذي أذاه ، فيطلب منه المغفرة . ولكنه لم يلمحه قط لأنّ الوالي أُصيب برضوض أقعدته عن السير لكن الولي توجه في اليوم التالي والإزرقاق يعلو ضلوعه من جراء الضربات التي

انهمرت عليه وابلاً وطفق يمشي بصعوبة في ناحيته فكسر جرة كبيرة من الحليب رآها في متجر لا يبعد كثيراً عن متجر بائع الفاصوليا ؛ فلقي المعاملة نفسها التي لقيها في هذا الأخير . وبينما هو يضربه تدافع بعض المارة ورفعوا يده وأعلموه أن الرجل الذي يكيله ضرباً ولي وقصّوا عليه قصة الثعبان السام الذي وجده بائع الفاصوليا في جرّته وقالوا له : « إذهب وألقِ نظرة إلى جرّتك تجد في قعرها شيئاً ما سامّاً أو غير نظيف » . ففعل ذلك ووجد في قعر جرة الحليب كلباً ميتاً . وفي اليوم التالي خرج الوالي متكئاً على عصاه يطوف في منطقة درب الأحمر فوقع نظره على خادم يحمل فوق رأسه صينية فيها من أطباق اللحوم والخضار والفاكهة ما لذ وطاب وكان متوجهاً بها إلى حفلة عشاء مقررة في المنطقة . فجعل الولي عصاه بين قدمي الخادم فطرحه أرضاً وانزلقت الأطباق في الشارع وراح يقدح ويذم ويكيل السباب ويضرب الوالي الضرب نفسه الذي كان معلّمه لينهال عليه به . وتحملق الناس حوله ولاحظ أحد الواقفين كلباً يأكل من الأطباق ولكنه سرعان ما وقع ومات . فأمسك على الفور بيد الخادم وأخبره بما حصل فتأكّد له أن الرجل الذي كان يضربه هو وليّ . واستماح الخادم عذر الوالي وتوسّل إليه أن يغفر له ذنبه ؛ لكن وليّنا وصل به الإشمئزاز إلى درجة تضرّع معها إلى الله والقطب أن يخلصاه من حالته ، فاستجيبت صلواته وتوسلاته وتجرّد من قواه الخارقة وعاد إلى متجره مطمئن البال راضياً بوضعه . والحقيقة أنني أوردت هذه الحكاية لأن الناس في القاهرة يصدقونها ونحن بحاجة في معرض الحديث عن الخرافات إلى الأخذ بآراء العامة أكثر منه بالوقائع . ولا أميل شخصياً إلى تفنيد هذه الرواية جملة وتفصيلاً ، فقد يكون هذا الولي المزعوم قد استخدم أشخاصاً لوضع الثعبان والكلب الميتين في الجرّتين اللتين كسرهما وسمعت عن كثيرين ذاع صيتهم وطارت شهرتهم في الناس كأولياء والفضل كل الفضل لحيل وألاعيب من النوع الذي ذكرته .

تكثر في القاهرة الأمثلة عن أولياء لجأوا إلى التقشف الصارم كما هي الحال بالنسبة إلى المتعبّدين المتزهدين في الهند. ويعيش حالياً في القاهرة ولي جعل في عنقه طوقاً حديدياً وربط نفسه إلى جدار غرفته ويُقال إنّه في هذا

الوضع منذ ثلاثين عاماً ؛ بيد أن بعض الأشخاص يؤكدون أنهم رأوه يغطي نفسه بحرام كما لو كان نائماً ، ولمّا رفعوا هذا الحرام عنه لم يجدوا أحداً تحته . وكثيرة هي القصص في هذا النوع التي يصدّقها بعض الذين يتمتعون بعقل راجح متزن ، فلا يجرؤون على الهزء أو التشكك بها فتلك إهانة لا تغتفر . وسمعت مؤخراً عن ولي قطعوا له رأسه لجرم لم يرتكبه فتكلّم رأسه بعد قطعه ، وكذلك وعن آخر قُطع رأسه في ظروف مشابهة فسال دمه على الأرض وخطّ بحروف عربية إعلان براءته : « أنا ولي من أولياء الله ولقد متُّ شهيداً » .

والميزة الملفتة للنظر في تركيبة الشعب المصري وشعوب بلدان الشرق الأخرى أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتبنون خرافات بعضهم البعض في الوقت الذي يزدرئون فيه العقائد المنطقية والعقلانية في دياناتهما المختلفتين. فقد يستعين المسلم مثلاً في مرضه برجال دين مسيحيين ويهود ليصلّوا له، وكذا الأمر بالنسبة إلى المسيحيين واليهود الذين غالباً ما يستنجدون في الحالات نفسها بالأولياء المسلمين حتى يبرأوا من أمراضهم . ومن عادات بعض المسيحيين زيارة أولياء مسلمين في القاهرة فيقبّلون أياديهم ويتوسلون صلواتهم ويسترشدون بنصائحهم أو يأخذون بتنبؤاتهم ؛ ويحملون إليهم الهدايا ويغدقون عليهم الأموال .

ينسب المسلمون إلى الرسول ﷺ إجتراح معجزات عديدة رغم أن الرسول ﷺ ينكر القدرة على اجتراحها ويقولون إن معجزات من هذا النوع ما تزال قائمة إن بصورة مستمرة أم متقطعة إجلالاً للرسول ﷺ ، وهي تؤكد التكريم الإلهي والشرف اللذين خصّه الله بهما . ويحدّثنا الحجاج الذين زاروا المدينة المنورة عن رؤيتهم كلّ مساء شعاع نور باهت يرتفع من القبة فوق قبر الرسول ﷺ عالياً في السحب وصولاً - برأي البعض - إلى الجنة؛ ولكن ما إن يدنو الناظر من القبر حتى يختفي النور الطالع . وهذه إحدى المعجزات التي يقال إن العين ما تزال تشهدها ولمّا سألت أحد أصدقائي المسلمين الأكثر تعقلاً وتحصّفاً وكان زار المدينة المنورة عن حقيقة هذا التأكيد لم ينفِ الخبر ؛

فهو كان يرى شعاع النور هذا كل ليلة خلال إقامته في المدينة ولاحظ أنّ هـذا الشعاع إنّما هو دليل دافع مؤثر على تفضيل الله وتكريمه « لسيّدنا محمد » . ولم أجرؤ فأسـأله عن حقيقـة ما أكّـد رؤيتـه ولم أقتـرح عليـه أن تكـون الأضـواء المشعشعة في المسجد كلّ مساء قد عكست نورها فأحدثت هذا الأثر ؛ وحتّى أفصل في الموضوع طلبت من صديقي أن يصف لي القبر وقبّته . . . فأجابني أنّه لم يدخله ولم يدخل الكعبة في مكة المكرمة بسبب حالة الإضطراب العصبي الكبير التي كانت تصيبـه (ويعود ذلـك إلى تبجيله هذه الأمـاكن المقدسـة إلى درجة هيستيرية) وكذلك بسبب انتماء صاحبي إلى المذهب الحنفي ؛ فهو يعتبر أنه من غير اللائق أن تطأ قـدماه الأرض المقـدسة أو أن يجازف فيدنّس قـدميه بالسير حافي القدمين ممّا يضطره إلى ازتداء جوارب جلدية أو مـزّ داخل حذائه الخارجي وذلك ما لم يستطع تحمّله . ويؤكد الحجاج أيضاً رؤية نور يومض ثم يخبو باتجاه المدينة المنورة وهم على بعد ثلاثة أيام أو أكثر منها ؛ وهم يؤمنون بأنّ هذا النور صادر عن قبر الرسول ﷺ ويضيفون أنهم كانوا يـرون هذا النـور كيفما اتجهوا . وفي هذه القصة والقصة التي سبقتها مسحة شعرية جلية .

يبجّل المسلمون على اختلاف مذاهبهم مسلمـو مصر[1] بشكـل خاص ـ ما عدا الوهابيين ـ الأولياء المتوفين بشكـل لا يسمح بـه القرآن الكـريم ولا تقرّه الأحـاديث النبويـة الشريفـة ويكرّمـونهم أكثر من الأوليـاء الأحيـاء . فيشيـدون المساجد الفسيحة ذات الشكل الهنـدسي الرائـع فوق مقـامات معـظم الأولياء المشهـورين . وأمّا الأوليـاء الأقل شـأناً (والـذين اكتسبوا شهـرتهم كأوليـاء أو

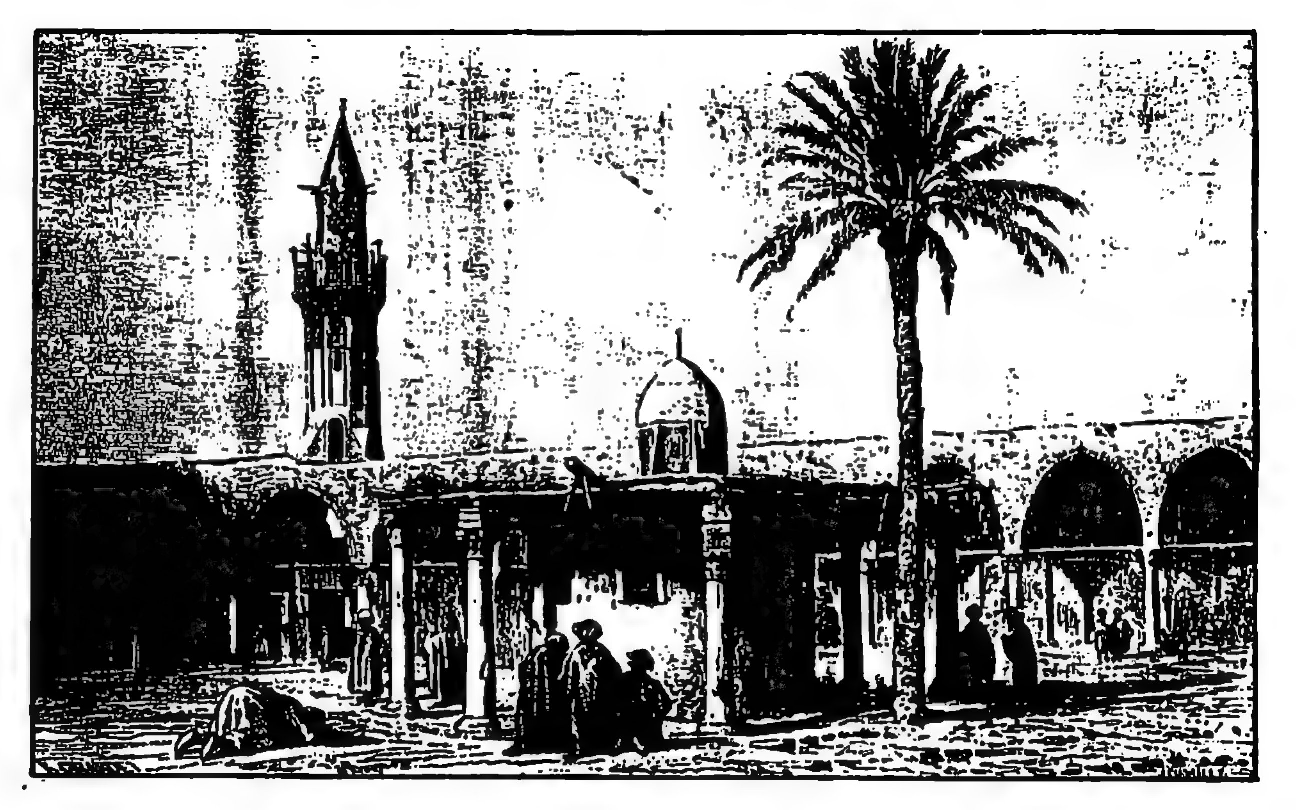
---

(١) تعود بعض التقاليد الخرافيّة التي يعرفها المسلمون في مسار تصرفاتهم العادية البسيطة إلى الإحترام المذهل الذي يكنّوه لنبيّهم ولأوليائهم عامة . فإذا عمد واحدهم إلى إضاءة المشعل ليلاً خاصة متجره تسمعه يقول : « اللهم كرّم محمّداً ولا تنسَ أشراف علي ؟ الفاتحة لرسـول الله ولكل وليّ » . ثمّ يعيـد الفاتحـة . كذلـك من عاداتهم القـول عند رؤيتهم الهلال لأول مرّة : « اللهمّ بارك على سيّدنا محمد » . وتجدر الإشارة إلى أنهم يلجأون إلى هذا الدعاء الأخير لردّ العين الحاسدة الشـريرة ؛ فـالعربي لا يخشى العين الحاسدة الشريرة فحسب بل وكذلك عينه الناظرة بإعجاب إلى أمرٍ ما .

كشيوخ نذروا أنفسهم للعبادة مكراً أو بعيشهم عيشة تقوى) فيُبنى لهم مسجد صغير مربع الشكل مبيض بالكلس تعلوه قبة . ويقع فوق القنطرة حيث يرقد الولي نصب حجري (التركيبة) أو خشبي (التابوت) ؛ ويكون التابوت مغطّى بدثار من الحرير أو الكتان وقد نُقِشَ عليه بعض كلمات من القرآن ؛ ويحيط به حاجز من الخشب أو البرونز يُعرف « بالمقصورة » . والعديد من مقامات الأولياء في مصر عبارة عن قبور بسيطة ، بيد أن العديد منها يحتوي على أثر من الولي الذي أقيم الضريح لأجله . ونجد في المقابل بعض القبور الجوفاء (وهي قبور أو أنصبة تشيّد تكريماً لأمرىء دُفن جثمانه في موضع آخر) وأكثر هذه الأماكن شهرة « جامع الحسنين » حيث يُقال إن رأس الشهيد الحسين ابن الإمام علي (كرّم الله وجهه) وحفيد الرسول ﷺ مدفون فيه . ومن بين الأضرحة الأدنى مرتبة في القداسة « جامع السيدة زينب » (ابنة الإمام الحسين) وجامع السيدة نفيسة » (إبنة حفيد الإمام الحسن) و « جامع الإمام الشافعي » وهو - كما ذكرت سابقاً - أحد مؤسسي المذاهب الإسلامية الأربعة الذي ينتمي إليه معظم سكان القاهرة . والجوامع المذكورة باستثناء الجامعين الأخيرين مشيّدة في العاصمة : فالأول قائم في ضاحية القاهرة الجنوبية والثاني في القرافة الجنوبية الكبيرة .

يزور المصريون مقامات أوليائهم إمّا لمجرد الزيارة تكريماً وتقديراً لهؤلاء الأولياء المعزَّزين الذين سيحلّون عليهم بعضاً من بركتهم وإمّا لطلب أمر خاص كاستعادة الصحة والعافية أو طمعاً بذرية صالحة ؛ وهم يؤمنون بأنّ الأولياء سيستجيبون لصلواتهم التي يرفعونها في مثل هذه الأماكن. كذلك يعتبر المسلمون أنّ أولياءهم سيتشفعون لهم عند الله فيقدّمون لهم النذور . وينبغي على زائر المقام أن يلقي السلام عند زيارته مقام الولي ثمّ يردّده عينه عند دخوله المدفن ؛ وأعتقد أن قليلين هم الذين يتقيدون بالتسليم الثاني . ويجعل الزائر عند التسليم الأول وجهه أمام قبر الولي ويدير ظهره نحو القبلة ؛ ثم يطوف حول « المقصورة » أو النصب يسرةً ثم يمنة فيتلو سورة الفاتحة بصوت خافت أو في قلبه عند باب « المقصورة » أو عند كل جانب من جوانبها الأربعة . وقد يتلو

أحياناً سورة أطول من القرآن بعد سورة الفاتحة أو « ختمة » (وهي تلاوة كاملة للقرآن). وتقام مظاهر التقوى هذه لراحة نفس الولي فتنعكس حسناتها على الزائر الذي يقرأ تلاوة من القرآن. ولما ينتهي يختمها بهذا الدعاء: «سبحانك اللهمّ وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جَدُك ، لا شريك لك في ملكك» ، ثمّ يضيف « وسلام على المرسلين والحمد للّه رب العالمين . اللهم تقبل مني آيات الذكر الحكيم والقرآن العظيم أرفعها لروح صاحب هذا المقام » أو « لروح هذا الولي » . فإن لم يخصّ الداعي أحداً بدعائه أو ينوِ ذلك، تعود حسنات الدعاء والتلاوة له وحده . وبعد هذه التلاوة ، يقوم الزائر - إذا رغب - بالصلاة للحصول على البركة الروحية كأن يقول : « اللهم أستحلفك برسولك وبصاحب هذا المقام أن تحل علي بركاتك » أو يقول : « أثقالي وهمومي على الله وعليك يا صاحب المقام » . ومن الأفضل أن يجعل الزائر وجهه صوب المقصورة والقبلة. وأظن شخصياً أنّه ينبغي على الزائر التقيّد في هذه الحالة بقاعدة التسليم . ويقبّل الزائرون عامة عتبة هذا البناء والجدران والمقصورة - وهذه عادة مستهجنة بين المسلمين فهي تقليد لعادة يعرفها النصارى. ويوزّع الأغنياء والميسورو الحال عند زيارتهم ضريح ولي المال أو الخبز على الفقراء ويعطون السّقاة مالاً حتّى يقدّموا الماء للفقراء والعطاش عن روح الولي .
وتخصّص أيام في الأسبوع يزور فيها الناس مقامات الأولياء ؛ فيزور الرجال « جامع الحسنين » يوم الثلاثاء وتزوره النساء يوم السبت ؛ وكذلك يزور البعض « السيدة زينب » يوم الأربعاء و« الإمام الشافعي » يوم الجمعة . ويحمل الذكور عادة في مثل هذه المناسبات عساليج من الآس فيضعون بعضها على الضريح أو على الأرض داخل المقصورة ويوزعون ما يبقى منها على أصدقائهم . ويضع الفقراء أحياناً « الخوص » (من أوراق النخل) على قبور معارفهم وأقربائهم ؛ وأمّا نساء القاهرة فيستبدلن الآس أو أوراق النّخل بالورود والزهور وبأوراق الحنّاء والياسمين .



جامع عمرو في القاهرة

يقع في كل قرية مصرية تقريباً ضريح لشفيع أو ولي يزوره أهل القرية في يوم محدد من الأسبوع خاصة النساء اللواتي يحملن معهن الخبز ويتركنه للمارة الفقراء أو غيرهم . وقد يضع البعض قطع نقود معدنية صغيرة في هذه الأضرحة ، وهي هبات للشيخ (أي الولي) أو لروحه الطاهرة . ومن عادات الفلاحين المصريين الأخرى القيام بنذور عند أضرحة هؤلاء الشيوخ . فقد يقوم أحدهم « بنذر » مثلاً إذا شفي من مرضه أو رُزق بولد ، ويعطي هذا « النذر » لشيخ (متوفى) ويكون عبارة عن خروف أو ماعز . فإذا استجاب الله لدعائه وتحقّقت أمنيته يضحي بالحيوان عند ضريح الشيخ ويقيم وليمة يطعم خلالها اللحم للأشخاص الذين يختارهم . وعندما تتمّ التضحية بالحيوان لهذا الولي ، يوزّع لحمه على الفقراء لسد جوعهم . وقد ينذر بعضهم الصبية الصغار « كأضحية » في المستقبل ، فيشقون أذن الصبي اليمنى أو يرسمون له علامة خاصة في جسده وقد يقيم بعضهم النذور دون سبب معيّن سوى الحصول على بركة الولي ، كما ينذر أحياناً فلاح عجلاً يملكه لهذا الولي بعد أن يربيه ويسمّنه . ويترك هذا العجل يرعى حراً طليقاً بموافقة جيران الفلاح أجمعين حيثما يشاء حتى في حقول القمح ؛ وتُقام وليمة عامة يشارك فيها الجميع في أكل لحم العجل . ولا مانع أن يضحي الفلاح بثور إيفاءاً لنذره .

يكرّم المصريون كل ولي من أوليائهم تقريباً باحتفال شعبي يُعرَف « بالمولد » فيزورون في مثل هذه المناسبات أضرحة هؤلاء الأولياء ويعتبرون زيارتهم واجباً ووسيلة فُضلى للحصول على بركة خاصة . ويحضرون الفقيه ويدفعون له ليتلو آيات من القرآن كما يؤدي الفقير الذكر. كذلك يعلق العامة في جوار الضريح الأضواء والمصابيح أمام أبوابهم ويخصّصون نصف ليلتهم لمتعتهم الشخصية فيدخنون ويحتسون القهوة ويستمعون إلى رواة القصص الشعبية في المقاهي أو إلى تلاوة مباركة من القرآن أو إلى إحياء ذكر . وتتدلّى حالياً أمام باب منزلي المصابيح المشعة نوراً وضّاحاً بمناسبة مولد » شيخ مدفون بالقرب من منزلي ولا يمتنع المسيحيون عن تعليق هذه المصابيح في مثل هذه المناسبات والإحتفالات التي تستمر أياماً عديدة . وأمّا

أهم مولدين تشهدها القاهرة إلى جانب مولد الرسول ﷺ فهما مـولدا الحسنين والسيدة زينب اللذين سأتناولهما بـالبحث في الإحتفالات الشعبيـة التي يحييها المصريون . ولا يتوجه المصريون إلى أضرحة أوليائهم لمجرد التبرك بها ، فهم يخشون أن يحل بهم سوء طالع إن هم أهملوا الزيارة . واليوم وأنـا أكتب هذه السـطور يعاني أحـد أصدقـائي من مرض مـردّه ـ حسب اعتقاده ـ إلى إهمـاله حضور احتفالات « السيد أحمد البدوي » في طنطا خلال العامين المنصرمين . ويستقطب ضريح هذا الولي زواراً كثيرين خـلال مواسم الإحتفـالات السنويـة الكبيرة يتوافدون إليه من العاصمة ومن مناطق أخرى في الدلتا، تماماً كما تجذب مكة المكرمة إليها الحجـاج من مختلف أقطار العـالم الإسلامي وتقـام لهذا الولي ثلاثة موالد سنويـاً : المولد الأول في العاشر من شهر طوبه القبطي (بين ١٧ و١٨ يناير) والثاني خلال الإعتدال الربيعي أو نحوه ، والثالث وهو المولد الأكبر بعد حـوالي شهر على انقـلاب الشمس الصيفي (أو قبيل منتصف شهـر ابيب القبطي) عندما يرتفع منسوب النيل بشكل كبير علماً أن سدود القنوات لم يتم تقطيعها بعد . ويدوم كل ارتفاع لمياه النيل أسبوعاً كاملاً ويوماً واحداً ، وهو يبدأ يوم جمعة وينتهي بعد ظهر يوم الجمعة التالي ؛ ويجري كل مسـاء عرض للألعاب النارية. ويحتفل بعد أسبـوع من هذه المـوالد بمـولد « السيـد ابراهيم الدسوقي » في مدينة دسوق الواقعة على الضفة الشرقية لفـرع النيل الغـربي وكان « السيد إبـراهيم » وليّاً مشهوراً جداً يلي « السيد البدوي » مرتبة . ويعتبر هذان المولدان من الأعياد الشعبية إلى جانب كونهما من الإحتفالات الدينية . يبقى معظم الزوار خلال مولد السيد « السيد ابراهيم » في مراكبهم بينما يعرض بعض دراويش « السعدية » من الرشيد أعمالهم البطوليـة بواسـطة الثعابين التي يحملها بعضهم بواسطة حلقات فضية يضعونها في أفواههم فترد عنهم لسعاتها ؛ وقد يلتهم بعضهم الآخر هذه الثعابين جـزئياً وهي حيّـة . وتقتصر الإحتفـالات الدينية على الذكر وتلاوة من القرآن . ومن العادات التي درج عليها المسلمون ـ كما اليهود ـ إعادة بناء أضرحة أوليائهـم وتبييضها بالكلـس وتزيينها و وضع غطاء جديد أحياناً فـوق التركيبـة أو التابـوت ؛ ونشير إلى أن العـديد من المصـريين

يقومون بذلك متظاهرين بالتقوى التي يبديها اليهود .

يكثر « الدراويش » في مصر ويبدي المصريون احتراماً كبيراً لبعض هؤلاء الذين ينقطعون إلى الممارسات الدينية ويعيشون من الحسنات التي تقدَّم لهم خاصّة أبناء الطبقات الدنيا . ويلجأ « الدراويش » إلى حيل مختلفة طامعين في الحصول على شهرة أكبر بالنسبة إلى قدرتهم على اجتراح المعجزات ، ويعتبر بعضهم من الأولياء .

يتمتع أحد المتحدرين المباشرين من سلالة الخليفة الأول « أبي بكر » (والذي يحمل لقب « الشيخ البكري ») بسلطة مطلقة على كل طبقات الدراويش في مصر . ويعرف « الشيخ البكري » الحالي والذي يتحدر كذلك من سلالة الرسول ﷺ « بالنقيب الأشرف » . كذلك للخليفة الثاني « عمر بن الخطاب » ممثله وهو « شيخ العنانيّة » أو « أولاد العنان » وهم طبقة من الدراويش يعود اسمهم « لابن العنان » أحد شيوخهم المشهورين . وأمّا الخليفة الثالث « عثمان بن عفان » فلا ممثل له لأنّه لم يترك ذرية ؛ وللخليفة الرابع « علي بن أبي طالب » ممثل وهو « شيخ السادة » ؛ ولا يكتسي هذا اللقب أهمية كبرى كلقب « النقيب الأشرف». ويُعرف كل من هؤلاء الشيوخ الثلاثة بصاحب سجادة سلفه الأكبر ، كما يعرف شيخ كل طريقة من طرائق الدراويش الأخرى بصاحب سجادة مؤسّس هذه الطريقة ، وتعتبر هذه السجادة بمثابة العرش الروحي . وفي القاهرة أربع سجّادات كبيرة للدراويش هي سجادات الطرائق الأربع الكبيرة المذكورة آنفاً . وأمّا أشهر طرائق الدراويش في القاهرة فهي :

١ ـ « الرفاعية » التي أسّسها السيد أحمد رفاعة الكبير . يعرف أتباع الرفاعية بأعلامهم وعماماتهم السوداء وقد تكون عماماتهم أحياناً من الصوف الأزرق الداكن أو من الموسلين الأخضر الغامق . ويشتهر الدراويش الرفاعيون بأعمالهم الرائعة . تعتبر « الإلوانية » أو « أولاد إلوان » فرقة من الرفاعية يزعم أتباعها بأنّهم قادرون على غرز المسامير الحديدية في عيونهم وأجسادهم دون أن يصابوا بأدنى أذى . ويقومون بهذه الأفعال ظاهرياً

بطريقة يخدعون بها كل من يصدّق أن بإمكان أي أمرىء القيام بهذه الأعمال حقيقة . ويكسر أصحاب هذه الطريقة كذلك أكوام الحجارة على صدورهم ويأكلون الفحم والزجاج ويُقال إنهم يمرّرون السيوف داخل أجسادهم ويغرزون الإبر في وجناتهم دون أن يخدشوا أو يتألموا ؛ وتجدر الإشارة إلى ندرة مشاهدة مثل هذه الأعمال . ولقد سمعت عن عادة درج عليها « أولاد إلوان » تقضي بتجويف جذع شجرة نخل وحشوها بالأسمال ومن ثم صبّ الزيت والقطران وإضرام النار فيها وحمل الكتلة المحروقة تحت الإبط بأداء ديني (ولا يرتدي واحدهم سوى سرواله) فتأتي النيران على صدره العاري وظهره ورأسه دون أن تؤذيه على ما يبدو . ومن فرق الطريقة الرفاعية «السعدية» التي أسّسها الشيخ «سعد الدين الجباوي» وتكون رايات أتباع هذه الفرقة وعماماتهم خضراء أو من ذات اللون الداكن لأتباع الرفاعية عامة . ويحمل الكثيرون من دراويش هذه الطريقة الثعابين السامة الحية والعقارب ويلتهمونها جزئياً . وهم ينزعون أنياب هذه الثعابين السامة فيجعلونها عاجزة عن الإيذاء يزيلون دون شك كذلك سموم العقارب . ونرى « شيخ السعدية » في بعض المناسبات (كالإحتفال مثلاً بمولد الرسول ﷺ) يمتطي حصاناً ويمر به على أجساد عدد من الدراويش وأشخاص آخرين يطرحون أنفسهم أرضاً لهذه الغاية ، فلا يصابون بأذى ـ كما يؤكدون ـ من دوس حوافر الحصان . ويعرف هذا الإستعراض « بالدّوسه » ويعتمد الكثيرون من دراويش الرفاعية والسعدية في عيشهم على سحر الثعابين وإبعادها عن المنازل .

٢ ـ «القادرية» وهي طريقة أسّسها السيد «عبد القادر الجيلاني». وأمّا رايات أتباع هذه الطريقة وعماماتهم فبيضاء اللون . ومعظم أتباع « القادريه » في مصر من صيادي السمك يحملون عواميد شبكات صيد ذات ألوان مختلفة تتراوح بين الأخضر والأصفر والأحمر والأبيض كما أعلام طريقتهم .

٣ ـ « الأحمدية » وهي طريقة السيد « أحمد البدوي » الذي تحدثت عنه آنفاً تتميز رايات أتباع هذه الطريقة وعماماتهم باللون الأحمر. وأمّا « البيّومية »

(التي أسسها السيد علي البيومي) و « الشعراوية » (وأسّسها الشيخ الشعراوي) و « الشنّاوية » (وقد أسّسها السيد علي الشناوي) وغيرها ففرق من الطريقة الأحمدية . ويقوم أتباع « الشناوية » بتدريب بغل يؤدي حركات غريبة في احتفالات اليوم الأخير لمولد وليهم الكبير « السيد أحمد البدوي » في طنطا إذ يدخل البغل وحده جامع السيد ويتوجه نحو الضريح ثم يقف والجموع الغفيرة من حوله ؛ وكل من استطاع الدنو منه ينتزع بعض خصلات من شعره يستخدمها كتعويذة حتى يصبح جلد البغل المسكين خالياً من الشعر كراحة يد الإنسان . ومن فرق الأحمدية الأخرى « أولاد نوح » المؤلفة من شباب يرتدون ما يعرف « بالطرطور » تزيّنه شرابة من القماش الملون في قمته ويتمنطقون بالسيوف الخشبية وبالخرزات ويحملون سوطاً - « الفركيلة » - مصنوعاً من حبال سميكة ملتوية .

٤ - « البَرَاهِيَمية » أو « البُرهامية » وهي طريقة « السيد إبراهيم الدسوقي » وقد تحدثت عن مولده سابقاً . ويتميز أتباع « البرهامية » براياتهم وعماماتهم الخضراء .

تكثر طرائق الدراويش وقد يشكل بعضها فرقاً لإحدى الطرائق المذكورة . ومن بين هذه الطرائق : « الحفناوية » و « العفيفية » و « الدمرداشية » و « النقشبندية » و « البكارية » و « الليثية »

يستحيل علينا أن نطّلع على عقائد الدراويش وأحكامهم واحتفالاتهم فهم يشبهون الماسونيين في أنهم لا يكشفون عقائدهم لمن لا ينتمي إلى دائرتهم . وقد وصف لي أحد الدراويش من معارفي كيف أخذ على نفسه « العهد » الذي لا يتغير تقريباً في كل الطرائق . وكان « شيخ الدمرداشية » قد قبله فرداً من أفراد هذه الطريقة . ولمّا انتهى من وضوئه تحضراً للصلاة ، تربّع على الأرض أمام الشيخ الذي كان يجلس مثله ، ثم تصافح الشيخ و « المريد » - وهو العضو - فضمّ كل واحد منهما يده اليمنى إلى يد الآخر كما يحصل عند إبرام عقد الزواج . وهكذا يقطع « المريد » على نفسه عهداً بينما يغطي أيدي الإثنين ردن

ثوب الشيخ فيردّدان ما يقوله الشيخ الذي يبدأ بطلب الإستغفار : « أستغفر الله العظيم » (ثلاث مرات) فلا إله إلا الله الحي الباقي الديّوم أعود إلى الله تائبـاً طامعاً في واسع رحمته ومغفرته وأعوذ به من حال أهل النار » . فيسأله الشيخ « هل تعود إلى الله تائباً ؟ » فيجيبه المريد : « أعود إلى الله تائباً ؛ وأنا حزين لما فعلته ومصمّم على عدم الإرتداد إلى الكفر » . ثم يعيد بعد الشيخ : « وأسـأل رحمة أرحم الراحمين ورسوله الكريم وأسترشد طريقي إلى الله بشيخي وسيدي عبد الرحمن الدمرداشي الخلواتي الرفاعي النبوي ؛ فلا أبـدّله أو أفتـرق عنه ؛ والله على ما أقول شهيد . الله أكبر » . (ويكرّر قسمه ثلاث مرات) ؛ « لا إله إلاّ الله » (ثلاث مرات) . بعدها يتلو الشيخ والمريد الفاتحة معاً ويختم المريد هذا الاحتفال بتقبيل يد الشيخ

تتمحور الاحتفالات الدينية التي يقيمها الدراويش حول الذكـر . فيقفون في شكـل حلقة دائـرية أو مستـطيلة أو في صفين ، وجوههم مـوجهة لبعضهم البعض ، أو يجلسون أحياناً فيبتهلون قائلين : « لا إله إلاّ الله » أو « الله ! الله ! الله ! » أو غيرها من الابتهالات ، فيهزون رؤوسهم وهم يدعون الله أو يحركون أجسادهم كلها وأذرعهم . والدراويش قادرون على الاستمـرار طويـلاً في هذه الوضعية دون توقف . ويرافقهم في ابتهالاتهم وتضرّعاتهم بصورة متقطعة عازف واحد أو أكثر ينفخ « الناي » أو « الأرغل » إضافة إلى بعض الذين يغنون الأغاني الدينية ويستخدم بعضهم « الباز » (طبل صغير) خلال إحيائهم الـذكر كمـا يقوم بعضهم الآخر بأداء رقصة خاصة غريبة أترك وصفها للفصول اللاحقة .

يمارس بعض فرق الدراويش الخاصة شعائـر معينة (في الصـلاة وطرق إحياء الذكر) بينما يتبع أفراد الطرائق الأخرى شعائر أخرى مختلفة . ونذكر من بين الطرائف هذه : « الخلوتية » و « الشاذلية » وهما طريقتان مهمّتان لكلّ منهما شيخها الخاص بها ويكمن الفرق الأسـاسي بينهما في طـريقة الصـلاة التي يكرّرانها يومياً ، كمـا يميّز أتبـاع « الخـلوتية » أنفسـهم بـالعزل أحيـاناً الـذي يفرضونه على أنفسهم ومن هنا تسميتهم بالخلواتيين . فهم يبدأون صلاتهم قبل

الفجر ويعرّفونها « بورد السَّحر » بينما تُعرف صلاة الشاذليين « بحزب الشاذلي » ويقيمونها بعد انبلاج الفجر . وقد يفرض « الخلواتي » على نفسه أحياناً العزل المنفرد ويبقى في خلوته أربعين يوماً وليلة صائماً من الفجر حتى المغيب طوال هذه الفترة . كما قد يعزل عدد من أتباع هذه الطريقة أنفسهم في خلية منفصلة في مدفن جامع « الشيخ الدمرداشي » الواقع شمالي القاهرة فيبقون فيه ثلاثة أيام وليالي بمناسبة مولد هذا الشيخ ويكتفون بقليل من الأرز يسدون به جوعهم وبكوب من الشربات يحتسونه كل مساء . وينكبون يصلون أشكالاً معينة من الصلاة لا يفصحون عنها لغير أتباعهم ولا يخرجون من مختلاهم إلاّ لإقامة الصلوات الخمس الجماعية في الجامع ، فلا يردّون على من يطرح عليهم أي سؤال إلاّ بـ « لا إله إلا الله » يتبع الدراويش الذين يعزلون أنفسهم القواعد عينها ويمضون الوقت يعيدون شهادة الإيمان ويستغفرون ربهم ويسبّحونه .

ينتمي كل الدراويش المصريين تقريباً إلى طبقة التجار أو الصّناع أو المزارعين ولا يحضرون سوى احتفالات طرائقهم وشعائرها . ونجد في المقابل بعض الدراويش الذين لا عمل آخر لهم سوى إحياء حلقات الذكر خلال موالد الأولياء وفي الحفلات الخاصة وتلاوة آيات القرآن في المراسيم الجنائزية . ويعرفون « بالفقراء » وهي تسمية تُطلق أيضاً على المساكين عامة ويتميز بها المتعبدون الفقراء . ويكسب بعض الدراويش لقمة عيشهم بالعمل كسُقاة فيقدمون للمارين في شوارع القاهرة والزوار الذين يحضرون الاحتفالات الدينية الماء الذي يحملونه في آنية فخارية أو في جلد الماعز على ظهورهم . ويحيا بعضهم حياة تجوال وتسكع ويعيشون على الزكاة التي يطلبونها بكل إلحاح وصفاقة ؛ فيميّزون أنفسهم كالأولياء الذائعي الصيت بارتدائهم « الدّلك » وحملهم عصا تجمّعت في رأسها رقع ثياب من ألوان مختلفة بينما يرتدي بعضهم الآخر ثياباً غريبة عجيبة تتلون أوصافها .

يحيا بعض الدراويش من أتباع الرفاعية (إلى جانب الدراويش الذين يعدون الثعابين عن المنازل) حياة حط وترحال فيتنقلون في أرجاء مصر

مستغلين خـرافة لا بـد لي من ذكرهـا كان « لسي داوود الأعـزب » من قريـة « طفاحينة » في منطقة الدلتا عجل يحضر له الماء ويساعده في أعمـال شتى . فلمّا مات « سي داوود » هذا إتّبع بعض الدراويش الرفاعيين عادة تربية العجول في مسقط رأسه أو في مكان مدفنه ، فكانوا يعلمونها المشي صعوداً والتمدد عند أمرها ثم ينطلقون يتجولون بها في البلاد كل واحد يمسك عجلاً فيجمعون بذلك الحسنات ويعرف هذا العجل « بعجل الأعزب ». ودعوت ذات مرة أحد هؤلاء الدراويش إلـى منزلي مع عجله وهو العجل الوحيد الذي رأيته . وكان عبارة عن عجل يشبه الجاموس يتدلّى منه جرسان ، الأول مربوط بطوق حول عنقه والثاني بحزام حول جسمه . وانطلق هذا العجل يصعد السلالم بشكل جيد ولكن بدا عليه أنه لم يُدرَّب تدريباً كافياً ويعتقد العامة أنّ « العجل الأعزب » يدخل إلى المنزل البَركة التي يحملها من الولي المسمّى باسمه .

يكثر في القاهـرة الدراويش الأتـراك والفرس الـذين تنطبق عليهم صفـة الوقاحة أكثر من الدراويش المصريين القليلين الذين يعيشون حياة مماثلة. يتـوجه غالباً أحد الدراويش الغرباء خـاصة في شهـر رمضان إلى جـامع الحسنين الـذي يتوافد إليه الأتراك والفرس وقت صلاة الجمعة. وعندما يتلو الخطيب الخطبة الأولى، يمرّ بين صفوف المصلين الجـالسين على الأرض ويضع أمـام كل واحـد منهم ورقة صغيرة كتبت عليها بعض الكلمات تدعو إلى فعل الخير (مثلاً : « من يأتي الزكاة له جزاء حسن » ـ أو « الدرويش الفقير يبحث عن زكاة » . . .) ؛ فيحصل من كل واحد منهم على قطعة من خمس فضات أو عشر فضات . يحمل بعض الـدراويش الفرس في مصـر سلطانيـة مسـتطيلة من جـوز الهنـد أو الخشب أو المعدن يضعون فيها المال المتصدَّق به عليهم وكذلك طعامهم وملعقة خشبية ويرتدي معـظم الدراويش الغـرباء أثـواباً خـاصة حسب الـطرائـق التي ينتمون إليهـا ويتميـزون خاصة بقبعاتهم التي تتخذ شكلاً مخروطياً وتكون مصنوعة من اللباد ؛ ويتألف باقي زيهم من سترة وسـروال أو من قميص وحزام إضـافة إلى عباءة خشنة أو رداء طويل . ينتمي الدراويش الفرس إلى السّنة وأمّا الأتراك فأكثر الدراويش تطفلاً بين الطبقتين .

وتطالعني الآن خرافـة أخرى يؤمن بهـا المصريـون والعـرب عـامـة وهي إيمانهم بأنّ للطيور والبهائم لغة خاصة بها تتناقل أفكارها بواسطتهـا وتسبح الله وتحمده .

الفصل الحادي عشر

الخرافات (تابع)

يقودني الحديث عن خرافات المصريين المحدثين إلى الحديث عن إيمانهم بالتعاويذ المكتوبة التي تعتبر السمة البارزة في قاموس خرافاتهم . وترتكز معظم تعاويذهم على السحر فيستنفدون في سبيلها أقلام معلمي كل قرية في بلادهم . ولا يتعمق صاحب هذه المهمة في دراسة أمور السحر بل يعتمد على حفظ بعض الصيغ المستعملة في كتابة التعاويذ والمستقاة خاصة من القرآن الكريم ومن أسماء الله الحسنى وأسماء الملائكة والجن والرسل والأولياء فيضيف إليها بعض الأرقام وبعض الرسوم البيانية ذات التأثير الكبير .

يعتبر « المصحف » (وهو نسخة عن القرآن) أكثر أنواع الحجب تقديراً وأرفعها منزلة في عيون المصريين . وقد درج الأتراك المنتمون إلى الطبقتين المتوسطة والغنية وغيرهم من المسلمين على تغليف مصحف صغير في قماش جلدي مطرّز أو غلاف مخملي وتثبيته إلى الجانب الأيمن من صدورهم بواسطة خيط حريري يمرّرونه فوق الكتف اليسرى ، وهذه عادة غير شائعة كثيراً اليوم

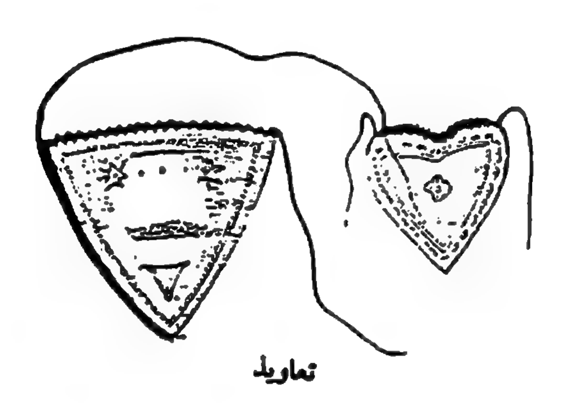
لاحظت خلال زيارتي السابقة إلى مصر أنّ معظم أصحاب الشأن الأتراك المرتدين الزي العسكري يضعون هذا الحرز عند جانبهم الأيمن وإن لم يكن يحتوي على حجاب في داخله . ترتدي النساء المصحف وأنواعاً أخرى من الحجب يحفظنها في حرز ذهبي أو فضي اللون ؛ ويعتقد عامة المصريين أن الحرز الذهبي وغيره من التعاويذ ذات تأثير بالغ فهو يحميهم من الأمراض

والسحر ويبعد عنهم العين الشريرة . يلي المصحف الحرز الذهبي أهمية ، وهو كتاب أو دَرْج يضم غالباً السور القرآنية التالية : سورة الإنعام (س ٦) سورة الكهف (س ١٨) وسورة يس (س ٣٦) وسورة الدخان (س ٤٤) وسورة الرحمن (س ٥٥) وسورة الملك (س ٦٧) وسورة النبأ (س ٧٨) أو غيرها من السّور ، ويشمل عادة سبع سور . ومن التعاويذ التي يؤمن بها المصريون أيضاً واحدة يعتقد حاملها (التي يضعها عادة تحت قبعته) أنها تحميه من الشيطان ومن كل الجن الأشرار ؛ وهي عبارة عن ورقة صغيرة مكتوب عليها بعض آيات من القرآن الكريم : ﴿ ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ (سورة البقرة/٢٥٥) و ﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾ (سورة يوسف /٦٤) و ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ (سورة الرعد /١١) و ﴿ حفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ (سورة الحجر /١٧)و ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ (سورة الصافات /٧) و ﴿ وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ و ﴿ والله من ورائهم محيط بل هو قرءان مجيد في لوح محفوظ ﴾ (سورة البروج /٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٢) . كما يعتقد المصري أنه إذا دوّن أسماء الله الحسنى التسعة والتسعين على ورقة وحملها في حجاب فوق صدره تنعكس صفات الرحمن خيراً عليه . كذلك يعتبر أن تدوين هذه الأسماء الحسنى أو صفات الرسول ﷺ على أي غرض في المنزل وتكرار قراءتها كلّها من أولها إلى آخرها يبعد عنه النحس ونوائب الدهر والطاعون وكل الأمراض الفتاكة الأخرى والعين الحاسدة والحريق والدمار والأتراح والسحر . وتسمع المسلم يردّد بعد تعداده هذه الأسماء : « ﷺ ! »[1] . تعرف أوساط المصريين تعويذة أخرى يدونون فيها

---

(١) قبيل مغادرتي منزلي في القاهرة وعودتي إلى إنكلترة، كتب شيخي (وهو صديق لي) على ورقة صغيرة : « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » ثم مزّقها إلى نصفين وأعطاني النصف الثاني (أي الورقة التي كتب عليها : محمد رسول الله) وخبّأ الورقة الثانية في شق في رف خزانة صغيرة في غرفة الجلوس . وعمله هذا من شأنه أن يضمن عودتي إلى القاهرة ؛ فلا يمكن برأيه أن تبقى شهادة الإيمان ناقصة ، وما إبقاء نصف الورقة الأخرى معي (وهي نصف الشهادة) سوى تأكيد على ضرورة عودتي لإتمام نصف الشهادة الأولى .

أسماء « أصحاب الكهف » مع اسم كلبهم ؛ فيحفرون هذه الأسماء أحياناً في كعب كوب ماء أو في دائرة صينية مستديرة نحاسية مثبّتة فوق كرسي خاص يتحملقون حولها لتناول طعام الغداء أو العشاء . ومن التعاويذ الغالية على قلوب المصريين تعويذة يفترضون أنّ لها تأثيراً مشابهاً تضم أسماء أشياء بسيطة تركها الرسول ﷺ عند وفاته. وتشمل هذه الأشياء سبحتين ومصحف الرسول ﷺ (بطريقة مبعثرة) ومكحلته وسجّادتين للصلاة وطاحونة يد وعصا



تعاويذ

ومساويك لتنظيف الأسنان ومجموعة ثيابه والزُّق الذي كان يخصّصه للوضوء وخفّاً و « برداً » وثلاث حصر ورداءاً مكسواً بزرديّة وآخر صوفي طويل وبغله الأبيض « الدّلال » وناقته « العدبة » . كما يدوّن المصري آيات من القرآن الكريم على بعض قصاصات الورق تحفظه من الآفات والكوارث وتعيد إليه عافيته وصحته وتوطّد عرى الصداقة وترسّخ الحب في القلوب . وتجعل هذه التعاويذ في غُلف ذهبية أو فضية أو جلدية أو حريرية ويحملها كافة المصريين المحدثين رجالاً ونساءاً وأطفالاً

لا تستغربنَّ قارئي رؤية الأطفال في هذه البلاد يعلّقون التعاويذ التي تحميهم من اللّامة فيضعونها في غُلف خاصة مثلثة الشكل في أعلى قلنسواتهم ؛ ولا ينسون أحصنتهم فيزودونها بلواحق مشابهة يحترس المصريون كثيراً من اللاّمة ولا يألون جهداً لتحاشي عواقبها الوخيمة المفترضة . فإذا عبّر أحدهم عن إعجابه بشيء ما تعبيراً حاسداً ، يتنبّه الشخص المقصود

لكلامه فيوبخه قائلاً : « بَارك الرسول ! » ، فإن أطاعه الحاسد يردّ عليه كالتالي : « اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد » ، فيتأكد أن لا أذى واقع . كذلك يتضايق المصريون كثيراً إن عبّر أحد الأشخاص عن إعجابه الشديد بشخص آخر أو بغرض ما كأن يقول : « كم هو جميل! » أو « جميل جداً » أو « حفظنا الله » بينما يرتاحون لسماع عبارة « ما شاء الله! » التي تفصح عن الإعجاب وتدل على الخضوع لإدارة الله ومن الأفضل أن يستبدل المرء تعبير « كم هو جميل ! » بعبارة « ما شاء الله ! » وأن يبارك الرسول ﷺ . لقد تحدّثت في معرض هذا الكتاب عن خوف الأمهات المصريات الشديد على أطفالهن من اللاّمة ، لذا تسمع المصري يردّد وهو يأخذ طفلاً بين ذراعيه : « بسم الله الرحمن الرحيم » و « اللهم صلِّ وسلّم على سيدنا محمداً » فلا ينسى « ما شاء الله » التي يختم بها كلامه . كما قد يفصح المصري عن إعجابه بأحد الأطفال بطريقة أخرى مستنيراً بسورة الفلق (سورة ١١٣ من القرآن الكريم) فيردّد : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وتشير هذه السورة في آخرها إلى الحاسد وحسده . والطّامة الكبرى إن حدّق أحدهم بأولاد المصريين فارتسمت على وجهه أمارات الحسد ؛ فيسارع أب الولد إلى أخذ شيء من أثر ثوب الطفل يحرقه مع قليل من الملح (وقد يضيف بعضهم الكُزبرة أو حجر الشّب) ثمّ يبخر الطفل برماد ما يكون أحرقه وينثر الرماد على طفله أو أطفاله علماً أنّه يقوم بهذه العملية قبيل المغيب .

يعتمد المصريون كثيراً على حجر الشّب لدرء مخاطر العين الحاسدة (اللاّمة) ، فيضيفون قطعة منه بحجم حبة الجوز على الفحم المشتعل ويتركونها حتى يخمد دخانها . وهم يقومون بإحراق حجر الشب قبيل المغيب أيضاً . ويردّد القائم بهذه العملية سورة الفاتحة وآخر ثلاث سور من كتاب الله العزيز ـ وهي سور قصيرة ـ ثلاث مرات بينما حجر الشب يحترق . ويُقال إن هذا الحجر يتّخذ شكل الشخص الذي أصابته اللامة عندما يتم إخراجه من النار ؛ وأخيراً يسحق المصريون الحجر ويضعونه في الطعام المخصص للكلاب ويطعمونه لكلب أسود خاصة . ولقد شاهدت في إحدى المرات رجلاً

يقوم بإحراق حجر الشب بعد أن شكّك في نظرة جاسدة رمقته بها زوجته ؛ فاتخذ الحجر شكلاً يشبه إلى حدّ بعيد شكل المرأة وزعم الرجل أن هذا الشكل يذكره بطريقة جلوس خاصة لزوجته . ويعتمد شكل هذا الحجر اعتماداً كلياً تقريباً على كيفية توزيع الفحم فلا يمكن لمخيلة المرء تصور أي شبه فيه لأي إنسان . لا يكتفي المصريون لطرد العين الحاسدة بحجر الشّب بل يحاولون إبعادها بواسطة الإبرة التي يغرزونها في ورقة ويردّدون مع كل غرزة : « هذه عين الحاسد فلان » ويحرقون الورقة عند انتهائهم ويبقى حجر الشب أفضل التعاويذ وأكثرها فعالية لطرد العين الحاسدة ؛ لذا تراهم يختارون حجراً صغيراً منه يزينونه بشرابات ثم يعلقونه في رأس قلنسوة الطفل ، كما قد يلجأون إلى الأصداف الصغيرة والأخراز للغاية نفسها ويعوّلون على الأصداف الصغيرة المعروفة «بالوَدْعات» لتحميهم من العين الحاسدة. ولا مانع من استعمالها كزينة يعلقونها إلى جلّ الناقة أو الحصان أو غيرها من الحيوانات وأحياناً إلى قلنسوة الطفل . والهدف الأول من هذه الزينة جذب العين إلى هذه الحيوانات فيمنعون بذلك هذه العين من حسد الغرض أو الشخص الذي وُضعت أصلاً لحمايته .

لا مانع أن يلجأ المصريون خاصة المصريات إلى « الميعة المباركة » التي تحضّر وتباع خلال الأيام العشرة الأولى من شهر محرّم . فتلمح خلال هذه الفترة الرجال في شوارع القاهرة يحملون مزيج الميعة المخصّصة للبيع وتسمعهم يصرخون بملء أشداقهم : « ميعة مباركة ! سنة جديدة وعاشورا مباركة ! إن شاء الله تكون أكثر السنوات بركة على المؤمنين ! يا ميعة مباركة! » . ويطوف البائع حاملاً ميعته على رأسه في صينية مستديرة يغطيها بقصاصات ورقية ملونة ويجعل في وسطها مزيج الميعة الثمين . وتزين وسط هذه الصينية كمية من « التّفل » ضارب لونه إلى الحمرة مخصّص للصّباغ يُمزج مع قليل من هذه الميعة والكزبراء والشُمرة . ولا تقتصر الصينية على كومة الميعة الكبيرة بل تشمل أيضاً أكوام أخرى من الملح المصبوغ بصبغ أزرق وأحمر وأصفر إضافة إلى « الشّيح » و « اللّبان » . هذه هي عامة المواد التي تدخل في تركيبة الميعة المباركة يتوجّه بائع الميعة عادة إلى منزل الشاري ، فيطرح صينيته أرضاً

أمامه ويتناول طبقاً (أو ورقة) يضع فيه الكمية التي يريد الشاري شراءها ؛ فيأخذ قليلاً من الكومة الأولى والثانية والثالثة وهكذا دواليك ؛ ويعيد الكرة فيأخذ كمية إضافية من كل كومة من الأكوام وتسمعه يمدح الله مدحاً طويلاً فيبدأ على الشكل التالي : « باسم الله ! والله ! ما من غالب غير الله رب المشرق والمغرب : كلنا خدمه وعبيده ؛ وَحِّدوه! » ويعد أن يتحدث عن الملح وميزاته يتابع مدحه الغنائي فيقول : « رقيتك من عين البنت الغارزة أكثر من المسمار ؛ ورقيتك من عين السِّت الحادة أكثر من السكين ؛ ورقيتك من عين الولد المؤلمة أكثر من السوط ومن عين الرجل القاطعة أكثر من سكين الفرح ؛ الخ » . ثم يقصّ على سامعيه حكاية سليمان الحكيم الذي جرّد العين الحاسدة من قوّتها وتأثيرها ثمّ يروح يعدّد كل محتويات المنزل ويحث الشاري على ابتياع هذا الخليط فيبعد العين الحاسدة عن منزله ؛ ويعوّل البائع في غنائه على كلمات تافهة فارغة من أي معنى يتوخّى منها انسياق اللحن وتناغم الوتيرة . ويخزّن الشاري الميعة المباركة ـ والقبضة منها بخمس فضات للسنة التالية . فلما يحسّ بعين حاسدة تحوم حول طفله يأخذ حفنة من الميعة ويرشّها فوق الفحم المشتعل في طبق الإحماء فيعلو الدخان ويغطي وجه المحسود .

تنتشر بين الطبقتين المتوسطة والغنية في القاهرة عادة تعليق المصابيح في الأعراس في شارع منزل العريس كما قد يتجمع حشد من الناس ـ وهذا ما يحصل غالباً ـ حول شمعدان معلّق غاية في الجمال والكبر ؛ والوسيلة الوحيدة لتحويل انتباه المتفرجين هي كسر جرّة كبيرة أو اللجوء إلى حيلة أخرى مخافة أن تصيب اللاّمة الشمعدان فيقع . وكثيرة هي الحوادث التي ترسّخ إيمان المصريين بخرافاتهم بالنسبة إلى العين وحسدها . ولقد أخبرني صديق لي عن حادثة جرت له منذ فترة بسيطة . وكان صديقي هذا يراقب ناقة تحمل جرّتي زيت كبيرتين فوقفت امرأة أمام الناقة وصاحت مندهشة : « حفظنا الله ! ما أكبرهما ! » . ونسي ممتطي الناقة أن يطلب منها مباركة الرسول ﷺ ؛ وما هي إلّا دقائق عديدة حتى انطرحت الناقة أرضاً فكسرت الجرّتين .

تطالعني وأنا أكتب هذه الملاحظات عن خرافات المصريين المحدثين

شكوى رفعها لي أحد أصدقائي المصريين تساهم في إبراز ما ذكرته لتوي ؛ ومشكلة صديقي « أن الجزارين أخذوا يعلّقون خرافهم المذبوحة أمام محلاتهم في الشوارع العامة بعد أن أوقف الباشا احتكار اللحم . ويصدم مثل هذا الأمر صديقي ، إذ ترمق عيون المارة الخراف هذه ويحدجها المتسولون بنظرات حاسدة ممّا قد يسبب في تسمّم الشخص الذي يأكل لحمها بسبب العين الحاسدة كذلك أتاني طبّاخي متذمّراً مشتكياً فهو يتجشم مسافة طويلة ليبتاع اللحم من ملحمة جزار لا يعرض لحمه على المارة في الشارع علماً أنه توجد أمام المنزل ملحمة قريبة .

يعلّق العديد من التجار المصريين في العاصمة وغيرها من المدن المصرية فوق متاجرهم (خاصة فوق المصراع المتدلي الأمامي) ورقة مكتوب عليها اسم الله عزّ وجلّ أو اسم الرسول ﷺ أو الاسمين العزيزين معاً أو شهادة الإيمان (أي أشهد أن لا إلّه إلّا الله وأنّ محمداً رسول الله) أو البسملة (أي باسم الله الرحمن الرحيم) أو حكمة للرسول ﷺ أو آية من آيات القرآن الكريم كآية ﴿ إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ (سورة الفتح /١) وآية ﴿ نصرٌ من الله وفتحٌ قريب وبشر المؤمنين ﴾ (سورة الصف /١٣) أو عبارات تضرع إلى المولى عزّ وجلّ مثل : « يا فاتح ، يا حكيم ، يا وهّاب ، يا رحيم » . ويردد التاجر هذه الأدعية عندما يفتح متجره صباحاً وكذلك البائع المتجول عندما يبسط بضاعته من خبز وخضار وفاكهة . ومن عادة أبناء الطبقات الدنيا تقبيل أول قرش يحصلون عليه في النهار ورفعه إلى جباههم قبل أن يستقر في جيوبهم .

لا يكتفي المصريون بمثل هذه التضرعات والأدعية ينقشونها فوق متاجرهم بل غالباً ما يعمدون إلى نقش اسم الله سبحانه وتعالى - « يا رب » فوق المنازل الخاصة . كذلك تقع عين الناظر إلى هذه المنازل على نقش على أبوابها « هو الخلاق الباقي » بالحروف الكبيرة ؛ ويعتبرون هذه الكلمات بمثابة تعويذة تحميهم من الشرور وتذكر أصحاب هذه المنازل بفنائهم كبشر وبديمومة الخالق . وهم ينقشون هذه الكلمات على باب المنزل الذي غيّب الموت سيده وسكانه الآخرين .

وأهمّ التعاويذ التي يؤمن بها المصريون لإبعاد شبح المرض أو الآفات عنهم تدوين مقاطع من القرآن الكريم في آنية من الفخار ساكبين الماء داخلها حتى يختفي الكلام المكتوب فيشرب المريض منهم محلول الماء والكلمات الربانية علّه يحمل الشفاء للعليل السقيم . والآيات القرآنية هي التالية : ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ (سورة التوبة /١٤) أو ﴿ يا أيّها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (سورة يونس /٥٧) أو ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ (سورة النحل /٦٩) أو ﴿ وننزّل من القرءان ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (سورة الإسراء /٨٢) أو ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ (سورة فصّلت /٤٤). تشير هذه الآيات إلى براء القلوب والنفوس أكثر منه إلى شفاء الأجساد من العلل ، كما تشير الآية المأخوذة من سورة النحل إلى منافع العسل . ولمّا سألت الشيخ أن يذكر لي أسماء السور التي أُخذت منها هذه الآيات ، رجاني ألاّ أعمد إلى نقلها إلى لغتي الأم إذ لا تجوز ترجمة معاني القرآن بغياب النص الأصلي ولا يرجع شيخي سبب هذا التحريم إلى خجله من استعمال هذه الكلمات كتعويذة ، فهو غير راغب في إطّلاع مواطنيّ الإنكليز وغيرهم على هذه العادة الشائعة بين المصريين ؛ وأعرب عن عميق إيمانه بفعّالية الآيات حتّى في حالة الكافر شرط أن يؤمن هذا الأخير بمنافعها وفضائلها ، وأردف شرحه بحديث للرسول الأعظم ﷺ فقال لي : « لاحظ أن الرسول ﷺ ذكر في حديث له : « لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » . طمأنت شيخي وهدّأت من روعه وشرحت له أنّنا ـ مجمع الأوروبيين ـ نملك ترجمة إنكليزية لمعاني القرآن الكريم. وقد يبلّ المريض عروقه أحياناً بجرعة ماء يشربها من آنية معدنية نقشت داخلها بعض آيات قرآنية وطلاسم وأرقام ، ففيها ـ حسب الاعتقاد الشائع ـ شفاء من الأمراض وهي ترياق للسموم . وأنا أملك في الواقع آنيةً من هذا النوع قدّمها لي أحدهم في القاهرة فاستحوذت على إعجاب معارفي من المسلمين . وإذا تأملتَ الآنية من الخارج وجدت كتابة منقوشة تعدّد مزايا

التعويذة : فهي تعويذة تقتل السموم وتبعد العين الحاسدة « وتشفي من كل الأمراض ما عدا سكرات الموت » . كما لفت نظري إناء آخر مشابه للإناء السابق بيد أن كتاباته المنقوشة كانت قد محيت بعض الشيء . ويؤمن المصريون بالفضائل والحسنات المخفية التي تحملها آيات القرآن في ثناياها ؛ فذات يوم رفضت أن أتناول طبق طعام مخافة أن يضر معدتي ، فطلب مني أصدقائي أن أتلو سورة قريش (سورة ١٠٦) من أوّلها إلى آخرها حيث أختم السورة بآية : ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ وأن أكرّر هذه الآية ثلاث مرات ، فتقيني من الأذى الذي أخشاه .

يعرف المجتمع المصري جملة أمور تشبه التعاويذ المكتوبة تريح نفوسهم وتثلج صدورهم كأن يأخذوا حفنة من التراب حول قبر الرسول ﷺ أو يشربوا من ماء زمزم الطاهرة في قلب مكة المكرمة ويقصّوا قطعاً من القماش الأسود الذي يغطي الكعبة[1] ويقدّر المصريون ماء زمزم أرفع تقدير فيرشّونه على أكفان أمواتهم . وسمعني ذات مرة عربي أعطيته دواءاً ناجعاً وكنت التقيته في الصعيد خلال رحلتي الأولى لهذه البلاد أسأل عن شيء من ماء زمزم (وكانت السفن التي تنقل الحجاج في طريق عودتها من مكة تعبر نهر النيل) ؛ فاعتقد هذا العربي أنني مسلم تقي ورع وأعرب عن خالص امتنانه للدواء الذي قدمته له فأعطاني مبتغاي من الماء . ولمّا ذهب هذا الرجل إلى منزل أحد أصدقائه عاد إلى مركبي حاملاً رزمة صغيرة فتحها أمامي وقال : « هاك شيئاً يسرّ خاطرك . خذ هاتين القنينتين الصغيرتين من ماء زمزم : إشرب الأولى تروي بها غليلك واحتفظ بالثانية يرشّون بها كفنك بعد أن تبلغ روحك التراقي . وأمّا هذا «فَمِسْوَكُ» مغمّس بماء زمزم فأرجو أن تقبله هدية مني لك ؛ نظّف أسنانك بهذا المسوك فلا ينخرها السوس ولا تتلف. وأمّا هذه (وأشار إلى ثلاث رقاقات صغيرة ترابية اللون تبلغ كل واحدة منها إنشاً طولاً منقوشة عليها حروف عربية: «بسم الله ، تراب

---

(١) يتم كل سنة في اليوم الأول للعيد الكبير مباشرة بعد أداء مناسك الحج تغيير غطاء الكعبة وإبداله بآخر جديد . وأمّا الغطاء السابق فيقطّع ويباع قسمه الأكبر إلى الحجاج .

طاهر من أرضنا ممزوج بلعاب بعضنا») فرقاقات ـ أردف يقول ـ مصنوعة من التراب الذي يغطي قبر الرسول ﷺ. ولقد ابتعتها بنفسي من القبر الشريف وأنا في طريق عودتي من مناسك الحج إسمح لي أن أقدّم لك واحدة منها فتجد فيها علاجاً شافياً لكل مرض يصيبك ؛ وأمّا الرقاقة الثانية فأحتفظ بها لنفسي ، وأمّا الثالثة فنأكلها معاً» وهنا تناول إحدى الرقاقات الثلاث فقسّمها قسمين وتناول كل واحد منا حصته وأكلها ووافقته الرأي (وكنت قرأت الكلام المنقوش) أنّها لذيذة الحذاق وقبلت هداياه بكل طيبة خاطر . ولقد تمكّنت لاحقاً من إغناء مجموعتي المكيّة بقماش من ذات النوع الذي يغطي الكعبة حملها الشيخ إبراهيم من مكة وأعطاني إيّاها « عثمان » الذي أوصاه الشيخ إبراهيم بذلك . يخيط المصريون الرقاقة المصنوعة من تراب قبر الرسول ﷺ في حرز جلدي يحملونه كتعويذة كما يعمدون أحياناً إلى تقطيع الرقاقة إلى قطع بحجم الإجاصة الصغيرة يعلقونها على الحاجز الذي يحيط بمقام أحد الأولياء أو إلى المقام نفسه أو إلى نوافذه وبابه .

وكم هي كثيرة التعاويذ التي يلجأ إليها المصريون فتؤمن لهم حسن الطالع أو تمنع عنهم الشرور على اختلافها ، وكم هي مختلفة الخرافات التي يؤمنون بها لدرجة لا تكفي معها صفحات هذا الكتاب لسردها وتفصيلها . تُعرف جملة هذه الطرق لجلب الحظ ومنع توطد الشر عندما لا تقوم على الدين أو السحر أو التنجيم بأمور « علم الرّقة » (وهو علم النساء) ؛ ويشير هذا التعبير إلى عبثية هذه الأمور التي تعوّل عليها النساء تعويلاً كبيراً . يعتبر البعض أنّ هذا التعبير تحريف « لعلم الرُّقيه » بينما يفترض البعض الآخر أنّ في الكلام تورية لغوية . ولقد تناولت في متن هذا الكتاب بعض الممارسات المستقاة من الطبيعة عينها ، لذا أكتفي بعرض نماذج أخرى بسيطة . تشيع في القاهرة عادة تعليق نبات الألوه فوق أبواب المنازل خاصة فوق باب منزل جديد أو فوق باب حديث البناء . والألوه في نظرهم تعويذة تؤمن عيشة رغيدة وحياة مديدة لقاطني المنزل واستمراراً طويلاً للمنزل نفسه وتعتقد النساء أنّ الرسول ﷺ يزور المنزل الذي علّقت فيه ألوة . لا يحتاج هذا النبات المعلّق إلى ماء أو تراب ، فهو

يعيش سنوات طويلة وتتفتح أوراقه أحياناً ، لذا يطلقون عليه اسم « الصَّبر » .

وقد يخشى شخص شراً متطايراً يصيب شخصاً آخر فيسارع إلى كسر آنية فخارية وراء ظهر الشخص المصاب . كما يلجأ المصري إلى ذلك بهدف تحاشي الإختلاط بهذا الشخص .

تكثر في مصر الإصابات بالرّمد ويلجأ الشعب المصري البسيط إلى شتى الوسائل السخيفة ذات الطبيعة الخرافية لمداواته . فلا يتردّد المصري مثلاً للشفاء من التقاط قطعة وحل جافة من ضفة النيل أو بالقرب من بولاق (وهو المرفأ الرئيسي للقاهرة) فيعبر النهر ويرمي قطعة الوحل الجافة هذه على الجانب المقابل للنيل في « إمبابه » ؛ فهذه حسب اعتقادهم الوسيلة الفضلى لتأكيد العلاج . وقد يعلّق آخر سكونياً إيطالياً (نقد ذهبي) إلى الرأسية فوق جبهته أو فوق العين المصابة تدرأ عنه خطر الشرور . ينبغي أن يكون هذا السكوين مميّزاً في شكله بحيث تتطابق الرسوم المنقوشة عليه تطابقاً تاماً فيأتي الرأس على الرأس والقدم على القدم . فإن دخل شخص ـ وكان يحمل في جيبه سكويناً إيطالياً أو دولاراً ـ غرفة مريض يعاني من التهاب العين أو الحمّى يزيد وجوده الطينة بلة والمريض وجعاً كذلك إن دخل فرد وكان غير متطهر غرفة أحد المصابين بالتهاب العين ، تزيد حدة المرض وتظهر بقعة في عيني المريض معاً أو في عين واحدة . وأعرف مصرياً يعاني من هذا الإلتهاب حبس نفسه طوال ثلاثة شهور خوفاً وتحسّباً ولم يكن يسمح لكائن من كان بدخول غرفته ، فكان خادمه يحمل إليه الطعام دائماً ويضعه خارج بابه . ومع ذلك خرج صديقي من محبسه ترافقه بقعة سوداء أصرّت على الاستقرار في عينه .

يداوي المصريون العقم الذي يصيب النساء خاصة بطريقة مميزة ومثيرة للإشمئزاز . تعتبر في الواقع فسحة « الرميلة » الواقعة غربي قلعة القاهرة مسرحاً عاماً لإعدام المجرمين ؛ إذ كانت تنزل عقوبة الإعدام بقطع رؤوس الأشخاص المرتكبين جرائم كبيرة في العاصمة في هذه الفسحة . ويقع إلى جنوبي هذا المكان مبنى يُعرف « بمغسل السلطان » حيث يتم غسل جثة كل من نُفّذ به حكم الإعدام فيُجعل الميت على طاولة حجرية قبلَ أن يوارى الثرى . وهناك حوض

يجري فيه الماء الذي يبقى داخله فيتلطّخ دماً وتنبعث منه رائحة نتنة . وإلى هذا المكان تتوجه المرأة المصرية إمّا طلباً للشفاء من التهاب العين وإمّا طمعاً في ذرية صالحة وإمّا لتسهيل ولادتها إن جاء حملها متأخر ؛ فلا تنبس ببنت شفة (والصمت سيد الموقف) وتمرّر تحت الطاولة الحجرية التي تحدثت عنها مقدم قدمها اليسرى أوّلاً ثم تعبرها وتكرّر هذه العملية سبع مرات . وأخيراً تغسل وجهها بالماء الملوّث في الحوض وتعطي العجوز وزوجته الحارسين للمكان خمس أو عشر فضات وتقفل عائدة والصمت حليفها كذلك يحذو الرجل المصري حذو المرأة في حال أصابه التهاب العين . ويُقال إن « بيبرس » المشهور هو الذي بنى هذا المغسل قبل أن يُتوّج سلطاناً بعد أن لاحظ أنّ جثث الأشخاص الذين تقطع رؤوسهم في القاهرة تهمل وتُرفس وتُدفن دون أن تُغسل .

تعتقد بعض النساء أنهن إذا مررن فوق جثة رجل نفّذت به عقوبة قطع الرأس سبع مرات متتالية دون أن يتفوهن بكلمة واحدة يصبحن حاملات . وقد تتملّك رغبة الحمل بعضهن فيخضّلن قطعة من الصوف القطني في الدم ويستخدمنها بطريقة استميح عذر قارئي في عدم نشرها

وأمّا البثرة على حافة الجفن فللمصرين طريقة خاصة في علاجها . فمن تظهر على جفنه « شحّاتة » ـ وهي الاسم الذي يطلقه المصريون على هذه البثرة ـ يقصد سبع نسوة كلّ واحدة منهن تحمل اسم « فاطمة » ساكنات سبعة منازل مختلفة ويستجديهن لأن تعطيه كل واحدة من « الفاطمات » قطعة خبز ؛ ففي قطع الخبز السبع هذه شفاء لصاحب « الشحاتة » وقد يعتمد آخر علاجاً مختلفاً لشحّاتته فينهض قبل طلوع الفجر ولا يتكلم إلى أحد فيطوف سبعة قبور من اليمين إلى اليسار وهذه طريقة معكوسة للتطواف الطبيعي عند زيارة المقابر . وتتنوع طرق معالجة « الشّحاتة » فيربط المصري المصاب بها قطعة قطن صغيرة إلى طرف عود يغمّسها في أحد الأحواض التي تشرب الكلاب منها في شوارع القاهرة ثمّ يمسح عينه بها . ويكون المصاب يقظاً فلا يغمّس يده في المياه الملوّثة عندما يلمس بدنه بها .

أمّا إذا أصابت الملاريا بعض أبناء هذا الشعب فللمصريات ـ وأخصّ المسلمات منهن ـ وسيلة علاج لا تخطر على بالك ولا تومض في خيالك : إذ يتقلّدن في رقابهن إصبعاً يقطعنه من جثة مسيحي أو يهودي بعد أن يجففنه وهذا ـ وغيره من الأمثال ـ دليل قاطع على الآثار الإنحرافية للخرافات وتأثيرها الكبير على عقول أبناء هذا الشعب . ويحرص المسلمون على اتباع تعاليمهم الدينية بحذافيرها ، فهي تجنبهم كل ما هو نجس ملوث .

يستنبط المصريون طريقة خاصة لعلاج الطفل العاجز عن السير بعد أن يكون بلغ السن المناسب . فتوثق الأم قدمي طفلها بورقة نخل تجعل فيها عقدات ثلاث وتحمله وهو مربوط إلى باب أحد الجوامع وقت صلاة الجمعة حيث تحتشد جموع المؤمنين . فلمّا تنتهي الصلاة تبادر إلى الطلب من أول ثلاثة خارجين من الجامع أن يفك كل واحد منهم عقدة من العقدات ؛ بعدها تحمل الأم طفلها إلى المنزل وهي واثقة تمام الثقة بأنّ ما فعلته سيؤثر قريباً على طفلها فيمشي

يلجأ المصريون إلى شتى أنواع الترياق لمعالجة السّموم إضافة إلى علاجات لبعض الأمراض تكون نافعة ناجعة بعض الشيء. بيد أن الخرافات تعزو إلى هذه العلاجات فضائل لا توصف . فهم يستخدمون الحصاة الموجودة في إمعاء الحيوانات وبخاصة المجترة منها ترياقاً ضد السم فيفركونها في فنجان مع قليل من الماء ثمّ يملأون الفنجان ماءاً يشربه المريض . وقد يستخدمون للعلاج نفسه فنجاناً خاصاً مصنوعاً من قرن الكركدن ويقومون بفركه داخل الفنجان كذلك لليرقان علاج ناجع عند المصريين ؛ فيتوجهون إلى بئر في القاهرة معروفة « ببير اليرقان » وهي خاصة امرأة طاعنة في السن تستفيد كثيراً من بئرها . ولهذه البئر فتحتان جُعل تحت إحداهما وعاء جاف للأشياء المطروحة . وتتمنّى العجوز على الأشخاص الذين يأتون ليشربوا من مياه هذه البئر الشافية أن يطرحوا عبر الفتحة كل ما تحتاج إليه من سكر وبن . . .

كما يلجأ المسلمون المصريون إلى ممارسات مختلفة تقوم على الخرافة

ليحسموا مسألـة احتاروا في الإقـدام أو عدم الإقـدام عليها . ويستخيـرون في أمهات مسائلهم جدولاً خاصّاً يعرف « بالزائرجة » كما ينسبون جدولاً مماثلاً إلى «إدريس» . ويقسم الجدول إلى مئة مربع صغير كتب داخل كل واحد منـه حرف من حروف الأبجدية العربية . ويكرّر المستخير سورة الفاتحة ثلاث مرات إضافةً إلى الآية ٥٩ من سورة الأنعام (السورة السادسة) : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاَّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة إلاَّ يعلمها ولا حبّة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلاَّ في كتاب مبين ﴾ . وعندما ينتهي من تكراره الآيات القرآنية دون أن ينظر مباشرة إلى الجدول ، يضع يده على حرف من حروف هذا الجدول ويكتبه ويترك بعده أربعة حروف ويأخذ الخامس ويضمه إلى الأول الذي ابتدىء بـه حتى يكمل عشـرين حرفـاً فقط فتتحصّل من هـذه الحروف خمسة أمور الأول : السر فيـه راحة لمن أراده ، الثـاني ومن يفعل ذلك يلق أثامـاً ، الثالث : طريق أفراح وإقبال وخير ، الرابع : بشّر تنال مرادك ومطلوبك ، الخامس : أقبل ولا تخف ، والله أعلم وصفة الجـدول ها هو كما تراه مرسوماً على الصفحة التالية :

ا	و	ط	ا	ا	ل	م	ر	ب	ف
ت	ن	ي	ش	ب	ر	ي	ق	ر	ل
ك	ف	ا	ت	و	ف	ع	ف	ف	ل
ي	ل	ر	ا	ا	ه	ذ	ا	ل	ت
ز	ا	ح	م	ح	ا	ل	ق	ر	ف
ح	ك	ا	ا	ف	ه	ي	و	د	ف
ل	ل	ل	ك	ع	م	ق	ا	و	ل
ن	ي	ب	م	ك	ا	ا	و	ظ	م
ر	ت	ح	ل	ح	ا	ا	ي	و	م
د	م	ر	ب	و		ا	أ	ك	د

يستخير بعض الأشخاص القرآن لإيجاد جواب شاف لشكوكهم ؛ وهذا ما يعرف « بالإستخارة » يكرّر الشخص في الإستخارة الفاتحة ثلاث مرات وكذلك سورة الإخلاص (سورة ١١٢) والآية المذكورة سابقاً في سورة الإنعام ، ويترك القرآن يقع مفتوحاً أو يفتحه كيفما اتفق ، ويستقي الجواب المطلوب على سؤاله من السطر السابع من الصفحة على يمينه . قد لا يجد المستخير جواباً شافياً مباشراً لسؤاله ولكنّه يحاول التوغل إلى قلب المعنى العام فصالحاً (كالتّيمن بركة) أم طالحاً (توعّداً أو تهديداً) ويعمد البعض بدلاً من قراءة السطر السابع في الصفحة المحدّدة إلى إحصاء حروف « الخاء » و « الشين » في كامل الصفحة ، فإن كان عدد حروف الخاء أكثر يستبشر المستخير خيراً وإذا طغت حروف « الشين » فيتطيّر شراً

وللإستخارة طريقة أخرى تقضي باحتساب النقطتين في النّبحة بعد تلاوة سورة الفاتحة ثلاث مرات ثم عدّ الخرزات بين هاتين النقطتين فيقول الصّمدية (الله الصمد) وهو يمرّر الخرزة الأولى بين أصابعه ثمّ يضيف إليها الحمدلة (الحمد لله) وهو يمرّر الخرزة الثانية ، ويوحّد في الخرزة الثالثة (لا إله إلاّ الله) ؛ وما ينفك يكرّر الصّمدية والحمدلة والتوحيد حتى آخر خرزة في السبحة ؛ فإن وصل إلى الخرزة الأخيرة وصادف أن انتهى بالصمدية فالجواب خيراً ، وأمّا إذا كان وصل إلى الحمدلة ، فلا مبالاة ، وأمّا إذا كان بلغ في التسبيح التوحيد فالجواب يأتيه نفياً ونهياً . تجدر الإشارة إلى أنّ العديد من المصريين يلجأون إلى طريقة الإستخارة هذه .

يتضرع البعض إلى الله عز وجلّ عندما يخلدون إلى النوم ليلاً حتّى يرشدهم ويهديهم في أحلامهم. فإن رأوا خضاراً أو بياضاً أو ماءاً متدفّقاً ذلك يعني أن العمل الذي سيقدمون عليه خير لهم أو أن ثروة ستهبط عليهم ؛ وأمّا إذا كان ما سيقومون به شر لهم ، فيرون في أحلامهم سواداً أو احمراراً أو ناراً مضرمة . وقبل أن يغطّ المستخير في نومه يقرأ سورة الفاتحة عشر مرّات ويدعو ربّه « للصلاة والسلام على سيدنا محمد » حتّى يغطّ في سبات عميق .

يؤمن المصريون إيماناً عميقاً بالأحلام التي ترشدهم غالب الأحيان في أهمّ أعمالهم الدنيوية . وهم يعتمدون على مؤلّفين مشهورين لتفسير الأحلام « لابن شاهين » و « ابن سيرين » وهذا الأخير هو تلميذ الأوّل . ويعتمد رجال الفكر على هذين الكتابين ويعوّلون عليهما ضمنياً فإذا طالع أحدهم صديقه بالقول : « لقد رأيتُ حلماً » يجيبه هذا الصديق قائلاً : « طيّباً » (وهذا فأل خير) أو « طيباً ، أرجوك ربي » . وأمّا إذا كان الحلم مزعجاً فما على الحالم إلاّ أن يردّد : « يا رب سلّم وبارك على سيدنا محمد » ثمّ يبصق ثلاث مرات على كتفه اليمنى تجنّباً لسوء أو كارثة

وللأيّام نصيب في خرافات المصريين وغيرهم من الشعوب : فبعضها يحمل الخير في طيّاته وبعضها الآخر شر مستفحل . وهم ينظرون إلى يوم الأحد نظرة ملؤها التشاؤم . فالأحد ـ كما يفسّر المسلمون المتعلّمون والعديد من أبناء الطبقات الأدنى ـ هو الليلة التي تسبق ليلة الاثنين الليلة التي توفى خلالها الرسول ﷺ ؛ بيد أن غيرهم كثيرين يستبشرون خيراً بالاثنين خاصة لإتمام الزواج وإن لم يكن ميمون الطالع مثل ليلة الجمعة وأمّا اليوم الذي يعقب هذه الليلة فخير للبعض وشرّ للبعض الآخر ؛ ولكن الثلاثاء يوم مشؤوم ويطلقون عليهم « يوم الدّم » بسبب استشهاد العديد من الشهداء المعروفين فيه ، ويعتبرونه يوماً مناسباً ليجودوا بدمهم ولا يبالون بالأربعاء بعكس الخميس « المبارك » المتبارك من النهار الذي يعقبه ؛ ويتوّجون ليلة الجمعة فيجعلونها أكثر ليالي الأسبوع حظاً وبركة خاصّة بالنسبة إلى إتمام أمور الزواج وكما يكرّم اليهود يوم السّبت ، ينزل المسلمون يوم الجمعة في مرتبة خاصة ويعرّفون يوم الجمعة بيوم « الفضيلة » والطامة الكبرى تقع يوم السبت . فمن الخطأ أن يبدأ المصري يومه هذا اليوم بحلاقة ذقنه أو تقليم أظافره ؛ وهذا ما دفع أحد أصدقائي المصريين إلى التفكير مليّاً قبل أن يصدر حكمه على شخصين في يوم مشؤوم كيوم السبت . وأخيراً رأى أن يوم السبت هو أفضل يوم في الأسبوع لإصداره الحكم لأن سوء الطالع لن يصيب سوى أحد الفريقين المتنازعين ولا شك أنّ سوء الطالع هذا سيلاحق خصومه فهما اثنان مقابل واحد وفي السّنة أيام خاصة يعتبرها المصريون غاية في السعد وحسن الطالع كأيّام العيدين ، أو غاية في النحس كآخر يوم أربعاء في صفر ، فلا يخرجون من منازلهم حتّى لا تقع على رؤوسهم النوائب والكوارث التي تصيب البشرية في هذا اليوم . كما يتوسّم بعضهم خيراً أم شراً من أوّل أمر تصادفه أبصارهم فتسمعهم يقولون إن خيراً « نهارنا مُنوّر » وإن شرّاً : « نهارنا زفْت » وأمّا الإنسان الأعور المسكين فنذير شر وخاصة إن كانت عورته حطّت الرّحال في عينه اليسرى .

الفصل الثاني عشر

السحر/التنجيم/الكيمياء

لو كنّا لنصدّق بعض القصص والروايات لشائعة في مصر لخلصنا إلى القول إن في مصر الحديثة اليوم سحرة يضاهون « حكماء فرعون وسحرته » براعة .

يميّز المسلمون المتفكرون نوعين من السحر : « الرّوحاني » و« السيميا » . وأمّا الروحاني فسحر يستعين بالملائكة والجن والتأثير الغامض لبعض أسماء الله الحسنى ؛ وأمّا السيميا فيلجأ إليها بسطاء المسلمين الذين يؤمنون بوجود عطور وعقاقير لها مفعول الأفيون تقريباً في العين والفكر . ويعتقد بعض الأشخاص أنّ عقّار الأفيون أساسي في السيميا .

يقسم السحر الروحاني الذي يعتبره المصريون سحراً حقيقياً إلى نوعين : « العِلْوي » و« السفلي » أو يعرّفون عنهما باسمين مختلفين فينعتون الأول « بالرّحماني » (نسبة إلى صفة الرحمن في الله تعالى) والثاني « بالشيطاني » . والسحر العلوي أو الرحماني علم مجوزه الله تعالى وملائكته والجن الصالحون والأمور الشرعية المستخدمة لأغراض طيبة ولا يمارس هذا السحر سوى المستقيمين من الرجال الذين يحفظون أسماء الوسطاء فوق مستوى البشر وتضرعات مستقاة من الأحاديث الشريعة ومن الكتب ممنّين النفس في استجابة رغباتهم . في الواقع ترتبط كتابة التعاويذ لأغراض صالحة بالسحر وعلم التنجيم وعلم أسرار الأرقام ويكمن أرفع إنجاز في السحر الروحاني في معرفة « إسم

الأعظم » الذي لا يعلمه سوى أنبياء الله ورسله. ويكفي أن يتَلفظَ الاسم كل من يعرفه حتى يصبح قادراً على إحياء الموتى وقتل الأحياء والإنتقال حيثما يشاء والقيام بمعجزات أخرى . ويفترض البعض أن يكون الأولياء البارزون يعرفون الاسم الأعظم وأمّا « السفلي » فوسطاؤه الشيطان والجن الصالحون وأغراضه شريرة وينجزه أناس أشرار ، وإليه ينتمي « علم السّحر » الذي يطلقه العرب عامة على أنواع السحر المؤذية . ويزعم الأشخاص الذين « يضربون المندل » أنهم يتخذون الجن وسطاء لهم أي أنّهم يطبّقون العلم الروحاني ؛ بيد أن الآراء متضاربة حيال هذا الموضوع . وأذكرّ القارىء أنني أوردت شرحاً مفصلاً عن الجن وكيفية مساعدتهم المشعوذين في الفصل العاشر في هذا الكتاب .

يعتبر رجال الفكر علم « السيميا » علماً خاطئاً مضلّلاً يحدث تأثيرات مدهشة ويعتمد على الوسائل الطبيعية التي ذكرتها سابقاً ، ويؤكدون أنّ « ضرب المندل » واستخدام العطور والأطايب جزء من السيميا

تشيع في مصر دراسة « علم النجوم » . وهو علم متخصص في معرفة الطوالع وتحديد الفترات الأوفر حظاً في حياة الإنسان والبروج الفلكية التي تؤثّر فيه ، فيحسبون القيمة العددية للحروف التي تؤلف اسم الشخص واسم أمه . ويلجأون عادة إلى هذا النوع من الدراسة الحسابية لرجل وأمرأة على وشك الزواج للتأكد من تناسبهما. وأمّا «ضرب الرمل» الذي يحسب من خلال بعض العلامات التي تتمّ جزافياً على الورق أو الرمل ، فيزعم ضاربوه كشف ماضي الإنسان وحاضره وحتّى مستقبله ويرتكز أساساً على علم التنجيم

ينتشر بين المصريين إضافة إلى علم التنجيم « علم الكيميا » ، فيتابع بعض الموهوبين الذين يتوخّون صيتاً أكبر وشهرة أفضل تجاربهم غير المجدية حتى سن متقدّمة رغم هزء أصحاب العقول الراجحة الرزينة لهم وملامة هؤلاء الذين يضللونهم من غير قصد .

ولا بد أحياناً من معرفة عميقة بمسائل الكيمياء لدراسة هذا العلم الخاطىء . فإذا اهتم أجدهم بالكيمياء في هذا البلد الذي تشهد فيه المعرفة

انحطاطاً وتقهقراً ، يدرجونه في قائمة الأدمغة المتفوقة .

إشتهر الشيخ « اسماعيل أبو الرؤوس » كثيراً في العلم الروحاني . ولقد روى الكثيرون ـ ومنهم مثقفون ومفكرون ـ حكايات غريبة عجيبة عن مهارته السحرية ، فأكدّ بعضهم زواجه بجنيّة وتحدّث بعضهم الآخر عن جن يخدمونه يطلبهم ويأمرهم فكرياً فلا يستعين بتعويذة ولا بفانوس علاء الدين . ولا يكرّس الشيخ « أبو الرؤوس » قواه الخارقة إلاّ لغايات طيبة بريئة ؛ ويقول البعض إن باشا مصر الحالي يحيطه برعايته ويقصده مراراً للإستشارة . ولقد قصَّ عليَّ أحد أصدقائي المسلمين الحصيفين في القاهرة أمر زيارته « لأبي الرؤوس » في دسوق بصحبة الشيخ « الأمير » إبن الشيخ « الأمير الكبير » شيخ المذهب المالكي . وملخص الحكاية أنّ صديقي طلب من الشيخ مضيفه أن يريه دليلاً ما على قدرته السحرية ، فأذعن الشيخ موافقاً . وقال الشيخ الأمير : « فلتقدّم لنا القهوة في فناجين والدي وظروفها الموجودة في مصر ». وما هي إلاّ دقائق حتى حضرت القهوة فنظر الشيخ الأمير إلى الفناجين ، فإذا بها فناجين والده في مصر . ثم جاء دور الشربات فأعرب الشيخ الأمير عن رغبته في احتسائها في قُلَل والده أيضاً ، فكتب رسالة إلى والده وأعطاها « لأبي الرؤوس » وطلب منه أن يؤمن له الجواب . فأخذ أبو الرؤوس الرسالة ووضعها خلف وسادة ديوانه ، ثمّ أزاح الوسادة بعد دقائق قليلة فتبيّن للحاضرين أن الرسالة اختفت وحلّت محلّها رسالة أخرى . فما كان من الشيخ الأمير إلاّ أن فتح الرسالة ؛ ففتحها وقرأها وقال إنّه يستطيع أن يقسم بأنّ الخط هو خط والده وأنها تحمل جواباً كاملاً للسؤال الذي كان طرحه عليه إضافة إلى سؤاله عن حال عائلته وهذا ما تأكدّ منه تماماً لدى عودته إلى القاهرة بعد أيام معدودة . ومن القصص التي شغلت الأوساط المصرية قصة غريبة نظرت فيها الحكومة خلال زيارتي السابقة لهذه البلاد فكانت مثار لغط كبير. وسأروي لكم الحكاية بأدق تفاصيلها فلا أحذف منها المبالغات التي زينّوها بها ، ليس لأنّني جاهل بمدى صدق أحداثها بل لأظهر مدى ايمان المصريين العميق بالسحر والشعوذة . ومفاد القصة أنّ الأمين الأوّل في المحكمة وهو « مصطفى الديجوي » عُزل من منصبه وعُيّن مكانه شخص

آخر صادف أنه يحمل الاسم نفسه يعمل صيرفياً. فرفع الأوّل - « الديجوي ». مذكرة إلى الباشا يتوسّله فيها ليعيده إلى منصبه ، وقبل أن يلقى جواباً أصابه مرض عضال بسبب سحر زعم أنّه كُتب له وأقنع نفسه أن « مصطفى » الصيرفي لجأ إلى مشعوذ ليكتب له رقية تؤدي إلى موته . لذا عاد ووجّه رسالة ثانية إلى الباشا يتّهم فيها الأمين الجديد بهذا الجرم. فبعث الباشا في طلب المتهم الذي اعترف بذنبه وكشف اسم الساحر الذي ساعده . فأمر الباشا بتوقيف الساحر . ولمّا لم يستطع هذا الأخير دحض التهمة الموجهة إليه زُجّ في السجن حتى يتأكد الباشا من أثر التعويذة على « الديجوي »؛ فحُبس في غرفة صغيرة قام اثنان بحراسة بابها : فإن غطّ أحدهما في نومه تولّى الثاني أمر الحراسة . والأمر الغريب العجيب في القصة ما حصل في إحدى الليالي عندما غلب النعاس أحد الحارسين فسمع الثاني صوتاً متجمعاً ، فنظر من شق في باب الغرفة ورأى الساحر يجلس وسط الغرفة يتمتم كلمات لم يفهم الساحر منها شيئاً وكانت الشمعة أمام الساحر مطفأة ، وفجأة ظهرت أربع شمعات غيرها في وقت واحد واتّخذت كل واحدة منها لنفسها زاوية في الغرفة . وهنا هبّ الساحر واقفاً في إحدى الزوايا ودقّ جبهته ثلاث مرات إلى الجدار؛ وكان الجدار في كل مرة يضرب فيها الساحر جبهته ينفتح فيخرج منه رجل . وبعد أن تحادث الساحر لدقائق مع الأشخاص الثلاثة الذين أظهرهم ، اختفى هؤلاء فجأة وكذا الشمعات الأربع ، وأضيئت شمعة الوسط ثانية كما كانت فعاد الساحر إلى جلسته الأولى على الأرض وساد السكون أرجاء الغرفة وهكذا فُكّت الرقية التي كانت لتقتل « الديجوي ». وفي صباح اليوم التالي طلب الديجوي المريض حوضاً وزقاً للوضوء بعد أن شعر بتحسن ملموس طرأ عليه وقام يؤدي صلواته المفروضة وكان شفي تماماً ، وعاد إلى منصبه السابق وطُرد الساحر من مصر . كذلك طردت السلطات « سحّاراً » ثانياً بعد أيام معدودة لأنّه كتب سحراً لفتاة مسلمة لتُغرم غراماً جارفاً بنصراني في الأقباط .

أثار موضوع السحر والسحرة إهتماماً بالغاً في نفسي بعد الرواية التي قصّها على مسامعي القنصل الإنكليزي العام المستر « سولت » SALT ولم يكن

لي في مصر سوى أيام قليلة . وكان « سولت » يشكُ في أن أحدَ خدمه وهم كثر ـ سرق أشياء ثمينة من المنزل ـ وكان اتهامه منطقياً ، فأرسل في طلب ساحر مغربي ليخرج السارق ـ إن كان هناك من سارق ـ ويدفعه إلى الإعتراف بسرقته . فحضر الساحر وطلب من صاحب الدار أن يختار صبياً غير بالغ حتّى يزيه الصورة الحقيقية للشخص الذي قام بهذه السرقات في وجه هذا الصبي . فاختار المستر « سولت » صبياً من الصبية العاملين في حديقة قريبة من منزله. فعمد الساحر إلى رسم جدول في راحة كف الولد اليمنى بواسطة قلم ، ثمّ صبَّ قليلاً من الحبر وسطه ، وطلب من الولد أن يحدّق في الرسم . ثمّ أحرق شيئاً من البخور وقصاصات ورق تعود لسحر ، وطلب في الوقت نفسه ظهور عدّة أغراض في الحبر . وأعلن الولد أنه رأى كل ما طلبه الساحر وبانت عليه أخيراً صورة الخادم المُتهم بالسرقة . فوصفه وصفاً دقيقاً من سمات وجهه إلى لباسه وقال إنه يعرفه وهرول إلى الحديقة وقبض على أحد العاملين فيها الذي لمّا مثل أمام سيده إعترف فوراً بأمر السرقة

دفعتني هذه الحادثة التي شهدتها بأمّ العين إلى حب الإطلاع على أداء مشابه خلال زيارتي الأولى لهذا البلد . ولكنني لم أستطع الإتصال بالساحر المغربي فأنا أجهل اسمه ومكان إقامته ـ ولكنني علمت بعد عودتي إلى إنكلتره أنه بات معروفاً للمتوجهين إلى مصر ، فهو يقيم في القاهرة واسمه الشيخ « عبد القادر المغربي ». فلمّا عدت إلى مصر في ثاني رحلة لي إلى هذا البلد بعد أسابيع قليلة ، حملني إليه جاري « عثمان » مترجم القنصلية البريطانية ؛ وحدّدت للشيخ موعداً يزورني فيه في منزلي فيقدّم لي برهاناً قاطعاً على مهارته الذائع صيتها بين الناس . وبالفعل حضر الشيخ في الميعاد المحدّد قبل نحو ساعتين من الظهيرة ولكنّه بدا منزعجاً غير مرتاح فكان ينظر إلى صفحة السماء مراراً وتكراراً في خلال النافذة ملاحظاً أنّ الطقس رديء فالسماء مكفهرة غائمة والريح تنذر بالهبوب . وطبّق الشيخ تجربته على ثلاثة صبية الواحد تلو الآخر ، فحقق نجاحاً جزئياً مع أول ولد ، بينما فشل فشلاً ذريعاً مع الولدين الباقيين . عندها أعلن الساحر أنّه لا يستطيع القيام بأي عمل ذاك النهار وأنّه

سيعود في مساء اليوم التالي . ووفى الشيخ بوعده وأعلن أن الوقت مناسب تماماً . وفي انتظار حضور جاري « عثمان » ليشهد الأداء ، دخّنت والشيخ البيبة وشربنا القهوة وتناقشنا في مواضيع مختلفة . والشيخ طويل القامة دقيق الملامح ممتلىء الجسم ، أسمر السحنة ذو لحية بنية داكنة ، رثّ الملبس ، يعتمر عمامة خضراء واسعة فهو من سلالة الرسول ﷺ . وكان حلو الحديث لا ينفعل في الكلام . وأسرّ إليّ أنّه متأثر بالجن الصالحين ـ وكنتُ سمعت أنه أخبر غيري العكس تماماً وأنّ سحره شيطاني .

راح الساحر يعدّ للقيام بتجربته السحرية فحضّر مرآة الحبر السحرية ، وهذا ما يعرف بضرب المندل ، وطلب مني إحضار قصبة وحبر وقصاصة ورق ومقص ؛ ولمّا قص طرفاً صغيراً في الورقة كتب بعض التضرعات وخلطها بتعويذة أخرى وزعم أنّ هذه التضرعات تحقق غرض التجربة السحرية ولم يحاول الشيخ أبداً إخفاء ما كتبه وعندما طلبت منه إعطائي نسخة عنها لم يتردّد لحظة ، بل عاد ودوّنها من جديد شارحاً لي في الوقت نفسه أنّ أداءه السحري

طرمش طربونش أنزلوا
أنزلوا احضروا ابي مذهب
الامير وجنوده الى الاحمر
الامير وجنوده احضروا
باحضاركم هذه الاسماء

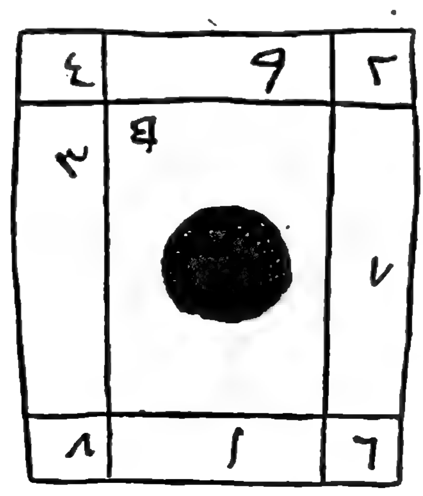
وهذا الكشف فكشفنا عنك
غطاءك فبصرك اليوم
حديد صحيح صح

تعويذة سحرية مكتوبة

يتمحور حول كلمتين أساسيتين : « طَرْشُن » و« طَرْيُوشن » همـا ـ كما أوضـح لي ـ إسما جنيّيه المألوفين .

وبعد انتهائه من كتابـة التعويـذة، عمد الشيـخ إلى قصّ الورقـة المحتويـة على التعويذة التي أُخذ منها السحر الآخر وقطّعها إلى ستّ قطع ، وأخذ يشرح لي أنّ الغرض من هذا السحر (الذي يشتمل جزءاً من الآية ٢١ في سورة ق : ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾) فتح عيني الولد بطريقة خـارقة تفوق الطبيعة ـ فيكشف لنا بصر هذا الولد عالماً غير مرئي

جلبت كما قال لي الساحر شيئـاً من البخور والكـزبرة ووضعت في طبق الإحمـاء فحماً قـابلاً لـلإشتعال دخلت بعـدها الغـرفة مـع الولـد محـور الأداء السحري وكنت اخترته من بين صبية يلعبون في الشارع كانوا عائدين من مصنع يعملون فيه ؛ والصبي في الثامنة أو التاسعة من عمره . ولمّا سألتُ الشيخ عن المـواصفات المـطلوبة في الشخص الـذي يستطيـع الرؤيـة داخل مـرآة الحبر السحـرية ، حـدّد لي فتاة بكـراً وجاريـة سوداء وامـرأة حامـلاً ثم وضع طبق الإحماء أمامه وأمام الولد الذي أجلسه على كرسي .



مربع سحري ومرآة من الحبر داخله

وطلب الساحر من خادمي أن يضع شيئاً من البخور والكزبرة في الطبق ، وأمسك بعد ذلك بيد الولد اليمنى وجعل في راحتها مربعاً سحرياً كما في الصورة الجانبية[1] ، ولا بد من الإشارة إلى أن المربع السحري يشمل أعداداً عربية . وصبّ الشيخ وسط المربع شيئاً من الحبر وطلب من الولد النظر إليه وإخباره إن كان يرى وجهه معكوساً على صفحة الحبر . فأجابه الولد أنه يرى صورة وجهه بشكل واضح جداً وعاد الساحر يطلب من الولد أن يستمر في التحديق في الحبر فلا يرفع رأسه وكان طوال الوقت يمسك يده .

ثم تناول الشيخ إحدى قصاصات الورق الصغيرة حيث دوّن تعاويذ مختلفة أسقطها في طبق الإحماء فوق الفحم المشتعل والعطور التي عبقت الغرفة برائحتها وبدأ يتمتم كلمات لم أفهمها تماماً ولم يتوقف عن ترددادها طوال الوقت إلاّ عندما كان يطرح على الولد سؤالاً أو يلقّنه الكلام الذي سيعيده بعده . ووضع قصاصة الورق المشتملة على كلمات من القرآن الكريم في طاقيّة الولد ؛ ثمّ سأله إن كان يرى شيئاً في الحبر فأتاه الجواب نفياً . ولكن ما هي إلاّ دقيقة حتى ارتجف الولد خوفاً فصرخ قائلاً : « أرى رجلاً ينظّف الأرض » . فقال له الشيخ : « أخبرني ما إن ينتهي من التنظيف »؛ وجاءه ردّ الصبي : « لقد انتهى الآن ». ثمّ توقف الشيخ عن التمتمة وسأل الولد إن كان يعرف ما هو البيرق ، فلمّا أومأ الولد إيجاباً طلبَ منه أن يقول : « أحضر بيرقاً » ففعل الولد ما أمر به وما لبث أن أردف : « لقد أحضر بيرقاً »، فسأله الشيخ : « ما لون

---

(١) تكون الأرقام التي تشكّل المربع السحري على الشكل التالي :

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

نلاحظ أنّه كيفما جمعنا الأرقام عامودياً أم أفقياً ، نحصل على الرقم نفسه : « ١٥ » .

البيرق ؟» فأجابه الولد : « لونه أحمر ». وسأله مجدداً أن يطلب بيرقاً آخر ففعل وكان البيرق ـ كما قال ـ أسود اللون . وعاد الشيخ يأمره أن يطلب بيارق مختلفة حتى وصل عدد البيارق إلى سبعة ، وكان الولد يحدّد ألوان البيارق الواحد تلو الآخر فأبيض وأخضر وأسود وأحمر وأزرق . وهنا سأله الشيخ الساحر (كما في كل مرة كان يطلب فيها بيرقاً جديداً) : « كم بيرقاً أمامك ؟» فردّ الولد : « سبعة ». وكان الشيخ يضيف قصاصات الورقتين الثانية والثالثة من التعويذة فوق طبق الإحماء مضيفاً إليهما البخور والكزبرة فكانت رائحتهما تحرق العيون . ولمّا انتهى الولد من وصف البيارق السبعة كما بدت له طلب منه الشيخ أن يقول : « أحْضر خيمة السلطان وانصبها ». ففعل الولد وأردف يقول فوراً : « أرى جنوداً كثيرين مع خيمهم . لقد نصبوها . ثم طلب منه الشيخ أن يأمر الجنود بالوقوف في صفوف ؛ فلبّى الولد الطلب وقال إنّه يراهم في صفوفهم . ووضع الساحر قصاصة الورقة الرابعة في طبق الإحماء وأتبعها بالقصاصة الخامسة وقال للولد : « أطلب من أحد الجنود أن يحضر ثوراً ففعل الولد وأعلن : « أطلب من أحد الجنود أن يحضر ثوراً ففعل الولد وأعلن : « أرى الثور وهو أحمر اللون ويجرّه أربعة رجال ويضربه ثلاثة . ». ثم طلب منه أن يأمر بقتل هذا الثور وتقطيعه إرباً وجعل لحمه في مقلاة وطبخه . ففعل ما طلب منه ووصف العملية كما تراها عيناه . وأردف الساحر يأمر : « قل للجنود أن يأكلوا اللحم ». ففعل الولد ثانية وقال : « هم يأكلون اللحم . لقد انتهوا وها هم يغسلون أيديهم » وعاد الساحر يطلب منه مناداة السلطان فلما طلبه قال : « أرى السلطان يتوجه إلى خيمته على ظهر فرس كُمَيت وعلى رأسه قلنسوة حمراء عالية . لقد أضاء خيمته وجلس داخلها . وعاد الساحر يطلب من الساحر أن يحضر القهوة إلى السلطان وأن يعقد الجلسة ، فأعطى الولد الأوامر بذلك وأعلن أنّه يرى الأوامر تنفّذ . ثم وضع الساحر آخر القصاصات السّت في طبق الإحماء . ولم أستطع تمييز أيّ شيء سوى كلمات التعويذة المكتوبة التي ما انفك يردّدها اللهم مرتين أو ثلاث عندما سمعته يقول : « إن طلبوا معلومات فأعلمهم وكن صادقاً في ما تقول ». لكنّ الشيخ كان يتمتم كلماته فما كنت

أسمعها ولم أطلب منه أن يعلّمني هذا الفن وأنا لا أدّعي معرفة تعاويذه معرفة كاملة . ثم وجّه الشيخ كلامه لي فسألني إن كنت أرغب من الصبي أن يريني شخصاً غائباً أو ميتاً فذكرت إسم « اللورد نلسون » الذي بالطبع لم يسمع عنه الولد قبلاً . فهو لم يتوصل إلى التلفظ بإسمه إلاّ بعد جهد جهيد . ولمّا حفظ الإسم طلب الساحر من الولد أن ينقل إلى السلطان الكلام التالي : « إن معلمي يحيّيك ويسألك أن تحضر اللورد نلسون ؛ أحضره فتراه عيناي بسرعة قصوى » . ففعل الصبي ما أمر به وأسرع يضيف : « لقد ذهب الرسول وعاد وجلب معه رجلاً يرتدي بذلة سوداء اللون أوروبية الصّنع . والرجل فقد كتفه اليسرى» . ثمّ توقّف هنيهة وراح يحملق بالحبر مردفاً : «كلا ، لم يفقد كتفه اليسرى فهو يضع كتفه هذه على صدره . وذهلتني دقة وصفه لأنّ ردن اللورد « نلسون » الفارغ مثّبت إلى صدر ردائه . وهو في الواقع فقد كتفه اليمنى . وكنتُ خلت الولد ارتكب خطأ لو لم يقل ما قاله ، فطلبت من الساحر أن يحدّد لي إن كانت الأشياء تظهر في الحبر كما تراها العين المجرّدة أو كما في مرآة فتنعكس ويضحى اليمين يساراً . فأتى ردّه بأن الأشياء تبان كما في المرآة ، وهذا يجعل وصف الولد لا غبار عليه .

طلبتُ بعد اللورد « نلسون » مواطناً مصرياً عاش في انكلتره لسنوات طويلة وكان ارتدى زيّنا وداهمه مرض عضال ممّا أضطره إلى ملازمة فراشه طويلاً قبل حضوري إلى مصر . واعتقدت أنّ ذكر اسم هذا المواطن ـ وهو من الأسماء الدّارجة في مصر ـ قد يدفع الولد إلى إعطاء وصف مغلوط عنه علماً أن الولد الآخر الذي وصف لي هذا المواطن المصري خلال زيارتي السابقة للساحر وصفه لي في زيّه الأوروبي كما الزي الذي رأيته فيه آخر مرة وأمّا الولد الحاضر فقال لي « أرى رجلاً في تابوت مدثراً بغطاء » . وأتى وصفه معقولاً مناسباً ، فإمّا أن يكون الرجل المعني ملازماً فراشه وإمّا مريضاً وكان وجه الرجل ـ كما وصفه الولد مغطّىً فأمره الشيخ أن يطلب كشفه ، ففعل وأضاف « وجهه شاحب وله شاربان ولكنّه غير ملتحٍ » ـ وهذا صحيح جداً وأخذت أطلب أشخاصاً آخرين فأتى وصفه ناقصاً وإن لم يكن خاطئاً في

مجمله . فكان يصف كل غرض يظهر أمامه بشكل غير واضح أكثر من الغرض الذي يسبقه كما لو أن نظره أخذ يتشوّش تدريجياً . والملاحظ أنّ الولد كان أكثر دقّة في وصفه الأشخاص الذين زعم رؤيتهم في بداية وصفه ؛ فقال الساحر إنه من المستحيل المثابرة معه ؛ فأحضرنا ولداً غيره وجعل الساحر المربع السحري في يد هذا الولد ولكنّ الولد لم ير شيئاً البتّة.فأعلن الساحر أنّ الولد كبير .

خيّب أداء الساحر أملي قليلاً ـ رغم إقراري بالحيرة والإندهاش لما فعله ـ فهو لم يفلح في أدائه كما في مناسبات عديدة سابقة بحضور بعض أصدقائي ومواطنيَّ وحصل في إحدى هذه المناسبات أن هزأ أحد المواطنين الإنكليز بهذا النوع من الأداء وأعلن أنّ لا شيء يرضيه سوى وصف دقيق لوجه والده الذي كان متأكداً أنّ أحداً من الحاضرين لا يعرفه قط . فبدأ الولد يطلب اسم الشخص المرغوب في حضوره . فوصف رجلاً في زي إفرنجي جعل يده على رأسه ووضع نظارتين على وجهه وقد ثبّت قدمه أرضاً ورفع الأخرى أمامه كما لو كان يترجّل عن مقعده ، وأتى الوصف مطابقاً تماماً للواقع . فسبب جعل اليد في هذه الوضعية المميزة وجع رأس شبه ملازم للوالد ، وأمّا قدمه فمتصلبة عند الركبة فبسبب وقوعه عن حصانه وهو يصطاد. وأنا على يقين أنّ الولد وصف كل شخص أو غرض طُلب منه على أحسن وجه ، كما قام في مناسبة أخرى بوصف « شكسبير » وصفاً دقيقاً في لباسه وشخصه . وتتوالى المناسبات التي أثار فيها الساحر نفسه الدهشة في عقول معارفي الإنكليز . وبعد فترة وجيزة عمد السّاحر إلى تحضير المرآة السحرية في يد سيدة إنكليزية مثلما كان يحضّرها في يد الولد الصغيرة ؛ ولم تكد تمّر دقائق على تحديق هذه السيدة في المرآة حتى أعلنت أنّها ترى مكنسة تنظف الأرض دون أن يمسكها أحد ، فذعرت وارتعدت فرائصها فما عادت تستطيع الرؤية في المرآة .

أستند في سرد هذه القصص إلى تجربتي الشخصية كما تدركها مخيلتي وإلى ما رواه لي أشخاص رزينون وقد يخيّل للقارىء أنّ الولد كان يرى سلسلة الصور كما يعكسها الحبر ولكن ذلك غير صحيح ، أو قد يظن أن الولد متّفق مع الساحر مسبقاً أو أنّه يستشف أجوبته من الأسئلة المطروحة . وأستطيع

التأكيد أن ما في تحالف أو تعاضد بين الولد والساحر ؛ فأنا اخترت الولد من بين مجموعة من الأولاد كانوا مارين في الشارع. وأسرّ إليكم أنني حاولت إغواء الولد بهدية بهدف دفعه إلى الإعتراف بأنه لم ير في الحقيقة ما أدّعى رؤيته في المرآة . وكررت المحاولة مع ولد آخر في مناسبة مختلفة علّني أكشف مدى صدقه وحصلت على النتيجة نفسها ، إذ كانت التجربة تفشل برمّتها غالب الأحيان ؛ ولكن الولد إن كان صادقاً في تجربة واحدة فلا بد أن ينسحب ذلك عامّة على باقي التجارب . فلمّا كان يفشل منذ البداية فيقدّم كلاماً مغلوطاً لا صحة له من الأساس ، كان الساحر يصرفه على الفور مدعيّاً بأنّ الولد كبير للإضطلاع بهذه المهمة . وقد يظن البعض أنّ العطور أو جموح الخيال أو الخوف أمور قد تؤثر على رؤية الولد فيصف الأشياء كما يعكسها له الحبر . فإن كان الأمر صحيحاً كيف نفسّر إذن وصفه الدقيق المطابق علماً أنّه لا يملك معلومات مسبقة عن الأشخاص المحدّدين . ولم ننجح في الواقع لا أنا ولا غيري في إكتشاف مفتاح لهذا اللغز السحري . وأتمنّى على قارئي العزيز عدم جعل الشكوك تساور نفسه بالنسبة إلى كتابي[1] إن هو عجز مثلي عن تقديم الحل المناسب .

---

(١) وأخيراً تحققت أمنيتي ؛ وبات بمقدوري الآن أن أشرح كيفية توصلي إلى اكتشاف هذا اللغز . ففي « المجلة الفصلية » Quarterly Review رقم ١١٧ في الصفحتين ٢٠٢ و٢٠٣ نقرأ أقتراحاً مفاده أن الأداء السحري يتم بواسطة صور ومرآة مجوّفة ممّا يعكس الصور من سطح المرآة فتظهر للصبي تحت غطاء من الدخان. وأنا في الواقع لا أستطيع قبول مثل هذا الكلام لأنّه لم يتم اعتماد هذه الوسائل في حضوري فلمّا أتنبّه لها ؛ كذلك لا يمكن أن تنقلب الصور (إلاّ في حال كانت مقلوبة أصلاً) فتنعكس من سطح المرآة ويستقبلها سطح ثانٍ لأنّ الصبي كان ينظر إلى راحة يده فلا يرفع عينيه ؛ ويمكن بالتالي إستنتاج عدم تشكل الصورة فوق عامود الدخان المتصاعد (الذي كان كبيراً وغير كثيف) بين عينه والمرآة المفترضة . والصعوبة الكبيرة في مثل هذه الحالة تكمن في كيفية تفسير « ظهور الأشخاص الخاصين غير المعروفين للعامة » كما لاحظت المجلة ذلك والتي تضيف إشارة غريبة حول « جوانب أخرى في الصعوبة » . وأنا في الواقع متآلف مع كل هذه الوقائع المسرودة ولكنني لم أجرؤ على ذكرها قبلاً ويمكنني نشرها الآن . فلقد نجح »

. . . .

= الساحر « عبد القادر » في الواقع في تلقين اثنين من المسافرين (أحدهما يدعى السيد « ليون دولابورد » والآخر إنكليزي أجهل اسمه) آستطاعا القيام بأعمال مشابهة . ولم أتمكّن من معرفة اسم الرجل الإنكليزي . وهو نفى بالطبع كل تحالف معه وأعلن أنّه كان يكرّر الأقوال التي علّمه إياها الساحر .

الفصل الثالث عشر

طبائع المصريين

تتأثر طبائع المصريين الفطرية تأثراً كبيراً بدينهم وقوانينهم وحكومتهم كذلك بمناخ بلادهم وجملة عوامل أخرى ولذا يصعب علينا تكوين فكرة واضحة حقّة عنها ولا بد من الإقرار بتمايز المصريين عن غيرهم بالملكات الفكرية الهامة خاصة سرعة البديهة وروح الفكاهة وقوة الذاكرة . والمصريون يتمتعون عامة في شبابهم بهذه الصفات الفكرية بيد أنّ جملة الأسباب التي أشرت إليها في البداية تضعفها تدريجياً

تكمن أهم السمات الملفتة للنظر في طبائع المصريين في اعتزازهم الديني . فهم يعتبرون أتباع الديانات الأخرى أطفال الهلاك الروحي الأبدي ويتعلمون مقتهم في سن مبكرة(*) وقد ورد في القرآن : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولّهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (سورة المائدة / ٥١) وقد يبادر بعضهم من باب اللياقة والتهذيب و بسبب مصالح أنانية إلى التحدث مع هؤلاء أحياناً فيفكّون لجام عواطفهم ويجهرون بصداقات تربطهم بنصراني (أوروبي خاصة) يحتقرونه في ذواتهم . ولا يمكننا أن نلقي اللوم على مسلمي مصر للإزدراء الذي يظهرونه حيال الأوروبيين والفرنجة عامة ؛ فهم يحكمون عليهم من خلال

(*) علمت أن الأطفال المصريين يتعلّمون في المدارس سلسلة شتائم ولعنات يلمّون بها المسيحيين واليهود وسائر الكافرين الذين لا يتبعون دين محمد .

السواد الأعظم منهم الموجودين في بلادهم ؛ فإمّا أن يكون الأوروبيون منبوذين في بلدانهم الأصلية وإمّا أن يشتهروا بانحلالهم الخلقي (وبالطبع لا يشمل ذلك الجميع). والملفت للنظر معاملة المسلمين لنصارى بلادهم المتّسمة بالكياسة ؛ إذ يتميز المسلمون بتسامحهم وازدرائهم للكافرين في وقت واحد

يعتبر المسلون أن أرفع مرتبات الشرف هي في تقواهم ؛ وقد يدفع هذا الشعور الديني المتّقد الكثيرين بينهم إلى التظاهر الكاذب بالفضيلة والدين والتفاخر المرائي بالصلاح والتقوى . وتسمع المسلم يطلق التضرعات والإبتهالات إلى ربه عندما لا يشغله عمل أو تلهيه محادثة أو تسلية . فإن راودت مخيلته فكرة وضيعة شريرة أو تذكرّ عملاً مؤذياً إرتكبه فقضّ مضجعه يتوجه إلى ربه طالباً مغفرته : « أستغفر الله العظيم ». وعندما لا يكون صاحب المتجر مشغولاً مع زبائنه ومستمتعاً بتدخين بيبته يعمد على مرأى المارين ومسمعهم في الشارع إلى تلاوة سورة من القرآن الكريم أو يردّد عبارات مدح الله تعالى التي تعقب عادة الصلوات العادية فيعدّ خرزات سبحته ، وهو يصلي الصلوات المتوجبة عليه أمام العامة أيضاً . ويقسم المسلمون بالله غالباً (بطريقة تبجيلية) وبرسوله كذلك يحلفون برأس الشخص الذي يوجهون إليه الكلام وبلحيته . وإذا سمع المصري المسلم كلاماً يثير دهشته واستغرابه وعدم تصديقه يصرخ متعجباً : « والله ؟» أو « واللّهِ » فيجيبه الآخر بالعبارة نفسها وقبل أن يبدأ المصري طعامه وشرابه أو يأخذ دواءه أو يستهل الكتابة أو يقوم بعمل هام يردّد البسملة : « بسم الله الرحمن الرحيم » ولمّا يفرغ من عمله يختم كلامه بالحمدلة : « الحمد لله » . وإذا اتفق اثنان على مشروع صفقة يتلوان سورة الفاتحة معاً . وإذا اختلفا أو دخلا في متاهات مناقشة عرقوبية ، يتدخّل طرف ثالث أو يبادر أحد الطرفين المتخاصمين الراغب في تسوية الخلاف إلى تهدئة المتنازعين فيقول بصوت منخفض : « بارك الرسول وسلّم عليه » فيتابع المتخاصمون جدالهم ولكن باعتدال .

وقد يطلق المصريون هتافاتهم الدينية خلال مناقشاتهم المواضيع التافهة

وحتّى الفاسقة منها ، ممّا يخمل الإنسان غير المتآلف مع طبائعهم على الإعتقاد بأنّهم يجعلون الذين أضحوكة أو دعابة ويشدون اسم الله في العديد من أغانيهم غير المحتشمة . ولا يفعلون ذلك بدوافع تدنيسية بل انطلاقاً من عادتهم في ذكر اسم الله دائماً في كل المناسبات التافهة التي قد تثير دهشتهم أو تعبيراً عن إعجابهم أمام أمر خارج نطاق مألوفهم . وقد تسمع شخصاً فاجراً فاسقاً يتغزّل بمفاتن امرأة يلقاها للمرة الأولى (في إحدى أكثر الأغنيات التي سمعتها في اللغة العربية بذاءة) كما في أغنية «سبحان من جَمَّلك بدراً كاملاً!». وليست مثل هذه العبارات غريبة عن الأغنيات المصرية ؛ والملفت للنظر في الأغنية المذكورة آنفاً تلك المقاربة الفاسقة في آخرها وأذكر آخر ثلاثة مقاطع نثرية مأخوذة من قصيدة غنائية مصرية أخرى تجمع الحب والخمر في طياتها في تناسق وتناغم [وهي بمعنى] :

« خصّتني باستقبال هو الأحلى والأجمل بعد جفائها وخَفَرها فقبّلتُ أسنانها ووجنتيها ورنّ الكاسُ بين يديها . ونشرت بقامتها الدقيقة وخصرها النحيل الأرّق من العود رائحة المسك والعنبر ؛ ومدّت السرير المقصّب المطرز فأمضينا الوقت نتحاب ونسعد . هي ظبية تركية تستعبدني وتوقعني في شباك هواها ».

« اللهم إغفر لي كل ذنوبي وأخطائي وكل ما نطق به قلبي ؛ ربي أنت ملاذي في كبوتي وأحزاني ؛ وأنت أملي ورجائي تعلم ما أقول وما أفكّر به أنت الرحمن الرحيم ! لا حول ولا قوة إلاّ بك ؛ فأغفر لي يا غفار ».

« وأحمد الرسول الرؤوف الذي اعتادت ، سحابة تظليله ، الرسول الجميل ، كم كان جماله كبيراً عظيماً ! هو شفيعنا يوم الحساب ؛ يوم يغفر لمبغضيه الحقيرين والمشركين. فهل يتسنّى لي طالما حييت مرافقة الحجاج في مناسكم فأعيش سعادة دائمة ! »

لا بد من الإشارة إلى أنّ المصريين يستعملون صيغة المذكّر في قصائدهم الغنائية للدلالة على صيغة المؤنث .

قرأت هذه القصيدة الغنائية على أحد أصدقائي المسلمين وكانت صادفت زيارته لي بعد تدوين الملاحظات السابقة وسألته إن كان يرى من المناسب هذا الخلط ما بين الدين والفسوق. فأجابني: «مناسب تماماً. فقد يروي أحدهم كيف ارتكب أخطاءاً ثم يدعو الله طالباً مغفرته ويبارك الرسول». فطالعته متعجباً: «ولكنّها قصيدة غنائية مكتوبة أصلاً لتسلية الأشخاص الذين يستمتعون بالملذات غير الشرعية. وانظر! فإن ثنيتُ أوراق الكتاب إلى هذه الصفحة التي تمجّد الفسوق تراها تقابل الصفحة التي تمجد أسماء الله الحسنى. والملفت للنظر أنّ تخليد هذه الملذات الحسية وهي وليدة الخطيئة يصادف فوقَ الصفحة حيث صلاة الإستغفار». فردّ عليَّ صديقي «لا معنى لكلامك هذا إقلب الكتاب واجعل هذه الجهة رأساً على عقب، فيأتي الغلاف معكوساً ـ فتغطي المغفرة الخطيئة والله تعالى ذكر في كتابه العظيم ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (سورة الزمر / ٥٤). وتذكّرني إجابته بالملاحظة التي كانت تستوقفني دائماً وهي أن معظم العرب ـ وهم أشخاص متناقضون مع ذواتهم ـ ينتهكون يومياً شريعتهم بطريقة أو بأخرى، لإيمانهم العميق بأنّ كلمتَيْ «إستغفر الله» كفيلتان بإزالة كل انتهاك لحرمة الدين وكان صديقي يحمل في يده نسخة عن القرآن؛ وبينما كنت أقلّب صفحات كتاب الله العزيز باحثاً عن الآية التي ذكرها لي، وجدتها مكتوبة على ورقة صغيرة تضم بعض الكلمات المأخوذة من القرآن وكان صديقي سيحرق هذه الورقة خشية أن تقع أرضاً فتدوسها الأقدام ولمّا سألته إن كان مسموحاً له القيام بذلك، أجابني أنّ بإمكانه حرق الورقة أو رميها في المياه المتدفقة علماً أنّه من الأفضل حرقها فتتصاعد الكلمات في ألسنة دخان فتبلغ الملائكة في السماء. وقد يذكر بعضهم القرآن بطريقة هازئة ساخرة حتى أكثرهم تمسكاً بأهداب الدين الحنيف. وإليكم على سبيل المثال الجواب الملتبس في معناه الذي قاله لي أحد الأشخاص عندما سألني عن «ساعة» أقدّمها له هدية ـ ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الساعة تعني في الوقت عينه «يوم الحساب»: ﴿ إنّ الساعة آتية أكاد

أخفيها لتجزَى كلّ نفس بما تسعى ﴾ (سورة طه / ١٥).

قد نصادف في المجتمع المصري أشخاصاً يذكرون آية من القرآن الكريم أو حديثاً من الأحاديث الشريفة في مناقشاتهم العامة مهما كان موضوعها ولا يمكن قط اعتبار هذه المقاطعة في الحديث مزعجة أو ريائية كما في مجتمعنا الغربي عموماً ؛ فهي على العكس تدفع المتناقشين في المسائل التافهة إلى الغوص في أعماق الموضوع فتستحوذ على إعجابهم وتثير مشاعرهم والمسلمون المصريون ـ ومسلمو البلدان الأخرى على الأرجح ـ مولعون عامة بمناقشة المواضيع الدينية ؛ وأشهر طريقة للترفيه عن الضيوف بين الطبقتين المتوسطة والغنية في القاهرة هي في تلاوة الفقهاء لختمة من القرآن مقابل أجر يدفع لهم أو في إحياء حلقات الذكر . وقليلون هم الذين يجرؤون على الإفصاح عن تفضيلهم الإستمتاع بحفلة موسيقية بدلاً من الختمة أو الذّكر ، وهم بالتأكيد يحبون سماعهما والواقع أن تلاوة القرآن محبيّة ممتعة للنفس ، بيد أنني أعتبر أن ختمة كاملة مضجرة للغاية. وكم تساءلت وأنا أرى هذا الحماس الديني المتقد للمسلمين إن كان المسلون يحاولون دفع الغير إلى الاهتداء إلى دينهم وكنتُ كلمّا عبّرت عن دهشتي حيال موقفهم اللاّ مبالي بالنسبة إلى انتشار دينهم والمناقض لموقف أسلافهم في أول عهود الإسلام أسمع الجواب التالي : « وما نفع أن أهدي آلاف الكافرين إلى الدين الحنيف ؟ هل يؤدي ذلك إلى ارتفاع عدد المؤمنين ؟ مطلقاً فالله جلّ جلاله حدّد عدد المؤمنين ، ولا يمكن لعمل الإنسان زيادة هذا العدد أو تقليصه ». ولم أجازف في تقديم الإجابة لأنّ المناقشة من شأنها أن تقودني إلى الدخول في جدال عرقوبي لا نهاية له . وسمعت بعض المصريين يذكرون آية قرآنية ، وهي طريقة يعتذرون من خلالها عن إهمالهم جعل الناس يهتدون إلى دينهم والآية هي التالية : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون ﴾ (سورة العنكبوت / ٤٦). فلو أن المسلمين تمردوا على هذا الأمر الديني لقادهم ذلك على الأرجح إلى خلافات من شأنها أن تجعلهم أكثر تحرراً في أفكارهم وأكثر اطلاعاً ومعرفة .

يبجّل المسلون المحدثون رسولهم الأشرف أعظم تبجيل فيتسمون به ويتضرع العديد من متعلميهم وجاهليهم إليه آلتماساً لشفاعته . والحجاج الذين يزورون قبر الرسول ﷺ يتأثرون تأثراً أكبر من أيّة شعائر دينية أخرى. ويتجنب بعض المسلمين الاعمال التي لم يقم بها الرسول ﷺ فيمتنعون عن أكل ما لم يأكله رغم التشكك بصحة تحريم هذا اللون من الطعام . فعلى سبيل المثال لم يكن الإمام « أحمد بن حنبل » يأكل حتى البطيخ الأحمر علماً أنّه كان يعرف تماماً أنّ الرسول ﷺ أكله ولكنّه لم يتوصل إلى معرفة إن كان عليه أكله بقشرة أو كسره أو قطعه . كما حرّم الإمام على المرأة التي جاءته يوماً تسأله عن مدى الإحتشام والأدب في استعمال نور المشاعل الموجودة في الشارع ليلاً التي ليست ملكاً خاصاً لها لأن الرسول ﷺ لم يذكر إن كان مسموحاً حسب الشريعة والأحكام القيام بذلك ولم يكن الإمام قد سمع بأن الرسول ﷺ استعان بمشعل ليس ملكه دون استئذان الشخص المالك له . وسحرتني ذات مرة تجويفات بيبات غاية في الروعة والجمال فسألت صاحبها لماذا لا يضع اسمه عليها ؛ فأجابني : « معاذ الله ! إن اسمي أحمد (وهو أحد أسماء الرسول). « هل تريدني أن أدخل النار ؟» كذلك سمعت أن البعض يتذمر من الباشا الحالي في ختمه الناقات والأحصنة باسمه الخاص : « محمد علي »؛ فقال لي صديقي الذي ذكر لي هذه الواقعة : « إنّ الحديد الذي نُقش عليه هذا الإسم والذي لا بد من تبجيله يحمل اسم الرسول ﷺ وابن عمّه « علي » (كرّم الله وجهه) وهو يوضع في النار وهذا ما يصدم ثم يُجعل حامياً على رقبة الناقة ممّا يسبب في تدفق الدم على الحديد وعلى جلد الحيوان معاً . فيتدنس الإسم وعندما يبرأ الجرح فمن المحتمل جداً ـ بل لا يمكن تحاشي ذلك ـ ، أن تضع الناقة عند انبطاحها رقبتها على شيء غير نظيف ! » . كذلك يمتنع المسلمون عن طبع كتبهم لمشاعر دينية متقدة مشابهة . فنادراً ما تغفل كتبهم ذكر اسم الله (ولا أذكر رؤيتي لكتاب واحد منها) .

وهم يتبعون قاعدة عامة تقضي باستهلال كل كتاب بالبسملة أي «بسم الله الرحمن الرحيم» والتمهيد للمقدّمة بالحمدلة ومباركة الرسول ﷺ. فالمسلمون

يخشون أن يكون الحبر المستخدم في عملية طباعة اسم العزيز الجليل أو الورق المخصص لطباعة اسم الله تعالى أو بعض آيات الفرقان من النوع الرديء القذر . ويخاف المصريون أن تصبح كتبهم رخيصة بخسة عند طباعتها فتقع بين أيدي الكافرين ؛ وتصدمهم فكرة استعمال فرشاة مؤلفة من شعر الخنزير (وتلك طريقة طبّقها المصريون في البداية) لتثبيت الحبر في كتابة اسم الله أو كلماته . لذلك ، كانت الكتب تطبع في مصر بأمر من الحكومة فقط ؛ بيد أن السماح بالطباعة شمل اثنين أو ثلاثة من المصريين كانوا تقدموا بطلب رسمي لاستعمال مطابع الحكومة . وأعرف بائع كتب مصري كان يعبّر لي دائماً عن رغبته بطباعة بعض الكتب التي من شأنها أن تعود عليه بالربح الوفير ، ولكنه لم يجرؤ على الإقدام على مثل هذا العمل بسبب انتهاكه الشريعة حسب اعتقاده .

يدهشنا التبجيل الكبير الذي يبديه المسلمون للقرآن . فهم متنبهون متيقظون دائماً لعدم إمساكه أو التمنطق به فيتدلى تحت منطقة الحزام ؛ ويضعونه في مكان عال نظيف ولا يجعلون قط كتاباً ثانياً فوقه . وتسمعهم يردّدون إن أرادوا الاستشهاد ببعض الآيات البينات من القرآن الكريم : « لقد قال الله جلاله في كتابه العزيز» . ويعتبرون أنه من غير اللائق قط أن يمسّه يهودي نصراني أو أي شخص غير مؤمن في العقيدة الإسلامية ؛ وقد يعمد البعض طمعاً ـ وإن نادراً ـ إلى بيع نسخ من القرآن لمثل هؤلاء الأشخاص . ولا يجوز أن يلمس المسلم القرآن إلاّ في حالة التطهر . وقد ورد في الكتاب العزيز : ﴿ لاَ يمسُّه إلاّ المطهرون ﴾ (سورة الواقعة / ٧٩) وتطبع هذه الآية عامة على الغلاف وينسحب ذلك على أي غرض نُقشت عليه آيات من القرآن وتجدر الإشارة إلى أن القطع النقدية العربية القديمة تحمل نقوشاً من القرآن أو شهادة الإيمان (أي أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله) علماً أن هذه العملة المعدنية لم تكن حكراً على المسلمين بل شملت كذلك النصارى واليهود ، ولكنني علمت أمر الإدانة القاسية لمثل هذا التصرف ولمّا سألت أحد أصدقائي المسلمين إن كانوا يعتبرون التين مفيداً للصحة أجابني « أو لم

يُذكر التين في القرآن ، والله يقسم به : ﴿ والتين والزيتون ﴾ (سورة التين /١) .

لا شك أن المسلمين المحدثين يتميزون عامة بتقواهم العميقة رغم الخرافات العديدة المتضاربة التي يؤمنون بها وأظن أن قليلين هم المسلمون غير المؤمنين. ولا يجرؤ هؤلاء على المجاهرة علناً بعدم إيمانهم خوفاً من أن تطير رؤوسهم بسبب ارتدادهم عن خط الدين الحنيف . ولقد سمعت عن اثنين أو ثلاثة أشخاص أُعلنت ردّتهم بسبب علاقاتهم المتينة مع الأوروبيين ، كما التقيت بأحد أتباع المذهب المادي فدارت بيننا مناقشات طويلة . وقد ذكرت في فصول سابقة من هذا الكتاب ممارسات عديدة تعكس الشعور الديني العميق السائد بين مسلمي مصر . ولا ينفك المتسوّلون في مصر يطلقون الدعوات الدينية ويحذو حذوهم بائعو الخضار والفاكهة . وكم سحرني صوت الحارس الليلي للحي القاهري الذي كنت أسكنه خلال زيارتي الأولى لهذه البلاد بجماله ورخامته ! وكنت أسمعه ينادي : « يا مالك الملك يا خالد لا تنام ولا تموت » ؛ وأما الحارس الليلي الحالي فيكتفي بالدعاء : « يا حيّ يا باقي ». والكثير يُقال عن الطبائع الدينية للشعب المصري الذي أحاول جاهداً تقديمه . ولا بد من الاعتراف بتدني الشعور الديني بينهم وبين المسلمين الآخرين عامة . ويلاحظ كلّ من اعتاد التحادث مع المسلمين المحدثين بعيداً عن أي تكلف وتصنع أنهم يدرجون الملاحظة التالية : « إنها نهاية العالم » ، « لقد وقع العالم في الكفر » . فهم مقتنعون تماماً بأنّ الحالة التي وصلت إليها ديانتهم اليوم أكبر دليل على دنو نهاية العالم وتدلّ الملاحظة التي أوردتها في فصل سابق عن بعض أتباع الوهابيين وهم من المسلمين الأوائل على انحراف عامة المسلمين المحدثين عن التعاليم التي حدّدها القرآن الكريم لأتباعه .

يظهر المسلمون أناة كبيرة في مصائبهم ونوائبهم إيماناً منهم بالقضاء والقدر ، فتراهم ينصاعون بثبات وجلد مميّزين يقربان من اللّامبالاة ويكتفيان بتنهيدة للتعبير عن عميق حزنهم ويذكر الله : « الله كريم » ؛ بينما تنفّس

المسلمات عن أتراحهن وأحزانهن بالولولة والعويل . وفي الوقت الذي يلوم النصراني نفسه على كل حادث مشؤوم يظن أنّه أوقعه على نفسه أو كان بإمكانه تجنبه ، يحتفظ المسلم برباطة جأشه وصفاء ذهنه أمام قواصم الدهر . فإذا تنبّه لدنو أجله واقتراب ساعته لا يتزعزع انصياعه قيد أنملة فيناجي ربه خالقه قائلاً : « إنّا لله وإنّا إليه راجعون » . وإذا بادره أحدهم بالسؤال عن صحته يجيبه : « الحمد لله ، الله كريم » ولا يمنعه إيمانه بالقضاء والقدر من إقدامه على أية خطوة بهدف تحقيق الهدف الذي وضعه نصب عينيه وإن لم يكن مطلقاً أو غير مشروط . كذلك لا يجعله إيمانه بالمكتوب متهوراً في تجنب المخاطر ، لأنّ القرآن يمنعه من التهور واللامبالاة : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ (سورة البقرة /١٩٥) إلاّ في بعض الحالات كما في حالات تفشي الطاعون وأمراض أخرى خطيرة ، فالرسول ﷺ أمر أتباعه بعدم دخول المدينة التي يتشر فيه هذا الوباء أو الخروج منها . ويحبذ المسلمون الحجر الصحي وإن كان معظمهم يدينه

يجرّد الاعتقاد بالقضاء والقدر المسلم من كل تسليم أو افتراض بالنسبة إلى أعماله أو أيّة أحداث أخرى في المستقبل . فلا تسمعه قط يتحدث عن أي عمل ينوي الإقدام عليه أو أية أمنية غالية يتأمل تحقيقها دون أن يختم كلامه بـ « إن شاء الله » كذلك عندما يتحدث عن أمرٍ ماضٍ غير متأكد منه ، يستهل كلامه ويختمه بـ « إن الله بكلّ شيءٍ عليم »

يولي المصريون أعمال البرّ والإحسان والتصدق على الفقراء والمساكين مكانة بارزة وهي فضائل يمليها عليهم دينهم فيرسّخها في قلوبهم ويتحمّس المسلمون لإعطاء الزكاة للمحتاجين والتخفيف عن إخوانهم من المعوزين فينتظرون مكافأة مقابلها في الجنة أو أنّهم يقدّمون الزكاة حسنة لوجه الله تعالى ويمكن القول من الهبات والحسنات المقدّمة للسّكان إنّ عدد المتسولين كبير في القاهرة . وتُقام سبل الماء (مفردها سبيل ـ وهو عبارة عن نافورة للشرب يروي المارة بمائها عطشهم) فإذا بها كبيرة أنيقة في العاصمة وأكثر تواضعاً في بنائها في القرى والحقول .

سرّتني كثيراً في أول احتكاكي بشعب مصر معاملته الإنسانية للأعاجم من الحيوانات . فلا تستغربنَّ رؤية مصري يجمع ثوبه الفضفاض تحاشياً لملامسته الكلب النّجس ، ومع ذلك لا يضنّ بقطعة خبز يقتطعها من طعامه ويرميها لهذا الحيوان المسكين . ولم تكن جرائم القتل والسرقات وغيرها من الفظائع منتشرة كثيراً في المجتمع المصري . وللأسف ألاحظ اليوم أن عامة المصريين يسيرون نحو الأسوأ في إظهار أنانيتهم تجاه البهائم وإخوانهم في البشرية . ويبدو أن قساوة المعاملة التي تظهرها الحكومة أدّت ـ كما كان متوقعاً ـ إلى ارتفاع نسبة الجرائم بين السكان . ولكنني أميل إلى الاعتقاد أن لمسلك الأوروبيين تأثيراً بارزاً ؛ فأنا لم أشهد معاملة قاسية تجاه الأعاجم من الحيوانات إلّا في الأماكن التي يقيم فيها الفرنجة أو يتردّدون إليها باستمرار كمناطق الإسكندرية والقاهرة وثيبيّة (الطيبة) . وإنّه لمن المؤسف رؤية البغال المسكينة التي تنقل الأوساخ والنفايات في القاهرة وقد ارتسمت الجروح واضحة في أجسامها كالدّملات فتقرّحت بسبب الحبال الغليظة المصنوعة من ألياف النخل والمربوطة إلى مؤخّر السّرج المعدّ لنقل الأحمال على ظهور الدواب . ويضرب الصبية والرجال الكلاب المارة في الشوارع حبّاً بالضرب فحسب كذلك يتسلى الأطفال بمضايقة القطط التي ما انفكّوا يدلّلونها سابقاً[1] وأمّا حوادث السرقة وجرائم القتل فكانت تحصل كلّ أسبوع تقريباً طوال شهرين أو ثلاثة بعد آخر زيارة لي إلى هذه البلاد . ولجأ معظم حكام المناطق الأتراك إلى ممارسة شتى ألوان التعذيب والتنكيل بالفلاحين . ولكن الفلاحين أظهروا رعونة أكبر واستبداداً أكثر عندما تسلّموا مقاليد الحكم من أسلافهم الأتراك حتّى قيل إنّهم « أكثر مقتاً ولعنة من الأتراك »

---

(١) تجدر الملاحظة إلى أن « بوركهارت » أخطأ عندما ذكر في كتابه « الأمثال العربية » Arabic proverbs رقم ٣٩٣ أنّ الأطفال في الشرق (في مصر مثلاً) يعذبون الثعابين فيحبسونها في كيس جلدي ويلقون فوقها الجير غير المطفأ ثمّ يصبون الماء . وفي الواقع لم أعثر على واحد بمثل هذه الفظاعة . ولا أظن الصبية في مصر يجرؤون على وضع ثعبان في كيس (فهم يخافون جداً من هذا النوع من الزواحف) أو يعطون قروشاً =

ومن المفارقات رؤية الكلاب المشردة تُضرب في شوارع القاهـرة ورؤية الرجال ـ ومعظمهم من الفقراء ـ يطعمونها الخبز عندما تكون هادئـة مسالمـة ؛ ونجد في كل منطقة من العاصمة أحواض ماء صغيرة يتم ملؤها يومياً للكلاب ويحصل « السّقا » في كل شارع من شوارع المدينة حيث ترتصف المتاجر على مبلغ زهيد شهرياً من أصحاب هذه المتاجر لرش الشارع بالماء وملء الأحواض للكلاب المتنزهة في الشارع . كذلك نعثر على حوض مـاء مخصص للكلاب تحت كل محل « شربتلي » (بـائع الشـربات) . ولا بـد من الإشارة إلى أن الكلاب التي لا أسياد لها بمعظمها في القاهرة تتعاضد في مجموعات منتظمـة ومميزة ؛ فتتولى كلاب كل مجموعة منطقة معينة أو حيّاً في المدينة ، فلا تتوانى قط عن ملاحقة الكلاب الغريبة التي تخوّلها نفسها الإقتراب من الحي التي تقوم بحراسته . وتكثر هذه الحيوانات في القاهرة ؛ وتتحاشى هذه الكلاب الإقتراب من الناس أو ملامستهم وكأنّها تعلم أنّ معظم سكان المـدينة يعتبـرونها وسخـة نجسة ولكنها غالباً ما تنبح في وجه الشخص المرتدي بذلة إفرنجيّة وهي تزعج كل من يمر في الشوارع ليلاً. والكلاب معتادة على أكل الفضلات التي تُرمى إليها من ملاحم الجزارين والمنازل . وتطوف كلاب عديدة بين أكوام النفايات حول العـاصمة ، فتنقض تنهش جثث الجمـال والبغال الميتـة وتشاركهـا النسور في وليمتها . وتكون هـذه الكلاب تـرابية اللون ويبـدو أنّها تشبـه أبناء آوى شكـلاً وتصرّفاً

لا يمتنع المسلمون الذين يعتبرون الكلب نجساً عن الاحتفاظ به لحراسة منازلهم ويعتبرونه أحياناً حيواناً أليفاً وقد وقعت حادثة طريفـة غريبـة من هذا النوع مؤخراً فلقد اتخذت إحدى النساء التي لا ولد أو زوج يسلّيها ويؤاسيها لنفسهاً كلباً تصحبه معها كيفما اتجهت. ولكن الموت داهم صديقها الـوفي فأبت نفسها الحزينة إلاّ أن تدفنه . ولم ترضَ الاكتفاء بـدفنه في التراب دون مراسم

= لأحدهم ليقضي عليها بهذه الطريقة . وقد يكون المثل الذي أورده بوركهارت يشير إلى طريقة القضاء على الثعابين من غير باب الهواية أو الرياضة .

جنائزية بل أصرّت على أن يوارى جدث الرحمة كأي مسلم فينزل في ضريح محترم في مدفن الإمام الشافعي الذي ينظر إليه المصريون نظرة تبجيل وتقدير خاصة . فغسلت الكلب حسب القواعد المتبعة في حال وفاة المسلم ثم لفّته في كفن وبعثت تجلب نعشاً تضعه فيه وقامت باستئجار نساء نادبات وراحت تندب معهن كلبها المرحوم. ولمّا انتهين من الندب (وقد أثار الندب حيرة جيرانها الذين لم يستطيعوا معرفة الشخص المتوفى في منزلها وهم لا يستطيعون الدخول لأنّها لم تختلط معهم قط)، دفعت للفيف من المرتلين ليرأسوا مراسيم الجنازة ولصبية المدارس لحمل القرآن أمام النعش وتلاوة بعض آياته . وانطلق الموكب الجنائزي في انتظام تام وضمّ صاحبة الكلب المتوفّى والنساء الباكيات النادبات بأجرتهن ، وسار الجميع وراء النعش فشق صراخهن السماء . ولم تكد الجنازة تتقدّم بضع خطوات حتّى تجرّأت إحدى النساء فسألت عن المرحوم فطالعتها المحزونة بالجواب التالي: «إنّه ابني المسكين». فاتهمتها السائلة بإطلاقها كذبة، فما كان من الأم الثكلى إلاّ أن اعترفت لها بأنّ المرحوم هو كلبها ورجت جارتها الفضولية ألاّ تفشي السر ولكن هيهات أن تحفظ إمرأة مصرية السر في قلبها وأيّ سرّ ! فشاع السر بين المتفرجين والجماهير المحتشدة فتجمعوا وهم معكّرو المزاج وأوقفوا الجنازة . فصبّت المولولات من النساء والمرتّلون من الصبية جام غضبهم على مستخدمتهم (وكانوا أمّنوا المال في جيوبهم) لاستخفافها بهم ؛ ولو لا تدخل رجال الشرطة لكانت المسكينة ذهبت ضحية الغضب الشعبي العارم[1]

والأمر المثير في القاهرة أن يتولّى القاضي رعاية القطط المشردة على نفقته التامة تقريباً . ويتم إحضار كمية من فضلات الطعام ظهيرة كل يوم إلى الباحة الكبيرة الواقعة أمام المحكمة وتُجمع القطط لتتناول منها . وقد أوصى السلطان « الظاهر بيبرس » (وعلمت ذلك من باش كاتب القاضي) بحديقة

(۱) ذكر « دربلو » D'herbelot حالة مشابهة مفادها أنّ تركياً دفن كلبه المفضل في حديقته =

تُعرف « بغيط القطة » الواقعة بالقرب من الجامع شمالي القاهرة لتسرح القطط فيها وتمرح . ولكنّ ورثة هذا الغيط عمدوا إلى بيعه أكثر من مرة ؛ فالموصى لهم باعوه بحجة عدم إنتاجيته إلاّ في حال دُفعت أموال طائلة لإصلاحه . وبات الغيط ينتج اليوم « حِكراً » (وهو الرسم البدلي) من خمسة عشر قرشاً في السنة يعود ريعه للحفاظ على القطط المشردة . وتقع على عاتق القاضي كامل نفقات إعالة هذه القطط . فهو يعتبر بحكم مركزه حارس كافة التركات الخيرية ولا بد أنه يعاني الأمرين من إهمال أسلافه . ولقد بدأت مؤخراً عملية إطعام القطط تشهد عدم تناسق ملحوظ ؛ فإذا ما رغب بعضهم بالتخلص من قطتهم يأخذونها و يرسلونها إلى منزل القاضي ويفلتونها في الباحة الكبيرة .

سبق وتحدثت في فصل سابق عن روح التعاطف والمودة التي يبديها المصريون تجاه بعضهم البعض . وهم يظهرون احتراماً للغرباء الذين لا يلتزمون بعاداتهم وتقاليدهم عند مخاطبتهم ولكنّهم يبدون برودة وتحفظاً أثناء مجادلتهم . وهم غالباً ما يكشفون عن فضول وقح مع هؤلاء الأشخاص وحتى في حلقاتهم الخاصة ؛ فتراهم يخافون إلى أبعد الحدود استثارة الأعداء ضدهم ممّا يدفعهم إلى التعاضد مع بعضهم البعض وإن كان في تعاضدهم هذا إجرام .

يدخل المرح في تركيبة شخصية الشعب المصري وقد يبدي بعضهم إزدراءاً كبيراً لأساليب التسلية التافهة العبثية ، ولكنّهم يتمتعون بأنواع اللهو هذه ؛ والمدهش أنّهم يتسلون بسرعة هائلة . وهم يبتهجون في حلقات الصخب والاهتياج. وقد لا تدخل الاحتفالات الشعْبية البهجة إلى قلب الإنسان

= بكل هيبة وإجلال ؛ فاتهمه القاضي بأنّه دفن الحيوان متبعاً المراسيم الجنائزية عند دفن رجل مسلم . ولكن التركي أفلت من العقاب (وكان قاسياً على الأرجح) عندما أخبر القاضي أن كلبه ترك وصيته ويترك للقاضي بموجبها مبلغاً معيناً من المال . -(Bibliothè que Orientale, ART. CADHI) .

ذي الثقافة العالية في الوقت الذي يفرح فيه المصريون كثيراً بهذه الاحتفالات ويستمتع أبناء الطبقات الدنيا بتدخين البيبة واحتساء القهوة بعد عناء النهار ومشاغله مع روّاد المقاهي

ولا ننسى حسن الضيافة الذي يتميز به أبناء الشرق عامة ويستحق أبناء مصر الثناء عليه . ويعرّفون الضيف أو الزائر الذي يحلّ في ديارهم « بالمُسَافِر » . ولا تظنّن أن المصري يجلس لتناول طعامه وغريب في منزله فلا يدعوه إلى مشاركته الطعام إلاّ في حال كان الغريب خادماً أو في مرتبة وضيعة ، فيشارك الطعام عندئذ مع الخدم. وإنّه لمن الخزي والعار بل إنّه انتهاك صارخ لقواعد الآداب أن يمتنع المسلم عن إعطاء الأمر بإعداد طاولة الطعام في الوقت المحدد بسبب وجود زائر . ويتناول أبناء الطبقة المتوسطة أحياناً طعام عشائهم إن كانوا يعيشون عيشة منعزلة أمام أبواب منازلهم فيدعون كلّ مار مهيب الطلعة إلى مشاركتهم الطعام . وتلك عادة شائعة أيضاً بين أبناء الطبقات الدنيا . ولا يعرف أبناء المدن الكبيرة عادة الضيافة هذه بسبب توفّر الوكالات والخانات حيث يمكن للغريب المبيت فيها والحصول على الطعام بكل سهولة . وأمّا الغريب الذي يصل إلى إحدى القرى ، فيحل المسافر ضيفاً على شيخ القرية أو أحد سكانها ـ وأمّا إن كان الضيف شخصاً من الطبقتين المتوسطة أو الغنية أو غير فقير معدم كثيراً ، فيقدّم هدية إلى خدم مضيفه أو إلى مضيفه نفسه ولا يعرف أبناء الصحراء عادة تلقّي الهدية من الضيف . إذ يحق للضيف حسب السّنة طلب الضيافة من أي شخص قادر على استقباله لمدّة ثلاثة أيام . وما استضافة إبراهيم للملائكة الثلاثة كما ورد في التوراة سوى صورة مثالية عن عادة استضافة الشيخ البدوي للمسافرين الوافدين إلى خيمته . فهو يأمر زوجته أو غيرها من النساء فوراً بإعداد الخبز وذبح خروف أو أي حيوان آخر وطهوه بسرعة . وفي غمضة عين يحضر الحليب وألوان الطعام الأخرى إضافة إلى الخبز واللحم المشوي أمام الضيوف الكرام الذين يطأون أهلاً ويحلّون سهلاً فإن كان الضيوف الأعزاء ينتمون إلى مرتبة رفيعة ، يقف الشيخ البدوي إلى جانبهم وهم يأكلون كما فعل إبراهيم مع الملائكة . وقد يسمح البدو بإيذاء أنفسهم أو عائلاتهم ولا

يسمحون قط بإساءة معاملة ضيوفهم وهم تحت حمايتهم . ولا يتردّد بعض العربان عن التضحية بعفة زوجاتهم من أجل عيون ضيوفهم . ويمكنني التأكيد أن بعض سكان قبيلة « بشارين » (الذين يسكنون في قسم كبير من الصحراء بين النيل والبحر الأحمر) يقدمون بناتهم العذارى لضيوفهم بدوافع حسن الضيافة وليس بدافع تأجيرهن .

عرفت القاهرة طبقة من الأشخاص « الطفيليّة » أو « الطفيليين » الذين يستغلون حسن ضيافة مواطنيهم ، فيعيشون من حياة التطفل ؛ ولكن هذه الطبقة تقلّصت كثيراً في الفترة الأخيرة . وتكاد لا تخلو حفلة واحدة لا يكون فيها هؤلاء الوجهاء الفاضلون حاضرين ؛ وتستحيل استمالتهم للإنسحاب من الجموع إلاّ إذا قدّمت لهم هدية مالية وهم طوافون جوالون في أرجاء البلاد ولا قرش صاغ واحد في جيوبهم ؛ فيقحمون أنفسهم في المنازل الخاصة كلّما رغبوا في تناول وجبة طعام أو تراهم يحتالون لهذه الغاية . ولقد علمت بقصة اثنين منهما قرّرا منذ فترة بسيطة التوجه إلى طنطا لحضور احتفال « السيد البدوي » ؛ والرحلة سهلة لن تكبّدهما عناء أكثر من يومين ونصف اليوم من القاهرة . ومضى الطفيليان يمشيان الهوينى حتّى وصلا إلى مدينة « قليوب » في آخر النهار الأول لرحلتهما وكان داهمهما وقت العشاء فاحتارا في كيفية تدبيره . فتوجه أحدهما إلى القاضي ولمّا حيّاه سأله : « يا أيها القاضي ؛ أنا مسافر من الشرقية ومتوجه إلى مصر ؛ ومعي رفيقي وهو مدين لي بخمسين كيساً يرفض أن يعطيني إياها علماً أن الأكياس في حوذته وأنا في أمسّ الحاجة إليه الآن » . فسأله القاضي « وأين صديقك؟ » فأجابه الشاكي : « هنا ، في المدينة » عندها ، أرسل القاضي رسولاً ليحضر المتهم وكان توقّع في سرّه بدل أتعاب مهم عن حكمه في هذه القضية ، فأمر بإعداد وجبة عشاء فاخرة كما يفعل القضاة في المدن والبلدات في مثل هذه الظروف . ودُعي الرجلان إلى تناول طعام العشاء وناما قبل النظر في القضية . وتم في صباح اليوم التالي إستجواب الطرفين . واعترف المتهم أنّه كان في حوذته الخمسين كيساً التي يملكها رفيقه وأردف أنه مستعد للتخلي عن هذه الأكياس التي باتت تشكل عائقاً عليه ، فهي مجرد أكياس ورقية

يباع البن فيها . ثم أضاف : « إنّنا طفيليّان » فغضب القاضي أشد الغضب وطردهما بسرعة .

يلتقي المصريون مع عرب البلدان الأخرى عامة عند نقطة نلومهم عليها نحن أهل الغرب (حسب نظام أخلاقياتنا) وتكتسي أهمية كبرى في نظرنا وهي عدم الإقرار بالجميل[1] وأنا أميل إلى الظن أن إنكار الجميل ناجم عن طبائع البدو وعادة حسن الضيافة والكرم والاعتقاد الشائع بأنّ هذه الميزات واجبات مطلقة ومن الخزي والخطيئة إهمالها .

يتميّز المصريون باعتدالهم وعدم إفراطهم في نظام غذائهم . فأنا لم أصادف منذ وصولي الأول إلى هذه البلاد مصرياً أو مصرية في حالة السكر إلاّ إن تعلق الأمر بموسيقي في حفلة أو راقصة أو مومس حقيرة . وبديهي القول إن المصريين مقتصدون جداً فهم يحترمون الخبز (« العيش ») ويعتبرونه عصب الحياة ، ويحاولون قدر المستطاع عدم تبديد حتى فتاته . ولقد صادفت مراراً مصرياً يتناول قطعة خبز صغيرة سقطت سهواً في الشارع أو الطريق العام فيقبلها ويرفعها فوق جبهته ثلاث مرات ثم يضعها عند حافة الطريق حتى يمرّ كلب جائع فيلتهمها بدلاً من أن تدوسها أقدام المارة . وقد روى لي بعضهم حادثة مثيرة حول الإحترام اللاّ معقول الذي يكنه المصريون للخبز وأعتقد شخصياً أنه يصعب تصديق مثل هذه الرواية. ومفاد القصة أن شخصين كانا جالسين أمام باب منزل سيدهما يتناولان طعام عشائهما عندما لاحظا أحد المماليك من البكوات

---

(١) تجدر الملاحظة أنّ هذا الكلام يتضارب مع الإمتنان الكبير الذي يكنّه العرب لخالقهم ؛ وقد يبررون موقفهم « بأنهم مجبرون على معاملة إخوانهم في البشرية أحسن معاملة كما تقول شريعة الله ؛ ولكنهم لا يستطيعون مطالبة خالقهم بأي جميل » . وحدث يوماً أن أمّنتُ ملاذاً لبدوي كان يخاف على حياته ؛ ولمّا غادر لم يبادرني بأدنى كلمة شكر . فهو لو فعل لكان ظن أنني في وضعية فقيرة واعتبر عملي وكأنّه واجب مفروض . لذا يكتفي العربي بشكر المحسن الكريم الذي يقدم له مساعدة بالدعاء له بطول البقاء والعمر المديد .

يدنو منهما على صهوة حصانه وحوله العديد من قواده . فهبّ أحد الخادمين واقفاً احتراماً لهذا البيه العظيم الشأن ، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن حدجه بنظرة استهجان وصرخ في وجهه : « أيهما أكثر احتراماً الخبز الذي أمامك أم أنا ؟» ولم ينتظر جواب الخادم وأعطى إشارة بيده فهمها مرافقوه فقطعوا رأس المذنب المسكين على الفور .

يشتهر المسلمون المصريون المنتمون إلى الطبقتين الغنية والمتوسطة بنظافتهم الكبيرة ؛ أمّا أبناء الطبقات الدنيا فأكثر نظافة من أبناء البلدان الأخرى . فلو لم تكن النظافة نقطة مهمة في ديانتهم لما كانوا أدرجوها على الأرجح في قائمة اعتباراتهم وعلينا ألاّ نسارع في الحكم على المصريين من خلال ما عرضناه في فصل آنف عن الحالة الوسخة التي يترك فيها المصريون أولادهم وتعتبر عملية الوضوء الدينية حكيمة في فرضها ، فالنظافة الشخصية مفيدة للصحة في الطقس الحار . ويحرص المصريون عامة على تجنب كل ما يعتبره دينهم نجساً ملوثاً وأبرز اعتراضاتهم على شرب الخمر هي أن الخمر غير نظيف ، ولا أخال أحداً يستطيع دفع المسلم إلى أكل شيء من لحم الخنزير إلاّ برشوة مالية كبيرة ما عدا فلاحي « البحيرة » (الواقعة غربي فرع النيل الغربي) الذين يأكلون بمعظمهم لحم العِفر (الخنزير البري) والجرذان ولفتت نظري ذات مرة ملاحظة أبداها أحد المسلمين حول موضوع الخنزير وقد لاحظ أن الفرنجة مفترون أكثر . فالمعروف أن من عادة هؤلاء أكل لحم الخنزير ، بيد أن بعض المفترين في مصر يؤكدون أن الفرنجة لا يكتفون بأكل لحم الخنزير الوسخ فحسب بل يأكلون جلده وأحشاءه ويشربون حتى دمه فلما لم أنفِ اتهامه ، أخذ يلعن الكافرين لعنة صادرة عن القلب ، فجعلهم في أدرك دركات جهنم .

لا بد من الملاحظة أن معظم الجزارين الذين يزودون سكان العاصمة المسلمين باللحم هم من اليهود . وكان اشتكى منذ سنوات واحد من أبرز العلماء المصريين إلى الباشا بهذا الخصوص ورجاه أن يضع حداً لهذا

الموضوع . ولمّا سمع عالم آخر أن العالم السابق توجّه ليرفع شكواه إلى الباشا تبعه وأصرّ أمام الباشا أن ليس في الأمر صفة غير شرعية . فطلب منه الباشا إبراز دليل يثبت كلامه . فأجابه العالم الثاني « إن دليلي أبرزه من كلام الله : ﴿ فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾ . (سورة الإنعام / ١١٨). ثم أستدعى الباشا كبير الجزارين اليهود فسأله إن كان يردّد كلاماً معيناً قبل ذبحه الحيوان . فأجابه : « نعم ، نحن نذكر دائماً اسم الله كالمسلمين فنقول : « بأسم الله ! الله أكبر !» ولا نقتل حيواناً بطريقة أخرى غير ذبح عنقه » فما كان من الباشا إلاّ أن رفض شكوى المدعي .

جرت منذ أيام حادثة مفادها أن رجلاً كان يشتري فطيرة من أحد الخبازين في القاهرة فرآه يُخرج من فرنه طبقاً يحتوي على لحم خنزير كان يخبزه لأحد الفرنجة ؛ فافترض الشاري أن تكون الفطيرة قد لامست هذا اللحم الوسخ فلوّثته . فانطلق على الفور وأحضر جندياً من أقرب مخفر ومثل الخباز الذي اعترض على ذلك (فهو كان يجهل وجود لحم خنزير في الفرن) أمام الضابط الذي اعتبر أن القضية مهمة فأحالها إلى ديوان الباشا ؛ وبدوره أحال رئيس الديوان المتهم إلى المحكمة نظراً لصعوبة الحكم فيها وطابعها الجدي وارتأى القاضي استشارة المفتي الذي أصدر الحكم التالي : « إن كل أنواع الأطعمة غير النجسة بالضرورة تصبح نظيفة من أي تلوث عند ملامستها النار ، ومن هذا المنطلق نعتبر أن كل غرض تجتمع فيه هذه الصفات في الفرن نظيفاً لدى خبزه حتى ولو لامس لحم الخنزير » .

تلقى الباشا منذ فترة قصيرة مجموعة من الفرش والوسادات المحشوة بشعر الحصان لديوان حريمه وفتحت السيدات إحدى الوسادات لمعرفة المادة التي تجعلهن مرنات متمددات على نحو رائع ؛ لكنهن شعرن بالقرف والإشمئزاز عندما وقعت أبصارهن على ما اعتقدن أنه شعر الخنزير ، فأصررن على التخلص من الديوان بكامله كذلك قام فرنسي كان عينّه الباشا الحالي منذ سنوات لتكرير السكر باستخدام الدم لهذه الغاية ؛ ولم يقدم سوى القليل من

سكان هذه البلاد على أكل السكر الذي يصنعه الفرنجة ، كما أجبر الباشا على منع استخدام الدم في مصانع السكر خاصّة وإحلال بياض البيض مكانه . ويستخدم بعض المصريين السكر الأوروبي لجودته وتفوقه على السكر المصري متذرعين بأنّ ما هو نظيف في الأصل يصبح نظيفاً ثانية بعد التلوث . ولكنني مضطر للإحتفاظ بالسكر المصري الخشن لتحضير الشربات لزواري الذين يدخل بعضهم في متاهات مناقشة طويلة معي بهذا الخصوص .

يعمد المصريون بعد غسلهم الثياب إلى صب الماء النظيف عليها وتكرار أن « أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله » . ولقد ذكرت عادات مختلفة يتبعها المصريون حفاظاً على النظافة في حديثي عن ديانتهم علماً أن معظم هذه العادات معروفة في العالم . ولكن على الرغم من هذه المبادىء والممارسات النظيفة وعادة المصريين في التوجه إلى الحمام ، فلا يغيرون ملابسهم الكتانية غالباً كما سكان المناخات الشمالية الأقصى الذين لا حاجة بهم إلى تغيير ثيابهم كثيراً ، فهم يتوجهون غالب الأحيان إلى الحمام في قميص وسخ ويعيدون بعد اغتسال طويل لبس القميص عينه

وأمّا العاطفة البنوية فهي أبرز سمات الشعب المصري . ولقد تحدثت في الفصول السابقة عن الاحترام الكبير الذي يظهره الأبناء لآبائهم . كذلك يبدي الشباب والصغار احتراماً مماثلاً للمتقدمين في السن خاصة للرجال ذوبي المكانة البارزة والأتقياء ورجال الفكر .

يفيض حب الوطن خاصة حب المنزل في قلوب المصريين المحدثين وتطغى الرهبة في نفوسهم من فكرة هجرهم أرضهم الأم وقد سمعت عن مصريين عقدوا العزم على زيارة بلد أجنبي بحثاً عن منافع طائلة يجنوها في غربتهم ، ولكنّ عزيمتهم خانتهم عندما دنا موعد رحيلهم . بيد أن الإضطهاد القاسي أضعف هذا الشعور الذي يعود بدرجة كبيرة إلى جهل المصريين للأراضي الأجنبية ولسكانها . وقد يكون النبي العربي استند إلى هذا الشعور

الطاغي بين العرب في زمنه فوعد الذين هجروا بلادهم ليتبعوا دينه بالعالم الآخر جزاءاً لهم . ويذهب المصـريون بحبهم لمسقط رأسهم إلى حـد أن الفتـاة أو المرأة المصرية نادراً ما توافق على الزواج ـ أو يسمح لهـا أهلها ـ من رجـل لا يقطع لها وعداً بأن يقيم معها في مدينتها أو قريتها . وأميل إلى الظن أن الممانعة في الإنتقـال من مسقط الرأس نـاجمة عن خـوف المرأة ورغبتهـا في الإحتماء بأهلها . والبدو شديدو التعلق بصحرائهم وينظرون بازدراء إلى الأشخاص الذين يتخذون المدن موطناً لهم وكذلك المـزارعين ممّا يجعلنـا مدهـوشين من رؤية الكثيرين منهم يستقرون حتّى على ضفـاف النيل الخصبة . وتترك الصحـراء في نفوس المصريين المحدثين وقعاً رهيباً موحشـاً وهم المتحدرون بمعـظمهم من البدو والمشابهون لأسلافهم في حبهم لأرضهم الأم . ويكفي يوم واحد يقضونه في الصحراء حتى تزخر ذاكرتهم بأخبار المعاناة والحرمان المبالغ فيها والمخاطر المحدقة بهم من كل حدب وصـوب والمعجزات والأعـاجيب التي تصادفهم ، فيعودون بها إلى بني بجدتهم البسطاء وينقولنها إليهم بكل لهفة وشغف .

يتسلّل الكسل إلى أوصال المصريين على اختلاف طبقاتهم باستثناء الذين يجبرون على كسب عيشهم بعرق جبينهم . ويعـود تراخيهم إلى منـاخ بلادهم وخصوبة أرضهم والحرفيون أنفسهم الطامعون في اجتناء الربح الوفير يقضون يومين كاملين في إنجاز عمل لا يتطلب إنجازه أكثـر من يوم واحـد . ولا مانـع عندهم أن يتخلوا عن الأعمال المربحة فينفقون الوقت بالتراخي يدخنون البيبة في الـوقت الذي يشقى خـلاله الحمّـال والسائس الـراكض أمام حصـان سيده والمراكبي الذي يقطر المراكب حتى النهر أيام القيظ وغيرهـم من الفلاحين الذين يتجشمون الأعمال المتعبة

والمصريون عنيـدون صعبو المـراس . وقد أشـرت في فصل سـابق إلى لصوق هذه الصفة بهم منـذ العهود السالفة (وبالتحديد ابتداءاً من فترة الإحتلال الـروماني) إذ كـانوا يـرفضون دفـع الضرائب إلاّ إن ضـربوا ضـربـاً مبـرحـاً ، فيتفاخرون بعدد الجلدات التي تحفر أثلاماً في أجسادهم قبل أن يذعنوا لـدفع

المبلغ المتوجب عليهم وهم مشهورون بتصرفهم هذا وعلمتُ أن فلاحاً توجب عليه دفع نحو أربع شيلينهات لحاكمه أشبع ضرباً ولكماً لأنّه كان عاجزاً عن دفع هذا المبلغ التافه إلى أن أمره الحاكم بالإنصراف . وبينما هو يمشي مترنحاً من شدة الألم تلقى صفعة قوية على وجهه ، فوقعت من فمه قطعة معدنية تساوي قيمة المبلغ المتوجّب عليه . ولم يفلح كل الضرب الذي انهمر عليه وابلاً في حمله على الدفع . ويبدو أن مثل هذا التصرف ميزة خاصة غريبة متأصلة في طبائع المصريين . ولا نستغرب في الواقع هذا التصرف فهم يدركون تماماً أنهم لو سارعوا إلى الدفع لاقتضى عليهم دفع المزيد . ومع ذلك نجدهم متعنتون للغاية كما تصعب السيطرة عليهم في مجالات أخرى علماً أنهم يظهرون خنوعاً متذلّلاً في عاداتهم وتصرفاتهم . ونادراً ما نلقي عاملاً مصرياً ينفذ أمراً يطلب منه ؛ فهو يفضل إتباع رأيه الخاص بدلاً من رأي سيّده . لذا ، لا ينهي قط عمله في الوقت المحدد .

والفلاحون المصريون مقدامون شجعان عندما تستثيرهم الإقطاعية رغم خضوعهم لحكامهم فيضحون جنوداً باسلين .

أمّا في مجال الإنغماس في الشهوات الحسية وإطلاقهم العنان لغرائزهم فنلاحظ أن المصريين كما سائر مواطني المناخات الحارة يتخطون بأشواط البلدان الشمالية الأخرى . ولا تُعزّى هذه المبالغة إلى المناخ فحسب بل إلى إقرار مبدأ تعدد الزوجات وسهولة الطلاق كلما رغب الرجل في الإقتران بزوجة جديدة إضافة إلى عادة التسري الشائعة في وسطهم . ويُقال ـ وأعتقد أنه صحيح ـ إنّهم يتجاوزون في هذا المضمار البلدان المجاورة لهم ذات المؤسسات المدنية والدينية المشابهة . وهم يستحقون التسمية التي تطلق عليهم في القرآن الكريم ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ (سورة الزخرف / ٥٤) التي تشير إلى مصر القديمة وقد شاعت هذه العادة الشائنة بين المماليك الذين تعاقبوا على الحكم إلى درجة تساوت مصر معها ببلدان الشرق الأخرى ؛ ويقال إن هذه الرذيلة آخذة بالتقلص في السنوات الأخيرة .

يطلق المصريون من الجنسين الكلام على عواهنه ، فلا يحتشمون في محادثاتهم . ولا تقتصر حرية التحادث غير المحتشمة على السوقة والرعاع بل تشمل كذلك أكثر النساء احتراماً وفضيلة إلاّ القليلات منهن اللواتي يلجأن إلى الألفاظ الفظة غير المصقولة والتي لا تخرج مع ذلك عن مسار العفة . وقد يتلفظ الأشخاص المثقفون بتعابير بذيئة لا تناسب سوى بيت دعارة منحط. ولا تتردّد النساء المهذبات اللطيفات من تسمية الأشياء بأسمائها والتحدث في شتى المواضيع فلا يخلنها تجرح آذان سامعيها من الرجال ؛ وهي كلمات تخجل المومسات في الغرب من التلفظ بها .

تتميز نساء مصر بتحرّرهن في التعبير عن مشاعرهن عن سائر النساء الأخريات اللواتي يزعمن الإنتماء إلى أمة متحضرة متمدنة ويعزّز هذا الطبع فيهن ثقة مواطنيهن من الرجال حتى في محادثاتهن مع الغرباء . ولا شك أن الإستثناءات كثيرة ويسعدني أن أذكر كلمات صديقي الشيخ « محمد عيّاد الطنطاوي » في ملاحظة له حول مقطع في « ألف ليلة وليلة » : ـ « تعتبر الكثيرات أن زواجهن للمرة الثانية عمل مخزٍ . وتسود هذه الفكرة خاصة في المدن والقرى ؛ وقريبات والدتي متميزات في هذا الأمر ، فلا تتزوج الواحدة منهن عندما يتوفى زوجها وهي شابة أو عندما تتطلق ، بل تمضي حياتها ـ مهما طالت ـ تعيش في ترمّل رافضة الزواج ثانية ». وأخشى أن تكون غالبية النساء المصريات متحررات غير ملتزمات بالقواعد الصارمة . وتسيء الكثيرات منهن استعمال الحرية المعطاة لهن ؛ ولا يعتبر معظمهن في مأمن إلاّ إن أقفلت عليهن الأبواب فيبقين حبيسات منازلهن . والمصريات بارعات ماكرات في تدبير علاقتهن الغرامية السرية ومكائدهن ، فلا يفلح أكثر الأزواج تحفظاً واحتراساً في التنبه إليها مهما بدت كبيرة مخاطر تلك العلاقات التي ينزلقن إليها وقد يشكل الزوج نفسه أحياناً المطية غير المباشرة لنزوات زوجته الإجرامية . وتقدم لنا بعض قصص «ألف ليلة وليلة» نماذج صادقة عن حوادث من هذا النوع تزخر بها العاصمة المصرية الحديثة ويتفق العديد من رجال العاصمة أن معظم النساء لا يترددن في المخادعة إن تسنّى لهن ذلك دون خطر مداهم وأنّ غالبيتهن

يخدعن أزواجهن فعلاً وآسف أن هذا الرأي صحيح ولكنني مقتنع أنّه قاس لأنّ التقاليد التي يعرفها المجتمع المصري بالنسبة إلى المرأة تتنافى وما هو مذكور سابقاً . ولا يمكن لشخص غير مطلع تماماً على عادات أهل الشرق وتقاليدهم تصور مدى صعوبة إقامة علاقة غير شرعية مع إمرأة في مصر . لا يصعب على المرأة المنتمية إلى الطبقتين المتوسطة أو الغنية إدخال عشيقها إلى منزلها فحسب بل يستحيل عليها تقريباً التحادث على انفراد مع رجل يملك حريماً في منزله أو دخول منزل رجل غير متزوج أو ليست لديه خليلة فيجذب إليه أنظار الجيران الذين يسارعون إلى التدخل بينهما وكما أنه لا يمكننا نفي إقامة العديد من النساء علاقات غير شرعية دون أن ينظرن إلى عواقبها الوخيمة ، فيمكننا الإفتراض أن الصعوبات الناجمة عن مثل هذه العلاقة تشكل العائق الرئيسي أمام النساء الأخيرات . ونشير إلى أن إقامة هذا النوع من العلاقات سهل التحقيق ومنتشر بين نساء الطبقات الدنيا

يُعزى الطابع الشهواني المميّز لمعظم نساء مصر والمسلك التحرري لعدد كبير منهن إلى جملة أسباب ـ منها تأثير المناخ وحاجتهن إلى التثقف ذاتياً وإلى تسليات بريئة يمضين بها وقتهن ؛ ولكن يعزى مسلكهن في الواقع إلى الأزواج أنفسهم وإلى مسلكهم المخزي والقساوة التي يمارسونها في تنظيم أمور الحريم ويسعى عامة الأزواج المصريين إلى إثارة المشاعر الشهوانية عند زوجاتهم بكل ما أوتوا به من وسائل ويحاولون في الوقت نفسه بكل كدّ وجد كبح تلك العواطف التي سمحوا بها بصورة غير شرعية . ويُسمح للنساء بالإستماع وهنّ محجوبات من وراء نوافذهن الشعرية الخشبية إلى الأغاني غير الأخلاقية والقصص التي يغنيها أو يقصها في الشوارع رجال يدفع لهم خصيصاً لذلك ؛ كما يسمح لهن بالنظر إلى رقص « الغوازي » و« الخوالي » المختثين المبهج للحواس . وتدخل « الغوازي » وهنّ المومسات المحترفات حريم الأغنياء ولا يكتفين بتسلية السيدات برقصهن بل يعلمنهن فنونهن الشهوانية الحسية ، وهنّ يُدخلن حتى الدمى غير المحتشمة أحياناً لتسلية نازلات الحريم ولقد سمعت قصصاً لا تُحصى عن الحيل التي تلجأ إليها المصريات وأخبار غرامياتهن ومنها

الحكايات التي سأرويها لكم : ـ تزوج تاجر رقيق فقد القسم الأكبر من أملاكه التي كانت تؤمن له في الماضي الراحة والهناء من امرأة شابة جميلة من القاهرة تملك مالاً وفيراً كافياً يعوض له خسارته ؛ ولكن التاجر سرعان ما أهملها ولمّا كان زال منه روق الشباب ، أهملته الزوجة الجميلة وأفاضت عواطفها الجياشة على رجل آخر ، زبّال اعتاد المجيء إلى منزلها . واشترت الزوجة للزبّال دكاناً بالقرب من منزلها وأعطته مبلغاً من المال يمكّنه من مزاولة عمل أقل انحطاطاً كبائع سمانة أو علف وطمأنته أنّها وضعت خطة لزيارتها بكل أمان . وكانت للحريم الذي تسكن فيه نافذة ذات مصاريع متدلية ، كما ارتفعت أمام هذه النافذة شجرة نخل باسقة تتجاوز سطح المنزل. ومن شأن هذه الشجرة أن توصل حبيبها إليها وتخرجه من منزلها إن داهمهما خطر . وكانت للزوجة العاشقة خادمة وحيدة تساعدها في تحقيق رغباتها فطلبت منها قبل الزيارة الأولى لعشيقها أن تبادر إلى إعلام زوجها بما سيحصل في الليلة التالية . فقرر الزوج المراقبة وأخبر زوجته أنّه خارج ولن يعود تلك الليلة واختبأ في حجرة أرضية ولمّا هبط المساء أتت الخادمة تخبره أن الزائر وصل إلى الحريم . فهبّ الزوج صاعداً إلى الحجرة العلوية ولكنه وجد باب الحريم مقفلاً ولمّا حاول فتحه صرخت زوجته وهرب العاشق في الوقت نفسه من النافذة عن طريق شجرة النخل . وصرخت الزوجة تنادي جيرانها « أنقذوني ـ أرجوكم تعالوا أنقذوني ! في منزلي سارق!». ودب العنفوان في نفوس الجيران فحضر بعضهم على الفور ووجدوا الزوجة محبوسة في غرفتها وزوجها واقفاً خلف الباب فأخبروها أنّ ما من أحد في المنزل غير زوجها وخادمتها فقالت لهم إن الرجل الذي اعتقدوه زوجها كان سارقاً وإنّ زوجها نائم خارج المنزل . وهنا روى الزوج لهم ما حصل وأصرّ على أن رجلاً كان معها في الغرفة فخلع الباب وفتّش الغرفة . ولمّا لم يجد أحداً داخلها ، عنّفه جيرانه وشتمته زوجته لهذا الإفتراء ضدها . وفي اليوم التالي ، اصطحبت الزوجة معها اثنين من جيرانها ليشهدا في المحكمة على افتراء زوجها واتهامه إياها بإقامة علاقة غرامية غير شرعية إجرامية . وكان الشاهدان قد حضرا على الفور إلى المكان لمساعدتها عندما سمعا صراخها ،

واستدعت زوجها إلى المحكمة لافترائه على آمرأة فاضلة صالحة دون أن يشهد بنفسه أو يبرز شهوداً آخرين وأدانت المحكمة الزوج على فعلته وجُلد ثمانين جلدة حسب ما أمر به القرآن الكريم فسألته زوجته إن كان سيطلقها ولكنّه رفض أمر الطلاق . وعاشا طوال ثلاثة أيام بعد هذه الحادثة مع بعضهما بسلام ووئام . وعمدت الزوجة في الليلة الثالثة إلى تقييد يد زوجها ورجله وهو نائم وأوثقته إلى فرشته وكانت دعت عشيقها إلى زيارتها وما هي إلى لحظات حتى حضر عشيقها فأيقظ الزوج وهدّده بقتله فوراً إن صرخ وبقي مع الزوجة طوال ساعات بحضور الزوج . ولمّا خرج الدخيل فكّت الزوجة قيد زوجها وصرخت لجيرانه وانهال الزوج يضربها ضرباً مبرحاً فراحت بدورها تستغيث وتطلب النجدة . وهبَّ الجيران لمساعدتها فرأوه وهو في سورة غضبه فأدركوا تماماً أن الرجل بات معتوهاً وحاولوا تهدءته بكلمات لطيفة وصلوات حتّى يعيد الله إليه عقله وخلّصوا الزوجة من قبضة الزوج المزمجر الثائر . وأحضرت الزوجة رسولاً من عند القاضي وتوجهت معه وزوجها ولفيف من جيرانها الذين شهدوا الضرب الذي لحق بها أمام المحكمة . وأجمع الجيران أن زوجها مجنون فأمر القاضي بإرساله إلى « المارستان » (بيت المجانين) ؛ وحاولت الزوجة استدرار عطف القاضي فرجته أن يسمح لها بتقييد زوجها في حجرة من منزلها فتسهر على راحته وتخفف من آلامه . فوافق القاضي على طلبها وطفق يمدح روحها الخيّرة داعياً الله أن يكافئها عملها . ولتحقيق رعايتها المزعومة أحضرت طوقاً حديدياً وسلسلة من المارستان وربطت زوجها في حجرة سفلية من منزلها . وهكذا ، كان عشيقها يحضر كل ليلة لزيارتها في حضرة الزوج المقيّد وتلح عليه بعد رحيل عشيقها ليطلقها ولكن دون جدوى . ولمّا كان الجيران يحضرون يومياً للسؤال عن حال الزوج ، كانوا يطلقون جواباً واحداً يتيماً لاتهامه زوجته وتذمره : « ربّنا يهديك ! ربّنا يهديك ! » واستمر الزوج شهراً كاملاً على هذا المنوال . ولمّا رأت الزوجة إصرار زوجها على رفضه تطليقها ، أرسلت تطلب حارساً من المارستان لأخذه بعيداً عنها وحالما غادر الزوج المنزل توافد الجيران فصرخ أحدهم متعجباً : « لا حول ولا قوة إلاّ بالله ! ربنا يهديك » وطالعه آخر بقوله :

« مؤسف جداً ! لقد كان حقاً رجلاً فاضلاً » ولاحظ آخر : « إنه موسم الباذنجان». ولم تنفك الزوجة تزوره يومياً في المارستان وتلح عليه أن يطلقها . ولما أجابها نفياً قالت له : « إذن إبقَ مقيداً حتى مماتك وسيأتي عشيقي إلى منزلي بصورة مستمرة ». وأخيراً وبعد احتجازه طوال سبعة شهور وافق على تطليقها وبناءاً عليه ، فكّت أسره فوفى بوعده لها . لكن عشيقها كان في مرتبة وضيعة لا تسمح له بأن يصبح زوجها ، لذا بقيت غير متزوجة وكانت تلقاه كلمّا شاءت ، بيد أن الخادمة كشفت النقاب عن حقيقة الأمر وأصبحت هذه القصة على كل شفة ولسان .

لا تستطيع زوجة رجل غني أو صاحب مكانة رفيعة أن تقيم علاقة خارج المخدع الزوجي دون أن يحدق بها الخطر هي وعشيقها من جراء علاقتهما وحدث في العام الماضي أن استغلت زوجة ضابط رفيع المستوى غياب زوجها عن العاصمة (حيث اعتاد أن يقيم معها عندما لا يكون يؤدي خدمته العسكرية) ودعت تاجراً نصرانياً كانت تشتري منه الحرائر لزيارتها في منزلها . فتوجه التاجر إلى المنزل في الموعد المحدد ووجد مخصياً في انتظاره أمام الباب قاده إلى منزل آخر وأخفاه في ثياب فضفاضة وحجاب أمرأة ثمّ قاده مجدداً إلى المنزل وقدّمه لسيّدته . وأمضى التاجر ليلته كلّها تقريباً معها ؛ ولمّا استفاق قبلها وضع في جيبه كيساً كان أعطاه لها وذهب إلى المخصي الذي قاده إلى المنزل حيث كان ارتدى ثياب التخفي ثم انطلق إلى متجره بعد أن ارتدى ثيابه ثانية . لكن الزوجة ما إن فقدت الكيس حتى عادت إليه واتهمته بأخذه. وقالت له إنها لا تريد المال ولكنّها راغبة بصحبته ورجته أن يأتي إلى زيارتها في الليلة التالية فوعدها خيراً . ولكن حضرت إليه في فترة بعد الظهر خادمة من منزل الزوجة وأخبرته أن سيدتها وضعت سمّاً في قنينة ماء كانت ستأمر بتقديمها له ، وهذه طريقة انتقام شائعة تتخلص بها المرأة من عشيقها الذي يوجه إليها ولو إهانة بسيطة

تنزل عقوبة الموت بالمسلمة المتهمة بإقامة علاقة غير شرعية إجرامية في

حـال اجتمع أربعـة شهود لإدانتهـا . ويقـوم هؤلاء الشهـود الأربعـة أو زوجهـا بإعدامها ولا تنجح دائماً في الإفلات من العقاب إن تقصّى أثرها أحد مأموري العدالة ولا تستلزم الحالة الأخيرة وجود أربعـة شهود . ويتم قتـل المرأة ـ إن انتمت إلى عائلة محترمة ـ بعيداً عن أنـظار العامـة وبناءاً على حكم المحكمـة الإعتباطي الإستبدادي فحسب . وقد تنقذ رشوة حياتها من الموت ، فـالرشـوة مقبولة دائماً إن كانت مضمونة ولا مخاطر محدقة بها . وأمّا اليوم فتنزل عقـوبة الموت غرقاً بالمـرأة المتهمة بـالزّنـا في القاهـرة وفي المدن المصرية الكبيـرة الأخرى أمام أنظار العامة بدلاً من عقوبة الرمي بالحجارة التي تأمر بها الشريعة . ولقد تزوجت منذ بضعة شهـور امرأة فقيـرة من هذه المـدينة رجـلاً تاجـراً يبيع الطيور واتخذت هذه الزوجة لنفسها ثلاثة مساكن أخرى في الوقت الذي كانت تقيم خلاله مع زوجها وأمها. وتزوجت «المسكينة» ثلاثـة رجال غيـر زوجها كـانوا غائبين عامة عن العاصمة . وكانت تنظم أوقاتها بطريقة تسمح لها بإيجـاد عذر فتخرج لرؤية أحد أزواجها العتيدين كلّما حضر أحدهم إلى المدينة ليبيت فيها بضعة أيام وحصل ما لم يكن في حسبانها وحضر جميع أزواجها في اليوم ذاته وتوجهوا في الليلة عينها يسألون عنها في بيت أمها وأحرجت المسكينـة كثيراً من وجودهم وكذلك زوجها الأول فتظاهرت بأنّها مـريضة وأنّهـا فقدت الـوعي فنقلتها أمها إلى غرفة داخلية ، واقترح أحد الأزواج أن يعطيهـا شيئاً مـا لتستردّ وعيهـا ؛ وتمنى زوج غيـره تـطبيق عـلاج مختلف وبـدأ الأزواج يتنـافسـون لإعطائها الدواء الأفضل . فقال أحدهم : « سـأعطيهـا ما يحلو لي ، أو ليست هي زوجتي ؟» فصاح به الأزواج الثلاثة الآخرون في وقت واحد : « زوجتك ؟ إنّها زوجتي » وأبرز كل واحد منهم دليـلاً على زواجه . واقتيدت الزوجـة إلى المحكمة فحوكمت وصدرت في حقها عقـوبة المـوت وتم إغراقهـا في النيل . وتشاء الصدف أن تقع منذ فترة بسيطة حادثة مشابهة للحـادثة المـذكورة خـلال زيـارتي السـابقـة لمصر مفـادهـا أن امـرأة تـزوجت ثـلاثـة ضبـاط من الضبـاط النظاميين ، وكانت النتيجة أن دفنت في حفرة وأطلقت عليها النار .

يمكن للمرأة أحياناً ـ ولكن نادراً ـ أن تخفف عقوبتها من الموت باعتمادها

على الظروف التخفيفية أو دعم بعض أصدقائها ذوي النفوذ والسلطة في حال ضبطت في علاقة غير شرعية إجرامية كما في المثل التالي : ـ عمد الباشا في العام الماضي إلى تزويج إحدى الجاريات في حريمه إلى تاجر رقيق غني ابتاع منه العديد من المماليك من عبيده وجارياته . ولم يكن زوجها غير مخلص لها فحسب بل كان يهملها دائماً مما دفعها إلى إقامة علاقة حميمة مع تاجر كانت من زبائنه الدائمين . وذات يوم عندما كان زوجها خارجاً فرأى عبده الأسود رأس رجل من فتحة صغيرة في نافذة الحريم فنهض بسرعة يفتش غرفة زوجته التي ما إن سمعت خطواته قادماً حتى أسرعت في إخفاء عشيقها في خزانة مجاورة . فكسر العبد باب الخزانة فاستل العشيق خنجراً كان متمنطقاً به ، فما كان من العشيق إلاّ أن أخذ الخنجر من يده ولكن المرأة أوقفته حتى ولى العشيق فاراً وراحت الزوجة تقبل يد العبد وتطلب منه ألاّ يكون سبب موتها فيخبر زوجها بما حصل . ولكن فؤاد العبد لم يتفطر عليها فتوجه فوراً إلى سيده وبيّن له يده النازفة وأخبره سبب الجرح . ولاذت المرأة في هذا الوقت بالفرار إلى حريم الباشا طالبة الحماية وطلب الزوج من الباشا أن يعطيه زوجته حتى تنزل بها عقوبة الموت . واعتبر الباشا طلب الزوج منطقياً محقاً ، فأُحضرت الزوجة أمام سيدها السابق لتدافع عن نفسها وتردّ عنها جريمتها . وخرّت تقبل قدم الباشا وتقبّل رداءه وتخبره عن مسلك زوجها العاطل وإهماله لها . ورأى الباشا في تصرف الزوج السيء إهانة له فبصق في وجهه وأعاد الزوجة إلى حريمه . وأمّا عشيقها فلم يعش طويلاً بعد هذه الحادثة ومات اختناقاً في بيت مومسات . بيد أن أيّاً من المومسات لم تُعاقب إذ لم تعرف هوية المومس التي ارتكبت هذا الجرم

يُلام المصريون كما المسلمين عامة على قساوتهم في معاملتهم الجنس اللطيف والمشاعر التي يبدونها تجاههن. صحيح أنهم لا يأخذون برأي الفتاة القاصر في أمور الزواج لعدم الضرورة أو لدقة الموضوع ، والصحيح كذلك أن الرجل المنتمي إلى الطبقتين المتوسطة أو الغنية يختار زوجته مما يسمعه عنها أو يكون كما المعصوب العينين ، فلا يحق له رؤية زوجته قبل إبرام عقد الزواج

وحضورها إلى منزله ويستحيل بالتالي أن يتعلّق الرجل بزوجته قبل الزواج . والحق يقال إن الطرفين أسيرا التقاليد والأحكام الإستبدادية . ولكنهما يعتبران ويكل سرور قيودهما لائقة ومشرفة وإنّه لمن الإهانة والعار الإنعتاق منها . ولاحظت سابقاً أن القيود المفروضة على المرأة طوعية إلى درجة كبيرة من جهتها ، وهي أقل صرامة في مصر منها في أي بلد آخر في الإمبراطورية العثمانية وهي بالطبع أقل صرامة ممّا صوره لي بعضهم . وتنظر المصريات عامة إلى هذه القيود بفخر واعتزاز ، فهي تثبت رعاية أزواجهن لهن فيقدّرن أنفسهن نسبة إلى حجبهن عن الأنظار بالكنوز الثمينة . وإنه لمن غير اللائق قط أن يبادر أحدهم في المجتمعات الرفيعة إلى الإستفسار عن صحة زوجة صديقه بعبارات واضحة صريحة أو أية آمرأة في المنزل إن لم تربطه بها صلة قرابة. وسأل أحد أصدقائي المصريين مواطناً مصرياً آخر كان زار باريس عن أبرز ما رآه في أرض الكافرين . ففكر الرجل بسرعة بما كان رآه من شأنه أن يثير إعجاب رجل حساس غير متحيّز وأعطى الجواب التالي : «لم أشهد شيئاً مثيراً أكثر من هذه الواقعة . فلقد جرت العادة في باريس وغيرها من المدن الفرنسية أن يدعو كل شخص غني رفيع المقام أصدقاءه ومعارفه دائماً رجالاً ونساءاً إلى حفلة يقيمها في منزله . كانت الغرف التي جرى فيها استقبال الشلة مضاءة بمجموعة كبيرة من الشموع والأضواء . وأمّا النساء والرجال فتجمعوا واختلطوا ـ والنساء كما تعرفون سافرات الوجوه ؛ وبإمكان الرجل أن يجلس بالقرب من آمرأة متزوجة لم يرها من قبل . ولا مانع أن يشاركها المشي والحديث وحتى الرقص بحضور زوجها نفسه الذي لا يحتق أو يغار حيال هذا التصرف المخزي ».

تتساوى في نفوس المصريين صفتا الكرم والجشع في آن واحد . ولا تعجبنّ من اتحاد هاتين الصفتين المتناقضتين في فكر واحد ؛ فهذه حالة الشعب المصري. ومن أبرز عيوب المصري أنه لا يعتمد أساليب المخادعة والاحتيال في صفقاته التجارية التي تشيع بين سائر الأمم الأخرى؛ فنادراً ما يحتال التاجر المصري أو يلجأ إلى أكذوبة من شأنها تحسين صفقته وتجارته. ونلاحظ ميلاً واضحاً إلى حب اكتساب المال واختزانه وسط شعب يئن من نير حكومة طاغية جشعة (كما

كانت حال الحكومة المصرية لفترة طويلة) ـ فالمرء يصبح أكثر تمسكاً بما يملكه . وهكذا المصري المضطهد الذي يقوم بشراء الحلى لزوجته أو زوجاته عندما يتوفر لديه مبلغ من المال لا يحتاجه لتغطية النفقات الضرورية ولا يستطيع استغلاله في ربح مادي ، إذ يسهل إبدال الحلى مالاً عند الضرورة . كما أنه من العادات الشائعة في هذه البلاد (كما في كل بلد يعاني من ظروف سياسية مماثلة) أن يخبىء الرجل كنزاً في منزله تحت البلاط أو في أي مكان آخر . ويحدث أن يموت صاحب الكنز فجأة ولا يكون أخبر عائلته عن « مخبئه » فتكشف العائلة مكان المال عادة عند تهديم المنزل . ويندرج الحسد في قائمة العيوب المشابهة للجشع مباشرة ـ وأظن الحسد شائعاً بين المصريين المحدثين وهو صفة مشتركة مع العرب قاطبة . ويعترف العديد من المصريين البسطاء بترسيخ هذه الصفة البغيضة ترسخاً كبيراً في عقول أبناء أمتهم .

تكاد تنعدم بين المصريين المحدثين فضيلة الصدق المستديم . فالرسول ﷺ أمر بالكذب عندما تقضي الضرورة بمصالحة أفرقاء متنازعين وإذا رغب الزوج في مصالحة زوجته أو تحقيق مكاسب في الحرب مع أعداء الإيمان ، وما عدا هذه الحالات فالكذب محرّم ممنوع . وتساعد جملة المعاذير المذكورة في التخفيف قليلاً من عادة الكذب الملازمة للعرب المحدثين قاطبة . إذ يتبع العرب عادة الكذب دون وعي متذرعين بالحالات القليلة التي يسمح لهم فيها به . ولا تسمع المصريين يتراجعون عن تصريح خاطىء عبّروا عنه من غير عمد ـ رغم أن معظمهم يقصد الكذب ـ دون أن يردف قوله كالتالي « كلا ، أستغفر الله : القصة هي كذا وكذا »؛ وإذا قصوا حادثة ولم يكونوا متأكدين منها تماماً يزينون كلامهم بـ : « والله عليم » وتستوقفني الذاكرة (وأرويها بكل اعتزاز وطني) عند صائغ أرمني في القاهرة مشهور بصدقه . فصمّم أصدقاؤه على خلع لقب « الإنكليزي » عليه لتميّزه بفضيلة نادرة بينهم ، وأضحى « الإنكليزي » اسم عائلته . ومن الشائع أن تسمع التجار في القاهرة يعطون كلمة واحدة لا يغيّرونها عندما لا يرغبون في تنقيص سعر بضاعتهم : « كلمة واحدة ـ كلمة الإنكليزي ». ويقولون كذلك : « كلمة الفرنجة » في المعنى

نفسـه . بيد أنني لم أسمع قط بشعب حظي بمرتبة مشرقة خاصة كهـذه إلاّ الإنكليـز والمغاربـة الذين اكتسبـوا هذه الشهـرة لكونهم أكثـر صدقـاً من باقي العرب .

ذكرت في معرض حديثي عن عادات المصريين المحدثين عادة قسمهم بالله الشائعة بينهم ولا بد من الإشارة إلى أن العديـدين بينهم يحاولـون عدم اللجوء إلى القسم بهدف إضفاء المصداقية على كذبتهم. ويقولون أحياناً في هذه الحالة : « واللّهِ » أو « واللّهْ » وهو القسم المعروف أكثر علماً أن القَسَمين يصبان في معنى واحد ، ولكنّهم يعتبرون أنّ «واللّهْ» (بتسكين الهاء) دعاء لحمد الله وتسبيحه ، بينما « واللهِ » (بكسر الهاء) قسم جازم وإنّه لمن الخـطيئة بمكـان التلفظ بها لكذبة مبطنة . فإن انتهك المصري قسمه ، يعمد فـوراً إلى التكفير عنه بإطعامه أو إلباسه عشـرة فقراء أو تحـرير رقبـة مسلم عبداً كـان أم أسيراً أو الصوم طوال ثلاثة أيام . وهذه هي في الواقع الكفّارة التي سمح بها القرآن لقسم غير متروًى فيه. ويلجأ المسلمون المحدثون أحياناً إلى هذا القسم بغية تحرير أنفسهم من ذنب القسم بكذبة متعمـدة . وهم يفضلون عادة الصـوم على باقي طرق التكفير الأخرى . وهناك طرق قسم قليلون هم المسلمون الـذين يلجأون إليها للكذب كأن يقول المسلم ثلاث مرات : « أقسم بـالله العظيم »، والقسم على المصحف: « أقسم بكلمات الله في المصحف العزيز ». وأمّا القَسَم الأكثر شيوعاً على أفواه المصريين فهو مبادرة الرجل إلى القول « عليَّ الطلاق » (أي طلاق زوجتي إن كنت كاذباً في ما أقـول) أو « عليّ الحرام » في معنى مشـابه (أي تكون زوجتي محرمة عليّ » أو « عليّ الطلاق بالثلاثة » أي تطليق الزوجة دون رجعة . وفي حال أقسم الـرجل كـذباً بـأيّ من أشكال القسم هـذه تُطلق زوجته ـ إن كانت لديه زوجة واحدة ـ بالقسم عينه إن تبيّن أن قسمه كاذب ودون إجراءات أخرى . وفي حال كان الرجل متزوجاً بإمرأتين أو أكثر فواجب عليه في هـذه الظروف إختيـار واحدة منهمـا ـ أو منهن ـ لتطليقهـا ويكثـر القـاسمـون الكاذبون الذين يتحايلون في قسمهم. والقَسَم أكثر السبل التزاماً بالدين . ويقول أحد الشعراء في وصفه عادة القسم الكاذبة بين المصريين ما معناه :

« وأبو المُعَلّى كاذب في قسمه
عندما يقسم بطلاق زوجته »

لا يحتاج المصريون إلى وقت طويل حتى تثور ثائرتهم ويدخلون في مشاحنات وخناقات خاصة أبناء الطبقات الدنيا الذين ما إن يحتقوا حتّى يلعنوا آباء بعضهم البعض مروراً بأمهاتهم ولحاهم؛ وينزلون وابلاً من النعوت البذيئة المحقَّرة كـ : « يا ابن الكلب » « يا ابن الخنزيرة أو الفاحشة »؛ وأسوأ سبابهم وأكثرها تحقيراً إلصاق صفة « اليهودي » بالشخص الآخر . وحذار أن يلعن الأول أبا الثاني ! فقد لا يكتفي هذا الأخير بلعن أب خصمه أو أمه ، بل ينزل لعناته بكامل أفراد عائلته . وهم يهدّدون بعضهم البعض ولكنّهم نادراً ما يلجأون إلى اللطم والضرب ولقد رأيت مع ذلك أشخاصاً من أبناء الطبقات الدنيا يحنقون بسرعة فينقضون على غريمهم ويمسكوه في حلقه . ورأيت بالمقابل أشخاصاً ينتمون إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا يتسمون بحملهم وأناتهم عندما ينزل بهم الغير الكلمات البذيئة والفواحش من اللعنات . وكم مرّة سمعت مصرياً يرد على ضربة أنزلها عليه ندّه : « الله يباركك » « جزاك الله خيراً » « إضربني كمان». وينفضّ الخلاف عادة بأن يبادر أحد المتنازعين إلى القول : « الحق علي » ثم يتلوان سورة الفاتحة معاً ولا مانع في أن يقبّلا بعضهما البعض ويتكاتفا

يميل المصريون بطبعهم إلى الهجاء فيظهرون سرعة بديهة كبيرة في دعاباتهم وملاحظاتهم الساخرة . وتساعدهم لغتهم في اعتماد التورية في ألفاظهم والمحادثة الملتبسة التي غالباً ما ينغمسون فيها ويهجو أبناء الطبقات الدنيا حكّامهم في أغانيهم ويسخرون من القوانين الحكومية التي يعاني منها الحكام أكثر من غيرهم . وسمعت ذات مرة أغنية استحوذت على إعجابي وذات شعبية كبيرة في محافظة « أسوان » الواقعة على الحدود المصرية الجنوبية . وتدعو الأغنية الطاعون ليقضي على حاكمهم الطاغي وكاتبه القبطي . ومن الأغنيات الشعبية التي سمعتها خلال زيارتي الأولى لهذه البلاد تلك الأغنية التي تمّ تأليفها بمناسبة زيادة ضريبة الدخل المعروفة بـ « الفَرضَة »

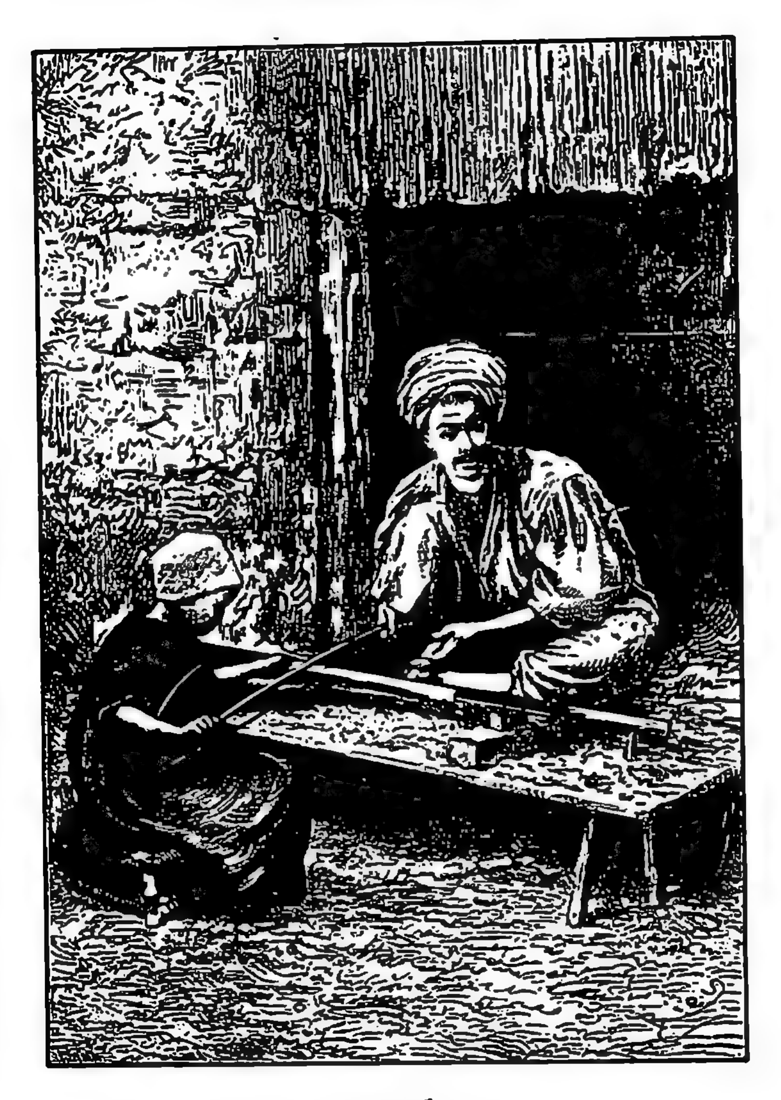
وتقول : « أنت يللي ما حِيلْتَكْش غير لبده ، بِعها وادفع الفِرضة » .

ولقد ذكرت سابقاً أن اللبدة قلنسوة يرتديها المصري تحت عمامته أو بدلاً منها ؛ ويكون الرجل الذي لا حيلة له سوى لبدته فقيراً معدم الحال .

الفصل الرابع عشر

الصناعة

يؤسفنا أن نلحظ التناقض الكبير بين حالة الفقر التي تشهدها مصر اليوم والإزدهار الذي عمَّ أرجاءها في العصور القديمة عندما كان تنوع صناعاتها وجودة هذه الأخيرة وروعتها يجذبان إليها الدول المجاورة لها ولم يكن سكانها بحاجة إلى التجارة الخارجية لإغناء ثرواتهم أو زيادة وسائل راحتهم . وتظهر لنا الأبحاث الأثرية تفوق المصريين في فنون الحياة المدنية أيام موسى وفي فترات زمنية سابقة . لم تقتصر الحياة الترفيهية على الفراعنة والكهنة والقواد العسكريين فحسب بل شملت كذلك السواد الأعظم من المزارعين الأغنياء وغيرهم من الأفراد في تلك العصور الغابرة ؛ فكان هؤلاء يتدثرون بالكتان من أفخر أنواعه ويتكئون على الأرائك والكراسي التي قد تشكل نماذج لمفروشات داراتنا الحديثة . والطبيعة المصرية زاخرة بنعمها وطيباتها على سكان مصر الحاليين كما على سكانها القدامى الذين سكنوا وادي النيل ؛ ولكنّهم لم يتمتعوا لقرون عديدة بحكومة قادرة مستقرة . وانشغل الحكام الذي تعاقبوا على السلطة طوال هذا الردح من الزمن بإغناء ثرواتهم الخاصة بسبب خوفهم من تزعزع حكمهم ممّا أدى إلى هلاك معظم السكان تدريجياً وعيش القسم الباقي منهم في فقر مدقع . يكرّس الذكور الذين تفوق نستبهم قليلاً النسبة المطلوبة أنفسهم لزراعة القسم الأكبر من الأرض بوسائل الري الطبيعية المعتمدة على فيضان النيل أو وسائل الري المستحدثة في الوقت الذي يشكل فيه الأشخاص العاملون في الصناعة نسبة ضئيلة ولا تعكس صناعاتهم مهارة كبيرة بسبب قلة المنافسين لهم



خرّاطون

ونذرة أصحاب الثروات لتشجيعهم

تعزى حالة التردي الكبيرة التي شهدتها الصناعات الحرفية اليدوية بشكل كبير إلى ما قام به السلطان العثماني سليم الذي نقل إلى بلاده بعد فتح مصر - كما يذكر الجبرتي - العاملين الماهرين في الصناعات الحرفية التي لا تعرفها تركيا ممّا أدى إلى توقف أكثر من خمسين فناً يدوياً في مصر .

ذكرت أن الرسم والنحت في تصويرهما للكائنات الحية محرّمان تحريماً تاماً في الإسلام ونجد مع ذلك بعض المسلمين المصريين الذين يحاولون تصوير الرجال والأسود والجمال وغيرها من الحيوانات والأزهار والمراكب . . . لتزيين (كما يقولون) واجهات المحلات وأبواب منازل الحجاج علماً أن رسومهم بسيطة تفوقها مهارة رسوم أطفال بلادنا ذوي الخامسة أو السادسة ربيعاً . يشجع الإسلام الصناعة عامة ويحث المسلم على امتهانه صناعة تؤمن له ولعائلته لقمة العيش الضرورية وتساعده على إتمام واجباته الدينية والأخلاقية أيام السنوات العجاف . والهندسة من أكثر الفنون التي يبدع فيها المصريون. وتطالعنا أفضل النماذج الهندسية في العاصمة المصرية ومحيطها وليست الجوامع وغيرها المباني العامة الوحيدة المميزة بجمالها وعظمتها بل تستوقفنا كذلك منازل عديدة فتدهشنا بروعة هندستها الداخلية وتزييناتها والمؤسف أن يكون فن الهندسة قد شهد تقهقراً كبيراً في السنوات المنصرمة كما معظم الفنون في هذه البلاد ؛ فلقد تحولت أنظار المصريين إلى أسلوب جديد منمق بسيط في الهندسة تناغمت فيه المسحتان الشرقية والأوروبية . وللمصريين ذوقهم الخاص في هندسة أبواب منازلهم وسقوفها ونوافذها وبلاطها تحنّ إلى التنقيش الهندسي القديم كذلك معظم الصناعات المصرية التي هي غير مصقولة في بعضها عرفت مصر في الماضي أعداداً كبيرة من الخراطين الذين يصنعون شعريات النوافذ الخشبية والذين كان عملهم أكثر اتقاناً وجودة من الزمن الحالي ؛ ولقد تضاءل عملهم اليوم بسبب انتشار النوافذ الزجاجية في المنازل . والخراط كغيره من الحرفيين في مصر يجلس القرفصاء عند مباشرته عمله . ولا يتميز السكان المحدثون بمهارة كبيرة في صناعة الزجاج التي اشتهرت بها مصر

في العصور القديمة كما أسلافهم ، إذ فقدوا الحس الفني في تصنيع الزجاج الملون للنوافذ ، ومع ذلك فما يزال فنهم الإبداعي في صنع النوافذ يلاقي إعجاباً كبيراً واستحساناً رفيعاً وإن ليس بالمستوى ذاته كما في الماضي قبل اعتماد الأسلوب الجديد في الهندسة الذي حدّ من الطلب على عملهم وأمّا صناعاتهم الفخارية فبدائية بسيطة تقتصر على الأواني النفيذة والجرار لحفظ الماء وتبريدها والمصريون مشهورون بإعداد الجلد المراكشي . وهم يستخدمون أغصان شجر النخل وأوراقه في صناعات مختلفة ؛ فيصنعون من الأغصان المقاعد والخِمَمة والصناديق وإطارات الأسرّة ، ومن الأوراق السِّلال والحصر والمكانس والمِذبّات وغيرها وأمّا الحبال المستخدمة في مصر فمصنوعة من الألياف التي تنبت عند أقدام أغصان شجر النخل. ويصنعون أفضل حصرهم (التي يستعملونها بدلاً من السجاد صيفاً) من الأسل (وهو نبات ذات أوراق أسطوانية طويلة) . ومن المؤسف أن تفقد مصر شهرتها التي لازمتها قديماً في صناعة أفضل الكتان وأجوده ؛ فالكتان والقطن والملابس الصوفية والحرائر غير المنسوجة خشنة من النوع الرديء .

يشتهر المصريون بفن تفقيس بيض الدجاج بواسطة الحرارة الصناعية وترجع هذه العادة على ما يبدو إلى العهود السالفة وهي وردت في كتابات المؤلفين القدامى وكانت رائجة . يعرف المبنى الذي يتم فيه التفقيس الصناعي في منطقة الدلتا « بمعمل الفراخ » و « معمل الفروج » في منطقة الصعيد (مصر العليا) . تنتشر في الدلتا معامل الفراخ بحيث يتجاوز عددها مئة معمل ، وأمّا عددها في الصعيد فيتجاوز النصف قليلاً . وتجدر الإشارة إلى أن معظم المشرفين على هذه المعامل - إن لم نقل كلّهم - من الأقباط ، ويدفع أصحاب هذه المعامل ضريبة للحكومة . يبنى المعمل من ألواح الآجر المحروق أو المجفف ويتألف من صفين متوازيين من الأفران الصغيرة والحجيرات لإضرام النار مقسمين إلى ممر ضيق مقنطر . يبلغ كل فرن نحو تسع أو عشر أقدام طولاً وثماني أقدام عرضاً وخمس أو ست أقدام ارتفاعاً ، وله حجرة نار مقنطرة من الحجم نفسه أو هي أقل ارتفاعاً بقليل . يتصل كل فرن

بالممر بواسطة فتحة واسعة يمكن أن يدخل منها رجل ويحجرة النار بواسطة فتحة مشابهة. وتتصل حجرات النار في الصف نفسه ببعضها البعض ولكلّ واحدة منها ثقب في قنطرته (لإخراج الدخان) يُفتح أحياناً . وللممر كذلك ثقوب عديدة في سقفه المقنطر . يوضع البيض فوق الحصر أو القش في صفوف متدرجة تصل عادة إلى ثلاثة صفوف في الأفران . وتُجعل « الجلّه » (عبارة عن وقود يتألف من روث الحيوانات مخلوط بالقش المقطّع يتخذ شكل دائرات مسطحة) فوق أرض حجرة النار ويحكم إقفال مدخل المعمل ؛ كما تبنى أمامه غرفتان أو ثلاث غرف مخصصة للناظر والوقود والدجاج المفقّس حديثاً . تتم عملية التفقيس خلال شهرين أو ثلاثة في السنة ـ في الربيع ـ أو قبلاً في الأجزاء الجنوبية الأقصى من البلاد . يضم كل معمل عامة من إثني عشر إلى أربعة وعشرين فرناً ويتلقى حوالي مئة وخمسين بيضة خلال الفترة السنوية التي يبقى فيها مفتوحاً ، ويتلف ربع عدد البيض أو ثلثه عادة. ويؤمن المزارعون في جوار المعامل البيض فيفحصها المشرف على المعمل بدقة ويقدم دجاجة (أو فرخة) مقابل كل بيضتين تسلّمهما . ويُستخدم بصورة عامة نصف عدد الأفران خلال الأيام العشرة الأولى ولا تُضرم النار إلّا في حجرات النار فوق هذا العدد من البيض . ويتم في اليوم الحادي عشر إطفاء النار المضرمة وإشعال أخرى في حجرات النار . يوضع البيض الطازج في الأفران الموجودة تحت هذا البيض ويرفع في اليوم التالي بعض البيض من الأفران السابقة وتوضع في حجرات النار في المكان الذي أطفئت فيه النار . تتراوح الحرارة العامة خلال هذه العملية بين ١٠٠ و١٠٣° على مقياس فهرنهايت . ولا يحتاج المسؤول عن هذه العملية إلى مقياس حرارة لإنجاحها بفضل طول خبرته التي ترقى إلى شبابه يبدأ المسؤول بتفقيس بعض البيض الموضوع أولاً في اليوم العشرين ومعظمه في اليوم الحادي والعشرين ـ أي بعد الفترة نفسها المطلوبة في حالة الرخم الطبيعي

يُجعل الدجاج الأضعف في الممر والباقي في الجزء الأعمق من الحجرات الأمامية حيث يبقى مدة يوم أو يومين قبل تسليمه إلى المتعهدين .

وعندما يتم تفقيس البيض الموضوع أولاً ويكون الصف الثاني منه نصف مفقوس ، تتلقى الأفران التي أدخلت إليها الدفعة الأولى من البيض والتي باتت خالية الدفعة الثالثة منه ، كذلك الحال بالنسبة إلى الدفعة الثانية من البيض المفقوس التي تحل محلها الدفعة الرابعة . ولم أجد أدنى فرق لا في النكهة أو غيرها بين دجاج الحرارة الصناعية ودجاج الرخم . ولا بد من الإشارة إلى أن دجاج مصر وبيضه أدنى جودة إن في طعمه أو حجمه من الدجاج في بلادنا . كما عثرت في إحدى الجرائد المصرية التي تنشرها الحكومة (بالتحديد العدد ٢٤٨ بتاريخ ١٨ رمضان ١٢٤٦ ـ أي ٣ مارس ١٨٣١ م) على الإحصائية التالية :

	الدلتا	الصعيد
ـ عدد المعامل لتفقيس بيض الدجاج للسنة الحالية :	١٠٥	٥٩
ـ عدد البيض المستخدم	١٩,٣٢٥,٦٠٠	٦,٨٧٨,٩٠٠
ـ عدد البيض التالف	٦,٢٥٥,٨٦٧	٢,٥٢٩,٦٦٠
ـ عدد البيض المفقوس	١٣,٠٦٩,٧٣٣	٤,٣٤٩,٢٤٠

لا تزال التجارة المصرية تحظى بمرتبة مهمة رغم التراجع الكبير الذي شهدته بفضل اكتشاف الطريق التي تربط أوروبا بالهند عبر رأس الرجاء الصالح ونتيجة للإحتكارات والصفقات التي يقوم بها حاكمها الحالي

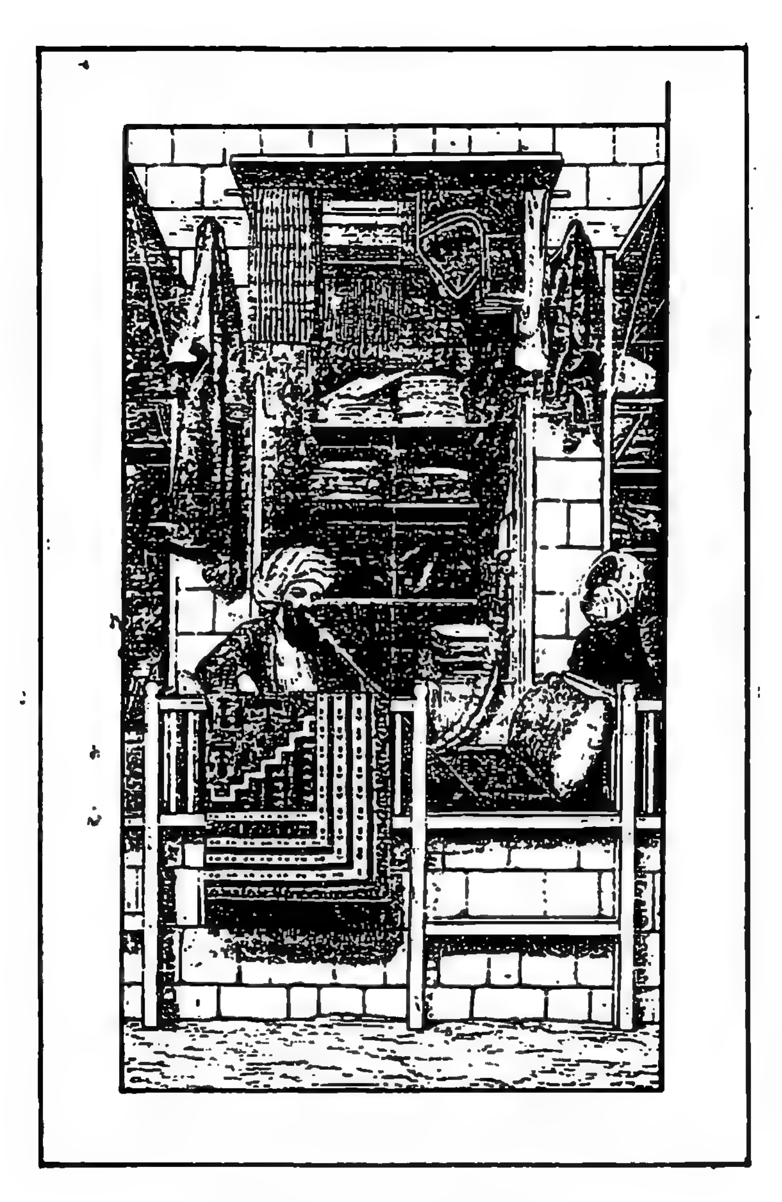
تتضمن أبرز الواردات المصرية من أوروبا :

الثياب الصوفية (خاصة من فرنسا) والخام والموسلين العادي والموسلين المطبّع (من المصانع الاسكوتلندية للعمامات) والحرير والمخمل والكريب والشالات (الاسكوتلندية والإنكليزية والفرنسية) المقلدة للشالات من الكاشمير إضافة إلى ورق الكتابة (من البندقية خاصة) والأسلحة النارية الصغيرة وشفرات السيوف الحادة (من المانيا) للنوبيين والساعات على أنواعها وفناجين القهوة

ونماذج متنوعة من الأواني الخزفية والزجاجية (من فرنسا خاصة) وأنواع متعددة من الخردوات والألواح الخشبية الثقيلة والمعادن والخرزات كذلك النبيذ والمسكرات المعطرة وأيضاً الجواري البيض والحرائر والمناديل المطرزة ورؤوس البيبات والشباشب والنحاس والأواني النحاسية . . . من القسطنطينية ؛ وأمّا من آسيا الصغرى فيستوردون السجاد (منها سجادات الصلاة) والتبن . . . ومن سوريا التبغ والحرائر المقلّمة والعبايات والصابون ؛ ومن شبه الجزيرة العربية البن والبهارات والعقاقير المختلفة والسلع الهندية (كالشالات والحرائر والموسلين . . .) والعبيد والذهب والعاج وريش النعام والكرابيج والتمر الهندي في قوالب والصمغ والسّنا من الحبشة وسنّار والبلدان المجاورة ؛ وأمّا الطرابيش والبرانص والحرامات والأحذية المراكشية الصفراء فمن الغرب (أي شمالي إفريقيا من مصر صعوداً باتجاه الغرب).

تشتمل أهم الصادرات المصرية إلى أوروبا على : الحنطة والذرة والأرز والحبوب والقطن والكتان والنيلة (الصبغ الأزرق) والبن والبهارات على أنواعها والصمغ والسنا والعاج وريش النعام . ويصدرون إلى تركيا الجواري السود والحبشيين ذكوراً وإناثاً (ومنهم بعض المخصيين)، والأرز والبن والبهارات والحناء ؛ والجواري والأرز إلى سوريا ؛ والذرة خاصة إلى شبه الجزيرة العربية ؛ والقطن والكتان والسلع الصوفية والقليل من الحرائر المقلمة السورية والمصرية والسجاد الصغير والخرزات والحلى الأخرى والصابون وشفرات السيوف الحادة التي ذكرتها سابقاً والأسلحة النارية الصغيرة والأواني النحاسية وورق الكتابة .

أورد في ما يلي لائحة بقيمة النقد المصري تشمل الأسعار الحالية لبعض السلع الغذائية المعروفة   تجدر الإشارة إلى أن معظم أسعار السلع الغذائية في المدن والقرى أرخص من الأسعار في العاصمة ـ وأمّا اللحوم والدجاج والحمام فنحو نصف الأسعار المذكورة في اللائحة التالية . وتتراوح أسعار الحنطة والخبز بين الثلث والنصف .



محل تاجر تركي في سوق خان الخليلي

	ف	ق
الحنطة / الأردب من ٥٠ق إلى . . .		٦٣
الأرز / الأردب نحو . . .		٢٤٠
لحم الضأن / الرطل . . .		١
لحم البقر / .do . . .	٣٥	
الدجاج / الدجاجة ق واحد و ١٠ ف إلى . . .	٢٠	١
البيض / كل ثلاث بيضات . . .	٥	
الزبدة الطازجة / الرطل		٢
الزبدة المصفاة / .do ٢ق إلى . . .	١٠	٢
البن / .do٦ق إلى . . .		٧
التبغ الجبلي / الأوقه ١٥ق إلى . . .		١٨
التبغ السوري / .do ٥ق إلى . . .		١٠
قوالب السكر / الرطل . . .		٢
المصرية		
قوالب السكر / .do . . .	١٠	٢
الأوروبية		
العنب الصيفي / .do . . .	١٠	
العنب الرجعي / .do ٢٠ ف إلى . . .	٣٠	
البسكويت الممتاز / القنطار . . .		١٦٠
الماء / الكربه ١٠ف إلى . . .	٢٠	
حطب الوقود (عن كل حمل حمار) . . .		١١
الفحم الحجري / الأوقة ٢٠ف إلى . . .	٣٠	
الصابون / الرطل . . .	٣٠	١
شموع الوَدَك / الأوقه . . .	٢٠	٨
شموع / باب أول / .do . . .		٢٥

ملاحظة : ف = فضة

ق = قرش .

* مراجعة الملحق الخاص بالمقاييس والموازين المصرية آخر الكتاب .

تكثر « الوكالات » في مصر ، وهي مخصصة لتسهيل أمور التجار وتأمين

راحتهم واستقبال بضائعهم والوكالة مبنى تحيط به باحة مربعة أو مستطيلة ؛ ويضم طابقها الأرضي مستودعات مقنطرة لخزن البضائع مواجهة للباحة يستخدمها التجار كدكاكين أحياناً تقع فوق هذه المستودعات مساكن يدخلون إليها عبر رواق يمتد على طول جوانب الباحة الأربعة . وقد تحل الدكاكين محل هذه المساكن وتُستخدم حجراتها كمستودعات في العديد من الوكالات التي تكون حجراتها مخصصة للإقامة والسكن . وللوكالة مدخل مشترك واحد عامة يُقفل بابه ليلاً ويتولى حارس حراسته . تضم القاهرة نحو مئتي وكالة يقع ثلاثة أرباعها داخل القسم الذي يؤلف القاهرة الأصلية .

ذكرت في مقدمة الكتاب أن شوارع القاهرة العريضة تتألف من صف من المحلات مرتصفة عند جوانبها وغير مرتبطة بالمباني الفوقية ، وكذا الأمر بالنسبة إلى الشوارع الفرعية . يقتصر قسم في الشارع أو الشارع بكامله على الدكاكين المخصصة لنوع واحد من التجارة(*) ويعرف بسوق هذا النوع من التجارة أو بإسم أحد الجوامع الواقعة في المنطقة : فنجد مثلاً « سوق النحاسين » أو « النحاسين » بكلّ بساطة و « سوق الجواهرجية » و « سوق الخرضجية » أو « سوق الجورية » وهو اسم الجامع في هذا السوق ؛ وهي أهم الأسواق في المدينة ؛ وأمّا « خان الخليلي » فهو أبرز الأسواق التركية تكون بعض الأسواق مغطاة بألواح خشبية أو بسطوح طافئة تستند إلى روافد خشبية ممتدة على طول الشارع فوق المتاجر أو فوق المنازل .

يتألف الدكان من حجيرة مربعة يبلغ طولها نحو ست أو سبع أقدام وعرضها بين ثلاث وأربع أقدام وقد يشتمل الدكان على حجرتين الواحدة وراء الأخرى وتستخدم الداخلية منهما كمستودع ؛ وتكون أرضية الدكان وحتّى قمة المصطبة مبنية في موازاة الواجهة يتراوح طول الواجهة عادة بين قدمين ونصف القدم وثلاث أقدام كذلك عرضها تضم هذه الواجهة ثلاثة مصاريع قابلة للطي عامة الواحد فوق الآخر . يكون المصراع العلوي مقلوباً إلى الأمام وأمّا المصراعان الآخران فنحو المصطبة ويشكلان مقعداً مستوياً يفرش فوقه

(*) هكذا كانت أسواق بلدان الشرق الأخرى .

حصير أو سجادة وقد تزينه وسادة أو وسادتان ؛ وقد تحل الأبواب المصرّعة محل المصاريع المذكورة آنفاً في بعض الدكاكين . يجلس صاحب الدكان عادة فوق المصطبة إلا في حال وجد نفسه مجبراً على الإنسحاب قليلاً إلى داخل دكانه فاسحاً المجال لزبونين أو أكثر ليجلسا على المقعد فينزعان أحذيتهما ويمدّدان



صورة لدكان عطّار في القاهرة

أرجلهما فوق الحصير أو السجادة ولا مانع أن يقدم صاحب الدكان لزبونه المعتاد بيبة (إلا إن كان الزبون يحمل بيبته معه فيشعلها له) . ويرسل الولد إلى أقرب مقهى ليحضر شيئاً من القهوة تقدم ـ كما في المنزل ـ في فناجين خزفية صغيرة موضوعة داخل فناجين نحاسية . ولا يرتاح أكثر من شخصين في

جلستهما فوق مصطبة دكان إلا إن كانت المصطبة فسيحة على غير عـادة . وقد تمتد المصطبة ثلاث أو أربع أقدام طولاً وتكون الـدكاكين التي هي لهـا تابعـة خمس أو ست أقـدام عرضـاً ، فتكفي والحالـة هذه لأربعـة أشخـاص أو أكثـر يجلسـون القرفصـاء على طريقتهم الشـرقية . ويؤدي صـاحب الدكـان صلواته المفروضة عليه فوق هذه المصطبة على مرأى من المارين في الشارع . وإذا ما أضطر إلى مغادرة دكانه لدقائق قليلة أو لحوالي نصف سـاعـة ، يولي أمر مراقبة دكانه إلى أصحاب الدكاكين جيرانه أو يسدل شبكة أمامه . وهو لا يفكر كثيراً في ضرورة إغلاق مصاريع متجـره إلاّ مساءاً عنـدما يعـود إلى منزلـه أو يتوجـه إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة جماعة وأما الحجرات الواقعة فـوق هذه الـدكاكين فتحدثت عنها في مقدمة الكتاب

ترتدي عمليتا البيع والشراء طابعاً مملاً مزعجاً لغير المعتادين على طرق المساومات التجارية . فإذا سأل الزبون التاجر عن سعر بضاعته يعمد التاجر إلى رفع سعرها بشكل لا يتحمله الزبون فيعرض على التاجر نصف السعر المطلوب أو ثـلثيه . ويرفض التاجر بالطبـع السعر المعـروض عليه ولكنـه قد يخفف من تصلبه فينقص قيمة الطلب . ولكن الزبـون يعمد إلى منـاقصة بسيـطة أكثر من السابق . ويستمر الحال على هذا المنـوال بين مناقصـة ومزايـدة حتى يتوصـل الـطرفـان إلى حـل وسط فتتم البيعـة . والحق يُقـال ـ على ذمـة المســافـرين الأوروبيين ـ إن التجار بمعظمهم مغبونون ولا يُلامون على تصرفهم ومساومتهم في الأسعـار ؛ فأنـا تأكـدت شخصياً أن التـاجر المصـري لا يربـح في السلعة الواحدة أكثر من نسبة واحد في المئة وحتى أقل . وإذا قرر شخص شراء سلعة بـسيطـة ووجد أن السلعة تناسب إمكانياته الماديـة يقرر الـدخول في مشـاحنة كلامية مع التاجر ؛ فيجلس على مصطبة الدكان ويرتاح في جلسته ويملأ بيبته ويشعلها وتأخـذ بعدهـا الكلمات تتسـابق على لسانـه بين مد وجـزر فلا ينتهي الـزبون الكـريم إلاّ بعد نصف سـاعة أو أكثـر . وقد يقـاطع التـاجر أو الـزبون المساومة في أمر السلعة فيدخل في مناقشة موضوع لا دخل له لا من قـريب أو بعيد بأمر السلعة المطلوبة التي هي لبّ المشادة ، فكأنّ الشاري عقد العزم على

لجم تخفيض سعر طلبه أو أنّ التاجر قرر عدم المهاودة أكثر ؛ ولكن سرعان ما تطفو المشاحنة والمجادلة ثانية . ولمّا تُعقد الصفقة وينصرف الزبون ، يبادر التاجر إلى مكافأة خادمه بقيمة نقدية بسيطة . فإذا غض التاجر النظر عنها لا يتردد الخادم في طلبها . وتشهد أسواق القاهرة مرّة أو مرتين في الأسبوع مزاداً علنياً يتم في أيام محددة ، ويرأس هذا المزاد « الدّلال » الذي يعيّنه أفراد يرغبون في بيع أغراض يملكونها بهذه الطريقة أو صاحب المتجر نفسه ؛ وينتمي المشترون في الواقع إلى طبقة الدلالين أو التجار. يحمل الدلالونَ البضائع صعوداً ونزولاً فيصرخون بملء أشداقهم معلنين أسعارها مرددين: « هَرَج ». . . وتبدأ بين الدلال والشاري مساومة تافهة سخيفة حول سلعة ما فيتّقد الكلام وتجهر الأصوات فيخال الناظر إليهما الجاهل للغتهما أنّهما يتشاجران وقد استشاطا غيظاً وإذا سأل أحد الراغبين في الشراء الفلاح عن سعر السلعة يلقى منه الجواب الآتي : « اعتبرها هدية »(*)؛ ويعرف الشاري أنه لن يستفيد من هذا التعبير فهو وجه شائع من وجوه المحادثة والمخاطبة ؛ فلمّا يلح عليه الشاري تحديد سعر جديد للسلعة المطلوبة ، يفعل الفلاح ذلك بطيبة خاطر ولكنّه يحدد ثمناً باهظاً

لا حاجة بنا لأن ندخل في تعداد ممل وغير مفيد لكل أنواع التجارة التي تشهدها أسواق القاهرة ونكتفي بذكر أهمها وهي تجارة بيع القماش للألبسة أو تجارة الألبسة الجاهزة وتجارة بيع الأسلحة . . . ويعرف متعاطيها « بالتاجر »، يليه « الجُوهَرْجي » و« الصايغ » الذي لا يعمل إلاّ حسب الطلب على مصوغاته ، و« الخُرْدجي » و« النحاس » و« الخيَّاط » و« الصَبَّاغ » و« الرّفا » و« الحَبَّاك » و« العَقّاد » و« الشَبوكشي » (صانع البيبات) ؛ و« العَطّار » و« الدُّخاخيني » (بائع السجائر) و« الفاكهاني » و« النُقالي » (بائع الفاكهة المجففة) و« الشربتلي » و« الزيات » الذي يبيع الزبدة والجبن إضافة إلى الزيت ، و« الخُضَري » و« الجزّار » و« الفرّان » . تكثر في أسواق القاهرة

(*) كما قال عفرون لإبراهيم عندما عبّر هذا الأخير عن رغبته في شراء مغارة وحقل المكفيلة . (انظر سفر التكوين ، ٢٣/٢) .

دكاكين الطباخين الذين يعدون الكباب وغيره من الأطباق ويبيعونها . ولا يأكل الناس في هذه الدكاكين إلّا في مرات قليلة ويرسلون عادة يطلبون ما يحتاجون إليه منها عندما لا يعدّون الطعام في منازلهم . ويؤمن أصحاب المتاجر طعام فطورهم أو عشائهم من دكاكين هؤلاء « الطباخين ». وفي القاهرة دكاكين عديدة لبيع الفطاير (مفردها فطيرة) و « الفول المدمّس » ويتردّد أبناء الطبقات الدنيا إلى دكان « الفطاطيري » أو « الفوّال » يسدون جوعهم .

يتجول البائعون بأنواع المأكولات والخضار والخبز (العِيش) في الشوارع يبيعونها وتستوقفنا في الواقع أصوات هؤلاء الباعة المتجولين ويطالعنا بائع « الترمس » منادياً: « ساعدا يا إمبابي ساعدا ». ويُفهم هذا الدعاء على وجهين : فإمّا أن يكون مرفوعاً لمساعدة « الشيخ الإمبابي » وهو ولي من أولياء المسلمين مدفون في « إمبابة » الواقعة على الضفة القريبة للنيل المواجهة للقاهرة حيث يزرع في جوارها أفضل أنواع الترمس ، وإمّا أن يحل ولي إمبابة بركاته على الترمس فيغدو ممتازاً لذيذ المذاق . وقد ينادي البائع المتجول على ترمسه فيقول : « ترمس إمبابه أطيب من الفستق والجوز ! » أو قد يُقَولب كلامه فيخرجه على الشكل التالي : « طيب يا إبن النيل الصُغَيِّر ! ». ولا نسمع هذه المناداة الأخيرة كثيراً إلا في مدن القاهرة الأخرى وقراها وهي تشير في الواقع إلى الطريقة التي يتم بها تحضير الترمس للأكل . وينقع الترمس في وعاء مملوء بالماء طوال يومين أو ثلاثة حتى يزول منه طعمه المرّ ؛ ثم يوضع الترمس المحلّى في سلة مصنوعة من أوراق النخل تُعرَف « بالفرد » وتُرمى في النيل ويترك فيه منقوعاً لمدة يومين أو ثلاثة آخرين ؛ بعدها يُجفَّف الترمس ويُؤكل بارداً مع شيء من الملح وتسمع بائع الليمون الحامض ينادي بدوره : « ربنا يخَفِّفْهُم ! يا ليمون ! » وأما بزور البطيخ الأصفر « العَبْدَلاوي » والبطيخ الأحمر فينادي عليها بائعها : « يا مُسَلّي الضجران يا لِبّ ! » أو بكل بساطة : « يا لب محمص ! ». وأمّا بائع « الحلاوة » فينادي قائلاً : « بالصُفر ! يا حلاوة » ويُقال إن بائع الحلاوة نصف سارق : إذ يعمد الأولاد والخدم إلى سرقة الحديد وما شابه من منازلهم ويعطونها للبائع مقابل حلاوته . وينادي بائع البرتقال :

« عسل ! يا برتقال ! عسل ! » ويستقي بائعو الخضار والفاكهة عباراتهم من قاموس المناداة عينه فيستحيل على السامع معرفة ما ينادي عليه البائع : « تين جميز ! يا عنب ! » وتكون الفاكهة المنادى عليها أقل الفاكهة جودة كما التين الجميز الذي ليس لذيذ المذاق كالعنب. ولبائع الورد مناداة مميزة جداً: « الوردة كانت شوكة ، ومن عَرَق النبي تفتّحت ». وتشير هذه المناداة إلى معجزة منسوبة إلى الرسول ﷺ . ويتنقّل بائع الزهور بورود الحناء العطرة للبيع فينادي : « عطور الجنة ! يا ورد حنّة ! » وينادي آخر على نوع من القماش القطني تحوكه آلة يحركها ثور : « شُغْل التور ! يا صبايا »!

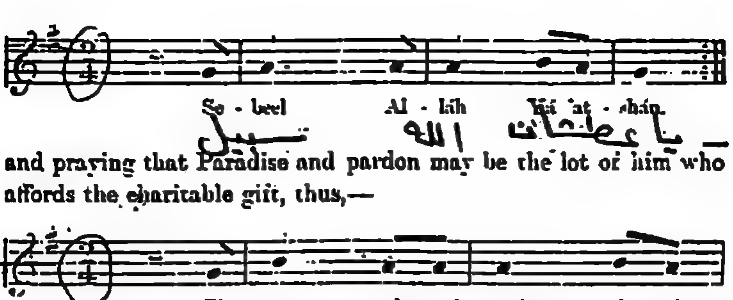
يكثر في مصر « السقاة » (مفردها سقا) الذين يؤمنون لقمة عيشهم من تزويدهم سكان القاهرة بماء النيل بسبب ملوحة مياه الآبار قليلاً ويسحب السقاة مياههم خلال موسم الفيضان أو بالأحرى خلال الشهور الأربعة من افتتاح القناة التي تجري في أنحاء العاصمة من القناة نفسها ويجلبونها أحياناً من النهر مباشرة ، فتنقلها الجمال والبغال في زِقاق أو يحملها الساقي بنفسه إن كانت المسافة قصيرة. ويتألف زق الماء الصغير (المعروف «بالرّي») من كيسين كبيرين من جلد الثور . ويحمل البغل « الكِرْبة » (جلد الماعز) وقد يحملها السقا إن كان لا يملك بغلاً . ويشتمل « الرّي » على ثلاث أو أربع كربات . ويعلو صوت السقا منادياً : « ربنا يرزقني ! »، ومن يسمع الصوت يعرف أن السقا مارّ في الشارع . ولا يربو ما يحصل عليه السقا مقابل كربة ماء يحملها من مسافة ميلين تقريباً على القرش. ومن السقاة من يروي بمائه ظمأ المارة في شوارع القاهرة ويعرف واحدهم « بالسَقّا شَرْبَه ». وتكون كربته مزودة ببزباز نحاسي طويل وهو يصب الماء في قدح نحاسي أو قلّة خزفية للراغب في شربة ماء . يلتقي « الحمّالون » (مفردها الحمّال) مع « السقاة » في المهنة ذاتها . وهم من الدراويش في معظمهم من الطريقة الرفاعية أو البيّومية ومعفيون من « الفرضة ». ينقل الحمال «إبريقاً» نفيذاً طينياً على ظهره ، ويحمل كذلك قلة خزفية تحتوي على ماء الزهر الذي يحضّره من أزهار « النارنج » لأفضل زبائنه ، وقد يضع عسلوج نارنج في بزباز إبريقه . وتتدلى إلى جانبه محفظة صغيرة يسقط فيها ما

يدفعه له الشاربون العطاش ؛ فيـدفع لـه أبناء الـطبقتين المتوسـطة والغنية بين الفضة والخمس فضات مقابل جرعة ماء ؛ ولا يحصل من الفقير على شيء البتة
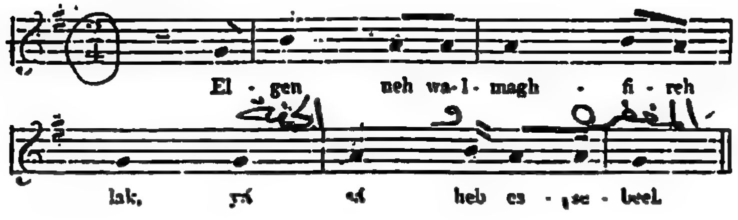


أحد السّقاة في القاهرة

أو قد يكتفي بقطعة خبز أو غيرها من ألوان الطعام يضعها في محفظته . نصادف السّقاة والحمّالون أكثر ما نصادفهم في الإحتفالات الدينية كموالد الأولياء التي تجـري في القاهـرة وجوارهـا ويدفـع لهم زائـرو ضـريح الـولي في مثـل هـذه المناسبات مالاً ليوزعـوا الماء على المـارة بمعدل قـدح ماء لكـل من يرغب ويعرف هذا العمل الخيّر « بالتّسْبيل » ويتم هذا العمل لراحة نفس الـولي وفي احتفالات أخرى غير الموالد . ويُسمح للسقاة بملء أباريقهم أو كربـاتهم من سبيل ماء ولا يطلبون مقابلاً من كـل الذين يقـدمون لهم المـاء . ويؤدون أغنية بسيـطة بينما يـوزعـون المـاء على المـارة في الشـارع فيـدعـون العـطاش إلى مشاركتهم في عمل الخير الذي يقدمونه لوجه الله كما في الأنغام التالية :



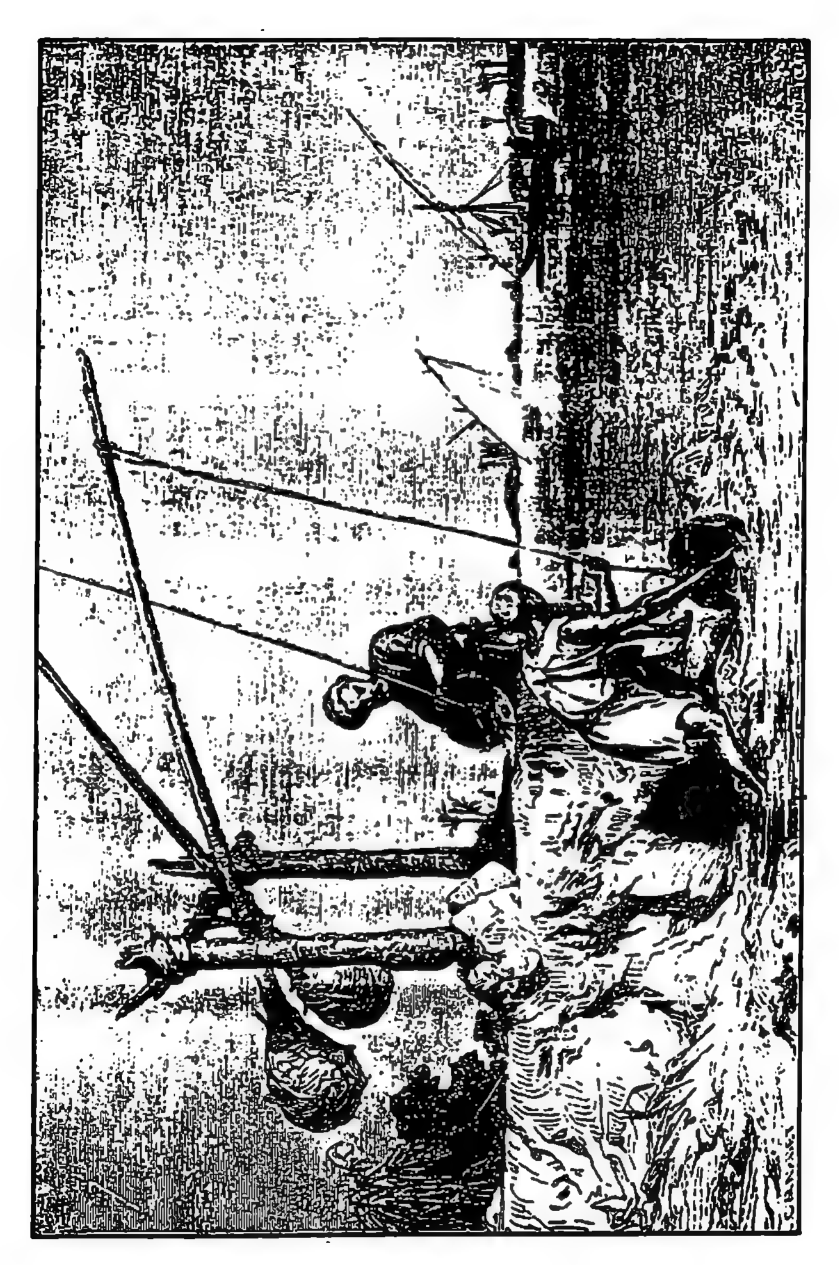
and praying that Paradise and pardon may be the lot of him who affords the charitable gift, thus,—



يكثر في القاهرة الأشخاص ذوي الأعمال المشابهة لعمل « الحمالي » منهم بائع « عرق السوس » الذي تحدثت عنه في فصل سابق . يحمل « العرق سوسي » عادة جرة خزفية حمراء تحتوي على عرق السوس عند جانبه الأيسر ويسندها بواسطة طوق وسلسلة في قسم منها وبذراعه الأيسر في قسمها الآخر . ويجعل بعض أوراق النخل داخل الجرة ، ويحمل صناجتين من النحاس أو قدحين خزفيين يضربهما ببعضهما البعض ؛ كذلك يحمل « الشربتلي » الزبيب لبيعه . ومن عادته أن يحمل وعاء « الشيشة » الزجاجي في يده اليسرى فيملؤها زبيباً وكذلك إبريقاً من النحاس أو القصدير من المحتوى نفسه إضافة إلى كؤوس زجاجية عديدة في يده اليمنى ويتقل الشربتلي على رأسه صينية مستديرة من القصدير تزينها كؤوس زجاجية من « التين المبلول » أو « البلح المبلول» ووعاءاً نحاسياً أو خزفياً يضم التين أو البلح عينه . وهو يحمل كذلك « السَّحْلب » (المصنوع من الماء والنشّاء والسكر المغلي مع رشة قرفة أو زنجبيل فوقه ؛ وقد يحضَّر السحلب كشراب فيغيب النشاء منه) و « الصوبيّه » (وهي شراب محضر من بزور بطيخ العبدلاوي المرطب المسحوق والمنقوع في الماء والمحلىّ بعد تصفيته بالسكر ؛ وقد تصنع الصوبية مع الأرز بدلاً من البزور) التي يتم بيعها بالطريقة عينها في أوعية كأوعية الزبيب ؛ والفرق أنّ الكؤوس الزجاجية تكون موضوعة في وعاء قصديري ومثبتة إلى خصر البائع بواسطة حزام

ذكرت في مقطع سابق من الكتاب أن العديد من فقراء القاهرة يكسبون رزقهم بتنظيفهم البيبات ـ ويعرف واحدهم « بالمُسَلِّكاتي » الذي يحمل أسلاكاً معدنية معه لهذا الغرض في ثلاث أو أربع قصبات مجوفة تثبت بإحكام إلى كتفه وتربط حقيبة جلدية صغيرة محشوة بقماش من نسالة الكتان للف رأس السلك الذي يتم به تنظيف البيبة إلى القصبات أو الأنابيب النحاسية ولا يحصل « المُسَلكاتي » عامة على أكثر من نصف فضة مقابل كل بيبة يسلّكها .

يكسب السواد الأعظم من الجنسين من أبناء الطبقات الدنيا في القاهرة وغيرها من المدن رزقهم بالتسول ؛ ومن البديهي القول إن عدداً لا بأس منهم محتالون أفاكون وقد يرثي المرء لمنظر بعضهم ويتفطر قلبه أسىً عليهم . وهم يجمعون رغم حالتهم الرثة مالاً وفيراً . وأكبر دليل على هذا التأكيد القصة التي شاعت منذ شهور قليلة ومفادها أن فلاحاً أعمى كان يتجول في شوارع العاصمة بمساعدة فتاة صغيرة هي ابنته ؛ وكان الإثنان يسيران شبه عاريين دائماً في الشوارع يتسولان واعتاد هذا الفلاح جلب متسول تركي يومياً إلى منزله ليتعشى معه . وذات يوم غاب الفلاح المتسول عن منزله وكانت ابنته موجودة وأعدّت العشاء للمتسول التركي الصديق الذي جلس يأكل وحده . وحدث أن وقعت يد التركي صدفة على جرة محشوة مالاً فحملها بكل بساطة ودون أدنى تأنيب ضمير معه . وكان في الجرة مئة وعشرة أكياس من المال (أكثر من خمس مئة وخمسين جنيهاً مصرياً) بشكل « خَيْرِيَّات » (و« الخيرية » عبارة عن قطع معدنية صغيرة تساوي الواحدة منها تسعة قروش). ولجأ المتسول المسروق إلى القلعة وأعاد ما أخذه السارق التركي منه ما عدا أربعين خيرية كان السارق أنفقها ، ومُنع السارق من التسول ثانية . ولا عجب إن رأيتَ الأطفال يسيرون عراة تماماً في القاهرة ؛ فلقد وقع نظري مراراً على فتيات بين الثانية عشر والعشرين من عمرهن أو أكثر لا تستر أجسادهن سوى رقعة ضيقة حول أردافهن يتسوّلن في شوارع القاهرة ، ولا يعانين كثيراً من برد الشتاء القارس أو حرارة الصيف اللهابة فهن اعتدن تقلبات الطقس منذ نعومة أظفارهن وأما الرجال فيستطيعون ـ إن شاؤوا ـ النوم في الجوامع ولا يخدعنّك منظرهم الرّث أو



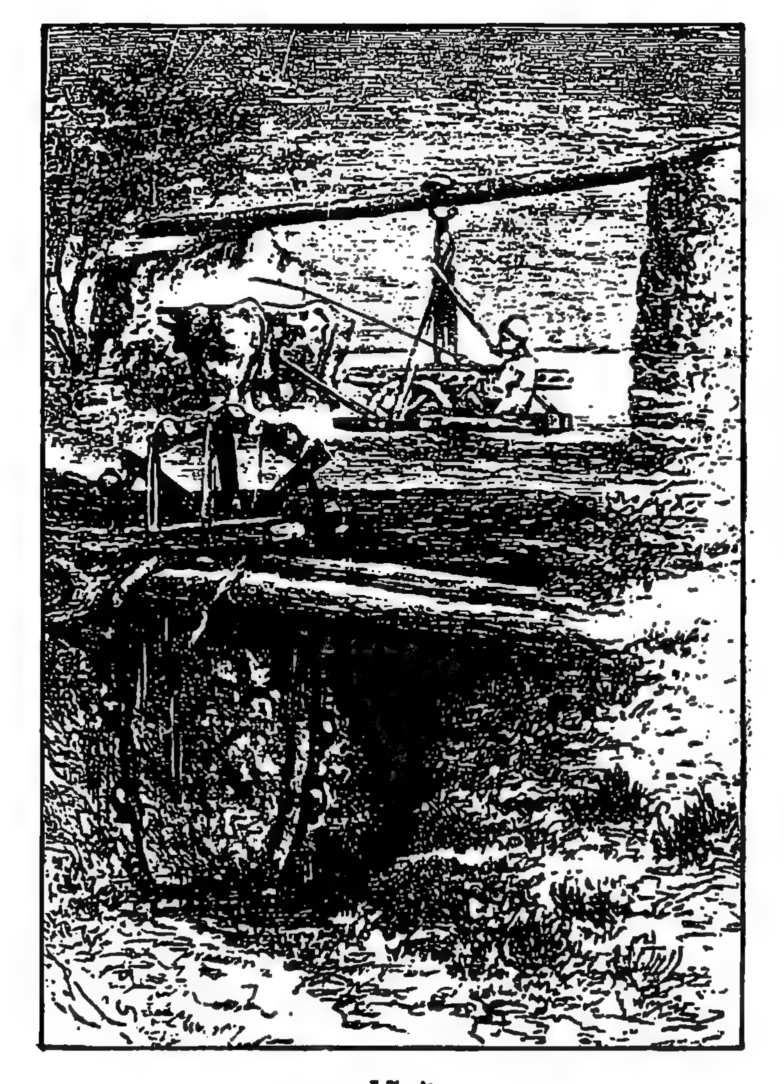
الشادوف

أسمالهم البالية ، فحالتهم قد لا تكون بقدر سوء مظهرهم . فهم شبه متأكدين من حصولهم على الطعام أو المال الكافي لتلبية حاجاتهم الملحة بفضل الصدقات التي يغدقها عليهم أبناء بلادهم. والعادة الشائعة بين التجار تناول طعامهم في متاجرهم وإعطاء حصة من هذا الطعام لكل من يسألهم . ويشبع المتسولون عامة رغباتهم مساءاً بعد جمعهم المال نهاراً بتدخين الحشيش المضر ، فيقضون ساعات يخالون أنفسهم فيها أسعد الكائنات البشرية

لا يطلق المتسولون في القاهرة العنان لأصواتهم وأدعيتهم إلاّ لربهم فتسمعهم مثلاً يدعون : « يا رحمن يا ربّ ! » « للّٰه يا محسنين ! »، « لقمة عيش يا رب !» « يا مَانْتَ كريم يا رب !»، « أنا ضيف الله ورسوله !». وأمّا مساءاً فيتغير دعاؤهم فيصيحون « عَشَانا هدية منك يا رب ! »، وليلة الجمعة : « يا ليلة الجمعة الفضيلة ! » ويوم الجمعة بالذات : « يا نهار الجمعة الفضيل!». ولقد اعتاد متسول يمرّ من جانب باب منزلي كل يوم أن ينادي على النحو التالي « توكّل على الله ! لا إله إلاّ الله !» ومتسولة أخرى تنادي « عَشَاي هدية منك ! يا رب ! من يد مؤمن كريم شَاهِد على وحدانية الله ! يا أسيادا ! ». ولا يلقى المتسولون عامة على أدعيتهم (وهم كثر فلا يستطيع المرء التصدق عليهم جميعاً) سوى : « ربنا يساعدك !» أو « ربنا يكون في عونك ! »، « ربنا يعطيك »، « ربنا يسعدك ويرزقك ! ». ولا يرضيهم أي من هذه الأجوبة على طلبهم وليس غريباً أن ترى في شوارع القاهرة المكتظة متسولاً يسأل عن سعر رغيف عيش يحمله أحد المارة بعد أن يشتريه من بائع العيش. ويتجول بعض المتسولين خاصة الدراويش منهم في الشارع مردّدين مدائح في الرسول ﷺ أو ضاربين الصناجات . وينتقل الدراويش بين القرى طالبين حسنة لوجه الله ولقد رأيتهم شخصياً يركبون الأحصنة ويتسولون ، ومنهم درويش رأيته مؤخراً على حصانه يرافقه اثنان ، يحمل كلّ منهما راية وثالث يضرب الطبلة ؛ وكان هذا المتسول يطرق أبواب الأكواخ يسأل عن رغيف عيش .

نشير إلى أن أهم الأعمال التي تشغل السواد الأعظم من المصريين خلا فئة

بسيطة منهم هي الزراعة. تعتمد معظم الأراضي ذات التربة الخصبة على الفيضان الطبيعي السنوي للنيل وتُروى الحقول الواقعة في جواره وجوار القنوات الواسعة وغيرها من الأراضي حيث يتم حفر التّرع بواسطة الآلات المختلفة الأشكال . وأهمّ هذه الآلات على الإطلاق « الشادوف » الذي يتألف من دعامتين من الخشب أو الطين والأسل أو القصب ترتفعان نحو خمس أقدام وتتباعدان نحو ثلاث منها مع قطعة خشبية أفقية تمتد من السطح إلى السطح تتدلى منها رافعة دقيقة من غصن شجرة تحمل في أحد طرفيها ثقلاً معتمداً خاصة على الوحل ، وأما طرفها الآخر فقد تدلى منه وعاء مستدير معلق إلى قضيبَيْ نخل طويلين مصنوع من حبال السّلال أو من طوق وقطعة محشوة صوفاً أو جلداً ؛ ويتم دفع المياه على ارتفاع نحو ثماني أقدام في حوض مجوف لاستقبال تدفّقها . ويستلزم الأمر أربعة أو خمسة شواديف (مفردها شادوف) في الأقسام الجنوبية لمنطقة الصعيد (مصر العليا) عندما يكون النيل في أدنى مستوياته حتى يتم رفع المياه إلى مستوى الحقول . ونجد في الواقع شواديف ذات رافعتين يحرّكها رجلان؛ وعملهما مضن شاق .تعرف الزراعة المصرية آلة أخرى هي « الساقية » تستخدم للغرض نفسه وتكاد تكون الآلة الوحيدة المخصصة لري حدائق مصر . تتألف الساقية من دولاب عامودي يرفع المياه في قدور فخارية مربوطة بحبال مشكّلاً حلقات متعاقبة كذلك من دولاب عامودي ثانٍ مثبت إلى المحور عينه بواسطة أسنانه إضافة إلى دولاب أفقي عريض مسنّن يحركه ثوران أو بقرتان أو حيوان واحد يدير الدولابين السابقين والقدور . وتركيبة « الساقية » بدائية للغاية وتحدث جلبتها ضريراً مزعجاً . يعرف الفلاحون المصريون إضافة إلى الآلتين المذكورتين آلة ثالثة هي « التابوت » المستخدمة لري الأراضي في مناطق مصر الشمالية ؛ والغرض من التابوت رفع المياه بضع أقدام . والتابوت يشبه الساقية في بعض جوانبه ؛ والفرق بينهما أنّ للأوّل دولاباً كبيراً ذات إطارات مجوفة يهدف إلى رفع المياه بدلاً من الدولاب ذات القدور. يلجأ الفلاحون في المناطق المصرية نفسها إلى وعاء يشبه الشادوف ذات حبال أربعة معلقة إليه والغرض منه رفع المياه إلى قناة التابوت. ويقوم



الساقية

رجلان يحمل كل واحد منهما حبلين من هذه الحبال برفع المياه بواسطة هذا الوعاء المعروف « بالكتوه ». وتقسم الأرض في عملية الري الإصطناعية هذه إلى مربعات صغيرة موزعة إلى ضلوع ترابية أو أثلام ، وتستقر المياه المتدفقة من هذه الآلة في مربع أو ثلم على امتداد قناة ضيقة .

لا يتم حرث أراضي « الري » (وهي تلك المعتمدة على فيضان النيل الطبيعي) باستثناء بعض منها إلاّ مرة واحدة في السنة . وتزرع هذه الأراضي بعد جفاف مياهها قبيل نهاية شهر أكتوبر أو مطلع شهر نوفمبر بالقمح والشعير والعدس والفاصوليا والترمس والحمص . . . ويعرف هذا الموسم بالموسم « الشتوي » . وأمّا الأراضي « الشرقية » (وهي المرتفعة فلا يطالها الفيضان الطبيعي) وبعض مناطق « الرّي » بواسطة طرق الري الإصطناعية فتنتج ثلاثة محاصيل سنوياً ، علماً أنّه ليست كلّ الأراضي الشرقية مزروعة على هذا النحو . تندرج الأراضي المروية اصطناعياً في المقام الأول فتنتج بمحاصيلها الشتوية وقد تمت حراثتها في الفترة نفسها كما أراضي الري . ثم يليها الموسم « الصيفي » أو « القيضي » (نسبة إلى القيظ) كما يطلقون عليه في المناطق الجنوبية . ويبدأ هذا الموسم قبيل الإعتدال الربيعي أو بعيده وتزرع الأراضي خلاله « بالذّرة الصيفي » أو القطن أو النيلة . ويحل أخيراً « موسم الضميرة » وهو فترة ارتفاع منسوب النيل ويبدأ قبيل انقلاب الشمس الصيفي أو بعده مباشرة ؛ وتزرع الأراضي خلاله بالذّرة ثانية أو « الذّرة الشامي » فتتحفنا بموسم حصاد ثالث . نشير إلى أن السكر يزرع في قسم كبير من الصعيد وأما الأرز ففي الأراضي المنخفضة بالقرب من المتوسط .

يستخدم المصريون « النورج » لفصل حبوب الحنطة والشعير وتقطيع القش المخصص للعلف . والنورج يشبه الكرسي ويتحرك بواسطة دواليب معدنية صغيرة أو صفائح معدنية دقيقة يصل عددها إلى إحدى عشرة صفيحة مثبتة إلى ثلاثة محاور عربة سميكة ـ أربع منها في المقدمة وأربع أخرى في الخلف وثلاث إلى محور العربة المتوسطي . ويجعل النورج في دائرة ويقوم

ثوران بسحبه بقرونهما . وأمّا الأدوات المستخدمة في الزراعة كالمحراث وغيره فبدائية بسيطة .

تشغل الملاحة في مصر أفواجاً هائلة من أبنائها ومراكبيو النيل أقوياء البنية صلبو الأعواد . يقوم هؤلاء بأعمال تتطلب منهم جهداً جباراً كالتجذيف ودفع المراكب وقطرها والإبتسامة لا تفارق وجوههم ؛ وهم يشغلون أنفسهم بالغناء عندما يأخذ عملهم منهم كل مأخذ . والمراكبي الأكثر خبرة قادر على جنح مركبه بفعل التغييرات المستمرة في قاع النيل . وإنّه لمن دواعي الضرورة أن يغوص المراكبيون في النهر في هذه الحالة لدفع المركب بأكتافهم وظهورهم ، فتندفع المياه إلى مقدمة المركب أكثر من مؤخرته بفضل قدرتهم على إيصال المركب إلى شاطىء الأمان ، وتكون دفّته واسعة جداً بالضرورة . وأفضل مراكب النيل هي تلك البسيطة الجميلة الشكل البالغة ثلاثين أو أربعين قدماً طولاً والتي تملك صاريين وشراعين مثلثين كبيرين وحجرة قريبة من المؤخرة ترتفع نحو أربع أقدام وتحتل ربع طول المركب أو ثلثه . تقسم هذه الحجرة في معظم المراكب إلى غرفتين أو أكثر . ويواجه النوتي الزوابع والعواصف التي تهب فجأة على المركب والكثيرة الحدوث في النيل بإمساكه حبل الشراع الرئيسي بيده فيفلته عند استشعاره الخطر . ولا بد أن يتخذ الراكبون جانب الحيطة هذا مهما كانت الرياح خفيفة الهبوب .

الفصل الخامس عشر

استخدام التبغ والقهوة والقنب والافيون الخ

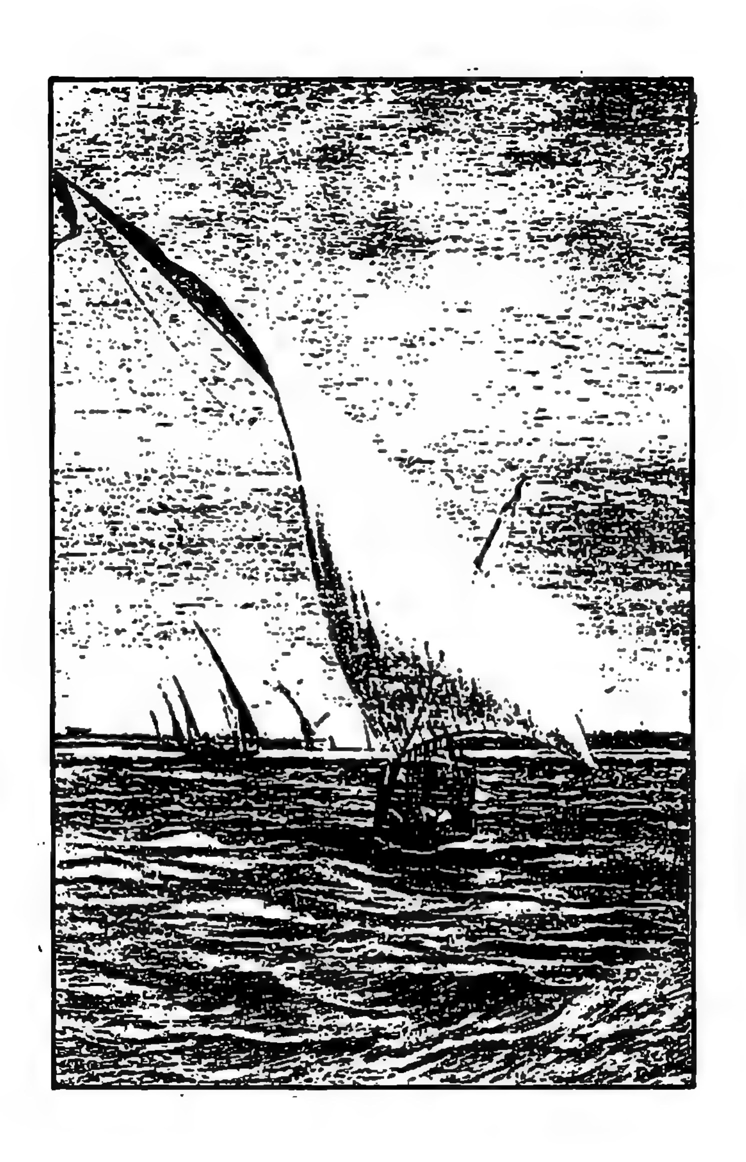
دفع تحريم الخمر وغيره من المشروبات المسكرة الأخرى السواد الأعظم من المسلمين إلى الإدمان بشكل متطرف على مسكرات بسيطة أخرى تدخل النشوة إلى قلوبهم وتسكّن عقولهم علماً أن الخمر هو من أهم المحرمات في الشريعة الإسلامية .

يعتبر التبغ من أبرز وسائل « الكيف » في معظم البلدان الإسلامية . وقد عرفته بلدان تركيا وشبه الجزيرة العربية وبلدان الشرق الأخرى قبيل القرن السابع للميلاد ، وبدأت الدول الغربية تستورده بانتظام كسلعة تجارية من أميركا بعد سنوات بسيطة ؛ وأثار أمر تعاطيه لغطاً كبيراً ولكنه بات مسموحاً به عامة[1] .

أحدث التبغ في الواقع تغييرات هامة في تركيبة شخصية الأتراك والعرب الذين اعتادوا تعاطيه ؛ إذ جعلهم أكثر تراخياً وخمولاً من سابق عهودهم وباتوا يمضون الساعات الطوال يدخنون البيبة التي من الممكن أن تُستغل استغلالاً

---

(١) يروي الجبرتي أنّه أيام « محمد باشا اليدقشي » الذي حكم مصر في عام ١١٥٦ هـ - ١١٥٨ هـ . كان كل رجل يحمل بيبته في يده في القاهرة مجبراً على أكل الجزء الأجوف للبيبة مع محتوياتها المشتعلة . وقد يبدو هذا الأمر خارج نطاق المعقول علماً أنّه يمكن كسر الجزء الأجوف للبيبة بواسطة أسنان قوية ونشير إلى أن التبغ الذي استعمل في الشرق للمرة الأولى كان قوياً جداً .



مراكب النيل

حسناً ؛ وحسنة التبغ الأساسية أنّه طغى على شرب الخمر الذي أقل ما يُقال فيه إنه مضر بصحة سكان المناخات الحارة . ونقرأ في كتاب « ألف ليلة وليلة » الذي وُضع قبل إدخال التبغ إلى الشرق والعاكس بكل أمانة عادات العرب آنذاك وتقاليدهم أن المسلمين كانوا يقبلون على شرب الخمر جهراً وبكثرة في تلك الفترة أو قبيلها أكثر من المسلمين المحدثين اليوم ولا بد من الإشارة إلى أن أنواع التبغ الخفيفة التي يستعملها الأتراك والعرب لبيباتهم تترك أثراً طيباً في نفوسهم ، وتلك طريقة اعتذار يبرزها هؤلاء لإدمانهم على تدخين البيبة ؛ فالبيبة تهدىء الأعصاب عامة وهي تشحذ الذهن وتوقده بدلاً من تخديره . وهي ترفع بالطبع من درجة الملذات في المجتمع الشرقي وتؤمن للفلاح وسيلة انتعاش رخيصة لا تذهب بالعقل بل تمنعه من الإنغماس في شهواته ورغباته الأقل براءة .

أمّا القهوة فرفيقة البيبة المخلصة . وهي من الكماليات الموازية لها تهدف إلى التقليل من الإدمان على شرب الخمر ؛ ويعزز هذا الرأي لفظة « قهوة » بحد ذاتها وهي لفظة قديمة للخمر . ويُقال إن اكتشاف هذا المشروب المنعش الذي تقدمه حبة شجرة البن يرقى إلى القسم الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) ، وقد تم على يد الشيخ «عمر» الذي دفعته حاجته إلى المؤونة ـ وكان قاده الاضطهاد إلى اللجوء إلى جبل في اليمن مع بعض أتباعه هرباً ـ إلى القيام بتجربة تقضي باستخلاص حبوب القهوة بالإغلاء وجعلها من ألوان الطعام . ولكن اليمن لم تعرف انتشار القهوة إلّا بعد قرنين من هذا الاكتشاف . عرفت مصر القهوة بين عامي ٩٠٠ و ٩١٠ للهجرة (نحو نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر للميلاد ، أي قبل قرن من إدخال القهوة إلى الشرق) ، وشربه فقراء اليمن ومكة المكرمة والمدينة المنورة في جامع الأزهر الكبير الذين وجدوا فيه شراباً منعشاً لذيذاً يتناولونه بكل حرية وهم يتمرنون على أداء الصلوات والمدائح في الله جلّ جلاله . وعرفت القسطنطينية شراب القهوة بعد حوالي نصف قرن . ودارت مناقشات طويلة في شبه الجزيرة العربية ومصر والقسطنطينية بين رجال الفكر والدين ، إذ

يؤكد العديد من الفقهاء أن للقهوة جوانب ضارة مسكرة وهي بالتالي شراب محرَّم على المسلمين ، بينما يؤكد بعضهم الآخر أن القهوة تطرد النعاس وتلك ميزة هامة من جملة ميزاتها ، كما أنها منشط فعال للأتقياء في تضرعاتهم الليلية وخضعت القهوة لمزاجية لطبقة الحاكمة التي كانت تحرم تعاطيها غالباً وتعود لتسمح برواجها متى شاءت . يعترف اليوم (ومنذ سنوات عديدة) معظم المسلمين تقريباً بشرعية القهوة حتى أن الوهابيين وهم الأكثر تصلباً في مواقفهم بالنسبة إلى إدانتهم التبغ والأكثر التزاماً بمبادىء القرآن والأحاديث النبوية الشريفة يشربُون القهوة باعتدال . كان المصريون يعدون القهوة قديماً من حبوب البن وقشوره معاً ، وما يزال العديد من أبناء الجزيرة العربية يعتمدون هذه الطريقة في تحضير القهوة أو يكتفون بالقشور وحدها . وأمّا سائر بلدان الشرق الأخرى فيعدون القهوة من قشور البن وحدها المحمص الطازج والمسحوق .

تضم القاهرة ما يربو على الألف مقهى . والقهوة عامة عبارة عن حجرة صغيرة تكون واجهتها المطلة على الشارع من الخشب المفتوح في شكل قناطر . وتمتد على طول الواجهة ما عدا الباب مصطبة من الحجر أو الآجر يبلغ ارتفاعها نحو قدمين أو ثلاث كذلك عرضها ؛ وتغطى أرضها بالحصر إضافة إلى مقاعد مشابهة في داخلها موزعة عند جانبين أو ثلاثة . تشهد المقاهي اكتظاظاً خلال فترات بعد الظهر وفي المساء ، وروّادها الأساسيون هم من أبناء الطبقات الدنيا والتجار وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية . يحمل رواد المقاهي تبغهم وبيباتهم معهم ويتولّى « القهوجي » تقديم القهوة لهم بسعر خمس فضات للفنجان الواحد وعشر فضات « للبكرج » الذي يتسع لنحو أربعة فناجين . ويحتفظ القهوجي بنرجيلتين أو ثلاث نارجيلات أو « شيشات » و « غُزّات » ؛ وتستعمل « الغزة » لتدخين التمباك (أي التبغ الفارسي) والحشيش الذي يباع في بعض المقاهي . كما يرتاد بعض المزيكاتيين ورواة القصص الشعبية بعض هذه المقاهي في أمسيات الاحتفالات الشعبية

يرقى استعمال « الحشيش » ـ كما يسميه المصريون ـ في بعض بلدان

الشرق إلى عهود قديمة ؛ وقد انتشر استخدامه بين السكان لكونه من المنبهات. ويخبرنا «هيرودوتس» أنّ السكيثين Scythians كانوا يحرقون أعشاب هذه النبتة في احتفالاتهم الدينية فيخدرهم الدخان المتصاعد منها . وأمّا « جالينوس » فيتحدث عن خصائص الحشيش المخدرة وقد انتشرت في الهند عادة مضغ أوراق هذه النبتة لإحداث التخدير في العصور السالفة وانتقلت هذه العادة من الهند إلى بلاد فارس . ولقد توطدت هذه العادة المضرة المخزية في أرض مصر منذ ستة قرون (قبل منتصف القرن الثالث عشر ميلادي) وأقبل عليها خاصة أبناء الطبقات الدنيا وخضع لسحرها العديد من جهابذة الأدب والدين وأفواج كبيرة من الفقراء (والفقير هو الناذر نفسه للدين) وزعموا أنه غير محرم على المسلم تناوله . وتشيع هذه العادة كثيراً بين أبناء طبقات الدنيا في العاصمة والمدن المصرية الأخرى . ويحضر الحشيش (القنب) بوسائل مختلفة وتتعدد أسماؤه منها « البسط » و « الشعيرة » . . . التي تطلق على تحضيراته المتعددة . وقيل لي إنه يتم استخدام الأوراق الصغيرة لهذه النبتة أو أنها تمزج بالتبغ للتدخين ؛ ويسحق الغلاف خلا البزور ويمزج مع مواد عطرية عديدة حفاظاً على أثره التخديري بيد أن المواد الحمضية تبطله . يسترسل مدخن الحشيش عامة في مرح صاخب ويستنشق الأنفاس الأخيرة من الحشيش الأكثر وفرة وغزارة من « الغزة » عادة . وتمتلىء رئتاه بدخانه بعد سحبه النفس الأخير من فمه ومنخريه فيطلق نوبة سعال ويبصق دماً غالب الأحيان . لا يتوفر الحشيش في المقاهي وحدها إذ يمكن الحصول عليه من دكاكين صغيرة مخصصة لبيع التحضيرات المخدرة التي يطلق عليها اسم « المَحْششات » (مفردها محششة) . وإنه لمن المسلي أحياناً مراقبة مسلك الأشخاص المتردّدين على هذه الدكاكين وسماع أحاديثهم ؛ وهم في الواقع من أبناء الطبقات الدنيا وأمّا لقب « الحشاش » (نسبة إلى مدخن الحشيشة أو القنب) ففيه الكثير من القذف والطعن . ويطلق لقب « الحشاشين » على الأشخاص الصاخبين المشاغبين وهذه تسمية أطلقت أولاً على الإسماعيليين النزاريين أتباع الحسن بن الصباح وخلفائه ؛ والتسمية مأخوذة من الكلمة الفرنجية Assassin

وهي بمعنى فاتك ، أطلقها عليهم الصليبيون لأشتهارهم بالإغتيال . وقد لجأ الحشاشون إلى العقاقير المخدرة والمنومة بهدف إفقاد أعدائهم الوعي

لا ينتشر في مصر استخدام الأفيون وغيره من المخدرات كما في سائر بلدان الشرق الأخرى . كما أن عدد المدمنين على هذه الآفة غير كبير بالطبع نسبة إلى مجموع السكان المصريين عامة وبالمقارنة مع نسبة الأشخاص في بلادنا (إنكلترة) المنغمسين في الشرب . يُعرف متعاطي الأفيون « بالأفيوني » ، وهي تسمية أقل قذفاً من تسمية الحشاش لأنّ العديد من أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية يتعاطونه . كذلك يتعاطى المدمنون حديثاً الأفيون غير الناضج بنسبة لا تتجاوز الثلاث أو أربع حبات منه ، ويزيد الأفيوني هذه النسبة تدريجياً يعد المصريون تحضيرات مختلفة مؤلفة من الحَرْبَق والقنب والأفيون وعقاقير معطرة أخرى يقبلون عليها أكثر من الأفيون وحده . يُعرف تحضير من هذا النوع « بالمعجون » وأمّا الشخص الذي يعدّه أو يبيعه فهو « المعجونجي » . وأكثر أنواع المعجون شيوعاً في الأوساط المصرية هو « البرش » . وهناك نوع أول يجعل الشخص الذي يتناوله يعبّر عن متعته بالغناء ، وثاني يدفعه إلى الثرثرة ، وثالث يحثه على الرقص ، ورابع يؤثر على النظر بطريقة تسرّ المتعاطي ، وخامس عبارة عن عقار مسكّن ، وتباع كل أنواع هذه المغاجين في المحشّشة . أمّا « البوظة » وهي شراب كحولي مسكر فيقبل عليها مراكبيو النيل والعديد من أبناء الطبقات الدنيا في مصر كما أشرت في فصل سابق . وقد شاهدت في « طية » جراراً كبيرة تحتوي على حثالة البيرة المحضرة من الشعير .

الفصل السادس عشر

الحمامات

يعتبر الإستحمام من أبرز وسائل الترفيه التي تدخل البهجة إلى قلوب المصريين . ولا غنى عن النيل ودفء مياهه لكل من لا تسمح له ظروفه المادية بتحمل نفقات الإغتسال الزهيدة في الحمامات الشعبية المنتشرة في البلاد . والنيل فيّاض بهباته كذلك على الفتيات والشابات المصريات اللواتي يُنعمن أجسادهن الغضة باستحمام منعش في مياهه أيام القيظ ؛ ويُسقطن وهن سابحات حتى ورقة التوت عن أجسادهن ، ولكنهن يتوغلن في أماكن بعيدة عن أنظار الفضوليين فلا يعكر هؤلاء عليهن صفوهن . ذكرت سابقاً أن الأغنياء يملكون حمامات في منازلهم ومع ذلك يقصدون غالباً الحمامات الشعبية. كذلك تفعل نساؤهم اللواتي يرافقن صديقاتهن في مناسبات عديدة بناءاً على دعوة هؤلاء الأخيرات .

ينتشر في القاهرة حوالي سبعة عشر حماماً شعبياً هي في متناول عامة الناس من حيث قلة النفقات المترتبة . ومن الحمامات ما هو حكر على الرجال أو النساء والأطفال ، وقد يجتمع الجنسان في حمامات مشتركة فتخصص فترة ما قبل الظهر للرجال وفترة ما بعده للنساء وعندما يكون الحمام مقتصراً على استقبال النساء ، يُعلق منديل أو قطعة قماش من الكتان عند مدخله فلا يطأ الرجال عتبته قط ، ويكون الخدم قد غادروا الحمام قبل فترة بسيطة وحلت الخادمات محلهن . تُزين واجهة الحمام عامة بطريقة مشابهة للزخرفة التي نشاهدها في معظم الجوامع ، ولكن يتداخل اللونان الأبيض والأحمر فيها

فيضفيان عليها زخرفة أكبر ، وقد تطغى ألوان أخرى خاصة عند المدخل .
يتألف مبنى الحمام من حجرات متعددة مرصوفة بالرخام الأبيض بشكل رئيسي والرخام الأسود في بعض أجزائه إضافة إلى قطع صغيرة من الآجر الأحمر الدقيق كما درقعة غرفة منزل خاص ، وتظهر الدرقعة في رسم في مقدمة هذا الكتاب .
تكون الحجرات الداخلية لحمام مغطاة بقبب تتوزع فيها فتحات صغيرة دائرية من الزجاج تسمح بتسرب الضوء . يدخل الآجر والجص خاصة في بناء الجدران والقبب، وهما قابلان للتصدع والسقوط بفعل تعرضهما المستمر للبخار داخل الحمام عند استخدامه حتى وإن تقطعت الحرارة لأيام قليلة . ويتم بناء ساقية يحركها ثور فوق مستوى أجزاء الحمام العلوية لرفع المياه من البئر إلى المرجل .

يعتقد المصريون أن الحمام هو المكان المفضل للجن ؛ لذا لا بد من صلاة يرفعها المرء قبل دخوله الحمام لحمايته من الأرواح الشريرة ، وهو يقدم رجله اليسرى على عتبته أولاً . ولا يسمح له على الإطلاق ـ للسبب نفسه ـ بتلاوة آيات بيّنات من القرآن الكريم عندما يكون داخله . فإن كانت في حوذة الراغب بالإستحمام ساعة أو محفظة فيها مال وفير ، يعطيها عند دخوله الحمام إلى « المعلّم » الذي يحفظهما له في صندوق ؛ وأما بيبته وسيفه (إن كان يملك سيفاً) فيعهد بهما إلى خادم في الحمام ينزع له حذاءه ويزوده بقبقاب خشبي لأن أرض الحمام رطبة . تعرف الحجرة الأولى « بالمسلخ » وهي تتألف من « ليوانات » (مفردها ليوان) لا يزيد عددها عن الأربعة مشابهة للمصطبات أو هي أوسع منها ومغطاة بالرخام ، إضافة إلى « الفسقية » التي يتدفق منها الماء البارد والمرتفعة من حوض ثمانيّ الزوايا مبني من الحجارة المغطاة بالرخام في وسطه . يخصص ليوان واحد لراحة مستحمي الطبقتين المتوسطة والغنية وتُمدّ عليه الفرش والوسادات . وأمّا الليوانات الأخرى المعدّة لأبناء الطبقات الدنيا فتغيب عنها الفرش خلا الحصر . ونجد في المسلخ في العديد من الحمامات مقعداً صغيراً للقهوة

يفضل المستحمون أيام الحر خلع ثيابهم في المسلخ وهم ينزعونها

شتاءاً في « البيت الأوّل » عبارة عن حجرة مقفلة داخلية تشكل مع الحجرة الأولى ممراً قصيراً تقع ثلاث دورات مياه في جانب واحد منه . وتطلق التسمية على هذه الحجرة لأنّها أولى الحجرات حرارة ولكنّها أقل حرارة من الحجرة الرئيسية وهي تشكل حجرة الانتظار . يتألف « البيت الأول » عامة من مصطبتين ترتفع فيهما الواحدة عن الأخرى مرصوفتين رخاماً كما البلاط . تخصص المصطبة الأولى لراحة شخص واحد من أبناء الطبقة الميسورة ، وأمّا الثانية فتكفي لشخصين . فإذا احتل أحد الأغنياء المصطبة الأولى ولم يتوفر مقعد ثان لشخص آخر ، يكدّس الخدم الفرش فوق بعضها البعض على المصطبة السفلية أو الليوان ، وقد تُفرش سجادة فوق المصطبة إجلالاً لأحد أبناء الطبقة الميسورة . يحصل المستحم على فوطة أولى يضع فيها ثيابه وثانية يلف بها وسطه وهي تصل إلى منطقة الركبتين أو أدناهما قليلاً وتعرف « بالمَحْزَم » ، وثالثة يلف بها رأسه كما العمامة تاركاً أعلى الرأس مكشوفاً ، ورابعة يلف بها صدره وخامسة يغطي بها ظهره . ويساعد المستحم في الحمام صبي يطلق عليه اسم « اللّونجي » (كما تلفظها العامة) والكلمة تحريف لكلمة « الليونجي » أي خادم الليوان .

يبادر « اللّونجي » إلى فتح باب الحجرة الداخلية الأساسية ـ « الحرارة » ـ للمستحم ما إن ينتهي هذا الأخير . تضم « الحرارة » أربعة ليوانات منخفضة كما معظم الغرف في المنازل الخاصة مرصوفة في شكل تقاطعي ، وفي وسطها « فسقية » ماء ساخن متدفق من حوض ضحل وسط مقعد ثمانيّ الزوايا مرتفع مكسو بالرخام الأبيض والأسود إضافة إلى قطع من الآجر الأحمر . تحتل « الحرارة » وغيرها من الغرف المتصلة بها مساحة مربع تماماً يقع « البيت الأول » في إحدى زواياه وتحتل غرفتان أخريان صغيرتان مجاورتان زاوية ثانية في المربع تضم إحداهما « مغطساً » من الماء الدافىء يسبقه مرتقى من أربع درجات والأخرى « حنفية » تتألف من صبّورتي ماء منبثقتين من الجدار مخصصتين للماء البارد أو الساخن إضافة إلى حوض صغير أدناه ومقعد أمامه ؛ والجدير ذكره أن « الحنفية » لا تُطلق على صبورتي الماء فحسب بل وأيضاً على

الغرفة نفسها التي تتواجدان فيها . وتقع في زاوية المربع الثالثة غرفتان صغيرتان مشابهتان للغرفتين اللتين تحدثت عنهما آنفاً ، تحتوي الأولى على « مغطس » آخر مياهه غير ساخنة كمياه المغطس السابق وأمّا الثانية فعلى « حنفية » يُملأ كل مغطس بالماء المتدفق من قبة الغرفة وتحتل الزاوية الرابعة في المربع غرفة غير متصلة بغرفة « الحرارة » يقع فيها المرجل . وتكسو القبب وسط « الحرارة » وليواناتها والغرف الصغيرة المرتبطة بها ، وهي تتمتع بفتحات زجاجية صغيرة

يبدأ المستحم بالإفراز عرقاً كثيراً بفعل الرطوبة التي يحدثها ماء الأحواض الساخنة والفسقية والمرجل . وعلى الفور يحضر « المكيِّساتي » وهو المسؤول عن الحمام ، فيعطي المستحم محزماً رطباً في حال كان هذا الأخير مدثراً بأكثر من منشفة أو قد يحتفظ بمحزمه المرطب . يجلس المستحم على مقعد الفسقية الرخامي أو يتمدّد على منشفة على أحد الليوانات أو عند حافة أحد الأحواض فيخضع للتمرين الأول وهو تدليك مفاصله بطقطقتها . ويقوم « المكيساتي » بطقطقة كل مفصل في جسده: إذ يلوي الجسد في اتجاهين فيجعل الخرزات تطق في العامود الفقري ؛ ولا ينسى الرقبة التي يطقها مرتين فيلوي الرأس في كل اتجاهاته ، وفي المسألة شيء من الخطورة بالنسبة إلى الشخص غير الخبير بتلك الأمور. كذلك يحرك «المكيساتي» الأذنين حتى يطقا كما يلوي الأطراف بعنف ظاهر ولكن بمهارة كبيرة. ولم يحدث أن سمعت عن حادثة مشؤومة وقعت خطأً للمستحم تحت التدليك ؛ والهدف الأساسي من عملية التدليك تليين المفاصل . ثم يقوم المكيساتي بتدليك جسد المستحم ويفرك أخمص قدميه بمقشطة من الطين المحمص أو يقوم بهذه العملية مسبقاً ويستعمل نوعان من المقشطة : المقشطة الأولى نفيذة وخشنة يكون سطحها مرسوماً بخطوط عديدة وأمّا الثانية فمن الطين المصقول غير المسامي ويجعل سطح المقشطة خشناً اصطناعياً وتكون المقشطتان من اللون الداكن المائل إلى السواد . وتوضع المقشطة التي تستخدمها السيدات عادة في كيس حريري مزخرف رقيق (باستثناء السطح السفلي أو المقشوط بالطبع) . والمقشطة الخشنة ضرورة لا

بد منها للأشخاص الذين لا يرتدون الجوارب كما هي الحال مع معظم سكان مصر ؛ وأمّا المقشطة الأخرى فللمواضع الأكثر حساسية ، وهي تستخدم لفرك الأطراف وجعل الجلد أكثر نعومة . تلي عملية القشط عملية فرك جسد المستحم بكيس صوفي صغير خشن . ولّما يفرغ الخادم من الفرك ، يمكن للمستحم تبليل نفسه في أحد الأحواض إن رغب في ذلك ويتنقل بعد التبليل إلى « الحنفية » فيقوم « المكيّساتي » برغو الصابون على جسد المستحم مستخدماً « الليف » (من شجرة النخل) والصابون والمياه الحلوة بعد أن يعلق منشفة أمام مدخل « الحنفية » ، وهو يحضر الماء في آنية نحاسية يسخّنها في أحد الأحواض؛ إذ أن مياه الحنفية بشرية مالحة بعض الشيء فلا تناسب الإغتسال بالصابون . وليس الليف المستخدم في الحمام من نوع الليف المستخرج من أوراق شجر النخل المصري الأسمر بل هو من الليف الأبيض المستورد من الحجاز . ويغسل المكيّساتي الصابون بالماء من الحنفية وإذا رغب المستحم يحلق له إبطيه ثم يتركه حتى ينتهي من الإغتسال ، ثم يطلب طقم مناشف ـ أربع مناشف بالتحديد ـ ويعود إلى « البيت الأول » بعد أن يكون لفّ نفسه بالطريقة التي وصفتها سابقاً وجرت العادة أن يعطي الأشخاص الميسورو الحال المكيّساتي نصف قرش أو قرش كامل وإن لم يطلبه منه .

تُمد فرشة للمستحم على مصطبة مغطاة بالمناشف في « البيتَ الأول » تزينها وسادة أو وسادتان في طرف واحد فيتكيء عليها ويرتشف فنجاناً أو فنجانين من القهوة ويدخن في الوقت الذي يفرك له « اللونجي » أخمص قدميه ويدلّك جسده وأطرافه ؛ أو يولي هذه العملية للونجيين فيعطي كل واحد منهما خمس أو عشر فضات أو أكثر . ويبقى نصف ساعة أو ساعة بكاملها يدخن « الشبّوق » أو « الشيشة » ثمّ يرتدي ثيابه ويهمّ خارجاً ، ويجلب له « الحارس » المسؤول عن تجفيف المناشف في المسلخ والحراسة مرآة زجاجية ومشطاً يسرّح به شعره (إلا في حال لم يكن المستحم مشورباً أو ملتحياً) ؛ ويسأله المستحم عن أغراضه التي كان وضعها أمانة قبل دخوله ويترك مبلغاً بسيطاً يتراوح بين قرش وأربعة قروش على المرآة ويخرج ويكفي في الواقع قرش

واحد ـ وهو ما يدفعه العامة ـ مقابل كل المراحل التي تتم داخل الحمام .

يتوجه بعض المصريين مرّتين إلى الحمام أسبوعياً ويقصده غيرهم مرة في الأسبوع في الوقت الذي لا يتردد إليه البعض الآخر كثيراً ؛ ويكتفي البعض بالإغتسال بالماء والصابون وتغطيس أنفسهم في الأحواض ويدفعون بالطبع مبلغاً أقل .

لا تتردد المرأة التي تستطيع للحمام سبيلاً في دخوله ولكنها لا تتوجه إليه كثيراً كالرجل . والحمام مفتوح لكل النساء على اختلاف الطبقات الاجتماعية التي ينتمين إليها إلاّ عندما يكون الحمام قد استأجرته نساء عائلة واحدة أو كان مخصصاً للفيف منهن . وتقصد نساء المنزل الواحد الحمام عامة مصطحبات معهن الصبية الصغار ويأخذن معهن سجاداتهن ومناشفهن وأحواضهن وكل اللوازم الأخرى التي يحتجنها وحتى الكمية الضرورية من الصابون والمياه الحلوة اللازمة للإغتسال والشرب ، ويحمل بعضهن الفاكهة والمربيات والمرطّبات . وترافق « البلانة » و « الماشطة » غالب الأحيان النساء الغنيات ولا تضع نساء الطبقات الدنيا أي غطاء يسترن به أجسادهن العارية ولا حتى منشفة حول أردافهن ؛ وقد ترتدي أخريات منشفة وقبقاباً عالياً وأمّا وسائل الترفيه التي تستمع بها المصريات في الحمام فقليلة ويكتفين بحفلات بسيطة يرفّهن بها عن أنفسهن ولا يبدين جلبة أو صخباً في مرحهن وعبثهن . وينتهزن الفرصة لعرض مجوهراتهن وثيابهن الفاخرة والولوج في أحاديث عائليّة مع اللواتي يلتقينهن من صديقاتهن أو بعض الغريبات . وقد تختار الأم عروساً لابنها من بين الفتيات التي تقع عينها عليهن في الحمام . وقد يقتصر الحمام في مناسبات عديدة كما هي الحال بالنسبة إلى تحضيرات العرس على فئة مختارة مؤلفة من نساء عائلتين أو أكثر ولا يقبل غيرهن في هذه الحلقة . والشائع أن تعمد سيدة وشلة من صديقاتها وخادماتها إلى استئجار « خلوة » ؛ والخلوة هي الاسم الذي يطلقونه على حجرة الحنفية . وتختلط في الحمام شلة الصديقات من مختلف الطبقات ، بيد أن الشابات الصغيرات يطلقن العنان لمرحهن وصخبهن بين دائرة صديقاتهن ، فيمضين ساعة أو أكثر تحت يدي « البلانة »

تفـــركهن وتغسلهن وتعقص جدائلهن ضفـائـــر وتسمـطهن ؛ ثم ينسحبن إلى « البيت الأول » أو « المسلخ » فيضعن قـطعـة من ثيـــابهن عليهن أو قميصـــاً فضفاضاً ويشربن المرطبات ؛ فإن لم يجلبنها معهن يرسلن خادمة من الحمـام إلى السوق . ولا تنسى المدخنات بينهن بيياتهن وينطربن في مناسبات احتفالية خاصة بأغاني عالمتين أو أكثر يدفعن لهن لمرافقتهن إلى الحمام .

الفصل السابع عشر

الألعاب

تتماشى معظم ألعاب المصريين مع مسلكهم الرزين وطبيعتهم الرصينة فيستمتعون بلعب « الشطرنج » و« الداما » و« الطاولة » وتتميز بيادقهم ببساطة أشكالها لأن دين المسلم يحرّم عليه تصوير كل ما ينبض حياة . لا بد من الإشارة إلى أن المسلمين المصريين أقل وسوسة بالنسبة إلى ألعاب الهزرد (ضرب من لعب النرد) . ومع ان بعضهم ينزل حتى « الشطرنج » و« الداما » في خانة الألعاب المحرمة ، نجد أن الألعاب التي تعتمد على الحظ جزئياً أو كاملاً شائعة جداً في أوساط الناس من مختلف الطبقات . وأمّا « لعب القمار » كما ينعتون هذا النوع من ألعاب الحظ المعتمد دائماً على رهان المال أو غيره فأقل انتشاراً بينهم . يرتاد أبناء الطبقات الدنيا في مدن مصر المقاهي لممارسة ألعاب الحظّ على اختلافها ولكن رهانهم لا يزيد عن ثمن بعض فناجين القهوة .

يعرف المصريون لعبة «المَنْقَلة» عامة وهي شائعة جداً بينهم. وتجمع « المنقلة » عامة شخصين حول لوحة (أو لوحتين ممفصلتين) مقسمة إلى إثني عشر « بيتاً » (عبارة عن ثقوب نصفية) في صفين متساويين إضافة إلى اثنين وسبعين « حصى » (ومفردها « حصوة » في عاميّتهم) . وأعمد إلى شرح لعبة « المنقلة » وفقاً للرسم التالي تعود بيوت الصف الأول (ذات الحرف الكبير) إلى الفريق الأول ، وأمّا صف البيوت الثاني (ذات الحرف الصغير) فإلى الفريق الثاني. ويقوم أحد الفريقين قبيل بدء هذه اللعبة بالطريقة البسيطة

أ	ب	ت	ث	ج	ح
ح	ج	ث	ت	ب	أ

f	e	d	c	b	a
A	B	C	D	E	F

(وهناك طريقتان «للمنقلة») بتوزيع كل الحصى بشكل غير متساو داخل ثقوب البيوت ، فيضع أربع حصوات في كل بيت ؛ وإن قام بتوزيع الحصى بشكل متعادل ، فيضع ست حصوات في كل بيت ، ولكنه لا يتبع الطريقة الثانية إلا نادراً لأن الذي يباشر اللعب أولاً متأكد من خسارته . تعرف عملية توزيع الحصى « بالتبويز » ؛ فإن لم يستحسن أحد الفريقين عملية توزيع الحصى ، يمكنه تغيير اتجاه اللوح نحوه فيبدأ خصمه بعد ذلك باللعب. ولنفترض أن الفريق الذي تكون بيوته المرسومة بالأحرف الكبيرة أ ب ت ث ج ح يبدأ اللعب فيأخذ الحصى من البيت ح ويوزعها على البيوت أ ب ث. . . فيجعل حصوة داخل كل بيت ؛ فإن كان يملك حصىً يضعها داخل بيوت خصمه الستة ويبقي الحصى الأخرى في يده ، ويبدأ يوزعها بالطريقة نفسها على بيوته الخاصة حسب الترتيب أ ب ث. . . ثم إذا بقيت معه حصوة أو أكثر يضعها في بيوت خصمه كما في السابق وهكذا دواليك . فإن لم يحتوِ البيت الأخير الذي وضع فيه حصوة إلاّ على حصوة واحدة (وكان البيت فارغاً قبل أن يضع الحصوة داخلها وقد تكون تُركت خالية في البداية) ، يكف عن اللعب ويبدأ خصمه ؛ ولكن في حال آحتوى البيت على حصوتين أو أربع ، فيأخذ هذه الحصوات مع حصوات البيت الآخر ؛ وفي حال آحتوى البيت الأخير على حصوتين أو أربع وكان أحد البيوت السابقة (أو أكثر من واحد) يشتمل على عدد مماثل وكان لا يدخل على خط اللعب بيت آخر مع حصواته ، يأخذ اللاعب محتوى البيوت السابقة أيضاً مع محتوى البيوت المقابلة . وفي حال اشتمل البيت الأخير الذي وضع فيه حصوة (مع هذه الحصوة) على ثلاث حصوات أو خمس أو أكثر ، يأخذها ويبدأ يوزعها بالطريقة نفسها كما في السابق : فمثلاً لو آعتبرنا أن البيت الأخير

حيث وضع حصوة يرمز إلى الحرف ث ، يضع عندها حصوة أولى من محتوى هذا الحرف في حرف ج وثانية في خانة ح وثالثة في خانة أ وهكذا دواليك ؛ ويستمر في المداورة حتى يصل إلى مرحلة لا يكون البيت الأخير يحتوي فيها إلاّ على حصوة واحدة ممّا يجبره على وقف اللعب ، أو أنه يستمر في اللعب حتى تشتمل الخانة على حصوتين أو أربع فيربح اللعبة ويكون دور خصمه في اللعب . وهو يلعب من البيت الأخير أي البيت ح أو إن كان هذا البيت خالياً يبدأ من أقرب بيت إليه في صف بيوته المحتوية على حصوة واحدة أو أكثر . وإن كان أحد الفريقين يمتلك أكثر من حصوة واحدة في بيت من بيوته أو أكثر ولم يكن خصمه يملك أية حصوة ، يكون الأول مجبراً على وضع حصوة من حصواته في البيت الأول لخصمه وأما إذا بقيت حصوة واحدة في جهة واحدة ولم تبقَ أية حصوة في الجهة الأخرى ، تعود هذه الحصوة إلى الشخص التي تقع الحصوة إلى جانبه ولمّا تفرغ اللوحة من الحصوات تماماً ، يعدّ كل فريق الحصوات التي حصل عليها ؛ والذي يجمع أكبر عدد من الحصوات يكون الرابح . ويعود الرابح في لوحة واحدة إلى اللعب مرة جديدة في اللوحة الثانية بعد أن يكون خصمه وزّع الحصى أولاً فإذا وصل عدد الحصى التي يجمعها اللاعب إلى ستين حصوة يربح اللعبة ولاعبو « المنقلة » بهذه الطريقة هم في الواقع الشبان الصغار ومن هنا تسمية هذه اللعبة « يلعب الغشيم » ؛ ويلعب آخرون المنقلة بطريقة مختلفة ، هي « لعب العاقل » وأورد شرحاً مفصّلاً لها على الفور :

يتم توزيع الحصى في بيت واحد أو عدّة بيوت في جهة واحدة وفي البيت (أو البيوت) المناسبة في الجهة الأخرى ، بمجموع أربعة بيوت عند كل جانب . ويترك الموزّع البيتين الواقعين في أقصى الطرف من كل جهة فارغين : وهو قد يوزع الحصى بطريقة تقليدية فيضع نصف الحصى مثلاً في البيت أ والباقي في البيت أ. ولا يحسب الشخص الذي يوزع الحصى عبدد الحصوات التي يضعها في البيت الواحد ، وله الخيار في وضعها في بيت واحد

عند كل جانب أو في كل البيوت وفي حال آعترض الفريق الآخر على طريقة توزيعه الحصى، يمكنه قلب اللوحة باتجاهه، ولكنّه يفقد في هذه الحالة حقه في بدء اللعب. ويستطيع اللاعب الأول البدء بأيّ من البيوت فيترك الحكم لنظره وحدسه لمعرفة أيٍّ منها سيتوفر له الحظ الكبير . ويبدأ باللعب بالطريقة نفسها كما وصفت آنفاً فيضع حصوة في كل بيت ويتبع الطريقة السابقة في اللعب باعتماده الخانات عينها؛ بعد ذلك يأتي دور اللاعب الثاني. وما إن يربح للمرة الأولى يعدّ الحصى في كل بيت من بيوته ويبدأ يلعب من البيت الذي يجلب له فائدة أكبر. وقد يتوقف أحد الفريقين ليعد الحصى التي يأخذها من بيت واحد بغية توزيعها فيتأكدُ من توزيعها بشكل صحيح . ويحسب كل طرف ما ربحه في جولة واحدة من اللعب كما في الطريقة السابقة بفائض الرقم الذي جمعه متجاوزاً بذلك العدد الذي جمعه خصمه ؛ ويربح الأول منهما الذي يجمع أرباحه حتى الرقم ستين . وتساعد هذه اللعبة في تقوية عملية الحسب والعد بين اللاعبين ؛ وهي شائعة خاصة بين زواد المقاهي الشعبية . ويوافق الطرفان عامة ـ وإن كان ذلك غير شرعي في قانون اللعبة ـ أن يدفع الخاسر ثمن فناجين القهوة التي يشربها نفسه وخصمه وكل الحاضرين الذين يتابعون اللعبة ، أو يتفقان بأن يدفع ثمن عدد معين من الفناجين .

يتسلى المصريون بلعبة أخرى تعرف « بالطَّبّ » وتعرف هذه اللعبة في بلدان الشرق الأخرى « بطُبّ ودُقّ » بيد أنني لم أسمع قط بهذا الاسم في مصر . ويلعب أبناء مصر « الطُّب » على الشكل التالي يحضر اللاعبون أوّلاً أربعة أعواد صغيرة مسطحة الشكل يبلغ طولها حوالي الشبر (ثمانية إنشات) وعرضها ثلثي الإنش . وتتألف هذه الأعواد عامة من غصن شجرة نخل صغير يتم قطع جانب منه وصقله وتسطيحه وتمييزه باللون الأبيض ؛ وأمّا الجانب الآخر (إن كان يابساً) فيميل إلى الصفرة الباهتة وإلاّ فيكون أخضر اللون ؛ يعرف جانب الغصن الأول بالأبيض والآخر بالأسود ، وهي تشكّل « الطُّب » وضروري تأمين« السّيغا » في المرحلة التالية ؛ والسيغا عبارة عن لوحة مقسمة إلى أربعة صفوف مربعة تعرف «بالبيوت» أو «الدّارات» (مفردها «دار») ويبلغ كل

واحد منها إنشين عرضاً ؛ وقد تشكل صفوفاً مشابهة من الثقـوب في الأرض أو في حجر مسطح . يتراوح عدد البيوت بين سبعة وتسعة وأحد عشر وثلاثة عشر أو خمسة عشر بيتاً في كل صف . وأورد في ما يلي « سيغا » مؤلفة من تسعة بيوت في كل صف فأظهر طريقة هذه اللعبة وأشير في الرسم إلى كل بيت بحرف من حروف الأبجدية :

ذ	د	خ	ح	ج	ث	ت	ب	ا
ع	ظ	ط	ض	ص	ش	س	ز	ر
ر	ز	س	ش	ص	ض	ط	ظ	ع
أ	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ

يجعل اللاعب داخل كل بيت في صف خـارجي قطعـة حجر صغيـرة أو قطعة قرميد داكنة من حجم حبة الجوز ؛ كما يجعل اللاعبون في كل بيت في الصف الخارجي الآخر قطعة قرميد أحمر . وقد تجعل القطع أحيـاناً في عـدد معين من البيوت في تلك الصفوف كما مثلاً في البيوت الأربعة الأولى . وينبغي تمييز قطع الصف الـواحد من قـطع الصف الآخر ، وهي تعـرف « بالكـلاب » (ومفردها « كلب ») ويلعب « الطّب » شخصان عامة . يرمي اللاعب الأعـواد الأربعة الصغيرة في وقت واحد إلى عود مغروز في الأرض أو يمسكه الـلاعب بيده جاعـلاً أحد طـرفيه على الأرض أو على الجـدار أو علىَ عود مستنـد إلى الجـدار . فإذا سقـطت الأعـواد بـطريقـة يكـون فيهـا الـرأس الأبيض في اتجـاه علوي ، يقال إن اللاعب رمى « طبّاً » (جمعها « طيب ») أو « ولداً » (جمعها « وِلاد ») ويحسب واحداً ؛ وفي حال وجود عودين من اللون الأبيض وآخـرين أسودين يحسب اللاعب اثنين (إتنين) ؛ وإن كانت الأعواد ثـلاثة منهـا بيضاء

وآخر أسود يحسب ثلاثة (« ثلاثة ») ؛ وإن كانت الأعواد بيضاء كلها ، يحسب « أربعة » ؛ وإن كانت سوداء برمتها « فستّة » عندما يرمي اللاعب طبّاً واحداً أو أربعة أو ستة « طيب » ، يرمي ثانية ؛ ولكن عندما يرمي طبّتين أو ثلاثة «طيب»، يترك الدور لخصمه. ويعود صف البيوت أ ب ث. . . إلى أحد اللاعبين ؛ وأمّا اللاعب الآخر فله صف أ ب ث . . . يقوم اللاعبان برمي الطيب بصورة متعاقبة حتى يرمي أحدهما الطُّب ويعود يرميه من جديد حتى يجمع اثنين أو ثلاثة . ولنفترض أنه رمى الطُّب وأربعة واثنين ، يزيل الكلب من البيت ذ ويضعه في البيت السابع بعد ذ أي في البيت س. وينبغي عليه دائماً أن يبدأ بالكلب في البيت ذ؛ والفريق الثاني يبدأ بالطريقة نفسها من البيت أ. ولا يمكن لأي من الفريقين إزالة كلب من مكانه الأصلي إلاّ برمي طبّ عند كل إزالة من هذا النوع ويعرف الكلاب قبل إزالتهم من مكانهم الأصلي « بالنّصارى » (ومفردها نصراني) ويتحول الاسم بعد كل إزالة عندما يحق للاّعب بدء المباراة إلى «المسلمين». وعندما يحوّل اللاعب الكلب إلى مسلم يُقال « سلّم كلب » والكلب « أسلم » . ويجعل اللاعب في كل مرة يرمي فيها طبّاً الكلب مسلماً حتى يحوّل الكلاب كلهم كذلك فيحضرهم للمداورة داخل البيوت . ويحق لكل لاعب تسيير كلبين أو أكثر في الوقت نفسه . ولنفترض (تبسيطاً للأمور) أن الشخص الذي يعود إليه صف البيوت أ ب ت ث يحرّك كلباً واحداً ؛ فهو يحركه بين الصفين الوسطين من البيوت بالترتيب الذي أشرت إليه في اللوحة أي من ع إلى ر ومن ع إلى ر ويمكنه أن يعيد الدورة ذاتها أو يدخل في صف خصمه طالما أن هنالك كلباً في الصف؛ لكنه لا يستمر في تسيير الكلب نفسه في الحالة الأخيرة إلاّ في الحالات التي سأذكرها الآن . يأخذ اللاعب الكلب الأخير في كل رمية (أو في رميتين أو أكثر) تكون سمحت للاعب بتحريك كلبه في البيت الذي يحتله أحد كلاب خصمه . فمثلاً إذا كان أحد الفريقين يملك كلباً في البيت ط وكان للفريق الآخر كلب في البيت ص وآخر في البيت ر ويكون الفريق الأول رمى طبّاً (أو واحداً) ثم رمى أربعة ثمّ اثنين ويأخذ الكلب إلى خانة ص برميه اثنين ؛ ويأخذ بعد رميه أربعة الكلب في

خانة ر ؛ ويمر إلى خانة أ بعد رميه طباً واحداً ويأخذ كلباً ثالثاً إن كان في الخانة كلب واحد . ويمكن للاعب برمية موفقة صائبة أو برميتين أو أكثر تحريك أحد كلابه في بيت يحتله لاعب آخر من فريقه ؛ ويمكنه أن يضيف وبالطريقة عينها هذين الكلبين معاً إلى كلب ثالث أو أن يضيف كلباً ثالثاً للكلبين مجموعين : فيستطيع بهذه الطريقة جمع أي عدد من كلابه ، فيحركهم معاً كما لو كانوا يشكلون كلباً واحداً ؛ وهو لا يستطيع تفريقهم ثانية ويلعب بهم على انفراد إلّا في حال رمى طبّاً فلو رمى رمية موفقة جعلته يعيد الكلاب ثانية إلى صف كانوا مروا فيه سابقاً (إن بشكل إنفرادي أو معاً) ، يتقلص عدد الكلاب إلى واحد . ولا يحتاج اللاعب في هذه الحالة إلى الاستفادة من هذه الضربة ، ويمكنه الانتظار حتى يرمي الطبّ . ويطلق اللاعبون على الكلبين أو الكلاب المجموعين على هذا المنوال اسم « العِجَّة » . والهدف من جمع الكلاب سوياً جعلهم في أمان في أسرع وقت ممكن كما سأشرح ذلك فوراً . إذا قام أحد الفريقين بتمرير أحد كلابه في صف خصمه يمكنه أن يتركه فيه بكل أمان في حال لم يرغب في الاستمرار في اللعب به ، لأن الخصم لا يستطيع إعادة الكلب إلى صفه . ولا يمكن للاعب الأول الإستمرار في المداورة بكليه الذي دخل في هذا الصف حتى لا يبقى كلب واحد في صفه أو كانت له « عِجَّة » في صفه على الأقل فلا يرمي الطبَّ ممّا يسمح له بتقسيم العجة . ويتبّع اللاعب في مداورته بين بيوت خصمه الترتيب نفسه الذي أشرت إليه في الرسم البياني . لا يستطيع اللاعب تمرير الكلب نفسه في صف خصمه ؛ ويعمد بعد تمرير الكلب في الصف إلى مداورته بين الصفين الوسطيين وحدهما كما الطريقة الأولى

يمارس هذه اللعبة عادة أربعة أشخاص أو أكثر ودون سيفا . ويصبح اللاعب « سلطاناً » إذا رمى أربعة كلاب . ويحمل السلطان « مقرعة » عبارة عن طرف شجرة نخل سميك تجعل في الجزء الأكثر سماكة فيه ثلاث سدادات . وعندما يرمي اللاعب ستة كلاب يحمل لقب « الوزير » ويحمل العود الذي يُرمى الطب إليه وإذا رمى لاعب كلبين ، يتلقى ضربة أو ضربتين أو حتى أكثر من السلطان (حسب ما يأمر به الوزير) على أخمص قدمه أو قدميه معاً بواسطة المقرعة .

وعندما يرمي اللاعب ستة كلاب مرتين يحل سلطاناً ووزيراً في الوقت عينه .

يسلي الفلاحون المصريون أنفسهم بلعبة أخرى يعرّفونها « بلعب السيغا » وتختلف في الواقع السيغا في هذه اللعبة عن السيغا في الطَّبّ ؛ فهي تتألف من ثقوب في الأرض مجموعة عادة في خمسة صفوف تشتمل على خمسة ثقوب في الصف الواحد أو من سبعة صفوف تجمع سبعة ثقوب في الصف أو من تسعة صفوف يضم كل واحد تسعة ثقوب يعرف النوع الأول (أي مجموعة الخمسة صفوف) « بالخمساوي سيغا » والثاني « بالسبعاوي » والثالث « بالتسعاوي » . وألحق رسماً بيانياً « بالخمساوي سيغا » لأوضح سير اللعبة :

تعرف الثقوب « بالعيون » (مفردها « عين ») ، ويبلغ عدد الثقوب خمسة وعشرين ثقباً في السيغا يكون في حوذة كل لاعب إثنا عشر كلباً مشابهين

للكلاب في لعبة الطَّبّ يعمد أحد اللاعبين إلى وضع كلبين في العيون المشار إليها بحرف أ ـ أ مضاعف كما في الرسم المقابل ؛ ويقوم اللاعب الآخر بوضع كلبين من الكلاب في حوذته في العيون ب ـ ب مضاعف . ثم يضعون كلبين في أي من العيون التي يختارها بصورة متعاقبة باستثناء العين الوسطى في السيغا ولمّا تمتلىء العيون كلّها ما عدا العين الوسطى بهذه الطريقة (ويكون اللاعبون وضعوا الكلاب عشوائياً) يبدأ اللعب فيحرك الفريق البادىء أحد كلابه من عين مجاورة إلى الوسط ويطلب الفريق الثاني من خصمه ـ في حال لم تكن العين التي باتت فارغة مجاورة لأي من العيون التي يشغلها الكلاب ـ أن يفتح له طريقاً ؛ وينبغي على الفريق الثاني أن ينصاع لرغبته فيزيل أحد كلابه ويخسر اللعب . وقد يتكرر هذا الطلب عندما يطلبها الفريق الثاني في ظروف

مشابهة وفي مناسبات متعاقبة . ويحاول كل فريق جاهداً بعد الترتيب الأول للكلاب ـ تركيز كل كلابه فيجعل كلباً من كلاب خصمه بين كلبه وكلب آخر له ويمكنه بهذه الطريقة أن يأخذ كلاباً ، ويبقى يأخذ طالما يستطيع الأخذ فوراً دون أن يفسح المجال لخصمه بالتحرك . تلك هي قواعد اللعبة الوحيدة . والتيقظ ضروري في ترتيب الكلاب الباقين رغم أن معظمهم مرتب بصورة عشوائية ؛ والجدير ذكره أنَّ العرب عمدوا إلى تقطيع سيغات عديدة فوق أحجار قمة الهرم الكبير وكانوا يلعبون دور المرشدين للرحالين .

لا تعرف أوساط المصريين الألعاب الرياضية وما شابهها والتي تتطلب جهداً جسدياً إلاّ في أشكالها البدائية . وقد يتنازع فلاحان مع بعضهما لمجرد التسلية أو مقابل رهان أو جائزة صغيرة فيلجأون إلى « النبوت » في معركتهما الوهمية الذي يبلغ طوله حوالي ست أقدام ؛ والهدف من تضاربهما إصابة رأس الخصم . والنبوت سلاح الفلاح المصري الرائع وغالباً ما يتخلى عنه . وهو يحمله في رحلاته خاصة عندما يسافر ليلاً ـ وإن كان ذلك نادراً يميل المصريون كذلك إلى مباريات المصارعة . يتخلى « المصارعون » في تصارعهم عن كل ثيابهم باستثناء سروالهم ويدهنون أجسادهم عادة بالزيت . ولا تستوقفنا تمارينهم التي يقومون بها وهم نادراً ما يلجأون إليها إلاّ للحصول على المكافأة في الاحتفالات والمواكب . . . ويتبارز في مثل هذه المناسبات رجلان مبارزة صورية ؛ ويكون الرجلان عاريين خلا سروال يستر جسديهما ويحمل كلاهما سيفاً ضالعاً وترساً صغيراً . وتكثر المبارزات من هذا النوع عامة بين الفلاحين المصريين . ولا يحاول الخصمان جرح بعضهما البعض وينزل الخصم الضربات على ترس خصمه .

عمد الكثيرون إلى وصف لعبة « الجريد » التي كان يلعبها المماليك والجنود الأتراك ؛ بيد أن طريقة الفلاحين المصريين في منطقة الصعيد مميزة بشكل خاص وجديرة بالتحدث عنها . ويعمد هؤلاء إلى لعب « الجريد » في مناسبات زواج أحد أصحاب النفوذ كشيخ القبيلة أو القرية أو في مناسبة ختان الولد ، أو عندما يقررون التضحية بعجل أو ثور أو بقرة نذروها ، فيتركون

الحيوان ليرعى في المكان الذي توافقوا على التضحية به عند قبر ولي فيقيمون وليمة عارمة بلحم أضحيتهم . ينقسم المتحاربون إلى فريقين من قرى أو قبائل مختلفة أو أنهم ينتمون إلى فروع قبيلة واحدة ؛ فيتألف كل فريق من اثني عشر أو عشرين شخصاً أو أكثر ويمتطي كل شخص متحارب حصاناً أو فرساً ويتمركز الفريقان على بعد خمسمائة قدم أو أكثر كل فريق على حدا . ويعدو أحد محاربي الفريق الأول باتجاه الفريق الآخر فيتحدّى محاربي الفريق الخصم . ويلحق أحد محاربي الفريق الثاني المحارب الأول الذي استفزّه ، فيأخذ في يده اليسرى جرائد قد يصل عددها إلى ستة أو أكثر ، ويبلغ طول الجريد الواحد ست أقدام أو حوالي الإنش أو الإنشين ؛ ويكون مساوياً بصورة عامة لطول شخص طويل القامة وثقيلاً جداً (لأن الجزء السفلي من عود النخل المقطوع حديثاً مملوء بالنّسغ) . ويحاول أن يدنو من خصمه قدر المستطاع ـ فتكون بينهما مسافة ذراع ـ ويروح يرمي الجريد تلو الجريد على رأسه أو ظهره حتى يفرغ . ويكون الجريد كليلاً عند طرفيه، فيرميه المتحارب من طرفه الرئيسي أولاً رافعاً ذراعه وقد يصيب خصمه أحياناً بجروح بالغة مميتة . ويحاول الذي يتلقى الجرائد هذه جاهداً إلتقاطها أو دفعها عنه بذراعه أو بسيفه المغمد أو ينطلق بحصانه بأقصى سرعة حتى لا تصيبه . ويظهر مهارته أمام الشخص الذي لاحقه بعد أن يكون صدّ هجماته ووصل إلى محطة فريقه تماماً كما فعل خصمه وتستمر هذه اللعبة التي تذكرنا بمبارزات البدو الأوائل ساعات طويلة . وهي شائعة فقط بين القبائل التي لم تستقر على ضفاف النيل لسنوات عديدة أو لقرون قليلة والتي احتفظ سكانها بالكثير من عادات البدو وتقاليدهم ولقد شاهدت بأم العين قبيل انتهاء زيارتي الأولى لهذه البلاد ثلاثة رجال وفرس يُقتلون في هذه اللعبة خلال ساعة في منبسط طية الغربي ، وإن كان نادراً أن يفقد رجل حياته في تلك الرياضة ؛ فأنا لم أسمع على الأقل بوقوع مثل هذا الحادث المشؤوم في الماضي القريب . ويستخدم اللاعبون في منطقة الدلتا جريداً لا يزيد طوله عن نصف طول الجرائد الموصوفة آنفاً تقريباً وأعمد في صفحات الكتاب التالية إلى التحدث عن أنواع رياضة لا يقوم بها المصريون إلاّ في الاحتفالات بهدف تسلية حشد المتفرجين عليهم .

الفصل الثامن عشر

١ الموسيقى

المصريون مولعون بالموسيقى إلى أبعد حدود ، ومع ذلك يعتبرون أن هذا النوع من الفن الساحر (كما الرقص) لا يستحق أن يستحوذ على مدارك رجل عاقل وهو يفجر العواطف الجياشة الكامنة فيقود المرء إلى النشوة والإنغماس في الملذات ويوقعه في بؤرة الفساد . والموسيقى حرّمها الرسول ﷺ ومع ذلك فلا تغيب عن الاحتفالات الدينية خاصة تلك التي يقيمها الدراويش . لا يتناول المصريون الموسيقى في الكثير من كتبهم التي لا يفقهها موسيقيونهم المحدثون . ويتجلى حبّهم الطبيعي للموسيقى من خلال تحكمهم بعواطفهم وانفعالاتهم وإضفاء رونق خاص على أعمالهم المتعددة الأشكال والألوان في قوالب غنائية . فهذه حال المراكبي في تجذيفه والفلاح في رفعه الماء والشيّال في أحماله الثقيلة التي تقصم ظهره ، والرجل والصبي والفتاة في مساعدتهم البنائين فينقلون لهم الحجارة والملاط ويزيلون الأوساخ ؛ وكذا الأمر بالنسبة إلى النّشار والحاصد وغيرهم من العمال الكادحين . ولا يجد الأطفال المصريون أدنى صعوبة في تعلم هذه الموسيقى رغم أن موسيقاهم من النوع الذي يصعب جداً على الغريب تعلمه أو تقليده ؛ ويحفز تعلمهم تلاوة آيات كتاب الله العزيز في مدارسهم على اختلافها على زيادة شغفهم الطبيعي للموسيقى

لا يغربَنّ عن بالنا قط ولع العرب بالعلوم والمرتبة الكبيرة التي ينزلونها فيها في الوقت الذي كانت فيه دول أوروبا غارقة في غياهب الظلمات ودوامة



عالمة

الجهل ؛ ولقد اكتسبوا من مؤلفات اليونانيين القدامى فنهلوا من بحورها الواسعة علماً وأدباً ويبدو أن المصريين وضعوا نظام موسيقاهم التي سادت في أوساطهم طوال قرون معتمدين على المصادر اليونانية في قسم منها والأبحاث الهندية والفارسية في قسمها الآخر . فكانت ولادة العبارة العربية الشائعة لتعريف هذا الفن : « الموسيقى » المستقاة من اللغة اليونانية إضافة إلى أسماء بعض الآلات الموسيقية العربية ، ولكن الموسيقيين العرب مدينون بالكثير من الأسماء التقنية إلى الفارسية والهندية . وكم يدهشنا التشابه الكبير بين الأنغام التي سمعتها في مصر وبعض الألحان الشعبية الإسبانية ؛ ولا نستغرب هذا الأمر لأن الموسيقى انتشرت فعلاً بين عرب إسبانيا وتحتوي مكتبة « الإسكوريال » على العديد من الدراسات العربية عن فن الموسيقى .والميزة الخاصة في الموسيقى العربية هي تقسيم النغمات إلى أثلاث . وسمعت مراراً الموسيقيين المصريين ينتقدون الموسيقى الأوروبية لافتقارها إلى الصوتيات ؛ إذ تضفي هذه التسلسلات الصوتية الصغيرة والدقيقة رقة خاصة على أداء الموسيقيين العرب المتميز بطابعه الكئيب . ويصعب نعت هذه الصوتيات بالدقيقة ؛ لذا فنادراً ما نلحظها في الموسيقى المصوّتة والآلاتية للأشخاص الذين لم يتعلموا أصول هذا الفن . تتميز الأنغام المصرية الشعبية المتشابهة في طابعها عامة ببساطتها بالمقارنة مع موسيقى موسيقيهم المحترفين ؛ فهي قليلة النوتات لا تحتاج إلى أكثر من سطرين موسيقين يتكرّران غالب الأحيان . وأعترف أنني شغوف بالموسيقى المصقولة التي تشنّف أذني مراراً في مصر ؛ وكلّما اعتدت على نمطها كلّما أطربتني وآنستني ؛ ولا بد أن أشير في معرض حديثي إلى أن العديد من الأوروبيين الذين التقيتهم لا يطربون مثلي للموسيقى المصرية . ويبتهج المصريون ابتهاجاً كبيراً لغناء موسيقيهم أو غنائهم ، فينهالون تصفيقاً حاراً مرددين عبارات الإعجاب والطرب كأن يقولوا : « الله ! » أو « ربّنا يحفظ لك صوتك ! » « ربنا يُقَوّيك ! ».

يُعرف الموسيقيون المحترفون من الرجال بالآلاتيين (ومفردها « آلاتي »)؛ والشائع أن يكون هؤلاء الآلاتيون مغنين وعازفين في آن معاً

والآلاتيون هم في الواقع فاسقون منغمسون في الملذات يشهبون ـ وإن بدرجة أقل ـ الراقصين الشعبيين في طبائعم ويعزفون في الحفلات الكبرى ويُدفع لهم ليسلّوا شلة السهر والسمر فيقبلون على شرب الخمر وغيره من المشروبات الروحية حتى لا يعودوا قادرين على أداء أغنية أو نقر وتر . ويتقاضى الآلاتيون في مثل هذه هذه الليالي ما يعادل ثلاثة شلينات عامة ؛ ولكنهم يحصلون غالباً على مبلغ أكبر إذ يساهم الضيوف في دفع المبلغ المتوجّب لهم .

لا يقتصر الأداء الموسيقي على الرجال فتزخر الحفلات « بالعوالم » (مفردها « عالمة ») اللواتي يحيين الحفلات التي تقام في حريم أحد الأغنياء . وقد يغنين في « الطُقَّيْسَة » أو « المُغَنَّى » ـ عبارة عن حجرة صغيرة مرتفعة مجاورة لدار الحريم ـ فيُعزلن بشعرية خشبية يغنين من ورائها أو في أي مكان آخر مناسب يحجبن فيه عن أنظار سيد المنزل في حال وجوده داخل الحريم بين نسائه. تنتقل النساء في حال اقتصر الحفل على الرجال إلى الباحة أو إلى حجرة سفلية فيسمعن أغنيات العوالم اللواتي يجلسن عادة عند حافة نافذة الحريم فتحجبهن الشعريات ؛ ومن العوالم من هن عازفات . ولقد سمعت شهيرات العوالم في القاهرة وأعترف بأنني طُربت لغنائهن أكثر من عزف الآلاتين وحتى ـ وأقولها بكل صدق ـ أكثر من أية موسيقى أدخلت البهجة إلى نفسي . والأجور الكبيرة تُدفع للعوالم . فلقد جمعت مثلاً إحداهن من ضيوف حفلة أُقيمت في منزل تاجر أكثر من خمسين جنيهاً علماً أن أحداً من الضيوف لم يكن من أصحاب الثروات المتدفّقة. وقد يبلغ إعجاب السامعين بغناء عالمة محترفة مبلغاً كبيراً فيغدقون عليها في ذروة انشراحهم وطربهم أموالاً كان بإمكانهم تجنب تبديدها . وقد نصادف في القاهرة فئة في العوالم الجديرات بأن يخلع عليهن لقب « النساء المتعلمات » لإتمامهن بعض الإنجازات الأدبية ومنهن من ينتمي إلى مرتبة أدنى ويرقصن أحياناً في الحريم ؛ ومن هنا خلط المسافرين بين مفهومي « العوالم » والراقصات الشعبية اللواتي سأتحدث عنهن في فصل لاحق في هذا الكتاب .

تتنوع الآلات الموسيقية عند المصريين ؛ وأهم الآلات التي يعزفون عليها

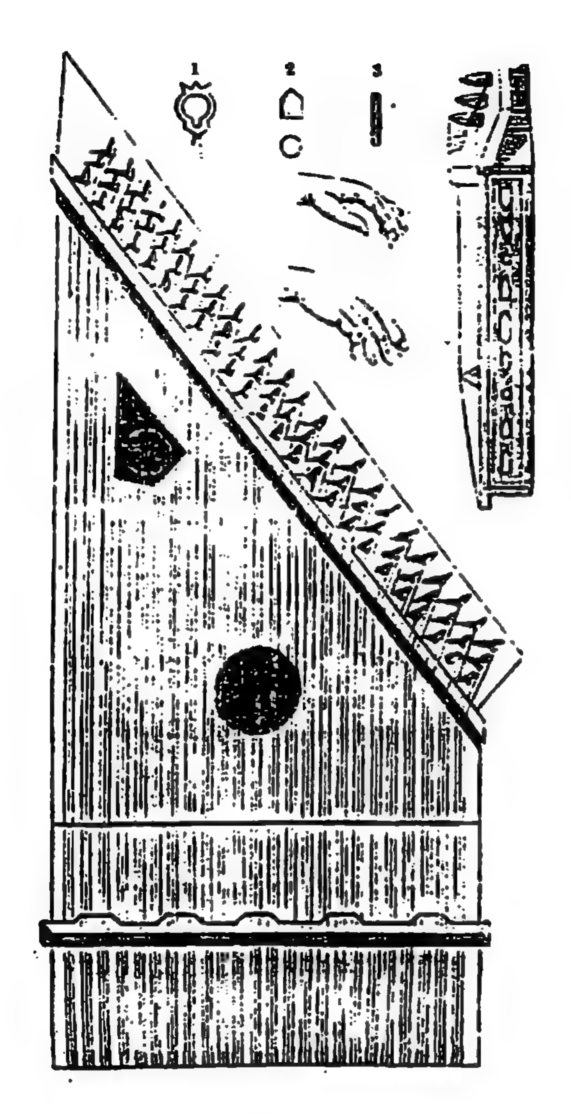
في الحفلات الخاصة هي : « الكمنجة » و « القانون » و « العود » و « الناي »

تشبه الكمِنجة الفِيول (ضرب من الكمان). والكلمة فارسية الأصل والأصح في كتابتها « كمَنجة » (بفتح الميم) التي تعني آلة قوسية . وأشير إلى



عازف كمنجه

أنني أستعنتُ بالكاميرا الإستجلائية في رسوم الآلات التي أوردها في الكتاب . يبلغ طول الكمنجة الممثلة في الصورة ثمانية وثلاثين إنشاً ، ويكون الجزء المصوّت مصنوع من جوزة ألهند وقد قطع جزء رابع منه ؛ وفي الكمنجة ثقوب صغيرة كما أن مقدّمها مشدود بقطعة من جلد سمك السَّلَور يُعرف « بالبيّاض » يقع جسر الكمنجة فوقه مباشرة . يتخذ عنق الكمان شكلاً أسطوانياً ، وهو من خشب الأبنوس المرصَّع بالعاج ؛ وأمّا مقدم هذه الآلة حيث الملاوي ومؤخرتها فمرصعان أيضاً بقطع عاجية ؛ والملاوي من خشب الزان عاجية الرأس. تكون قدم الكمنجة حديدية ، فهي تخترق الجزء المصوّت وتتركز في العنق بمعدّل خمسة إنشات عمقاً . يتألف كل من الوترين من حوالي ستين خصلة من شعر الحصان



القانون

وهما مربوطان في طرفهما السفلي إلى حلقة معدنية تقع فوق الجزء المصوّت مباشرة؛ وأمّا عند الطرف الآخر فالوتران مطوّلان بقطعة من أحشاء الحمل يثبّت

كـل منهما إلى ملواه . ويُلف شـريط جلدي مزدوج فـوق الوتـرين أدنى ملتقى الأوتـار حول عنق الكمنجـة يبلغ قوس الكمـان ثلاثـة وأربعين إنشـاً ونصف الإنش طولاً وهو بارز في رسم ص ٣٦٨. والعصا من خشب الدردار عامـة وتُشدّ خصلات شعر الحصان بعد تمـريرهـا في ثقب في رأس قوس الكمـان وتثبيتها بعقدة وربطها إلى الطرف الآخر بحلقة حديدية، ويمكن إرخاؤها بواسطة شريط جلدي يمرّ في الحلقة المذكورة وفي حلقة أخرى في قدم القوس . يقوم لاعب الكمنجـة بقلب آلتـه نحـو ستين درجـة فينقّلهـا من وتـر إلى آخـر . ويكفي « القانون » و « الكمنجة » من الآلات الوترية لتشكيل فرقة مصرية عاديـة تعزف في الحفلات الخاصة . يجلس عازف الكمنجة عادة على يمين عازف القانون أو مقابله ، ويجلس على يسار هذا الأخير عازف العود الـذي يليه عـازف الناي . وقد ينضم مغنيان وموسيقيون آخرون إلى الفرقة .

يعتبر « القانـون » من آلات الطرب الـوتريـة . والكلمة مشتقـة من اللغة اليونانية Kavwvوتعني أيضاً القانون بمعناه الشائع أي مجموعة الشرائع والنظم التي تنظم علاقات المجتمع . وقد يكون القـانون الممثـل في الصورة البيـانية التالية إنشاً أو إنشين أطول من القانون العادي. يبلغ القانـون عامـة تسعة وثـلاثين إنشاً وثلاثة أرباع الإنش طولاً كحد أقصى وأما عرضـه فستة عشـر إنشاً وعمقـه إنشين وعشر الإنش . والقانـون مصنوع أحيـاناً من خشب الجـوز بكامله خـلا بعض أجزائه التزيينية المزخرفة والقانـون الذي يـظهر في الـرسم مصنوع من ألواح خشب الصنوبر الرفيع في مقدمـه وخلفه وأمّـا أطرافـه فمن الزّان كـذلك الجزء الذي تُثبت فيـه الملاوي والحـرف (نقطة التقـاطع) الممتـد على طول حـافته الـداخليـة حيث تمـر الأوتـار . والمـلاوي من خشب الحـور أمّـا الجسـر فمن الصنوبر الرفيع. وتتمركز وسط وجـه القانـون قطعـة خشبية مستـديرة ضـاربة إلى الحمرة ذات ثقوب إضافة إلى قطعة خشبية مثقوبة مماثلة نحو زاوية وجهـه الحادة . تقع خمس فتحات مستطيلة في الجزء من الوجه حيث الجسر متماثلة مع أقدام الجسر الخمس. وتلتصق بهذا الجزء قطعة من قشر السمـك تبلغ تسعة إنشات عرضاً كما ترتاح أقـدام الجسر الخمس على أجـزاء قشر السمـك التي

تغطي الفتحات الخمس المذكورة آنفاً فتخفضه بعض الشيء . تتشكـل الأوتار من أحشاء الحمل بمعدل ثلاثة أوتار لكل نوتة أي بمجموع أربعة وعشرين وتراً ثلاثياً. يُكسى الجانب الأقصر في هذه الآلة بطبقة من خشب الجـوز مرصعـة بأم



عازف قانون

اللآلىء يستخدم العازف في عزفه القانون ريشتين واضعاً كل ريشة منهما في سبّابتيه . والريشة صغيرة الحجم رقيقة مأخوذة من قرن الجاموس يلبسها العازف بين الإصبع والخاتم أو الكشتبان وهي من النحاس المسـطح يجعل العـازف قانونه على ركبتيه استهلالاً للعزف ؛ والقانون من الآلات المصرية التي تطربني أنغـامـه إذا أجـاد العـازف العـزف عليـه دون مشـاركـة آلـة أخـرى فـي الأداء الموسيقي ؛ وهو من الآلات المهمة في الفرقة الموسيقية .

ننتقل إلى « العود » وهو آلة تُستخدم الريشة للعزف عليه تشبه المـزهر ، وقد كان العود طوال قرون طويلة الآلـة الأكثر شيـوعاً التي عـزف عليها أفضـل

الموسيقيين العزب ومجدّها الشعراء في قصائدهم . وأصل الكلمة Wood بالإنكليزية ، وقد سبقته أداة التعريف البادئة « ال » وهو يصب في مصدر واحد مع عبارة Liuto في الإيطالية أو Lute في الفرنسية . ويبلغ العود كما في الرسم من زاوية عنقه خمسة وعشرين إنشاً ونصف الإنش طولاً . وهو في خشب الصنوبر وأمّا حافاته وعنقه فمن الأبنوس ؛ ويكون العنق مكسواً بالأبنوس ومغطى بخشب البَقْس وأبنوسي الحافة . تُلصق بوجه هذه الآلة حيث نجد « شَمْسَة »



عازف عود

كبيرة وأخريين صغيرتين من الأنوس قطعة من قشر السمك بالتحديد تحت الجزء من العود الذي يحوي الريشة فلا تُبلي الريشة الخشب . وللعود سبعة أوتار مضاعفة بمعدل عودين لكل نوتة ، والأوتار مأخوذة من أحشاء الحمل . تُرتبُ هذه الأوتار المضاعفة بطريقة مميزة ويقابل الوتر المضاعف للنوتة المنخفضة وتر النوتة الأعلى في الكمان الغربي . ويلي هذا الوتر مرتبة الوتر الخامس (وقد اعتبرنا الوتر السابق الوتر الأول) والسابع والثاني والرابع والسادس والثالث . وريشة العود من ريش النسر .

يلي العود « الناي » مرتبة وهو الآلة الرابعة والأخيرة في مجموعة الآلات التي فصّلتها المستخدمة في الحفلات الخاصة وهو يشبه « الفلوت » (من آلات النفخ). تتعدد أنواع الناي التي تختلف في أحجامها عامة . ولقد التصق الناي بالدراويش فشاع تعبير « ناي الدراويش » لأنه يستخدم في إحياء حلقات ذكرهم فيرافق أغاني « المنشدين ». والناي من القصب البسيط يبلغ نحو ثمانية عشر إنشاً طولاً وسُبع ثمن الإنش في طرفه السفلي ، وله ستة ثقوب في مقدمة وثقب آخر في خلفه . ويكفي أن ينفخ العازف في فتحة صغيرة جداً مقرّباً شفتيه من حافتها وموجهاً الهواء داخله حتى تنطلق النغمات . وتحدث النغمات طبقة عالية أو منخفضة حسب نفخ العازف في الناي . وتنطلق النغمات من يدي عازف ناي محترف جميلة رخيمة ؛ والأمر يتطلب تمرساً أكبر في العزف حتى يتجلى الصوت واضحاً . وقد يصنع الناي أحياناً في جزء منه من برميل البارود .

يعتمد العازفون في عزفهم على آلة أخرى في حفلاتهم الخاصة هي « الرّق » عبارة عن دف صغير . ومن الآلات الشائعة في الحفلات في مصر « الطمبور » (الطارة) ضرب من الماندولين . والطمبور آلة اليونانيين وغيرهم من الغرباء خاصة . يستخدم العازفون كذلك « السنتير » الذي يشبه القانون عامة ، إلاّ أنه يتميز بجهتين منحرفتين بدلاً من جهة واحدة (تكون الجهتان المتقابلتان منحرفتين معاً) كما أن له أوتاراً سلكية مضاعفة بدلاً من الأوتار الثلاثية المصنوعة من أحشاء الحمل ويعتمد العازف على قضيبين بدلاً من الريشة الصغيرة .

أمّا « الرّبابة » وهي ضرب غريب من الفيول فرفيقة المغنيين الفقراء . والربابة نوعان : «ربابة المغني» « وربابة الشاعر »؛ والفرق الوحيد بينهما أن للربابة الأولى وترين بينما تنفرد الثانية بوتر يتيم ، ويمكن تحويلها إلى ربابة مغني بفضل الملويين اللذين تتمتع بهما . يبلغ طول الربابة إثنين وثلاثين إنشاً وهي محدّدة بإطار خشبي ويغطى وجهها بالبرشمان (الرّق) ويبقى خلفها مكشوفاً . والربابة حديدية في قدمها يشبه وترها المصنوع من شعر الحصان أوتار الكمنجة . وأمّا قوسها فثمانية وعشرون إنشاً طولاً كما الكمنجة. يعزف على

الربابة رواة قصص أبي زيد الشعبية في غنائهم الشعر . يُعرف راوي القصة بالشاعر ومن هنا تسمية الربابة « بربابة الشاعر » أو « ربابة أبي زيد » ويعزف الشاعر بنفسه على هذه الآلة ويرافقه عازف آخر على ربابة أخرى مثلها .

تتميز أعراس المصريين واحتفالات الدراويش بآلة خاصة يتردَّد صداها في الآذان هي « الزّمر » والطبول على اختلاف أنواعها التي من أهمّها : « الطبل البلدي » (وهو الطبل المصري) و « الطبل الشامي » . يشبه الطبل البلدي الطبل العسكري المعروف في إنكلترة وإن لم يكن بالعمق عينه وهو يعلّق بشكل منحرف . وأمّا الطبل الشامي فضرب من النّقارية من النحاس القصديري ذات وجه برشماني . يبلغ قطر هذا الطبل عامة حوالي ستة عشر إنشاً ولا يزيد عمقه عن أربعة إنشات في الوسط ويستخدم قضيبان رفيعان للضرب عليه ، ويعلّقه العازف إلى رقبته بواسطة حبل معلق إلى حلقتين مثبتتين إلى حافة الآلة .

لا ننسى « النّقاقير » (مفردها « نقّارة ») وهي ضرب من الطبلة الكبيرة المزدوجة حاضرة دائماً في معظم الإحتفالات الدينية المرتبطة بمناسك الحج التي تجري في القاهرة عامة . والنقّارتان من النحاس متشابهان شكلاً ، يبلغ كل واحد منهما نحو ثلثي دائرة ولكنّهما غير متساويين حجماً ؛ إذ ترتفع الجهة المسطحة للنقارة نحو القدمين أو ما يزيد في قطرها بينما يصل قطر النقارة الثانية إلى قدم ونصف القدم تقريباً . تثبت النقاقير فوق ناقة وتُعلق إلى الجهة المقدمية من السرج حيث يجلس ضارب النقاقير ممتطياً الناقة فيجعل النقارة الأكبر على يمينه .

يستخدم الدراويش في الإحتفالات الدينية وفي التسول طبلاً صغيراً يُعرف «بالباز» ، يبلغ قطره نحو سبعة إنشات ويحمله الدرويش في يده اليسرى فيدفعه نحو وسط ظهره قليلاً ويضرب عليه بواسطة طوق جلدي قصير أو عصا . كما يستخدمون الصنّاجات المعروفة بـ «الكاس» في مثل هذه المناسبات. يلجأ « المُسَحِّر » إلى الباز ، لإيقاظ النيام في ليالي رمضان ، وتطقطق الراقصات « بصاجاتهن » ويحذو الراقصون حذوهنّ تضع كل راقصة زوجين من

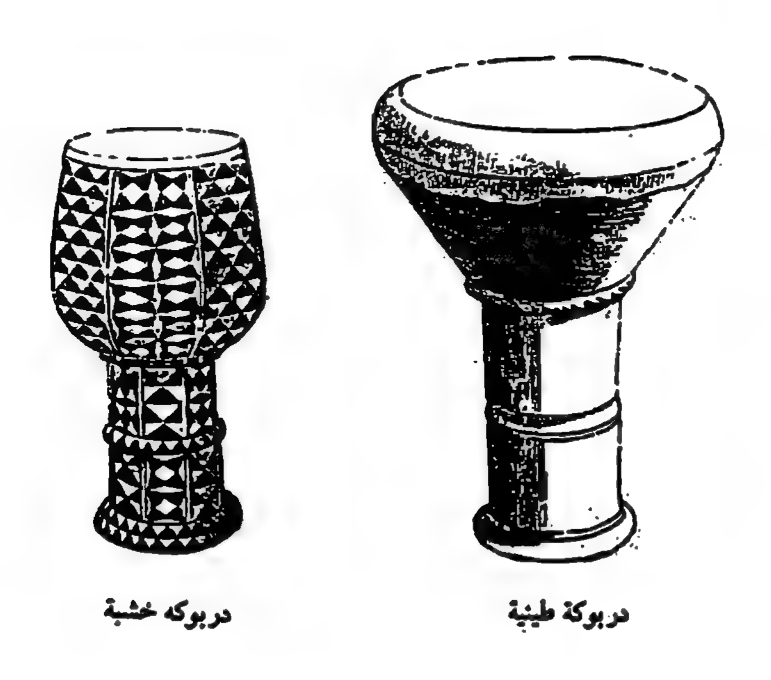
الصاجات في يديها وتثبّت الواحدة منها بحلقة معدنية بين الإبهام والسبابة فتحدث صوتاً ممتعاً أجمل من صوت الصناجات الخشبية أو العاجية . . يقودنا الحديث عن آلات العزف إلى آلتين شائعتي الإستعمال في حريم شخص معتدل



١ ـ الصاجات / ٢ ـ الطار

الثروة يُعتبران من وسائل التسلية والترفيه عند النساء . الآلة الأولى هي «الطار» وهو ضرب من الرِّق ـ كما يظهر في الرسم الأعلى ـ يبلغ قطره حوالي أحد عشر إنشاً ويكسى طوقه بأم اللآلى والذَّبل (عظم ظهر السلحفاة) والعظم الأبيض أو العاج إضافة إلى عشر حلقات دائرية نحاسية معلّقة إليه ؛ ويخترق سلك معدني كل زوجين من هذه الحلقات في وسطهما . يُرفع الطار باليد اليسرى أو اليمنى ويُضرب اليه بأصابع اليدين الإثنتين معاً. وتحدث أصابع اليد الحاملة للطار والضاربة بالقرب من الطوق فحسب أصواتاً أعلى في اليد الأخرى الضاربة في الوسط . كذلك ينقر أبناء الطبقات الدنيا على رق أكبر وأكثر بساطة من الطار تغيب عنه الحلقات المعدنية . أمّا الآلة الثانية التي أشرت إليها في بداية هذه الفقرة فهي « الدَّربوكة ». وأفضل الدربوكات تلك المصنوعة من الخشب والمكسوة بأم اللآلىء والذَّبل . . . والدربوكة خمسة عشر إنشاً طولاً ومغطاة بقشر السمك عند جانبها الأوسع وهي مفتوحة عند الجانب الأصغر . تُجعل الدربوكة تحت اليد اليسرى وتكون معلقة عامة بواسطة حبل يمر فوق الكتف اليسرى ويضرب عليه حامله بكلتي يديه. وهو يحدث كالطار تماماً أصواتاً

مختلفة عندما يضرب بالقرب من الحافة في الوسط . ومن أنواع الدربوكة الأخرى تلك المصنوعة من الطين والمختلفة في شكلها قليلاً عن الدربوكة الخشبية . ويظهر الرسم التالي نموذجين مختلفين من الدربوكة . ينقر مراكبيو



دربوكة طينية　　　　دربوكه خشبة

النيل عادة على دربوكة طينية أكبر حجماً من تلك المستخدمة في الحريم ويتراوح طول تلك الدربوكة عامة بين قدم ونصف القدم وقدمين ويلجأ إليها بعض رواة القصص من دون المستوى .
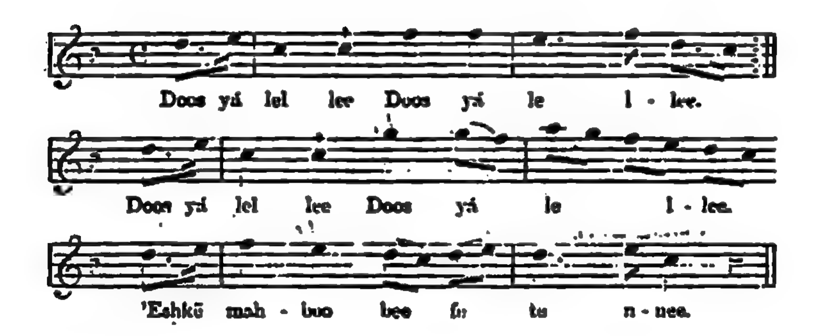
يُرفق المراكبيون بالدربوكة مزماراً قصبياً مضاعفاً يعزف « بالزُّمارة » إضافة إلى نوع آخر هو « الأرغول » تكون إحدى قصبتيه أطول بكثير من القصبة الأخرى وتستخدم كصوت عميق مستمر . وقد يحل الأرغول أحياناً محل الناي في إحياء حلقات الذكر . يطلق نوعا المزمار : « الأرغول » و « الزّمارة » أصواتاً جشة ويشابه صوت الناي الصوت الذي يحدثه مزمار القربة . أمّا « الزّمارة بالصُّوان » الجشة الصوت فنادرة الإستعمال في مصر وهي مغطاة بجلد الماعز .

وأختتم الفصل بنماذج من الموسيقى المصرية خاصة الأغاني الشعبية وأوردها بالطريقة المغناة بها عامة فلا أضفي عليها زخرفات « الآلاتيّة ». ولا بد من الإشارة إلى أن الألحان الواردة لا تلتزم بالكلمات التي ترافقها بالضرورة ، ولكنها متشابهة في معناها تتكرّر فيها الكلمات البذيئة السطحية وأوجه الإستعارة المبتذلة ، علماً أن أصوات مؤدي هذه الأغنيات واضحة في لفظها متهدّجة في أدائها .

الأغنيات

الأغنية الأولى

(تجدر الإشارة أن الأغاني ننقلها كما هي واردة في العاميّة المصرية).



اللازمة	«دوس يـالَـلَّي دوس يـالَـلَّي
(ثلاث مرات)	عـشـق مـحـبـوبـي فـتـنّـي »
	« مـا كـلّ مـن نـامـت عـيـونـه
	يـحـسـب الـعـاشـق يـنـام

والله أنا مغرم صبابه
لَمْ على العاشق ملام»

«يا شيخ العرب يا سيِّد
تجمعني على الخِلّ ليله
وِنْ جاني حبيب قلبي
لأعملّو كشمير دُلّيلَه»

«كامل الأوصاف فتنّي
والعيون السود رمتوني
من هواهم صِرت أغني
والهوى زَوّد جنوني»

«جَمَعوم جمع العوازل
عن حبيبي يمنعوني
والله أنا ما أفوت هواهم
بالسيوف لو قَطّعوني»

«قوم بنا يا خِلّ نِسْكَر
تحت ضِلّ الياسمينة
نقطف الخوخ من على أُمّه
والعوازل غَافْلِيني»
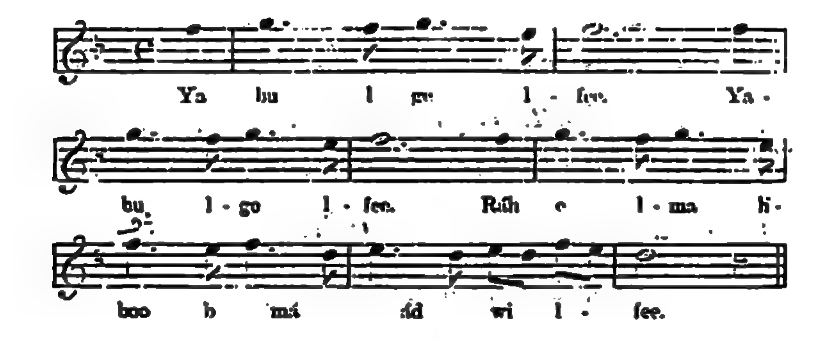
«يا بنات جُوّا المدينة
عندكم أشيا تمينه
تلبسو الشّاطح بِلُولي
والقلّادة على النّهد زينه»

«يا بنات إسكندريه
مَشْيُكم عالفرش غِيّه

تـلـبـسـو الـكـشـمـيـر بِـطِلّه
والـشّـفـايـف سُـكَـرِّيـه »

« يـا مِـلاح خـافـوا مـن الله
وأرحـمـوا الـعـاشـق لله
حُـبُّـكـم مـكـتـوب مـن الله
قـدر الـمـولـى عـليّ »

الأغنية الثانية



اللازمة :

«يـا بـو الـجـلفِ يـا بـو الـجـلفِ
راح محـبـوبي مـا عـاد وِلـفـي»

« راح الـمـرسـال وَلَـمْ جـاشِ
وعـيـن الـحـب تـراشِ
يـا بـو الـجـالـف يـا بـو الـجلفِ
يـا رتـنـي مـا آنـشـبـكـنـاشِ
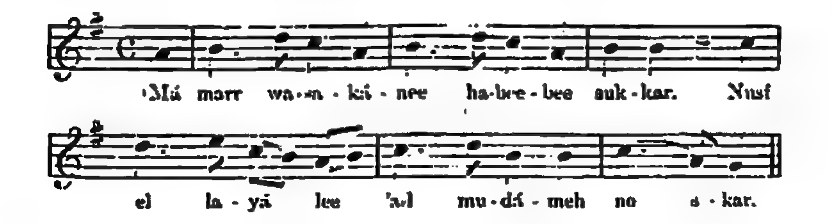
يـا بـو الـنجـلفِ »

« ولِّـي يـا عـيـن شـبـكـتـيـنـا
ويـاالألـحـاظ غـرّتـيـنـا
يـا بـو الـجلفِ يـا بـو الـجلفِ
بـالله رِقّ وآشـفـيـنـا
يـا بـو الـجـلفِ »

« أسْـقَـمْـتـنـي يـا حـبـيـبي
ومـا قـصـدي إلاّ طـبّـك
فـايـن قـلـبي يـحـبّـك
حـبيب قـلبـي خـلّيـك عـنـدي »

« ده الـحـب جـاني يـتـمـايـل
وسُـكـري حـال جـفـوني
مـدّيـت إيـدي آخُـذ الـكـاس
سِـكـرت أنـا مـن عـيـونـه
يـا بـو الـوردي »

الأغنية الثالثة



« مـا مَـرّ وسـقـانـي حـبـيـبي سُـكَّـر
نـصـف الـلـيـالـي عـالـمُـدامَـه نـسـكـر

نـدرٍ عـليَّ وِنْ عـطى مـحـبـوبـي
لأعَمَـل عَمَـايـل مـا عـملهـاشِ عـنـتـر »

« يـا بـنت مِلِيـنـك داب وِبَـانِـتْ إيـديـكِ
وَخَـاف عـلـيـك مـن سـواد عـيـنـيـك
قـصـدي أنـا أسـكـر وبـوس خـدّيـك
وأعـمـل عـمـايـل مـا عَمَلهـاشِ عنـتـر »
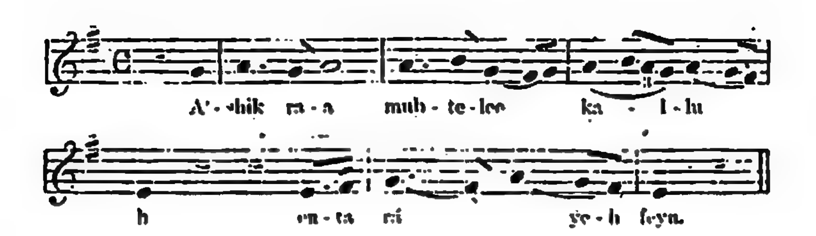
« فَـايْـتَـه عـليَّ مَـالْـيَـه الأرجـيـله
ومَـيَّـة الـمُـوَرْدي فـي الأرجـيـله
أتَـاري الـبِـنَـيَّـة عَـامْـلاَهـا حـيـله
مِتَى تـقـول لـي تـعـال يـا جَـدَع نـسـكـر »

« طـول الـلـيـالـي لَـمْ يـنـقـطـع نـوحـي
عـلى الـغـزال الـمُـفْـرَد واخِـد روحـي
نـدرٍ عـليَّ وَنْ عـطى مـحـبـوبـي
لأعـمـل عـمـايـلِ مـا عـملهـاش عـنـتـر »

« يـا دمـع العين على الـخـدود مين حَلَّك
قـال لـي بِـزِيـدَك شـوق عـلى بُـعـاد خِـلَّك
إرحـم مُـتـيَّـم يـا جـمـيـل مـشـغـول بَـك
يِـعْـمى عيـون يِبلِّي مـا يـحـبُّـك يـا آسـمـر »

« أسـمـر وهـاوي الـوردتـيـن الـبـيـض
حُـبِّـي تـخـلَّق فـي لـيـالـي الـعـيـد
نـدرٍ عـليَّ وَنْ عـطـانـي سـيـدي
لأعـمـل عـمـايـل مـا عـملهـاش عـنـتـر »

الأغنية الرابعة
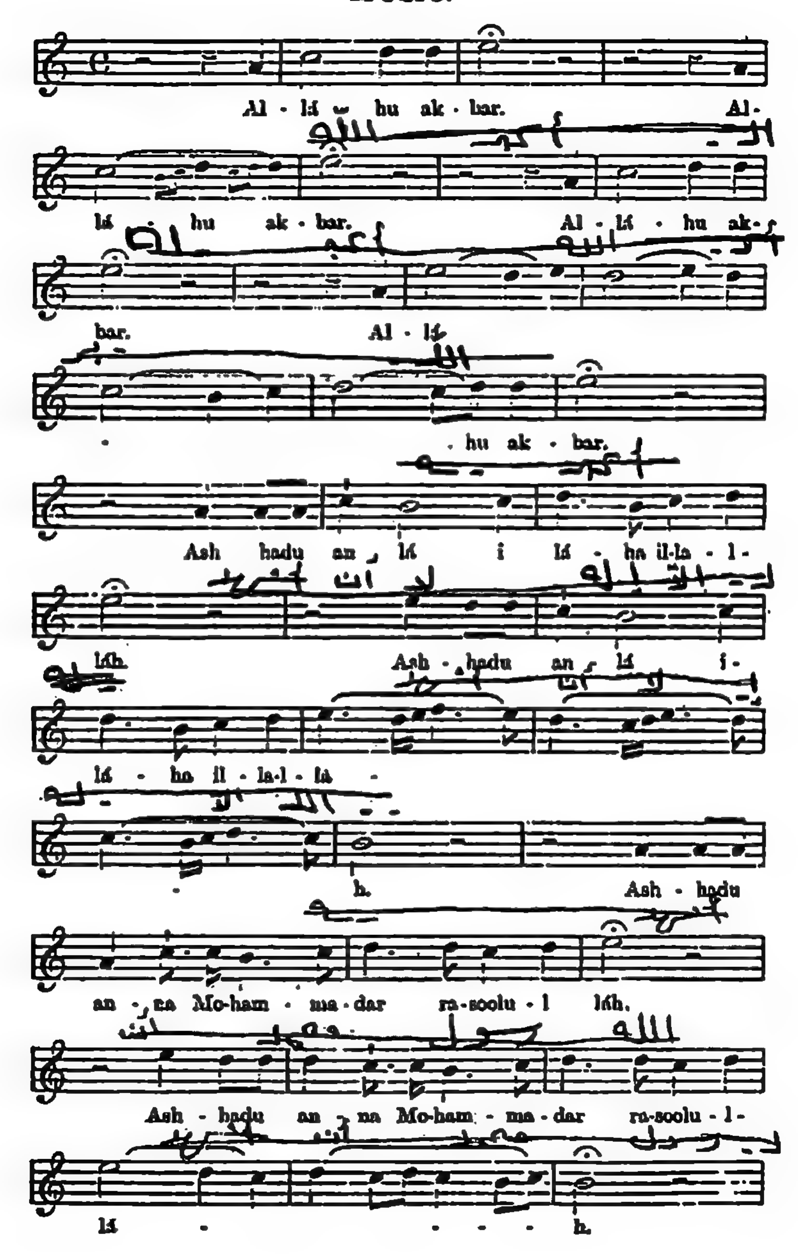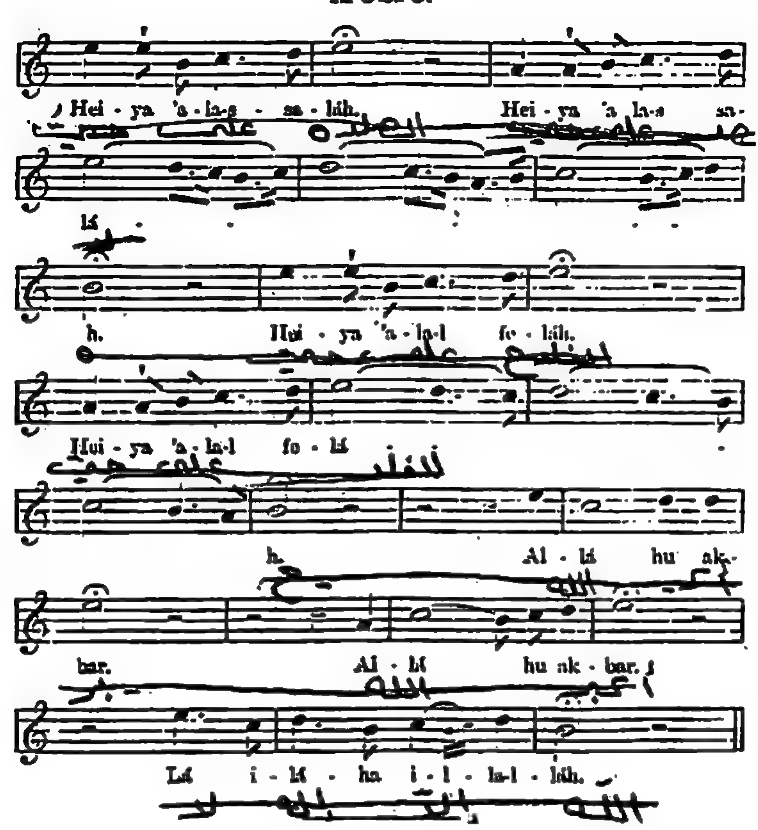


عــاشـق رأى مُبْتَـلي قــلُّــوه إنـت رايــح فـيـن
وقـف كَـرٍّ قِـصَّـتـه : بْـكـيــوم ســوا الإتـنـيــن
رَاحُــوم لقــاضي الهــوى الإتنين ســوا يشكــوم
بــكـيــوا تَــلاتــة وقــالــوا حُـبِّـنــا راح فــيــن
الليل الليل يا حلو الأيادي : حاوي الخوخ النَّادي
إنـتـم مِـنـيـن وَحْـنَـا مـنـيـن لـمّـا شـبـكـتـوبـي »

« عـاشق يقول للحمـام : هات لي جنـاحـك يـوم
قــال الحمـام أمــرك بــاطــل قلتُ غير اليــوم
حتّى أطيــر في الجــو ونــزور وجــه المحبــوب
آخُــد وِدَاد وأرْجَــع يــا حــمــام فــي يــوم
الــلـيــل الــلـيــل »

الدعوة إلى الصلاة
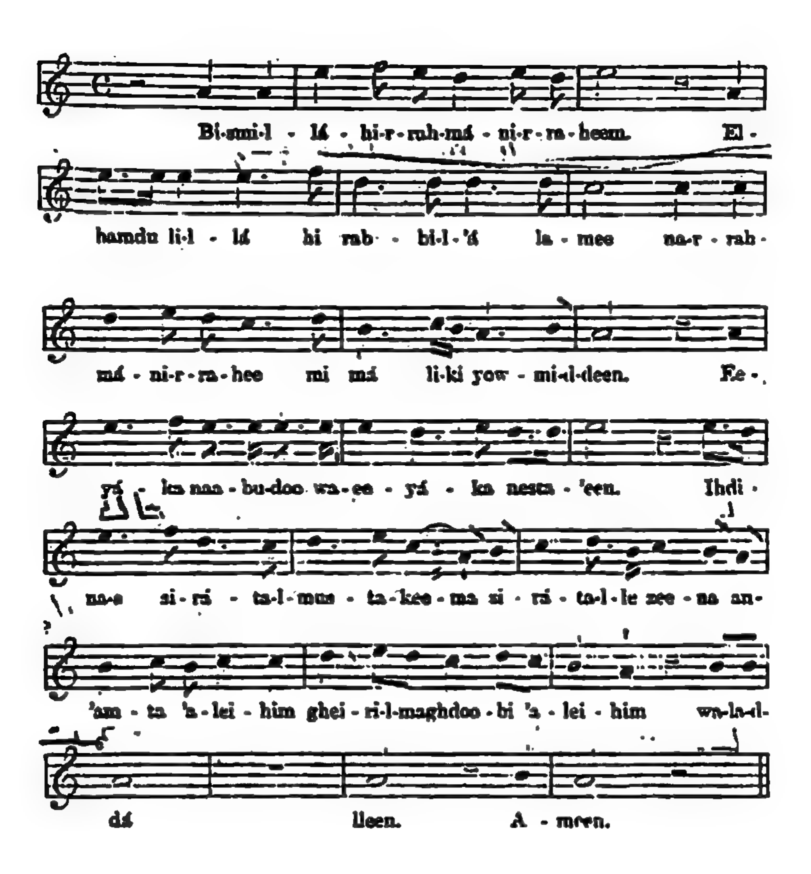
أورد في ما يلي الدعوة إلى الصلاة كما ترفعها مآذن الجوامع في القاهرة ؛ وأشير إلى أن التلاوة متشابهة تقريباً بين معظم موذّني المدينة) ـ


Al - lá - hu ak - bar. Al-
lá hu ak - bar. Al - lá - hu ak-
bar. Al - lá
- hu ak - bar.
Ash hadu an lá i lá - ha il-la - l-
láh. Ash - hadu an lá i-
lá - ha il - la-l - lá -
h. Ash - hadu
an - na Mo-ham - ma - dar ra-soolu - l láh.
Ash - hadu an - na Mo-ham - ma - dar ra-soolu - l-
lá - - - - h.


Hei - ya 'a - la-s - sa - láh. Hei - ya 'a - la-s sa-
láh.
Hei - ya 'a - la-l fe - láh.
Hei - ya 'a - la-l fe - láh.
Al - láh hu ak-
bar. Al - láh hu ak - bar.
Lá i - lá - ha i - l - la-l - láh.

تلاوة القرآن .

أورد الآن سورة الفاتحة التي يردّدها المسلمون المصـريون دائمـاً فأبيين كيفية تلاوتها .



الفصل التاسع عشر

الـــرقص

اشتهرت مصر طويلاً براقصاتها الشعبيات وأشهرهن على الإطلاق المنتميات إلى قبيلة « الغوازي »[1] وتعرف الواحدة منهن « بالغازية » والرجل « بالغازي »؛ بيد أن عبارة « الغوازي » تطلق عامة على النساء وقد عرضت مفصلاً الخطأ الذي يقع فيه معظم الوافدين إلى مصر الذين يخلطون بين العوالم ـ وهن المغنيات ـ وبين الراقصات الشعبيات المنتشرات في هذه البلاد . ترقص الغوازي سافرات الوجه في الشوارع العامة فيسلّين حتى الرّعاع من القوم ، ولا يتّسم رقصهن بأدنى لباقة أو أناقة . وهن يبدأن الرقص بشيء من الذوق ولكنهن ما يلبثن أن يحولنه إلى استعراض راقص فيغزلن اللواحظ ويضربن الصناجات ويزدن من خفة الحركات والخطوات فيصدق فيهن وصف « مارشل » و « جوفينال » Martial and Juvenal لراقصات « قادس » Gades . وأثواب رقصهن مشابهة لأثواب نساء الطبقة المتوسطة التي يرتدينها في حلقاتهن الخاصة ـ أي داخل الحريم ـ وهي تتألف من « اليلك » و « الشنتيان » من القماش الأنيق . وتتزين هؤلاء الراقصات بحلى مختلفة ويرسمن أطراف اللواحظ

---

(١) نشير إلى أن الحكومة المصرية منعت الدعارة ورقص الفتيات العام في مطلع يونيو ١٨٣٤ . والمرأة المخالفة لهذا القانون تُجلد خمسين جلدة للإنتهاك الأول ؛ وإذا تكرّرت الانتهاكات يُحكم عليها بالأشغال الشاقة لسنة أو أكثر ؛ وأمّا الرجل فيجلد بالعصا على أخمص قدميه عند ارتكابه مثل هذه الأعمال المشينة .

بالكحل ورؤوس أصابعهن وراحات أيديهن وأقدامهن بالحنّاء الأحمر وفقاً لعادة نساء الطبقتين المتوسطة والغنية . ويرافقهن عادة موسيقيون (معظمهم من القبيلة الواحدة) يعزفون على الكمنجة والرّبابة والطّار والدربوكة والزُّمارة أو الزّمر . وتحمل الطار عادة امرأة عجوز .

ترقص الغوازي في باحات المنازل أو الشوارع وأمام الأبواب في بعض المناسبات الإحتفالية التي تتم داخل الحريم كالإحتفال بولادة طفل أو زواج . ولا يُرحَّب بهن قط في حريم حسن السمعة ويدفع لهن للترفيه عن الرجال في منزل أحد الفاسقين المنحرفين . وبديهي القول إن في رقصهن إثارة أكبر من رقص غيرهن . ويكتفي بعضهن في حلقة الرجال الخاصة بارتداء « الشنتيان » و « التّوب » الرّقيق كالشاش فيفتحنه نصف فتحة . ويخمدن آخر جذوات العفة في نفوسهن فيحملن كؤوس المُدام وأصناف أخرى من المشروبات الروحية . ويستحيل عليّ المضي في وصف ما يعقب من مشاهد يقشعر لها البدن أزدراءاً .

غنيّ عن التعريف أن الغوازي هن أكثر المحظيات المصريات خلاعة وتهتكاً . والكثيرات منهن متأنقات آيات في الجمال مترفات الملبس ، وأخالهن أجمل نساء مصر . يتمتع بعضهن بأنف معقوف بخجل؛ ولكنهن يشبهن عامة باقي نساء هذه البلاد في ملامحهن عامة . وتستسيغ النساء كما الرجال مشاهدة رقصهن وينفر منهن العديد من أبناء الطبقات العليا والأكثرهم تمسكاً بأهداب الدين الحنيف .

تتميز الغوازي عامة بوجه يختلف اختلافاً بسيطاً عن باقي المصريات فلا نشك أنهن ـ كما يؤكدون أنفسهن ـ من عرق خاص. ولا نعرف بالضبط أصلهن فهن يطلقن على أنفسهن اسم « البرامكة » ويفتخرن أنهن متحدرات من سلالة هذه العائلة المشهورة التي خضعت بعد حياة عز وأبّهة إلى حكم « هارون الرشيد » الطاغي والتي نقرأ عنها في العديد من قصص « ألف ليلة وليلة ». ولفت أحد أصدقائي انتباهي مؤخراً إلى أنّه ليس من حق « الغوازي » إلحاق أنفسهن بالبرامكة لأنهن يشبهن تلك العائلة في تحرّرها ، فتحرّرهن من نوع

مختلف. ونعثر في العديد من مقابر المصريين القدامى على رسوم لنساء يرقصن في احتفالات خاصة على أنغام آلات متنوعة بطريقة مشابهة لرقص الغوازي المحدثات ؛ ويمكننا القول إنهن أكثر تحرراً في رقصهن . وتظهر هذه الرسوم راقصات في حالة عري تام بحضور رجال ونساء من أصحاب المقامات الرفيعة ؛ وهي تحمل أسماء ملوك عاشوا في مصر في العصور السالفة الغابرة حتى قبل هجرة الإسرائيليين . وقد استمر هذا الرقص على الأرجح دون توقف وقد تكون الغوازي المحدثات متحدرات من طبقة الراقصات اللواتي أمتعن المصريين برقصهن زمن الفراعنة الأوائل. ونستنتج من تشابه رقصة الفَنْدانغو الإسبانية fandango وصولاً إلى رقص الغوازي أن هذا النوع من الرقص أدخله الفاتحون العرب إلى إسبانيا وقد اشتهرت نساء «قادس» (وتعرف بـ Cadiz)



الغوازي

المعـروفات بـال Gaditanae بمثل هـذا الأداء الراقص زمن الأبـاطرة الـرومان الأوائل ولا نستبعد احتمال أن تكون هذه الطريقة في الرقص قد انتقلت إلى إسبانيا من الشرق على أيدي الفينيقيين(*) رغم شهرة إسبانيا طويلاً به .

تميز الغوازي أنفسهن عن الـطبقات الأخرى فيمتنعن عن الزواج بـرجال ليسوا من أبناء قبيلتهن . وقد تنذر الغازية نفسهـا أحيانـاً للتوبـة فتقترن بعـربي محترم لا يلحق به خزي أو عار من ارتباطه هذا. وتُرَبّى كل الغوازي على القيـام بأعمال تقوم على الفساد والرشوة ولا ينشـأن كلهن كراقصـات؛ ولا تكاد غـاليتهن تتـزوّج حتى يبدأن مهنـة الفساد والـرشوة . يكـون الزوج تـابعـاً لـزوجتـه ، فهـو خادمها وقوّادها وعازفها الخاص إن كانت راقصـة . وقليلون هم الرجـال الذين يكسبون رزقهم بعملهم كحدادين أو سمكريين. وترحب الغـوازي بالفـلاح الأكثر فقراً إن كان باستطاعته دفع مبلغ ولو زهيد من المال. وهنّ رغم امتلاك العديدات منهن لثروات طائلة وحلى غالية يشبهن في عاداتهن « الغجريات » اللواتي يعتقد البعض أنهن مصريات الأرومة. والملاحظ أنّ الغجريات في مصر يزعمن غـالب الأحيان أنهن متحدرات من فرع من العائلة نفسها التي تزعم الغوازي إنتسابهن لها. بيد أننا لا نقيم لمزاعمهن اعتباراً كبيراً كما الغوازي لأنهن لا يتفقن في الرأي حول هذه النقطة . وسأعمد إلى التوسع في الحديث عنهن في الفصل اللاحق . ولا تختلف لغة الغوازي العادية عن لغة باقي المصريات ولكنهن يعتمدن أحياناً بعض الكلمات الخاصة بهن حتى لا يفهم الغربـاء حديثهن. والغـوازي مسلمات ويرافق بعضهن قافلة الحجاج المصريين إلى مكة المكرمة ، وتتواجد العديدات منهن في كل مدينـة مصريـة فَيَسْكُنَّ في قسم من الحي مخصص لبنات الهـوى. ولا تعدو منازلهن عن كونها أكواخ بسيطة أو سقائف مؤقتة يأوين إليها أو هي مجرد خيام ينصبنها فهن في حط وترحال دائمين من مـدينة إلى أخـرى . وقد يستقـر

(*) من المحتمل أن يكون رقص ابنة هيروديّا من نوع الـرقص الموصـوف في هذه الفقـرة (أنظر إنجيل مرقس ٦/٢١ ـ ٢٢) .

بعضهن في منازل فسيحة فيمتلكن الجاريات السود (فيغنين ثرواتهن من مسلك الدعارة الذي يجرين فيه) والجمال والحمير والأبقار ويتاجرن بها . وهن يحضرن كل الإحتفالات الدينية الكبرى وغيرها فيلفتن الأنظار إليهن ، وينصبن كذلك الخيام في مثل هذه المناسبات ـ وقد يُضِفن مفاتن أخرى إلى مفاتنهن في فن الغناء فيضاهين العوالم العاديات . ترتدي غوازي الطبقة الدنيا زي بنات الهوى المنتميات إلى الطبقة عينها ومنهن من يضفن ثوباً شفافاً كالشاش فوق قيمصهن والشنتيان وطرحة من الكريب أو الموسلين ؛ ويتزيّنّ بالحلى والعقود والأساور والخلاخل ويتدلى صف من القطع الذهبية فوق جبهاتهن ويثبّتن حلقة معدنية إلى أنوفهن . ويعشقن تحديد عيونهن بالكحل والحنّاء . تطلق راقصات أخريات وبعض المحظيات على أنفسهن اسم « الغوازي » ولكنهن في الواقع لا ينتمين إلى قبيلة هؤلاء الأخيرات .

يحاول بعض المصريين إقناع ذواتهم بأن لا شيء غير محتشم في رقص الغوازي . والمشكلة أن الرقص تؤديه فتيات لا يجوز أن يظهرن سافرات على هذا النحو لذا يستخدمون راقصين يؤدون الرقص بطريقة مشابهة ؛ بيد أن عدد « الخوالي » (مفردها « خوال ») ـ وهذا اسم الراقصين من الرجال ومعظمهم من الشبان ـ ضئيل جداً. والخوالي مصريو المولد مسلمو الديانة يقلدون الغوازي في طريقة رقصهن أحسن تقليد ويضبعون الصناجات في أيديهم ؛ وحتى لا يخالهم الناس نساءاً حقاً يرتدون زياً يناسب مهنتهم المخالفة لطبيعتهم بين زي الرجال والنساء يتألف من سترة ملاصقة لأجسادهم وحزام وتنورة تحتانية ويأتي مظهرهم العام قريباً من مظهر النساء أكثر منه من الرجال. ويتركون شعرهم ينسدل على أكتافهم ويعقصونه جدائل على غرار النساء وينزعون الشعر عن وجوههم عندما يبدأ بالبروز ـ ويقلدون النساء كذلك في رسم جفونهم بالكحل وصبغ أيديهم بالحناء . وعندما لا يشغلهم رقص في الشوارع يغطون وجوههم ليس بدافع الخجل ولكن محاكاة لعادات النساء . ويفضلهم الناس على الغوازي ليرقصوا في باحات المنازل أو أمامها بمناسبة زفاف أو ولادة طفل أو عملية ختان ؛ وهم غالباً ما يرقصون في الحفلات العامة .

تعرف القاهرة فئة أخرى من الراقصين الذكور من الشبان والصبية يشبهون الخوالي في طريقة لباسهم ومظهرهم العام وأدائهم الراقص ويطلق عليهم اسم « الجنك » والكلمة تركية الأصل ترمز إلى طابعهم ؛ و« الجنـك » هم عادة من اليهود والأرمن واليونانيين والأتراك .

الفصل العشرون

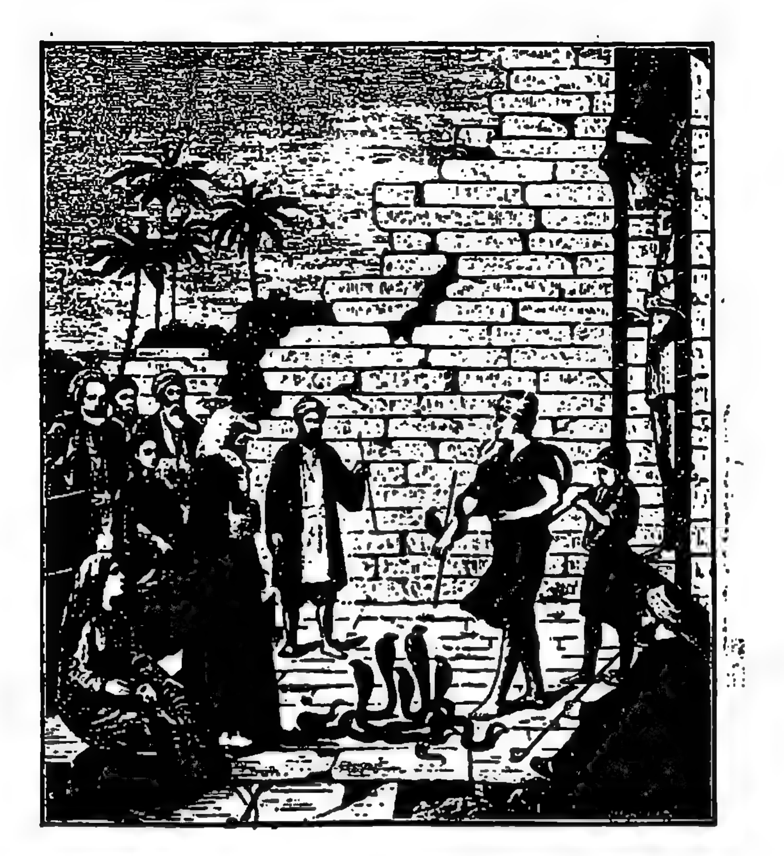
الحواة والمشعوذون

يطالعنا بعض الكتّاب المحدثين عن مصر بكتابات مدهشة عن طبقة من الرجال في هذه البلاد يعتمدون طريقة خاصة بهم ـ كما الحاوي قديماً (Psylli) في كيرينايكا (Cyrenaica) حسب ما جاء في التوراة ـ تجعلهم يدرأون سم الأفاعي (أنظر المزامير ٤/٥٨ ـ ٥ ، الأحبار ١١/١٠ ؛ إرميا ١٧/٨) . ولقد التقيت العديد من المتفكرين المصريين الذين يدينون هؤلاء الحواة المحدثين الدّجالين الأفاكين ؛ بيد أن أحداً لم يتوصل إلى تقديم تفسير مرضٍ عن أكثر أنواع أدائهم إثارة وغرابة وهذا ما سأفعله في هذا الفصل .

يكسب العديد من الرفاعية والسعدية رزقهم كما ذكرت في مناسبة سابقة بالتنقل بين المنازل لإبعاد الثعابين عنها . كذلك تدّعي طائفة من الأشخاص امتلاكها القدرة عينها لكنّ هؤلاء غير مشهورين . يتنقّل الحواة في أرجاء مصر فتسنح لهم فرص عمل وفيرة ؛ وتكاد مكاسبهم لا تكفيهم لسد حاجات عيشهم الضرورية . يزعم الحاوي أن باستطاعته اكتشاف وجود الثعابين في المنزل دون أن يدركها بصره (وقد يفعل ذلك بواسطة حاسة شم مميزة) ؛ وهو يغوي الطيور لتدخل أعشاشها فيسحرها بصوته . يبيّن الحاوي عن مهارته عامة في غرفة مظلمة لأنّ الثعابين تفتش عن المكان الأكثر عتمة للإختباء ، فيتمكن بكل سهولة من إمساك الثعبان من صدره والعودة به إلى الناس المتلهفين خارجاً فيؤكد لهم أنه وجده في الحجرة ؛ ولا أحد في الواقع يجرؤ على الدخول معه وهو يعلم

علم اليقين بوجود مثل هذه الزواحف في الداخل . وقد يُطلب من الحاوي أحياناً أن يمارس سحره في وضح النهار وسط جمهرة المتجمعين الذين يسارع المتشككون بينهم إلى تفتيشه مسبقاً ولا يترددون قط في تجريده من ثيابه ؛ ولكنّه يخرج من التجربة التي يخضع لها منتصراً مبرّزاً ويلفّ الحاوي نفسه بالغموض فيضرب الجدران بسعفة شجر نخل صغيرة ويصفّر ويحدث أصوات طقطقة بلسانه ويبصق على الأرض ويردّد : « أستحلفك بالله أينما كنت أن تحضر . أستحلفك بالاسم العلي الأكبر ؛ فإن كنت مطيعاً فاحضر ، وإن عصيت فَمُت ! امُت ! امُت! » . ويخرج الحاوي الثعبان بواسطة عصاه من شق في الجدار أو يسقطه من سقف المنزل . وأكد لي الكثيرون أنّ الحاوي يرسل دائماً خادماً إلى المنزل الذي سيظهر فيه براعته السحرية ليضع فيه ثعباناً واحداً أو أكثر ـ ولكنني عرفت بالمقابل حالات ينتفي فيها مثل هذا الكلام . وأميل إلى الاعتقاد أن للدراويش قدرة جسدية حقيقية على اكتشاف الثعابين دون رؤيتها وجذبها من مكانها . والواقع أن أكثر الحواة خبرةً لا يجرؤون على وضع الثعابين السامة على أجسادهم حتّى ينتزعون أسنانها السامة ؛ ويحمل العديدون منهم العقارب ويجرّدونها بالطبع من قدرتها على الإيذاء فيبطلون لسعاتها . وسأعمد إلى الحديث مطولاً عن مآثرهم في أكل الثعابين السامة الحية التي تعتبر من الأعمال الدينية .

تحفل القاهرة بالحواة الذين يؤدون عروضهم في الساحات العامة فيستقطبون حولهم حلقة المشاهدين ويحصلون من بعضهم على مساهمات مالية بسيطة خلال عرضهم أو بعده . يكثر الحواة خاصة في الاحتفالات العامة وفي غيرها من المناسبات ، ويصفق لهم الناس طويلاً لدعاباتهم وأعمالهم غير المحتشمة كما لوسائلهم الأخرى. يقدّم « الحاوي » مجموعة كبيرة من حيله وأكثرها ذيوعاً ما سأعرضه الآن : يقوم ولدان بمساعدة الحاوي فيخرج أحدهما خمسة ثعابين كبيرة الحجم من كيسه الجلدي ثم يطرح ثعباناً منها على الأرض فيجعله يرفع رأسه وقسماً من جسده ؛ بعد ذلك يطوق الحاوي رأس أحد الصبيين بثعبان آخر كما العمامة ويلفّ ثعبانين آخرين حول رقبته ؛ ثم ينزع



أحد الحواة

الثعابين فيفتح فم الصبي ويمرّر ظاهريّاً رتاج قفل عبر خدّه ويقفله بعد ذلك يقحم - ظاهرياً أيضاً - مسماراً حديدياً إلى حلق الصبي مدفوعاً في الواقع في مقبض خشبي يقوم الحاوي كذلك بحيلة أخرى ، فيمدّد الصبي على الأرض ويضع سكّيناً فوق أنفه ويطرقه حتى ينغرز نصف جزئه المسطح العريض . لن أتطرق في الواقع إلى الحيل البذيئة الأخرى التي يمارسها الحاوي على الصبي ، فبعضها تشمئز له النفس . أمّا الحيل التي يؤديها لوحده فأكثر تسلية إذ يسحب كمية كبيرة من الحرير الملون من فمه ويلفّها على ذراعه ؛ ثم يحشي فمه قطناً ويطلق ألسنة نار فيخرج منه قطعاً معدنية من القصدير وينفخ تجويف غليون طيني من أنفه . وهو في معظم الحيل ينفخ في

صدفة كبيرة تُعرف « بزمّارة الحاوي » تطلق أصواتاً قريبة من صوت البوق . تشبه ألاعيب الخفة التي يقوم بها الحاوي في مصر الألاعيب التي يبتدعها بعضهم في بلاد الغرب . وقد يأخذ الحاوي حلقة فضية من أحد المتفرجين فيضعها في علبة صغيرة وينفخ في المزمار قائلاً : « عفريت ! غيّرها! » . ثم يفتح العلبة فيظهر الحلقة الأولى ويغلقها للمرة الثالثة ويعيد فتحها ويخرج منها كتلة فضية ذائبة فيزعم أنّها الحلقة الذائبة ويقدّمها لصاحبها . ويصرّ صاحب القطعة على إعادة حلقته إلى حالتها الطبيعية . ويسأله الحاوي عن خمس أو عشر فضات لذلك . فلمّا يحصل على المبلغ المطلوب يفتح العلبة ثانية (بعد أن يكون أغلقها ونفخ في مزماره) فيخرج منها الحلقة كما هي . ثم يأخذ علبة مغطاة أكبر ويضع قلنسوة أحد الصبيين داخلها وينفخ في مزماره ويفتح العلبة فيخرج منها أرنباً وتختفي القلنسوة على ما يبدو . ويعيد الأرنب إلى العلبة من جديد ويغطيها ويعود فيكشفها فتخرج منها كتاكيت صغيرة ويضع هذه الأخيرة في العلبة ثانية وينفخ في مزماره ؛ ثم يكشف العلبة فإذا بها ملأى بالفطائر والكنافة ويطلب من الصبيين أكلها فيرفضان ذلك إلاّ مع العسل : يأخذ الحاوي إبريقاً صغيراً فيقلبه رأساً على عقب ليؤكد للمتفرجين أنه فارغ تماماً ؛ وينفخ في مزماره ويطوّق إبريق العسل بكلتي يديه . ولمّا يفرغ الصّبيان من الطعام يسألانه عن شيء من الماء ليغسلا أيديهما . فيتناول الحاوي الإبريق نفسه ويعيده مملوءاً ماءاً بالطريقة عينها ثم يأخذ العلبة ثانية ويسأل عن القلنسوة فينفخ في مزماره ويكشف العلبة ويصبّ منها في طرف ثوب الصبي الأسفل . . . أربعة أو خمسة ثعابين . ويرتعد الصبي خوفاً فيطرحها ويسأل عن قلنسوته . يعيد الحاوي الثعابين إلى العلبة وينفخ في مزماره ويكشف العلبة ويخرج القلنسوة يقوم الحاوي بخديعة بارعة أخرى فيضع قصاصات ورق بيضاء في إناء قصديري (طشت بائع الشربات) فيخرجها وقد اصطبغت بألف لون ولون ويسكب الماء في الوعاء ذاته ويضع قطعة من الكتان ثم يقدّم إلى مشاهديه محتوى هذا الوعاء ليشربوه ؛ فإذا بالماء يتحوّل شربات محلّى يعمد الحاوي أحياناً إلى تمزيق شال من الموسلين إلى نصفين أو حرقه في وسطه قبل أن يعيده إلى حالته

الأولى قطعة واحدة . وقد يجرد نفسه أحياناً من كامل ثيابه فلا يبقى إلاّ سرواله التحتاني ، ويطلب من شخصينِ تقييد يديه ورجليه ووضعه في كيس . ثم يطلب من المتفرجين قرشاً واحداً فيجيبه أحدهم بأنّه سيحصل على القرش إن مدّ يده وأخذه ؛ فيمدّ الحاوي يده الطليقة ويسحب القرش ويُخرجه الصبيان من الكيس مقيّداً بإحكام كما في الحالة الأولى ؛ ويعيدانه إلى الكيس فيخرج الحاوي منه طليقاً محرّراً من قيوده ويقدّم إلى المشاهدين صينية صغيرة وقد وضع عليها خمسة أطباق ملأى بالطعام ؛ وإذا قام بأداء عرضه ليلاً يزين الصينية بشموع صغيرة حولها فيأكل المشاهدون الطعام .

تعرف القاهرة طبقة أخرى من المشعوذين المحتالين يطلق عليهم اسم « القِيِّم » (وواحدهم «القَيِّم») . وللقَيِّم مساعده الخاص يرافقه في شتى عروضه . ونرى المساعد يضع أمامه خلال أحد العروض تسعة وعشرين حجراً صغيراً ويجلس على الأرض ويرتّبها أمامه . ويبتعد القَيِّم خطوات قليلة عنه فيطلب المساعد من أحد المشاهدين وضع قطعة نقود تحت حجر من هذه الأحجار، ثم يدعو القَيِّم ويخبره بأنِ قطعة نقود كانت مخبّأة ويطلب منه الإشارة إلى موضعها ، فيفعل الساحر ذلك على الفور . وسرّ هذه الخديعة غاية في البساطة : فالأحجار التسعة والعشرون تمثّل حروف الأبجدية العربية ؛ ويوجه الشخص الراغب في أن يظهر له القَيِّم مكان النقود كلامه إليه بحرف الحجر الذي يغطي قطعة النقود. ويتمكن القَيِّم بالطريقة عينها أو بإشارة من المساعد من الإفصاح عن اسم أيّ من الحاضرين أو ترديد كلمات أغنية غنّوها في غيابه أو الاسم أو الأغنية التي تمتم بها أحدهم لمساعده .

تنتشر في مصر قراءة البخت أو العِرافة التي يقوم بها « الغجر » على وجه الخصوص . ويزعم هؤلاء أنهم يتحدّرون من سلالة البرامكة كما الغوازي ولكنّهم ينتمون إلى فرع آخر فيها ومعظم الغجريات قارئات بخت ؛ وتراهنّ في شوارع القاهرة ، لباسهنّ لا يختلف عن لباس عامة نساء الطبقات الدنيا ؛ فمن « التوب » إلى الطرحة يمشين سافرات الوجه ويحملن معهن كيساً من جلد الغزال فيه عدّة الشّغل ويصرخن : « أكشف البخت ، أكشف الحاضر

والغائب » وتقتصر عدّة شغلهن على عدد من الأصداف وقطع الزجاج الملون والمال مبعثرة بينها ؛ فيرمين الأصداف ويستخلصن تكهّناتهن من ترتيب هذه الأصداف حسب رميتهن لها . وتمثل الصدفة الكبيرة الشخص الذي ستكشف العرافة بخته ؛ وأما الأحجار الأخرى فتمثل أحداثاً مختلفة فشرّاً أم خيراً حسب قربها من الشخص صاحب البخت أو بعدها عنه ، وتكون مقدّرة عليه في وقت قريب أو بعيد أو أنها لن تقع مطلقاً . وتسمعن الغجريات يصرخن : « ندُق ونطهُّر » . يعمل بعض الغجر في مصر حدادين أو نحاسين أو بائعين متجوّلين لسلع من صنعهم خاصة الأواني النحاسية الصغيرة ؛ ويتخذ بعضهم الآخر من البهلوانية مهنة له ويعرف محترفها بالبهلوان . وتُطلق هذه التسمية على لاعب الحركات الرياضية والمثاقف البارع أو البطل ، ويقوم هؤلاء بعرض براعتهم وخفة حركاتهم في القاهرة ؛ بيد أن أداء البهلوانيين المحدثين بات يقتصر على الرقص على الحبال ومؤدوه من الغجر عامة . يتم أحياناً ربط الحبل بمئذنة أحد الجوامع على ارتفاع مهم فيمتد على طول مئة قدم ويثبَّت إلى الأرض في نقاط عديدة . يستخدم الراقص عاموداً طويلاً للتوازن ؛ وهو يرقص على الحبل أو يمشي عليه بواسطة أثقال معوّقة (نوع من القباقيب) أو يثبّت قطعة صابون تحت كل قدم أو يربط صبياً إلى كاحله بواسطة حبل أو يربطه إلى عامود الإتزان ثم يجلس فوق صينية مستديرة موضوعة على الحبل . وأنا لم أر في الواقع سوى ثلاثة من هؤلاء البهلوانيين ولم يكن أداؤهم صعباً كما أنواع الأداء التي وصفتها آنفاً ، وهو أقل مستوى بكثير من بهلوانيي انكلترة. وقد تمتهن النساء والفتيات والصبية مهنة البهلوانية كما يظهر الرجال والصبية براعتهم في مجالات أخرى غير الرقص على الحبال كالتشقلب والوثب داخل الطوق .

ويسلي « القُرِّيداتي » أبناء الطبقات الدنيا في القاهرة بأداء قرد أو حمار أو كلب أو جدي ويتقاتل الإثنان ـ القريداتي وحيوانه ـ بالعصي على رأسيهما ويُلبس القريداتي قرده لباساً غريباً يشبه لباس العروس أو المرأة المحجّبة ويطفق يدور به على ظهر حمار وسط حلقة المتفرجين فيمشي أمامه ويضرب الطبلة . كما يدرّب القرد على الرقص والقيام بأعمال تهريجية غريبة . ويطلب القريداتي

من حماره أن يختار أجمل فتاة بين المتفرجين فيفعل الحمار ذلك مقرّباً أنفه من وجهها فيداعبها ويسلي الباقين بشكل كبير . ويأمر الكلب أن يقلّد خطوات السارق فيزحف على بطنه ويقوم الجدي بأفضل أداء ؛ إذ يقف هذا الأخير على قطعة خشبية صغيرة تشبه طاولة النرد يبلغ طولها حوالي الشبر وعرضها إنشاً ونصف الإنش ، فيتمكن بذلك من تقريب أقدامه الأربع من بعضها البعض . ثم يرفع القريداتي قطعة الخشب والجدي ويقف عليها ويضيف قطعة أخرى تحتها وأخرى ثالثة ورابعة وخامسة .

يسرّ المصريون كثير بالعروض التي يقدّمها « المهبّذون » وهم مهرّجو المهازل المبتذلة . ويؤدي هؤلاء مهازلهم عامة خلال الاحتفالات التي تسبق الأعراس وحفلات الختان في منازل كبار القوم ، فيستقطبون حلقات المتجمهرين إلى عروضهم في ساحات القاهرة العامة . ولا تستحق عروضهم في الواقع الإسترسال في وصفها ؛ فهم يستدرون تصفيق الناس من خلال أعمالهم المبتذلة ودعاباتهم السوقية . ويقتصر الممثلون على الصّبية والرجال ؛ أمّا المرأة فيقوم بدورها رجل أو صبي متنكراً في زيّها . وسأعرض للقارىء نموذجاً عن أحد عروضهم التي قدّموها أمام الباشا منذ فترة وجيزة خلال احتفال أقامه بمناسبة ختن أحد أولاده ؛ ويتم في مثل هذه المناسبات ختن العديد من أولاد أصحاب المقامات . واقتصرت شخصيات المسرحية على الناظر وشيخ البلد وخادمه وكاتب قبطي وفلاح مدين للحكومة وزوجته وخمسة أشخاص آخرين مثّل آثنان منهما دور طبالين وثالث عازف مزمار وظهر الإثنان الباقيان في دور راقصين . دخل الناظر وعازف المزمار حلبة التمثيل بعد أن مهّد لدخولهما هؤلاء الخمسة بتطبيلهم وتزميرهم ورقصهم . وسأل الناظر : « كم يبلغ دين عوض بن رجب؟ » فأجابه الخمسة الذين يمثلون دور الفلاحين البسطاء : « أطلب من النصراني أن ينظر في سجلّه » . وكان الكاتب النصراني متمنطقاً « دواية » كبيرة ومرتدياً ثياب قبطي ومعتمراً عمامة سوداء ، فسأله شيخ البلد : « كم هو المبلغ المكتوب ضد عوض بن رجب؟ » فأجابه الكاتب : « ألف قرش » فعاد الشيخ يسأله : « وكم دفع حتى الآن؟ » فردّ عليه الكاتب :

« خمسة قروش » . فالتفت الشيخ إلى الفلاح قائلاً : « لما لا تحضر المال يا رجل؟ » فيجيبه الفلاح : « لا أملك قرشاً منه » . فتعجب الشيخ « لا تملك قرشاً واحداً ! إطرحوه أرضاً » . فطرحوه وأحضروا قطعة أحشاء منتفخة تشبه كرباجاً كبيراً وانهالوا يضربون الفلاح ضرباً مبرحاً . فراح يصيح بالناظر بصوت متهدج : « وشرف ذيل الحصان يابيه ! وشرف سروال زوجتك يا بيه ! وشرف عصبة زوجتك يا بيه! » . ولكن استنجاده ذهب أدراج الرياح فضُرِب طوال عشرين دقيقة ثم زُج به في السجن . ثمّ ننتقل إلى مشهد الفلاح وزوجته التي أتت لزيارته تسأله : « كيف حالك؟ » فيجيبها المسكين : « إعملي معروفاً وخذي كشكاً وبيضاً وشعيرية إلى منزل الكاتب النصراني واستدرّي عطفه علّه يطلق سراحي » . فأخذت الزوجة الأغراض في ثلاث سلاّت إلى منزل الكاتب وسألت بعضهم : « أين هو المعلّم حنّا؟ » فأتاها الجواب : « يجلس هناك ؟ » فتوجّهت إليه وقالت له : « يا معلّم حنا أرجو أن تقبل مني هذه الهدية وتفك أسر زوجي » .

ـ « ومن هو زوجك؟ » .

ـ « الفلاح المدين بألف قرش » .

ـ « أحضري عشرين أو ثلاثين قرشاً وادفعيها رشوة إلى شيخ البلد » .

فانصرفت المسكينة وعادت إلى شيخ البلد ومعها المال المطلوب . فسألها الشيخ :

ـ « ما هذا؟ »

ـ « خذها رشوة وفكّ قيد زوجي » .

ـ « حسناً ؛ إذهبي إلى الناظر » .

فخرجت ورسمت جفونها بشيء من الكحل وحنّت يديها بالحناء الحمراء وانطلقت إلى الناظر . وألقت عليه التحية قائلة :

ـ « عمت مساءاً يا سيّدي »

ـ « ماذا تريدين؟ » .

ـ « أنا زوجة عوض المدين بألف قرش » .

ـ « وماذا تريدين؟ » .

ـ « زوجي في السجن وأتوسّل إليك لتطلق سراحه » .

وراحت توزع ابتساماتها بينما كانت تتحدث إلى الناظر حتى تظهر له أنها لا تسأله هذه الخدمة دون أن تمنحه مقابلها مكافأة . وحصل الناظر بالفعل على مكافأته وحصلت هي على حرية زوجها . وقد مثّل هؤلاء هذه المسرحية أمام الباشا حتّى يتنبّه لمسلك المسؤولين عن جمع الضرائب .

أدخل الأتراك إلى مصر استعراض « قرة قوز » وجعلوا الدمى تنطق بلغتهم. ويسلّي هذا الاستعراض المبتذل إلى أبعد حدود الأتراك المقيمين في القاهرة وهو ممل بالطبع للذّين يجهلون اللغة التركية ولا يقام عرض « قرة قوز » إلّا مساءاً على غرار « الظلال الصينية » .

الفصل الحادي والعشرون

رواة القصص الشعبية
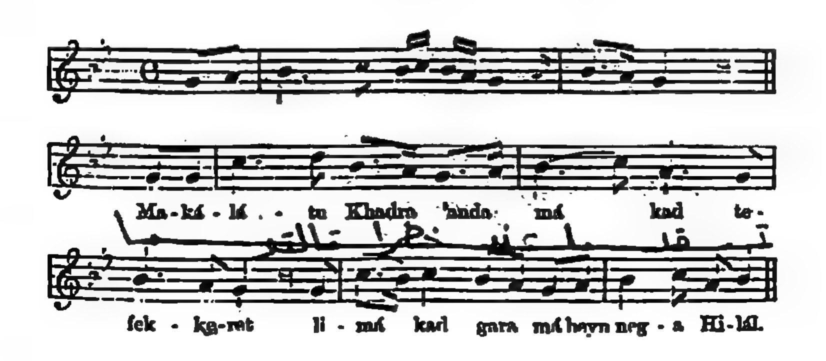
لا تقتصر أنواع التسلية على ما وصفته في الفصل السابق . إذ يتردّد رواة القصص على المقاهي الرئيسية في القاهرة والمدن الأخرى خاصة في ليالي الاحتفالات الدينية فيحظون بترفيهات تشرح النفس وتشحذ العقل . يجلس الراوي عادة على كرسي مرتفع صغير على المصطبة ويُجعل عادة أمام واجهة المقهى ويحتل بعض مستمعيه باقي هذا الكرسي ويتّخذ بعضهم مجلساً لهم على مصطبات المنازل في الجهة المقابلة للشارع الضيق ويجلس الباقون على مقاعد مصنوعة من سعف النخل ـ فيمسك البعض بيبته ويرتشف البعض الآخر قهوته وكلّهم مسرورون منشرحون ليس بالقصة وحدها فحسب ولكن بطريقة الراوي الحية والمثيرة . يحصل الراوي على مبلغ زهيد من المشرف على القهوة لاستقطابه الزبائن ؛ ولا يُجبر السامعون على المساهمة في دفع المال ؛ فلا يعطي المال إلّا القليلون بينهم ولا تزيد نسبة عطائهم عن العشر فضبات .

وأشهر رواة القصص الشعبية على الإطلاق « الشعراء » ؛ ويعرف واحدهم « بالشاعر » كذلك « بأبي زيديّة » لروايته « سيرة أبي زيد » . وهم نحو خمسين شاعراً في القاهرة ولا تسمعهم يقصون غير سيرة « أبي زيد » .

تقوم هذه الرواية على الأحداث التي وقعت في نصف القرن الثالث للهجرة وأغلب الظن أنها كتبت مباشرة بعد هذه الفترة ؛ ولكنّها أُلفّت بالتأكيد في فترة متأخرة إلّا إن كانت تعرّضت لتحريف كبير عند نسخها . وهي موضوعة عادة في عشرة أجزاء صغيرة من قطع الربع تحاكي الشعر والنثر وتنهج نهج القصة

والإثارة المسرحية في وقت واحد . ليست لسيرة أبي زيد قيمة أدبية تذكر في شكلها الحالي على الأقل وهي على العكس غنية بإشاراتها إلى عادات البدو وتقاليدهم. تتدفق عواطف أبطال السيرة وبطلاتها جيّاشة وهم بمعظمهم من أبناء شبه الجزيرة واليمن وبعضهم من أهل الغرب (أو شمالي إفريقيا) نسبة إلى موقع شبه الجزيرة ، فيناجون ذواتهم شعراً . والشعر غير موزون أو مقفّى ويعتقد بعض المفكرين في القاهرة أنّه كان ملتزماً بأوزان الشعر المعروفة ولكنّ الناسخين غيّروا فيه . ويستسيغ السامع السيرة لحناً وموضوعاً عند قراءتها ـ كما هي الحال دائماً ـ باللغة العامة برمّتها ، ولا تخلو كل مقطوعة شعرية في مطلعها أو ختامها من مباركة النبي الحبيب والصلوات عليه .

يحفظ الشاعر موضوع سيرته غيباً ويتلوها دون أن يفتح كتاباً أمامه . ويغني الشعر في الرواية ويعزف بعد كل بيت نغمات بسيطة على مزماره الأحاديّ الوتر المعروف « بربابة الشاعر » أو « ربابة أبي زيد » لاقتصار استعمالها على سرد هذه السيرة . يرافق الراوي مساعداً يحمل ربابة أخرى من ذات النوع ، وقد يلجأ الشاعر أحياناً إلى نغمة واحدة في شكل توطئة أو فاصل لكلامه . وأشير في الرسم الموسيقي التالي إلى بعض النغمات التي يعتمدها الشاعر في بداية أغنيته لأوضح أسلوبه .





شاعر ومرافقه على الربابة وجانب من السامعين .

يعرف بعض رواة قصص أبي زيد « بالهلاليّة » و « الزغبيّة » و « الزيناتيّة » لالتزامهم بسرد مآثر أبطال قبائل « الهلالي » و « الزغبي » و «الزيناتي» الذين تمجّدهم الرواية . وأنقل في ما يلي ملخّصاً عن رواية « أبي زيد » مأخوذاً من الجزء الأول الذي قرأته بتمعن .

كان أبو زيد أو بركات ـ وهي التسمية التي اشتهر بها ـ عربياً من قبيلة بني هلال أو الهلالية . وكان والده الأمير رزق (ابن نايل عم سرحان ملك بني هلال) قبل ولادته متزوجاً من عشر نساء لم ينجب منهن لسوء حظه سوى طفلين ابنتين بالتحديد؛ فسمّى الأولى «شيحة» والثانية «عتيمة» حتّى زادت إحدى زوجاته « الأميرة جلّاس » من حزنه فأنجبت له طفلاً لا ذراعين ولا رجلين له. وتزوج الأمير رزق من زوجة حادية عشرة قبيل ولادة ابنه هي الأميرة « خضرة » ابنة شريف مكة « قرضه » . (وكان طلّق زوجاته في أوقات مختلفة . ولمّا كان لا يستطيع الاقتران بأكثر من أربع زوجات في وقت واحد احتفظ بثلاث منهن فقط) . وطارت فرحته لمّا ظهرت امارات الحمل على زوجته ؛ وأمل أن تلد له صبياً . فدعا الأمير «غانم» زعيم قبيلة « الزغبيّة » (أو « الزّغابة ») مع حشد من أفراد عائلته وقبيلته ليشرّفوا بحضورهم الحفلة التي أمل أن تسنح له الفرصة بإقامتها . ووافق أصدقاؤه على دعوته وحلّوا ضيوفاً عنده وانتظروا ولادة الصبي .

كانت « الأميرة خضرة » في ذلك الوقت تتمشى مع الأميرة « شَمَّة » زوجة الملك سرحان وعدد من النساء فرأت طائراً أسود اللون يهاجم سرب عصافير متعدّدة الأشكال والألوان ويقتلها . وتعجبت الأميرة لما رأته عيناها ودعت ربّها بكل حرارة أن يمنحها ولداً قوياً كهذا الطير وإن كان أسود اللون. واستجاب الله دعوتها فأنجبت طفلاً أسود . ولم يرغب الأمير « رزق » من فرط حبّه لزوجته أن يهجرها رغم عدم تصديقه بأن الوُلد ولده . ولم ير ولده واكتفى بوصف النساء له كما لم يسمح لأي رجل آخر برؤيته حتى اليوم السابع من ولادته . واحتفى بضيوفه طيلة سبعة أيام ؛ وفي اليوم السابع أو « يوم السُّبُوع » أعدّ لهم وليمة عامرة حافلة بأطايب الطعام والشراب وتمّ إحضار الطفل حسب العادة المتبعة

أمام الضيوف . فحملته امرأة على صينية فضية وغطّته بمنديل . وبينما كان الضيوف ـ كما العادة المتّبعة ـ يقدّمون نقوطهم من القطع الذهبية أو الفضية ، كشف أحدهم المنديل عن وجه الطفل فرأى الطفل كما وصفته المرأة . وبقي الأمير رزق خارج خيمته طوال وقت الاحتفال حائراً مشتّت الأفكار فلامه أصدقاؤه على رغبته في إخفاء عاره المزعوم والاحتفاظ بزوجة فاجرة غير عفيفة واضطر الزوج على مضض إلى هجر زوجته حتى لا يلحق العار بقبيلته من جرّاء فعلتها فأرسلها مع طفلها بحماية الشيخ « منيع » إلى منزل والدها في مكة . فرحلت الزوجة ورافقها عدد من جارياتها ـ وهنّ ملك زوجها ـ اللواتي أصرّين على مرافقتها بعد أن سمح لهن الأمير رزق بذلك وقاموا ينصبون خيمهم خلال الرحلة في أحد الوديان . فحثّت الأميرة خضرة على مرافقها المسؤول عنها السماح لها بالبقاء لأنّها تخشى العودة في مثل هذه الظروف إلى منزل والدها . وحدث أن حضر الأمير « فضل بن بيسم » زعيم قبيلته « الزّحلان » مع عدد من فرسانه وسمع ما دار بينها وبين الشيخ منيع من حوار فأصرّ على أخذها وجعلها في حمايته . ولمّا عاد إلى عشيرته أرسل زوجته الأميرة « لعج البهيّة » لإحضارها مع طفلها وسائر جارياتها . وتبنّى الأمير فضل طفلها وجعله في منزلة ابنه وربّاه مع ولديه وأغلق عليه عطف الوالد . وبانت ملامح البطولة على بركات : إذ قتل معلمه بعد أن ضربه ضرباً مبرحاً لمحاولته معاقبة أحد أخويه بالتبني فزرع الخوف في قلوب زملائه . فما كان من الوالد بالتبني إلاّ أن عيّن فقيهاً ثانياً معلماً . لكن وجود بركات أرعب زملاءه فلم يحضروا فاضطر الفقيه إلى تعليم بركات في داره . فلمّا بلغ الحادية عشرة كان ملمّاً بالعلوم الإنسانية والربانية كما درس في شبه الجزيرة العربية علوم الفلك والتنجيم والسحر والكيمياء وغيرها من فروع المعرفة .

وذات يوم توجه بركات بناءاً على نصيحة الفقيه إلى والده بالتبني يسأله حصاناً هدية ؛ فلمّا ألقى عليه تحية الصباح ، أتحفه والده بصباح أفضل إذ قال له « صباح الخير يا ابني ويا أغلى من ابني » . فاندهش بركات لما سمعه وتوجه إلى أمه فسألها إن كان الأمير فضل أباه الحقيقي فأجابته أنّ الزعيم هو

عمّه وأن أبوه مات وأنّ هلالياً عربياً قتله واسمه « رزق بن نايل » فاتّقدت الذكريات في رأسها وراحت تسرد أقوالاً خاطئة في أشكال مختلفة

وثارت ثائرة بركات وكبرت في نفسه الرغبة في قتل والده الحقيقي الذي جعلته أمّه يعتقد بأنّه قاتل والده .

ذهب بركات إلى والده بالتبني فقدّم له أحسن أحصنته وعلّمه فنون الحرب كلّها والمطاردة وكافة التمارين الخاصة بالرجال . وعيّنه حارساً فأثار حسد الغديد من أبناء عرب القبيلة التي رحّبت به لبراعته فيّ لعب « البرجس » (وهي لعبة مشابهة للعبة « الجريد ») . إذ يقوم اللاعبون بامتطاء أحصنتهم فيتقاتلون أو يلاحقون بعضهم البعض ويرمون سعف النخل . وهزم بركات في مرّتين متاليتين الجماعات التي تقوم بالسرق والنهب في قبيلة « تيدمة » فقتل في المرة الأولى زعيمهم « عطوان بن داغر » . وذهب عرب تيدمه يطلبون حماية ملكهم « الصّليدي » فأولى أمرهم إلى « جسّار بن جاسر » زعيم بني حَمير أرسل يطلب من قبيلة « الزّحلان » متأخِرات خمس عشرة سنة اعتادت أن تدفعها له كل سنة . وطلب منهم أن يرسلوا إليه مع الجزية المتوجبة عليهم العبد بركات (لاعتقاده بأنّه عبد) موثوق القيود فيحكم عليه بالموت . فأرسل بركات ردّاً باسم الأمير «فضل» واعداً بالإذعان لطلبه واختار عبداً يشبهه إلى درجة كبيرة ويقاربه عمراً وربطه إلى ظهر جمل وانطلق مع هذا العبد والأمير فضل وقبيلته لملاقاة « جسّار » وفريقه وعرب تيدمه وقدّم فضل العبد إلى جسّار على اعتبار أنّه بركات ؛ فسرّ الأوّل أشد السرور لإطاعة أوامره فاحتفل بقبيلة الزحلان ؛ بيد أن بركات بقي ممتطياً حصانه ورفض أن يأكل من طعام أعدائه لأنّ أحكام الضيافة ستمنعه من تنفيذ خطتّه التي رَسمها لاحظه جسّار فسأل الأمير فضل عنه فأجابه إنّه عبد مجنون اسمه مسعود . واستطاع بركات أن يسحب جسّار من حفله فكشف له عن وجهه وتحدّاه ونازله فقتله واستولى على خيمته وعفا عن باقي فريقه المعادي ولكنّه فرض عليهم الجزية التي كان عرب زحلان دفعوها سابقاً . واكتسب مذ ذاك الوقت اسم مسعود إلى جانب اسمه . وأحبط مراراً محاولات

اعتداء بني حمير المعادية لاستعادة إستقلالهم وذاع صيته ليس بين قبيلة زحلان التي أضحى زعيمها فحسب بل بين القبائل المجاورة كلّها

لا بد بعد هذه النقلة الطويلة من العودة إلى الأمير رزق وقبيلته التي انسحب منها بعد رحيل زوجته « خضرة » مشمئز النفس للمعاملة التي تلقاها بسبب العار المزعوم وحزيناً لخسارته وسكن مع عبد له في خيمة مصنوعة من شعر الماعز الأسود وهي إحدى الخيم التي اعتاد المشرفون على جماله الإقامة فيها خلال فصل الربيع في المكان الذي رأت فيه زوجته اقتتال العصافير . وما هي إلاّ فترة قصيرة حتى حلّ قحط شديد على « بني هلال » دام طويلاً فعانوا منه أشد المعاناة . وفي وطأة هذه الظروف القاسية قرّر معظم أبناء القبيلة التوجه مع ملكهم سرحان إلى بلاد قبيلة الزحلان طلباً للعون وكان آنضمّ الجعافرة وبعض القبائل الصغرى إلى الأمير رزق الذي كان قائدهم في الماضي. أمّا سرحان ومجموعته فهاجمه بركات وهزمه لدى وصوله إلى أرض عرب زحلان وأجبرهم بعد خضوعهم المذل له على البقاء حيث هم . وتأصّل الحقد في نفوسهم تجاه قبيلة الزحلان التي دفعت لهم الجزية في الماضي ؛ واقتنع سرحان بإرسال رسول إلى الأمير رزق يحثّه على المجيء محاولاً تخليصهم من حالة الإذلال والخضوع التي يعيشون فيها . واستجاب رزق لندائهم واستطاع الرسول الذي أتى لاصطحابه وهو في طريقه إلى أرض عرب زحلان أن يقنعه تقريباً أنّ بركات ابنه واحتار الأمير رزق لعدم حمل هذا الأمير اسمه وهو كان سمّاه « أبا زيد » . ولمّا بلغ وجهته تحدّى بركات . ومضى الوالد ليقاتل ابنه ـ ولم يكن رزق متأكداً أن عدوه هو ابنه كذلك لم يخطر على بال هذا الأخير أنه يرفع يده في وجه والده ولكنّه كان يعتقد أنه ينازل قاتل والده ؛ وسنحت الفرصة للأمير رزق أن يؤخّر التزامه يوماً بعد يوم ؛ ولمّا لم يستطع المضي في التأجيل اضطر للبدء . وكانت الغلبة للإبن : إذ طرحه عن حصانه وكاد يقتله لولا تعهده لأمه بعدم القيام بهذا العمل وسارعت الأميرة خضرة إلى كشف صلة الدم بين بركات والأمير رزق ؛ واضطر بنو هلال إلى الاعتراف ببركات ابناً شرعياً للأمير رزق جديراً بحمل

اسمه وسألوه غفرانه للأذى الذي ألحقوه به وبأمّه . وآستحقّ الأمير « أبو زيد بركات » هذه النعمة وكانت فرحة الأمير رزق بلقاء زوجته المحبوبة وابنه لا توصف

وتتعدد مغامرات أبي زيد وتتعقد في فصول كتاب سيرته ؛ وأكثرها شعبية على الإطلاق قصة « الرياضة » وهي الرحلة التي انطلق فيها أبو زيد وثلاثة من أبناء أخيه بحثاً عن المرعى متنكرين في شكل شعراء . ولعب أبو زيد دور خادمهم . وتذكر القصة أنهم جالوا في أفريقيا الشمالية وميّزوا أنفسهم بمآثر مدهشة مع قبيلة « الزيناتية » العربية .

الفصل الثاني والعشرون

رواة القصص الشعبية (تابع)

يلي « المُحَدِّثون » الشعراء مرتبة في إطار رواة القصص الشعبية ولا يزيد عددهم عن الثلاثين شخصاً في القاهرة . وتقتصر رواياتهم على « سيرة الظاهر » أو (« سيرة الظاهرية ») وهم لا يحتاجون في سردهم القصصي إلى أي كتاب أمامهم .

تروي سيرة الظاهر قصة السلطان « الظاهر بيبرس » الملك العادل صاحب الفتوحات ملك مصر والشام وقواد عساكره ومشاهير أبطاله . وصل الأمير بيبرس إلى عرش مصر في الشهر الأخير في العام ٦٥٨ للهجرة وتوفى في الشهر الأول من العام ٦٧٦؛ وإستمر حكمه أكثر من سبعة عشر عاماً بقليل حسب التقويم القمري (أي ما بين ١٢٦٠ م - ١٢٧٧ م) . والمؤلفات الكاملة التي تتناول سيرة بيبرس نادرة في المكتبات ولقد ابتعت في الواقع النسخة الوحيدة الباقية في مصر .

يتألف الكتاب الذي ابتعته من ستة أجزاء من قطع الربع ، ولكنّه مقسم اسمياً إلى عشرة أجزاء وهو يضم أجزاءاً من نسخ مختلفة. ونجهل في الواقع مؤلف السيرة وعمره، وهي مكتوبة باللغة المصرية الحديثة البسيطة وانطلاقاً من مبدأ توجّه السيرة إلى العامة. ومن المحتمل أن يكون الناسخون أدخلوا تغييرات كبيرة عليها فحدّثوا لغتها . وأمّا أقدم أجزاء النسخة التي أملكها فوضعت منذ أكثر من قرن . وسأقدم للقارىء العزيز لمحة موجزة عن مضمون الجزء الأول

من السيرة قبل التطرق إلى الجزء الثاني منها

أرسل « الملك الصالح » (وهو أحد سلاطين مصر وأوليائها المشهورين) شخصاً يدعى « علي بن الوراقة » لشراء المماليك من بلدان أخرى ؛ ويقال إنّه اشترى خمسة وسبعين مملوكاً من سوريا اتبعهم مباشرة بشاب يدعى « محمود » (اشتهر لاحقاً ببيبرس) بطل هذه السيرة هو ابن ملك خوارزم « شاه جمك » لكنّ « عليّاً » اضطر إلى التخلي عن محمود لأحد دائنيه في دمشق مقابل دين مستحق عليه . قدّم الدائن المملوك لزوجته ليسهر على راحة ابنه المتخلف عقلياً ؛ لكنّ المملوك لم يبقَ في هذا الوضع طويلاً إذ كانت أخت سيّدة الجديد تقوم بزيارة لزوجة هذا الأخير فوجدتها وقد ربطت المملوك في عامود وكانت أوقدت له زنداً من الخشب وأرادت أن تضربه به . وعلت الدهشة وجهها للشبه الكبير بين المملوك وابنها الذي فقدته ؛ فرثت لحاله واشترته من أخيها وتبنّته وأطلقت عليه اسم بيبرس وهو اسم ابنها المتوفى وجعلته سيد أملاكها الشاسعة وكانت هذه السيدة تُعرف بالست فاطمة بنت الأقواسي . واستحق بيبرس كرمها وعطفها وأظهر لها حسن تصرفه النبيل وقام بإنجازات متعددة ميزته عن غيره فجذب إليه إعجاب الناس وغيرة باشا سوريا عيسى الناصر وعَداوته الذي استنبط الحيل الكثيرة للإيقاع به وقتله . وبعد فترة حضر « نجم الدين البندقداري » وزير الصالح وزوج شقيقة الست فاطمة في مهمة إلى دمشق ولزيارة أخت زوجته . ورافقه بيبرس في طريق عودته إلى القاهرة حيث ولّاه الصالح مناصب رفيعة فأضحى من المقرّبين المفضّلين من الوزير الكبير شاهين الأفرم .

وبعد موت الملك الصالح أيوب ، دعا الوزير « إيبك » إلى اجتماع يعقد في منزله وأحضر الأمير قلاوون ومناصريه وقال الوزير أيبك إلى الأمير قلاوون : « سنذهب غداً إلى الديوان مع جنودنا ، فإمّا أن أكون أنا السلطان وإمّا تكون السلطنة لك » . فأجابه الأمير قلاوون : « فليكن كذلك » ؛ وتوافقا الرأي . كذلك جمع الوزير شاهين الأفرم الأمير «أيدمر» البهلوان وقواته وكل أصدقاء الأمير

بيبرس ومناصريه وقال لهم : « سلّحوا أنفسكم غداً واذهبوا إلى الديوان ؛ فنحن نرغب في جعل الأمير بيبرس سلطاناً ؛ فلقد أوصى الملك الصالح أيوب له بالسلطة » . وأتى جوابهم : « على الرأس والعين » . وأمضوا ليلتهم وتوجهوا في صباح اليوم التالي إلى الديوان . وكان سبقهم إليه الوزير أيبك التركماني وقواته والأمير قلاوون الألفي وجنوده والأمير علاي الدين البيصري وقواته ؛ وكلهم كانوا مسلحين . كذلك فعل الأمير بيبرس فتوجه إلى الديوان مع رجاله فاكتظ الديوان بالجنود . ثم قال الوزير شاهين : « إنهض يا بيبرس واجلس على العرش واصبح السلطان فالعرش موصى لك » . فأجاب الأمير بيبرس : « لا أطماع لي في الحكم ؛ هاك الوزير أيبك وهاك قلاوون . اجعل أحدهما سلطاناً » . وكان رد الوزير شاهين : « محال ، لا أحد يحكم سواك » . فأجابه بيبرس : « والرّأس لن أحكم » . فقال الوزير أيبك « كما يشاء - « هل يكون الحكم بالقوة؟ » - « كما يشاء » . وقال الوزير شاهين : « وهل يبقى العرش خالياً لا سلطان عليه؟ » فأجابه الوزير أيبك : « نحن حاضرون وهاكم الأمير قلاوون ؛ فأيّاً كان الحاكم فليحكم » . وقال الأمير « عز الدين الهِلّي » : « يا أيها الوزير شاهين ، إن ابن الملك الصالح حيّ يرزق » . فسأله الأمير بيبرس : « هل كان للصالح ولد؟ » فأجابه الأكراد : « نعم واسمه عيسى وهو في الكرك » . وسألهم الوزير شاهين : « ولماذا لزمتم الصمت حياله؟ » فأجابوه : « لزمنا الصمت لسبب وحيد وهو أنّه يشرب الخمر » . وعلت الدهشة وجه الوزير شاهين : « وهل يشرب الخمر؟ » فأومأ الأكراد إيجاباً ؛ وقال الأمير بيبرس . « فليجعله الله من التائبين » ثم قال الجنود : « حسناً علينا التوجه إلى مدينة الكرك فنحضره ونجعله سلطاناً » . وقال لهم الوزير شاهين: « خذ الأمير بيبرس معك » . بيد أنّ أيبك وقلاوون أجاباه : « سنسبقه وننتظره حتى يجيء » فردّ الأمير بيبرس : « حسناً فليكن كذلك »

هكذا غادر الوزير أيبك وقلاوون وعلاء الدين البيصري وقواتهم الديوان وأخذوا يعدّون العدة ؛ ونصبوا في اليوم التالي خيمهم خارج « العادليّة » ؛ وفهم الوزير شاهين أن القوات راغبة في زرع بذور الشقاق بين الملك عيسى

وبيبرس ؛ فخرج من الديوان واصطحب الأمير بيبرس معه وتوجه إلى منزله وقال له : « ما الذي لاحظته في رحيل القوات قبلك ؟ » فردّ بيبرس : « هؤلاء القوم يكرهونني ، فالضغينة تملأ قلوبهم ؛ وأدعو الله العلي العظيم العليم بذات الصدور » فقال له الوزير : « يا بُنَي إنّهم يرغبون في الذهاب قبلك ليقيموا الفتنة بينك وبين الملك عيسى » . فردّ عليه بيبرس : « لا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم ! » وقال له الوزير : « إسمع يا بيبرس ! أرغب في إرسال عثمان بن الحبلة ومحمد بن كامل الهجّان قبل الجنود فيطلعانا على كل ما يحصل » فأجابه بيبرس : « فليكن ما شئت » . فأرسلهما وقال لهما : « إنطلقا أمام الجنود إلى قصر الكرك واعلمانا بكل صغيرة وكبيرة تحصل بين الملك عيسى وبينهم » . فردّا عليه « هذا واجبنا » ثم رحلا وأردف الوزير : « وأمّا أنت يا بيبرس فانطلق إلى الشام وابق في بيت والدتك (بالتبني) الست فاطمة بنت الأقواسي ، فلا تخرج منه حتى أرسل لك عثمان . فأجابه بيبرس : « صواب » ونهض وانطلق إلى منزله حيث أمضى ليلته وانطلق في صباح اليوم التالي إلى الشام ونزل في منزل أمه الست فاطمة بنت الأقواسي .

نعود إلى عثمان بن الحبلة ومحمد بن كامل الهجان اللذين دخلا قصر الكرك وسألا عن منزل الملك عيسى بن الملك الصالح أيوب . وصحبهما بعضهم إلى المنزل فدخلاه فسألهما الخدم عن غرضهما فأجاباهم أنهما قادمان من مصر ويرغبان في مقابلة الملك عيسى بن الملك الصالح أيوب . فتوجّه الخدم وأخبرا الكخيا الذي حضر وتحدّث إليهما فأطلعاه على غرضهما من الرحلة . ثم انطلق وأخبر الملك عيسى قائلاً : « لقد حضر إليك رجلان من مصر ويرغبان في مقابلتك ؛ الأول اسمه عثمان والثاني محمد بن كامل الهجان فقال الملك : « إذهب وادعُ عثمان » وعاد الكخيا وأخذ عثمان وأحضره أمام الملك عيسى ونظر عثمان إلى الملك فوجده جالساً يرتشف الخمر وأمامه شمعدان ومملوك وسيم يخدمه ويقدّم له الخمر ، وكان يجلس بالقرب من نافورة ماء أحاطت بها الأشجار . وبادره عثمان قائلاً : « ليحفظك الله أيّها الملك عيسى » ! فأجابه الملك : « أهلاً بك يا عثمان ! تعال إجلس واشرب معي ! »

فرّد عليه عثمان : « أستغفر الله العظيم ! لقد تبت » . فصاح به الملك : « أطعني ولا تعارضني » . فجلس عثمان وقال الملك : « لماذا فباب التوبة مفتوح! » وشرب عثمان حتى الثمالة .

وسار أيبك وقلاوون وعلاي الدين وجنودهم حتى وصلوا مدينة الكرك فنصبوا خيمهم ودخلوا المدينة وسألوا عن منزل الملك عيسى . فدلّهم الناس عليه فدخلوه. وسألهم الخدم عن غرض زيارتهم ، فأجابوهم أنهم جنود مصر ويرغبون في مقابلة الملك عيسى . فذهب الخدم وأخبروا الكخيا فحضر هذا الأخير واستقبلهم وقادهم إلى قاعة الاستقبال حيث جلسوا وذهب يعلم الملك عيسى بأمر حضورهم قائلاً : « تعال وتحدّث إلى جنود مصر الذين أتوا يقصدونك » فنهض الملك وتوجه إليهم وبادرهم بالكلام فنهضوا وقبّلوا يده وعادوا إلى الجلوس وقال لهم الملك :

- « ما الغرض من زيارتكم؟ » .
- « لقد حضرنا لنجعلك سلطان مصر » .
- « أو ليس الملك الصالح سلطاناً؟ » .
- « ليرحمه الله تبارك وتعالى . لقد ذهب والدك ضحية الظلم . فلينتقم الله من الذي قتله » .
- « ومن قتله؟ » .
- « واحدٌ يدعى بيبرس » .
- « وأين بيبرس؟ » .
- « لم يحضر بعد ؛ لقد سبقناه » .

ثم جلسوا معه يذمّون بيبرس في غيابه . وأمضوا ليلتهم في القصر ونهضوا في صباح اليوم التالي وقالوا للملك عيسى : « نرغب في الخروج والبقاء في الخيم لأن الوزير شاهين وزير والدك سيحضر مع الأمير بيبرس ؛ وإن شاهدانا معك سيتهمانا بأننا ننقل إليك المعلومات عن بيبرس » . فأجابهم « حسناً » . وانطلقوا إلى خيمهم وبقيوا فيها

واقترب الوزير شاهين مع قواته ونصب خيمة ورأى الجنود الآخرين في خيمهم ؛ لكنه لم يطرح عليهم سؤالاً واحداً فدخل المدينة وتوجه إلى الملك عيسى الذي قال له : « هل أنت بيبرس الذي سمّم والدي ؟ » .

ـ « أنا الوزير شاهين وزير والدك » .

ـ « وأين هو بيبرس الذي سمّم والدي ؟ »

ـ « لقد مات والدك موتاً طبيعياً منتظراً رحمة الله . ومن الذي قال لك إن بيبرس سمّم والدك ؟ »

ـ « الجنود قالوا لي » .

ـ « إن بيبرس في الشام ؛ توجّه إليه واتهمه في الديوان أنّه سمّم والدك واحضر دليلاً ضده » .

فتأكد للوزير أنّ الجنود يحيكون مؤامرة .

وخرج الوزير شاهين مع جنوده من الخيمة ؛ وأتاه محمد ابن كامل الهجان وقبّل يده . وسأله الوزير عن أمر عثمان . فأجابه : « لا أخبار عنه » . وتوجه في هذا الوقت الملك عيسى إلى عثمان وقال له : « لقد حضر الوزير مع جنوده وهم ينتظرون خارج المخيم » . فنهض عثمان مترنحاً ودنا من الخيم ؛ فرآه الوزير شاهين وأدرك أنّه ثمل وناداه فحضر إليه ، فشمّه الوزير وأمسك به وأنزل به عقوبة « الحَدّ » وقال له : « أوَ لم تقلع عن معاقرة الخمر ؟ » . وأجابه عثمان : « لقد دعاني الملك عيسى الذي كنت ستجعله سلطاناً » . وقال الوزير : « سأكتب رسالة لك تحملها إلى الأمير بيبرس » . فأجابه عثمان: « حسناً » . فكتب الوزير الرسالة فأخذها عثمان ورحل ودخل الشام وتوجه إلى منزل الست فاطمة وقدّم الرسالة لسيده الذي قرأها فوجدها تحتوي على ما يلي :

بعد التحية والسلام ـ من حضرة الوزير الكبير ، الوزير شاهين الأفرم إلى صاحب المقام الأمير بيبرس ،

إعرف أن الجنود طعنوا بك وخلقوا الشقاق بين الملك عيسى وبينك واتهموك بأنك سممت والده الملك صالح أيوب . والآن وقد وصلتك هذه

الرسالة انتبه لنفسك ولا تخرج من المنزلِ حتى أرسل لك . وأخيراً أخبرك بأن عثمان سكر في قصر الكركِ » .

إغتاظ بيبرس من عثمان وقال له : « تعال وخذ هدية ؛ فسحب له يده وشدّها فقال عثمان : « ما الذي يزعجك ؟ » فصاح به بيبرس : « أو لم أجعلك تقسم بأن تتخلى عن شرب الخمر ؟ فسأله عثمان « وهل أخبرك ؟ » . فقال له بيبرس : « سألقنك درساً» . فأخذه وطرحه أرضاً وأنزل به « الحدّ » فقال له عثمان : « ما رأيك أن الملك الذي كنت ستجعله سلطاناً وجدته ثملاً ؟ فأجابه بيبرس : « أوَ إن خالف أحدهم تخالف أنت ؟ » فردّ عليه عثمان : « وهل هو الحد الذي أمر به الله ؟ » ـ « نعم » أجابه بيبرس وقال عثمان : « إذن فالحدّ الذي أنزله أبو فرمة بي دين لا بد من إعادة دفعه » . فأردف بيبرس : « لقد أوجد الجنود شقاقاً بيني وبين الملك عيسى واتهموني بتسميم والده الملك الصالح فقال عثمان : « أستغفر الله العظيم » فأردف بيبرس : « هؤلاء الرجال يكرهوني ؛ ولكن لن يصيبنا أذى منهم . ياعثمان نادِ الساسة وسلّحهم واجعلهم يبقون في زقاق حائكي القطن ولا تدع أياً من الجنود يدخلون » . فرد عثمان : « على الرأس والعين » وجمع الساسة وسلّحهم وقسّمهم إلى صفين ؛ ثم اتخذ لنفسه مقعداً وجلس في باحة المنزل . كذلك سلّح الأمير بيبرس كل جنوده وجعلهم في باحة المنزل .

أمّا الملك عيسى فركب حصانه وانطلق مع جنوده حتى دخل الشام فتوجه مع موكبه إلى الديوان وجلس على العرش وسأل ملك سوريا عن بيبرس . فأجابه ملك سوريا : « هو في زقاق حائكي القطن في منزل والدته » . فقال الملك عيسى : « يا شاهين من سيذهب ويحضره ؟ » فأجابه الوزير : « أرسل إليه الأمير علاي الدين البيصري » . فأرسله . نزل الأمير وتوجه إلى زقاق حائكي القطن ، فرآه عثمان وصرخ به : « هل تذكر يا ابن الفاحشة الدجاج الذي أكلته ؟ » ثم ضربه بقضيب شائك فوقع الأمير عن حصانه وانهال عليه عثمان يضربه بالعصا ضرباً مبرحاً . وأقفل عائداً فأخبر الملك الذي قال ثانية :

« يا شاهين من الذي سيذهب ويحضر بيبرس ؟ » فأجاب الوزير : « أرسل إليه الوزير أيبك » . وقال الملك : « إنهض يا وزير أيبك واذهب ونادِ بيبرس » . فكان جواب أيبك : « لا أحد يستطيع إحضاره إلاّ الوزير » . ثم قال الملك عيسى : « إنهض يا وزير شاهين واحضر بيبرس » فأجابه الوزير : « على الرأس والعين ؛ ولكن قبل أن أحضره قل لي هل ستتصرف معه حسب القانون أم تلجأ إلى القوة التعسفية الإعتياطية ؟ » فردّ الملك : « حسب القانون » . فأردف الوزير شاهين : « فليكن كذلك وأنا لا أتكلم هكذا لأي سبب إلاّ لأنني أخشى عليك وعلى قواتك من إراقة الدمَاء ؛ فبيبرس متصلب جداً وجنوده كُثر . وأخشى على الجيش فهو وحده يعادله بكامله . لذا قدّم التهمة ضده وأكد بواسطة القانون أنه سمّم والدك » . فقال الملك : « وهو كذلك » .

نزل الوزير شاهين في الديوان وتوجه إلى زقاق حائكي القطن . فرآه عثمان وقال : « لقد وقعت في الفخ يا أبا فرمة . لقد حان وقت دفع الحساب وعلى الدين أن يعود إلى صاحبه . هل تعرف كيف تضربني ؟ » فقال الوزير : « لقد تحقق الحلم الذي رأيته » . وسأله عثمان : « وما كان حلمك ؟ « حلمتُ ـ قال الوزير ـ ليلة البارحة أنني كنت مسافراً فهاجمني بعض العرب وقيّدوني ورأيت المعلّم الأمير بيبرس فوق قمة جبل فناديته : تعال إليّ يا أمير بيبرس ! فعرفني» . ولمّا كان الوزير شاهين ينادي بهذه الطريقة سمعه الأمير بيبرس فهرول إليه وسيفه في يده فوجد عثمان والساسة يحاصرون الوزير ، فصاح : « عثمان ! » فردّ له الضربة فعنّفه الأمير بيبرس أشد تعنيف والتفت عثمان إلى الوزير قائلاً : « إذن ، لقد وجدت طريقاً للهروب» . فأجابه الوزير شاهين : « يا أمير بيبرس لقد أرسلني الملك عيسى إليك ؛ وهو يفضل أن يوجه الإتهام ضدّك في ديوان الشام بأنك سمّمت والده فهلاّ سلّحت جنودك وحضرت إلى الديوان ولا تخشَ شيئاً بل أظهر براءتك » . فأجابه بيبرس: « فليكن كذلك » وسلّح بيبرس كل جنوده وتوجه إلى الديوان وقبّل يد الملك عيسى الذي قال له : « هل أنت الأمير بيبرس الذي سمّم والدي ؟ فأجابه بيبرس : « فأثبت أنني سمّمت والدك وارفع التهمة أمام القاضي وارفقها بالدلائل؛ والقاضي موجود » .

فقال الملك : « عندي الدليل ضدّك » . فردّ بيبرس : « فلنرَ » . فالتفت الملك : « هنا الوزير أيبك وقلاوون وعلاي الدين . فسألهم الأمير بيبرس : « هل تشهدون ضدي أنني سمّمتُ الملك الصالح ؟ » فأجابوا : « أبداً ، لم نَر شيئاً ولا نعرف شيئاً عن القضية ؛ » فتدخل القاضي « وهل عندك شهود غير هؤلاء ؟ » فردّ الملك : « كلا ، فلا أحد غيرهم أطلعني على ذلك » . عندها قال القاضي « أيها الملك هؤلاء الرجال خبثاء يكرهون الأمير بيبرس » . وتصالح الملك عيسى مع الأمير بيبرس وقال لخدمه : « أحضروا القفطان » فأحضروه وتابع الملك كلامه : « قلّدوه للأمير بيبرس » وأضاف : « لقد عيّنتك يا بيبرس قائداً للجيش » . لكن بيبرس قال : « لا رغبة عندي في هذا الشرف الكبير ولن أضع أيّ قفطان » . فسأله الملك : « ولماذا يا سيد ؟ » فأجابه بيبرس : « لأنني سمعت أنك تشرب الخمر » . فردّ الملك : « أتوب عن شربه » . فقال بيبرس : « فليكن كذلك » . وأقسم الملك لبيبرس أنه لن يعاقر الخمر قط . ولكنّ بيبرس أضاف : « لي شرط أيّها الملك وهو أنك إذا شربت الخمر أنزل بك الحدّ » . فوافقه الملك على كلامه . ثمّ قلّد الملك الأمير قفطاناً وأعدّ له وليمة عامرة وأطلقت النار على شرف هذه المناسبة وأُقيمت الإحتفالات وبقيوا في الشام ثلاثة أيام .

أعطى الملك عيسى الأوامر بالرحيل فشدوا الرحال في اليوم الأوّل من السفر ووصلوا في اليوم الثاني إلى واد كان توقف فيه الرسول ﷺ ، مكان يشبه الجنة تلوّنت فيه الأشجار والجداول والعصافير تزقزق فيه مسبّحة المالك الخالق العليّ الغفور . وقال الملك عيسى : « انصبوا الخيم ؛ سنمضي الليلة هنا » فنصبوا الخيم وذهب النهار مع غزالة ضحاه وانسدل الليل بستائره وجنّ الظلام ووحده الديّوم لا يتغير . والتمعت النجوم في كبد السماء وسهر الحي الخالق على خلقه . وكان القمر بدراً وتاق الملك إلى شرب الخمر بالقرب من الجدول والمرج المنسرح أمامه ، فنادى أبا الخير الذي حضر وقبّل يده فقال له الملك : « نفسي تواقة يا أبا الخير إلى شرب الخمر » . فأجابه أبو الخير : « أوَ لم تنذر بعدم مقاربة الخمر للأمير بيبرس ؟ فقال الملك : « باب التوبة مفتوح

فأطعني» وأعطاه عشر ذهبيّات. فانطلق الخادم إلى أحد الأديرة وأحضر قنينة كبيرة خمراً فقال له الملك « إن رأيت الأمير بيبرس قادماً أصرخ : « تبن » وإذ لم تره فلا تتوقف عن مناداتي بـ : «برسيم». فردّ الخادم «حسناً» وملأ لملكه قدحاً وأعطاه له . وحدث أن كان عثمان بالقرب من الخيم فدنا من خيمة الملك عيسى فرآه جالساً يشرب الخمر ؛ فانطلق وقال لمعلّمه الأمير بيبرس : وحضر بيبرس فرآه أبو الخير خارجاً من خيمته فنادى الملك : « تبن ! تبن ! » . فطرح الملك القدح في الجدول ؛ وأزال أبو الخير الزجاجة وطفق يصلي . ولمّا انتهى من التسليم وجد الأمير بيبرس فقال له : « لماذا حضرت في هذه الساعة ؟ إذهب للنوم فالوقت متأخر » فأجاب بيبرس : « أتيت أسألك إن كنّا سنتابع رحلتنا الآن أو في صباح اليوم التالي » فأجاب الملك : «غداً صباحاً» . وغادر الأمير بيبرس متضايقاً من عثمان فقال له : « أو لم تخبرني يا عثمان أن الملك كان جالساً يشرب الخمر ؟ لقد ذهبتُ فوجدته يصلي أوَ تتحدث كذباً عن السلطان ؟ » فردّ عثمان « لقد عرف كيف يخلص نفسه فما همّ » . ولاذ بيبرس بالصمت .

وأمضوا الليلة حيث هم وأعطى الملك عيسى في صباح اليوم التالي الأوامر بالرّحيل وساروا نحو مصر . فلمّا وصلوا إلى العادلية ونصبوا خيمهم قال الأمير بيبرس « يا سلطان ، لقد وصلنا إلى مصر » فأجابه الملك : « أرغب يا بيبرس في زيارة ضريح الإمام الشافعي » فردّ بيبرس : « أمرك مطاع يا سيدي السلطان : سأصحبك في اليوم التالي لزيارة الإمام » وأمضوا الليلة في العادلية؛ وانطلق السلطان في موكبه في صباح اليوم التالي لزيارة الإمام وعاد في موكب وزار مقام والده الملك الصالح أيوب وانطلق إلى القلعة ، كذلك سار إليها العلماء فتوّجوه سلطاناً وقادوه إلى مخزن الأسلحة ؛ فسحب سيفاً كتُب عليه « الملك المعظّم » فأطلقوا عليه إسم : « عيسى المعظّم » . وسكّوا النقود باسمه وصلّوا له على منابر الجوامع ؛ فقلّد الجنود القفاطين ونصّب الأمير بيبرس قائداً للجيش . ثم كتب السلطان وصية يعيّن بموجبها الأمير بيبرس ملكاً وسلطاناً من بعده . وهكذا أصبحت في عهدة الأمير بيبرس وصيّتان تربطان

-الغرش به ـ وصية الملك الصالح أيوب ووصية الملك عيسى المعظّم . واستاء أيبك وقلاوون وعلاي الدين ومناصريهم من أمر هذه الوصية وهم يكرهون الأمير بيبرس بينما آغتبط مؤيدوه أشد الإغتباط . ونزل الجنود من الديوان وتوجهوا إلى منازلهم ؛ كذلك توجّه الأمير بيبرس في موكب مهيب إلى منـزله في « القنـاطر السبع » .

وأرسلت الملكة شجرة الـدّر في طلب الملك عيسى المعظّم الـذي توجّـه إلى قصرها . وقبّلت شجرة الدر يـده فقال لهـا: « من أنت؟ » فأجـابته: « زوجـة والدك الملك الصالح » و« ما أسمك ؟ » سألها الملك . « الملكة فاطمة شجرة الدّر » أجابته فصاح « يا مرحباً إدعي لي » فقالت : « ليهـدِك الله » ثم كلّفته بمهمة تتعلق بالأمير بيبرس فقالت له : «لقد كان والدك يفضّله على سائر القادة الآخرين وأنا عاهدته أمام الله » ؛ فـأجـابها : « يا أيتها الملكة ، لقـد كتبت له وصية أعهد له بالعرش من بعدي » . فأجابته : « كذلك فعل والدك عندما كتب وصية توصي له بالعـرش من بعده» ثم قـال لها الملك « لقـدْ أوجد هؤلاء القادة شقاقاً بيني وبينه وأكدوا أنّه سمّم والدي » . فأجابته : « أستغفر الله ! إنهم يكرهونه » . ثم بقيتْ الملكة تتحدث معه لفتـرة وجيزة وآنصـرف إلى حجرتـه حيث أمضى ليلته .

عقد الملك في اليوم التالي إجتماعاً وكانت القاعة مكتظة بالجنود . فغمز الملك لأبي الخير وقال له : « أعطني حتى أشرب » . وكان قـال له في اليـوم السابق : « أحضر لي زجاجة ماء ملأى خمراً » . فلما جلس الملك عيسى على العرش وكانت القاعة مكتظة بالجنـود تشبه الحـديقة والجنـود يشبهون أغصـان الشجر ، راوده حنين إلى شـرب الخمـر فقـال لأبي الخيـر : « أعـطني حتى أشـرب » وغمـز له ؛ فأحضر له زجاجة ماء فشرب ثمّ أعادها . ثم جلس فترة أطـول وقال ثـانية : « أعـطني حتى أشرب يـا أبا الخيـر » ؛ فـأحضـر الخـادم لـه الزجـاجة وشـرب ثمّ أعادها . ثم جلس فترة أطـول وقال ثـانية: «أعـطني حتى أشرب » . فقال قلاوون : « يا علاي الدين يبدو أن السلطان تناول الكوارع عند

الفطور » فسأله الوزير شاهين : « ماذا أكلت ؟ » فردّ عليه الملك : « إن معدتي تحرقني وبطني متطبّل » . لكن الوزير أشتم رائحة الخمر فغضب وآنفعل . ثم انفضّ الإجتماع ونزل الجنود كذلك فعل الوزير شاهين وأصطحب معه الأمير بيبرس إلى منزله وقال له : « اللّه يجازيك يا بيبرس » . فردّ بيبرس : « لماذا » فأجاب الوزير : « لأنك لم تقبل العرش » . فسأله بيبرس : « ولماذا تقول هذا الكلام ؟ » فردّ الوزير : « لقد شرب السلطان خمراً اليوم ثلاث مرات وهو جالس على العرش فعندما يسكر الخليفة وهو يدير القوانين ؛ تصبح قراراته باطلة ولا يعود له الحق في إصدارها » فردّ بيبرس : « لقد اشترطت عليه أن من حقي أن أنزل به الحدّ إذا شرب الخمر ؛ ولقد كتبتُ وثيقة بهذا الخصوص في الشام » . وقال الوزير : « راقبه غداً عندما يعقد الجلسة وخذ زجاجة الماء منه وأنظر ما في داخلها . لقد اشتممتُ رائحته » . فأجابه بيبرس : « معك حق » ثم نهض ومضى حزيناً إلى منزله . وفي صباح اليوم التالي توجه إلى الباحة فوجدها مكتظة بالقوات فقبّل يد السلطان وجلس في مكانه وسمع السلطان يقول . « أعطني حتى أشرب يا أبا الخير » . فأحضر الخادم زجاجة الماء وشرب السلطان ـ وأمسك بيبرس بزجاجة الماء وقال : « أعطني حتى أشرب » فردّ الخادم : « ولكنها مياه علاجية » . « لا يضرّ » أجاب بيبرس . وقال الخادم : « إنّه ماء زهر » . « حسناً » أردف بيبرس . وأخذ الزجاجة وقال : « أحضر حوضاً » فأحضروا له حوضاً وأفرغ محتوى الزجاجة أمام الجنود ؛ فرأوا أنّه خمر . ثم آلتفت الأمير بيبرس وقال للسلطان : « هل سمح لك الله أن تكون خليفته وأن تسكر ؟ أوَ لم أحملك على التعهد بعدم شرب الخمر فقلتُ لك : إذا شربته أنزل بك الحدّ . أو لم أكتب هذا التعهد في الشام ؟ » . فأجاب السلطان : « إنها عادة لا حول لي عليها يا بيبرس » . فصاح بيبرس : « اللّه شاهد يا جنود ! » ثم قاد السلطان وضربه وكان هذا الأخير ثملاً فأغمي عليه ؛ ففك بيبرس قيده وتركه وتوجّه إلى منزله .

يتحدث الجزء الثاني من السيرة عن المشاكل التي اعترضت بيبرس نتيجة استياء الملك عيسى من التصرف الذي أتينا على ذكره وتصالحه معه ومغامراته

خلال عهود السلاطين المتلاحقة : الخليل الأشرف الصالح الصغير وأيبك (خصمه اللدود) والمظفر ثم وصوله إلى الحكم . وأمّا الأجزاء الأخرى فتروي قصص حروبه في سوريا وبلدان أخرى مفصّلةً العديد من المآثر الرومنطيقية والبطولية وآنتصاره على « الفداويّة » . والفداوي هو في الواقع الشخص الذي يقدّم حياته فدية لرفاقه أو لقضيّتهم والفداوية هم طبقة المحاربين الذين لا يقدمون ولاءهم لأي سيد إلاّ لقائد يختارونه بأنفسهم - وهم من طبقة الصليبيين والـ ASSaSSinS - والكلمة تحريف كما ذكر المستشرق « دو ساسي » De Sacy لكلمة « الحشاشين » لإدمانهم على الحشيش . وتؤكد رواية الظّاهر الأتيمولوجيا التي قدّمها « دو ساسي » لهذه الكلمة ولكنّه يقترح تفسيراً مختلفاً - إذ يصف الفداوية في الرواية وكأنّهم مدمنون على « البنج » (مادة مخدّرة وسامّة تخلط غالباً مع الحشيش) يضيفونه إلى طعام عدوهم أو شرابه فيدعونه للطعام بعد أن يتنكروا في شكلهم فيغط العدو بسرعة في نوم عميق ، فيقيدونه على راحتهم ويأخذونه إلى حيث يشاؤون . يعرف زعيم المقاتلين « بالشيحه » ولقبه : « سلطان القلاع والحصون » الذي تصفه الرواية بأنّه يحاول جاهداً القضاء على كل الفداوية ليخضعوا له ولبيبرس . ولقد أضحى اسمه التسمية المعروفة التي تطلق على الأشخاص ذوي الشخصيات المشابهة «لبروتوس» في براعتهم في التنكر وتدبيرهم المكائد . ومن الشخصيات المميزة في هذه الرواية : « جوان » (John) وهو أوروبي مسيحي درس الشريعة الإسلامية بعمق فنجح في الوصول إلى منصب قاضي القاهرة لسنوات عديدة ؛ وتصوّره الرواية بأنّه كان دائماً يدبر المكائد ضد بيبرس والشيحه وغيرهم من القادة المسلمين .

تعتمد الرواية على موهبة المحدّث ومهارته في جذب انتباه الجمهور إليه ؛ فيضفي على الرواية تحسينات كبيرة فيغيرّ في سردها أو يخلق فيها جواً حماسياً

الفصل الثالث والعشرون

رواة القصص الشعبية (تابع)

تشهد القاهرة نوعاً ثالثاً في رواة القصص الشعبية يعرف أصحابها بـ « العناترة » أو « العنتريّة » (وواحدهم هو العنتري) ولكنّ عددهم أقل من طبقتي الرواة السابقين وهو لا يزيد في القاهرة حالياً ـ كما قيل لي ـ عن ستة أشخاص .

يحمل العناترة هذا الإسم من روايتهم « سيرة عنتر » ؛ وتجدر الإشارة إلى أنّ « تيريك هاملتون » Terrick Hamilton نقل « سيرة عنتر » إلى اللغة الإنكليزية بدقة كبيرة . يعتمد « العناترة » على قراءة كتاب السيرة عند روايتها لمستمعيهم ؛ وهم يغنون الشعر المكتوب فيها ولا ترافقهم الربابة . ومعظم الأشخاص الذين يستمعون إلى رواية السيرة يتمتعون بشيء من الثقافة ؛ فالشعر الوارد فيها لا تفهمه العامة جيداً .

يستقي العناترة حكاياتهم من أعمال أخرى غير « سيرة عنتر » ؛ فينهلون القصص من « سيرة المجاهدين » أو « سيرة الأميرة ذات الهمه » (أدلهمه) . كذلك يعتمد الرواة ومنذ سنوات على « سيرة فارس اليمن الملك سيف إبن ذي يزن البطل الكرار» (والشائع « سيف اليزن » و « سيف اليزل ») وتحفل الرواية بقصص العجائب والغرائب كما يستقون رواياتهم من كتاب « ألف ليلة وليلة » . بيد أن الرواة يسقطون سرد هاتين الحكايتين من برامجهم بسبب الصعوبة الكبيرة في تأمين نسخ عنها . أما إن كان الراوي حسن الطالع ووجد نسخة من كتاب

« ألف ليلة وليلة » فلا يكون بمقدوره دفع ثمن باهظ مقابل حصوله على نسخة منها وأعتقد أنّ مسلمي مصر المحدثين يفضلون سماع قصص « أبي زيد » و « الظاهر » و « عنتر » و « ادلهمه » بدلاً من قصص « ألف ليلة وليلة » لأنّ في نفوسهم مسحة بداوة قابعة في الأعماق ، فتراهم يستسيغون سماع قصص الحروب وأخبارها

أحاول في المقاطع التالية تقديم فكرة واضحة لقارئي عن المؤلفات التي يعتمدها الرواة المحترفون في القاهرة لتسلية سامعيهم ؛ والمقتطفات التي سأعرضها مأخوذة من مغامرات « ذات الهمة » . وتجدر الملاحظة أن هذه الرواية نادرة جداً أكثر من الروايات التي ذكرتها آنفاً ، وقيل لي إن نسخها موضوعة في خمسة وخمسين جزءاً . ولم أفلح بعد طول بحث إلّا في تأمين قسم يتضمن الأجزاء الثلاثة الأولى إضافة إلى قسم آخر يشمل الجزءين السادس والأربعين والسابع والأربعين . وكان الجزء السادس والأربعين ليشكل نموذجاً جيداً للعمل لولا نقل قسمه الأكبر للأسف بخط اليد في كتابة غير واضحة ؛ فلم أستطع قراءة سوى الجزء الأول . تتمحور مواضيع هذا العمل الرئيسية حسب ما جاء في المقدمة حول بطولات عرب الصحراء في الحروب زمن الأمويين والعباسيين وهو يضم روايات كتّاب مختلفين . ويذكر الكتاب أسماء تسعة مؤلّفين بيد أنّ أحداً منهم غير معروف اليوم ونجهل في الواقع سير حياتهم وأعمارهم ويتضّح من أسلوب كتاباتهم أنّهم غير محدثين . يتحدث العناترة والمحدّثون عن السيرة فيقولون : - إكتسبت سيرة عنتر شهرة واسعة عندما قام الأصمعي بتأليفها أو جمعها كما بثّت الحماس الكبير بين الناس بالنسبة إلى مواضيع مغامرة المقاتلين العرب مما اقتضى بحثاً طويلاً عن سائر القصص من النوع ذاته وعمد مؤلف غير مشهور اليوم إلى جمع « سيرة المجاهدين » أو « ذات الهمة » ؛ ولم يستطع صاحب هاتين السيرتين مضاهاة مؤلف « سيرة عنتر » فصاحة فقرّر التفوق عليه في طول الروايات . ولمّا كانت أجزاء عنتر مجموعة في خمسة وأربعين جزءاً ، قرّر هذا المؤلف تجاوزه فرفع عددها إلى خمسة وخمسين جزءاً . تحفل رواية ذات الهمة بالشعر الذي لا يخلو من الروعة والجمال ولا من

الأخطاء التي لا بد أنها عائدة إلى الناسخين أنفسهم . وأقدم لقارئي جزءاً ممّا قرأته يعرّفنا بأحد الشخصيات الأساسية في المؤلف(*)

نقرأ في بداية الكتاب أنه « لم يكن في العرب العربا ولا في السادة النجبا في زمن بني أمية أشد بأساً ولا أقوى مراساً ولا أعظم اقتداراً ولا أجلد صبراً ولا أسنا حنايا ولا أسماً علماً ولا أفخر ولا أشد حكماً ولا أشرف عند الأنساب ولا أقوى عند الطعان والضراب من بني كلاب السادات الأنجاب ولم يكن الملك فيهم ولا الإمارة إليهم بل كانت لبني سليم . وكانت بني كلاب تفتخر بكثرة أموالها وكون الإمارة فيها .

قال الراوي « وكان الحارث زعيم بني كلاب شجاع من الشجعان وفارس من الفرسان لا يخاف من سطوة الإقبال ولا يخشى الأسود من الرجال وكان صاحب غارات على أحياء العرب ممن دنى منه وفي قرب وكان له زوجة اسمها الرباب وكانت ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال، وكان الحارث قد أغار على بعض أحياء العرب فمسك أبطالهم ونهب أموالهم ونساءهم فرأى بينهم صبية فأعجبته وكان اسمها الرباب فأخذها خطيفة واختارها لنفسه وقد هام بحبها . ودخل بها الحارث ومضى بها في البر الأقفر فقضى الأمر المقدر أنها حملت منه . فلما تكامل حملها وبان ثقلها فنامت ذات ليلة من الليالي فرأت في منامها ولذيذ أحلامها كأنّها في صحرة من الصحرات وحولها فسيح البراري المقفرات وأنها تقدمت إلى تل عالي وقد انكشف ذيلها وخرج من تحتها نار متأججة ولها ألوان متوهجة فخرجت إلى الأرض فحرقت جميع ما عليها ما بعد منها وما قرب . فانتبهت فزعانة . فقال لها الحارث ما لي أراك منزعجة الخاطر فقالت له من أمر رأيته وهول عاينته وذكرت له المنام في أوله إلى آخره .

فلمّا أصبح الصباح خرج الحارث من داره يريد كاهناً من الكهان يفسر له

(*) تجدر الإشارة إلى أننا توخينا تقديم الجزء الذي ينقله « لاين » كما وردت في قصة سيرة ذات الهمة من طبعة قديمة بالنثر المسجّع والشعر الموزون .

المنام . وإذا بوفد قد أقبل ومعهم شيخ كبير والقوم يشيرون إليه بالتوقير فأقبل الحارث إليه وقصّ عليه المنام . فقال الشيخ للحارث إني أرى أمرك عجيب وسوف يكون حديثك أمر غريب فإن وافق الزجر وصدق الأمر فإني في الأمم السالفة عن الكتب التي تقولها الأمم العارفة أن هذه المرأة تلد مولوداً له شأن وأي شأن ولم يكن مثله في هذا الزمان ويخرج من صلبه ولد عظيم أعظم منه وأدين منه وأتقى وأحسن إلا خوفي على والدته من الموت عند ظهوره إلى دار الدنيا والسلام .

قال الراوي: « فقال له الحارث يا دهقان من حيث بشرتنا بأن يأتينا هذا المولود السعيد ونسلنا يزيد فما علينا من أنفسنا متنا أو عشنا ثم أن الحارث أنعم على الشيخ الدهقان نعمة عظيمة جزيلة وأيضاً زوجته أخلعت عليه خلعة سنية ويكون في أوله هذا ما كتبه الحارث بن صعصعة بن كلاب وهو لاحق بنسبه وكتب الشيخ ما قالت له عليه وطواه وجعله في قصبة من الفضة وسلمه إلى الرباب وقال لها إذا وضعتي هذا المولود فعلقيه عليه فأحسنت إليه وراح إلى حال سبيله .

قال الراوي : « ولم يلبث الحارث بعد ذلك إلا أيام قلائل ثم مرض مرض الموت فلم يمضِ عليه إلا شيء يسير حتى مات وقضي نحبه ولحق بربه .

قال الراوي : وكانت العرب تعظم الحارث لأجل شجاعته وقوته وبراعته لأنه قهر العربان وأباد الشجعان فلما مات اختلفوا من بعده وفرح أكثرهم بموته وقد أرادوا قبائل العربان أن يشنوا الغارات على حيه وأهله وحريمه وعائلته وينهبوا ماله ويهتكوا عياله. فلما نظرت الرباب إلى ذلك الهوان بعد العز وعظيم الشأن ، دعت بغلام لها بعد ما اختلط الظلام ونامت عيون الأنام فأقبلت على غلامها وكان اسمه سلام وكان قد تربى عندها في العز والأنعام فقالت له تأخذني وتسير تحت الليل حتى لا يلحقنا شيء من الخيل وتوصلني إلى حلتي وقومي وأهلي أو إلى بعض أحياء العرب نلتجيء إليهم ونسير مختفين ومتنكرين . قال الراوي : « وساروا تحت الليل وتركوا أكثر الأموال فلما خرج

بهـا من الحي عرج عن الـطريق وهي لا تعلم وقصد بهـا قرب حي من أحيـاء العرب وكان أمير ذلك الحي يقال له دارم فلمّا قرب بها وقد حدثته نفسه بوصالها لمّا رأى حسنها وجمالها وقد وسوس له الشيطان أن يفعـل بها القبيـح في تلك الساعة فراودها عن نفسها وطلب منها ما تطلب الرجال من النسـاء فقالت لـه : ويلك يا عبد يا زنيم أترك عنك هذا الفعل الذميم واستعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم .

قال الراوي : « ثم إنه تقدم عليها ومد يده إليها وأراد الـوثبة عليهـا فمن شدة الدفعة وما لحقهـا من الفجعة دفق عليهـا الدم ولحقهـا الطلق بـإذن خلق الخلق فلما رأى العبد منها ذلك تأخر عنها وجرجرها حتى أتى بها إلى نهر مـاء كان هناك وقال لها إغتسلي من ذلك الدم وأقطعي فرطه وبعد ذلك واصليني أمّا الرباب فإنهـا لما جلست بجـانب النهر وهي تبكي فقـوي الطلق فتمخضت وتوجعت ومن بعد ساعة وضعت ولداً ذكراً كأنه فلقة قمر فقطعت سرته ولفته في قطعة من إزارها وقد قمطته بخمارها ثم إنها بعد ذلك علقت عليه القصبة الفضة التي فيها الورقة المكتوبة بخط الشيخ الدهقان بحسبه ونسبه ثم إنها أخذته في حجرها وألقمته ثديها . . .

قال الراوي : « فهذا ما كان من الرباب وما جرى لها من الأسباب . وأمّا ما كان من العبد سلام فلما طال به المطال أتى لينظر ما الذي أشغلها عنه . . . . فما تركها العبد سلام حتى أنه جذب الحسام وضربها على الهام طير رأسها إلى قدام فوقعت إلى الأرض على جنبها والولد في حضنها والثدي في فمه ولما أن قُتلت أخذ العبد ما كان معها من المال وتركها مرمية على الرمال وسار في تلك البراري والقفار وقد نجا لنفسه

قال الراوي : « . . كان بالقضاء المقدر والأمر المدبـر أن زوجة الأميـر دارم صاحب تلك الحلة كانت حامل فوضعت في تلك الأيام ولد ومات فـدفن فصعب ذلك على الأمير دارم وقد حزن عليه . . ولم يجد شيئاً يفرج بـه كربـه فأشاروا عليه أهل الحلة أن يخرج إلى البر والفضـا وأن يتسلا بـالصيد والقنص

لينفرج ما يقلبه من الهم والغم والنغص . . حتى ساقه القضا والقدر إلى ذلك الغدير فوجد الرباب وهي في تلك البرية ملقحة مرمية وهي مقتولة وذلك المولود نائم جنبها وهو مثل القمر وهو يرضع من ثديها وكان الحر قد هجز فأرسل الله إلى ذلك الغلام طير يسمى الجندب فجعل يظلل على الصغير من ذلك الحر والهجير فلما أن رأى الأمير دارم إلى ذلك التفت إلى بعض من كان معه من مشايخ الحلة وقال له يا ابن العم أنظر إلى هذه الصبية المقتولة وانظر إلى هذا الصغير الذي هو جنبها وذلك الطير يظلّله وأمه ترضعه وهي مقتولة فَوَحقّ ذمة العرب إن لم تكشف لي عن خبر هذه الصبية وسبب قتلها وإلا رميت رأسك مثلها فقال له الشيخ وكان وزيره ومدبر أمره ومشيره يا ملك ما يعلم الغيب إلّا الله سبحانه وتعالى هو أنا كنت معها لما قتلت أو كان لي بها معرفة لكن زم لي وأنا أخبرك بما جرى لها على التخمين فقال له الملك أعطيتك الزمام فقل ما أنت قائل في المقال حتى أسمع ما تقول فقال له الوزير حيث أنك قد أعطيتني الزمام اسمع مني الكلام يا ملك أقول والله أعلم إن هذه بنت ملك من ملوك العرب الثقال فكبرت عنده فطلبها ملك أو أمير ما رضي به أن يزوجها له فكبرت إلى أن بلغت من العمر فأرميت عينها على أحد من بعض خدمهم فأخلى بها فعلقت منه بهذا الغلام فعلموا بها أهلها وقد شاع خبرها فأخذوها وقد أتوا بها إلى هذا المكان وقتلوها لما أن وضعته وتركه بجنبها ومضوا عنها وخلوها ملقحة كما ترى وهذا ما عندي وما دخل في ذهني وهو على غالب ظني والسلام

قال الراوي : « فلما سمع الأمير دارم من وزيره ذلك المقال قال له يا كلب العرب إيش هذا الكلام أيقال في حق مثل هذه ذلك المقال فوالله لولا أنني أعطيتك الزمام لوشحتك بهذا الحسام يا ويلك لو كانت زنت به ما كانت نائمة ترضعه وهي قتيلة ميتة وما كان الله قيض الله هذا الطير يظلله .

قال الراوي : « . . . ثم أن الأمير دارم أرسل إلى الديار أحد الرجال وأمره أن يأتي بغاسلة وإيزار . . ولما حضرت الغاسلة أرسل الأمير فأتوا بخيمة فنصبوها بجانب النهر . . . ولمّا فرغوا من الغسل أدرجوها في الأكفان وكان الأمير دارم أمر بحفر قبر فحفروا لها الرجال قبراً واسعاً . . .

قال الراوي : « فهذا ما كان من أمر الصبية وما جرى لها وأما ما كان من أمر الأمير دارم فإنه لما فرغ من ذلك أخذ المولود وسار به إلى الديار ولما أن وصل إلى الحي دخل إلى أبياته فلقيته زوجته الأميرة حسنا . . ومدّ يده إليها وقد أعطاها الطفل وأعطاها الحرز الذي كان عليه وقالت له ما نسميه فقال لها جندبة لأنني قد وجدت على رأسه جندبة فأخذت الولد في حجرها وألقى الله تعالى محبته في قلبها وفي قلب الأمير دارم وتربّى في الأحضان وحجور الجوار إلى أن انتشى وترعرع ومشى وما زال به أيام وشهور وسنين إلى أن بقي له من العمر سبع سنين ووده الكتّاب فقرأ وعاد وقد بلغ حده فركب الخيل وخاض الليل وتعلم الفروسية . . . وقد طلع فارساً لا يطاق وعلقماً مر المذاق ولا بقي له ثاني في المحلة وصار آفة من الآفات وبلية من البليات.

يا سادة : « فهذا ما كان من جندبة وتربيته . وأما ما كان من الأمير دارم فإنه خرج في بعض الأيام إلى الكسب والمعاش كما جرت عادة العربان ومعه جماعة من الفرسان فوقع في أرض إمرأة يقال لها الشمطاء بنت الملك الضحاك وكانت من الشجعان وتعد من الأقران وتخاف منها الأبطال في حومة الميدان وتحسب حسابها الرجال والفرسان . . . ولما أن خرج الأمير دارم من حيه فلم يقع بالأمر المقدر إلاّ في الحي الذي للشمطاء فساق مالها وهو لا يعلم بحالها وكان معه مائة فارس من قومه ولما أن ساق المال انقام عليه النفير وقد أعلموا الشمطاء بذاك الأمر الخطير فركبت وسارت إليه ولما أن قربت منه حملت عليه وعلى من معه من الفرسان فقتلت منهم البعض وبعدها قصدته مثل اللبوة الطلوب أو الماء إذا اندفق من ضيق الأنوب وحملت عليه فلما رآها الأمير دارم عرفها وعلم أن ما بقي له مناص فالتقاها إلا أنها منعته وجادلته وراوغته وقاتلته القتال الشديد وطعنته بعقب الرمح أقلبته على وجه الأرض ونزلت إليه كتفته بفاضل عمامته وضربت جوادهُ فخرج إلى الفضاء وهربت باقي رجاله من بين يديها وعاودوا راجعين إلى الديار وهم ينادون بالويل والدمار . . . وكان للأمير دارم عشرة أولاد ذكور أبطال شداد ولهم بصيرة في الحرب ومواقع الطعن والضرب . . . ثم أن أولاده العشرة لبسوا دروعهم وركبوا على خيولهم وخرجوا

من حيهم وساروا إلى الشمطاء مبادرين لحماها قاصدين ولحربها ناوين . . فلما رأتهم ثارت كأنها اللبوة المصممة . . ثم إنها جردت الرمح إلى أن صارت في وسط الميدان ونادت يا أولاد دارم ها أنا قد خرجت إليكم فانصفوني في الميدان . . وحملت على بقيتهم فأسرتهم واحد بعد واحد وجعلتهم في الأصفاد .

قال الراوي : « وأتى الخبر إلى أمهم فصاحت وولولت وبكت وعددت . . . وكان جندبة غائب عن الحي وقد كبر وانتشا وبلغ مبالغ الرجال . . . وسار إلى حي الشمطاء فرأته ورأت الفروسية تلوح من بين عينيه والشجاعة تشهد له لا عليه فقفزت على حصان مثل السرحان أو الكاسر من العقبان وخرجت وهي طالبة إليه وصاحت عليه . . . ثم أنها حملت عليه ووصمت بالطعنة إليه فوجدته ثابت غير مكترث بها . . . فلما رآها جندبة حمل إليها وهجم عليها وضايقها حتى سدّ طرائقها وطعنها في صدرها طلع الرمح يلمع من ظهرها فانقلبت قتيلة في الأرض جديلة ولمّا رأوا قومها إلى ذلك فحملوا على جندبة الأربعين حملة رجل واحد فتلقاهم مثل ما تلتقي الأرض العطشانة أوائل المطر وثبت لهم ثبات الأسود وصاح بهم يا ويلكم ما هذا الحي وما هذه الأعمال أما أنتم رجال أصحاب عقول وإنني والله ما قتلت الشمطاء إلا على شأنكم لأنكم أسود وشجعان وأنتم تخدموا إمرأة عجوز لا قدر لها ولا شأن وإني ما فعلت بها هذه الفعال إلا لأجل فعالها بالرجال هذه الفعال . . . فلما سمعوا كلامه بعد أن عاينوا فعاله نظر بعضهم إلى بعض وقالوا والله الصواب الذي قاله ثم إنهم امتثلوا قوله وقالوا والله العظيم إن هذا الأمير كلامه صحيح والتمسوا عليه وقالوا له إفعل ما تريد ونحن لك من جملة العبيد .

قال الراوي : « . . . فلما سمعوا المقال وعاينوا كرمه بين الرجال وساروا به إلى أن وصلوا إلى حصن المشطاء ودخلوا إلى داخل الحصن وقد أحضروا له جميع ما كان للشمطاء من المال فقسمه عليهم ولم يأخذ منه عقال وبعد ذلك قام الأمير جندبة إلى المكان الذي فيه دارم وخلصه مما هو فيه من الأغلال والقيود وخلص أولاده مما كانوا فيه من النكال وخرج بهم من الحصان وأركبهم على

الخيول العوال ورجعوا إلى الأحياء بالماء والنوال والنوق والجمال والخلع النفيسة الغوال .

قال الراوي « فهذا ما كان من الأمير جندبة وما بان منه وأما ما كان من أمر الأمير دارم فإنه لما رأى من جندبة تلك الفعال ورآه وقد شاع ذكره بين القبائل والأبطال لحقته من ذلك الغيرة والحسد وقد حلّ به الكمد وأصابه ما أمرض منه الجسد وقال والله العظيم إن هذا الولد لا بد ما يزيد أمره ويعلو شأنه وقدره ويقوى سلطانه وخطره وربما أن يملك وتبقى كلمته نافذة فينا وما لي إلا أن أطرده من تلك الديار خير لنا وأقول له أطلب مكاناً في غير هذه الأحياء ولما قوي عزمه على ذلك الحال أقبل على الأمير جندبة وقال له يا جندبة ما لي أراك على هذه الصفة لما خلصتنا من الشمطاء كأن نفسك قد أعجبتك وعلتك علينا ونحن قد ربيناك وأنت صغير ولنا عليك الفضل والمنة والخير الكثير فقال له جندبة وما الذي رأيت مني من القبائح حتى إنك تقول لي هذا المقال ثم إنه ولى عنه وهو حردان فعند ذلك أتى دارم إلى بيته وأهله وعشيرته وكبراء أهل الحي ولما أن صاروا عنده أعلمهم بما يريد أن يفعله ثم إنه أشار إليهم بما يقول هذه الأبيات بعد الصلاة على سيد السادات :

ألا يا عزوتي وأولاد عمي	أنا من ذا الفتى قد زاد همي
لقيته في البراري يوم صيد	بيرضع أمه فازداد غمي
عليها وهي فوق الأرض صرعى	ومنها الجرح فوق الأرض تدمي
ولا أب له في الناس يعرف	فجبتوا إلى الحي ملفوف مغمي
لبنت العم وقلت لها ارضعيه	سريعاً ارضعته بنت عمي
ولما أن كبر فشمخ علينا	وكبر النفس للأبصار يعمي
فلم أرضى بهذا الفعل منه	قلت له إذا من عظمي همي
ترحل من حمانا واجتنبنا	فما نحتاج من للحي يحمي
وأنت لقيط ثم رديء أصل	ولا أنت ابني ولا ابن عمي

قال الراوي : ولما فرغ الأمير دارم من نشيد ذلك الشعر والنظام قال لأولاد

عمه وها أنا أحضرتكم لتشيروا علي بما يكون فيه الصلاح فعند ذلك أحضروا جندبة وأسمعوه ذلك الكلام فلما سمع ذلك الكلام صار الضياء في عينه ظلام وأشار مجيباً للأمير دارم على عروض شعره يقول :

أيا من للعدا بالسيف يقمي	كلامك زاد تنكيدي وغمي
أنا كنت أعتقد أنك أبويا	وبنت عمك الحسناء أمي
فأنطقك الاله بقول صدق	عرفت أني لقيط فزاد همي
وحق التربية قد صار عندي	لكم دين لتربيتي واسمي
ومن حين أن بغضتموني دعوني	لأترك ارضكم وألا أكون مغمي
وأرحل في الفلاة لحي قومي	لهم بالسيف طول الدهر أحمي
أناس يعرفوا قدري ويرعوا	حقوق الضيف للمعروف يسمي
لعلي أن أرى حسبي ونسبي	وأعرف من أنا وأبي وأمي

قال الراوي : « ولما أن فرغ الأمير جندبة من شعره طلب من الأمير دارم الرحيل والإذن في المسير من الحي بعد أن شكره على تربيته وإحسانه إليه فقال له إرحل ولكن أريد منك حاجة أن تقضيها لي فقال جندبة وما هي الحاجة فقال نريد أن تدفع لنا هذا الحرز الذي هو على عضدك معلق حتى إننا ننقله ونعود بعد ذلك ندفعه إليك وبعد ذلك إرحل إلى حال سبيلك لأننا في غنى عنك إلا أن أهل الحي أرادوا أن ينتفعوا بهذا الحرز لأنهم كانوا متبركين به . . . فقال جندبة سمعاً وطاعة ثم أن جندبة أخرج الحرز من على عضده ودفعه إليهم ولما أخذه الأمير دارم منه ففتحه وقرأ فوجد فيه حسبه ونسبه وقومه وعربه ولما عرف الأمير دارم أنه ابن الحارث الكلابي صاح يا للعرب فاجتمعت عليه الأبطال من قومه وقالوا له : ما بالك أيها الأمير وما هو الأمر الذي جرى لنا فقال لهم يا بني عمي اعلموا أن هذا الغلام الذي رأيته هو ابن الحارث الكلابي ولنا عليه ثأر من قديم الزمان وبيننا وبين أبيه خطب جسيم فدونكم وإياه فأقتلوه وبسيوفكم قطعوه وخرج جندبة من بينهم فلحقه الأمير دارم وهو يصرخ في القبائل وينادي في الأبطال دونكم وإياه فأبوه هو الذي أخرب بيوتنا وشتتنا من أوطاننا وأهلك أبطالنا ونهب أموالنا

قال الراوي : « فالتفت جندبة إلى الأمير دارم وقال له إعلم أن لك عليّ حق التربية ولي عليك حق خلاصك من حصن الشمطاء فرد عني وأرجع خليني أقصد ديار الله الواسعة وأماكنه الشاسعةو فإن قلبي منك قد نفر ولا ينبغي أن يكون لي عندكم مستقر فقال له الأمير دارم كيف أعوذ عنك وأدعك تخرب ما بقي من البلاد وتهلك العباد . . . ثم أن الأمير دارم حمل عليه هو وأولاده حملة واحدة فعطف عليهم جندبة وطعن دارم في صدره أطلع السنان يلمع من ظهره وقتل اثنين من أولاده في حملته وفرق الباقي بصولته .

قال الراوي « وإذا بأمهم قد أشرفت عليهم ومعها جماعة من الحي وصاحت بجندبة يا ولدي بحق التربية ألا ما عفوت عنهم ولا تكن منهم فلما سمع جندبة كلامها رق لها وعفى عنهم وتركهم وسار على وجهه إلى أن وصل إلى قصر الشمطاء فلما رأوه السودان الذي لها عرفوه ورأوه وهو مذعور فسألوه عن قصته فأخبرهم بالأمر الذي جرى عليه فتعجبوا من ذلك فقال لهم جندبة : هل لكم أن ترحلوا بنا من هذا الوادي إلى واد غيره وأرض أخصب من هذه الأرض وأكثر مرعى ونكون فيها نقطع الطريق ونخون السبيل فقالوا له حبا وكرامة فنحن لك عبيد وسامعين مطيعين ثم أخذوا جميع ما يحتاجون إليه وخرج هو وإياهم تحت جنح الليل إلى أن انجلى الغسق وإذا هم وقد وقعوا في برية موحشة معطشة مدهشة لا نبات فيها يطلع ولا وحش فيها يرتع وحشة المنظر دهشة المخبر تفزع الجن من مسالكها ولا تقرب دكاكها ما فيها مجيب لمن صاح وزعق ولا ينال الإنسان بها رمق .

قال الراوي : «ولم يزالوا سائرين وعلى الله متوكلين وبعض من السودان بغض جندبة لأجل ما سلك بهم تلك الأرض الصعبة وأرادوا قتله من حيث أنه لا يعلم وبعضهم يكن على أغراض بعض ويقولوا لنا أسوة به إن هلك هلكنا معه وإن سلم سلمنا معه فطابت قلوب جماعة منهم في الظاهرة ولم يزالوا سائرين وبعد ساعة وصلوا إلى أرض خصبة معشبة ففرح القوم بتلك الأرض ونزلوا فيها واستراحوا بقية نهارهم وعولوا على المسير من ذلك المكان فتوقف بعض السودان واختلفوا في النقض والإبرام فقال جندبة في سره هذه وجوه لا يفرح بها رفيق ولا

تنفع في شدة ولا في ضيق . . . ثم أن جندبة لاعبهم وضاحكهم وصبر إلى أن غلب عليهم النوم فقام إليهم وبدا بالخنجر إلى الأول وذبحه من أذنه ولم يزول يدور عليهم واحد بعد واحد إلى أن ذبح الجميع ثم أنه أخذ من الخيل أجودها وسار تحت الليل ولم يزل سائر إلى أن أصبح ونظر بين يديه إلى رياض حسنة زهرة بروائح عطرة وفي وسط الأرض خبا مضروب ورمح مركوز وجواد يرتع فاستحسن جندبة ما رآه من تلك الأرض وتعجب من ذلك الخبا المنفرد وقال لا شك أن هذا الرجل عابر سبيل لكنه بقي حائر في أمره وجعل ذلك المضرب قصده فهو يتفجر في ذلك وإذا قد خرج من ذلك الخبا إنسان تام الطول كأنه فحل من الفحول فتأمله جندبة فرآه على ذلك الطول شاب أجرد أمرد عليه درع من الزرد وهو مضاعف العدد وعلى رأسه بيضة مذهبة الداير مشطبة الظاهر كأنها نجم في غياهب فلمّا رآه الجواد محمحم وإليه تقدم فمسح ظهره بيده وأقبل عليه وقبله بين عينيه وأقلب السرج عليه وشد الحزام ورق اللجام . هذا وجندبة واقف ينظر إليه فلما شد الحصان وثب من الأرض وثبة السرحان فاستوى على ظهر الحصان من غير أن يضع رجله في الركاب ثم أنه تقلد بسيفه واعتقل برمحه ثم قصد نحو جندبة وحمل عليه من غير كلام ولا خطاب وقصد معه القتال والضراب فقال جندبة يا غلام إبدأ بالسلام قبل القتال والصدام لأنه من شيم القوام الكرام فلا يرد جواب ولا أبدى خطاب فتعين على جندبة قتاله .

قال الراوي : « فتلقاه الأمير جندبة كما تلقى الأرض العطشانة أوائل المطر وتطاعنا حتى أن الرماح تقصفت وتضاربا بالسيوف إلى أن تثلمت وبعد ساعة هاجمه جندبة وضايقه وقد سد عليه طرائقه ومد يده إليه وقبضه من جلباب درعه وجذبه واقتلعه من سرجه ورمى به إلى الأرض وأراد أن يضرب عنقه فقال له بكلام رقيق الصفة الصنيعة يا فارس الزمان فلما سمع منه جندبة ذلك الكلام فبان له أن المتكلم أنثى فقال له الجندبة أنت رجل أم إمرأة فقالت له أنا بنت بكر عذراء ثم أنها كشفت عن وجهها بعد ذلك اللثام فبان للأمير جندبة وجه كأنه إذ ظهر من تحت الغمام .

قال الراوي « ولما نظر جندبة إلى حسن تلك الصبية وجمالها وظرفها

ودلالها حار عقله فيها وزاد عشقاً بها وهام وتولع قلبه بها وأتلفه الغرام فقال لها يا ست الملاح وبدر التمام وذات الوشاح اطلعيني على سرك وأخبريني بحقيقة أمرك فقالت له يا فارس الزمان وليث العصر والأوان أخبرك بقصتي نثر وكلام أم شعر ونظام فقال لها جندبة يا فصيحة اللسان وفريدة العصر ومليحة دهرها أنا ما أريد أن اسمع منك إلا شعر ونظام فقالت له السمع والطاعة يا شجيع الزمان ثم أنها أشارت تخبر الأمير جندبة بجميع ما جرى لها بالشعر وهي تقول بعد الصلاة على سيدنا محمد النبي الرسول ﷺ :

ألا أيها البطل المحامي ويا صنديد في يوم الزحام
تأنى واسمع مني كلامي فأني بنت بكر أبا همام
ببنت القبقبوس القرم أدعى وقدري قد علا بين الأنام
طلعت لشدتي ألقى الفوارس بطعن الرمح مع ضرب الحسام
وذكري شاع في العربان جمعاً وفي الأحياء ما بين الخيام
وجاءت نحوي الخطاب تسعى فلم أرضى وأكثرهم خصامي
وقد أقسمت بالرحمن ربي وفضل المصطفى بدر التمام
بأني قط لم أكتب كتابي على مخلوق في طول الدوام
سوى إن كان صنديداً مهاباً يكيد الخصم في يوم الصدام
ويقهرني إذا ما التقينا نهار الحرب في وهج القتام
أتوا الخطاب جمعاً بارزوني وقد جندلتهم بين الأنام
ولم يقدر علي فتى رآني على الشجعان كلهم سلامي
أنا قتالة الشجعان أدعى من الفرسان في البيدا أمامي
وخفت أبي يزوجني جباناً ويغصبني ويلزمني التزامي
فجئت لهذا المكان مكثت فيه وقوضت المضارب والخيام
وحولي عصبة من كل ليث نهار الحرب لم يخشى الصدام
ونهجم في القفار على القوافل ونغنم كسبهم في كل عام
وأنت أسرتني وعفوت عني وأنت الكفء بلغني مرامي
فاخطبني واحظى بي سريعاً فأني قد رضيتك والسلام

قال الراوي : « فلما سمع الأمير جندبة ذلك الكلام صار كأنه في اغتنام وقد تعجب غاية العجب من فصاحتها وظرافتها وقوة قلبها وفرح بها فرحاً شديداً ثم أنها بعد ذلك قالت له يا وجه العرب سر بنا إلى حلتنا فقال لها وأين الحلة قالت له هي في آخر هذا المرج وإن أردت المسير معي فافعل قال فركب جندبة فرسه وسار وهو على حذر منها لئلا تغدر بـه وإذا هي قد وصلت إلى حيهـا فنظر إلى أرض حسنة وأبيات قـد شرعت وأغنـام قد سـرحت وهي ترعى وخيـول تسعى والقوم في أطيب عيش وأهنأ وأسعـد زمان وأصفـاه فلما رأوا أهـل الحي قتالـة الشجعان قد أقبلت قاموا بأجمعهم إليها وسلموا عليها فقـالت لهم أكرمـوا هذا الضيف الذي قد حل بنا قبل إكرامي فجعل القوم يسلمون على جندبة ويسألوه أن ينزل عن جواده ويدخل المضرب معها ففعل ذلك ونحرت النحور ولم يـزل عنـدها في أتم سـرور ثلاثـة أيام فلمـا كان اليـوم الرابـع ورد عليهمـا ضيـوف فأضافتهم وأكرمتهم ثم أنها جمعت بينهم وبين جندبة في مضرب واحد وقدمت لهم الطعام فأكلوا القوم على حسب الكفاية وقدموا المدام فشربوا وطربوا ودخلوا في الأحاديث الكثيرة التي تزيد وتنقص وما في الأحاديث أحسن من شيء يجري للإنسان فتحدث به ما أمكنه فجاء الحديث على جندبة فأخذ يحكي لهم ما جرى له مع دارم ويقول والله عمري ما رأيت أعجب حديثي لأني أحسنت إليه وخدمته ومن القتل خـلصته فطلب قتلي فرد الله فأسه وكل من بغى رجع البغي عليه ثم جعل كل واحد منهم يتحدث بما جرى له مع الشجعان والأقران وما جرى عليهم من الشدائد وما لاقوا من الاوابد وكانوا عشرة فتحدثوا تسعة بما جرى لهم ولم يبق غير رجل واحد وكان المقدم عليهم وهو عبد أسود فقالوا له أنت يا أمير مالك لا تحدثنا عما جرى لك فقال والله يا وجوه العرب ما فيكم مثل من جرى له مثل قصتي ولا مثل محنتي فقالوا له ما لك تحدثنا بها فقال اعلموا أنني كان لـي سيد من رؤساء العرب وكان أفرس أهل زمانه تخافه الملوك على شدتها والسباع في أوديتها فأتاه طارق الحمام ومضى إلى ربه وبقيت زوجته خائفة خوفاً شديداً من الأعداء والاضداد وهي مشغولة القلب أن يهجموا عليها فهربت عبيدها وجوارها ولم يبق في الحي إلا أنا فازدادت ستي فزعاً من خوفها وكانت حامل على ليلتها

فأدعت بي وقالت ويلك يا سلام أفيك خير حتى تنجو من هذا المكان قبل أن تدركنا الأشرار فقلت نعم ثم عمدت إلى ناقة فوطيت عليها وشديت عليها هودج وأطلعتها فيه ثم أني سرت بها في الليل وكان لها من الجمال ما لا يوصف فوسوس إليّ الشيطان بوصلها في وادي بقرب حي دارم وقد غاب عني الصواب واستدت في وجهي الأبواب لما تضارمت بي النار ثم أني كشفت لها عن الأحوال وما أريد منها من الفعال فقالت والله ما أفعل هذه الفعال ولو شربت كؤوس الحمام فلم أسمع لها خطاب ولا حفظت لها زمام ثم أني أشهرت سيفي وضربتها صحفاً فألقيتها على وجهها فنادتني أنج بنفسك يا عبد السوء فقد أتاني الطلق بإذن خالق الخلق ثم صاحت صيحة أدهشتني ثم وضعت في تلك الساعة غلام كأنه القمر في ليلة أربع عشر فعمدت ستي إلى الغلام فأرضعته وأقبلت عليّ بالتهديد والوعد فخفت منها أن تصل إلى ذلك الحي وتعمل على هلاكي فبدأت بها قبل أن تبدو بي ونهضت إليها وقتلتها وسرت وما أدري ما فعل الدهر بها وبولدها وهذا حديثي والسلام وحق الواحد المتعال . ثم أني توصلت إلى هؤلاء الأقوام وفرقت عليهم ما كان معي من الأموال وصرت المقدم عليهم كما ترى وكان مع ستي قصبة من فضة فيها حرز كتبه الحكيم دهقان ولا أدري ما كان من بعدي .

قال الراوي « ولم يكن في الإتفاق أعجب من لقاء جندبة بعبده سلام هذا وجندبة قد أقبل على ذلك العبد وقال له ما كان اسم سيدك يا غلام فقال سلام كان اسمه الحارث بن عامر الكلابي

فلم يمهله جندبة أن يتم كلامه دون أن جذب سيفه وضربه وأطاح رأسه عن بدنه فنهضوا أصحابه وقد جردوا سيوفهم على جندبة وأرادوا أن يسقوه كاس الحمام فقامت إليهم قتالة الشجعان ومنعتهم من ذلك وقالت لهم إذا كان في غداة غد افعلوا به ما شئتم عندنا ويطلب الطريق ولا يمنعكم عنه مانع

قال الراوي: «وكان من أمر العبد سلام أنه لما قتل سيدته أخذ المال الذي كان معها ثم أنه سار فالتقى برجال من قطاع الطريق ففرق عليهم تلك الأموال

واستخدم به الأبطال وأراد أن يصير مثل ما كان عليه سيده الحارث فصار تحت يده رجال كثير من قطاع الطريق وكان وصـوله بهـذه الشرذمـة اليسيرة إلى هـذه الأرض لأنه خرج ينظر إلى أرض خصبة ينزل فيها فاجتاز بقتالة الشجعان وجرى له ما جرى .

قال الراوي : « ثم أشارت قتالة الشجعان إلى الرجال أن يتركوا جندبة إلى الصباح ففعلوا ذلك وصاروا يحرسوه من كل مكان وجانب فعندها أخذته قتـالة الشجعان ودخلت به إلى مضـربها وقـالت لهم هذا في ضمـاني إلى غداة غـد أسلمـه اليكم فقالـوا لها افعلي مـا بدا لـك ثم أنهم باتـوا تلك الليلة منتظـرين الصباح .

قال الراوي : « ثم أن قتالة الشجعان أقبلت على جندبة وقالت له والله إني خائفة عليـك من هؤلاء الأقوام أن يقتلوك فقـال لها ومـا الذي تشيـرين علي به فقالت له أنا أتزوج بـك والله مطلع علي وعليـك وتكفي شر هؤلاء القـوم فقال جندبة افعلي ما بدا لك ثم انهما تصافحا وتناكحا وأقاموا إلى نصف الليـل وساروا عن الحي وطلبوا عرض البر والبحر طالبين أرض الحجاز فسـاروا ثلاثـة أيام وفي اليوم الرابع أشرفوا على حي حسن ذات عيون وزهر مكنون فبينما هم سائرون في وادي من أودية ذلك الحي بين تلك الأشجار وإذا قد لاح لهم جبل كأنه الثلج الأبيض فعمدا إليه ونزلا عليه فأراحوا هناك ساعة من النهار وساروا إلى أن مالت الشمس إلى الغروب فأشرفوا على وادي كثير النبات مخضر الجنبات وعلى حافة ذلك الوادي بيوت ومضارب وخيام وفيها عالم عظيم ورماحهم مركوزة وخيولهم مربوطة وبيوتهم عالية وسعادتهم نامية وبسط الديباج مبسوطـة والجمال والنـوق باركة والأولياء يضربون بالمزاهر وقد أمنوا من الأعداء وتصاريف الردا وفي وسط الحي منازل الضيوف وفيهم تضرب الأمثال وإلى وجودهم تشد الرجال

قال الراوي: « فلما نظر جندبة إلى ذلك الحي نزل هو وقتالة الشجعان في جنب ذلك الوادي وقد زاد حبها في قلبه وتحدث هو وإياها وقد أعجبه كلامهـا فقالت له يا أمير جندبة ليش قتلت العبد سلام بغير ذنب وظلمته فقال والله يا أميرة أن ذنبه عظيم وما ظلمته وأنه يستحق ذلك فبينما هم في ذلك الكـلام وإذا هم

بغبرة قد طلعت وعجاجة قد ارتفعت وانكشفت وبان من تحتها عسكر جرار وهو يزيد على خمسمائة فارس كأنهم الليوث وعليهم الدروع السوابل الذي كأنها عيون الجراد المضاعفين في العدد ومعهم رجال يزيدون عن ألف رجل في أيديهم الجحف الثقال والسيوف الحداد فلما نظرهم جندبة ظن أنهم من خيل الحي وإذا بهم قد افترقوا على ذلك الحي من أربع جوانبه وقد هزوا في أيديهم قطع الرماح وجردوا البيض الصفاح وقد كثر في ذلك الحي الصياح وطلعت أبطاله تريد الكفاح وفي ايديهم البيض والصفاح وقد اشهروا السيوف الصقال والرماح العوال وتبادرت الرجال والنساء والعبيد والجوار وركبت أهل الحي ووقع القتال واشتعلت نيران الطعن والضراب واشتد الكرب وثار الغبار من سنابك الخيل فعاد في الهوى كقطع الليل وعظم القتال وكثر الزلزال وقل الكلام وتقسطل الغبار ونما ولحق عنان السماء وتخضبت اللحا بالدماء ونهبت بعض بيوت القوم وجعل القوم يستغيثون بالحي الذي لا يموت .

قال الراوي « وكان ذلك القوم الذين هجموا على ذلك الحي ينادون بالأخذ بالتارات وأهل الحي ينادون يا لعامر ويا لكلاب وقد اشتد بينهم القتال فلما سمع جندبة صاحبهم يا لكلاب أقبل على قتاله وقال لها اعلمي أن هؤلاء القوم هم بنو عمي ولحمي ودمي وفيهم حسبي ونسبي ولا صبر لي عن معونتهم فقالت له والله اني مساعدتك على ذلك ولا أتركك ترمي روحك في هذا الجمع الشديد وأنت وحيد فريد ثم أن الأمير جندبة ركب بعد ذلك هو وقتالة الشجعان على خيولهم إلى أن ادركوا القوم وصاحوا يا آل كلاب وحمل الأمير جندبة كأنه شعلة نار على الأعداء وأنزل بهم ونادى وقال أنا مناضل ومهلك الرجال ومبيد الأبطال وكاشف العار ومدرك الثار أنا قاطع الأعمال ومبيد الأبطال والهزبر المختار ثم أنه طعن فارس ارماه وآخر بالسيف أراده وثالث فاجاه ورابع اعدمه الحياة ثم أنه صاح وأعلن بالصياح يا آل كلاب يا آل كلاب فأجابته زوجته لبيك ها نحن بين يديك أنت من على اليمين وأنا من على الشمال فبددوا عند ذلك الأبطال وقتلوا الأقران وهلكوا الشجعان وطعنوا في صدور الرجال وأنزلوا على بني شيبان الذل والخبال .

قال الراوي : « وقد نظروا أهل الحي إلى فعالهم وهم يردون الأبطال ويجرعون كاس الحمام فحملوا على الأعداء وأسقوهم كاسات الردى وقد قويت قلوبهم واشتدت عزيمتهم وهجموا على أعدائهم بعزمات قوية وخلصوا الغنيمة من أيديهم وأخرجوهم من البيوت وشتتوهم في تلك الجبال والفلوات وقد قتلوا منهم خلق كثير ولما فرغوا من تلك الأمور المشكلات رجعوا إلى جندبة وقتالة الشجعان قاصدين ولهما شاكرين فلما اجتمعوا بهما سلموا على الأمير جندبة وزادوا له في الإكرام لأجل ما رأوا منه عند الصدام وقالوا له من أنت حياك الله يا فارس الخيل فقال لهم جندبة يا وجوه العرب ما هذا وقت سؤال ولا مقال هذا وقت الراحة من الحرب والقتال فعند ذلك أخذوه وردوا به إلى الاحيا والأبيات وما أمسى حتى لم يبق أحد من الأعداء بل تشتتوا في القفار وحل بهم الدمار وقد نهبت بني كلاب خيلهم وعددهم وأموالهم والاسلاب وما كان معهم من النهاب وباتوا في حيهم فرحين وبالنصر مسرورين وبجندبة محدقين وهم من شجاعته متعجبين وهم يقبلون الأرض بين يديه ويثنون عليه ولما استقر بهم القرار قالوا له من أنت أيها السيد الذي من الله بك علينا وأسعدنا بشجاعتك فكشف لهم عن حسبه وأظهر لهم نسبه وذكر لهم قصة دارم الذي رباه وما جرى له معه من الأمور والأسباب .

قال الراوي :« ولما سمعوا بني كلاب منه ذلك الشعر والنظام صاحوا كلهم بالعرب الآن قد اتضح الحق وزهق الباطل وزال الشك والإرتباك وعرف من العنوان ما في الكتاب وظهر الصواب وقد رجعت الماء إلى مجاريها والمال إلى أصحابه والسيف إلى قرابه ثم تقدموا إلى جندبة وتقربوا إليه بكلمات يقدرون عليه وقالت مشايخ الحلة والله العظيم أنت اميرنا وابن اميرنا وما بقي لنا أمير سواك ولا مقدم إلا إياك ثم قدموه عليهم وقضوا ذلك اليوم في سرور وفرح وغبطة وحبور والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول المشرق بالنور .

قال الراوي :« وكانوا هؤلاء القوم خلفاء للحارث أبو جندبة وهم من خواص أصدقاءه ولما أن مات تفرقوا مدة من الزمان من خوف العربان وبعد ذلك اجتمعوا وانضموا إلى هذه الحلة وجعلوا عليهم أميراً منهم وكان شيخاً كبير السن

يقال له جابر بن حنظلة العامري وكان أبغض الناس عنده من يذكر الحارث بالشجاعة والخير وكان أعقل الناس وأشجعها وكانوا قومه إذا ذكروا الحارث بين يديه بالشجاعة يسبهم ويقول ما كان الحارث إلا قاطع طريق وخاين سبيل وكافر. فلما رآهم قد التقوا بجندبة في ذلك اليوم ورآهم قد اجتمعوا عليه وتركوه ما هان عليه ذلك وقد اغتاظ لذلك غيظاً شديداً وبات تلك الليلة في هم ما عليه من مزيد شديد القلق كثير الحرق ولما أصبح الله تعالى بالصباح اجتمع بهم وسألهم عن حالهم فقالوا له أن الأمر قد اشتهر والحق قد ظهر والباطل خسر ولم يبق غير الحق وهذا جندبة بن الحارث بن عامر الكلابي بن صعصعة وهو الذي كان سبب خلاصنا من الأعداء وهو اليوم أميرنا والحاكم علينا وهو اليوم سيد القوم وإمامهم ورئيسهم فقال لهم جابر هل هو أكثر مني مالاً وأعظم رجالاً فقالوا له المال يفنى والرجال تجيبه فقال لهم هل هو أشجع مني قالوا نعم لولاه لكنا هلكنا فقال لهم إذا كان الأمر كذلك وقد جعلتموه مقدماً فليخرج لي فإن غلبني كان مقدماً علينا وإن قهرته أقمت موضعي فقالوا له قد أشرت بالصواب وبلغ الخبر إلى جندبة فقال لقد قال الصواب ونطق بالأمر الذي لا يعاب ثم أنه أقبل على جابر وجال وصال .

يا سادة : « فما غاب إلا ساعة وعاد وعليه درع من البولاد المفرق بالذهب وعلى رأسه عمامة خضراء بقصب متقلد برمح مكعب ومن تحته حجرة شهباً تنهب الأرض نهباً كأنها شعلة نار وقد ركب عليها طالب التار والحجرة تدهش النظار أن طلب منها الجري عرفت وإن أشار عليها بالوقوف وقفت وإن همزها طارت إلى الغيوم وصاحبها يلتقط النجوم مضمرة الخواصر مليحة الحوافر واسعة المناخر حسنة الباطن والظاهر لها أصل فاخر وغرة مثل الهلال الزاهر صنعة الملك القادر تربية العرب أصحاب المفاخر كأنها قطب الفلك الدائر وراكبها في أمان من كل عدو ومضادد ومكايد ومعاند .

قال الراوي « فلما نظر جندبة إلى تلك الحجرة التي تحت جابر ونظر إلى انعطافها وذهابها وانحرافها هام بها قلبه واشتعل بها فكره ولبه .

قال الراوي : « وما كانت إلا ساعة حتى ركب بقية القوم وأنت سائر بني كلاب ووقفوا الإثنين ما بين الصفين واشتهروا بين الفريقين وجالوا وصالوا على ظهور الخيل وجرى بينهم من الحرب ما لا يوصف ومن القتال والطعان وحمل كل منهما على صاحبه وتماشقا السيفين وتطاعنا بالرمحين وبعد ساعة وقفا للراحة .

قال الراوي : « وحمل عليه جابر حملة الحنق وصاح عليه وزعق وجرد سيفه من غمده وضرب به جندبة ضربة سمعها كل من كان حاضر فبطلها جندبة بحسن صناعته ثم أنه حمل عليه وأقبل إليه وضربه بالسيف على عاتقه أطلع السيف يلمع من بين علائقه فانجدل جابر ورحل إلى المقابر .

يا سادة : « وإن أصحاب جابر لما رأوا المهرة تحت جندبة حملوا عليه وأرادوا خلاصها منه فحملت عليهم بنو كلاب وتصادمت الرجال والأبطال وجرت الدماء وعمل السيف القرضاب ولم يزالوا في طعن وضرب يقد ويهد حتى انهزمت رجال جابر وأقبلوا بجندبة إلى الحي فقدموا إليه الخيول العربيات والمضارب والعماريات وانقادت إليه الركايب ودارت به الكتايب وأخرجوا لزوجته الحلل الفاخرة والنعم الظاهرة وصار جندبة زعيم القوم ورئيسهم وأميرهم وأراد أن يرحل عنهم ويستخلف واحد منهم مكانه فما مكنوه من ذلك وأقام هو وزوجته في ألذ عيش وأهناه وأطيب زمان وأصفاه وانطاعت له البلاد واجتمعت على محبته قلوب العباد وصار يشن الغارات ويلازم الغزوات ومهما حصل له يقسمه عليهم ويستخدم به الأبطال إلى أن اجتمع عليه كثير من الشجعان .

الفصل الرابع والعشرون

الاحتفالات الشعبية

تتجلى أبرز تقاليد المسلمين المحدثين خلال احتفالاتهم بأعيادهم الشعبية التي يقيمونها في القاهرة وأتوقف في هذا الفصل عند أهمّها . وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه الإحتفالات يقع في فترات محددة من السنة الهجرية .

ينزل المصريون الأيام العشرة الأولى من شهر « محرّم » في مرتبة مباركة ويحتفلون بقدومها بكل فرح ولكنّهم يبجلون خاصة اليوم العاشر منها . وتعرف هذه الأيام « بالعَشْر » . وتنتشر بين المصريين خلالها عادة بيع « الميعة المباركة » التي يستخدمونها كتميمة تقيهم شر العين الحاسدة في السنة التالية ؛ ولقد تحدثت عن هذه الميعة في الجزء الثاني من الفصل المخصص لخرافات المصريين المحدثين وذكرت كذلك أنهم لا يبرمون عقود الزواج في « محرّم » حتى لا يصيبهم النحس .

ومن عادات مسلمي مصر الشائعة التصدق بأموالهم خلال شهر محرم بقدر ما تسمح به إمكانياتهم المادية خلال الأيام العشرة الأولى منه وخاصة خلال في اليوم العاشر منه[1] ؛ ويدّعي الكثيرون منهم تقديم « الزكاة » في هذه الفترة

(١) يبدو أن المصريين نقلوا هذه العادة عن اليهود الذين اعتادوا التصدق على الآخرين والقيام بالأعمال الحسنة طوال الأيام العشرة الأولى التي تبدأ بيوم رأس سنتهم الجديدة وتنتهي بيوم التكفير ، أكثر من باقي أيام السنة
(أنظر DR. M'Caul's old paths , PP. 125,129) .

(والقليلون منهم يقدمون الزكاة فعلاً حسب ما تأمرهم به شريعتهم) ، ولهم في الواقع مطلق الحرية في تحديد القيمة التي سيزكون بها والأشخاص الذين سيتصدّقون عليهم . تحمل نساء القاهرة خلال الأيام العشرة الأولى وخاصة خلال اليوم العاشر وحتى صاحبات المقام الرفيع منهن أطفالهن ـ إن كان عندهن أطفال ـ على أكتافهن عامة وينطلقن بهم في شوارع العاصمة أو أنهن يعهدن بهم إلى امرأة أخرى بهدف استدرار عطف المتأنقين المتهندمين المارين في الشارع فيطلبن زكاة منهم، وتطلب الأم أحياناً أو حاملة الطفل وحتى الطفل نفسه الزكاة مناديات : « زكاة العَشْر يا سيدي » . ويعني المصريون بالعشر عامة « النهارات العشرة » ولكنني أعتقد أن الكلمة ترادف « الليالي العشر » ؛ ولقد عرفت في الواقع أن الكلمة تحريف « للعُشر » وهي العبارة المتداولة في تعريف « ربع العشر » وهي الكمية التي تفرضها الشريعة الإسلامية على المسلم في إيتاء الزكاة على أمواله وعلى بعض الأغراض التي يملكها يحصل الولد عادة على قطعة تساوي خمس فضات . وقد يصرف الولد هذه الفضات وغيرها التي قد يجمعها في شراء الحلويات ، ولكنّ الشائع أن تُخاط هذه القطع إلى قلنسوة الطفل فيرتديها حتى حلول شهر محرّم في السنة التالية ويعيد الطفل ـ إن صغيراً بعد ـ الكرّة ويجمع ما آستطاع من فضات ـ وهي تعتبر في الواقع بمثابة تعويذات

ترسّخ في أذهان نساء مصر عامة والقاهرة تحديداً بعض الخرافات الغريبة المتعلقة بالأيام العشرة الأولى من محرّم فهن يعتقدن أن « الجن » يزورون بعض الأشخاص ليلاً طوال هذه الفترة ويعتقدن أن الجني يتخذ شكل السّقا أو شكل البغل أحياناً فيعرف الجني في حالة التقمص الأولى « بسقّا العشر » وفي الثانية « ببغلة العشر » . ويزعمن أنه عندما يحلّ الجني في جسد سقا يقرع باب أحد الأشخاص النائمين الذي يسأله : « من الطارق ؟ » فيجيبه الجني « أنا السّقا ؛ أين أفرغ لك الزقّ ؟ » ويدرك النائم الصاحي على الفور هوية زائره لأنّ السّقاة لا يحضرون ليلاً فيقول له « أفرغه في جرة الماء » ؛ فلّما يخرج من غرفته يجد الجرة وقد آمتلأت ذهباً . وأمّا الجني في شكل بغل فأكثر لفتاً

للنظر : فهو يحمل عِدْلَي خرج مملوءين ذهباً ورأس رجل على ظهره وقد تدلّى حبل من رقبته علقت فيه أجراس صغيرة ، فيهزها عند باب غرفة الشخص الذي يحضر لإغداق الثروة عليه ويخرج الشخص وينزع رأس الرجل الميت ويفرغ عدِلَيْ الخرج القيّمين ويحشوهما قشاً أو نخالة ويعيدهما إلى مكانهما ويقول للبَغل : « إذهب يا مبارك » وهذه هي في الواقع الطرق الشائعة التي يدفع بها الجن الصالحون زكاتهم. وتسمع الكثيرات من الجاهلات يتضرعن إلى ربّهن خلال الأيام العشرة الأولى من محرّم قائلات : « يا ربي أرسل لي سقّا العُشر » أو « أرسل لي بغلة العشر » . ويهزأ الرجال عامة من هذه الخرافات .

ويزعم بعض سكان القاهرة أن فريقاً من الجن يتخذون شكل الأشخاص العاديين ويرتدون ملابسهم يقيمون « سوقاً » منتصف الليل خلال الأيام العشرة الأولى من محرم في شارع معروف « بالصّليبه » يقع في المنطقة الجنوبية من العاصمة أمام « حوض المرصود » وكان هذا الحوض مطموراً تحت درجات مؤدية إلى باب أحد الجوامع الموازية لقصر « قلعة الكبش » القديم ؛ ولقد قام الفرنسيون بنقل هذا الحوض خلال آحتلالهم الأول لمصر وهو موجُودُ اليوم في المتحف البريطاني BRITISH MUSEUM ويقال إن السوق آختفى منذ نقله وقليلون هم الأشخاص ـ كما عرفت ـ الذين كانوا مدركين لتقليد الجن هذا فكل من كان يصادف مروره في الشارع في مكان تجمع الجن ويشتري منهم ما يحتاجه من تمر وفاكهة وحلوى وخبز يجد أنّ مشترياته آنقلبت على الفور ذهباً

يعرف اليوم العاشر من محرّم « بشهر عاشورا » وهو يوم يقدّسه المصريون لأسباب مختلفة أوّلها أنّه ـ كما يُقال ـ يوم اللقاء الأول بين آدم وحواء بعد طردهما من الجنة واليوم الذي خرج فيه نوح من فُلكه وثانيها وقوع أحداث كبيرة في ذلك اليوم وثالثها صوم قدامى العرب في ذلك اليوم قبل زمن الرسول ﷺ. وينزل المسلمون المحدثون خاصة الفرس منهم يوم عاشورا منزلة خاصة في نفوسهم لأنّه اليوم الذي آستشهد فيه الحسين حفيد الرسول ﷺ في معركة كربلاء .
ويصوم العديد من المسلمين يوم العاشوراء كما اليوم الذي يسبقه

ولا بد في معرض حديثي عن العاشوراء من ذكر العادات التي شاهدتها في هذه المناسبة . وكان عليّ أن أحمل في جيبي خمس فضات قبل خروجي في ذلك اليوم أوزّعها على المحتاجين زكاة العشر . ورأيت في الشارع أطفالاً تتراوح أعمارهم بين الثلاث والسبع سنوات ـ معظمهم من الفتيات ـ يمشون في الشارع وحدهم أو كل اثنين أو ثلاثة منهم معاً أو تحملهم النساء ، وكان هؤلاء يجوبون الشوارع يتوسلون في طلب هذه الزكاة. كما توقف فريق صغير من الفقراء المكفوفين في فترة الصباح أمام باب داري وكان أحدهم يحمل راية شبه ملفوفة حمراء تحمل اسم الحسين في الوقت الذي رفع فيه بعضهم أسماء أتقياء شرفاء غيره في رايات بيضاء . وراح هؤلاء ينشدون طلباً للزكاة وبدأ أحدهم قائلاً : « يا واهب الزكاة يوم عاشورا » فتبعه الباقون في كورس واحد : « حبّتا قمح ! حبّتا أرز ! يا حسن ! يا حسين ! » . ولا يتوقفون عن تكرار هذه العبارات مرات عديدة فإن حصلوا على فضة واحدة يتزحزحون من أمام المنزل ليتسمّروا أمام دار أخرى يتوسّمون من منظرها الخارجي زكاة كبيرة . وتطوف مجموعات الفقراء في الأحياء المختلفة خلال نهار العاشوراء طالبين الزكاة بالطريقة عينها .

وتوجهت لزيارة صديقي في ذلك اليوم قبيل الظهر فقدّم لي طبقاً يعدّه المصريون خصيصاً للعاشوراء ؛ وهو طبق « الحبوب » . ويتألّف هذا الطبق من القمح المنقوع في الماء مدة يومين أو ثلاثة والمنزوع عنه قشره والمغلي والمحلّى بالعسل أو بدبس السكر فوق النار ؛ وقد يستبدَل القمح بالأرز في هذا الطبق ويزيّن عادة بالجوز والبندق والزبيب . ويحضر المصريون هذا الطبق وغيره من أطباق الحلويات المتعددة الأشكال والألوان . وقد ورد في حديث للرسول ﷺ عن عاشوراء الحديث التالي :

ورد في لسان العرب لابن منظور (ع ِص ٥٧٠) أنه روي عن ابن عباس أنه قال في صوم عاشوراء : لئن سَلِمْت إلى قابل لأصومنّ اليوم التاسع ؛ قال الأزهري : ولهذا الحديث عدة من التأويلات أحدها أنه كره موافقة اليهود لأنهم يصومون اليوم العاشر ؛ وروي عن ابن عباس أنه قال : صوموا التاسع والعاشر

ولا تشبّهوا بِالْيهود ؛ قال : والوجه الثاني ما قاله المزني يحتمل أن يكون التاسع هو العاشر ؛ قال الأزهري : كأنّه تأول فيه عِشر الوِرْدِ إنّها تسعة أيام ، وهو الذي حكاه الليث عن الخليل وليس ببعيد عن الصواب(*)

وقصدت بعد صلاة الظهر « جامع الحسنين » الذي دفن فيه رأس الحسين وحيث تُقام أروع الإحتفالات التي تشهدها القاهرة يوم العاشوراء . وآحتشد الناس على طول الطريق المؤدية إلى الجامع بالقرب من محكمة القاضي وآستطعت تمييز الغوازي فمنهن الراقصات ومنهن عاقدات الحلقات في الشارع العام يأكلن طعامهن مبسملات - « بسم الله » - داعيات بذلك المتأنقين من المارين إلى مشاركتهن المأكل. وحاولت إحداهن جاهدة عرقلة تقدمي إن أنا تناسيت الهدية. ووجود مثل هؤلاء الفتيات وبعضهن حسناوات المعارف جالسات سافرات الوجه وقد كشفت أثوابهن عن مفاتن أجسادهن غير مناسبُ قط للمارين من الرجال أمامهن لحضور الإحتفالات الدينية . ويمكن الجزم بمصادفة مثل هؤلاء النساء البعيدات عن الإحتشام في جميع الإحتفالات الدينية في القاهرة وفي غيرها من المناسبات الدينية (وأقرّ بأنهن غير مغريات دائماً) . وآستطعت وأنا في طريقي إلى الجامع التخلص من القطع النقدية الصغيرة بإعطائها للأولاد المتحملقين في الشوارع . وكانت لي محطة ثانية مع السقاة قبيل وصولي إلى الجامع ؛ فأعطيت اثنين منهم عشرين فضة على أن يوزع الواحد منهما محتوى وعاء فخاري من الماء كان يحمله على ظهره على الفقراء من المارة عن روح « سيدنا الحسين » .

وكم كانت دهشتي عظيمة عند دخولي الجامع للمنظر الذي وقع نظري عليه في قاعته الكبرى . وكانت القاعة مكتظة بالزائرين خاصة نساء الطبقتين المتوسطة والفقيرة والعديد من الأطفال . وكان الضجيج كبيراً كما في باحة

(*) لجأنا إلى حديث نبوي مشابه عن عاشوراء لاستحالة العثور على نص الحديث الذي آستعان به المؤلف بالإنكليزية .

مدرسة آحتشد فيها الصبية يلعبون   الأطفال في الجامع يبكون ويزعقون والرجال والنساء يتنادون وكانت الأمهات والأطفال في خضم هذا الياجوج والماجوج من الناس يزعجون كل رجل ذي مظهر محترم آبتغاءاً منهن في الحصول على زكاة العشر . وأعترف أنني نادراً ما رأيت مثل هذا اللغط داخل الجامع . وبلغت دهشتي ذروتها في جامع الحسنين الذين يُعتبر أكثر جوامع القاهرة تبجيلاً . إذ غابت الحصر التي تغطي أرض الجامع عادة وحلتّ محلها بعض الحصر القديمة البالية تاركة جوانب عديدة من الأرض عارية تجهد أقدام الأشخاص الحافية في تغطيتها تراباً وغباراً : وبما أنّه من المستحيل في هذه المناسبة أداء الصلوات العادية في الجامع، يدخل الناس إليه دون قيامهم بالتوضوء المعتاد أو الإتجاه أولاً إلى حوض الوضوء المعروف ، علماً أن كل من يدخل الجامع سواء كان رجلاً أم إمرأة ينزع حذاءه كما في الأوقات الأخرى ويتركه ـ كما فعلت شخصياً ـ مع بواب الجامع . كانت بعض جوانب الجامع مبلّلة (فالأطفال الصغار لا يدركون قدسية مثل هذا المكان) ، فحاولت تجنبها ولكن لم تمضِ دقائق معدودة على دخولي الجامع حتى اسودت قدماي من جراء دوسي على الأرض الوسخة ودوس الآخرين على رجلي   وآشتدت وطأة الحرارة كما في حمام بخار رغم الفتحة الواسعة في السقف والملقف الذي يضاهيها اتساعاً ممّا يسمح للنسمات الشمالية العليلة بالتغلغل . وآكتظت درجات المنبر ومنصة المبلّغين بالنساء اللواتي فُقن الرجال عدداً . وأستغرب في الواقع مثل هذا الأمر اللّهم إلاّ إن كانت النساء أكثر تمسكاً بالخرافات من الرجال ويبجلن يوم عاشورا تبجيلاً خاصاً في تكريم الحسين بزيارة مقامه في هذه المناسبة .

والشائع قوله بين سكان القاهرة إن الرجال لا يتوجهون إلى جامع الحسنين يوم العاشورا إلاّ لخاطر عيون النساء والتصادم بهن ؛ وهذا ما قد يؤجج الرغبة في نفوسهم. ولمست ذلك عندما حثثتُ الخطى لمشاهدة الإحتفالات الرئيسية التي تُقام في هذه المناسبة مستقطبة جحافل الناس إليها . وكان يجلس عند الجدار الخلفي إلى يمين المنبر تحديداً نحو خمسين درويشاً من مختلف

الطبقات في صفين متقابلين . ولم يكن هؤلاء قد بدأوا بعد حلقات ذكرهم ؛ ولكن أحد الدراويش المتقدمين في السن والواقف بين صفين كان يقيم ذكراً وحده مردّداً اسم الله ومحنياً رأسه في كل مرة يتلفظ بها بهذا الاسم يمنة ثم يسرة . ووجدت نفسي وأنا أحاول التقدم لرؤيتهم في وضع شاذ في بلد يعتبر فيه غير لائق ملامسة الرجل آمرأة ليست زوجته أو جاريته أو قريبته . وطُوِّقت وسط حلقة من أربع نساء فما آستطعت التحرك في أي آتجاه ؛ وكنتُ ملصوقاً بشابة وجهاً لوجه إلى درجة كانت وجناتنا لتتقارب لـولا غطاء وجهها الذي وقف حاجزاً بيننا . وبدا لي من لهاثها أنها تعاني من هذه الحشرة ومع ذلك آفتر ثغرها عن ابتسامة آرتسمت في الوقت نفسه في عينيها السوداوين معبرّة عن رضاها وتسليتها بما يحصل حولها . ولكن لمّا عيل صبرها صرخت : « يا عيني لا تحشرني بهذا العنف » ولحقتها آمرأة أخرى بصرخة أخرى : « يا أفندي وحياتك تقدم قليلاً إلى الأمام وافتح طريقاً حتى أتبعك » . ووصلت بشق النفس إلى المكان المرغوب ، لكنني كنت أضعت على الطريق سيفي وكُمّي قميصي المعلّقين ؛ ويبدو أن أحدهم تنبّه لسيفي فآستله من غمده قبل أن أمسك مقبضه . وكنت متعرّقاً كما جميع المحتشدين حولي .

كان الدراويش الحاضرون من جنسيات وطبقات مختلفة . وكان بعضهم معتمراً العمامة المصرية المعروفة ومرتدياً الزي المصري التقليدي بينما تزينت رؤوس بعضهم « بالقاووق » التركي ورؤوس البعض الآخر «بالطرطور» بحجم قمع السكر . ومنهم من كان معتمراً قبعة بيضاء بالشكل الذي ذكرته كتبت عليها بحروف سوداء أدعية وتضرعات إلى الخلفاء الأربعة الأول والحسن والحسين وغيرهم من الأولياء من مؤسسي طبقات الدراويش المختلفة . وكان معظم الدراويش من المصريين إضافة إلى بعض الأتراك والفرس . ولم تمض دقائق على حضوري حتى بدأ هؤلاء أداءهم . وعمد بعض الدراويش إلى إبعاد جمهور المتفرجين الملتفين حولهم بالعصي ولمّا لم تطلني ضربات عصيهم لم أبتعد مسافة كافية . وقبل أن أدرك ما يتحضر له الراويش عقد أربعون منهم حلقة وقد تشابكت أيديهم ومُدَّت أذرعهم فوجدت نفسي مقحوماً داخلها .

وكنت شبه مذعن للبقاء في مكاني والإنضمام إلى حلقة الذكر محنياً رأسي ومردّداً اسم الله ؛ وخشيت أن يكتشف بعضهم أنني لا أنتمي إلى هؤلاء الدراويش وأدائهم العبثي فقرّرت الإنسحاب بأن فرّقت أيدي اثنين منهما متشابكتين فخرجت من حلقتهم . وبدأ الدراويش الذين وسّعوا دائرتهم (فشملت أعمدة الرواق الأربعة الرخامية) حلقة ذكرهم مردّدين اسم « الله » مجنين رؤوسهم وأجسادهم في كل مرة ومتقدّمين خطوة واحدة نحو اليمين فتتحرّك الحلقة سريعاً في شكل دائري . وما إن بدأوا ذكرهم حتى توسّط أحد الدراويش الأتراك من طبقة المولَويين الحلقة وأخذ يدور على نفسه محركاً قدميه وممدّداً ذراعيه ؛ وزاد اهتزازه وتحركه حتى انفتح ثوبه كما المظلة واستمر يدور ويدور طوال عشر دقائق ثم انحنى باتجاه رئيسه الذي وقف وسط الحلقة الكبيرة وانضم إلى الدراويش دون أن ترتسم على وجهه أمارات التعب أو العياء وبدأ الدراويش ينطقون اسم الله بزخم كبير ويقفزون نحو اليمين بدلاً من الإنتقال خطوة خطوة . وبعد هذا الدوران السريع، شكّل ستة دراويش آخرين داخل الحلقة الكبيرة حلقة صغيرة ثانية وجعل كل واحد منهم ذراعه حول كتف الآخر فأحدثوا بترتيبهم الجديد دوراناً مشابهاً لدوران الحلقة الكبرى متميزاً بسرعته وكانوا لا يتوقفون عن تكرار تضرعهم إلى « الله » بنسبة سرعة أكبر . ويستغرق دوران الدراويش فترة الوقت عينها كما أداء الدرويش المنفرد وعند انتهائهم يجلس جميعهم للراحة ، ثم ينهضون ثانية بعد نحو ربع ساعة ويعيدون الكرة في دورانهم . ولم يلفت انتباهي في رواق الجامع الكبير شيء جدير بالتوقف عنده باستثناء فقيرين (قال لي أحد الواقفين أنهما من « المجاذيب ») كانا يرقصان ويكرّران اسم الله ويضرب كل واحد منهما الطبلة .

كنت توّاقاً لزيارة الحسين في ذكرى موته فأطلّع على الإحتفالات الخاصة التي قد تُقام في هذه المناسبة . وشققت طريقي بين الجموع المحتشدة بصعوبة كبيرة حتى وصلت إلى المقام فلم أجد سوى جمهرة بسيطة من الناس . وعند دخولي قادني أحد خدم الجامع إلى زاوية خالية من الناس حيث الحاجز البرونزي اللون المحيط بالمكان الذي يقال إن رأس الشهيد مدفون فيه فيتسنّى

لي قـراءة الفاتحـة . ولمّا انتهيت من واجب قـراءة الفاتحـة راح الخادم يلقّنني الصلاة التالية ويرتاح بعد كل ثلاث كلمات تقريباً حتى أعيد ما قاله ؛ وكان رجل آخـر واقف على يساري يـردّد : « آمين » في نهايـة كل وقفـة : ـ « اللهم تقبّل زيارتي وحقق رغبتي واجعلني أحقق أمنيتي وأنا أتيتك راغباً قاصداً بحق السيدة زينب والإمام الشافعي والسلطان أبي سعود » . ثم أردف كلمات باللغة التركية مشابهة لكلماته العـربية معتقـداً أنني تركي أو أنني لـم أفهم كلمـاته العـربية . وغالباً ما رُفع هذا الإبتهال لي عند أضرحـة الأولياء ومقـاماتهم في القـاهرة خـلال الإحتفالات . وأعود إلى زيارتي لجامع الحسين إذ أعطيت الشخص الذي قام بـالصلاة قـطعة نقـدية صغيـرة قبل أن أبـاشر تـطوافي حول الحـاجز المتضمن الضريح فما كان من الشخص المتضرّع إلّا أن قدّم لي أربع كرات صغيـرة من الخبز كل كرة منها بحجم ثمرة البندق . وكان الخبز مصنوعاً من الدقيق الصافي مخصصاً لمقام السيد أحمد البـدوي ولقد تم إحضـاره إلى القاهـرة ليوزّع إلى الزائرين المحترمين لمقامات الأولياء في القاهرة ، ويعـرف هذا الخبـز « بعيش السيد البدوي » ويحتفظ بعض المصريين بقطعة صغيرة منه كتميمة لا تفارق جيبتهم (والقـطعـة عبـارة عن إحـدي الكـرات الصغيـرة التي تتخـذ القـطعـة شكلها » ؛ ويأكل بعضهم هذا العيش ويعتبرونه دواءاً ناجحاً ضد أيّ اضطراب جسدي يطرأ أو واقياً من الأمراض .

تصل قافلة الحجاج المصريين عامة العائدة من مكة إلى القاهرة في نهاية شهر « صفر » (وصفر هو ثاني شهور التقويم الهجري) ؛ ويعـرف هذا الشهـر عامة «بنزلة الحجّ». وقد يصل بعض الحجاج العائدين عن طـريق البحر الأحمـر قبل القافلة نفسها كما تصـل قافلة الحجـاج التجار بشكـل متأخـر عن طاقم الحجاج .

يسبق « شاويش الحج » القافلة بأربعة أو خمسة أيام بصحبة إعرابيّين على ظهور الجمال القوافل ليعلن قرب وصول الحجاج ونهار وصولهم إلى العاصمة وليحضر رسائلهم إلى أصدقائهم ، ويجوب مع زميليه الشوارع منادين : « بارك

على الرسول » أو « بارك الرسول » فيجيب كل مسلم يسمع نداءهم : « اللهم بارك عليه» ويتوجهون إلى القلعة مباشرة لنقل الخبر إلى الباشا أو ممثله. ويقوم الشاويش بفرز رسائله رُزماً باستثناء تلك الموجهة إلى الأغنياء والرفيعي المقام ويبيع الرزمة الواحدة بكذا دولار إلى بعضهم يسلّمونها ويحصلون مقابلها على الهدايا من الأشخاص الموجهة لهم هذه الرسائل وقد يخسرون أحياناً بمساوماتهم . ويسلّم الشاويش شخصياً الرُزم إلى أصحابها الأغنياء فيحصل على الهدايا منهم (كشال أو بعض النقود) .

يخرج بعض الأشخاص في رحلة تستمر يومين أو ثلاثة أيام للقاء أصدقائهم الحجاج حاملين معهم الفاكهة الطازجة وغيرها من المأكولات والثياب إلى الحجاج التعبين . ولا يبتعد أبناء الطبقات الدنيا كثيراً عن « بركة الحج » الواقعة على بعد أحد عشر ميلاً من العاصمة وعن المكان الذي تمر فيه القافلة في الليلة الأخيرة قبل دخولها العاصمة ؛ وقد يكتفي بعضهم بالتوجه إلى المحطة الأخيرة للقافلة . ويأخذون معهم عادة بعض الكماليات البسيطة من طعام أو بغل صغير وهو البديل الرائع لجمل الحاج المجهد الصعب المراس[1] إضافة إلى بعض الثياب النظيفة الجديدة ؛ ويصطحب بعضهم فرقة موسيقية لتكريم أصدقائهم القادمين . وإنّه لمنظر مثير للعواطف رؤية الناس ينطلقون بطبولهم وبيباتهم عند دنو قافلة الحجاج للترحيب بالعائدين من مناسك الحج ومواكبتهم إلى المدينة . وقد تضحى الأفراح أتراحاً عند بعضهم الذين يعودون والأسى يعصر قلوبهم وعيونهم تسفح دمعاً بدلاً من الموسيقى والفرح ؛ فالرحلة

---

(١) قد يجهل في الواقع دارسو التاريخ الطبيعي أن الجمل قادر على تحمل العطش والجوع بفضل تركيبته الطبيعية التي تسمح له بتخزين الماء والطعام . فعندما لا يتوفر الطعام اللازم للجمل طوال عدة أيام متعاقبة ، يعتمد في تغذيته على دهن سنامه الذي يختفي تدريجياً في مثل هذه الظروف قبل تقلّص أوصاله . ويظهر لنا هذا التفسير حول استخدام نامية قد يعتبرها بعضهم عائقاً مزعجاً للحيوان تأقلُم الجمل الرائع مع الظروف الخاصة التي أوجدته العناية الإلّهية فيها . ويمكن تطبيق مثل هذا الكلام على تركيبة الثور والبقرة وغيرهما من الحيوانات في المناخات الحارة والقاحلة .

شاقة عسيرة على بعض الحجاج العائدين الذين يقضون نحبهم في الصحراء حيث لا يستطيعون تأمين لوازم علاجهم الضرورية . وكثيرات هنّ النساء اللواتي ينطلقن لملاقاة أزواجهن أو أبنائهن فيتلقين الأنباء المحزنة بأن مسافريهن ذهبوا ضحية الحرمان والتعب . ويطفقن عائدات بِخُفَيّ حنين إلى المدينة فيشق صراخهن السماء ويطغى على قرع الطبول وأصوات المزامير المعبّرة عن فرحة الآخرين . ويواكب المارّون الحجاج العائدين بالدعاء التالي : « صلّوا ليُغفر لي » ، فيرد الحجاج متمتمين الدعاء القصير التالي « الله يسامحك » أو « الله يسامحه » . وتعود هذه العادة في دعاء الحاج إلى قول للرسول ﷺ : « من حجَّ للّه فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »

ولا بد من الإشارة إلى أنني أدوّن عرض « نزلة النخج » بعد مشاهدتي لها عن كثب في العام ١٢٥٠ للهجرة (١٨٣٤ للميلاد) : - وصلت القافلة في الليلة السابقة إلى محطتها الأخيرة « الحوشة » وهي طريق مرصوفة بالحصى تقع بالقرب من ضاحية القاهرة الشمالية عشية الرابع من ربيع الأول . وترك بعض الحجاج القافلة بعد المغيب إلى العاصمة وأمّا القافلة فوصلت إلى المدينة في الرابع من الشهر . وكنت أقف خارج جدران السور بعيد المغيب عندما دنت القافلة مني . ولكنني رأيت شخصين أو ثلاثة أشخاص من الحجاج الذين عيل صبرهم راكبين فوق ظهور بغالهم يسبقهم موسيقيون أو حاملو الرايات وتتبعهم النساء وهن يغنين ؛ كما ٱلتقيت جماعات من النساء كنّ خرجن للإستقصاء عن أقارب حجاج لهن توقعن حضورهم ولكنهن عدن باكيات مولولات .

وبدا ٱنتحابهن أكثر صدقاً من بكائهن عند تشييعهن الميت. ولقد ناحت النساء مولولات هذه السنة - إلى جانب حصيلة الموت المرتفعة - على فراق نحو ألف رجل ذهبوا للخدمة العسكرية بشكل لم أعهده فيهن سابقاً . وبدأت القافلة بعد نحو ساعتين ونصف الساعة من المغيب بالدنو من بوابات العاصمة وقد تفرّقت ثلاثاً - إذ توجه الخط الأول منها إلى « باب النصر » بينما اتجه الثاني مباشرة إلى « باب الفتوح » والثالث تفرّع من الخط الثاني إلى « باب العدوي » . وشهدت القافلة هذه السنة اكتظاظاً لم تعهده عادة (علماً أن العديد من الحجاج قصدوا

الحج بحراً) ؛ والملاحظ في قافلة السنة آرتفاع عدد الحاجات من النساء نتيجة آقتياد العديد من الرجال إلى الخدمة العسكرية. وتألفت خطوط القافلة الثلاثة التي تفرّعت لدخول العاصمة بمعظمها من قافلة جمال سارت وراء بعضها البعض ؛ وكنا نرى جملين أحياناً متجانبين في سيرهما كما كانت القافلة ليفرط عقدها لفترة وجيزة في بعض الأماكن . وقد تخلّى بعض الحجاج عن جمالهم وركبوا البغال الأسهل في السير وساروا في موازاتها بمصاحبة جمع من الموسيقيين وحاملي الأعلام .

وأشهر محفّات الجمال التي يعتمدها الحجاج هي « الحمل المسطّح » أو «المسطّح». وهو يشبه خيمة مربعة صغيرة ويشتمل على صندوقين طويلين يتميز الواحد منهما بظهر عال ؛ ويثبّت هذان الصندوقان على جانبي الجمل كما السلتين الكبيرتين . وتدعم الظهور العالية الموضوعة خارجاً مع سارية صغيرة ترتاح على سرج التحميل الغطاء الذي يشكل ما يمكن تعريفه بالخيمة . ويكفي المسطّح لشخصين .ويكون مفتوحاً عامة في مقدّمه ومن الممكن فتحه في المؤخرة . لكن تحرك الجمل عسير ثقيل الوطأة رغم الراحة التي يظهرها خاصة إذا ما وُضع الحمل على ظهر جمل آعتاد نقل الأثقال ، لذا فهو يمشي مشية متأرجحة متراقصة ؛ ويقع الإختيار على الجمال الخفيفة الخطى لنقل المسطّح وغيره من الحمولات. ومن المحفّات ما يعرف «بالشّبرية» وهي تتألف من منبسط مربع صغير وغطاء مقوس. ولا تتّسع الشّبرية إلاّ لشخص واحد وهي تثبّت على ظهر الجمل ؛ وتدعم « صَحّارتان » موضوعتان على جانبي الجمل هذه الشبرية ، وأمّا « التَخْتَروان » فيرفعه جملان يسير أوّلهما في المقدمة والثاني في المؤخرة ؛ ويكون رأس الجمل الثاني منحنياً بصعوبة . وقد يحمل « التختروان » أحياناً أربعة بغال تسير سيراً مرتاحاً ، وهو يتسع عامة لشخصين خفيفَي الوزن ويتمتّع بمشربية صغيرة مؤلفة من شعرية خشبية في مقدمه ومؤخرته يوضع فيها زق فخاري نفيذ من الزقاق المستخدمة للشرب في مصر .

اتجهت إلى المكان الذي مرّت فيه القافلة في الليلة السابقة . ومرّت

أمامي خلال سيري من الضاحية إلى هذه النقطة والذي استغرق نصف ساعة تقريباً (في مشية بطيئة) نصف القافلة وكانت القافلة برمتها في نصف الساعة الثانية قد غادرت مكان تخييم القافلة . وكنت راغباً في رؤية لقاء الزوجات والإخوة والأخوات والأطفال والحجاج ؛ لكنني آنزعجت من حاج واحد كان مرتدياً ثياباً رثة وجالساً على رقعة سجادة بالية عندما خرجت إليه زوجته ـ أو أخته على الأرجح ـ متعرّقة تحت وطأة رزمة ثياب وقامت بتقبيله يمنة ثم يسرة . لكن الحاج لم يقف للقائها وآكتفى ببعض الأسئلة الباردة . وكان « أمير الحج » وأعوانه وعسكره نصبوا خيمهم بعيداً عن باقي طاقم القافلة . وكانت غُرزت إلى جانب الخيمة حربة طويلة في موازاة « محمَل » (أو « محمِل ») مع غطاء مزدان ببعض الكتابات . يحمل الحجاج معهم الهدايا من « الأرض المقدسة » ومنها ماء زمزم الطاهرة (في قناني خزمية أو قصديرية أو نحاسية) وقطع من « الكِسْوة » من الكعبة (والتي يتم تجديدها في كل موسم حج) وتراب من قبر الرسول (في قوالب صلبة) و « اللُّبان » و « الليف » (من ألياف شجر النخل للاغتسال) ومجموعة من الأمشاط المصنوعة من خشب الألوة و « السُّبحات » من الخشب عينه و « المساوك » (لتنظيف الأسنان وهي تخضّل بماء زمزم) والكحل والشالات . . . من الحجاز وغيرها من الأغراض من مصنوعات الهند .

ويزين المصريون مدخل منزل العائد من الحج قبل نحو ثلاثة أيام من وصوله : فيلوّنون الباب والحجارة باللونين الأحمر والأبيض ؛ وإن كانت الحجارة من الآجر فتزيَّن بالطريقة عينها بخطوط أفقية عريضة من اللونين الأحمر والأبيض ويصبغون أحياناً الأشجار والجمال باللون الأخضر أو الأسود أو الأحمر أو غيرها من الألوان بطريقة بدائية . وقد يوجّه الحاج كتاباً مسبقاً إلى ذويه يطلب منهم إعداد مثل هذه الترتيبات . ويقيم الحاج في الليلة التالية لوصوله حفلة لأصدقائه تُعرف « بحفلة النزلة » . ويتدفق الضيوف عليه مهنّئين مرحّبين بعودته ويقولون له : « صلِّ ليُغفر لي » ويبقى في منزله عادة أسبوعاً كاملاً بعد عودته ويقيم في اليوم السابع حفلة أخرى لأصحابه تُعرف « بحفلة السُّبوع » . وتستمر هذه الحفلة طوال النهار والليلة التالية وتنتهي بختمة أو ذكر في المساء .

تشهد القاهرة في صباح اليوم التالي لوصول القسم الأكبر من الحجاج احتفالاً آخر. ويكمن هذا الإحتفال في عودة المحمل الذي يُحمل في موكب من « الحصوة » إلى القلعة ولا يكون الموكب مرتباً دائماً ترتيباً واحداً . وسأعمد إلى وصفه وكنت شاهدته هذا الصباح بعد عودة الحجاج .

أتوقف بادىء ذي بدء عند المحمل . وهو عبارة عن مربع خشبي ذات قمة هرمية الشكل وغطاء من القماش المقصّب باللون الأسود نُقشت عليه كتابات كثيرة ومزين بتطريز ذهبي في بعض أجزائه فوق أرضية من الحرير الأخضر والأحمر مع هُدّاب حريري بدوره تدلت منه شرابات علقت إليها كرات فضية . ولا يكون الغطاء مصنوعاً دائماً بهذا الشكل في زينته ؛ ولكنني لاحظت في كل غطاء رأيته منظراً للكعبة مشغولاً بالذهب في الجزء العلوي من واجهته الأمامية وقد جُعل فوقها رمز السلطان . وهو لا يضم سوى مصحفين ، أحدهما في درج (في لفائف مكتوبة) وثانيهما في كتاب صغير وقد وُضع المصحفان في غلاف فضي براق معلّق خارجاً في أعلاه . كما أن الكرات الخمس ذات الهلال التي تزين المحمل مصنوعة من الفضة البراقة . يوضع المحمل على ظهر جمل طويل يُعفى باقي حياته من أي عمل شاق .

يُقال إن السلطان « الظاهر بيبرس » ملك مصر كان أوّل من أرسل محملاً مع قافلة الحجاج إلى مكة في العام ٦٧٠ للهجرة (١٢٧٢ للميلاد) أو ٦٧٥ للهجرة ؛ بيد أن هذه العادة ترقى كما يُقال إلى ما قبل وصوله إلى العرش بسنوات قليلة . فلقد أدت « شجر الدّر » (والمعروفة « بشجرة الدّر ») مناسك الحج في هودج رائع على ظهر جمل ؛ وشجرة الدر جارية تركية جميلة أصبحت زوجة السلطان الصالح نجم الدين المفضلّة وأعلنت نفسها عند موت آبنه (الذي آنتهت معه سلالة الأيوبيين) ملكة مصر . وكان الهودج الذي ذهبت فيه إلى الحج يُرسل مع قافلة الحجاج لإضفاء هيبة الدولة . وهكذا كان الأمراء الذين تعاقبوا على الحكم يرسلون كل سنة هودجاً (عُرف « بالمحمِل » أو « المحمِل ») مع كل قافلة حجاج كرمز للملكية وحذا ملوك البلدان الأخرى حذو المصريين في تقليدهم هذا لكن الوهابيين حرّموا المحمل وآعتبروه أبّهة



المحمـــل

عبثية ، وتلك كانت حجتهم لاعتراض القافلة .

نعود إلى قافلة الحجاج ودخول المحمل المدينة في السنة التي ذكرتها آنفاً عبر باب النصر بعد ساعة من المغيب. وكانت ترأست القافلة مجموعة من مشاة « النظام » ودخل المحمل المدينة يتبعه شخص مميّز كالعادة هو « شيخ الجمل » طويل الشعر مفتول العضلات داكن البشرة شبه عارٍ إلاّ من سروال رث . كان الشيخ راكباً الجمل لا يتوقف عن تحريك رأسه . وكان الشيخ لسنوات طويلة متعاقبة يسير وراء المحمل ويواكب القافلة من مكة وإليها؛ ويؤكد كل الذين رافقوه

أنّه يهز رأسه طوال الرحلة . وتؤمن الحكومة لشيخ الجمل جملين والمؤونة اللازمة . وكانت آمرأة عجوز منذ سنوات قليلة تسير وراء المحمل مكشوفة الرأس لا يستر جسدها سوى قميص وتعرف هذه المرأة « بأم القطط » ، إذ إنها تجلس على جملها وحولها خمس أو ست قطط . ويلي شيخ الجمل في القافلة مجموعة من الخيّالة الأتراك ونحو عشرين جملاً ذات سروج مزينة ومحشوّة ثياباً خضراء وحمراء بمعظمها . ويزين كل سرج بعدد من الرايات الصغيرة منحنية إلى الأمام في الجزء المقدمي إضافة إلى ريشة صغيرة من ريش النعام أعلى العصا المثبّتة إلى الجزء نفسه . وتتميز بعض السروج بجرس كبير متدلّ عند جانبيه . وأمّا زينة الغطاء فمؤلفة من مجموعة من الأصداف الصفراء الصغيرة . وأظن أنّ هذه الأصداف ملونّة تلويناً خفيفاً بصبغة الحناء الحمراء كما في مناسبات أخرى . وتبع هؤلاء فرسان من البدو في مؤخرة الموكب .

ولكنني أُسئت الإعلام بالنسبة إلى موعد دخول المحمل ، فوجدتُ نفسي لدى وصولي إلى شارع المدينة الرئيسي وسط زحمة القافلة وكان المحمل قد سبقني في المرور . وحاولتُ جاهداً اللحاق به بعد أن ركبت حماراً آستأجرته لهذا الغرض ؛ وكان من الصعب جداً التقدم ، لذا سلكت بعض الشوارع الفرعية وعدت إلى القافلة من جديد . ووجدت بكل أسف أنني لم أحرز سوى تقدم بسيط . نزلت عن ظهر الحمار ومشيتُ متفادياً حوافر جياد البدو لنصف ساعة من الزمن . وأخيراً لمحت المحمل واستطعت بعد جهد جهيد الوصول إليه قبل دخوله « الرُّميله » (وهي الساحة الكبيرة المفتوحة) الواقعة قبل القلعة بربع ساعة تقريباً . وبعد أن لمست المحمل ثلاث مرات وقبلت يدي أمسكت هدّابه ومشيت إلى جانبه . وحدّق حارس المحمل الطاهر الذي كان يسير خلفي بإمعان بي وحثّني على التلفظ بتضرع تقي ، وقد يكون هذا الدعاء منعه من إبعادي عن المحمل أو أن ثوبي أثّر فيه فهو كان يسمح للأشخاص الواحد بعد الآخر بمقاربته ولمسه ثم يبعدهم . وبقيتُ أسير إلى جانب المحمل حاملاً الهُدّاب حتى مدخل الرميله . ولمّا أطلعت أحد أصدقائي المسلمين على ما قمت به أعرب عن عظيم دهشته فهو لم يسمع بأحد قام بهذا العمل قبلاً وأكدّ

أنّ الرسول ﷺ يحبّني بالطبع وإلاّ لما آستطعت قط القيام بذلك. وأضاف أنني حصلت على بركة كبيرة لا يمكن تقديرها وعليّ أن أكون حذراً فلا أطلع أي من أصدقائي المسلمين الآخرين على ما حصل حتى لا يحسدوني على هذا الامتياز الخاص الذي حلّ عليّ وقد لا يروقهم ذلك . ولا أستطيع في الواقع معرفة السبب الذي يدفع المصريين إلى تبجيل المحمل وتقديره. ولقد أبدى العديد من الأشخاص رغبة كبيرة في لمسه وسمعت جندياً يهتف بينما المحمل يمر أمامه « يا رب لقد حرمتني من أداء الحج». وكانت الشوارع التي مرّ بها المحمل مكتظة بالناس ؛ كما أغلقت المتاجر أبوابها وجلس المتفرجون على مصطباتها . وصل المحمل إلى الرميله بعد دخوله العاصمة بنحو ساعة ونصف الساعة ثم عبر هذا المكان الفسيح بآتجاه الفسحة الكبيرة المفتوحة المعروفة بـ « قره ميدان.» وطفقت تسير فيها فأطلقت لها آثنتا عشرة طلقة من القلعة تحية ؛ ثم عادت إلى الرميله وسارت فيه حتى وصلت بوابة القلعة الشمالية المعروفة « بباب الوزير » .

تشهد شوارع القاهرة تقليداً غريباً في آحتفالات المحمل والكسوة. وسأتحدث في ما يلي عن الموكب الطّنان الرنان للمحمل عند آنطلاقه إلى مكة. إذ يخرج الصبية إلى الشوارع جماعات وجماعات حاملاً الواحد منهم « مقرعة » وهي الجزء القصير في طرف سعفة النخل السميكة بعد إحداثه شقين أو ثلاثة شقوق من طرفها العريض إلى نحو نصف طولها ويبادرون النصراني أو اليهودي الذي يلتقونه بسؤاله عن الهدية المعتادة كالتالي : « هات العادة » ، فإن رفض إعطاء خمس أو عشر فضات ينهالون عليه ضرباً بمقرعاتهم . ولقد نال أحد الفرنجة في العام الماضي نصيبه من الضرب من مقرعات بعض الصبية وفقاً لهذه العادة فطار إلى وكالة كبيرة يطلب النجدة ؛ لكن بعض الصبية لحقوه. فتابعوا ضربه . وآشتكى الفرنجي إلى الباشا الذي أمر بجلد شيخ الوكالة لعدم حمايته الفرنجي .

يتحضر المصريون في مطلع « ربيع الأول » (وهو الشهر الثالث) للإحتفال « بمولد النبي » . وتجري إحتفالات المولد في الحي الجنوبي الغربي من الفسحة الواسعة المعروفة « ببركة الأزبكية » التي تتحول إلى بحيرة كبيرة في

موسم الفياضانات . وكانت هذه هي الحال لسنوات طويلة وقت عيد المولد الذي كان يحتفل به على جانب البركة . وأمّا اليوم فأضحى قاع هذه البركة الجاف المكان الرئيسي لهذا العيد . وتنصب في الحي المذكور خيماً كبيرة تُعرف « بالصواوين » (وواحدها « الصيوان ») للدراويش الذين يجتمعون كلّ ليلة للاحتفال بالعيد وإقامة حلقات الذكر؛ ويرفعون «صارياً» بين هذه الصواوين مثبتاً بحبال إضافة إلى مجموعة من المصابيح معلّقة إليه . ويشكل الدراويش ويتراوح عددهم بين خمسين وستين درويشاً حلقة ويعيدون الذكر . كما ينصبون بالقرب من المكان عينه « قائماً » مؤلفاً من أربع صوارٍ في صف واحد على بعد ياردات قليلة ومجموعة من الحبال ممتدة من صارٍ إلى آخر ومربوطة إلى الأرض . تتدلى من هذه الحبال مصابيح مختلفة تتخذ شكل الورود والأسود . . . ؛ أو هي تحمل إسمي « الله » و « محمد » وشهادة الإيمان ؛ وقد تترتب أحياناً بطريقة زخرفية غريبة . تنتهي التحضيرات للعيد عامة في اليوم الثاني من الشهر وتبدأ في اليوم التالي الإحتفالات بفرحها وصخبها . وتستمر ليلاً نهاراً حتى الليلة الثانية عشرة من الشهر ـ أي وحسب التقويم الهجري الليلة السابقة لليوم الثاني عشر من الشهر ـ وهي ليلة المولد . يتوافد بعض سكان العامة خلال فترة تسعة أيام وليالٍ إلى الأزبكية ـ وإنني أدون ملاحظاتي هذه خلال المولد وسأصف لكم احتفال هذه السنة (وهي السنة ١٢٥٠ للهجرة ـ ١٨٣٤ للميلاد) وأتوقف عند النقاط التي تميّز بها عن السنوات السابقة .

تجمّع الناس في فترة النهار في الفسحة الرئيسية للإحتفال وتمتّعوا بقصص «الشعراء» (وهم رواة قصة أبي زيد) والمشعوذين والمهرّجين ولقد أجبرت الغوازي مؤخراً على القيام بنذر والتخلي عن مهنة الرقص ؛ ونتيجة لذلك غابت هؤلاء برقصهن عن العيد . وكانت هؤلاء من الراقصات الفاتنات الجذابات . وتُنصب في بعض الشوارع المجاورة المُدَوّمات والأرجوحات ويُثبّت الباعة كشوكهم لبيع الحلويات وغيرها وكان هذا الإحتفال يشهد رقص الغجر على الحبال ولكنّهم غابوا بدورهم عن احتفالات هذه السنة . وتتلألأ الأضواء في الشوارع ليلاً في المصابيح الخشبية وتفتح أبواب المحلات

والكشوك المخزّنة بالمأكولات والحلوى طوال الليل تقريباً كذلك تستقبل المقاهي روّادها حيث يروي الشعراء والمحدثون قصصهم فيسلّون بها كل من يتوقف من المارة ويصغي إلى سردهم . ويمرّ موكب الدراويش كل ليلة بعيد ساعة من منتصف الليل في الحي ويحملون العصي الطويلة بدلاً من الرايات التي يرفعونها في النهار ويعلّقون المصابيح « والمناوير » (مفردها « منور ») في أعلاها. ويُعرف موكب الدراويش سواء نهاراً براياتهم أو ليلاً بمناويرهم بموكب « إشارة » الفرقة أو قد يكتفي المصريون بعبارة « إشارة » للدلالة على الموكب نفسه . ينتمي معظم هؤلاء الدراويش إلى طبقات المجتمع الدنيا ولا يميّزهم زي خاص بهم . يعتمر سوادهم الأعظم عمامة عادية ويكتفي بعضهم بوضع الطربوش أو اللبادة ؛ ويرتدي معظمهم القميص الصوفي الأسمر أو القميص الأزرق المصنوع من الكتان أو القطن ـ وهو الزي الذي يرتدونه في مناسبات أخرى عند مزاولتهم عملهم اليومي أو في محلّاتهم .

ويكتظ الإحتفال في الليلتين الأخيرتين بالناس نسبة إلى الليالي السابقة فيستقطب جمهوراً غفيراً وسأعمد في ما يلي إلى وصف ما رأيته في الليلة السابقة لهاتين الليلتين :
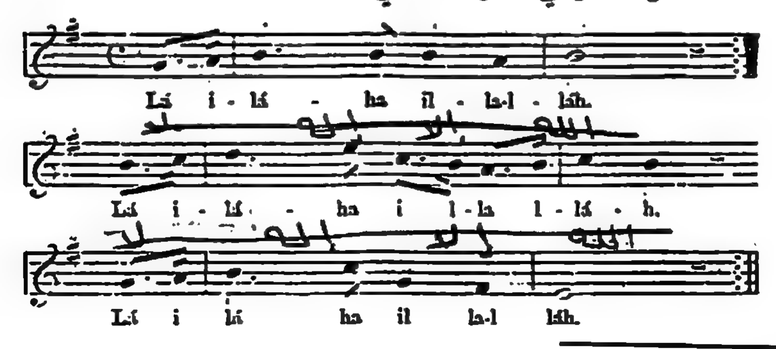
كانت تلك الليلة الحادية عشرة من الشهر القمري وكان القمر يشع نوره عالياً في السماء فيضفي على الاحتفالات حياة . . . مررتُ في شارع «سوق البكري» الواقع جنوبي بركة الأزبكية لأحضر ـ كما قيل لي ـ أفضل إحياء لحلقات الذكر . كانت الشوارع التي مررت بها محتشدة بالجموع الغفيرة وسُمِح للناس في هذه المناسبة بالتجول دون مصابيحهم . ولم أصادف نساءً بين المارين اللهمَّ إلاّ القليلات القليلات منهن كما هي العادة عندما يلقي الليل بسواده الدامس . وعلّقت في مكان حلقة الذكر في سوق البكري الذي شهد تجمعاً كبيراً من الناس « نجفة » كبيرة جداً نضم بين مئتي وثلاث مئة قنديل وأحاطت بالنجفة مصابيح خشبية تجّمعت في كل مصباح منها قناديل عديدة تدلّت من كعبها . ولم تكن هذه الأنوار مضاءة إكراماً للرسول ﷺ : فهي تلألأت بالقرب

من « الزاوية » (وهو جامع صغير) التي دفن فيه الشيخ درويش العشماوي ، وكانت الليلة ليلة مولده . ويُقام ذكر كلّ ليلة جمعة (أو ليلة الخميس كما نعرّفها) ولكن على نطاق ضيق ودون هذا العرض الكبير كما في مناسبة الليلة . ولاحظتُ العديد من العمامات النصرانية السوداء ـ ونادراً ما رأيتها كما الليلة ـ ووصل إلى مسامعي الهتاف التالي : « حبة ملح في عين الذي لا يبارك على الرسول ﷺ » من أفواه بائعي السكاكر وهذا يظهر لنا أن النصارى واليهود معرّضون للقدح والذم عند اتقاد مشاعر المسلمين وتحمّسهم. وسألت عن سبب احتشاد بعض الأقباط لحضور الذكر . فأتاني الرد بأن القبطي الذي تحوّل إلى مسلم بمحض إرادته يدفع كل نفقات مولد الشيخ درويش الذي يبجّله أعظم تبجيل . وكان هذا الشيخ مضطرب العقل أو مقلّداً لحركات المجنون ـ فكان يتناول الخبز وغيره من المأكولات ويدوسها بأخمص قدميه أو يرميها في الزبالة ويقوم بأعمال أخرى يحرّمها الدين تحريماً مباشراً . ولكنّه رفع مع ذلك إلى مرتبة الأولياء ؛ فالمصريون يعتبرون أن سبب مثل هذه التصرفات يعود إلى العبادة الكبيرة التي تسكن روح هذا الولي . ولقد توفي هذا الولي منذ حوالي ثمانية سنوات

يجلس « الذّكيرون » (محيو الذكر) ـ نحو الثلاثين ذكّيراً ـ القرفصاء مفترشين الأرض فوق حصر ملاصقين للمنازل في جانب واحد من الشارع مجتمعين في شكل دائرة مستطيلة . ووضعت داخل هذه الحلقة وسط الحصر ثلاث شمعات كبيرة جداً ، ترتفع الواحدة منها نحو أربع أقدام ومثبّتة في شمعدان منخفض وكان معظم هؤلاء الدراويش ينتمون إلى الدراويش الأحمديين وهم من أبناء الطبقات الدنيا في ثياب رثة يعتمر معظمهم العمامات الخضراء . وجلس في أحد أطراف الحلقة أربعة منشدين إضافة إلى عازف « ناي » ـ وتناولت مقعداً صغيراً من أحد المقاهي القريبة وآستطعت بعد طول عناء وبدفع صغير قام به خادمي الجلوس مع المنشدين فأسمع « مجلس ذكر » سأحاول تفسيره قدر المستطاع لأقدّم للقارىء لمحة عن الذكر الأكثر ذيوعاً في القاهرة . ولقد بدأ الذكر في الساعة الثالثة تقريباً وآستمر نحو الساعتين :

بدأ الذّكيرون بقراءة سورة الفاتحة في وقت واحد بعد أن هتف شيخهم : « الفاتحة » ثم أنشدوا العبارات التالية : « اللّهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد في الأولين وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد في الآخرين وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد في كل وقت وحين ؛ وصلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد بين الملائكة أجمعين إلى يوم الدين وبارك على سائر الأنبياء والمرسلين بين أهل التقدير العظيم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلى سائر المحبوبين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، يا أرحم الراحمين يا الله آمين » . وسكت الجميع لثلاث أو أربع دقائق ثم قرأوا الفاتحة من جديد بشكل صامت . وطريقة تقديم الذكر هذه هي الطريقة التي يعتمدها معظم الدراويش في مصر .

وبعد هذا التقديم بدأ الذكيرون حلقة ذكرهم وجلسوا حسب الطريقة التي وصفتها آنفاً وأنشدوا بطريقة بطيئة « لاإله إلاّ الله » محنين رؤوسهم وأجسادهم مرتين في كل ترديد لـ « لا إله إلا الله » وآستمروا على هذا المنوال نحو ربع ساعة ثم كرروا لفترة زمنية مماثلة الكلمات عينها حسب اللحن نفسه ولكن بطريقة أسرع معجلين في حركاتهم . وكان المنشدون في هذا الوقت ينوّعون لحن مقاطع « القصيدة أو الموشّحة » اللتين تشيران إلى الرسول ﷺ كموضوع حب ومدح وأورد في ما يلي موشحاً(*) انتقيته من أحد كتب الموشحات كنت اشتريته من أحد دراويش الذكر في المولد الحالي :

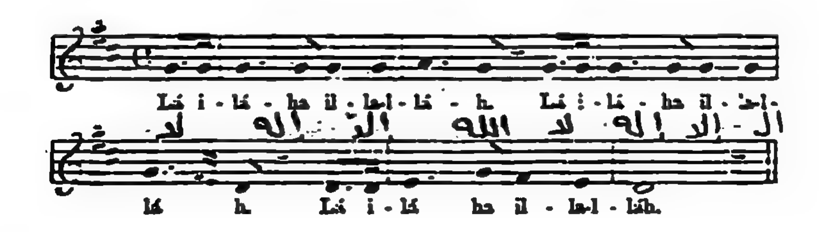


(*) آخترنا موشحاً مختلفاً عن الموشح الذي اعتمد LANE نقله إلى الإنكليزية بسبب صعوبة العثور على الموشح في أصله العربي الذي يمتدح فيه الذكيرون رئيسهم أحمد البكري والموشحان يقربان من حيث المعنى ، لذا آقتضى التنويه

عيـن تجود بـدمـع هـاطـل جـاري ... منذ غاب إنسانها المأنوس من جاري
تبكيـه شـوقـاً وتـوقـاً غـدوة ومسـا ... والقلب في حـرق من نـار تـذكـار
والعيش من بعد صفو صـار في كدر ... من الفـراق وبـعـد الإلف والـدّار
والجسم مضنيٌ بفقد الحب في نكد ... مـا زال في كبـد من بين أخـطار
ولستُ ذا قـوة ألقى الصـدود بهـا ... وليس يقـوى لهجر ضيغم ضـاري
ما حياتي ما آحتيالي في الغرام ومن ... ألقـاه يسعفـني يـقضـي لأوطـاري
ومن يُعين الـفتـى الحيـران ذا ولـه ... بـدعـوة تجتلي في وقـت أسحـار
تقـرّب النـائي المحبـوب من بصـر ... من حل وسط الحشا ضوأ الأبصاري
يا رب قل آصطباري لم أجد فرجـاً ... إلاّك يـرحـم مـن أهـوال أقـدار
أمْنُن عليَّ بجمع الشمل في عَجَل ... بجاه طـه المـرجّى صفـوة البـاري
وقـرَّ عيني بـأن تحظى تُشاهـد مَن ... عـلا على هـامـة الجـوزا بمقـدار

كان المنشدون يهتفون في أوقات متلاحقة (كما هي العادة في حلقات الذكر الأخرى) كلمة « مَدَد » مشدّدين على كل حرف من حروف هذه الكلمة . وتعني كلمة « مدد » العون الإلهي الخارق ويذكرها المنشد ليمده الله بعونه .

بعد ذلك أخذ الذّكيرون يردّدون الكلمات نفسها بنغمة مختلفة آستغرقت الوقت عينه كما في القصيدة المدحية السابقة . ويشير التوزيع الموسيقي الآتي إلى طريقة إنشاد قصيدة الذكر :



ثم يعيدون الكلمات عينها حسب النغمة التالية :



وعند آنتهائهم نهضوا ثانية ووقفوا بالترتيب عينه كما عند جلوسهم وأعادوا الكلمات ذاتها في نغمة مختلفة وآنضم إليهم طوال أدائهم عبد أسود طويل القامة متهندم الثياب لفت نظري فسألت عنه . وعلمت أنه مخصي يملكه الباشا . وأعاد الذكيرون الذين كانوا لا يزالون واقفين الكلمات عينها بصوت عميق أجش مشددين خاصة على كلمة « لا » والمقطع اللفظي الأول من الكلمة الأخيرة (« الله ») في جهد ملحوظ ؛ ويشبه الصوت الذي يحدثه المنشد قرع حافة الطبلة. وكان كلّ ذكّير يدير رأسه يمنة ثم يسرة عند كل تكرار لـ « لا إلّه إلّا الله » ويصبح المخصي في هذا الجزء من الذكر «ملبوساً». ثم مدّ الذكّير ذراعيه إلى الأمام ونظر نظرة ملؤها الإحتشام والرزانة وهتف بصوت مرتفع جداً وبسرعة كبيرة : « الله ! الله ! الله ! الله ! » يا عمي ! يا عمي يا عمي عشماوي ! يا عشماوي ! يا عشماوي ! يا عشماوي ! » وراح صوته ينخفض تدريجياً ؛ ولمّا تلفظ بهذه الكلمات علماً أن أحد الدراويش كان ممسكاً به وجالساً بقربه خارت قواه فوقع وكان فمه مزبداً وعيناه مقفلتان وأطرافه متشنجة وأصابعه مغلقة بإحكام فوق إبهاميه . كانت تلك نوبة صرع أصابت الذكير ، لكنّ أحداً من الحاضرين لم يستطع إدراك ذلك معتقداً أن ما حلّ به إنّما يعود دون شك إلى ذروة نشوة دينية تملّكته. ولم ترتسم الدهشة على وجوه الحاضرين فهم اعتادوا وقوع هذا الأمر في حلقات الذكر الأخرى . ويلغ الذكيرون أوج نشوتهم فكانوا يسرعون في تضرعاتهم ويديرون رؤوسهم بعنف ويخفضون كامل أجسادهم في وقت واحد وكان بعضهم يقفز . وأصبح المخصي « ملبوساً » عدة مرات ثانية ولاحظت أن النوبات كانت تصيبه بعد أداء أحد المنشدين سطرين تقريباً وإجهاده نفسه أكثر من اللازم لإثارة سامعيه . والحق يُقال إن إنشاده كان ممتعاً

للغاية مشنّفاً للآذان . وبدا قبيل ختم الذكر أن أحد الجنود الحاضرين تحول إلى ملبوس في مرات عديدة، إذ كان يدنـدن بطريقـة رهيبة ويهـز رأسه هـزاً عنيفاً في الإتجاهين . وإني لأعجب فعلاً من التناقض الصارخ بين السكينة التي آتسم بها هؤلاء في بداية الذكر وممارستهم العنيفة في نهايته. ولقد تم جمع الأحوال خلال الأداء للمنشدين ، أمّا الذّكيرون فلم يحصلوا على أي مبلغ .

يستمـر الذكـر عادة طـوال الليل حتى مـوعد آذان الصبـاح ، فـلايـرتـاح الذّكيرون إلاّ بين كل مجلس وهم يشربون القهوة ويدخن بعضهم الغليون .

كان الوقت منتصف الليل عندما آنتقلت إلى بركـة الأزبكية حيث تفـاعل ضوء القمر ونور المصابيح في أثر ساحر . وكـان بعـض أضواء القائم والصاري والخيم قـد انطفـأ في ذلك الوقت ، وآفترش بعضهم الأرض نياماً ،فلقـد آنتهى ذكـر الدراويش حـول الصاري وعـدت إلى منزلي لأخلد إلى النـوم بعـد أن حضرت حلقات ذكر مختلفة في الخيم .

توجهت في اليوم التالي (في الليلة السابقـة لليلة المولـد) إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة واحدة ؛ ولكنني لم أصادف جمعاً كبيـراً من الناس في ذلـك الوقت كما لم تكن التسليات المتوفرة كثيرة : جـُلّ ما رأيتـه إثنين أو ثلاثـة من المشعوذين والمهرّجين والشعـراء ، وكان كـل واحد منهم قـد آستقطب حلقـة صغيرة من المتفرجين والسامعين . وزاد تجمهر الناس تدريجياً وكانـوا حضروا ليشاهدوا آستعراض « الدوسة » المميّز الذي يقام كل سنة في مثل ذلك اليوم

وبعد أن أمضى شيخ الدراويش السعدية (السيد محمد المنزلاوي) وهو خـطيب جامـع الحسنين ردحاً من الليلة السـابقة منعـزلاً مردّداً بعض الصلوات والتضرعات في سرّه وبعض مقاطع من القرآن ، قصـد جامـع الحسنين (وكان نهار جمعه) ليؤدي فريضة الصلاة . ولمّا آنتهى من صلاة الظهر والوعظ آنطلق إلى منزل الشيخ البكـري الذي يـرأس كل طبقـات الدراويش في مصـر والـذي يقـع في الجهـة الجنـوبيـة لبـركـة الأزبكيـة . وآنضمت إليـه عنـد خـروجـه من الجـامع مجمـوعات متنـوعة من دراويش السعـدية أتـوا من مناطق مختلفـة من



الدَّوسة

العاصمة ـ وحمل أعضاء كل منطقة علمين خاصين بهم . وكان الشيخ عجوزاً أشيب اللحية ، في سماته أمارات النباهة والمودّة ذات سحنة حنطية وكان يرتدي في ذلك اليوم رداءاً وقاووقاً أبيضين ويعتمر عمامة من الموسلين زيتية اللون داكنة فلا نكاد نميّز لونها عن اللون الأسود إضافة إلى شقة من الموسلين الأبيض ملفوفة بشكل منحرف إلى الأمام ؛ كان الشيخ راكباً حصاناً معتدل الطول والوزن ولي أسباب وجيهة في ذكر هذه التفاصيل . دخل الشيخ بركة الإزبكية يسبقه موكب كبير من الدراويش هو رئيسهم . وتوقف هذا الموكب على بعد مسافة قصيرة من منزل الشيخ البكري وأنطرح عددٌ كبير من الدراويش وغيرهم أرضاً (وأنا متأكد أن عددهم جاوز الستين ولكنني لم أستطع للأسف أن أحصيهم) جنباً إلى جنب متلاصقين متراصين ظهورهم مستقيمة وأرجلهم ممدودة وأذرعهم مضمومة تحت جباههم وكانوا لا ينفكون يردّدون كلمة

« الله » . ثم قام نحو اثني عشر درويشاً ـ وقد خلعوا أحذيتهم في معظمهم يمشون على ظهور رفاقهم الممدّدين ، وكان بعضهم يضرب « الباز » (ضرب من الطبلة الصغيرة حمله العازف في يده اليسرى) ويهتف اسم « الله » إلى أن بان الشيخ . تردّد الحصان لدقائق معدودة في الدوس على ظهر أوّل الرجال الممدين المنطرحين أمامه ؛ ولكنه قفز أخيراً عليه بعد أن دفعوه إلى ذلك . وراح يرهو رهواً دون خوف ظاهر فوق هؤلاء جميعاً يقوده شخصان، فكان أولهما يدوس أقدام الممدين وثانيهما يمشي على رؤوسهم ـ عندها صرخ المتفرجون صرخة مطوّلة « اللّه » في صوت واحد . ولم يكن يبدو أن أحداً من هؤلاء الرجال الذين داستهم حوافر الحصان قد أصيب بأذى ؛ فعلى العكس قفز كل واحد منهم بعد أن مرّ الحصان عليه وتبع الشيخ بعد أن تلقّى دوستين من الحوافر الأمامية والخلفية يقال إن هؤلاء الأشخاص وشيخهم يستخدمون عبارات محددة (كتكرار الصلوات والتضرعات) في اليوم الذي يسبق أداءهم فيتمكنوا بذلك من تحمل دوس الحصان دون ألم ؛ ويقال أيضاً إن بعضهم قد أصيب إصابات بالغة أو قضت عليه حوافر الحصان في مناسبات أخرى لأنّهم لم يتحضروا جيداً لاستقبال دوسة على ظهورهم فغامروا وتمددوا أرضاً . ويعتبرون هذا النوع من الأداء أعجوبة تتحقق عبر قوة خارقة تُمنح لكل شيخ من شيوخ السعدية . ويؤكد بعضهم انتزاع حدوات الحصان في هذه المناسبة ولكنني أظن أنّ هذه لم تكن الحال في الدوسة التي أنقلها للقارىء . ويضيفون أنه يتم تدريب الحصان لهذا الغرض ؛ فإن كان ما يقولونه صحيحاً فهذا يعني أن الحصان مدرب للدوس على البشر ، وهذا عمل ينفر منه الحصان كما هو معروف كثيراً ولقد رفض شيخ السعدية الحالي القيام بالدوسة لسنوات طويلة . واقتنع بعد إلحاح وتضرع تخويل شخص آخر القيام بهذه المهمة . ولقد نجح هذا الرجل ـ وهو أعمى ـ نجاحاً كبيراً لكنّه ما لبث أن توفي فانصاع شيخ السعدية لرغبة الدراويش وبدأ منذ ذلك الوقت يؤدي الدوسة بنفسه .

ولمّا أتمّ الشيخ أداءه الرائع دون أن يقع أدنى حادث مشؤوم ، انتقل إلى الحديقة ممتطياً حصانه ودخل منزل الشيخ البكري يرافقه بعض الدراويش

وآنضممت إلى حلقتهم داخل المنزل بعد أن قدّمت نفسي عند الباب وسمح لي الخادم بالدخول. ونزل الشيخ عن صهوة حصانه وجلس على سجادة مفروشة فوق البلاط في موازاة طرف جدار «تختبوش» باحة المنزل. وجلس الشيخ منحني الظهر مكتئب الوجه والدموع تفيض رقراقة من عينيه ولا يكف عن التمتمة . ووقفت ملاصقاً له وكان يجلس معه ثمانية أشخاص آخرين ، ووقف الدراويش الذين دخلوا معه وهم نحو العشرين في شبه دائرة أمامه فوق حُصر مدَّت لهم وتحملق حولهم بين خمسين وستين شخصاً . وبدأ ستة دراويش يتقدمون نحوه يبعدون نحو ياردتين عن شبه دائرة حلقة الذكر هاتفين في وقت واحد : « الله حيّ » وضاربين في كل مرة بازاً يحمله بواسطة حدبة في يده اليسرى بسوط جلدي قصير وصغير . ولم يستمروا في ضربهم الباز أكثر من دقائق معدودة ؛ إذ ما لبث أن أضحى عبد أسود ملبوساً فاندفع إلى وسط حلقة الدراويش ممدداً ذراعيه وهاتفاً : « اللّه اللّه » . لكن شخصاً أمسك به فبدا أنّه عاد إلى رشده . بعد ذلك أقام الدراويش الواقفين مجتمعين كما وصفت آنفاً في شبه دائرة حلقة ذكر ثانية ؛ وكان كلّ ذكير يهتف بصورة متعاقبة « الله حي » فيردّ عليه الباقون بـ« يا حي » وكانوا ينحنون في كل هتاف من اليمين إلى اليسار . وآستمروا على هذه الحال لمدة عشر دقائق ثم هتفوا بالطريقة عينها وفي مدة مشابهة : « دايم ، يا دايم » مفتعلين الحركات نفسها وتملكني شعور لم أستطع مقاومته لمحاولة تقليدهم في حركاتهم دون أن يتنبه أحد إلى أنني غريب دخيل . فآنضممت إلى شبه دائرة هؤلاء الدراويش واندمجت في أدائهم فنجحت في عدم لفت الأنظار إلي ؛ ولكنني عانيت من آرتفاع درجة الحرارة الأمرين . وبعد الذكر بدأ أحد الأشخاص بتلاوة جزء من القرآن ؛ ثم ما لبثوا أن آستأنفوا الذكر من جديد لنحو ربع ساعة . وعمد معظم الدراويش الحاضرين إلى تقبيل يد الشيخ قبل انسحابهم إلى الحجرة العلوية .

ومن عادات بعض أتباع السعدية في هذه المناسبة بعد الدوسة مباشرة القيام بعملهم البطولي المشهور في أكل الثعابين حية أمام نخبة من الناس مجتمعين في منزل الشيخ البكري. لكنّ شيخهم الحالي وضع مؤخراً حدّاً لهذه

الممارسة في العاصمة معلناً أنّها مشمئزة للنفس مخالفة للدين إذ إنها تشمل الثعابين وهي من بين المخلوقات التي لا ينبغي تناولها . ولاحظت خلال زيارتي السابقة لهذه البلاد أن السعديين يأكلون لحم الثعابين والعقارب معاً . وكانوا يجرّدون الثعبان من أسنانه السامة فلا يعود يؤذيهم ويربطون فمه بإحكام بخيط حريري تجنّباً للسعاته . وقد تتزيّن الثعابين التي تستخدَم في العروض بحلقتين فضّيتين بدلاً من الخيوط الحريرية ونلاحظ أن السعدي لا يأكل لحم الثعبان الحي إلاّ عندما تصيبه نوبة سعر . وضغط السعدي بشدة على طرف إبهامه فوق ظهر الثعبان بينما كان ممسكاً به بعد إنشين من الرأس وآكتفى عند أكله الثعبان بالرأس وبالقسم بين الرأس والنقطة حيث موضع ضغط الإبهام في ثلاث أو أربع لقمات وطرح الباقي. ولا يأمن السعديون دائماً شر هذه الثعابين فإليكم ما حدث « للفيل » وهو أحد دراويش هذه الطائفة المتميز بشكله الضخم وعضلاته النامية وقوته الهائلة ؛ ولقد كان الفيل مشهوراً بأنه أعظم آكل ثعابين في عصره وفي كل زمان تقريباً . أراد « الفيل » ذات يوم أن يربي ثعباناً من النوع السام أحضره له الصبي العامل عنده وكان آختاره له من بين ثعابين أخرى في الصحراء ووضعه في سلة وآحتفظ به طوال أيام دون طعام حتى يضعفه ؛ ثم مدّ يده إلى السلة ليتناوله بهدف آنتزاع أسنانه ، لكن الثعبان كان أسرع فعضّ له إصبعه وصرخ المسكين يطلب النجدة ولم يكن في المنزل غير النساء اللواتي فزعن الإقتراب منه فانقضت بذلك دقائق طويلة قبل أن يهب أحد لمساعدته . وكانت يد الفيل متنفخة متورمة سوداء اللون وما لبث أن فارق الحياة بعد ساعات قليلة .

تلك هي أهم الإحتفالات التي يشهدها المصريون في يوم الدوسة ؛ لكن غياب الغوازي عنها يجعلها أقل بهجة وفرحاً .

توجهت ثانية في الليلة التالية المعروفة بليلة المولد إلى مسرح الإحتفال الرئيسي ، فشهدت ذكراً تقوم به حلقة من ستين درويشاً حول الصاري وكان القمر وضاحاً مشعاً بفيض نوره منيراً المكان دون الحاجة إلى أضواء المصابيح وكان الدراويش الذين يشكلون الحلقة حول الصاري ينتمون إلى طبقات

مختلفة ، وكان ذكرهم شائعاً بين الطبقة البيومية فحسب . بدأ الذكيرون يهتفون في أحد مقاطع الذكر « يا الله » فكانوا يحنون رؤوسهم مع كل هتاف ويشبكون أيديهم على صدورهم في وقت واحد ثم يرفعون رؤوسهم ويلطمون وجوههم بأيديهم . وآحتشد الأشخاص الجالسين أرضاً داخل الحلقة . وآستمر الذكيرون في ذكرهم لمدة نصف ساعة ، وعقدوا بعد ذلك حلقات من أربعة أو خمسة أشخاص وكان الواحد منهم يضع كتفه اليسرى خلف ظهر الشخص الموجود على يساره (باستثناء الشخص في المقدمة) ويجعل يده فوق كتف الآخر اليسرى ووجوههم جميعاً مقابلة لوجوه المتفرجين خارج الحلقة . وكانوا يصرخون : « الله » بصوت أجش عميق ويخطون خطوة مع كل صرخة مرة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء ، فيتقدّمون قليلاً نحو اليسار في كل خطوة فتدور الحلقة كاملة بطريقة بطيئة للغاية . ويرفع كل ذكّير يده اليمنى محيياً المحتشدين خارج الحلقة ؛ فإن كان المتفرج قريباً من الذكير يمسك بيده الممدودة ويقبلها أحياناً كلّما دنا منه . وتتوقف كل أنواع الذكر في الخيم عندما يبدأ الذكر حول الصاري . ولقد شهدت ذكراً ثانياً هذه الليلة ـ وهو تكرار لذكر الليلة السابقة في سوق البكري . والذكر أحسن ما يستقطب آنتباه المشاهدين أو السامعين ولا تضاهيه إثارة وأهمية سوى حكايات رواة القصص الشعبية . وينتهي الإحتفال مع آذان الصبح وتتوقف كافة حلقات الذكر بآستثناء ذكر سوق البكري بعد ثلاث ساعات من منتصف الليل . وتُرفع في اليوم التالي الخيم وكذلك القائم والصاري .

الفصل الخامس والعشرون

الاحتفالات الشعبية (تابع)

إنه من غير المجدي الإستمرار في تفصيل الاحتفالات الشعبية وغيرها من الأعياد التي يحتفل بها المصريون ؛ فالملاحظ أن الكثير من العادات يدخل طي النسيان مع مرور السنين في هذه البلاد كما لم يتوقف المؤلفون عند وصفها وصفاً دقيقاً فأتمنى أن يقبل قارئي اعتذاري مسبقاً .

يشهد جامع الحسنين خلال فترة خمس عشرة ليلة وأربعة عشر نهاراً في شهر « ربيع الثاني » (الشهر الرابع الهجري) احتفالاً يُعرف « بمولد الحسنين » تكريماً لذكرى مولد الحسين الذي يُقال إن رأسه مدفون في هذا المكان . ومولد الحسنين أكثر الموالد احتفالاً في القاهرة لا يتجاوزه أهمية سوى مولد النبي ويصادف دائماً احتفال مولد الحسنين نهار ثلاثاء ؛ وأما الليلة التي يطلق عليها فعلاً ليلة المولد فهي الليلة التي تعقب الثلاثاء مباشرة ، أي ليلة الأربعاء . ويقع مولد الحسنين عامة بعد حوالي خمسة أو ستة أسابيع من مولد النبي وأمّا هذه السنة (وأنا أكتب في وقت الاحتفال الذي أصفه اليوم في سنة ١٢٥٠ للهجرة/ ١٨٣٤ للميلاد) فقد تمّ تحديد ليلة الحادي والعشرين من الشهر ليلة الاحتفال بالمولد ، علماً أن الاحتفال بدأ عشية السابع من الشهر ذاته . وتلألأت أنوار الجامع وضّاءة في الليلتين السابقتين لليلة السابع بمصابيح أكثر من العادة . وإضاءة الجامع تقليد متبع منذ سنوات ، بيد أن هاتين الليلتين لا تتميزان عن سائر الليالي التي تعقبهما .

يُضاء الجامع في كل ليلة من الليالي الخمس عشرة التي ذكرتها آنفاً بعدد

كبير من الأضواء والشموع التي يشمخ بعدها خمس أو ست أقدام ويتولّى « ناظر » الجامع إضاءة الجامع في الليلة الأولى من الأموال المتبرَّع بها للجامع ، ويضيئه حاكم العاصمة في الليلة الثانية (وهو حبيب أفندي حالياً) ، وشيوخ بعض طبقات الدراويش في الليالي المتتالية إضافة إلى بعض موظفي الجامع الكبار والأغنياء من الناس . وتبقى المحلات التي تبيع المأكولات والشربات كذلك المقاهي مفتوحة أبوابها في تلك الليالي ، حتّى أن المحلات والمقاهي الواقعة في أحياء أخرى لا تقفل حتى انبلاج النهار ؛ فيحتشد الناس في الشوارع القريبة من الجامع يستمعون إلى المزيكاتيين والمغنين وبعض رواة القصص الشعبية . كذلك يشهد الجامع اكتظاظاً . ونجد في قسم من رواق الجامع الكبير لفيفاً من الناس يفترشون الأرض في صفين مواجهين فيقرأون جماعة بعض أجزاء من القرآن . وهذا ما يُعرَف « بالمَقْرَأ » ؛ وقد ينقسمون جماعات جماعات عند القراءة . ويقع نظرنا في قسم آخر من الجامع على فريق يقرأ من كتاب « دلائل الخيرات » وهي مدائح في رسول الله ﷺ ؛ ونجد في قسم مغاير جماعة من الناس يتلون أشكالاً محدّدة من الصلاة وغيرهم يتلو الذكر . ونصادف أفراداً يتجولون بين مختلف هذه الجماعات وهم يؤدون صلواتهم وتضرعاتهم عن روح الحسين أو يجلسون على الحصر ؛ وهؤلاء هم الزوار الذين قصدوا الجامع لشتى الأسباب فإمّا تقوى أو مجرد فضول أو حبّاً بالترفيه والتسلية . ويجتمع عادة عند الضريح لفيف من الدراويش أو غيرهم (وهو مغطى بقبة كبيرة ويعرف من هذا المنطلق « بالقبة ») يتلون أشكالاً من الصلاة . ويدخل الزوار الضريح عادة لإداء سورة الفاتحة والدوران حول الضريح ، بيد أن أكثر أروقة الجامع إكتظاظاً هو الرواق الكبير حيث تُتلى حلقات الذكر وتُقام غيره من الاحتفالات .

نرى في كل ليلة من ليالي هذا الاحتفال « الإشارات » وهي مسيرات الدراويش المنتمين إلى مذهب واحد أو عدّة مذاهب يمرون في الشوارع حتّى جامع الحسنين يسبقهم اثنان أو ثلاثة من الرجال بطبولهم ومزاميرهم وصناجاتهم أحياناً ويرافقهم حاملو المشاعل . ويجمعون أفرادهم في منازلهم وهم في

طريقهم إلى الجامع وإذا مرّوا بضريح أحد الأولياء تتوقف موسيقاهم لفترة بسيطة ويتلون سورة الفاتحة أو مدحاً في الرسول مشابهاً لما يقولونه في بداية الذكر ، وهم لا يتوقفون في تلاوتهم . ويدخلون الجامع لدى وصولهم (ويحمل بعضهم الشموع) ويزورون الضريح ثم يعودون أدراجهم ، باستثناء شيخهم وقسم منهم الذين يبقون أحياناً في القبة ويشاركون في تلاوة الصلوات .

ومن الليالي التي تستقطب أنظار المصريين ليلة الجمعة (أي تلك السابقة ليوم الجمعة) قبل ليلة المولد مباشرة ، وهي ليلة « الشيخ الجوهري » وهو رجل ثراء يضيء الجامع في هذه المناسبة بأضواء مشعشعة غير عادية . توجهت في تلك الليلة بعد المغيب بحوالي الساعتين إلى الجامع قبل بدء الاحتفالات . وكنت كلما دنوت من الجامع وجدت الشوارع محتشدة بالناس . ففي زاوية تجمّع الموسيقيون إضافة إلى راقصين يونانيين من الصبية و « جنك » متأنق متخنث في مظهره منسدل الشعر يرقصون على أنغام آلات المندولين التي كان يعزفها اثنان من مواطنيهم وحشد من الأتراك المتحمسين المعجبين مع طائفة بسيطة من المصريين تحيط بهم وعلمتُ أن هؤلاء كانوا حاضرين في أدائهم في الليلة السابقة وأنّهم أصبحوا وقحين بسبب تدفق الحسنات عليهم فكانوا لا يترددون مثلاً عن وضع اليد على سلة عنب في الشارع

ودخلت الجامع ووجدته أكثر احتشاداً من العادة ـ أكثر من الليالي السابقة والملاحظ أن الأضواء التي كانت تتلألأ نوراً في أرجائه تكاد لا تفوق كثيراً الأضواء المشعة من الشمعدنات التي تزخر بها الكنيسة الإنكليزية عدداً . ورجّعت جلبة مشوشة في الرواق الكبير ولم تعد العين تشاهد شيئاً ولا الأذن تسمع صوتاً وما هي إلاّ لحظات قليلة حتى بدا المكان مناسباً لاحتفال ديني وأحصيتُ عدداً من الأتراك وبعض معارفي بين الزوار . وجلستُ أولاً لأرتاح مع أحد أصدقائي وهو بائع كتب ولفيف من أصدقائه الدراويش الذين كانوا يستعدون لإحياء ذكر برئاسته وقدّموا لي القهوة التي دفعت ثمنها قرشاً للمنشد . ولم تمضِ دقائق على بداية الذكر الذي كان مشابهاً للذكر الذي أتيت على وصفه في مولد النبي حتى نهضت لزيارة المقام وسرتُ سيراً متّئداً ولما

انتهيت من الزيارة ، خرجت من القاعة حيث احتشدت جماعة من الدراويش يتلون الصلوات ويجلسون في شكل مربع بقدر ما تسمح به مساحة القاعة باستثناء الجزء الذي يحتوي الضريح ولكنني ما إن طفقت عائداً إلى الرواق الكبير حتى سمعت جلبة كبيرة : إذ كانت أفواج الناس تتدافع إلى نقطة واحدة على بعد مسافة بسيطة مني وسمعت رجلاً يصرخ : « نصراني! كافر » . واستنتجت أن أحد الزوار اكتشف أمر وجود نصراني في الجامع وتوقعت لغطاً كبيراً . ولمّا سألت أحد الواقفين عن الأمر قال لي إن مثل هذه الكلمات تستخدم كشتائم يوجهها المسلم للآخر الذي يكون أساء إليه . واندفع أحد موظفي الجامع راكضاً من القبة وفي يده عصا وأعاد الأمن والنظام إلى المكان . ولم أكن لأكتشف حقيقة الأمر سواء طرد الشخصان اللذان أحدثا القلاقل أو لم يطردا - ورأيت أنّه لمن الحكمة في حالتي التوقف عن طرح الأسئلة . وكان عند مدخل القبة فريق يقرأ بصورة جهورية جماعية كتاب « الدلائل » الذي ذكرته سابقاً وبعد أن وقفت دقائق معدودة لسماعهم رغم أن عدم وضوح أصواتهم جعل من المستحيل عليّ تمييز الكثير من الكلمات التي تلفظوا بها عدت إلى الذكر الذي حضرته أوّلاً ولم ألبث أن سمعت أصوات قرع الطبول الصادرة عن فريق من الدراويش العيساوية الذين استقطب ذكرهم الحشود الفقيرة تلك الليلة في نهاية الرواق الكبير . ونهضت فوراً ومشيت قُدماً . ولحقني صديقي بائع الكتب بعد أن ترك ذكره وصرخ بي بتهور : « يا أفندي خذ محفظتك » وشعرت لدقيقة أن سروالي قد سحب مرات عديدة ووجدت لاحقاً ثقباً كبيراً فيه ؛ يبدو أن أحدهم قطعه بسكين حاد بحثاً عن جيبي : فعندما يكون الجامع مزدحماً بالناس كما كانت الحال في ذلك اليوم يتسلّل بعض السارقين إلى حرم هذا المكان الطاهر[1] وكدتُ أيأس من الإقتراب من العيساوية عندما نادى خادمي الذي

---

(١) ترتكب أعمال السرقة أحياناً في هذا الجامع في مناسبات أخرى كما لاحظ ذلك أحد أصدقائي وشرع هذا الصديق يقصّ عليّ ما جرى له فقال : « توجهت إلى الجامع للصلاة ، وبينما كنت أنحني فوق حافة الميضأة للوضوء وبعد أن وضعت حذائي إلى جانبي وبدأت أردّد : « نويت أداء فريضة الوضوء » ردّ أحد الواقفين ورائي : « نويت أخذ=

اصطحبته معي ليحمل لي حذائي الأشخاص حولي « هل تعرف من الذي تدفعه؟ » ووجدتُ فوراً الطريق مفتوحة أمامي ، وكانت قد انقضت ثلاث ساعات بعد المغيب .

لا بد أن أذكر قبل المباشرة في وصف أداء العيساوية أنهم طبقة من الدراويش يتألفون بمعظمهم من المغاربة أو عرب شمالي إفريقيا ويستقي هؤلاء تسميتهم من اسم شيخهم الأول « سيدي محمد بن عيسى » وهو من المغاربة يتميز أفراد العيساوية بأدائهم الغريب المدهش ويشتهرون بنوع مميز . وكنت توّاقاً لمعرفة إن كانوا سيؤدون ذكرهم الذي طالما سمعت عنه ولم يخب ظني رغم أنني سمعت أنهم لم يقدّموا هذا الذكر لسنوات طويلة قبلاً

وجدت نحو عشرين من هؤلاء الدراويش في شتى ألوان الملابس يفترشون الأرض متراصين متلاصقين في شكل حلقة أمام الجدار المواجه للمبنى وكان الواحد منهم ما عدا اثنين يضرب « طاراً » كبيراً يبلغ أكثر من قدم عرضاً ويختلف عن الطار العادي بغياب القطع المعدنية الرنانة المعلقة إلى إطار هذا الأخير . وكان أحد الرجلين اللذين ذكرتهما في الإستثناء يضرب طاراً صغيراً من النوع المعروف بينما كان الشخص الثاني يضرب بازاً صغيراً وترك المحتشدون فسحة أكبر من تلك التي كان يشغلونها أمام حلقة الدراويش هذه لدراويش آخرين من الطبقة ذاتها وما إن بدأ الدراويش السابقون بضرب طاراتهم حتى قام الآخرون الذين كانوا ستة دراويش بأداء رقصة غريبة هاتفين أحياناً : « الله » وأحياناً أخرى : « الله مولانا » . ولم يشهد رقصهم انتظاماً أو إتزاناً وكان يبدو أن الواحد منهم يؤدي رقصة مجنون محرّكاً جسده طلوعاً ونزولاً قبل أن يدور حول نفسه ، ثم يحرّك ذراعيه بطريقة غريبة ويقفز ويصرخ أحياناً : فلو أن غريباً كان يشاهد رقصهم دون أن يعلم مسبقاً أنهم يؤدون رقصة دينية انفعلوا في أدائها لاعتقد أن هؤلاء الدراويش

= زوج الحذاء الجميل هذا ». ولمّا التفتُّ حولي وجدت زوج حذاء مستعمل بالٍ مكان حذائي الجديد ».

الراقصين يحاولون جاهدين التفوق على بعضهم البعض في أداء دور المهرّج ؛ وتأتي طريقة لباسهم لترسّخ هذه الفكرة في الأذهان . كان أحدهم يرتدي قفطاناً لا أردان له ولا حزام يتمنطق به أما رأسه فكان عارياً من أية عمامة ويبدو أنه لم يحلق منذ حوالي أسبوع ؛ وكان غيره يعتمر قلنسوة قطنية ، لكنّه كان عارياً من الرأس إلى الخصر لا يغطي جسده سوى سروال فضفاضي كان هذان الدرويشان مؤديي الذكر الرئيسيين . واندفع الأول بينهما وهو أسود البشرة متوسط العمر هزيل البنية بعد أن رقص بطريقة غريبة لبضع دقائق واتّسمت حركاته بالغرابة والوحشية نحو الحلقة التي شكّلها إخوته الذين كانوا يضربون الطارات . وتوسّط هذه الحلقة طبق إحماء صغير من القصدير مليء بالفحم الحجري المشتعل . وتناول الدرويش من هذا الطبق قطعة من الفحم المشتعل وضعها في فمه ؛ وفعل الشيء نفسه مع قطعة ثانية وثالثة حتى امتلأ فمه . وراح يمضغ قطع الفحم الملتهبة فيفتح ملء شدقيه في كل مرة ليظهر للمتفرجين محتواه ؛ ولم تمضِ دقائق ثلاث حتى كان التهم الفحم كلّه . ولم يبدِ الدرويش أدنى ألم أو وجع ، وكان مفعماً بالحيوية خلال هذه العملية وأكثر نشاطاً بعدها وتبيّن أنّ الدرويش الآخر الذي أشرت إليه سابقاً بأنّه شبه عارٍ سليم البنية وكأنّه في ريعان شبابه . وعنفت حركاته بعد أن رقص مدة مساوية للدرويش الأول ممّا دفع أحد إخوته الدراويش للإمساك به ؛ لكنّه أفلت من قبضته واندفع نحو طبق الإحماء وأمسك بأكبر قطعة فحم مشتعلة ووضعها في فمه وأبقاه مفتوحاً لنحو دقيقتين . وكانت أكبر قطعة فحم في كل مرة يتنفس فيها خلال هذه الفترة تطلق دخاناً أبيض . وعندما أرسل زفرة عميقة ومضت شرارات من فمه ثم مضغ قطعة الفحم وابتلعها وتابع رقصه . وبعد انقضاء نصف ساعة تقريباً على رقصهم توقّف الدراويش للراحة

وقبل أن يأخذ الدراويش قسطاً من الراحة بدأ فريق آخر أداءه الخاص بالقرب من وسط الرواق الكبير . وأخذت مكاني بين المشاهدين وكانوا رتّبوا أنفسهم بالطريقة نفسها كما الفريق السابق . وتألّفت الحلقة من ضاربي الطبول

وهم يوازون الذين سبقوهم عدداً ، والفرق أن الراقصين لم يتجاوز عددهم الإثني عشر راقصاً

وتناول أحدهم طويل القامة مرتدياً ثوباً صوفياً داكناً حليق الرأس من طبق الإحماء الذي قدّمه إلى الراقصين ـ كما لو كان طبق حلوى ـ قطعة فحم مشتعلة متوهجة ووضعها بين أسنانه لفترة قصيرة ثم سحبها فوق لسانه وأبقى فمه مفتوحاً لأكثر من دقيقتين حسب ما أعتقد ثم أخذ يشهق ويزفر بشكل عنيف فيتأجّج فمه أتون نار مطلقاً شرارات اللهب كما فعل الدرويش السابق ولكن بإثارة أقل . وانضم بعد مضغه قطعة الفحم وابتلاعها إلى حلقة ضاربي الطبلة وجلس فكاد يلتصق بقدمي وتفحصت وجهه مليّاً ولم ألحظ أية معاناة أو ألم عليه وشاهدتُ هذا الأداء الرائع لساعة تقريباً وبعد ذلك توقّف فريقا الدراويش للراحة ؛ ولم أجد شيئاً آخر تجدر بي مشاهدته فغادرت الجامع .

يأكل العيساوية في هذه المناسبة أحياناً الزجاج كما النار . ولقد اشتهر من بينهم الحاج « محمد الصلاوي » كأحد أبرز آكلي النيران والزجاج كما ذاع صيته لأنواع أداء أخرى وهو ذات قامة مهيبة وكان يضيء الأنوار في جامع « الحسنين » ولقد توفي منذ سنوات . ومن عادة الحاج الصلاوي عندما يبلغ ذروة اهتياجه وتأثّره الوثوب فوق عارضات الخشب الطويلة الممتدة عبر القناطر فوق عواميد الجامع والمرتفعة ست عشرة قدم أو أكثر من الأرض ثم يقفز من الواحدة إلى الأخرى ؛ بعد ذلك يبلّل إصبعه في فمه ويحرّك ذراعه ويجعل الدم يتدفق ويعمد بالطريق عينها إلى وقف النزف .

يستمر الذكر خلال هذا الاحتفال طوال الليل . ويمضي الكثيرون الليلة نياماً في الجامع على الحصر وقد تنشط حوادث السرقة كذلك . ووجدتُ عندما عدت إلى منزلي بعد مشاهدتي ذكر العيساوية ما لا يقل عن ثماني قملات تفلي في ثيابي

ولم أشهد في الليلة التالية طوال كل الاحتفال سوى ما قام به صديقي بائع الكتب الذي كان راغباً في اعتباري مسلماً ورعاً (أو لأنه أراد القيام بعمل

صالح) وكـان نفسه يتـرأس ذكراً . إذ طلب ودون إذن مسبق من أربعـة فقهاء تلاوة من القرآن (وأقصد ختمة كاملة) أقدّمها لروح سيّدنا الحسين . ولم أكن بوسعي معارضته لأن ذلك قد يثير الشكوك فهذا أمر طبيعي شائع في مثل هـذه المناسبة بين أبناء الطبقتين الغنية والمتوسطة . وأُعيدت هذه الختمة في فترة بعد ظهر اليوم التالي وكذلك في المساء ، وكان كل فقيـه يتلو جزءاً من القـرآن ثم يعطي الدور لغيره وهكذا دواليك حتى انقضت تسع ساعات على هذه الحال . ولمّا انتهى الفقهاء ذكروا إسمي الشرقي المزعوم على أساس أنني صاحب هذا العمـل التقي ، وحصل كـل واحد منهم على شمعـة وشيء من الخبـز وقـرش واحد .

تُرفع نهار الإثنين الحصر إلاّ القليل منها فيجلس عليها جمع من الفقهاء مهمّتهم تلاوة القرآن . ويتوافد الناس إلى الجامع في ذلك النهار رجالاً ونساءاً خاصة من كان منهم راغباً في الحصول على بركة بزيـارته وكـان كارهـاً للجلبة الكبيرة والجموع الغفيرة المحتشدة يوم المولد الواقع في اليوم التالي مباشرة .

إكتظت الشوارع المحيطة بالجامع في الليلة التالية بجمـوع الناس وكـان من الصعب جـداً المرور في بعض المنـاطق . وبعيـد المـغيب ازدانت هـذه الشوارع بالمصابيح وفتحت بعض المحلات أبوابها وصادفت تلك الليلة أيضاً مولد السلطان الصالح الأيوبي المشهور الذي يُعتقد أنه من أولياء الله . ويقال إنه كان يرتدي دلكاً وإنّه كسب لقمة عيشه بصنعه السـلال من أوراق الخوص دون اللجوء إلى أموال الخزينة العامة لاستعمالات خاصـة . ويقع ضـريح الصـالح المتاخم للجامع في سوق النحاسين الذي يشكل جزءاً من الشارع الرئيسي على مسافة قريبة من جامع الحسنين . كانت هذه السوق تتلألأ أنـواراً وأضواءاً كمـا فتحت معظم المحلات أبوابها وكان في كل واحـد منها مجمـوعة من ثـلاثة أو أربعة رجال يجلسون مع سيّدهم . والجامـع وضريـح الملك الصالـح مهملان على حافة الإنهيار والإضمحلال رغم التبجيل العظيم الذي يكنّه سكان القاهرة لهذا الملك . ولمّا دنوت من باب الضريح أحاط بي السّقاة والحمّالين يتوسّلون إليّ توزيع محتوى إبريق « كربه » عن روح الصالح ثم دخلت المبنى منتعلاً

حذائي (وكنت رأيت غيري بفعل الشيء عينه) ولكنني انتزعته عند عتبة بهو الضريح ؛ والبهو عبارة عن صالة مربعة مقبّبة ، ويتوسّطه نصب مستطيل فوق القبر يحيط به حاجز خشبي (المقصورة) . ونجد في أعلى هذه المقصورة أربع شموع كبيرة وثلاث منها مجصّصة في أسفلها وهي تشبه دعامات حجرية مستديرة . والشموع ملوّنة في شكل خطوط حمراء عريضة أفقية كما الخطوط المتعاقبة الحجرية في الجدران الخارجية في معظم جوامع القاهرة . وقد تكون مساوية عدداً أصلاً في الأعلى والأسفل كما في رأس المقصورة . ويقال إن هذه الشموع أرسلها أحد الباباوات أو أحد الفرنجة إلى الملك الصالح هدية له ؛ ولمّا كان الصالح وليّاً إكتشف ودون فحصها أنّها محشوة بالبا ٠د فأمر بوضعها في الجص ؛ وتذكر رواية أخرى أن هذه الشموع أرسلت كهدية إلى الضريح بعد موت الصالح بسنوات وقد ظهر الملك المتوفّى في منام حارس قبره وأطلعه على مكيدة البارود . وكان بهو الضريح مضاءاً بأنوار خافتة يبدو عليه القدم والإهمال كما كان البلاط مكشوفاً. وعند دخولي قادني خادمان إلى كعب المقصورة ولقّنني أحدهما الفاتحة والصلاة التي ذكرتها في حديثي عن احتفالات يوم عاشوراء في الوقت الذي كان الآخر يردّ : « آمين » . وطلب مني الخادم الأول تلاوة الفاتحة معهما ثانية وأعطاني خمس كرات صغيرة من الخبز من قبر السيد البدوي وحصل مقابلها على نصف قرش . وقام خادم آخر بفتح باب المقصورة لي حتى أدخل ـ وهذا تكريم عظيم يلزمني أن أدفع له كذلك مبلغاً زهيداً من المال .

وتابعت جولتي من قبر الصالح إلى جامع الحسنين عبر الشوارع المزدحمة حتى الاختناق (ومع أنها ليست الليلة الكبيرة) والمضاءة بأنوار برّاقة . ولم ألحظ فرقاً كبيراً في المشاهد بين جامع الحسنين والشوارع ورأيت في حشود الجامع الغفيرة أطفالاً يلعبون ويتلاحقون ويصرخون . كما وقع نظري على جموع الفقهاء يتلون القرآن إضافة إلى حلقة صغيرة من الدراويش وسط الرواق الكبير يؤدون حلقة ذكر . وشققت طريقي بصعوبة وسط هؤلاء إلى القبّة وطفتُ حول الضريح وأبصرتُ فريقاً متعدّد الأشكال والألوان يتلو القرآن . ولمّا غادرت الجامع بقيت ساعة ونصف ساعة تقريباً أستمع إلى أحد الشعراء في الشارع .

شهد جامع الحسنين وجواره في اليوم التالي وهو اليوم الأخير والأعظم في الاحتفال إزدحاماً أكبر من الأيام التي سبقته . وكانت المصابيح مضاءة في الليلة التالية وهي ليلة المولد في كل سوق وأمام باب كل وكالة وحتى أمام أبواب المنازل الخاصة للمسلمين من أبناء الطبقتين المتوسطة والميسورة في أرجاء المدينة ودهشت كثيراً من عدد المتسوّلين في الشوارع الذين تدفّقوا أفواجاً ذلك اليوم يسألون حسنة أو صدقة عن روح « سيّدنا الحسين » . وضقتُ ذرعاً وأنا جالس طوال نصف ساعة في أحد المقاهي الواقعة في الشارع الرئيسي في فترة بعد الظهر بعبارات التوسل مثل : « ربّنا يخليّك » أو « ربّنا يساعدك » . ويبدو أن معظم سكان العاصمة نزلوا إلى الشوارع وأن معظم الأتراك المقيمين هنا تجمعوا في جوار الحسنين . لقد كان اليوم الكبير لزيارة ضريح الحسين . ويعتقدون أن الرسول ﷺ يحضر كل هذا النهار وفي الليلة التالية ليشهد زيارات أتباعه الورعين الأتقياء لحفيده . ويفضل معظم كبار الناس التوجه إلى الجامع في اليوم السابق للاحتفال أو في أي يوم من أيام الاحتفال باستثناء اليوم الأخير بسبب الإزدحام الكبير يوم العيد . ولكنني توجهت خصيصاً في يوم الاحتفال لأشهد الإزدحام الذي حاولوا التهرب منه . دخلت القبة قبيل المغيب وأخذتني الدهشة عندما رأيت أن الطريق قد مهدّت لي شخصياً للتقدم بكل سهولة نحو الضريح وقادني خادم الجامع أمام باب المقصورة ولقّنني التلاوات عينها كما في يوم عاشوراء وأعطاني حفنة خبز من السيد البدوي مؤلفة من أربع عشرة كرة صغيرة. وما إن تناولت الخبز حتّى أحاط بي طالبو الهدايا فعصروني عصراً وشدوا عليّ الخناق فكادت أنفاسي تنقطع. وسألني الرجل الذي لقّنني الصلاة عن هديته (قرش واحد) وطالعني الآخر بقوله : « لقد تلوت سورة يس لك يا آغا » . وقال لي ثالث : « يا أفندي، أنا خادم المقصورة ». أمّا الباقون فكانوا من المتسولين العاديين ، فأدركت عندها لماذا يفضّل الأتراك الذهاب في يوم آخر . لكن أحد المتسولين وهم أكثرهم وقاحة لحقني بين الحشود في الجامع حتّى الشارع ومع أنّه لم يكن واجباً عليّ إكرامه بأي مبلغ وكنت أعطيت كل ما احتوته جيوبي من مال وأغدقته عليهم أكثر مما هو مفروض . ودُعيت للجلوس على مصطبة أحد المحلات المقابلة للجامع لأخلّص نفسي من مضايقتهم ولم أر في

الجامع غير جحافل المتسولين رجالاً ونساءاً وأطفالاً إضافة إلى حشود الزوار . واستمر الجامع مكتظاً بالناس واقتصرت الاحتفالات على زيارة الضريح وبعض تلاوات من القرآن إضافة إلى إحياء ذكرين تقريباً . ولم تشهد الشوارع مثل هذا الإكتظاظ حتى بعد انقضاء منتصف الليل وتلألأت الشوارع بالأضواء فشعشعت أنوارها وأضفت حياة على المكان . كذلك علّقت الشمعدانات في سوق « الجواهرجيّة » وأسدلت فوقها أغطية وأضيئت مآذن الجوامع الكبيرة وفتحت العديد من المتاجر أبوابها إضافة إلى المحلات التي تبيع المأكولات والقهوة والشربات . وكان يجلس في بعضها عدد من الفقهاء (اثنان أو أكثر) يتلون ختمة من القرآن وتوزع الشعراء والمحدّثون والمزيكاتيون والمغنّون في أماكن مختلفة كما في الليالي السابقة .

يحتفل المصريون منتصف شهر « رجب » (الشهر السابع الهجري) بمولد « السيدة زينب » وهي ابنة الإمام علي (رضي الله عنه) وحفيدة الرسول ﷺ ، وهو يقع دائماً ليلة أربعاء . لكن الاحتفال بهذا المولد يبدأ عادة قبل أسبوعين تقريباً ؛ ويعتبر اليوم الأخير اليوم الأهم في الاحتفالات والمصادف يوم ثلاثاء . وتجري هذه الاحتفالات في جوار الجامع حيث ـ كما يعتقدون ـ مدفونة السيدة ، في بناء مزيّن بشكل مبهرج غير رائع يقع في الحي الجنوبي الغربي من العاصمة . ويقع الضريح المزعوم الذي يرتفع فوقه نصب مستطيل مغطّى بالحرير المطرّز والذي يحيط به حاجز برونزي ذات ظلّة خشبية مشابهة لظلة الحسين في حجرة صغيرة مرتفعة ومقبّبة في الجامع ويمكن للزوار الدخول إلى هذه الحجرة بمناسبة المولد للصلاة والطواف حول الضريح . وكنتُ ذهبت لزيارة الضريح في يوم الاحتفال الأخير وهو اليوم الكبير . ورأيت في أحد الشوارع بالقرب من الجامع العديد من رواة قصصي أبي زيد والحواة والقريداتيّة والراقصين كما زينت الأرجوحات والمدوّمات الشوارع . وأُمليتُ في الجامع الصلاة الخاصة بهذه المناسبة بعد الفاتحة وحصلت بالمقابل على كرتين صغيرتين من كرات الخبز المخصّصة للسّيد البدوي كان باب السياج المقدّس مفتوحاً وعلمت أن النساء وحدهن مسموح لهن بالدخول لاقتصار المقصورة على

الحريم . لذا اكتفيت بالطواف الذي كان صعباً إنجازه بسهولة بسبب احتشاد الناس وضيق المكان بين جهات السياج البرونزي الثلاث. وصرخت في وجهي سيدة تبدو عليها إمارات الاحترام وكانت في حالة صعبة في هذا المكان المكتظ ، حتى أفسح لها الطريق ولجأت إلى قاموس الألفاظ الفظّة الشائعة بين النساء العربياتِ . وتوسّل إلي العديدون لاستخدمهم في تلاوة سورة من القرآن عن روح السّيدة وكانوا يسمعونني عبارات التضرع والدعاء كـ « الله يعطيك ما تشاء » ، لأنّ زوّار أضرحة الأولياء يقصدونها عامة رافعين أدعيتهم بغرض تحقيق أمنية غالية عليهم . وكان بعض المعوزين المكفوفين يفترشون الأرض يسألون صدقة .. أمّا داخل المسجد فرفعت الحصر ولم نعد نشاهد سوى زمرة من المتسكعين المتكاسلين في المكان . وعند خروجي ضايقني بعض الحمّالين والسّقاة بإلحاحهم عليّ حتّى أعطيهم مالاً فيوزعون الماء عن روح « ابنة الإمام » . ومن العادات الشائعة توزيع بعض الفضات على خدم المقصورة والفقيه لتلاوته سورة من القرآن وعلى المتسولين في الجامع والحمالين أو السقاة . ويعتبر الذكر من أبرز الاحتفالات التي تُقام في الجامع في الأمسيات . ويقيم حلقة الذكر كل مساء دراويش طبقة معينة أو عدة طبقات .

تعرف ليلة السابع والعشرين من رجب « بليلة المعراج » وهي الليلة التي قام بها الرسول ﷺ برحلته العجائبية إلى السماء ويقام بهذه المناسبة إحتفال في قسم من الضاحية الشمالية في القاهرة خارج « باب العدوي » . ويقيم الشيخ البكري على مدى أيام ثلاثة من الاحتفال حفلة خاصة في منزل يملكه في هذا الحي حيث يعقد حلقات ذكر . ويعرف الناس بالإضافة إلى التسلية التي يوفّرها الحواة في الشوارع ورواة قصص أبي زيد كما في احتفالات أخرى مشابهة إحتفال الدوسة الذي وصفته في حديثي عن مولد النبي ويجري هذا الاحتفال في شارع عريض قصير في الضاحية المذكورة أمام جامع أحد الأولياء المعروف « بالطشطوشي » في السادس والعشرين من الشهر أي في اليوم الأخير الرئيسي للاحتفال الذي كنت أحد متفرجيه . ولمّا كان يوم جمعة توجّب على شيخ السعدية (وهو الشخص الوحيد القادر على إنجاز هذه الأعجوبة الذائعة) أداء

فريضة الصلاة وإلقاء الخطبة في جامع الحسنين عند الظهر . وانطلق من الجامع إلى مكان إقامة الدوسة يسبقه طابور طويل من الدراويش حاملين راياتهم وبعض طبولهم الصغيرة التي يستخدمونها في بعض الأحيان . وصلت إلى المكان بعد الظهر وأخذت مكاني فوق المصطبة الممتدة على طول أسفل واجهة جامع الطشطوشي

وبينما كنت جالساً أسلّي نفسي بمراقبة الحشود التي جذبها الفضول عينه الذي دفعني إلى المجيء إلى هذا المكان مرّ أمامي ولي مشهور كان طلب مني متوسلاً منذ بضعة أيام بعض القروش لإطعام الفقراء بهذه المناسبة ؛ ولمّا رآني اتجه صوبي وجلس إلى جانبي وراح هذا الولي يروي على مسامعي قصة لها علاقة بأسباب إقامة احتفالات ذلك اليوم فيقتل الوقت الذي كان علينا انتظاره قبل بدء الدوسة . وقال الولي إن أحد السلاطين سخر علناً من قصة المعراج مؤكداً أنه يستحيل على الرسول النهوض من سريره ليلاً والإنتقال من مكة إلى القدس على ظهر الدابة « بوراق » وصعوده مع الملاك إلى سابع سماء والعودة إلى القدس ومكة ليجد نفسه ينعم بدفء سريره . وبينما كان السلطان يلعب الشطرنج ذات يوم مع وزيره ، دخل عليه الولي الطشطوشي واستسمحه اللعب معه شرط أن ينفّذ السلطان إذا خسر ما يأمره به الولي . وقبل السلطان هذا الاقتراح فلعب مع الولي لكنّه خسر اللعبة فأمره الولي الغطس في حوض ماء . ولمّا نفّذ ما طلبه منه الولي وجد نفسه في قصر رائع وأنه تحوّل إلى امرأة حسنة المعارف رائعة الجمال منسدلة الشعر تتمتع بكل مفاتن الأنثى وتزوج السلطان أو بالأحرى تزوجت ـ من ابن أحد الملوك وأنجبت له ثلاثة أطفال بصورة متعاقبة بعد ذلك عاد السلطان إلى الحوض ولمّا خرج منه أخبر الوزير ما جرى له ، وذكّره الولي بعدم تصديقه قصة المعراج فأعلن الملك إيمانه بهذه الأعجوبة وأصبح مسلماً يتبع سنة الله بحذافيرها ومنذ ذلك الوقت يحتفل المصريون بالمعراج في جوار الجامع حيث دفن الطشطوشي كما يحتفلون بمولده في الوقت عينه .

ولم تمضِ فترة طويلة على انتهاء هذه القصة ، ساعة وربع ساعة

بالتحديد بعد الظهر حتى وصل شيخ السعدية . وسار دراويش هذا الشيخ في الطليعة وكان عددهم يربو على المئة شخص (وكان مستحيلاً عدّهم) وتراصوا صفّاً واحداً في الشارع كما في مولد النبي وكانوا لا يتوقفون عن تكرار كلمة « الله » . وقام بعض الدراويش وقد خلعوا أحذيتهم بالسير فوقهم ، وكان بعضهم يضرب الطارات الصغيرة وبعضهم الآخر يحمل الأعلام السوداء التي تميّز طبقة الرفاعية (وهي الطبقة القريبة من السعدية) إضافة إلى شخصين يحملان « الشّاليش » (عبارة عن سارية تبلغ عشرين قدماً طولاً تشبه سارية السعدية الرئيسية تزينها زخرفة مخروطية الشكل نحاسية في أعلاه) ؛ ثم حضر الشيخ ممتطياً الحصان الرمادي عينه الذي ركبه في مولد النبي وكان يرتدي سترة طويلة من الفراء من اللون الأزرق الفاتح مخطّطة بفرو القاقم إضافة إلى مقلة سوداء عبارة عن عمامة واسعة خاصة برجال الدين والمتفكّرين . وسار الشيخ بحصانه فوق الرجال الممدّدين متمتماً كل الوقت . وكان اثنان يقودان الحصان فسارا بدورهما فوق هؤلاء متنقلين بين الأرجل والرؤوس . وخطر للحصان أن يثب مرة واحدة ويطفر مرحاً فيقفز فوق بعض الرؤوس ، ومرّ فوق الرجال بقفزات عالية صعبة ثم دخل الشيخ منزل الشيخ البكري المتاخم للجامع . ويبدو أنّ أحداً من الرجال الممدّدين لم يصب بأذى حتى أن العديدين نهضوا ضاحكين ؛ ولكن بدا أن أحدهم أصبح ملبوساً من شدة اهتياجه وبلوغه ذروة التأثر ، وكاد يصاب بالإغماء رغم أنه لم يضع يده خلف ظهره كما لو أنه أصيب من دوس الحصان وانهارت الدموع رقراقة من عينيه . ومن المحتمل أن يكون الحصان أصاب هذا الرجل وأنه حاول جاهداً إخفاء السبب الأصلي.

وأصرّ صديقي الولي بعد الدوسة على أن أحضر إلى منزله القريب مع ثلاثة فقهاء . وقادنا الولي إلى غرفة علوية صغيرة لا تحوي من الأثاث سوى سجادة عتيقة وبعض الوسادات وجلست مع الفقهاء الثلاثة وتلونا سورة الفاتحة معاً بصوت مسموع عال . ثم بدأ أحدهم بتلاوة نصف السورة الثانية من القرآن بنغمة عذبة وأنهاها آخر . بعد ذلك أحضر مضيفنا كرسيّاً ووضع عليه صينية حتوت على ثلاثة أطباق كبيرة من « العيش بلحم » وهو عبارة عن لحم مدقوق

بالزبد ومتبّل بقليل من الطحينة (أو السمسم الذي استخرج منه زيته) والخل والبصل المفروم ، ثم وضع بعض الكعك المخبوز المصنوع من العجينة المخمرّة . وتشاركت في تناول وجبة الطعام هذه مع الفقهاء الثلاثة وكان مضيفنا يسهر على خدمتنا . وانضم إلينا فقيه رابع تناول معنا طعام العشاء . ولمّا فرغنا من الطعام تلا الفقهاء سورة الفاتحة للمضيف أولاً ولي ثانياً قبل أن ينصرفوا وما لبثت أن حذوت حذوهم .

يرجع الشيخ البكري في ليلة المعراج بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من المغيب في موكب يسبقه بعض حاملي المشاعل وعدد من الدراويش إلى منزله في الأزبكية . وتبقى أضواء مآذن الجوامع الكبيرة مشعشعة طوال تلك الليلة .

يبدأ في الأربعاء الأول أو الثاني من شهر « شعبان » (وهو الشهر الثامن في التقويم الهجري) الاحتفال بمولد « الإمام الشافعي » في اليوم السابق عادة إلّا إن كان هذا اليوم الأول والثاني من الشهر وينتهي المولد عشية الخميس من الأسبوع التالي . وتجري هذه الاحتفالات في القرافة الكبيرة الواقعة في الطريق الصحراوية جنوبي العاصمة حيث ضريح الإمام كذلك في الجهة الجنوبية من المدينة . ويستقطب مولد الإمام الشافعي عدداً كبيراً من الزوار لأنّ الإمام هو مؤسس الطائفة التي ينتمي إليها معظم سكان القاهرة وتشبه الاحتفالات هذه احتفالات الموالد الكبيرة الأخرى . ويجري في يوم السبت السابق لليوم الأخير أو اليوم الكبير احتفال الدوسة . وتكثر أفواج الزوار في النهار الأخير ـ نهار الأربعاء ـ وتقام في الليلة التالية خلقات الذكر في جامع هذا الإمام . ويثبت فوق قبة هذا الجامع مركب معدني يوضع فيه عادة بمناسبة المولد إردب من الطحين ومحمل جمل ماءاً للعصافير . ويقال إن هذا المركب يدور في بعض الأحيان عندما لا يحركه الهواء فيتنبأ بوقوع أحداث متنوعة حسب الموقع الذي يقف عنده صالحة كانت أم طالحة كأن تشهد البلاد موسم شح كبير أو يموت أحد العظماء .

يولي المسلمون المصريون أهمية كبيرة لليلة « النصف من شعبان » وهي ليلة الخامس عشر (أي تلك السابقة لليوم الخامس عشر) من الشهر ويقفون فيها

وقفة خشوع وتقدير ويعتبرونها الليلة التي يتقرّر فيها مصير كل مخلوق بشري للسنة القادمة . ويعتقدون أن عدد أوراق شجرة السدر (سدر الجنة) والمعروفة بشجرة المنتهى لأسباب مختلفة أهمّها (كما الإعتقاد الشائع) وقوعها في أقصى نقطة في الجنة أو النقطة الأكثر إرتفاعاً ، مساوٍ لعدد الكائنات البشرية في العالم ؛ ويقال إنه حُفِرت على أوراق هذه الشجرة أسماء كل هؤلاء البشر وإن كل ورقة منها تحمل اسم الشخص واسمي أبيه وأمّه . ويقوم المحتفلون بهز الشجرة في الليلة المذكورة بعيد المغيب ، فإن كان مقدّر لأحدهم أن يموت في السنة التالية ، تقع عند موته الورقة التي تحمل اسمه . فإن مات باكراً جداً تندثر ورقته كلّها تقريباً ولا يبقى منها سوى قسم صغير أخضر . أمّا إن مات في وقت متأخر في السنة يبقى قسم كبير بلونه الأخضر . ويتناسب الوقت الذي يبقى له في هذه الدنيا مع جزء الورقة الخضراء . وينظر المسلمون الحذرون الجادون إلى تلك الليلة نظرة ممتلئة رهبة وخشية ويمضونها خاشعين مصلّين بحرارة . ويلجأون إلى صلاة خاصة بهذه المناسبة بعد صلاة المساء العادية التي يؤدونها بعد المغيب مباشرة . ويمكن القادرون منهم تلاوة الصلاة دون أن يدفعهم أحد إلى ذلك ويتوجهون غالباً إلى الجامع ؛ وقد يجتمع آخرون في الجوامع لهذه الغاية ويستخدمون فقيهاً لمساعدتهم ، فيتوافد الفقهاء من هذا المنطلق لأداء هذه المهمة . ويترأس الفقيه منهم مجموعة من الأشخاص ويبدأ بتلاوة سورة يس (السورة ٣٦ من القرآن) ثم يرفع يديه أمام وجهه كما في التضرع العادي ويحذو المصلون الآخرون حذوه. ويتوجه إلى ربه بالدعاء التالي الذي يردّده الآخرون بعده : « اللهم ، يا ذا المنّ ، ولا يُمَن عليه ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطَّوْل والإنعام ، لا إله إلا أنت ، ظَهْر اللاّجين ، وجار المستجيرين ، وأمانِ الخائفين ، اللهم ، إنْ كنت كتبتني عندك ، في أم الكتاب ، شقياً ، أو محروماً ، أو مطروداً ، أو مقتَّراً عليَّ في الرِّزق ، فامحُ اللهمَّ بفضلك ، شقاوتي وحرماني ، وطردي ، وإقتار رزقي ، واكتبني عندك ، في أم الكتاب ، سعيداً ، مرزوقاً ، موفّقاً للخيرات ، فإنك قلت ، وقولك الحق ، في كتابك المنزل ، على لسان نبيك المرسل ، يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم

الكتاب . إلهي بالتّجلي الأعظم ، في ليلة النّصف ، من شعبان المكرّم ، التي يُفرَقُ فيها كل أمر حكيم ويُبرم ، أن تكشف عنا من البلاء والبلواء ما نعلم ، وما لا نعلم ، وما أنت به أعلم ، إنك أنت الأعز الأكرم ، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي(*) وعلى آله وصحبه وسلم »

تعرف الليلة التي يتوقع فيها بدء شهر « رمضان » (وهو شهر الصوم والشهر التاسع في السنة الهجرية) بليلة « الرؤيا » (رؤية الهلال) . ويتوجه في فترة بعد ظهر اليوم السابق أو قبلاً العديد من الأشخاص إلى الصحراء حيث الهواء النقي لرؤية هلال القمر؛ ويبدأ الصوم في اليوم التالي بعد رؤية الهلال. وإذا استحالت رؤية القمر نتيجة لتلبّد صفحة السماء يبدأ الصوم عند انقضاء ثلاثين يوماً من بداية الشهر السابق وتكفي شهادة مسلم واحد في رؤية الهلال لإعلان الصوم. وينطلق المحتسب وشيوخ بعض التجارات المختلفة (الخبازون والطّحانون والجزارون وبائعو اللحم والزياتون والخضرجيون) ولفيف من أعضاء هذه التجارات وفرق المزيكاتيين والفقراء يرأسهم الجنود في هذه الليلة في موكب من القلعة إلى محكمة القاضي وينتظرون عودة أحد الأشخاص الذي ذهب للرؤيا أو شهادة مسلم آخر رأى القمر هلالاً ويحتشد الناس في الشوارع التي يمرون بها وجرت العادة أن تنضم إلى الموكب طائفة من الجياد المغطاة أسرجتها بشكل مزركش ؛ بيد أن العرض العسكري للطبقة الفقيرة قد حلّ محل الأبّهة الدينيّة المدنية التي تشهدها هذه الليلة . وبات يقتصر موكب ليلة الرؤيا اليوم على مشاة النظام. ويتقدّم حاملو المشاعل كل مجموعة من الجنود كما يسيرون خلفهم لإنارة الطريق لهم عند عودتهم ويتبعهم الشيخ وبعض أعضاء التجارات الأخرى مع العديد من الفقراء وهم يهتفون عند مرورهم : « بركة ، بركة ! بارك الله عليك يا رسول ، السلام عليه » . وتنقضي عامة بضع

(*) يفاخر المسلمون بأن محمداً أميّ كدليل على أنه أوحي إليه . وكان لمحمد التأثير عينه الذي كان للمسيح المخلص على اليهود في كلماته . (أنظر يوحنا : الفصل السابع/١٥).

دقائق بعد مرور فرقتين أو ثلاث فرق ويختم المحتسب ومساعدوه الموكب . ويعد أن يصل الخبر اليقين بأنه تمت رؤية القمر إلى محكمة القاضي ينقسم الجنود والمحتشدون فرقاً عديدة ويعود فريق منهم إلى القلعة بينما تطوف الفرق الأخرى في أحياء مختلفة في المدينة تهتف : « يا أتباع أفضل خلق الله ! صوموا صوموا » . وإذا لم يروا القمر في تلك الليلة ، يصرخ المنادي : « بُكرة شعبان ، ما فيش صيام ، ما فيش صيام » . ويمضي المصريون ردحاً كبيراً من تلك الليلة يأكلون ويشربون ويدخنون وترتسم البهجة على وجوههم كما لو أنّهم يتحرّرون من شقاء يوم صوم (في حال أُعلن الصيام في اليوم التالي) . وتتلألأ الجوامع أنواراً كما في الليالي المتعاقبة وتعلّق المصابيح عند مداخلها وفوق المآذن .

ولا نصادف خلال شهر رمضان الناس في الشوارع يحملون البيبات كما في الأوقات الأخرى بل نراهم يمشون فارغي اليدين أو يحملون عصاً أو سبحة ؛ ولم يعد النصارى في محلّاتهم يخشون التدخين على مرأى من المسلمين الصائمين . وتكتسي الشوارع نهاراً منظراً كئيباً وتغلق معظم المحلات أبوابها ؛ ويعود الإزدحام إليها كالعادة في فترة بعد الظهر وتفتح المحلات أبوابها ويكون المسلمون طوال صيامهم نهاراً نكدي المزاج ، ويتحولون ليلاً بعد الإفطار إلى ودودين محبّين بشكل غير عادي . ويدرج الأتراك في القاهرة وغيرهم في رمضان على التوجه إلى جامع الحسنين في فترة بعد الظهر للصلاة والإستراحة . ويعرض بعض التجار الأتراك ويعرفون « بالتُحَفجيّة » في مثل هذه المناسبات بضاعتهم في باحة الميضأة للبيع والتي تنم عن ذوق رفيع وتتماشى مع حاجات مواطنيهم . ومن الشائع في رمضان رؤية التجار في متاجرهم يتلون آيات من القرآن أو يؤدون الصلوات أو يوزعون الخبز على الفقراء . ويصبح المتسولون قبيل المساء وأحياناً بعيد المغيب مزعجين وصاخبين ؛ ويتوافد في هذه الأوقات أبناء الطبقات الدنيا إلى المقاهي ، ويفضّل بعضهم كسر صيامه بفنجان قهوة وبيبة . وقليلون هم الفقراء الذين

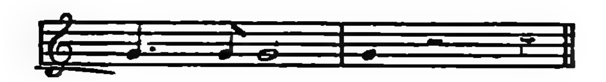
يكسرون صيامهم ؛ وقد يعمد بعض أبناء الطبقتين الغنية والمتوسطة إلى التوقف عن الصيام سرّاً .

يضع أبناء الطبقتين المتوسطة والغنية طوال شهر رمضان كرسي الإفطار في الحجرة التي يستقبل فيها سيد المنزل زوّاره قبيل المغيب بدقائق معدودة . وتثبت صينية مطليّة باللّك فوق هذا الكرسي تزيّنها أطباق « النُّقل » المختلفة كالزبيب والتمر المجفّف والتين المجفّف والكحك والبندق المحمّص والجوز وبعض قُلَل الشربات من السكر والماء . ويزيدون فنجاناً أو فنجانين إضافة إلى عدد الأشخاص في المنزل للزوّار الذين يحضرون بغتة فيتشاركون الشراب ويضيفون أحياناً قطعة جبن صغيرة طازجة ورغيف خبز . وتكون البيبات جاهزة دائماً كما نجد في المنازل التي يتدفق عليها الزوار العديد من البيبات المصنوعة من القصب . ويتناول سيد المنزل بعد آذان المغرب الذي يُرفع بعد المغيب بأربع دقائق مع لفيف من أفراد عائلته أو أصدقائه كأساً من الشربات ، ثم يؤدون صلاة العشاء ويأكلون بعدها شيئاً من النُّقل ويدخنون بيباتهم . ويجلسون بعد تناولهم هذا الشراب المنعش لتناول « الفَطور » الدسم المؤلف من اللحم وغيره من أطايب الطعام . ويؤدون بعد الفطور صلاة العشاء ويضيفون إليها صلاة « التراويح » وهي الصلاة التي يصلّيها المسلم في رمضان بعد صلاة العشاء أو يدخنون البيبة قبل المباشرة في الصلاة . تتألف صلاة التراويح من عشرين ركعة ووقتها في الفترة الممتدة بين صلاة العشاء والوتر . ويصلي الأشخاص عامة صلاة التراويح جماعة في المسجد حيث يؤمهم إمام فيتابعونه في حركاته . تقفل الجوامع الصغيرة أبوابها في شهر رمضان بعد صلاة التراويح وأمّا الكبيرة منها فتبقى مفتوحة حتى وجبة « السُّحور » (وهي آخر الوجبات) أو « الإمساك » الذي يعود معه الصائم إلى صومه ثانية . وتشّع أنوار هذه الجوامع في داخلها وخارجها طالما أبوابها مفتوحة وتُضَاء المآذن طوال الليل . ويختلف الوقت الذي يسمح به للمسلم في الأكل (وهو يبدأ كما ذكرت مع المغيب) بين س. ١١ ود. ٥٥ وس. ٧ ود. ٤٦ (نسبة إلى خطوط العرض في القاهرة) حسب طول الليل أو قصره ـ ويكون

الإمساك دائماً عشرين دقيقة قبل وقت صلاة الفجر فتمتد فترة الصوم اليومية من س. ١٢ ود. ٥ إلى س. ١٦ ود. ١٤

يتناول المسلمون فطورهم عامة في منازلهم ويمضون بعده ساعة أو ساعتين أحياناً في منزل أحد الأصدقاء . ويرتاد بعضهم خاصة أبناء الطبقات الدنيا المقاهي في المساء فيعقدون اللقاءات الاجتماعية أو يستمعون إلى رواة القصص الشعبية أو عزف المزيكاتيين الذين يسلّونهم في المقاهي كل ليلة في هذا الشهر . ويتدفق الناس إلى الشوارع طوال جزء طويل من الليل كما تبقى محلات بيع الشربات والمأكولات مفتوحة . وهكذا ينقلب الليل نهاراً بفضل الأغنياء خاصة الذين ينامون في النهار . ويقيم بعض علماء القاهرة حلقات ذكر في منازلهم كل ليلة طوال هذا الشهر كما يدعو بعض الأشخاص أصدقاءهم فيقيمون ذكراً أو ختمة .

يدور « المسحّرون » كل ليلة في شهر رمضان فيطلقون المدائح أمام منزل كل مسلم قادر على مجازاتهم ويعلنون في ساعة متأخرة فترة السحور . ولكلّ « خط » أو منطقة صغيرة في القاهرة مسحّرها الخاص الذي يبدأ جولته بعد ساعتين تقريباً من المغيب (أي بعد صلاة المغيب بفترة وجيزة) فيحمل في يده اليسرى «بازاً» صغيراً أو ما يعرف «بطبلة المسحّر» وفي يده اليمنى عصاً صغيراً أو سوطاً يضرب به. ويرافقه في جولته صبي يحمل قنديلين في إطار من أعواد النّخل ، فيتوقفون أمام منزل كل مسلم إلاّ الفقراء منهم ويضرب المسحّر بازه عند كل وقفة ثلاث مرات حسب النغمة التي يظهرها رسم ص ٤٩٢ : ـ ثم يطلق المدائح النبوية منادياً بالصلاة على الرسول وبتوحيد الله فيقول : « إصحَ يا غفلان وحدّ الرحمن » ثم يضرب الطبلة كما في السابق مردفاً : « محمد رسول الله » . ويعيد ضرب الطبلة قائلاً : « أسعد لياليك يا فلان » (ويسمي اسم سيد المنزل) . ويكون المسحّر استقصى أسماء سكان كل منزل فيحيي كل واحد فيه إلاّ النساء بالطريقة عينها ويذكر كل أخ له وابن وابنة شابة عزباء قائلاً: «أسعد الليالي لستّ العرايس فلانة » . ويضرب بازه بعد كل تحية ويحيي الرجل (أو الرجال) كما الآتي : « تقبّل الله منه (أو منهم) صلاته (أو صلواتهم) وصيامه



وحسناته » . ويختم بهذا الكلام : « ربّنا يحفظك يا كريم في كل سنة » . وإذا توقف المسحّر عند أبواب الأغنياء يعيد بعد التوحيد والصلاة على النبي مديحاً طويلاً مكسور الوزن والقافية يدعو فيه الله ليعفو عن خطاياه ويبارك على الرسول ﷺ ثم يبدأ برواية قصة المعراج وغيرها من قصص المعجزات ضارباً طبلته عند قوله بعض الكلمات أو بالأحرى بعد كل نغمة ، وهو يغضّ الطرف عن المنزل المتشّح بالسواد حداداً . ويحصل عادة عند منزل الشخص المنتمي إلى الطبقة المتوسطة على قرشين أو ثلاثة أو أربعة قروش في « العيد » الذي يعقب شهر رمضان ويعطيه بعضهم مبلغاً بسيطاً كل ليلة .

وإن كان قارئي تأثّر أشد التأثر بدور المسحّر وإبرازه شخصية المسلمين فهو سيندهش أكثر لما سيقرأ لاحقاً. إذ تضع المرأة في العديد من منازل الطبقة المتوسطة في القاهرة قطعة معدنية صغيرة (أو خمس فضات أو قرشاً أو أكثر) في قطعة من الورق وترميها من النافذة إلى المسحّر بعد أن تكون أضرمت النار في الورقة حتى يرى مكان وقوعها . فيتلو المسحّر حسب رغبتها أو بملء إرادته سورة الفاتحة ويخبرها قصة قصيرة غير موزونة القافية ليسليها كقصة « الضرّتين » وشجارهما . وتبعد بعض قصصه عن باب اللياقة والاحتشام ومع ذلك تسمعها النساء القاطنات المنازل ذات السمعة الطيبة . وكم أن هذه القصص وذيولها منفرة وغير مناسبة وكم أن روايتها تحمل في طياتها تضارباً كبيراً ! وتستبدل المآذن أحياناً خلال شهر رمضان الصلاة « الأولى » وصلاة « الأبد » بصلاتين أخريين ترفعهما . وتتراوح الصلاة الأولى المعروفة بصلاة « الأبرار » (والتسمية ناجمة عن الاستعانة بالكلمة الأولى التي تبدأ بها الصلاة) بين ساعة وساعة ونصف ساعة قبل منتصف الليل حسب طول الليل أو قصره وتشتمل على آيات القرآن التالية : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً يوفون بالنّذر ويخافون يوماً كان شرّه مستطيراً

ويطعمون الطعام على حُبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً إنّما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شُكوراً ﴾ (سورة الإنسان) . أمّا الصلاة الثانية فتعرف « بالسّلام » وهي مجموعة أدعية ومدائح في الرسول ﷺ مشابهة للأدعية التي تسبق صلاة الجمعة وإن لم تتشابه دائماً . وتُقام هذه الصلاة بعد نصف ساعة من انتصاف الليل . وترفع المآذن آذان الصبح باكراً على غير عادة وهو تنبيه للمسلمين ليتناولوا وجبة السّحور وهي آخر وجبة مسموح بها . أمّا في الشتاء فيُرفع الآذان بعد ساعتين ونصف ساعة في ليالي الشتاء الطويلة وبعد نحو ساعة ونصف ساعة في الليالي القصيرة قبل الإمساك . كذلك ترفع الجوامع الكبيرة آذاناً آخر قبل الإمساك بعشرين دقيقة وهو تنبيه أخير لأي صائم أهمل الطعام . ويتعالى صوت « الميقاتي » في هذه الجوامع عند حلول فترة الإمساك (والميقاتي هو الذي يعلن ساعات الصلاة وغيرها) أو قد يتولى هذه المهمة أحد غيره منادياً : « إرفعوا » (أي إرفعوا الطعام) . ويتجول المسحّر قبل الإمساك بساعة ونصف ساعة تقريباً ليوقظ الناس أو يذكّرهم بتناول الطعام في المنازل التي أُمر بإيقاظها فيقرع الأبواب وينادي حتى يسمع سكان المنزل نداءه ؛ ويفعل بواب كل حي الشيء نفسه في كل منزل في حيّه . ولا يفرط بعضهم في الطعام عند الفطور ويتركون اللذائذ والأطايب الدسمة لفترة السحور ؛ وقد يقلب بعضهم الآخر هذه القاعدة أو يساون بين الوجبتين . وعند انتصاف الليل يخلد معظمهم للنوم .

يحيي الأتقياء المتدينون آخر عشرة أيام من رمضان في نهاراته ولياليه في جامع الحسنين أو جامع السيدة زينب . وتعرف إحدى هذه الليالي وهي ليلة السابع والعشرين منه عامة بليلة القدر (أي الليلة السابقة لنهار السابع والعشرين (ويقال إن القرآن أُنزل على محمد ﷺ في تلك الليلة . ويؤكدون أن ليلة القدر « خير من ألف شهر ، تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر » . وتكون أبواب السماء مفتوحة في تلك الليلة فتقام الصلاة التي لا بد أن تستجاب وينقلب ـ كما يُقال ـ الماء المالح حلواً فجأة في تلك الليلة . ويقضي بعض الأتقياء الذين لا يستطيعون التأكيد أي

من الليالي العشر في رمضان هي ليلة القدر هذه الليالي بخشوع كبير ويجعلون أمامهم وعاءاً فيه ماء مالح يذوقون طعمه ليروا إن بات حلو المذاق فيتأكدون أن تلك الليلة ليلة القدر . ولقد حدّد الرسول ﷺ في أحد أحاديثه ليلة القدر بإحدى الليالي الوترية التالية : ٢١ ـ ٢٣ ـ ٢٥ ـ ٢٧ أو ٢٩

يحتفل المسلمون في أول ثلاثة أيام من شهر « شوّال » (وهو الشهر العاشر الذي يلي رمضان) « بالعيد الصُّغَيِّر » والأصحّ « العيد الصَغير » وهو أحد العيدين الكبيرين اللذين يأمر الإسلام باستقبالهما بفرح عامر . ويأتي هذا العيد ليعلن انتهاء صوم رمضان . يحتشد المصلون بعد طلوع الشمس مباشرة في أبهى حلة لهم في الجوامع ويؤدون صلاة ركعتين سنة للعيد تليها خطبة الخطيب . ويهنىء الأصدقاء الذين يلتقون في الجامع أو في الشارع أو في المنازل أنفسهم بمناسبة حلول العيد ويقبلون بعضهم البعض كما يتبادلون الزيارات . ويرتدي بعض الأشخاص حتى ولو انتموا إلى الطبقات الدنيا بدلة جديدة للعيد ؛ وتشمل هذه العادة الجميع ولو اقتصر الأمر على زوج حذاء جديد . ويقدم السيد لخادمه ثياباً جديدة ويحصل على بضعة قروش من أصدقاء سيده عندما يحضرون لزيارته مهنّئين بالعيد أو قد يتوجه إلى منازل هؤلاء الأصدقاء لمعايدتهم والحصول على هديته . وإن كان قد خدم في منزل سيد سابق يزوره ويحصل على عيديّته وقد يحضر معه طبق « كحك » إلى السيد فيجازى مالاً يوازي ضعف قيمة الكحك . يأكل معظم سكان القاهرة أيام العيد « الفسيخ » و« الكحك » و« الفطيرة » و« الشُّريق » . وتحضر بعض العائلات طبق « المُمَزَّزة » المؤلف من اللحم والبصل ودبس السكر والخل والطحين الخشن ؛ ويؤمن سيد المنزل « النُّقل » على أنواعه لعائلته . تقفل معظم المحلات أبوابها في العاصمة وترتدي الشوارع ثوب الفرحة بسبب عجقة المارة المرتدين ثياب العيد .

يقوم بعض أفراد العائلات خاصة النساء بزيارة أضرحة موتاهم في أيام العيد . ويقومون بمثل هذه الزيارات بمناسبة العيد الكبير الذي سأورد الحديث

عنه لاحقاً . ويحمل الزوار أو خدمهم سعف النخل وأحياناً أغصان الرّيحان لوضعها فوق القبر الذي يتوجهون لزيارته . يقسم غصن النخل أقساماً عديدة يضعونها فوق القبر أو يكتفون بأوراقها وتكثر مشاهدة النساء في هذه المناسبات حاملات سعف النخل وهن في طريقهن إلى المدافن الواقعة في ضواحي العاصمة . وتحضر هؤلاء حسب ما تسمح لهن ظروفهن الكحك والشريق والفطيرة والعيش والتمر وغيرها من الأطعمة يوزّعنها على الفقراء الذين ينتشرون في المدافن في هذه المناسبات . وينصبن الخيم أحياناً وتحيط الخيمة بالقبر الذي يزورونه ويتلون سورة الفاتحة أو يطلبون من أحد الأشخاص تلاوة سورة ياسين أو مقطعاً أكبر من القرآن ويتلو بعض الفقهاء أحياناً ختمة عند القبر أو في المنزل ـ ويعود الرجال عامة بعد إتمام هذه الشعائر مباشرة ويطرحون سعف النخل فوق الضريح كما تتوجه النساء إلى القبر في الصباح الباكر ولا يرجعن حتى بعد الظهر . ويمضي بعضهن الليل في خيمة إن كنّ نصبن واحدة (ولا تعرف هؤلاء النساء عادة بمسلكهن القويم) ويبقين فيها حتى انتهاء الاحتفال أو حتى بعد ظهر الجمعة التالي ؛ وكذلك تفعل نساء العائلة التي تملك مدفناً خاصاً مع منزل داخله ـ ومثل هذه المدافن كثيرة لتسهيل راحة النساء وتقع وسط القرافات العامة في القاهرة . ويُحكَى الكثير عن مخادعات النساء اللواتي يمضين الليلة في الخيم بين القبور . وتمثّل قرافة باب النصر الكبرى في الطريق الصحراوية المباشرة شمالي العاصمة مسرحاً مميّزاً في العيدين . وتعلّق المدوّمات والأرجوحات في قسم قريب من بوابة العاصمة التي تستقي منها القرافة اسمها وتنصب كذلك الخيم حيث يسلّي رواة أبي زيد وبعض الراقصين وغيرهم حشود المتفرجين ؛ وتنتشر في المدفن الخيم لاستقبال زوار القبور .

تُرسل « الكسوة » (غطاء الكعبة) التي ترسل سنوياً مع قافلة الحجّاج بعد يومين أو ثلاثة من العيد الذي تحدثت عنه آنفاً من قلعة القاهرة حيث يتم تصنيعها على حساب السلطان إلى جامع الحسنين لتُخاط وتبطّن تحضيراً لموسم الحج القادم والكسوة مصنوعة من القماش الأسود المطرّز المقصّب نُقشت عليه كتابات من القرآن ومحاكة بالحرير من اللون نفسه ، وهي تتميز بشريط

عريض مزركشة حافاته بكتابات مشابهة مشغولة بالذهب[1] . وما سأقصه عليكم في المقطع التالي حول الموكب الخاص للكسوة كتبته لدى عودتي من مشاهدتها في السادس من شوّال ١٢٤٩ هـ . (أي ١٥ فبراير ١٨٣٤) .

جلست بعد شروق الشمس مباشرة في دكان بائعي كتب الباشا في الشارع الرئيسي للمدينة المقابل لمدخل سوق خان الخليلي . وكان هذا الدكان وغيره من الدكاكين مزدحماً بالناس الذين دفعهم فضولهم لمشاهدة الموكب - من العجائز والشباب. فالمصريون مولعون كثيراً بمشاهدة مثل هذه الاستعراضات العامة، ولم تكن الشوارع مكتظة كما هي العادة بمواكب المحمل. وحُملت بعد ساعتين من الشروق الأجزاء الأربعة التي تشكل الواحدة منها إحدى جهات « الكسوة » ومرّت أمام المكان الذي جلست فيه وكانت كل واحدة منها موضوعة فوق ظهر بغل ومربوطة بالحبال . ولم تكن البغال مزيّنة البتة أو مزركشة السّرج وكان يقودها فلاحون بسطاء يرتدون القميص الأزرق المعروف. وتوقف الموكب لمدة ثلاثة أرباع الساعة ولم يكسر الملل الناجم عن هذه الوقفة الطويلة سوى مرور بعض الدراويش والمهرّجين الذين توقفوا أمام أحد المحلّات حيث رأوا رجلاً متهندم الملبس أنيقه واندلع شجار كبير بينهم من أجل الحصول على خمس فضات من الرجل فتبادلوا أفظع الكلام البذيء وتضاربوا على الوجوه .

وبعد هذه الوقفة حضر عشرون رجلاً سيئو الملبس يحملون إطاراً خشبياً

(١) الكعبة مبنية وسط مكة ويكنّ لها المسلمون مكانة خاصة . وهي مربعة الشكل ترتفع أكثر من ثلاثين قدماً ويبلغ عرض كل جانب منها المساحة عينها تقريباً . يُرفع الغطاء الأسود بعد بقائه فوق الكعبة طوال عام كامل في الخامس والعشرين من ذي القعدة ويقطّع ويُباع للحجاج ؛ وتبقى الكعبة دون غطاء لمدّة خمسة عشر يوماً . وتغطّى الكعبة في العاشر من ذي الحجة (وهو يوم العيد الكبير) بكسوة جديدة ويعلّق غطاء جديد داخلها يُجدّد كل عام مع تولي السلطان العثماني الجديد الحكم . ومن الضروري تجديد الغطاء الخارجي كل عام بسبب تعرّضه للأمطار وعوامل أخرى مشابهة . وبما أن القماش الحريري محرّم استعماله تماماً تبطّن كسوة الكعبة بالقطن .

على أكتافهم مُدّ فوقه ربع « الحزام » . والحزام مؤلف من أربعة أجزاء يشكّل أحدها عندما يخاط مع الكسوة شريطاً واحداً متكاملاً للفّ الكعبة تماماً عند ثلثي طولها تقريباً . والقماش مطرّز أسود كالكسوة تماماً ، وكتاباته الذهبية مشغولة بحروف كبيرة جميلة ذات حافة ذهبية ، ويكون الحزام عند اتحاد الحافتين العلوية والسفلية مزركشاً بطريقة تنمّ عن ذوق كبير بالحرير الأحمر والأخضر ومخاطاً ومزيّناً بالذهب . وتوجه أحد حاملي الكسوة إلى أحد المشاهدين المتهندمين بدا عليه أنه من ذوي المناقب الفاخرة والمراتب العالية يطلب منه هدية . وتوقف الموكب من جديد لمدة ربع ساعة بعد مرور الحزام ثم حُملت الأجزاء الثلاثة الأخرى الواحد بعد الآخر بالطريقة عينها . وعاد التوقف من جديد لنصف ساعة أتت بعدها الجمال الطويلة المحنّاة باللون الأحمر قليلاً والمزركشة السّروج كتلك التي وصفتها في حديثي عن عودة المحمل. وكان يجلس على كل واحد منها صبيان أو بنتان بينما استراحت القطط على بعضها الآخر. وتبعت هؤلاء فرقة من « البلطجيّة » وهي فرقة موسيقية عسكرية ذات مستوى عالٍ (تتعدّد آلاتها وتعتمد خاصة على الأبواق وكلّها أوروبية المصدر) إضافة إلى حرس الباشا وفرقة من المشاة من نخبة الشباب في بزّاتهم العسكرية من اللون البني الداكن الضارب إلى الزرقة وأحذية حمراء وجوارب جديدة .

ثم حُمل « البرقع » وهو الستارة التي تعلّق أمام باب الكعبة ممدّداً فوق إطار خشبي مسطّح مرتفع وقد ثُبّت فوق ظهر جمل مدّرب . والبرقع من القماش المزركش الأسود المطرز كما الحزام نقشت عليه كتابات من القرآن بأحرف ذهبية ولكن بشكل غني أكثر مزركشة مزخرفة وبُطّن بالحرير الأخضر . مُدّ وجه البرقع عند جهة الإطار اليمنى وأمّا الحرير الأخضر فعند اليُسرى . وتبع البرقع عدد من فرق الدراويش مع راياتهم من بينها « الشّاليشة » التي تمثّل أعلام طبقات الدراويش الرئيسية (وقد أوردتها في حديثي عن الدوسه في احتفال المعراج). ويحمل بعضهم رايات كتبت عليها كلمات دينية : « لا إلّه إلّا الله ، محمد رسول الله » أو بعض الكلمات المأخوذة من القرآن إضافة إلى أسماء الله الحسنى واسم الرسول ﷺ وأسماء مؤسّسي طبقاتهم . ويحمل العديد من

دراويش القادرية شبكات مختلفة الألوان وقد جعلت الواحدة منهـا في إطار من أطواق فوق حوض : هؤلاء كانوا صيّادي الأسمـاك . واقتصرت مهمـة بعض الدراويش على تكرار أسماء الله الحسنى كما في الذكر . وتبارز رجلان بالسيف والترس مبارزة وهمية . وارتدى أحدهم ممتطياً حصانـه جلد الخروف وقلنسـوة جلديـة عاليـة ووضع لحيـة مزيفـة مركّبـة من قطع صغيـرة من الحبـال الصـوفيـة المفتولة على ما يبدو شـاربين مؤلفين من ريشتين بنيتين طويلتين . وتظاهر بأنّه يكتب « الفتاوى » فوق قصاصات ورق أمدّه بها المتفرجون وأمسك عوداً صغيراً وتـظاهر بـأنّه يغـطّسه بيـديل للحبـر يضعه على حصـانه كمـا لـو كـان مخصصـاً لمهمـاز . وتميّز «أولاد الليوان » وهم طبقة من دراويش الـطائفة الـرفـاعيـة في الموكب وكان الواحد منهم يحمل في يده مسماراً ضخماً معـدنياً يبلغ ارتفـاعه نحو قدم وكرة من المعدن نفسه في طرفه السميك إضافة إلى سـلاسل قصيـرة وصغيرة متدلية منها وغرز بعض هؤلاء الدراويش المسمـار ظاهـرياً بعنف في عيونهم وسحبوه دون أن يصابوا بـأذى . ويبدو أن المسمـار إنغرز بحـو إنش . ويمـارس الدراويش هـذه اللعبة بمهـارة فائقـة . وتكفي خمس فضات أو حتى مقدار تبغ لبيبة واحدة لمكافأة هذا المشعوذ الديني لعرضه قـوته الخـارقة . ولم يشكـك أي من الحاضـرين قط بالخـديعة في هـذا الأداء الفريـد وذهب أحـد الجالسين إلى جانبي وهو من المطّلعين البـارزين إلى حد مـلامتي على رأيـي بأن الخديعة التي لجأ إليها الدرويش ماكرة ماهرة . وكان معظم الدراويش في الموكب من الرفاعية وقد تبعهم شيخهم على حصانه .

ويأتي دور « المحمل » الذي تحدّثت عنه في طريق عـودته إلى القـاهرة وهو يُضاف إلى موكب الكسوة بهـدف زيادة العـرض . يجري العـرض الكبير للمحمل قبل رحيل قافلة الحجاج الكبرى بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، ويليه غطاء أسود مستطيل الشكل مطرز بالذهب يُجعل فوق مقام إبراهيم في مكـة . ويسير وراءه ضابط عسكري تركي حاملاً منديلاً مطرزاً وصندوقاً صغيراً أو حقيبة من الحرير الأخضر المطرز بالذهب وإناء مفتاح الكعبة . وأخيراً يظهر آخر رجل في الموكب : وهو الشيخ شبه العـاري الذي تحـدثت عنه في عـودة المحمل ؛

وكان الشيخ يتبع بصورة مستمرة هذا الشيء المقدس ويرافق القافلة من مكة وإليها على ظهر جملة ويهز رأسه دون توقف .

يمر في القسم الأخير من شوّال وليس بالضرورة في نفس اليوم من الشهر ولكن في الثالث والعشرين عامة القواد والحرس الرئيسيون لقافلة الحجاج الكبيرة من القلعة عبر العاصمة في موكب كبير يتبعهم المحمل ؛ ويُعرف هذا الموكب بموكب المحمل . ويتجمع الأشخاص المشاركون فيه (ومعظمهم يذهب مع القافلة إلى مكة) في قره ميدان والرميلة (وهما طريقان كبيران مفتوحان) تحت القلعة ويأخذون أماكنهم حسب الترتيب المعدّ . وسأتحدث عن هذا الموكب الذي لا يعرف أبهة كبيرة كما شاهدته خلال زيارتي السابقة لمصر . فلقد كانت الشوارع التي مرّ بها الموكب مكتظة بالناس ، بعضهم جالس على مصطبات المتاجر المقفلة وبعضهم الآخر واقف أمامها وأخذت لنفسي مكاناً جيداً في أحد المتاجر في الشارع الرئيسي الذي مرّ بها الموكب باتجاه باب النّصر .

سُحب في بادىء الأمر مدفع بعد ثلاث ساعات من الشروق وهو مدفع ميدان مخصص لإطلاق الإشارات المعلنة رحيل القافلة بعد كل توقف لها. وتبعته فرقتان من فرق الخيالة الأتراك غير النظامية (من رتبة « الدّلي » و « الطوفكجي ») يبلغ عددهم نحو خمسمائة رجل في ثياب رثة وكأنّهم من قطاع الطرق . وبعد نصف ساعة ظهر عدة رجال راكبين جمالهم يضرب واحدهم «النّقارة» المربوطة إلى جزء السرج المقدمي. وتبعت هؤلاء جمال أخرى عريضة السروج محشوة من نفس فصيلة الجمال التي تحدّثت عنها في حديثي عن عودة المحمل ولكنّها لا تحمل أي راكب على ظهورها وكانت تتبع الجمال التي ذكرتها آنفاً. كانت الجمال مطلية بالحناء الأحمر الضارب إلى البرتقالي الداكن. وتميّزت بعضها بعدد من سعف النخل الخضراء النديّة المثبتة بشكل مستقيم فوق السروج كالريش الضخم ؛ وتَـزيّن بعضها الآخر بأعلام صغيرة ، وأمّا بعضها الأخير فتدلّى عند جوانبه جرس كبير أو كان يحمل زقاق الماء . وحُمّل أحد الجمال « بخزنه » عبارة عن صندوق مربع وثياب حمراء وهي تضم خزينة النفقات الملقاة على عاتق الحكومة بالنسبة إلى نفقات الحج كما طالعتنا

أغراض أمير الحج تحملها الجمال بكل هذا الإجلال وهذه الأبهة ؛ وهكذا تنتقل الكسوة بأثاثها ومؤونها إلى مكة . وتلت هذا الموكب استراحة أخرى .

أتى الآن دور مرور بعض الدراويش في هذا الموكب فكانوا يحرّكون رؤوسهم من جهة إلى أخرى ويكرّرون إسم الله . ورافق هؤلاء العديد من الهجّانة والسّقاة والكنّاسين وغيرهم ؛ وكان بعضهم ينادي : « عرفات ، يا رب » و « يا رب ، يا رب بالسلامة » وتبعتهم الجمال بعضها يحمل سنعف النخل وبعضها الآخر أجراساً كبيرة ثم تختروان أمير الحج مغطى بقماش أحمر يحمله جملان زُيّن مقدمهما بعدد من الأعلام الصغيرة وتبع التختروان « دليل الحج » والجمال وفرق الدراويش وغيرهم كما في السابق . ثم تلاهم نحو خمسين فرداً من منزل الباشا متأنقين راكبين الجمال ولحقهم عدد من القواد حاملين عصيهم الفضية وأسلحتهم ثم رئيس « الأدلّة » (ومفردها الدّلي) مع جنوده وأخيراً بعض أفراد منزل الباشا راكبين الجمال كما الذين سبقوهم ، والفرق أن هؤلاء ينتمون إلى طبقة أدنى . وتبعهم ضبّاط من المحكمة سيراً على الأقدام مرتدين قفاطين من القماش الذهبي وكذلك مثاقفان غاريان حتى وسطيهما يحمل كل منهما ترساً دائرياً صغيراً . وكانا يتوقفان غالب الأحيان ويبدآن المبارزة فيحصلان على مكافأة بسيطة من المتفرجين وكانا تقدّما فرقة الدراويش والهجّانة ؛ ودوّت أصوات الطلقات من جديد .

سمعنا بعد وقفة قصيرة أصوات الطبول والنايات إنطلقت بعدها فرقة كبيرة من النظام . ثم تبعهم الوالي مع بعض قوّاده وتبعهم أمير الحج والأمير نفسه وثلاثة كتّاب (مفردها كاتب) وفرقة من الخيّالة المغاربة وثلاثة مبلّغين من الجبل في عبايات بيضاء مطرزة بالذهب . ومهمة هؤلاء تكرار بعض كلمات الخطيب على جبل عرفات . ثم ظهرت فرق كبيرة من الهجانة والكناسين والسقاة وغيرهم يصرخون كما السابقين . وسار وسط هؤلاء أئمّة المذاهب السّنية الأربعة ، إمام واحد عن كل مذهب . وتبعتهم فرق الدراويش من الطبقات المختلفة يرفعون أعلامهم الطويلة وراياتهم من ذات النوع الذي ذكرته

في حديثي عن موكب الكسوة . وكان دراويش القادرية يملكون بالإضافة إلى أحواضهم المتلونة الشبكات سعف نخل طويلة يستخدمونها كصنّارات صيد وتصاعدت أصوات النّقارات والمزامير وغيرها من الآلات على رأس كل فرقة من هذه الفرق في موسيقى مزعجة وتبعهم أعضاء التجارات المختلفة وشيوخها الخاصين بها .

بانت الجمال وعقبها المحمل ، فاندفع الناس في الشوارع بعنف يلمسونها برؤوسهم ويقبّلونها. وأسدلت النساء اللواتي شهدن الاستعراض من نوافذ المنازل الشعرية أغطيتهن للمس هذا الشيء المقدس . وتلا المحمل مباشرة الشخص نفسه الذي وصفته في طريق عودة المحمل إلى القاهرة وفي موكب الكسوة ، وهو الشيخ شبه العاري الجالس فوق جمله والهاز رأسه .

إكتست المحامل التي كانت تنطلق في السنوات السابقة بهذه المناسبة أبهة أكبر خاصة زمن المماليك الذين كانوا يحضرون الموكب في أفخر ثيابهم عارضين أسلحتهم الرائعة ودروعهم فيتنافسون أجمل تنافس . وكان يسبقها عادة فريق دراويش السعدية الذين يلتهمون الثعابين حية .

يبقى المحمل وأغراض الأمير يومين أو ثلاثة أيام او أكثر في سهل الحصوة شمالي العاصمة ثم يتابع تقدّمه إلى بركة الحج التي تبعد أحد عشر ميلاً عن العاصمة حيث تبقى لمدة يومين . ويعتبر مكان التوقف الأخير هذا مكان لقاء الحجاج العام قبل أن ينطلق الموكب في السابع والعشرين من شوّال. وتستغرق الرحلة إلى مكة سبعة وثلاثين يوماً في الصحاري الصخرية الرملية التي تندر فيها المواقع المخضوضرة . وينطلق الموكب ببطء للتخفيف من مشقات الرحلة في الليل عامة قبل المغيب بساعتين فيتوقف في صباح اليوم التالي بعيد شروق الشمس . ولقد تحدثت عامة عن المحامل التي يستخدمها الحجاج في معرض كلامي عن عودة القافلة . يفضّل الحجاج الأتراك وغيرهم سلوك طريق « القُصِير » أو « السويس » والبحر الأحمر والإنطلاق من القاهرة في مدة شهرين أو ثلاثة شهور قبل القافلة الكبيرة .

يبدأ في العاشر من ذي الحجة (وهو الشهر الأخير في السنة) الإحتفال بالعيد الكبير الذي يدوم كما العيد السابق ثلاثة أو أربعة أيام ويتبّع فيه المصريون العادات عينها تقريباً . ويرتدي الناس أفخر ثيابهم وأجملها أو بدلة جديدة . ولكن عادة ارتداء الثياب الجديدة شائعة في العيد الصغير . تقام الصلوات في الجوامع في اليوم الأول بعد شروق الشمس كما في العيد الصغير ، ويشهد الناس العادات عينها في تبادل الزيارات والتهاني وتقديم الهدايا (وإن كانت قيمتها أقل) إلى الخدم وغيرهم أمّا الأضاحي التي تتم في اليوم الأول وهو يوم التضحية في الحج فتحدثت عنها في الفصل الثالث من الكتاب وهي عادة يتبعها معظم ميسوري الحال . وتشهد العاصمة تدفق قطعان الخرفان والجواميس المخصصة للتضحية بها . كذلك تحدّثت عن عادة أخرى من عادات هذا الإحتفال وأعني زيارة المقابر التي ذكرتها في احتفالات العيد الصغير ، وتجدر الإشارة إلى أن المصريين يستقبلون العيد الصغير بفرح أكبر من العدد الكبير . والطبق الأساسي الذي يزين موائدهم في هذا العيد هو طبق « الفَتّة » المؤلف من اللحم الضّان أو غيرها من أنواع اللحوم ويقطّعونه قطعاً صغيرة فوق كسرات الخبز ثم يصبّون مرق اللحم ويضيفون بعض الخل والثوم ليضفي عليه نكهة خاصة ثم يقلى بالزبد ويرش فوقه قليل من البهار .

الفصل السادس والعشرون

الاحتفالات الشعبية (تابع)

يعرف مسلمو مصر بعض التقاليد ذات الطابع الديني أو الخرافي في فترات معينة وفقاً للتقويم الديني للأقباط ويحسبون حسب التقويم عينه أوقات تغيّر الطقس ، فيحسبون هكذا فترة هبوب رياح « الخماسين » عند هبوب الرياح الساخنة الجنوبية التي تبدأ في اليوم الذي يعقب مباشرة الإحتفال بأحد الفصح القبطي وينتهي في يوم عيد العنصرة ، أي بفارق تسعة وأربعين يوماً .

يعرف يوم الأربعاء الذي يسبق مباشرة هذه الفترة «بأربعة أيوب» . يغتسل بعضهم هذا اليوم بالماء البارد ويفركون أنفسهم بنبات متبلق يعرف « برعرع أيوب » أو « الغُبيرة » وهما نوعان من النبات لجأ إليهما أيوب ليسترد صحته وعافيته . ولقد كانت تلك التقاليد خاصة بالأقباط ولكنها باتت اليوم تشمل بعض المسلمين في المدن والكثيرين غيرهم في القرى . ويأكل الناس في هذه المناسبة البيض المصبوغ باللون الأحمر أو الأصفر أو الأزرق أو غيرها من الألوان في اليوم التالي تحديداً يوم الخميس ؛ ويعدّون نهار الجمعة طبق « الخلطة » المؤلف من الكشك[1] والفول النابت والعدس والأرز والبصل . . .

---

(١) يتم تحضير « الكِشْك » (واللفظ الشائع « الكِيشك ») من الطحين المخصّب أوّلاً والمجفف والمسحوق في وعاء لفصل القشرة الخارجية والمطحون بطاحونة يد. وتخلط هذه الوجبة مع الحليب وتسكب بعد ست ساعات فوق القش أو النخالة ثم تترك يومين أو ثلاثة أيام حتى تجف . وعند الإستعمال يتم ترطيبها أو تجفيفها ووضعها في منخل فوق =

ومن عـادات النساء رسم عيـونهن بالكحـل نهار السبت الـذي يُعـرف « بسبت النور » بسبب ظهور النور العجائبي في القبر المقدس في القدس .

يحتفل المصريون بعيد «شم النسيم» في اليوم الأول من الخماسين. يعمد الكثيرون في صباح هـذا اليوم خـاصة النسـاء إلى كسر بصلة وشم رائحتهـا وينطلق بعض سكان القـاهرة في فتـرة قبل الـظهر على الأحصنـة أو سيراً على الأقدام أو في المراكب شمـالاً لتنشـق الهواء العليـل أو « لشم الهوا » ـ كمـا يقولون ـ الذي يطيب النفوس ويشفيها . ويتناول معظمهم الـطعام في البـرية أو على ضفاف النهر . لكن هذا العام (١٨٣٤) شهد رياحاً ساخنة عنيفة صحبتها سحب غبـار النسيم ومع ذلـك فقد خـرجت أفواج كبيـرة « لشمّه» . أمّـا العلماء فيحدّدون « شم النسيم » بفترة محـدّدة من السنة الشمسيـة ، في الأيام الثـلاثة الأولى من فصل الربيـع المتوافق مـع « النيروز » الفـارسي أو « النّوروز » عنـد العرب .

تعرف ليلة السابع عشر من يونيه والمصـادفة في الحـادي عشر من شهـر بؤونه القبطي « بليلة النقـطة » لاعتقادهم بسقـوط نقطة عجـائبية في النيـل ممّا يسبّب في ارتفاع منسوبـه . ويحسب المنجمون الـوقت الصحيح لسقـوط هذه « النقطة » طوال الليلة التي ذكرتها سابقاً ويمضي العديد من سكـان القاهـرة وجوارها وبعض المناطق المصرية الأخرى هذه الليلة على ضفاف النيل فيقضيها البعض في منازل أصدقائهم ويتمتع بها البعض الآخر في الهواء الطلق . ويشهد بعضهم خاصة النساء تقليداً مميزاً في ليلة النقطة فيضعن على شرفة المنزل بعد المغيب بعض قطع العجين على عدد سكان المنزل بمعدل قطعـة واحدة لكـل شخص فيضع الشخص ـ رجلاً أم إمرأة ـ علامة فوقها . وعـنـد فجر اليوم التالي ينظرون إلى هذه القطع ، فإن وجدوها مشقوقة يستدلّون أن حياة الشخص الذي

= وعاء يصـب فوقه الماء المغلي . ويطرح ما يبقى في المنخل ، ويسكب الماء في قـدر فوق النار يحتوي على اللحم المغلي أو لحم الطيور وتضاف إليه بعض أوراق الشمندر المقلي بالزبد .

وضعت لـه هذه القـطعة ستكـون مـديـدة طـويلة أو أنّهـا لن تنتهي هـذا العـام ويتطايرون شراً إن كان العكس صحيحاً   ويقول بعضهم إنهم يلجأون إلى هذه الطريقة لمعرفة إن كـان منسوب النيـل سيرتفـع في الموسم المقبـل . ويعرف المصريون عادة مسقيمة عبثية في الليلة الرابعة المتتالية ـ «ليلة السرطان» ـ عند دخول الشمس في مدار السرطان ، وتقضي هذه العادة بكتابة تميمـة للتخلص من البق تشتمل على الآية القـرآنية التـالية : ﴿ ألم تـر إلى الذين خـرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم   ﴾ (سورة البقرة / ٢٤٣) وتنبغي في اعتقادهم كتابة هذه التعويذة على ثلاث قصـاصات ورق يعلقونها على كل جدار في الغرفة ما عدا الجدار حيث مدخـل الغرفـة أو الجدار الذي يقع فيه المدخل .

يبدأ النيل كما ذكرت في مقدمة هذا المؤلّف بالإرتفاع قبيل فترة الإنقلاب الصيفي أو بعيده . ويعلن المنادون ارتفاع منسوبه يومياً إبتداءاً بالسابع والعشرين من شهـر بؤونه (الثـالث من يوليـو) في شوارع العـاصمـة   ويعينـون منـادين خاصين لأداء هذه المهمة ويخصّص منادٍ لكـل منطقة. ويترك « منـادي النيل » منطقته باكراً في الصباح أو قد يغادرها متأخراً يرافقه صبي صغير . ويأخذ ينادي في اليوم الذي يسبق مباشرة اليوم الذي يبدأ به إعلانه اليومي بإرتفـاع منسوب النيـل : « ربّنا فـاض بخيره على الأراضي ، إنـه يوم الأخبـار الجيـدة ، بُكـره الخبر والحظ الكبير »   ويأتي الإعلان اليومي على الشكل التالي

ـ المنادي   « محمد رسول الهداية ».

ـ الصبي   « رحلة المحمل إليه » (أي إلى قبره)

ـ المنادي   « الهادي السلام عليه » .

ـ الصبي : « الخير مطروح على الذي يبارك عليه ».

[ويتابع المنـادي والصبي كلامهمـا أو يسقطان أحيـاناً الـطريقة السـابقة ويبدآن على الشكل التالي] :

المنادي   « يا أحكم الحاكمين ».

الصبي : « يا رب لا أعبد إلاّ إيّاك ».

[ويتابعان على الشكل الآتي] :

المنادي « خيرات الكريم كثيرة » .

الصبي : « والخير دَفّاق على الأبواب ».

المنادي : « سبحان الذي بسط الأرض ».

الصبي : « وأعطى الأنهار الجارية المتدفقة ».

المنادي : « والذي بفضله إخضوضرت الحقول »

الصبي : « ويحييها بعد موتها ».

المنادي : « وهبنا الله الخير والوفرة وزاد [النهر] وسقى الأراضي العالية ».

الصبي : « والجبال والرمال والحقول ».

المنادي : « يا مولج الليل والنهار ».

الصبي : « اللهم لا شريك لك ».

المنادي : « يا هادي الضالين ، يا الله ».

الصبي : « إهدني الصراط المستقيم ».

[ويتابعان أو يحذفان أحياناً كل ما ذكراه سابقاً ويبدآن على الشكل التالي :]

المنادي : « يا حبيب ، يا حيّ ، يا مغني »

الصبي : « يا قادر ، يا عظيم »

المنادي : « يا وهّاب ساعدني »

الصبي : « يا كريم لا تمن عليّ بحمايتك »

المنادي « اللهمَّ إحفظ لي سيدي [أو سيّدي الأمير] فلان [ويسمّي سيد المنزل] وأناس بيته الطيبين يا أرحم الراحمين يا الله] .

الصبي : « يا سميع »

المنادي : « اللهم إجعل صباحنا صباح الصالحين وارزقنا خير الصباح »

الصبي : « يا سميع »

المنادي : « اللهم إحفظ لي سيدي [الخ] فلان [ويعيد تسمية سيد المنزل] وارزقه رزقاً واسعاً من نعمك يا كريم يا الله ».

الصبي : « يا سميع ».

[ويذكر الإخوة والأبناء والبنات غير المتزوجات وإن كنّ صغيرات بالطريقة عينها كما التالي].

المنادي : « اللهمّ إحفظ لي سيدي [الخ] فلان ومدّ في عمره ! يا كريم يا الله ».

الصبي : « يا سميع ».

المنادي : « اللهم إحفظ لي حبيبتي عروسة العرايس فلانة ومدّ في عمرها يا كريم يا الله ».

الصبي : « يا سميع »

المنادي : « فليباركهم بالوفرة الكبرى وليجعل النيل يفيض على البلاد يا كريم يا الله »

الصبي : « يا سميع »

المنادي : خمسة [ستة . . . أصابع] اليوم ، والله كريم ».

الصبي : « والصلاة على النبي »

وتضاف العبارات الأخيرة خشية أن تصيب عين حسودة فيضان النيل وتكفي الصلاة على النبي لإبطال تأثيرها .

يعطي سكان المنزل الذي ينادي المنادي أمامه هذا الأخير قطعة خبز يومياً . وهذه عادة شائعة بين الطبقات المتوسطة . ولا يعطيه أحد شيئاً البتة حتى اليوم السابق لفتح قناة القاهرة ولا يعتمدون كثيراً على ما يعلنه عن ارتفاع منسوب النهر إذ لا يقدّم له الأشخاص الذين يطلعونه على هذا الموضوع المعلومات الدقيقة دائماً ، لكن الناس يصغون جيداً عامة لما يعلنه . ويكرّر وصبيّه هذا

النداء يومياً حتى اليوم السـابق لليوم الـذي يُقطع فيـه السد الغـالق لفتحة قنـاة القاهرة .

يطوف المنادي في ذلك اليوم (أي في اليوم السابق للأيام المذكورة) في منطقته يرافقه عدد من الصبية يحمل كل واحـد منهم راية صغيـرة ملوّنة ويعلن « وفا النيل » (بمعنى الإكتمال والوفرة) ؛ فهذا هو التعبير الذي يطلق على حالة النهر عند ارتفاعه ارتفاعاً كافياً فتعلن الحكومة أنه بلغ نسبة ستة عشر ذراعاً على مقياس النيل . ويضلِّل الناس دائماً بهذه الطريقة بسبب القانـون القديم الـذي ينص على أنه لا يمكن احتساب الضريبة على الأراضي حتى يرتفع النيـل إلى ستـة عشر ذراعـاً على مقياس النيـل (النيلو متر) . وتعتقـد الحكومـة أنـه من المناسب جعل الناس يعتقدون في أبكر وقت ممكن أن النيل بلغ هذا الإرتفاع . ويعلنون عن « وفا النيـل » عندمـا يرتفـع منسوب النيـل إلى عشرين أو إحـدى وعشرين قدماً في ضواحي العاصمة أي في الفترة الواقعة بين السادس والسادس عشر من شهر أغسطس (أو في اليومين الأول والحـادي عشر من شهـر مسرى القبطي) ، وتحديـداً عندمـا تبقى على ارتفاع ثـلاث أو أربع أقـدام في قياس فيضان جيد معتدل في ضواحي العاصمة . ويعلن المنادي والصبية معه في هذا اليوم (وهو اليوم التالي السابق ليوم فتح القناة) وهم يحملون الرايات الصغيرة :

المنادي « فاض النيل وأكمل [قياسه]

الصبية « الله صاحب هذه الوفرة والغزارة »

المنادي « إمتلأت دار النَّحاس »

الصبية « الله »

المنادي « والقنوات تتدفق »

الصبية : « الله »

المنادي : « والقُلل طافت »

الصبية : « الله »

المنادي : « وخازن الحَبّ فشل »

الصبية « الله »

المنادي : « بقدرة القادر المجازي »
الصبية : « الله »
المنادي : « ولم يبقَ شيء »
الصبية : « الله »
المنادي : « الإكتمال التام »
الصبية : « الله »
المنادي : « وهي عادة سنوية »
الصبية : « الله »
المنادي : « وإن شاء الله تعيش كل سنة »
الصبية : « الله »
المنادي : « وإن أراد الخازن الشح »
الصبية : « الله »
المنادي : « فليزره الله قبل الموت بالعمى والهم »
الصبئة : « الله »
المنادي : « هذا الكريم يحب الكريم » .
الصبية : « الله »
المنادي : « وبُني له قصر رائع ».
الصبية : « الله »
المنادي : « وعواميده درُر لا مثيل لها ».
الصبية : « الله »
المنادي : « بدلاً من سعف النخل والخشب »
الصبي : « الله ».
المنادي : « وله ألف باب مفتوح »
الصبية : « الله »
المنادي : « وأمام كل منزل سلسبيل»
الصبية : « الله »

المنادي : « الجنة مقام الكريم »

الصبية : « الله »

المنادي : « وجهنم مقام البخيل »

الصبية : « الله »

المنادي : « إن شاء الله لا أقف أمام باب بخيلة أو بخيل »

الصبية : « الله »

المنادي : « ولا أمام باب الذي يحسب الماء في الجرة »

الصبية « الله »

المنادي : « ولا أمام باب الذي يعدّ الخبز وهو عجين »

الصبية : « الله »

المنادي : « وإذا أراد كعكة فلينزل عليه الصوم »

الصبية : « الله »

المنادي : « ولا الذي يسكت القطط ساعة العشاء »

الصبية : « الله »

المنادي : « ولا الذي يطرد الكلاب على الجدران »

الصبية : « الله »

المنادي : « العالم متنّور »

الصبية : « الله »

المنادي : « والبنات تتزيّن »

الصبية : « الله »

المنادي : « والعجائز تقلب وتسقط »

الصبية : « الله »

المنادي : « والمتزوج أضاف زوجة على الثماني جماعته »

ـ الصبية : « الله »

ـ المنادي « والعازب تزوج ثماني عشرة زوجة » ـ

ويستمر هذا النداء حتى يقدّم أحد سكان المنزل هدية للمنادي تتراوح بين

عشر فضات وقرش واحد . وقد يعطي بعضهم قرشين ويغدق الكبار خيريّة عليه أو تسعة قروش .

تجري الإستعدادات خلال هذا اليوم لقطع سد القناة . وتستقطب هذه العملية حشود المتفرجين وهي ترتدي أهمية سياسية جزئياً وتتم دائماً بشكل مسبق وتشكل مناسبة سانحة للإحتفال الشعبي .

يُبنى السد قبل ارتفاع منسوب النيل أو مباشرة بعده . ويقطع « الخليج » (أو القناة) على مسافة أربع مائة قدم تقريباً عند مدخله جسر حجري قديم مؤلف من قنطرة واحدة . ويقع السد نحو ستين قدماً أمام هذا الجسر وهو طيني واسع عريض في كعبه يقل عرضه باتجاه قمته وهي مسطّحة ويبلغ وسعها ثلاث ياردات . وترتفع قمة الجسر إلى نحو إثنين وعشرين أو ثلاث وعشرين قدماً فوق مستوى النيل عند أدنى مستوياته ولكنه لا يصل إلى مستوى قاع القناة ؛ وترتفع عدة أقدام فوق علامة منسوب المياه المنخفض ويجفّ لشهور طويلة عند انخفاض النهر . وتكون ضفاف القناة (أو الخليج) على ارتفاع أقدام قليلة من قمة السد . كما ترتفع دعامة دائرية طينية في المساحة عينها تقريباً من أوّل السد ويعد هذا الأخير عن البحر ويقل هذا الإرتفاع نحو القمة ويتخذ شكل مخروط أقطع لا يصل إلى مستوى ارتفاع السد . وتعرف هذه الدعامة « بالعروسة » ، إذ يتم بذر حبوب الذرة أو الدُّخن فوق قمتها المسطحة . ويجرف الموج المرتفع العروسة قبل أن يصل النهر إلى قمتها قبل حوالي أسبوع أو أسبوعين من قطع السد

والإعتقاد السائد أن عادة العروسة ترجع إلى خرافة قديمة ذكرها المؤلفون العرب ومنهم المقريزي . ويروي هذا المؤرخ أنّه في العام الذي فتح فيه العرب مصر قيل للقائد العربي « عمرو بن العاص » إن المصريين اعتادوا في فترة بدء ارتفاع النيل تزيين إحدى العذارى في أبهى حلّة ورميها في النهر والتضحية بها للحصول على فيضان غزير . فما كان من هذا القائد إلاّ أن ألغى هذه العادة البربرية ولم يرتفع النيل قط خلال فترة ثلاثة شهور تقريباً من بدء ارتفاعه .

وتحذّر الناس أكبر تحذير وظنوا أن المجاعة تدق أبوابهم فكتب عمرو للخليفة يطلعه على ما فعل والكارثة التي تهدد مصر . وأتى جواب عمربن الخطّاب مقتضباً وأعرب عن موافقته على تصرف عمرو وطلب منه عند استلامه الرسالة رمي ورقة في النيل تتضمن الملاحظة التالية « من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر - إن كنتَ لِتتدفق بإراداتك فلا تتدفّق ، وأمّا إن كانت إرادة الله الواحد العلي العظيم هي التي تؤدي إلى تدفقك فندعو الله الواحد العلي العظيم ليجعلك تتدفق». وفعل عمرو ما طلبه منه أمير المؤمنين وارتفع النيل ستّة عشر ذراعاً في الليلة التالية . ويصعب في الواقع تصديق هذه القصة حتى لو جرّدناها من طابعها الأعجوبي الخارق .

ويقع في الجهة الشمالية من القناة المطلة على السد بناء حجري صغير ملاصق تقريباً للجسر كان كبار القاهرة يراقبون منه عملية قطع الجسر . ولم يبق في هذا البناء سوى خيمة كبيرة مشيدة فوقه لاستقبال القواد الذين تنحصر مهمتهم في مراقبة عملية القطع والإشراف عليه . وتنصب كذلك خيم أخرى للزوار الآخرين وتزوّدهم الحكومة بالألعاب النارية خاصة الأسهم النارية لتكريم الإحتفال وتسلية الجماهير طوال الليلة التي تسبق اليوم الذي يتم فيه قطع السد وطوال عملية القطع عينها التي تتم في الصباح الباكر كما ترتفع خيم أخرى لبيع الحلوى والفاكهة وغيرها من المأكولات والقهوة على امتداد ضفة « جزيرة الروضة » المقابلة لمدخل القناة . ويعرف يوم قطع سد القناة « بيوم جبر البحر » علماً أن كلمة « جبر » المستخدمة بمعنى « الكسر » أو « القطع » تعني عكس المعنى تماماً وقد يطلق المصريون على هذا اليوم كذلك « يوم وفا البحر » أو « وفا النيل » كما أوردت سابقاً وهما التعبيران المناسبان أكثر . ويعرف احتفال القناة « بموسم الخليج ».

تعج المنطقة القريبة من مدخل هذا الخليج في فترة بعد ظهر اليوم السابق ليوم « جبر » السد بالمراكب التي يستأجرها الناس للإستماع والإنشراح . وأشهر هذه المراكب « العقبة » المتميز بكبره وعرضه . ومركب « العقبة » مطلي بطريقة بدائية تنم عن ذوق سليم وله مدفعان على متنه ومصابيح عديدة مربوطة بالحبال

تتخذ أشكالاً مختلفة كنجمة كبيرة . ويتمتع هذا المركب بظلة مغلقة من الحرير وغيره من أنواع القماش وهو مزين بعلمين مثلثي الشكل . ويؤمن المصريون بأن هذا المركب يمثل مركباً رائعاً استخدمه المصريون قبل فتح العرب لبلادهم لنقل العذراء التي يرمونها ـ كما تقول الرواية ـ في مياه النيل . ويبحر هذا المركب من بولاق بعد الظهر بثلاث ساعات حاملاً على متنه الرجال والنساء. وتجلس النساء ـ إن شئن ـ تحت الظلة الكبيرة التي ذكرتها سابقاً . ويسرع هذا المركب باتجاه ضفة جزيرة الروضة المقابلة لمدخل الخليج وتبقى معظم المراكب بالقرب من « العقبة » طوال الليل على امتداد ضفة الجزيرة ، ويبقى بعضها مبحراً أو راسياً ليلاً نهاراً من النهر وإليه . ويسلي طاقم المركب أنفسهم وركابهم بالغناء فترافقهم ضربات الدّربوكة والزُّمارة ؛ ويستخدم بعضهم مزيكاتيين محترفين لإضفاء طابع أجمل على المركب وتساليه . وتفرح حشود الناس الحاضرة كثيراً بهذا الاحتفال المراكبي الذي قد لا يجد الغريب فيه شيئاً كبيراً يدفعه إلى هذه التسلية والفرح . ويبدو أنهم لا يطلبون لإحيائه غير الهرج والمرج وحلقات الناس المجتمعين إضافة إلى بيبة وفنجان قهوة . وكان هذا الإحتفال يشهد في السنوات السابقة رقص الغوازي (الممنوع حالياً) وغناء العوالم وعزف الآلاتين وعروض الألعاب النارية التي يرافقها إطلاق العيارات النارية من مركب « العقبة » ومن سفينتين حربيّتين أخريين كل ربع ساعة من الليل . وتطلق إثنتا عشرة طلقة في كل مناسبة في هذه المناسبات . ولقد بلغ العدد الإجمالي الذي أطلق في الإحتفالات الليلية في هذه السنة ست مئة طلقة. وتشمل الألعاب النارية التي تنطلق ليلاً الأسهم النارية والأضواء الزرقاء ويحتفظون بأفضل أسهمهم إلى الصباح فيطلقونها في وضح النهار خلال « جبر » السد . ويكتسي النهر وضفافه منظراً جميلاً في الليل ؛ إذ تنطلق المراكب ذهاباً وإياباً في النهر ، ويبهرنا التماع المصابيح المتلألئة فوق صواري « العقبة » وغيرها من المراكب كما على الشاطىء حيث تكثر المشاعل المثبتة في الأرض (بعضها فوق السد وجواره وبعضها الآخر فوق ضفة الجزيرة) ويزيد من حيوية هذا المشهد إطلاق الأسهم النارية. وأكثر الأماكن التي يحتشد فيها الناس في

ساحة الإحتفال هذه ضفة الجزيرة حيث ينعم كل امرىء بفرحة النوم فيها وإن كان صوت الأسهم النارية يعكّر عليهم مزاجه ويحوله دون ذلك .

يبدأ العديد من العمّال قبل شروق الشمس بقطع السد . ولقد تعاقب على هذه المهمة في السنوات المتالية الحفارون المسلمون واليهود الذين تدفع لهم الحكومة. وعندما يُلقى هذا العمل على عاتق اليهود ويصادف يوم السبت ، يضطر هؤلاء لدفع مبلغ محترم من المال للتكفير عن خطيئة تدنيس سبتهم بالإنصياع لأوامر الحكومة ويقطع هذا السد بواسطة معزقة أجزاءاً رقيقة جداً من الخلف (ويُجمع الطين في سلال ويطرح في الضفة) فلا يبقى منه سوى قدم واحدة سماكة في قمته . وتتم هذه العملية بعد ساعة من الشروق . ويصل حاكم العاصمة قبل هذا الوقت بفترة قصيرة عندما تكون الحشود مجتمعة في جوار السد عند ضفاف القناة ويحط الرحال في الخيمة الكبيرة بجواره, ويحضر الإحتفال بعض كبار القواد وكذلك القاضي الذي يدوّن ملفاً يشهد على ارتفاع النهر بالقدر الكافي لفتح القناة وعلى إتمام هذه العملية ، ويرسل ملفه الهام إلى القسطنطينية ويستمر في هذا الوقت إطلاق الأسهم النارية التي تشهد عرضها الأجمل قبيل انتهاء العملية، فتكاد تختفي تحت وهج أشعة الشمس الساطعة. ويعد الإنتهاء من «الجبر» إلى الدرجة المذكورة آنفاً ووصول كبار المسؤولين والقواد يطرح حاكم العاصمة كيساً مليئاً بالنقود الذهبية إلى العمال . وينطلق مركب يحمل على متنه قائداً من قواد الوالي المتوفى حتى حافة الأرض الضيقة فيحطم الحاجز الدقيق ويمرّ عبره وينزل مع الشلال الذي يتولد من جراء ذلك والشخص المعني بالكلام رجل عجوز يدعى « حمّودة » كان « سرّاج باشي » الوالي وكانت مهمته تحتّم عليه السير قبل سيده عندما يتنقل السيد على ظهر حصانه في جولاته العادية ويسبقه طابور طويل من القواد عبر شوارع العاصمة وضواحيها وما إن يدنو مركب الحاكم من السد حتى يطرح كيساً ذهباً يقدّمها هدية لنفسه. وتمحو المياه المتدفّقة آثار السد سريعاً وتجرفه إلى قاع القناة. وتدخل مراكب أخرى وتعبر القناة على امتداد المدينة ويتوغل بعضها أميالاً أبعد قبل العودة

كان شيخ البلد أو الباشا وغيرهما من كبار القواد يترأسون هذا الإحتفال الرائع ويطرحون المال في القناة فتلتقطه حشود الناس، ويغطس بعضهم مع الشباك في مياهها ، لكن أرواحاً كثيرة تُزهق بسبب التدافع الكبير على المال . ولقد شهدت هذه السنة (١٨٣٤) غرق ثلاثة أشخاص يوم افتتاح القناة ـ الأول غرق في القناة عينها وأمّا الآخران ففي بركة الأزبكية ولم تنقض دقائق قليلة على عودتي إلى منزلي بعد مشاهدتي عملية « جبر » السد واحتفالات الليلة السابقة (وكنت أمضيتها عند النهر وفي جزيرة الروضة) حتى اندفعت نحوي امرأة تلطّخ ثوبها ووجهها المكشوف وحلاً وهي تصرخ وتولول لفقدانها ابنها الذي كان واحداً من الثلاثة الذين ابتلعتهم المياه في هذه المناسبة وكانت المياه قد دخلت الأزبكية بواسطة قناة جديدة في اليوم السابق ليوم جبر السد . وتجمّع الناس ذلك اليوم وفي الأيام اللاحقة (وأنا أدون ملاحظاتي بعد فتح القناة بأيام معدودة) يتمتعون بمنظر مشاهدة المياه المتدفقة التي ورغم عكرها تنعش الصدور وتثلج القلوب في منطقة مغبرة كالقاهرة وفي هذا الموسم الحار من السنة وتنصب الخيم عامة بالقرب من المياه المنسابة حيث يقدم للزوار القهوة في إحداها والخمر في واحدة أخرى إضافة إلى تثبيت المقاعد الكثيرة وأغصان الشجر وسعف النخل والليل أفضل الأوقات للتوجه إلى هذا المكان حيث يبقى بعض الأشخاص ساعات طويلة بعد المغيب ؛ وقد يقضي بعضهم الآخر الليل كله فيستمعون إلى رواة القصص الشعبية . وترى الناس في كل ساعات اليوم وأحياناً في منتصف الليل يسبحون في البركة خاصة الرجال والصبية وكذلك بعض الفتيات وحتى النساء اللواتي يعرضن أنفسهن أمام المارة المتبطلين المتكاسلين على الضفاف بطريقة تثير العجب في بلد تغطي فيه النساء حتى وجوههن علماً أنّهن يلففن أنفسهن من الأرداف نزولاً ويغرق أحياناً في هذه البركة العديد من السابحين

ويستمر المنادي بتكرار ندائه الأول في اليوم التالي لقطع السد مستخدماً شكلاً مختلفاً في الكلام للتعبير عن ارتفاع النهر كأن يقول « أربعة من ستة

عشر » بمعنى أن النهر ارتفع أربعة أذرع من ستة عشر ذراعاً . ولا ينقطع عن هذا النداء حتى يوم النيروز أو قبيله .

ويحضر المنادي « النيروز » أو يوم بداية السنة القبطية الجديدة (العاشر أو الحادي عشر من سبتمبر) أو قبل يومين أو ثلاثة منه إلى كل منزل في منطقته ويصحبه صبيّه في أحلى ثيابه وطبّال وعازف الزّمارة فيكرّر العبارات نفسها كما في يوم الوفا ويحصل من جديد على هدية ويعود بعد ذلك إلى ندائه السابق .

ويعود المنادي إلى هذه المنازل يوم «عيد الصليب» الواقع في السابع عشر من شهر توت القبطي (أو السادس والعشرين أو السابع والعشرين من سبتمبر) في فترة ارتفاع النهر إلى أعلى مستوياته تقريباً ويعيد النداء السابق : « لن ترتاح في دوامة القلق ولن ترتاح في المقارنة . يا لائمي أخلد إلى الراحة . ما من شيء يدوم؛ لن يبقى شيء [لا تغمره المياه] غير الشمام واللّمام والحقول المبذورة وشقائق النعمان والقِرطم والكتّان . وأمدّ الله في عمر سيدي فلان [ويسميه] ليشهد ارتفاع النهر ويعطي حامل الأخبار الطيبة حسب ما يحكم به عادلاً « وأبو رضّاص » له أجر من الحكومة ـ أجر يساوي شريفة عن كل قيراط عند ارتفاع النهر ـ ونحن بدورنا لنا أجر من أصحاب الكرم ؛ ولقد حضرنا لنأخذه بكل طيبة خاطر. ونيل مصر فاض واستفاض وغمر البلاد كلّها». ويقدّم المنادي في هذه المناسبة الليمون الحامض وغيره من أنواع الفاكهة إلى الأغنياء أو أبناء الطبقة المتوسطة إضافة إلى بعض قطع الوحل الجاف من النيل إلى نساء هذه العائلات اللواتي يأكلن ما يقدّمه لهن المنادي . ويحصل بالمقابل على قرشين أو ثلاثة قروش أو أكثر وهو ينقطع عن العمل حتى السنة المقبلة .

الفصل السابع والعشرون

الأعياد الخاصة

لا يضحي المصري المحدث سيد المنزل أو ربّه حتى زواجه (وليس بالضرورة عند زواجه ، فهو قد يعيش مع زوجته في منزل أهله أو أهلها). لذا يُعتبر زواجه الأول الحدث المهم في حياته والفرصة السانحة له ولزوجته لدعوة أصحابهما إلى حفلة خاصة . ومن عادة هؤلاء في مناسبة الفرح هذه إرسال الهدايا وإغداقها على العروسين (كما ذكرت في وصف احتفالات الزواج) قبل يوم أو يومين من الزواج يقيم الزوج حفلته الخاصة به في حجرات منزله السفلية بينما تحتفل الزوجة وقريباتها في الحريم أو داخل الحجرات العلوية وتستمر حفلتها طوال ست ساعات في فترة النهار ؛ فلا يشارك الرجال فيها باستثناء الصبية الصغار). وينتظر الزوج حتى بعد مغيب الشمس أو صلاة العشاء ليدعو أصدقاءه إلى حفلة السهر والسمر ؛ ويجتمع أحياناً ضيوفه في الوقت الذي تقيم فيه الزوجة وشلتها حفلتها في الحريم .

تشارك « العوالم » في حفلة الزوجة فيبدعن في الغناء ويسلين الحاضرات . وتجلس هؤلاء في إحدى حجرات الحريم عند نافذة تطل على الباحة . وتكون شعرية النافذة الخشبية مفتوحة بشكل يسمح للضيوف من الرجال الجالسين في الباحة أو في إحدى الحجرات القريبة من حجرتهن بالإستمتاع بغناء العوالم علماً أن النافذة ضيقة إلى درجة لا يمكن للأشخاص وراءها رؤيتهن . وتخصّ العوالم في الواقع بحجرة صغيرة مرتفعة مجاورة

للحجرة التي يجتمع فيها الرجال (إضافة إلى الغرفة المحاذية لدار الحريم الرئيسي) تفصلها شعرية خشبية تحجب النساء عن الرجال . كذلك تشهد مثل هذه الإحتفالات الخاصة رقص الغوازي اللواتي يرقصن سافرات الوجه أمام الرجال في الباحة ، مما يسمح للنساء التمتع برقصهن من خلال نوافذ الحريم ؛ أو قد ترقص الغوازي في الحجرة التي اجتمع فيها الرجال أو ينطلقن يهززن خصورهن في الشارع أمام المنزل بقصد تسلية النساء وحدهن . ويجمع أحد أصدقاء المضيف عادة من الضيوف مبالغ بسيطة « ـ النقوط » ـ للعوالم أو الغوازي عند غنائهن أو رقصهن في الرّق أو في منديل خاص وقد لا يسمح المضيف بمثل هذا التقليد ؛ إذ إنه من العادات المعروفة في المجتمع المصري أن يُحضر صاحب الحفلة الغوازي ويدفع لهن أجراً محدداً . ويحصل على النقوط فيدفع ما ينقص من المبلغ المُطلوب للغوازي من ماله الخاص ويأخذ ما يفيض منه لنفسه. وقد يوافق على حصول الغوازي على كامل النقوط سواء اقتطع مبلغاً إضافياً أولم يقتطع . ويعبث الضيوف مع الغوازي في بعض الحفلات التي لا تُحترم فيها قواعد الأدب والإحتشام بطريقة مبتذلة ولقد ذكرت في فصل سابق إفراطهم في شرب الخمر والمسكرات في مثل هذه المناسبات ويرطّب الرجل أحياناً بعض القطع النقدية بلسانه ويلصقها على جبهة الغازية ووجنتيها وذقنها وشفتيها وينادي « الخلبوص » (خادم العوالم) عند كل جمع نقوط قائلاً : « شوباش عليك يا صاحب الفرح » ويضيف : « فلان قدّم قيمة كذا من المحبوبات والخيريات » فتغدو القروش نقداً معدنياً ذات قيمة كبيرة . كذلك يبالغ الخلبوص في تحديد النقوط إن كان ذهباً فيمدح الواهب العاطي ويحث الآخرين على إظهار كرمهم فترد العالمة « عقبال عنده ». ويطرب كذلك الضيوف بعزف « الآلاتيين » الذين يجلسون في الباحة أو في الحجرة التي يحتشد فيها الضيوف ، ويرتب المضيف « دكتين » بشكل متقابل في الباحة ويؤثثهما بالوسادات فيجلس عليهما الآلاتيون ويجعل مصباحاً في وسطهما يحصل الآلاتي كما العوالم على النقوط من الضيوف الذين يطربهم عزفه ويقوم الخلبوص بالمناداة على النقوط بالطريقة نفسها

تشهد الإحتفالات الخاصة نوعاً من الأداء مختلفاً تماماً عن أداء الغوازي والعوالم وأكثر ذيوعاً منه. وهو يكمن في تلاوة ثلاثة فقهاء أو أكثر ختمة للقرآن أو في إقامة جمع من الفقراء(*) لحلقات الذكر. يريح الفقهاء في الختمة بعضهم بعضاً فيتلو كل واحد منهم ربعاً من القرآن؛ ويحضر هؤلاء إلى منزل مضيفهم بعيد العصر فيؤدون التلاوة بصورة متعاقبة أمام حشد الضيوف المجتمعين في لحن ذات رنة موسيقية شفافة. ويحدث أن تُقام الختمة في وضح النهار وتليها حلقة ذكر عند المساء. وتجدر الإشارة إلى ضرورة إقامة الذكر بعد المغيب.

يعدّ المصريون الذين اعتادوا العيش اقتصاداً وشظفاً أطباقاً متنوعة لتسلية أصدقائهم، ولكنّهم لا يخصصون وقتاً كبيراً للتلذذ بأطايب الطعام ويمضون فترة الضيافة في التدخين وارتشاف القهوة وتناول الشربات والتحادث. يمتنع الأتراك عامة عن التدخين خلال تلاوة القرآن حتى شاع فيهم القول «إن الله خصّ آل عثمان على سائر المسلمين الآخرين لتمجيدهم القرآن أكثر من غيرهم». ولا يحاول أي من الضيوف في هذه الحلقات تسلية رفاقه بأكثر من محادثة طريفة أو قصة عامة علماً أنهم يُسرّون لأداء الغوازي والعوالم والآلاتيين. ولا يلعب المصريون أية لعبة إلاّ إذا التقوا مثنى وثلاثاً أو لعبوها مع عائلاتهم. والمصريون شعب إجتماعي ولكنهم لا يقيمون الحفلات الكبرى إلا في مناسبات محدودة تدعو إلى الفرح؛ إذ إنه من غير اللائق إحضار الغوازي للرقص في أحد المنازل.

لقد تحدثت غن احتفالات الزواج في فصل سابق لذا أنتقل إلى الإحتفالات التي تعقب الزواج حسب ترتيب حدوثها.

تستقبل الزوجة في اليوم السابق بعد الزواج - يوم السُّبوع» صديقاتها وقريباتها في الصباح وبعد الظهر؛ وقد يدعو الزوج أصدقاءه في المساء ويُحضر

(*) تذكرنا هذه التقاليد برسالة القديس بولس إلى أهل أفسس (الفصل الخامس /١٩) حيث يتبين لنا قِدَم الإحتفالات الإجتماعية من هذا النوع.

بعض الفقهاء وغيرهم لتلاوة ختمة أو إقامة حلقة ذكر . ومن عادات أزواج مصر إنكار حقوقهم الزوجية خلال الأسبوع الأول بعد إتمام الزواج إن كانت العروس بتولاً ؛ وانقضاء هذه الفترة مدعاة فرح كبير[1] تتوجه الزوجة في « اليوم الأربعين » بعد زواجها مع بعض صديقاتها إلى الحمام ويعود الجميع إلى منزل العروس قبيل العصر حيث يقمن وليمة عامرة قبل مغادرتهن بعدها . ويستقبل الزوج أحياناً ضيوفه مساءاً في ذلك اليوم ويقيم ختمة أو ذكراً بهذه المناسبة .

تلي الإحتفالات بولادة طفل احتفالات الأعراس أهمية . وترسل «الداية» قبل يومين تقريباً من موعد الولادة « كرسي الولادة » إلى منزل الأم التي تنتظر حدثاً سعيداً ، وهو عبارة عن كرسي تجلس عليه الحامل خلال وضعها . (أنظر سفر الخروج : الفصل الأول / ١٦) . يغطى الكرسي بشال أو بمنديل مطرز ؛ وتلّف بعض أزهار الحناء أو بعض الورود بمنديل مطرز في جوانب ظهر الكرسي العليا ويسبق كرسي الولادة المزين المزخرَف بهذه الطريقة الداية (وهو ملك لها) إلى منزل الزوجة الحامل . وتتمدّد الأم المنتمية إلى عائلة ميسورة بعد ولادتها على سرير خاص حيث تبقى فترة تتراوح بين ثلاثة وستة أيام بينما لا تنال الأمهات المسكينات الفقيرات قسطاً طويلاً من الراحة ويعدن إلى مزاولة أعمالهن اليومية بعد يوم أو يومين إن لم تتطلب منهن جهداً كبيراً

يقوم اثنان أو ثلاثة من الخوالي أو الغوازي بالرقص في صبيحة اليوم التالي للولادة أمام المنزل أو في باحته وتغدو الفرحة فرحتين عند ولادة الذكر وتكتسي الإحتفالات بقدومه أهمية أكبر من ولادة الأنثى .ولا يزال العرب يكنّون

---

(١) ليس هذا هو الإحتفال الوحيد من هذا النوع المشار إليه في سفر التكوين : الفصل الرابع والعشرون / ٢٧ وفي سفر القضاة : الفصل الرابع عشر / ١٢ وأظن أنه ما تزال تنتشر بين البدو الأغنياء اليوم عادة الإحتفال بالأصحاب الأغنياء طيلة سبعة أيام بعد الزواج (كما عند ولادة صبي)؛ ولا يقوم الزوج الجدير بالإحترام بطرد زوجته إن خاب أمله فيها لنحو أسبوع حتى لا ينظر إليها مجتمعها بعيون متشككة ـ خاصة إن كان هذا زواجها الأول .

هذا الشعور بقدوم الذكرَ والذي ورثوه عن أسلافهم فكانوا يتخلصون من الأنثى عند ولادتها .

تنهمك نساء المنزل بعد أيام قليلة من الولادة في اليوم الرابع أو الخامس عامة ـ سواء انتمين إلى الطبقة الميسورة و المتوسطة في إعداد أطباق « المُفَتَّقَه » « والكشك » و« اللِّبابه » و « الحِلْبَة » يرسلنها إلي الصديقات والقريبات . و « المفتقة » كناية عن مزيج من العسل والقليل من الزبدة المصفّاة وزيت السمسم إضافة إلى المعطرات والبهارات المسحوقة معاً ؛ ومن الممكن تزيين هذا الطبق بالبندق ؛ أمّا الكشك فقد تحدثت عنه في فصل سابق تتألف « اللبابة » من كسر الخبز وفتاته والعسل والزبدة المصفاة مع شيء من ماء الورد : تذوَّب الزبدة في المقلاة على النار أولاً ويضاف إليها الخبز المكسَّر والعسل . وتحضَّر « الحلبة » من الحبوب الجافة المغلية وتحلَّى بالعسل وهي على النار .

تقوم صديقات الأم التي وضعت مولودها بزيارتها وتهنئتها في « يوم السُّبوع » . وإن كان المولود أبصر النور في عائلة غنية تغني له العوالم في الحريم أو يعزف الآلاتيون ابتهاجاً بقدومه أو يتلو الفقهاء ختمة من القرآن في إحدى الحجرات السفلية . وتساعد الداية الأم في الجلوس على كرسي الولادة أملاً في الجلوس عليه ثانية في ولادة أخرى ، وتعتبر الداية أن جلوسها فأل خير . تحمل الداية الطفل ملفوفاً بشال أنيق غالي الثمن وتقوم إحدى النساء بضرب الهاون النحاسي حتى يعتاد المولود ـ حسب الإعتقاد السائد ـ على الصخب فلا يخشى لاحقاً الموسيقى وأصوات الفرح الأخرى . ثم يوضع الطفل في منخل ويُهَزّ هزاً وفي تلك العملية منفعة لمعدته . وينتقلن به بعد هزه بين مختلف حجرات الحريم بصحبة لفيف من الفتيات أو النساء تحمل الواحدة منهن عدداً من الشموع المضاءة المتعددة الألوان أحياناً مقطوعة نصفين ومثبتة في كتل عجينة الحناء فوق صينية مستديرة . وترشّ الداية أو غيرها في ذلك الوقت مزيجاً من الملح وعشبة الشُّمرة فوق أرض كل حجرة أو تكتفي بنثر الملح وحده بعد أن تكون وضعت المزيج في الليلة فوق رأس الطفل مردِّدة : « الملح

في عين الذي لا يصلّي على النبي ﷺ » أو « الملح الفاسد في عين الحاسد » . وتعتبر عملية رش الملح عملية وقائية حافظة للأم وطفلها من العين الحاسدة ؛ ولا بد أن يذكر كل الحاضرين الرسول ﷺ فيقولون : « اللهمَّ بارك على سيدنا محمد ». يلُفّ الطفل ويوضع فوق فرشة ناعمة أو فوق صينية فضية ويدور بين النساء الحاضرات اللواتي يتأملن وجهه قائلات : « اللّهم بارك على سيدنا محمد » و « ربنا يعطيك طول العمر » وغيرها من عبارات الدعاء ، ويضعن عادة فوق رأس الطفل أو إلى جانبه منديلاً مطرزاً فيه قطعة ذهبية (جميلة أو قديمة) ملفوفة في إحدى حافات هذا المنديل . وتعتبر هدية المنديل ديناً مفروضاً على الأم تجاه واهبته في أول فرصة سانحة أو هو تخلص من دين مساوٍ للقيمة الموهوبة نفسها . تزين القطع المقدّمة رأسية الطفل سنوات عديدة كما تحصل الداية بدورها على هديتها بعد الإنتهاء من نقوط الطفل . وتثبت فوق رأس المولود النائم خلال الليلة التي تسبق « السُّبوع » « دورقاً » مملوءاً ماءاً إن كان الولد ذكراً أو « قلة » إن كان أنثى ، ويلُفّ عنق قنينة الماء هذه بمنديل مطرز . وتحمل الداية القلّة أو الدورق فوق صينية وتجوب بها بين النساء اللواتي يضعن النقوط لها (ويقتصر على المال) فيها . وفي المساء يقيم الزوج حفلة لأصدقائه مشابهة للحفلات الخاصة الأخرى .

تعتبر الأم بعد فترة من وضعها مولودها نجسة(*) من الناحية الدينية (وتمتد هذه الفترة أربعين يوماً بين سكان القاهرة ولكنها تختلف بحسب الظروف والمذاهب) . وتعرف هذه الفترة بـ « النِّفاس » . وعند انقضاء فترة نفاسها تتوجه الأم عادة إلى الحمام .

أنتقل الآن إلى احتفالات المصريين بختن الصبي . يطوف المصريون بالولد الذي سيختنونه في الشوارع ـ ويعرف «بالمطهَّر» ـ كما أشرت إلى ذلك في فصل سابق ـ إذا انتمى أهله إلى الطبقة المتوسطة أو الميسورة.

(*) كذلك يعتبر اليهود المرأة نجسة طوال فترة أربعين يوماً من وضعها مولوداً ذكراً ويضاعفون المدة بالنسبة إلى الأنثى (أنظر سفر الأخبار : الفصل الثاني عشر / ٢ ـ ٤ ـ ٥) .

بيد أن رجال الفكر والدين والفقهاء وبعض الأغنياء في القـاهرة يفضلون إقـامة احتفال « الصَّرافـة » الذي يقضي بـأن يتوجـه أصدقـاء المطهـر في المدرسـة في أفضل ثيابهم ـ أو أنهم يستعيرون الثياب إن كانوا لا يملكون ما يليق بهذه المناسبة ـ قبيل الظهر إلى أحد الجوامع المشهورة كجامع الحسنين أو جامع الأزهر أو جامع السيدة زينب ؛ كذلك يقصد الجـامع الـرجال والنسـاء وبعض صديقـات عائلة المطهّر مع المطهّر عينه إضافة إلى ستة من شُوّاش (ومفردها شاويش) النقيب الأشرف ويحضر الحلاق الذي سيتولى عملية التطهير وخادمه الذي يحمل له « الحِمْل » (وقد وصفت هذه العملية في عرضي لاحتفالات الختان الشائعة). يجتمع كل هؤلاء الأشخاص وطائفة غيرهم في الجـامع وينتـظرون حتى انتهاء صلاة الظهر ثم ينطلقون في الشوارع إلى منزل أهل المـطهر . يتقـدم الموكب خادم الحلاق و « حمله » وقد يتبعه أحياناً نحو ستة فقهاء ينشدون « الموشّحات » في مدح الرسول ﷺ ويليهم تلميذان أو ثـلاثة أو أربعـة تلاميـذ يمشون جنباً إلى جنب فيغني أوّلهم أو نصفهم وهم يمرون: «يا ليـالي السعد، يـا ليالي الفـرح !» ويكمـل الصبية الآخـرون الإنشـاد فيضيفـون : « فـرح ومـرح مـع الأصـدقـاء مجموعين » ويعيد الفريق الأول ثانية : « اللهم بارك على النور البّراق » ويردف الآخرون : « أحمد المصطفى سيد المرسلين ». ولا ينقطع غنـاء الصبية طـوال الطريق ويسير خلفهم أقرباء المطهّر، يليهم سـتة صبية يحمـل ثلاثـة منهم قمقماً مملوءاً ماء ورد أو ماء زهر يرشونه على المتفرجين في الوقت الـذي يحمل فيـه الثلاثة الآخرون « مبخرة » تتصاعد منها رائحة البخور واللبان . ويسير مع هؤلاء الصبية « سقّا » حاملاً زق ماء على ظهره ملفوفـاً بمنديـل مطرز ويقـوم بتوزيـع الماء في أكواب نحاسية على المارة في الشارع ويتبعهم ثـلاثة خـدم يحمل أوّلهم إناء قهوة فضي في « عَزْقة » فضية مناسبة وثانيهم صينية فضية وزِّع عليها أحد عشر فنجان قهوة تقريباً في « ظروف » فضية بينما يمشي ثالثهم صفر اليدين ومهمته ملء فنجان قهوة وتقديمه لأحد المارة المتهنـدمين (الجالس في متجـر مثلاً) ما إن يقع عليه بصره عند متابعة الموكب تقدمه ولا بد بعد هذا التقدير والتكريم من مكافأة الخادم ـ ويعتبـر نصـف قرش كافياً وافياً يسير الشّـواش

في الصف الثاني في الموكب ويتبعهم أحياناً جمع من الصبية يحملون القماقم والمبخرات وصبي يحمل لوح كتابة المطهّر وقد تدلى من رقبته بواسطة منديل . ويقوم معلم المدرسة بتزيين هذا اللوح لهذه المناسبة . ونرى المطهّر وراء الصبي حامل اللوح يسير بين اثنين مرتدياً إمّا ثياب الزفة التي وصفتها سابقاً (أي ثياب العروس باستثناء الراسية وبعض الحلى النسائية) وإمّا ثيابه العادية كصبي مغلقاً فمه بمنديل مطرز وتتبعه النساء مطلقات زغاريد الفرح . ويتولى أحدهم رش الملح وراءه طرداً للعين الشريرة التي قد تصيب الغلام حسداً .
وهكذا يصل الموكب إلى المنزل . وما إن يتوقف عند المدخل حتى يبادر أوّل الصبية إلى الغناء : « أنت شمس ! أنت قمر ! أنت نور على نور ! » ويضيف الآخرون : « يا محمد ! يا صديقي ! يا صاحب العينين السوداوين ! » ويدخلون المنزل مردّدين مدحهم للرسول ﷺ . ويصعد الصبية إلى الحجرات العلوية تاركين النساء في الحجرات السفلية . ويطلق الصبية العنان لأصواتهم وهم في طريقهم صعوداً : « أنتَ يا عَمُّو وأنتِ يا عمتُّو ! تعالا وأحضرا صرافتو » . ويقدِّم إليهم عند دخولهم « قاعة » الحريم (وهي حجرته الأساسية) شالاً كشميرياً يمسكونه في شكل دائري ويضعون لوح الكتابة في وسطه . ويقف « العارف » ـ رئيس صبية المدرسة ـ (مع المطهّر والنساء) جانباً ثم يلقي « خطبة الصرافة » التي يغني كل جملة فيها ويعيدها وراءه باقي الصبية . والخطبة غير موزونة وهي على الوجه التالي :

« الحمد لله الواجد الماجد الكبير ـ الواحد التواب الحفيظ ـ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ـ يعرف وطأ النمل الأسود ـ وعمله ويقظه في الليل الأحلك ـ الله باني قبة السماء ومسبّحها الحميد ـ وباسط الأرض فوق ملح المحيط ـ طوّل عمر هذا الولد وأبسطه ـ ليقرأ القرآن بوعي وإدراك ـ ليقرأ القرآن وصفحات التاريخ ـ قصص العصور السالفة والحاضرة ـ لقد تعلّم هذا الولد يقرأ ويكتب ـ ويتلفظ ويسرع ويحسب ـ وأبوه ما يحرم علينا المال فضة وذهب ـ إنت يا والدي يا معلمي دفعت الثمن ـ أسكنك الله الجنة ـ وإنت يا والدتي لك شكري وامتناني ـ للإهتمام بي صبح ومسا ـ إن شاء الله أشوفك في الجنة

جالسة ـ وتحييك مريم وزينب وفاطمة تحية خالصة ـ علمنّا فقيهنا الأبجدية ـ يجعله في مراكز متجليّة ـ علمنّا فقيهنا « القصص » من القرآن ـ البركة عليه والأمان ـ علمنا فقيهنا « فاطر » ـ يحفظه رب العالمين القادر ـ علمنا فقيهنا « الغافر » ـ إن شاء الله يباركه الواحد الباسط ـ علّمنا فقيهنا « ياسين » ـ إن شاء الله يفتحها له طول عمره الكريم الجليل ـ علّمنا فقيهنا « الكهف » ـ فتبارك في كل يوم وشهر ـ علمنا فقيهنا « البقرة » ـ شمله الله بواسع المغفرة ـ فقيهنا يستحق البِّر ـ عمامة ومعطف أخضر ـ يا عذارى يا حلوين ـ يباركم سيد الخلق أجمعين ـ ويا متزوجات ـ أعطر التحيات المباركات أدعو الله « بالصافات » يحميكم من عيون الحسودين والحسودات ـ وأنت يا عجوزة يا شمطا ـ بالجزمة القديمة تنضربي مرّة ـ ونقول للعجايز ـ « خدوا الحوض والزق » إتوضّوا وصلّوا للحرايم ».

ترمي النساء نقوطهن فوق اللوح المكتوب المزين خلال غناء هذه العبارات العبثية ويتم جمعها في منديل لاحقاً . وينزل الصبية ويقدّمون النقوط إلى الفقيه الجالس في الحجرة السفلية . ويكون المطهّر جالساً على كرسي ويقف الحلاق إلى جانبه الأول والخادم حامل الحمل إلى الجانب الثاني . ويرتاح من حمله فيضعه على الأرض ويجعل فنجاناً أعلاه فيسقط الضيوف نقوطهم داخله للحلاق . وتتعشى الضيفات في الحريم قبل مغادرتهن المنزل . وأمّا الصبية فيتعشون في الحجرة السفلية وينطلقون بعد ذلك إلى منازلهم يرتاحون فيها كذلك يتناول الرجال طعامهم وينصرف جميعهم عدا رجال العائلة والحلاق وخادمه. ويقود الحلاق المطهّر بصحبة اثنين من أقربائه إلى حجرة خاصة حيث يتم ختن الصبي ؛ وقد تتم هذه العملية في اليوم التالي ويعد حوالي الأسبوع يصحب الصبي إلى الحمام .

ومن الإحتفالات التي تقيمها العائلة المصرية (إن لم يتعلق الأمر بزواج ابن أو أبنة) مناسبة عمل الولد في تجارة أحدهم أو حرفته ويفرحون لهذه المناسبة باحتفال يقيمونه في بعض الحالات علماً أن مثل هذا الإحتفال لا يشمل

كافة أنواع التجارة وهو يقتصر على النجارين والخراطين والحلاقين والخياطين ومجلّدي الكتب وبضعة حرفيين غيرهم . فعندما يصبح الشاب خبيراً في تجارته (أو حرفته) ، يتوجه والده إلى شيخ هذه التجارة ويعبّر له عن رغبته في قبول ابنه عضواً فيها . ويرسل الشيخ « النقيب » لدعوة أسياد التجارة وأربابها وقد يوجه الدعوة إلى بعض أصدقاء المرشح للعضوية لحضور قبول عضوية صديقهم . ويتناول النقيب باقة من عباليج نبتة خضراء أو من الزهور ويطوف بين هؤلاء الأشخاص ويقدّم لكل واحد منهم عسلوجاً أو ورقة خضراء أو زهرة ويقول : « الفاتحة للرسول » ثم يضيف النقيب بعد قراءة الإثنين الفاتحة : « إحضروا في اليوم الفلاني والساعة الفلانية إلى المنزل الفلاني واشربوا فنجان قهوة ». وهكذا يشرب المدعوون القهوة (في منزل والد الشاب أو في البلد) ويتناولون طعام العشاء. وعند انتهائهم يقود النقيب الشاب أمام الشيخ ويعدّد صفاته الحسنة ومؤهلاته ويطلب من الحاضرين قراءة الفاتحة للرسول ؛ ثم يخلع على الشاب شالاً فوق ردائه الخارجي ويجمع أطرافه في عقدة ويعيد تلاوة الفاتحة ويحني رأسه موافقة لتنتهي بذلك عملية قبول الشاب . ويقوم هذا الأخير بتقبيل يد الشيخ والتجار أنداده ويعطي النقيب مبلغاً بسيطاً . ويعرف هذا الإحتفال « بشدّ الولد » وأمّا عضوها الجديد فهو « المشدود » .

يبقى عليّ الحديث عن أتراح المصريين كما توسعت في أفراحهم فأختم بذلك حديثي عن عادات المسلمين المصريين وتقاليدهم .

الفصل الثامن والعشرون

الموت ومراسم الدفن

يتحضر المسلم الورع الشاعر بدنو أجله للقاء ربه بتكراره عملية الوضوء كما يفعل قبل الصلاة حتى لا يغادر دار الفناء وجسده غير متطهر ؛ فتسمعه يردّد شهادة إيمانه العميق بأن « لا إله إلاّ الله وأن محمد رسول الله ». ومن عادة المسلم التقي كذلك أن يحمل معه قبل خوضه غمار حرب أو انطلاقه في رحلة طويلة خاصة في قلب الصحراء الشاسعة كفنه بين أغراضه ويحدث أحياناً أن يعدّ المسافر في مثل هذه الظروف الصعبة قبره بنفسه ؛ فإذا أنهك التعب قواه أو بلغ به الحرمان أشده أو أصابه مرض عضال وكان حطّ عصا الترحال في الصحراء ولا يستطيع رفاق سفره ـ إن كان عنده رفاق ـ إنتظاره حتى يشفى أو ينتقل إلى دار العُقبى ، يبادر هذا المسافر التعب إلى التيمم (بالماء إن أمكن أو بالتراب أو الغبار الذي يسمح به في هذه الحالة) ثم يحفر خندقاً في التراب هو قبره فيتمدّد فيه بعد أن يكون لفّ نفسه بكفنه خلا وجهه وينتظر حتى تنفر نعامته فيرتاح من عذابه ويعهد إلى رياح الصحراء أمر إتمام مراسم دفنه .

يشقّ صوت مؤذن الأزهر كبد السماء عندما يموت أحد العلماء البارزين في القاهرة وتشاركه أصوات مؤذني الجوامع الأخرى في نعي الفقيد الغالي وتجتمع لتلاوة « الأبرار » (وقد ذكرتها عند عرض العادات التي يعرفها المصريون خلال شهر رمضان في الجزء الثاني من الإحتفالات الشعبية).

يكاد شاهد الموت والدفن لا يتغير بين النساء والرجال . فعندما يرتسم

شبح الموت منذراً بدنو الأجل ويغدو صوت السقيم حشرجة أو تظهر عوارض أخرى يدير شاهد الموت (زوجة الميت أو غيرها) وجه الميت صوب مكة ويغمض له جفونه . وتتعالى أصوات الذكور عند رحيل الميت إلى عُقباه وحتى قبل أن تبلغ روحه التراقي مكبّرة إسم الباقي الديوم : « الله ، لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم . . . إنّا لله وإنّا إليه راجعون ! ربي ارحمه » بينما تبكي النساء ميتها مولولة متفجعة مردّدة إسم المأسوف عليه . وتسمع الزوجة (أو الزوجات) تبكي رب العائلة على النحو التالي : « يا سيدي « يا جملي ، يا مبركي » « يا جالب أغراضي وحامل أعبائي » « يا أسدي » « يا جمل المنزل » « يا مجدي ونصرتي » « يا مرتجعي » « يا أبي » «يا بلائي» . وتُنزع ثياب المتوفى عنه عندما يلفظ أنفاسه الأخيرة وتستبدل بثياب أخرى ثم يمدّد على سريره أو حصيره ويغطّى بملاءة . ولا تنقطع ولولة المنتحبات ويشاركهن في بكائهن نساء الجوار اللواتي يهببن لمشاطرتهن الآلام . وترسل عادة عائلة المتوفى « ندّابتين أو أكثر وهنّ الراثيات (أنظر بنوءة إرميا : الفصل التاسع / ١٧ ؛ إنجيل القديس متى الفصل التاسع / ٢٣ ؛ أخبار : الخامس والثلاثون / ٢٥)، بيد أن بعضهم يستهجن هذه العادة ولا يلتزم بعضهم الآخر بها عصراً للنفقات. وتحمل كل ندّابة معها « طاراً » تغيب عنه القطع المعدنية الرنّانة الطنّانة المعلقة إلى طوق الطار المعروف ويضربن مجتمعات طاراتهن ويصرخن مردّدات : « واحسرتاه عليه » ويأخذن يمدحن عمامة المتوفّى وشخصيته اللبقة المحبّبة كما تلطم قريباته وخادماته وجوههن (وضفائرهن مشعثة وأثوابهن ممزّقة) ويبكين ميتهم تحسّراً ، ويستمر الندب حوالي الساعة .

وإذا توفّي المرء في الصباح يوارى جدث الرحمة في اليوم ذاته ؛ أمّا إذا حصلت الوفاة في فترة بعد الظهر أو في المساء فلا يُدفن جثمانه حتى اليوم التالي فتبقى النّدابة ساهرة طوال الليل تندبه مع النساء الأخريات ويحضر الفقيه إلى منزل المغفور له ليتلو آيات بيّنات من الذكر الحكيم وقد يجتمع لفيف من الفقهاء فيتلون ختمة مباركة من كتاب الله .

يطير المغسّل على جناح السرعة حاملاً خشبة طويلة يضع عليها الميت

ونعشاً كما يحضر عدد من الفقهاء إلى المنزل للمشاركة في تشييع الجثمان (إن كـان المتوفى من أصحـاب المقامـات العاليـة أو من أبناء الـطبقة المتـوسطة) فيجلسون طوال فترة غسل الميت في الغرفة المجاورة لغرفته أو خارجهـا ويتلو بعضهم « سـورة الأنعام » وينشـد بعضهم الآخر « البُـردة » وهي من المـدائـح المشهـورة في الرسـول ﷺ وينزع المغسّـل ثياب الميت فيحصـل على أجر إضافي ويقوم بإغلاق فم الميت وعينيه . ثم يُوضِّيء الميت تحضراً للصلاة عليه باستثناء فمه وأنفه ويعمد بعد ذلك إلى غسله من رأسه حتى قدميه غسـلاً جيداً بالماء الـدافىء والصابـون والليف أو بالأصـح يُغسل الميت بمـاء بعض أوراق « النّبق » (أو « السِّدر ») المغلي . ويُشَد المنخران والأذنان وغيرها من أعضاء الجسم بـالقطن ويُـرش الجثمان بمـزيج المـاء والكافـور المسحوق والمجفف وأوراق النبق مع شيء من ماء الورد . ومن الممكن إضافة أوراق شجر أخـرى إلى أوراق النبق بعد تجفيفها وسحقهـا . ويوثق المغسّـل أخيراً كـاحلي الميت ويجعل يديه ترتاحان فوق صدره .

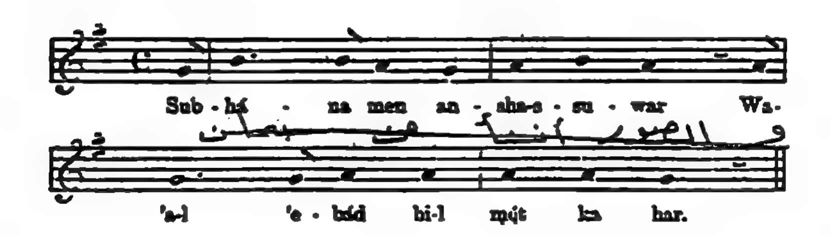
يقتصر كفن ابن الطبقة الدنيا على قطعة أو قطعتين من القطن أو هو مجرد كيس أمّا جثمان ابن اليُسر فيلّف بقماش الموسلين أولاً وبقماش قطني سميك ثانية إضافة إلى قمـاش من الحريـر والقطن المقلم أو يلّف بقفـطان من قماش مشابه مدروز ثمّ يدثـر بشال من الكشميـر . ويلّف جثمان المـرأة المنتمية إلى الطبقة المتـوسطة عـادة باليلك وأكثـر ألوان الأكفـان تقبّلاً في نفـوس الناس اللونان الأبيض والأخضر ، علماً أنّه من الممكن اللجوء إلى لون مختلف عـدا الأزرق أو كل ما هو ضارب إلى الزرقة. ويجعـل الجثمان في النعش تحضـرّاً لـدفنه ويلفّ بشـال أحمر من الكشميـر أو غيـره ويستعـد الأشخـاص الـذين سيواكبون الجنازة في صفوف مرتبة

يتصدّر الجنازة نحو ستة أشخاص أو أكثر من الفقراء يُعرفون « باليمنيّـة » وهم كفيفون بمعظمهم ويمشون اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة فيعتدلون في خطواتهم أو يسيرون سيراً بـطيئاً مـردّدين دون انقطاع شهـادة الإيمان (« لا إلـه إلا الله :

محمد رسول الله : صلّى الله عليه وسلّم ») كما يظهر ذلك في الرسم التوضيحي التالي :ـ



يتبع هؤلاء بعض أقرباء الميت وأصدقاؤه من الذكور وقد يصحبهم اثنين أو أكثر من الدراويش يحملان رايات طبقتهم . وتلك العادة المتبعة عامة في تشييع أحد الدراويش . ثم يليهم نحو أربعة صبية من التلاميذ يحمل أحدهم مصحفاً أو أحد أجزاء القرآن الثلاثين يرفعونه فوق مقرأ مصنوع من أغصان الشجر مغطى بمنديل مطرّز . ويردد الصبية مقطعاً من « الحِشْرية » يصفون فيها حدث اليوم الفائت الأليم بصوت جهوري حي فيتفوّقون على اليمنيّة . ويوضّح لنا السُّلم الموسيقي في الرسم التالي مقطعاً من « الحشريّة » .

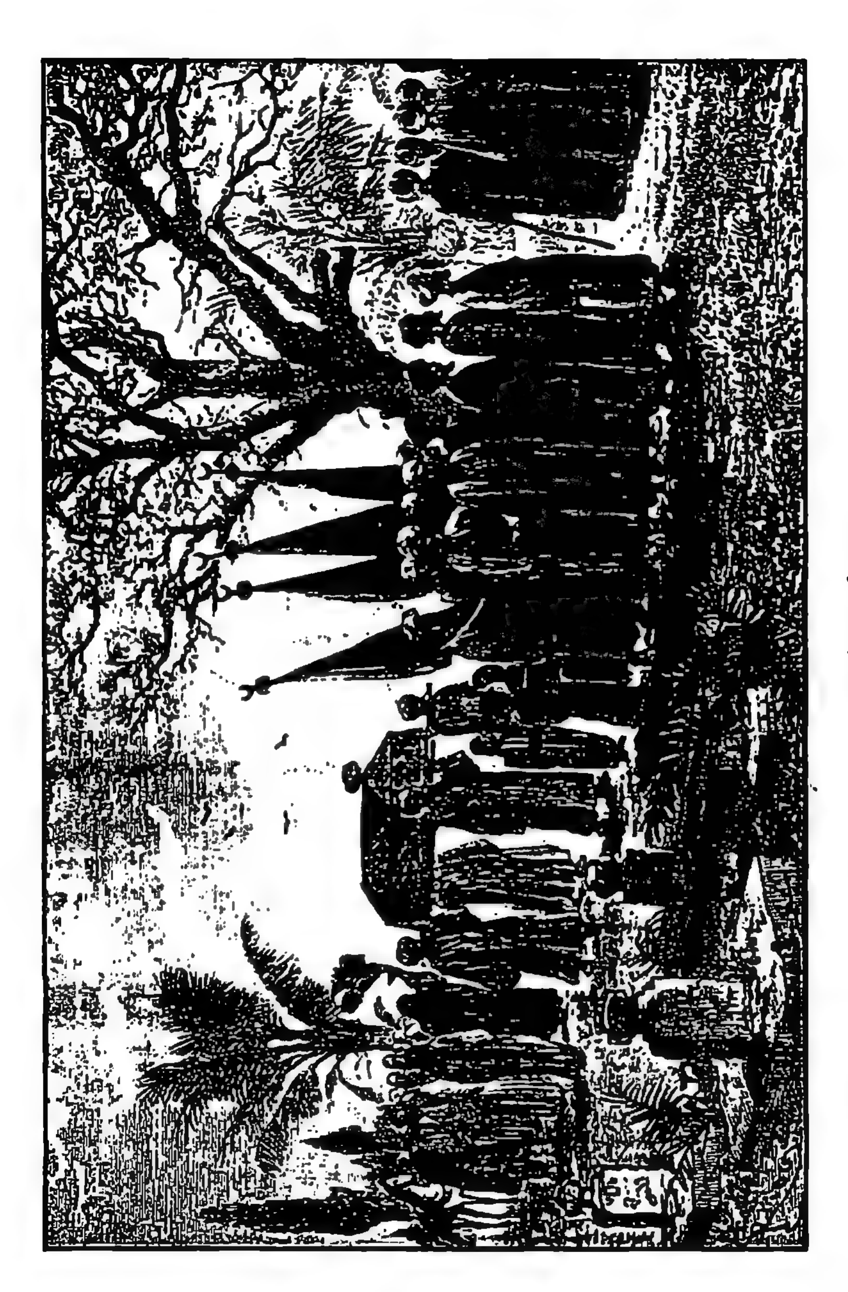


يتقدم الصبية النعش الذي يُحمل على الأكتاف ويجعلون الميت إلى الأمام ويحمله حوالي أربعة أشخاص من أصحاب الميت لمسافة قصيرة ثم ينوب عنهم عدد مماثل منهم لمسافة أكبر وهكذا دواليك فلا يتعبون من حمل النعش . وقد يشارك المارة في الجنازة التي تسير أمامهم ولهم ثواب عظيم وتسير النساء المولولات خلف النعش جماعات من عشرة أو عشرين وقد غطّين شعرهن الأشعث من كثرة الندب بالرأسية . وترافقهن غالباً الناحبات اللواتي ينتحبن

ويتباكين مقابل أجر محدّد يدفع لهن وهنّ يذكرن خصائل الميت الحميدة . وتتميّز قريبات الميت وخادماته عن النساء الأخريات بغطاء من الكتان أو القطن من الموسلين أو القماش العادي أزرق اللون عادة يلف رؤوسهن ويخلص إلى ظهورهن في عقدة واحدة وتنسدل أطرافه مسافة قصيرة وتحمل الواحدة منهن منديلاً مصبوغاً باللون الأزرق يجعلنه أحياناً فوق أكتافهن أو رؤوسهن أو يسدلنه فوق وجوههن . ويتحد عويل النساء ومدح الصبية الحي وترديد اليمنيّة في بوتقة واحدة يميّزها عدم تناغم غريب .

كان الرسول ﷺ حرّم ندب النساء ميّتهن في الجنازة والتغني بخصائله وشمائله . ويفسّر الرسول ﷺ سبب التحريم بأن الميت قد يُلام في آخرته إن كانت الشمائل المنسوبة إليه كان غير متأصلة فيه في دنياه . وإنه لمن المستغرب رؤية المسلمين المحدثين قاطبة على اختلاف طبقاتهم ينتهكون بعض تعاليم رسولهم ما عدا الوهابيين. ولقد رأيت نساءاً نادبات من نساء الطبقات الدنيا يسرن وراء نعش ميتهن ووجوههن (المكشوفة) وغطاء رؤوسهن وصدورهن ملطخة وحلاً

وقد يسير أمام نعش رجل الثراء أو ابن الطبقة المتوسطة نحو أربعة جمال تنقل الخبز والماء يوزعونها على الفقراء عند الضريح إضافة إلى جمهرة متنوعة من الناس . ويتقدم فريق اليمنيّة الذين يردّدون شهادة الإيمان الموكب الجنائزي كما ذكرت سابقاً ويتبعهم بعض أصدقاء المتوفى وبعض المتعلمين المتفكرين والأتقياء الذين دعيوا لحضور الجنازة. ويلي هؤلاء فريق يضم خمسة فقهاء يتلون « سورة الأنعام » (وهي السورة السادسة في القرآن الكريم) وآخرون يتلون « سورة يس » (السورة السادسة والثلاثون) وغيرهم « سورة الكهف » (السورة الثامنة عشرة) وغيرهم « سورة الدخان » (السورة الرابعة والأربعون). ويتبعهم بعض المنشدين مرددين « البردة » يليهم « أصحاب الأحزاب » وهم أفراد من الطبقات الدينية التي أسّسها بعض الشيوخ المشهورين . ويشهد الموكب الجنائزي كذلك أربعة أفراد من طبقة «حزب السّادات » وهي طبقة مشابهة لـ «حزب الشاذلي» وفريق آخر من « حزب الشعراوي »؛ ويردّد كل فريق من



موكب جنائزي

هؤلاء شكلاً معيناً من الصلاة . ويرفرف وراءهم علمان أو أكثر شبه ملفوفين يمثلان طبقات الدراويش ويعقبهم التلاميذ والنعش والناحبات الباكيات كما في الموكب الموصوف آنفاً ؛ وقد تشهد الجنازة أحصنة حاملي النعش إن كان الميت صاحب مقام رفيع ، وتنتهي المسيرة الجنائزية بنحر جاموس عند القبر وتوزيع لحمه على الفقراء

وتشهد جنازة الشيخ الورع أو العالم الكبير مشاركة أكبر ، فلا يُغطى نعشه بشال. ويكرّم الولي عند موته تكريماً كبيراً فتتميز جنازته بعادة ملفتة إذ تتبع النساء نعشه فلا ينتحبن أو يولولن كما يفعلن في جنازة أي ميت آخر عادي المقام بل يطلقن الزغاريد ؛ وإن هن توقفن ولو لدقيقة واحدة عن مثل هذه الزغاريد ، تعلو أصوات حاملي النعش احتجاجاً بعدم قدرتهم على الاستمرار في السير لأن قوة خارقة تسمرهم في المكان الذي فيه يقفون . ويقال إن الولي يُسيِّر غالباً حاملي نعشه إلى نقطة معينة . وهاكم هذه القصة التي رواها لي أحد أصدقائي في وصف الطريقة البارعة التي لجأ إليها حاملو نعش أحد الأولياء لإرباكه - كان بعض الرجال يحملون جثة ولي إلى القبر الذي أُعدَّ له في المدفن الكبير الواقع شمالي العاصمة ؛ ولمّا بلغوا بوابة باب النصر المؤدية إلى المدفن وجدوا أنفسهم عاجزين عن التحرك قيد أنملة للسبب المذكور آنفاً ، فقال أحدهم « يبدو أن الشيخ عازم على عدم دفنه في مقبرة باب النصر ، فما عسانا نفعل ؟ » واحتار الجميع في ما يفعلون ولمّا كانوا متعنتين كما الولي نفسه لم يذعنوا لنزوته على الفور ؛ فتراجعوا بضع خطوات ثم تقدّموا بخطى حثيثة معتقدين أنهم يستطيعون بمثل هذه القوة الدافعة إقتحام الجثة عبر البوابة ؛ وذهب جهدهم أدراج الرياح . وأعادوا التجربة دون طائل ، ووضعوا النعش على الأرض للراحة والتداول وابتعد أحدهم مع بعض أصحابه إلى مسافة لا تسمعها أذن الولي المتوفى فقال لهم « لنرفع النعش ثانية ونديره سريعاً عدة مرات حتى يدوخ الشيخ فلا يعرف الإتجاه الذي نسير فيه ممّا يمكّننا من إدخاله عبر البوابة » فنفذوا هذه الخطة ، وبالفعل دار رأس الشيخ كما توقعوا فدفنوه بسرعة في المكان الذي جاهد الوالي لتجنب دخوله

تختلف النعوش المخصصة لنقل الأموات من النساء والصبية عن نعوش الرجال فهي تتميز بغطاء خشبي يمدّد فوقها شال كما فوق نعش الرجل ويرفعون على رأس النعش « شاهداً » خشبياً يغطى بشال ويزينون جزءه العلوي بمجموعة من الرأسيات إن كان النعش مخصصاً لنقل جثمان إمرأة من الطبقة المتوسطة أو الغنية ويضعون في رأسه المسطح الدائري « قرصاً » (وهو حلية مستديرة من الذهب أو الفضة مرصعة بالماس أو بالذهب تزين به المرأة تاج رأسها) في الوقت الذي تعلّق فيه « الصفّا » (وهي مجموعة من الشرائط المجدولة من الحرير الأسود تتدلى منها حلى ذهبية تتزين بها النساء إلى جانب جدائل شعرهن وتنسدل وراء ظهورهن) . ويتميز نعش الصبي بعمامة مؤلفة عامة من شال كشميري أحمر يلفّ حول قمة الشاهد ويزين بالقرص والصفا إن كان الميت يانعاً . يحمل أحد الرجال الطفل المتوفى إلى مثواه الأخير بين ذراعيه فلا يدثره سوى بشال أو ينقله في نعش صغير يحمله على رأسه .

يتقدم فريق اليمنيّة وبعض أقارب الميت جنازة المرأة أو الصبي مرددين شهادة الإيمان وتتبعهم الناحبات ؛ أمّا إن كان المتوفى من أبناء العائلات الميسورة أو صاحب مركز رفيع في دنياه فيواكب الجنازة عرض إضافي وأتوقف الآن عند وصف سريع لإحدى أكثر الجنازات احتشاماً وتهذيباً التي شاهدتها وهي لشابة عزباء : تقدّم الجنازة رجلان يحمل الواحد منهما راية خضراء كبيرة ملفوفة أمام جماعة اليمنية وهما ينشدان بطريقة خارجة عن إطار المألوف وبصوت خفيض ومهيب وكان يسير وراء هؤلاء الفقراء البالغ عددهم نحو الثمانية فريق من الفقهاء يرتلون سورة من القرآن ويعقبهم رجل يحمل غصن نبق كبير يرمز إلى الميت وكان يسير عند كل جانب شخص يرفع عصا طويلة علقت في أعلاها أطواق مزدانة بشرائط من أوراق متعددة الألوان . وكان يتبع هؤلاء جميعهم جنديان تركيان جنباً إلى جنب يحمل أحدهما قمقماً فضيّاً برّاقاً في داخله ماء ورد موضوعاً على صينية مستديرة صغيرة بينما يحمل الآخر مبخرة فضية فوق صينية مماثلة تنبعث منها رائحة زكية (كالبخور أو اللُّبان) تحترق داخلها فتروح تنشر عطرها طوال الطريق لتعطر القبر لاحقاً . وكان المارة يُرَشّون

أحياناً بماء الورد وكنّا نشاهـد خلفهن أربعة رجـال يحمل الـواحد منهم صينيـة صغيرة تزينها فتائل صغيرة مكسّوة بالشمـع مضاءة مغـروزة في قطع من عجينـة الحناء . وكان النعش مدثراً بشالات غالية وأمّا شاهده فمزيناً بزينات للرأس أنيقة تميّزها إضافة إلى الصفا « قُصة المـاس » تزين الجبهة بينما تلألأ رأس النعش المسطح قرصاً ماسياً وقد تكون هذه الزينات حلى المتـوفى أو هي استعيرت على الأرجح ـ كما الحال غالباً ـ لهذه المناسبة. وسارت الناحبات وعددهن نحـو الثماني وراء النعش يـرتدين الزي المعروف لنساء مصر (وهوالثوب الحريـري الأسود) ولكنهن ركبن فوق سروج البغال المرتفعة بدلاً من السير على أقدامهن فما كنّـا نسمع سوى نحيب آخر ثلاث منهن وهنّ على الأرجح ناحبات مولولات بأجرهن. كما شاهدت في موكب جنازة ابنة تركي رفيع الشـأن ستة عبيـد يمشون اثنين اثنين وراء فريق اليمنية . كان العبيدان الأولان يحملان قمقمين فضيين من ماء الورد يرشانه على المارة ؛ وكرّمني أحدهما أكبر تكـريم فبلّل ردائي بشكل مزعج للغـاية ثمّ صبّ شيئـاً منه في يـدي فبلّلت به وجهي حسب العادة أمّا العبيدان الآخران فكـان واحدهمـا يحمل مبخـرة فيها عـطر بينما نقـل الأولان عزقتين من الفضة انبعث منهما دخان الفحم المشتعـل والبخور . وأمّـا جواهـر الشاهد فغالية الثمن يعجـز قلمي عن وصفها . واجتمعت أخيـراً إحدى عشـرة سيدة ممتطيات بغالهن المرتفعة السرج مع النادبات .

ويبقى التطـرق إلى الشعائر الدينية في الصلاة على راحة نفس الميت في الجامع وعند القبر وما بعد مراسم الدفن . فإن حدث ومات المرء في أحد أحياء العاصمة الشمالية ، فمن الأفضل نقل الجثمان إلى جامع الحسنين ؛ وفي حال كان الميت فقيراً لا يقيم بجوار المقام الشريف ، فيسجّي أصدقاؤه جثمانـه في أحد الجوامع القريبة توفيـراً للوقت وللنفقات معـاً وأمّا واحـد العلماء فيصَلّى عليه في جامع الأزهر الكبير ويحمل سكان المناطق الجنوبية جثمان ميتهم عادة إلى جـامـع السيـدة زينب أو إلى جـامـع ولي مشهـور من الأوليـاء قـريب من منطقتهم . ويعتبر المصريون أن اختيـار مثل هـذه الجوامـع مردّه إلى إيمـانهم العميق بأن إقامة الصلاة في أضرحة الأولياء لراحة موتاهم مكللة بالنجاح .

يُحمل النعش إلى الجامع ويوضع على الأرض في مكان الصلاة المعروف وتوجه جهته اليمنى صوب القبلة . ويقف إمام الجامع عند جهته اليسرى متوجهاً بدوره صوب القبلة في الوقت الذي يقف فيه خادم الجامع كالمبلّغ عند قدم النعش . ويصطف شاهدو الجنازة وراء الإمام وأمّا النساء فوراء الرجال ، إذ نادراً ما يُستثنين من حضور الصلاة لراحة نفس الميت في الجامع ويبدأ الإمام الصلاة على الميت على النحو التالي : « نويت أن أصلي لله تعالى أربع تكبيرات على هذا الميت المسلم » وقد يحدث أن تتم الصلاة على جثمانين في وقت واحد . ثم يتابع الإمام صلاته (فيرفع يديه المبسوطتين على جانبي رأسه لامساً شحمة أذنيه بطرف إبهاميه) قائلاً : « الله أكبر » ـ وهذه تكبيرة الإحرام ويكرّر المبالغ دعاءه وكذلك حشد المصلين الواقفين خلف الإمام كما بعد التكبيرات المتلاحقة ، ثمّ يقرأ الإمام الفاتحة ويكبّر ثانية : « الله أكبر » ويصلي على النبي ﷺ : « اللهم بارك على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وصحبه واحفظهم أجمعين » . ويكبّر للمرة الثالثة : « الله أكبر » ويدعو للميت : اللهم إن هذا عبدك وابن عبدك رحل عن الدنيا وسكونها وعن وسعها وامتدادها وعن كل من يحب وعن كل الذين أحبوه فيها إلى ظلمة القبر ومعاناته فيه . لقد شهد أن لا إله إلاّ أنت وحدك وأن لا شريك لك وأن محمدّاً عبدك ورسولك وأنك أنت العليم . رحل إلى جوارك وأنت خير جار وبات محتاجاً إلى وسع رحمتك . أتيناك نسألك الشفاعة له . اللهم إن كان محسناً فزد في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عن سيئاته واغفر له واعف عنه وأعذه من عذاب القبر ووسّع له مدخله وجاف التراب عن جنبيه وهبه من لدن رحمتك الأمان من العذاب إلى يوم ترسله بسلام إلى جنتك يا أرحم الراحمين» . ثم يتلو الإمام التكبيرة الرابعة الأخيرة « الله أكبر » ثم يقول : « اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده وأغفر لنا وله . ثم يسلّم عن اليمين واليسار وقوفاً : « السلام عليكم ورحمة الله » كما في ختم صلواته العادية . ثم يتوجه الإمام إلى الحاضرين قائلاً : « إشهدوا له » . فيردّون : « كان من الفاضلين » . بعد ذلك يُرفع النعش ويوضع أمام المقصورة سواء أكانت الصلاة في جامع الحسنين أو

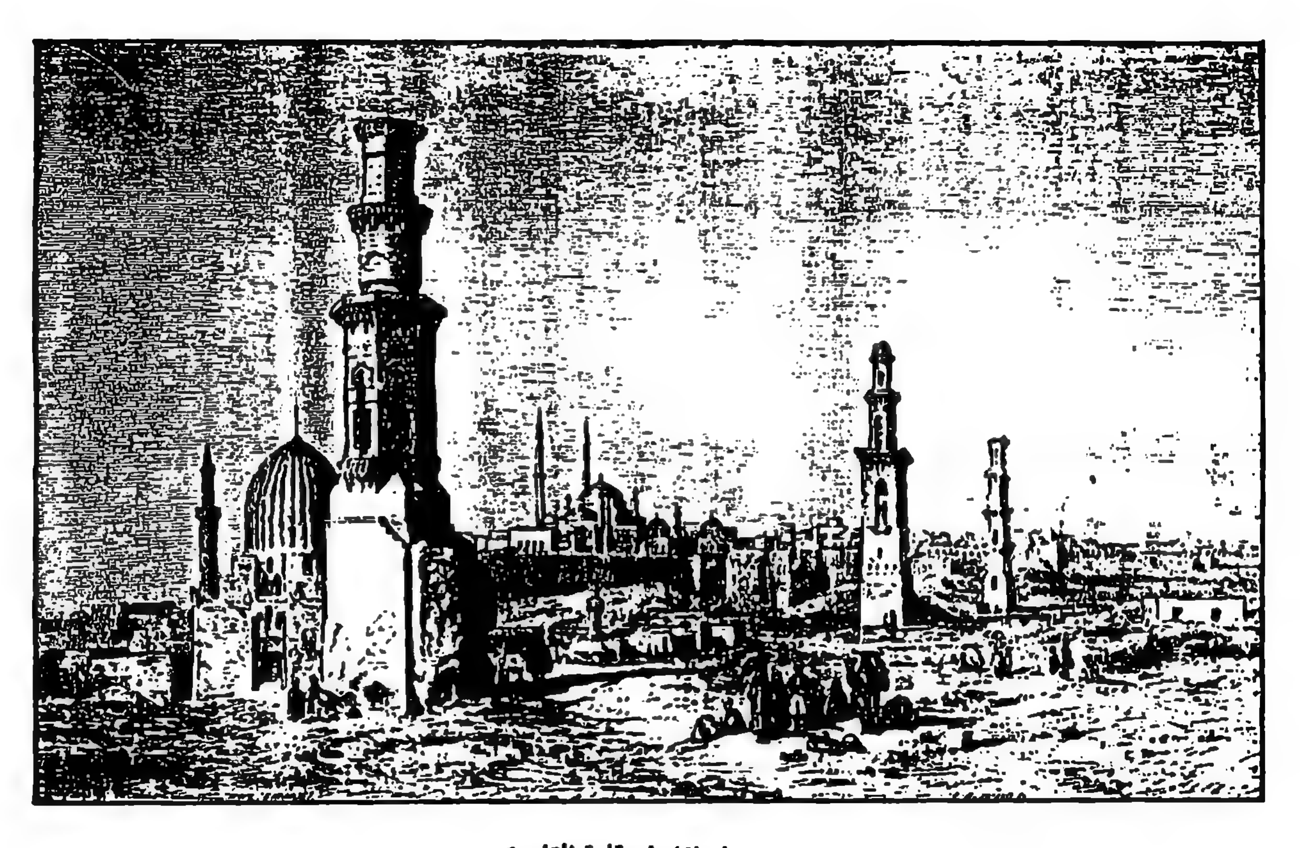
جامع ولي من الأولياء . ويقرأ بعض الفقهاء وغيرهم من الحاضرين في المقصورة سورة الفاتحة وآخر ثلاث آيات من سورة البقرة (السورة الثانية من القرآن) التي تبدأ بـ : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾. وعندما ينتهي الفقهاء من قراءة الآيات البيّنات ينتقل الموكب الجنائزي في الترتيب عينه ـ كما عند دخول المسجد ـ إلى المدفن .

وأتوقف عند وصف سريع للقبر . فهو عبارة عن سرداب تحت الأرض مستطيل الشكل ذات سقف مُقنطر مجصّص بالآجر عامة . والمدفن مجوف في داخله حتى يتمكن الميت ـ أو الأموات ـ المدفون فيه من الجلوس انتصاباً عند زيارة الملاكين « منكر » (أي « ناكر ») و«نكير». وتكون إحدى جهات المدفن موجّهة صوب القبلة (أي في الجهة الجنوبية الشرقية) وأمّا مدخل المدفن ففي الجهة الشمالية الشرقية وقد أحاط به مربع صغير مسقوف حجراً ليمنع التراب من التسرب إلى داخله ويشيّد فاصل في حال دفن الرجال والنساء في مكان واحد ـ وليست هذه الحال دائماً ـ لتفريق جثة المرأة عن الرجل . وتُجعل « التركيبة » (نصب مستطيل) فوق المدفن وهي من الحجر أو الآجر ويثبّت عليها « شاهد » عند الرأس والقدم والشواهد بسيطة في بنائها عامة وإن كان بعضها مزين مزخرف ؛ وتحضر على شاهد الرأس آيات قرآنية إضافة إلى اسم الميت وتاريخ وفاته . وقد توضع عمامة المتوفى أو رأسية المتوفية في أعلى شاهد الرأس للدلالة على مكانة المدفون . ويحظى مدفن الشيخ المبرّز أو الشخص الرفيع المقام بمربع صغير متوج بقبة صغيرة . وتتميز مدافن الأتراك وكبار المماليك « بتركيبة » رخامية مظلّلة بقبة تدعمها أربعة عواميد رخامية ومنقوشة آياتها وكلماتها بحروف ذهبية على شاهد الرأس. وتكثر مقابر من هذا النوع في المدفن الجنوبي الكبير في القاهرة . وأمّا مقابر السلاطين فعبارة عن جوامع أنيقة في معظمها يقع بعضها في العاصمة وبعضها الآخر في المدافن الواقعة في جوارها . وأعود بعد هذه النقلة السريعة إلى الموكب الجنائزي : يكون القبر مفتوحاً قبل وصول الجثمان فلا يحصل تأخير في الدفن . ويخرج شخصان الميت من نعشه ويضعانه في المدفن ثم يفكان رباطه ويمددانه على جانبه

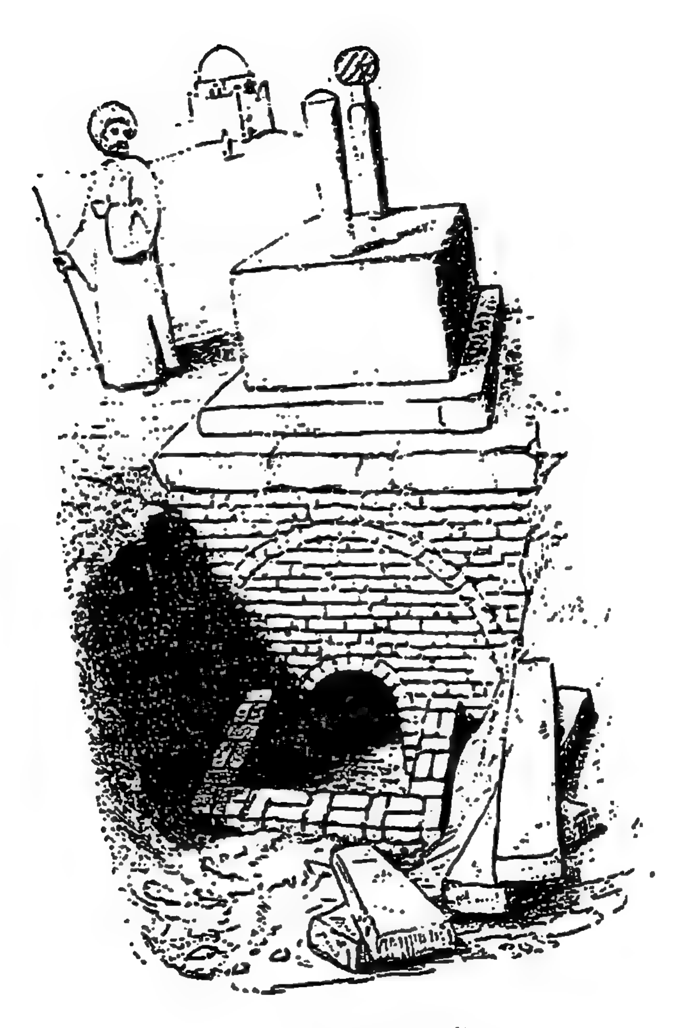
الأيمن بحيث يكون وجهه صوب القبلة وتسنده قطع الآجر في وضعه الجديد وتتم استعارة الغلاف الخارجي المصنوع من الكشمير مخافة أن تغوي قيمته الثمينة أحد المدنسين فينتهك حرمة المدفن . وينثر التراب فوق الجثة ويُقفل مدخل المدفن بتركيز المربع الحجري حوله وتدعيمه بالتراب .

وتبقى على الفقيه مهمة أخيرة ـ إلاّ إن كان الميت طفلاً فلا يعتبر مسؤولاً عن أعماله الدنيوية ـ هي دور « الملقِّن ». ويجلس الفقيه أمام القبر ويقول : « يا عبد الله ، يا أبن أمة الله ، إعلم أنه يأتيك ويأتي سواك ملكان . فمتى قالا لك : « من ربك ؟» قل لهما : « الله ربي حقاً » ومتى سألاك عن نبيك والرجل الذي أُرسل إليك ، قل لهما : « محمد رسول الله حقاً » وإن سألاك عن دينك قل لهما : « الإسلام ديني » ومتى سألاك عن كتابك قل لهما: «القرآن كتابي والمسلمون إخوتي ». ومتى سألاك عن قبلتك قل لهما : « الكعبة قبلتي وأنا عشت ومت مؤمناً أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله » عندئذ يقولان لك : « نم يا عبد الله في رعاية الله ». يعتقد المسلمون أن الروح تبقى داخل الجسد طوال الليلة الأولى بعد الدفن فيزورها ملاكا الموت وقد يعذَّب الجسد في مثواه ويحصل اليمنية وغيرهم على أجورهم عند القبر : ولا يتعدّى أجر اليمنية القرش الواحد . فإن كانت الجنازة لصاحب مقام رفيع أو غنى وجاه يُحمل زقان من الماء وخبز كثير مُحمَّل على ظهور الجمال إلى المدفن يوزّع على المساكين الذين يتدافعون أفواجاً في مثل هذه المناسبة . ولقد ذكرت في مقطع سابق أنّه يتم نحر جاموس ويوزّع لحمه على المساكين وتعرف هذه العادة بـ «الكَفّارة» التي من المفترض أنها تكفّر عن بعض صغائر الآثام التي يكون الميت ارتكبها في حياته ولكنّها لا تبطل كبائرها وعند الإنتهاء من مراسم الدفن ، يحظى كل واحد من أقرباء الميت بدعاء كأن « يعوِّض له الله عن خسارتك » و « أن يطيل الله عمرك ».

تُعرف الليلة الأولى التي يمضيها الميت في قبره « بليلة الوحشة ». ومن عادات تلك الليلة حضور فقيهين (أو ثلاثة) إلى منزل الفقيد وتناولهما وجبة طعام تقتصر على الخبز والحليب في المكان الذي توفى فيه الميت . وعند



مدافن الخلفاء في قلعة القاهرة.



(المدخل مفتوح)

الإنتهاء من الطعام يتلوان « سورة الملك » (السورة السابعة والستون في القرآن). والإعتقاد السائد أن الروح تبقى في الجسد خلال الليلة الأولى بعد الدفن وأنها تنتقل إلى المكان المخصص للأرواح الطيبة حتى اليوم الأخير أو هي تنتقل إلى السجن المخصص للأرواح الشريرة في انتظار يوم الحساب. وتعرف هذه الليلة أيضاً « بليلة الوحدة »[1]

---

(١) يشرح Sale إيمان المسلمين بالنسبة إلى المدة الفاصلة بين الموت ويوم النشور في كتابه Preliminary Discourse, Sect. iv كالتالي :- « يقسم المسلمون أرواح المؤمنين إلى ثلاث طبقات : أولاً : طبقة الأنبياء ومقامهم الجنة ؛ ثانياً : طبقة الشهداء الذين تبقى أرواحهم - حسب حديث للرسول ﷺ - في حواصل الطيور الخضر التي تأكل من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها ؛ وتحلّ ثالثاً طبقة المؤمنين وتختلف الآراء حول بعث أرواحهم :

١ - يعتبر بعضهم أنها تبقى بالقرب من القبور وهي تنتقل بكل حريّة حيثما تشاء ؛ ويدعمون قولهم بعادة تسليم الرسول ﷺ عليها في المقابر وتأكيده أن الميت يسمع كما الحي هذا التسليم . ومن هنا عادة زيارة المسلمين قبور أقاربهم .

٢ - يعتقد آخرون أن هذه الأرواح تسكن مع آدم في السماء السفلى ويدعمون رأيهم بما قاله الرسول ﷺ عند عودته من السماء العليا في معراجه حيث رأى أرواح الذين مثواهم الجنة على يمين آدم وأمّا أرواح ساكني النار فعلى يساره .

٣ - يتخيل فريق أول أنّ أرواح المؤمنين تبقى في بئر زمزم بينما تستقر أرواح الكافرين في إحدى الآبار في حضرموت ، وتعرف هذه البئر « ببرهوت » (وقد وردت في « قاموس » Sale تحت اسم Borhût)، ويعتبر هذا الرأي من البدع .

٤ - يزعم فريق ثانٍ أن الأرواح تبقى بالقرب من المقابر طوال سبعة أيام ولكنهم يجهلون المكان الذي تتوجه إليه لاحقاً .

٥ - يدعي فريق ثالث أن الأرواح تسكن الصُور الذي يُنفخ فيه لبعث الأموات .

٦ - وأمّا بعضهم فيؤمن أن الأرواح الطيبة تتخذ أشكال الطيور البيضاء وتسكن تحت عرش الله وأمّا الأرواح الشريرة فتقدّمها الملائكة إلى السماء ولكنّها تطرد منها لمكرها وشرها فتُعاد إلى الأرض حيث تُرفض كذلك فتُحمل إلى سابع أرض وتُطرح في السجن تحت صخرة خضراء أو تحت فك الشيطان - كما ورد في حديث للرسول ﷺ - فتعذّب حتّى تُدعى ثانية لتعود إلى أجسادها .

يعرف المسلوم تقليداً آخر - « السبحة » لإراحة الميت وإسعاده وتستمر السبحة حوالي أربع ساعات . فبعد صلاة « العشاء » تجتمع حلقة من الفقهاء (وقد يصل عددهم إلى الخمسين) في منزل الميت ، فإن لم تتوفر باحة أو حجرة واسعة لاستقبالهم تفرش لهم الحصر أمام المنزل ويحضر أحدهم سبحة مؤلفة من ألف خرزة . ويبدأون السبحة بقراءة « سورة الملك » مردّدين : « الله واحد ». ويُتبعونها « بسورة الفلق » إضافة إلى « سورة الفاتحة » ويقولون : « اللهم بارك على أسعد خلقك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين » (ثلاث مرات) ويضيفون : « كل الذين يذكرونك هم المتنبهون الواعون والذين يغفلون عن ذكرك هم المهملون الناسون » ويطفقون يرددون ثلاثة آلاف مرة « لا إله إلاّ الله » - ويمسك أحدهم السبحة ويحسب عدد المرات بعدّ خرزات سبحته التي يمرّرها بين أصابعه ويرتاحون أحياناً بعد تكرار التوحيد ألف مرة ويرتشفون القهوة . وعندما ينتهون من الألف الأخيرة ويرتاحون يردّدون مئة مرة : « سبحان الله وبحمده ». ويتبعونها بنفس عدد المرات « أستغفر الله العظيم » ثم يقولون خمسين مرة : « سبحان الحي الذي لا يموت ». ويستقون من آيات كتاب الله : « سبحان ربك رب العزّة عمّا يصفون وسلام على المُرسلين والحمد لله ربّ العالمين ». (سورة الصافات / ١٨٠ - ١٨١ - ١٨٢) بعد ذلك يقرأ اثنان (أو أكثر) منهم « عُشراً » من القرآن - أي نحو ثلاث آيات من القرآن . وعندما يختمون العُشر يسأل أحدهما صاحبه : « هل نقلت ما قرأته إلى روح الميت ؟» فيجيبه : « لقد نقلناه » ويضيف : « وسلام على المرسلين ». وتنتهي هكذا « السبحة » التي تتكرر في الليلتين الثانية والثالة في منازل الأغنياء . وتُقام السبحة في منزل العائلة عند معرفتها بموت أحد أقربائها .

لا يبدّل الرجال لباسهم للدلالة على حزنهم ولا النساء عند موت رجل متقدم في السن إلاّ إنهن يلبسن ثوب الحداد عند موت غيره . فيقمن بتحنية

= واعتقد شخصياً أن الرأي المتعلق ببئر حضرموت ما يزال سائداً بين المسلمين المحدثين .

قمصانهن وأغطية رؤوسهن ومناديلهن بصبغ أزرق داكن وتحني أخريات أيديهن وأذرعهن بالحناء عينه حتى المرفقين ويلطّخن جدران الغرف . وعند وفاة رب المنزل أو صاحب الأثاث أو في حالات أخرى يقلبن السجاد والحصر والوسادات وغطاء الديوان رأساً على عقب . وتترك النساء شعرهن طوال فترة الحداد منسدلاً فلا يجدلنه ويستغنين عن التزين ببعض حلاهن ويستخدمن بيبات القصب عند التدخين .

تعود نساء عائلة الميت إلى الولولة والندب ثانية قبيل انقضاء أول خميس بعد الدفن ويبدأنه أحياناً باكراً صبيحة ذلك اليوم ويشاركهن الندب بعض صديقات العائلة ؛ ويقوم أصدقاء الميت في فترة بعد ظهر ذلك اليوم أو في المساء بزيارة منزله ويقوم أربعة فقهاء بإتمام ختمة لكتاب الله العزيز . وتتوجه النساء نهار الجمعة إلى القبر فيشهدن التقاليد عينها التي وصفتها في حديثي عن العيدين في القسم الثاني من فصل الإحتفالات الشعبية ؛ فيأخذن سعفة نخل ويكسرنها ويضعنها على القبر إضافة إلى بعض الحلوى والخبز يوزّعنه على الفقراء . وتتكرر هذه التقاليد في الأسبوعين التاليين في الأيام نفسها ويومي الخميس والجمعة اللذين يختمان أو يعقبان فترة الأربعين الأولى التالية للدفن ؛ ويعرف نهار الجمعة بالأربعين أو « بجمعة الأربعين » .

ومن العادات المنتشرة بين فلاحي الصعيد (مصر العليا) أن تلتقي قريبات المتوفى وبعض صديقاتهن على مقربة من منزله في الأيام الثلاثة الأولى بعد إتمام مراسم الدفن فيندبن ويؤدين رقصة غريبة . كما يلطخن وجوههن وصدورهن وقسماً من أثوابهن بالوحل ويتمنطقن بحبل يلففنه حول خصورهن مصنوع من « الحَلْفَة » وهو نوع من النبات محددة أطرافه يصنعون من أوراقه حصراً وحبالاً وتحمل الواحدة من هؤلاء النساء سعفة نخل بيدها أو نبوتاً أو سيفاً فترقص بخطى بطيئة وبشكل غير انتظامي وترفع جسدها وتخفضه في كل مرة . ويستمر هذا الرقص نحو الساعة ويتم مرتين أو ثلاث خلال اليوم وتزور النساء القبر عند انقضاء اليوم الثالث فيضعن فوقه « حَلْفَاتهن » وينحرن خروفاً أو ماعزاً ويقمن وليمة بهذه المناسبة .

وأختم عرضي لعادات مسلمي مصر وتقاليدهم في مختلف مراحل حياتهم وظروفهم من المهد إلى اللحد كما قد يختمها أحد مؤلفيهم « بالشكر والحمد له وحده الحي الباقي »

الفصل التاسع والعشرون

الأقـــباط

تثير شهرة هذه الأمة العظيمة التي يستقي منها الأقباط جذورهم اهتماماً كبيراً في نفوسنا يدفعنا إلى الغوص في أعماق هذا الشعب خاصة المطّلع منّا على آثار مصر القديمة البالغة الروعة والجمال ؛ لكن المقت الكبير الذي يكنه الأقباط ـ على غرار أسلافهم المشهورين ـ لكل من لا ينتمي إلى مجموعتهم والتحفظ الشديد الذي يبدونه حيال محاولة الاختلاط بعائلاتهم دفع بي إلى حافة اليأس من إمكانية التبصر في حالتهم الإجتماعية والخلقية والدينية . وتوصلت لحسن طالعي بعد طول أناة إلى توطيد عرى الصداقة مع شخصية قبطية تشككت في وجودها ـ هو قبطي متحرّر الفكر خفيف القلب يعود إليه كل الفضل في سرد الوقائع عن الأقباط في صفحات هذا الفصل

يشكل الأقباط اليوم نسبة تقل عن ١/١٤ من مجموع السكان في مصر فلا يزيد عددهم عن مئة وخمسين ألف نسمة . يعيش حوالي عشرة آلاف منهم في العاصمة ويتوطدون في بعض قرى منطقة الصعيد خاصة منطقة الفيّوم . وتؤكد لنا آثار الأديرة والكنائس المنتشرة في أرجاء مصر أن الأقباط كانوا يشكلون أعداداً هائلة منذ بضعة قرون ؛ بيد أن الكثيرين منهم دخلوا في دين الإسلام وتزاوجوا مع المسلمين ممّا أدى إلى تقلص عدد الأقباط المسيحيين الأقحاح فباتوا لا يشكلون اليوم سوى نسبة ضئيلة .

يتحدر الأقباط دون شك من قدامى المصريين لكنّهم لا يشكلون سلالة

صافية بفعل تزواج أسلافهم في أول عهود المسيحية مع اليونانيين والنوبيين والحبشيين وكثير غيرهم من الغرباء . والصحيح في لفظ اسمهم هو « القُبط » أو « القِبط » والشائع لفظ الكلمة على نحو Gubt أو Gibt ؛ كما يسقط سكان القاهرة وجوارها حرف القاف في لهجتهم العامية فتسمعهم يتحدثون عن Ubt أو Ibt . أمّا واحد الأقباط « قِبطي ، قُبطي ، Ubtee, Gibtee, Gebtee » أو Ubtee » وتتشابه هذه الألفاظ مجموعة تشابهاً كبيراً مع العبارة اليونانية القديمة والاعتقاد السائد أن عبارة « قُبط » Kubt مشتقة من Coptos وهي مدينة كبيرة قديمة في مصر العليا تعرف اليوم بـ قُفط Kuft أو Guft لاذت إليها أفواج هائلة من المصريين المسيحيين هرباً من الإضطهاد الذي شهدته طائفتهم خلال فترات حكم العديد من الأباطرة الرومانيين . لم يفقد الأقباط كلّهم لغتهم القديمة التي دوّنوا بها طقوسهم وكتبهم الدينية . لكن اللغة القبطية باتت من اللغات الميتة لا تفهمها سوى القلة القليلة من الأشخاص وحلّت اللغة العربية محلها .

تشدنا في الواقع نقاط التشابه الكبيرة في مميزات الأقباط الشخصية مع المصريين القدماء والبون الشاسع بينهما في الوقت عينه انطلاقاً من رسومات هؤلاء ونقوشهم على مقابرهم وداخل معابدهم . ويسهل تفسير هذا الفرق من خلال تزواج أسلاف الأقباط المحدثين مع الغرباء الذين ذكرتهم آنفاً . أما الأشخاص المشابهين أكثر من غيرهم للمصريين القدماء اليوم فهم النوبيون (أو « النُّوبه ») يليهم الحبشيون ثم الأقباط الذين لا يشابهون مع ذلك بعضهم البعض . لا يختلف الأقباط كثيراً عن عامّة مواطنيهم المسلمين المتحدرين من عرب وأقباط أو « قبط » اعتنقوا الدين الإسلامي فشابهوا الأقباط في سماتهم . يصعب عليّ أحياناً تمييز القبطي عن المصري المسلم إلّا من خلال تقاسيم وجه الأوّل المتجهمة المكتئبة ؛ ويختلط الأمر على المسلمين أنفسهم في تمييز القبطي المعتمر عمامة بيضاء . ويطالعنا تدرج ألوان البشرة نفسها عند القبطي في مختلف مناطق خطوط العرض في البلاد كما عند المسلم ، وهي تتراوح بين اللون الشاحب الضارب إلى الصفرة واللون البرونزي القاتم أو الأسود . وعيون

القبطي واسعة لوزية سوداء دائماً مع حدور بسيط من الأنف صعوداً . والأنف دقيق إلاّ في نهايته حيث يستدير ويتفلطح ، والشفتان ممتلئتان والشعر أسود جعد ؛ وطول القبطي عامة دون الطول الوسط تماماً مثل المصريين القدماء كما تظهر محنّطاتهم ذلك . وترسم نساؤهم من الطبقتين المتوسطة والغنية عيونهن بالكحل كما توشم نساء الطبقات الدنيا وجوههن وأيديهن بعلامات زرقاء على غرار المصريات الأخريات لكنهن يدخلن الصليب في مجموعة حلاههن كما يقوم معظم الأقباط (القبط) بختن أطفالهم الذكور .

يشبه زي الأقباط زي المسلمين المصريين إلاّ أن عمامتهم سوداء أو زرقاء أو تميل إلى اللون الرمادي أو البني الفاتح . ويختارون عامة الألوان المعتمة ويرتدون عباءة من القطن أو قميصاً فضفاضاً فوق ثيابهم ولباسهم الحريري ويتنبهون إلى تمييز أنفسهم في المدن عن المسلمين ، لكنهم لا يتردّدون عامة في اعتمار العمامة الحمراء أو البيضاء في القرى . كذلك يتميز النصارى الباقون واليهود أتباع السلطان التركي عن المسلمين بالطريقة عينها لكن القاعدة لا تشمل الجميع ، فالعديد من الأرمن واليونانيين والنصارى السوريين يعتمرون العمامة البيضاء ويُسمح لأتباع أصحاب النفوذ النصرانيين الأوروبيين أن يحذو حذوهم ويعتمدوا الزي التركي في لباسهم تغطي المرأة القبطية وجهها ليس بين العامة فحسب ولكن في منزلها كذلك في حال وجود رجال غرباء من غير أقربائها فيه وتقوم عازبات الطبقات الدنيا بإسدال الحجاب الأبيض على وجوههن بين العامة وأمّا الحجاب الأسود فغطاء السيدات المتزوجات الوقورات ؛ وقد تلجأ العديدات من القبطيات إلى الغطاء الأبيض حبّاً في الإقتداء بالمسلمات

ينتمي الأقباط إلى المسيحية من الطائفة اليعقوبية والأوطيخية (نسبة إلى « أوطيخا » أو « يوتيخس ») والمونوفيزية والمونوتيلية . وقد أدان مجمع خلقيدونية عقيدتهم في عهد الإمبراطور مارسيون . يعرف الأقباط عامة باليعاقبة وهم أتباع « يعوب البردعي » أسقف الرّها وتنسب إليه طائفة اليعاقبة (وهم

المونوفيزيون السريان) لأنه قضى حياته عاملاً على إقرار البدعة في سورية. أمّا « المَلَكيّون » فهم مسيحيو سورية الذين خضعوا لقرارات المجمع الخلقيدوني وهم في ذلك من جهة الإمبراطور . أدّى إنفصال السواد الأعظم من الأقباط عن الكنيسة الأرثوذوكسية إلى ترسخ عداوة كبيرة بينهم وبين اليونانيين الذين اضطهدوهم ونكّلوا بهم ممّا أدى إلى القطيعة في التزواج معهم . وكانت هذه العداوة أشد وقعاً على الأقباط الذين رحبّوا بالفاتحين العرب لبلادهم واتحدوا معهم لدحر اليونانيين فكان سعيهم مشكوراً لكنّهم خضعوا لحكم أشد . والملفت للنظر أن الحقد الذي يحمله الأقباط المحدثون في قلوبهم لليونانيين وسائر النصارى الذين لا ينتمون إلى طائفتهم أكبر بكثير من حقدهم للمسلمين ؛ ويذهبون إلى حد التأكيد أن القديس مرقس كان أول من بشّر بالإنجيل في مصر ، لذا فهم يعتبرونه بطريرك الإسكندرية الأول . اعتنق النوبيون والحبشيون الديانة المسيحية بعد المصريين مباشرة ثمّ تبنوا المعتقد اليعقوبي تماشياً مع المثل نفسه . بيد أن النوبيين اهتدوا إلى الإسلام ويتفاخرون بعدم وجود نصراني واحد بينهم ؛ وهم شديدو التعصب أكثر من عامة المسلمين بسبب نسبة الجهل المرتفعة السائدة بينهم وما تزال العقيدة اليعقوبية منتشرة في الحبشة .

تشمل الدرجات الكهنوتية في الكنيسة القبطية : البطريرك ومطران الحبشيين والأساقفة وكبار الكهنة والكهنة والشماسين والرهبان .

نبدأ بالبطريرك (أو «البَطْرك») وهو رأس الكنيسة ويحتل كرسي القديس مرقس. يقيم البطريرك في القاهرة ويعرف « ببطريرك الإسكندرية » ويتم اختياره من بين طبقة الرهبان ويلتزم بقوانينهم ومنها عدم زواجه . والبطريرك مجبر على ارتداء الثياب الصوفية بشكل ملاصق لجسده ولكنّها تكون مصنوعة من أجود أنواعه كشالات الكشمير وتخفيها ثياب من أفخر أنواع الحرير والقماش. تتميز القوانين التي هو ملزم بالتقيد بها بصرامتها ، فلا ينام إلاّ لإيقاظه كل ربع ساعة . وقد يُعَيَّن البطرك من قبل سلفه ، ويتم اختياره بالقرعة من بين رهبان « دير أنطونيوس » الواقع في الصحراء الشرقية المصرية بالقرب من خليج البحر

الأحمر الغربي . يحتكم الأساقفة والكهنة الرئيسيون عند انتخاب البطريرك إلى رئيس الدير المذكور الذي يطرح ثمانية أو تسعة أسماء رهبان يعتبرهم مؤهلين لترؤس الكنيسة. تكتب أسماء الرهبان على قطعة ورق منفصلة تطوى على شكل كره صغيرة ثم توضع في الدرج ، ويسحب الراهب ورقة دون أن ينظر إليها ويتم تعيين الشخص الذي يُسحب اسمه بطريركاً وكان الرهبان ينتقون في الماضي صبياً صغيراً لسحب اسم البطريرك لاعتقادهم أن السماء توجه اختياره .

توضع بتصرف البطريرك ملكية مهمة تتضمن خاصة المنازل التي لا يمكن استخدامها إلاّ لأغراض دينية ، وجلّ ما قام به البطاركة المحدثون من أعمال مهمة زيادة ملكيتهم . فإذا أراد قبطي بيع منزله في القاهرة يقوم البطريرك بمناقصة عليه ولا يجرؤ أحد على المزايدة ممّا يدفع صاحب المنزل إلى القبول بعرض البطريرك وإن كان عرضه هذا أقل بكثير من قيمة المنزل الحقيقية .

يعتمر البطريرك والأساقفة عمامة مستديرة الشكل عريضته بالمقارنة مع عمامة الأشخاص الآخرين . وهي تشبه « مُقْلة » العلماء المسلمين لكنّها داكنة اللون كعمامة القبطي من أبناء طائفته .

يعين البطريرك مطران الحبشيين الذي يبقى في منصبه طوال حياته ويعيش في الحبشة .

يتم اختيار الأسقف عامة (كما قيل لي) من بين الرهبان ويلتزم ـ كما البطريرك ـ بقوانينهم. ولا ينص القانون الكنسي على ضرورة أن يكون الأساقفة من الرهبان. إذ كان الرجال غير المتزوجين أو الأرامل يعينون في الماضي للمنصب الأسقفي ويبلغ عدد الأساقفة إثني عشر أسقفاً

يتم اختيار « القُمُّس » من رتبة الكهنة ، وأمّا الكاهن (القسيس) فلا بد أن يكون شمّاساً لا عاهة جسدية له ، لا تقل سنّه عن الثالثة والثلاثين ولم يسبق له أن تزوج أو أنه لم يتزوج إلاّ بإمرأة واحدة بتول قبل أن يصبح قسيساً لأنه يستطيع الزواج من بعد وفاة زوجته ، كذلك غير مسموح لأرملة القسيس الإرتباط بزوج ثان . يمكن أن ينتمي القسيس إلى درجة الرهبان فيكون غير متزوج وهو

يعيش من الصدقات ومن صنيع يديه . يقوم البطريرك أو الأسقف بتعيين القساوسة والشماسين ؛ ويعتمر القساوسة عمامة مؤلفة من عصابة طويلة ضيقة كانت تشكّل عمامة الأقباط في القاهرة منذ عدة سنوات ؛ بيد أن الرغبة في تقليد المسلمين دفعتهم إلى تغيير شكلها .

ينبغي أن يكون الشماس عازباً أو لم يسبق له الزواج إلاّ بامرأة بتول واحدة ؛ فإن أقدم على الزواج ثانية من بتول أو أرملة يفقد منصبه. ويمكن أن ينتمي الشماس إلى درجة الرهبان كما يتضح ذلك مما ذكرته آنفاً

لا بد أن يظهر الراهب أناته وتقواه وآمتناعه بنذر نفسه عن الزواج قبل قبوله في درجة الرهبانية . يؤدي الراهب خدمات وضيعة جهيدة قبل قبوله طوال سنة أو سنة ونصف في أحد الأديرة المنعزلة في الصحراء . ويقوم عادة بجلب الحطب والماء وتنظيف الدير والسهر على راحة الرهبان وينفق كافة ما يملكه (إن كان يملك شيئاً) في شراء الثياب والحاجات الضرورية للرهبان والفقراء عامة ؛ فإن بقي على قراره بالإنتماء إلى السلك الكهنوتي بعد خدمة وافية يصبح راهباً . وتُتلى صلوات الأموات عليه احتفالاً بموته بالنسبة إلى العالم ؛ ويُقال إنّه يتم دفنه عند موته دون الصلاة عليه ولكنني علمتُ أن هذا الكلام ينافي الواقع . يكثر الرهبان والراهبات ويعيشون حياة تقشف ويجبرون على ارتداء الثياب الصوفية . يتميز كل راهب برداء صوفي من اللون الأزرق أو الأسود الداكن يبلغ عرضه حوالي الأربعة إنشات يكون مربوطاً أسفل العمامة ومتدلياً وراء الظهر إلى نحو القدم طولاً تقريباً . ويلبس الرهبان إلى جانب عمامتهم قمصاناً صوفية هي الرداء الوحيد الذي يسترون به أجسادهم ويقتصر طعامهم على وجبتين طوال اليوم تحديداً عند الظهر وفي المساء ؛ وهم لا يأكلون غير العدس إن كانوا يعيشون في دير علماً أن معظم أديرتهم تقع في الصحراء ويأكلون اللحم إن توفّر لهم أيام الأعياد . يبلغ عدد الأديرة والكنائس نحو مئة وأربعة وستين ؛ لكن عدد الأديرة قليل بالمقارنة مع عدد الكنائس .

تعمّد الكنيسة القبطية الذكور في عمر الأربعين يوماً والإناث في عمر

الثمانين يوماً إن كانوا يرفلون صحة. وقد يُعَمَّد الطفل قبلاً إن كان سقيماً وحياته مهددة بالموت ؛ إذ يعتقد الأقباط أن الطفل الذي يموت غير معمَّد يعيش أعمى في الحياة العُقبى ؛ ويكون الأهل من الآثمين فلا يكفّرون عن خطيئتهم إلاّ بالصلاة المستمرة والصوم. يهمل أبناء الطبقات الدنيا الذين يعيشون بعيداً عن الكنيسة أو لهم ظروف أخرى تعميد أطفالهم لمدة سنة كاملة. يتم تغطيس الطفل ثلاث مرات في الماء الذي يكون الكاهن قد وضع فيه قليلاً من الزيت المقدس على إبهامه ويبدأ صلواته باللغة القبطية برمّتها ؛ ويعتقد الأقباط أن الروح القدس تنزل على الطفل خلال العماد. ولا يأخذ الكاهن مالاً مقابل تعميده الطفل إلاّ إن قدّم له أهل المولود المال طوعاً.

ذكرتُ أن الأقباط يختنون ذكورهم وعلمت أن عدداً قليلاً منهم من الذين يعيشون في القاهرة يقوم بعملية الختان في الوقت الذي يلتزم به سائر الأقباط في المناطق الأخرى. يتم ختن الذكر عامة في سن السابعة أو الثامنة دائماً بشكل منفرد. وليس من سن محددة لهذه العملية: إذ يُختن بعض الأقباط في سن الستين في الوقت الذي لا يختن غيرهم قبل سن العشرين. ينظر الأقباط المنوّرون إلى الختان كعادة مستحبة وليس كطقس ديني وهذا ما يرفضه الكاهن. ويبدو من شيوع هذه العادة بين الفلاحين أن هؤلاء يعتبرون الختان أكثر من مجرد طقس مدني ويقول بعضهم إنه تقليد للمسيح الذي خضع لهذا الطقس وهي من العادات القديمة.

يخصص الأقباط عدة مدارس لصبيتهم فحسب وقليل عدد النساء اللواتي يستطعن القراءة بينهم أو اللواتي تلقين تعليماً في منازلهن. يتعلم الصبية مزامير داوود والأناجيل الأربعة والرسائل الإنجيلية باللغة العربية ثم الأناجيل والرسائل الإنجيلية بالقبطية وهم لا يتعلمون اللغة القبطية نحويّاً ؛ وعلمت أن أحداً من بين الأقباط لا يجيد كتابة هذه اللغة أو قراءتها بكل دقة أو سهولة وقليلون هم الأقباط الذين لا يحسنون سوى تكرار ما اختزنته ذاكرتهم من الكتاب المقدس والطقوس الدينية. ولقد بطل استعمال اللغة القبطية تدريجياً منذ الفتح العربي لمصر. ويبدو أن هذه اللغة كانت اللغة الوحيدة طوال قرنين التي فهمها الأقباط

عـامة ؛ ولقـد كفّ معظم سكـان منطقـة الـدلتـا قبـل حلول القـرن العـاشـر عن التداول باللغـة القبطيـة أو حتى مجرد فهمها. ويحدّثنـا « المَقريـزي » أنّ نساء الأقباط وأطفالهن في الصعيد (مصر العليا) آيّامـه (أي نحو نهـاية القـرن الرابـع عشر وأوائل القرن الخامس عشر) كانوا لا يجيدون التحـادث بلغة أخـرى غير لغتهم الأم وهي اللغـة الصعيديـة القبطيـة إلى جانب شمـول معرفتهم بـاللغـة التركية ولكن سرعان ما اضمحلت اللغة االقبطية بعد تلك الفترة في الصعيد كما سبقته إلى ذلك المناطق السفلية فاسحة المجال أمام توطد اللغة العربية . ولا يـزال كافـة الأقباط الـذين تعلمـوا في المـدارس يصلّون في الكنيسـة وفي حلقاتهم الخاصة باللغة القبطية ويقرأون الإنجيـل بها أيضـاً ويقدّم لهم الكهنـة التفسير على ما يقرأونه من الكتب الموضوعة باللغة العربية. كما أن العديد من الكتب التي يستعين بها الكهنة وغيرهم مكتوبة باللغة القبطية في حروف عربية .

تستوقفنا في الواقع الصلوات العـادية التي يؤديهـا الأقباط . ويبـدو أنهم يقلدون فيهـا اليهـود ويشابهون المسلمين. وعلمتُ أن قليلين هم الأقبـاط في القاهرة الذين يؤدون فريضة الصلاة سبع مرات خلال اليوم : الصلاة الأولى عند الفجر ، الثانية في الساعة الثالثة بعده والثالثة في الساعة السادسة والـرابعة في الساعة التاسعة والخامسة في الحادية عشرة والسادسة في الثانية عشرة أي عنـد المغيب والسابعة أخيراً عند منتصف الليل . يقوم المصلون الذين تعلموا القراءة والملتزمون بواجباتهم الـدينية بتـلاوة بعض من مزاميـر داوود (نحو سُبـع سفر المزامير) بـاللغةِ العـربية إضـافة إلى فصـل من أحد الأنـاجيل الأربعـة باللغـة نفسها ، وعند انتهائهم يردّدون سواء بالقبطية أو العـربية : « إرحمنـا يا ربّ ! » إحدى وأربعين مرة. ويستخـدم بعضهم سبحة تضم إحـدى وأربعين خرزة ويعـدّ بعضهم الآخر على أصـابعـه ثم يختمون بصلاة قصيرة بالقبطية . وهم يرددون في صلواتهم السبع اليومية كامل سفر المزامير ؛ وهذه من العادات الصارمة التي تتقيد بها الطبقات المتشددة والمتعلمة في عبادتهم اليومية . ويكتفي الأقباط غير المتعلمين بتكرار صلاة الرب سبغ مرات إضافة إلى : « إرحمنا يا رب ! » إحدى وأربعين مرة . ويعمد أبناء الطبقات المتشددة المتعلمة قبل البدء بالصلاة العامة

أو المنفردة إلى غسل أيديهم ووجوههم وقد يغسل بعضهم أقدامه ؛ وهم يتوجهون دائماً في صلاتهم نحو الشرق . ولكننا نجد أنه رغم المقاربة الكبيرة بين أحكام اليهود والمسلمين ، يختلف الأقباط عن كليهما بأنهم يؤدون صلاتهم بصورة أفضل إنفرادياً منه بين العامة إلاّ خلال الصلاة الجماعية في الكنيسة . ولا ينفكون يرددون إثناء سيرهم أو قيامهم بأي عمل صلواتهم اليومية أو على الأقل الأخيرة والقصيرة منها . وأكاد لا أصدق أن أبناء الطبقات المتعلمة يلجأون إلى الصلاة الطويلة رغم تأكيد العديد من الأشخاص لي هذا الكلام .

تقسم الكنائس الكبيرة إلى أربع أو خمس حجرات. ويحتل « الهيكل » الذي يضم المذبح القسم المركزي الرئيسي من الحجرة عند الطرف العلوي وهو محجوب عن باقي الكنيسة بقاطع ساد أو بجدار من ألواح خشبية زينية يتوسطه باب يشكل مدخل الهيكل وقد أسدِلت ستارة حاجبة ارتسم عليها صليب كبير . تخصص الحجرة الواقعة قبل الهيكل مباشرة للكهنة والصبية الذين يرتلون ويساعدون الكاهن في القداس ويعرف واحدهم «بالقندلفت» كذلك تخصَّص للأفراد المهمين في حشد المصلين . وتكون هذه الغرفة مفصولة عن الحجرة التي تسبقها مباشرة بفاصل خشبي يرتفع نحو تسع أقدام ويتألف من ثلاثة أبواب أو له باب واحد في الوسط . ويجلس باقي جمع المصلين في الحجرة المجاورة أو قد يتخذون لأنفسهم أماكن في حجرتين مجاورتين . تخصص الحجرة السفلية للنساء وهي مفصولة بواسطة قاطع خشبي زيني لحجبهن تماماً عن الرجال . وتزين صور القديسين المبهرجة والتي تنمّ عن ذوق سقيم جدران الكنيسة خاصة شفيعها وتقتصر الصور على هؤلاء القديسين وما عداها مرفوض ؛ وتكون أرض الكنيسة مغطاة بالحصر :

يخلع المصلي القبطي حذاءه عند دخوله الكنيسة ويحتفظ بعمامته . ويتجه أولاً إلى باب الهيكل ويسجد أمامه فيقبّل حاشية ستارته ثم يسجد ثانية أو ينحني قليلاً ويسلّم بيده أمام أحد صور القديسين ويقبّل أحياناً يد الكاهن المترئس القداس في الحجرة المجاورة للهيكل . ينفرد كل فرد من حشد المصلين بدعامة ترتفع نحو خمس أقدام يتكيء عليها عند وقوفه خلال القسم

الأكبر من الخدمة . وتستمر الخدمة (مع تناول القربان المقدس) بين ثلاث وأربع ساعات وهي تبدأ عادة عند الفجر .

يرتدي الكهنة الذين يرأسون القداس في الهيكل ثياباً أنيقة بينما يكتفي الباقون بلباسهم العادي . يجري القداس داخل الهيكل باللغة القبطية ولا يسمح باستعمال لغة أخرى عند المحراب. يقوم الكهنة خارجاً الواقفين في مواجهة باب الهيكل بقراءة التفسيرات والمواعظ وتلاوتها بالعربية والقبطية . لا يسمح للكاهن بالجلوس طوال قراءته القداس ؛ وتستغرق القراءة وقتاً طويلاً فيتوقف دقائق معدودة ويجلس ليرتاح، وتُضرب الصناجات ذات الأحجام المختلفة في هذه المناسبة طوال فترة جلوسه . وقد يخرج الكاهن عدة مرات من الهيكل حاملاً مبخرته التي يحترق فيها البخور ويطوف بها بين حشد المصلين فيباركهم واحداً واحداً ويجعل يده فوق يد الشخص المبارَك . ولمّا ينتهي من مباركة الرجال يدخل إلى حجرة النساء لإحلال بركاته . ويتم غالباً إقامة القربان المقدس لعشاء الرب داخل الكنيسة القبطية . ويغمّس الخبز المقطع إلى دوائر صغيرة والمسحوق قليلاً في أعلاه في النبيذ ويقدّم إلى حشد المصلين ثم يوزع بين رجال الكهنوت بالترتيب الذين يحظون بقطع أكبر من المصلين العاديين والمخولين وحدهم شرب النبيذ ؛ وأخيراً يتقدّم كل واحد من المصلين إلى باب الهيكل للحصول على حصته .

يُتّهم الكهنة وغيرهم غالباً بالمغالاة في خروجهم عن الإحتشام واللياقة أثناء صلواتهم العامة ولقد سمعت كاهناً واقفاً أمام باب المحراب في الكنيسة البطريركية في القاهرة يصرخ في وجه قندلفت صغير (كان يساعده بصورة خرقاء على ما أظن) : « إن شاء الله الوجع يأكل قلبك ! » كما شاهد أحد أصدقائي في المكان عينه اهتياجاً واضطراباً : إذ قام أحد رجال الكهنوت المعينون في الكنيسة بشتم كاهن حضر من إحدى القرى للمشاركة في القداس وطرده بالقوة ؛ فأسرع العديد من المصلين نحو باب الهيكل وراحوا يكيلون الشتائم واللعنات ويضربون بالعصي بعضهم بعضاً وهابني عدم اتّصاف القدّاس نفسه بالجلال رغم مقاربته الكبيرة للكنيسة المسيحية الأولى .

يقوم سائر أبناء الكنيسة القبطية بالاعتراف الذي لا بد منه قبل الحصول على قربان عشاء الرب المقدس . يعترف كل قبطي عادة إلى الكاهن نفسه ويكفّر المعترف عن ذنوبه برسمه إشارة الصليب عدة مرات والتضرع إلى الرب مكرّراً في كل تضرع صلاة الرب : « ارحمني يا رب ! »

يعرف الأقباط فترات صوم طويلة وقاسية. فهم يصومون قبل الصوم الكبير بأسبوع ثلاثة أيام تخليداً «لصوم نينوى» كما وردت في نبوءة يونان. يعمد بعض الأقباط إلى الامتناع عن المأكل والمشرب طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالي في الوقت الذي يصوم بعضهم الآخر هذه المدة كما أيام الصوم الأخرى .

يُعرَف صوم الأقباط الأساسي « بالصوم الكبير » وكانت حدّدت أيامه في البدء بأربعين يوماً ؛ بيد أن بعض البطاركة عمدوا إلى إطالة فترة الصوم إلى خمسة وخمسين يوماً ينقطع الصائمون خلال هذه الفترة بأستثناء يومين عن تناول اللحوم كافة والبيض والحليب والزبدة والجبن ويكتفون بأكل الخبز والخضار (خاصة الحبوب) المطبوخة بالزيت الحلو أو بزيت السمسم و « الدّقة ». وتفتح الكنائس أبوابها وتقيم قدّاساً في كل يوم من أيام الصوم ؛ ولا يأكل الأقباط شيئاً بعد تناولهم طعام العشاء إلى ما بعد الصلوات الكنسيّة في اليوم التالي قبيل الظهر ؛ لكنهم لا يفعلون ذلك أيام الصوم الأخرى .

كذلك يعرف الأقباط فترات صوم ثلاث أخرى مشابهة في صرامتها : ١ ـ « صوم الميلاد » ومدته ثمانية وعشرين يوماً تسبق الإحتفال بعد الميلاد مباشرة أي طوال شهر « كيهك » بأستثناء آخر يومين ؛ ٢ ـ « صوم الرُسل » وهي الفترة الممتدة بين عيد الصعود والخامس من شهر « أبيب »؛ وهم يصومون تخليداً لصوم الرسل بعد حرمانهم من ربهم ؛ ٣ ـ « صوم العذراء » ومدّته خمسة عشر يوماً قبل إنتقال السيدة العذراء .

يصوم الأقباط كذلك كل يوم أربعاء وجمعة على مدار السنة ما عدا خلال الخمسين يوماً التي تلي الصوم الكبير مباشرة ـ أي من انتهاء الصوم الكبير حتى انتهاء « الخماسين » ويكتفون في أيام الأربعاء والجمعة التي يصومونها بأكل السمك والخضار والزيت .

يلي كـل فترة صـوم احتفال ويعـرف الأقبـاط سبعـة أعيـاد : ١ ـ « عيـد الميلاد » في التاسع والعشرين من شهر كيهك (السادس أو السابع من يناير) ؛ ٢ ـ « عيد الغطاس » في الحادي عشر من شهر «طوبه » (الثامن عشر أو التاسع عشـر من ينايـر) تخليـداً لعمـاد المسيـح ؛ ٣ ـ « عيـد البشـارة » في التـاسـع والعشرين من شهر « برمهات » (السادس من إبريل) ٤ ـ « عيد الشعانين » (أو « أحد السّعف ») في يوم الأحد السابق للفصح مباشرة ، ٥ ـ « عيد القيامة » أو « العيد الكبير »؛ ٦ ـ « عيد الصعود »؛ ٧ ـ « عيد العَنْصرة » . وتُقـام الصلوات في الكنـائس في العيـد الأول والثـاني والخـامس في الليلة التي تسبق يـوم الإحتفال . ويرتدي الأقباط في كل هذه الأعياد ثياباً جديدة (أو أفضل ثيابهم) ويحتفلون بالعيد ويعطون الصدقات .

يقيم كافة الأقباط بمناسبة « ليلة الغطاس » آحتفالاً فريـداً ؛ بيد أن هـذا الإحتفال لا يشمل اليوم سوى القلة القليلة منهم المقيمين في العاصمة بعكس الأقباط في سائر المناطق الأخرى ويقتصر الإحتفال بالغطاس على الرجال. ويبادر الرجال آحتفالاً بعماد المَسيح ـ صغاراً وكباراً ـ إلى الغطس في المـاء ؛ ويقول المسلمون إنه في الوقت الذي يغطس فيه أحدهم يصرخ الثاني : « إغطس كما غطس والدك وجدّك وآمحِ الإسلام من قلبك ». يتوفر في بعض الكنائس حوض كبير مخصص لمثل هذه المناسبة ويقوم الكـاهن بمباركـة الماء أولاً ؛ والعـادة الشـائعة بين الأقبـاط الإحتفال بهـذه المنـاسبـة في النهـر وسكب بعض المـاء المقدس من الكنيسة فيه قبل العطس (ويعتبرون هذه الطريقة الإحتفالية تسلية أكثر منها طقساً دينياً) . وكان العيد مناسبة آحتفال كبير بين أقباط العاصمة : إذ كان النيل يعج بالمراكب وكانت الخيم تنصب والمشاعل تُضاء على ضفافـه . والصلوات ترفع في الكنائس عشية الإحتفال : فيبارك الكـاهن الماء في جـرن المعمـودية ثم يـطوي فوطـة ويبلّل طرف منـديل بـالماء المقـدس ويمسح (أو بالأحرى يلمس) به أقدام كل المصلين المحتشدين ـ كذلك يُقام هذا الإحتفال الأخيـر في يوم الخميس السـابق للفصح مبـاشـرة ويُعـرف « بخميس العهـد »

(لذكرى غسل المسيح أرجل الحواريين) وفي عيد الرسل في الخامس من شهر أبيب (أو الحادي عشر من يوليو) .

يـأكل الأقبـاط السمك في احتفـالات عيدي البشـارة والشعـانين ، ويتلو الكهنـة في الشعانين صلاة الأمـوات على جموع المصلين في الـكنيسـة وفي حال وافت المنية أحدهم بين هذا اليوم ونهاية الخماسين (وهو أكثر الأيام سوءاً في موسم الطاعون) يُدفن دون الحاجة إلى تكـرار الصلاة عليـه وتعود هـذه العادة إلى استحالة الصلاة على قبر كل ضحية من ضحايـا الطاعـون ولا بد أن تأثيرها بالغ على الأشخاص الذين يتوقعون حلول هذا الوباء المميت .

يعرف الأقباط احتفالات ثانوية هي « خميس العهد » (وقد ذكرته آنفاً) و« سبت النور » وهو السبت الذي يلي الخميس عندما ظهر نور عجائبي في القبر المقدس في أورشليم و « عيد الرسل » (مـذكور آنفـاً) و « عيد الصليب » في السابع عشـر من شهر « تـوت » (السادس والعشـرين أو السابـع والعشرين من سبتمبر) .

يقصـد كل من آستـطاع من الأقباط القـدس لأداء فريضـة الحج ، لكن قليلين من أبناء الطبقات الفقيرة يؤدون هذا الواجب عليهم . ينطلق الحجاج في قافلة كبيرة ويمضون أسبوع الآلام وعيد الفصح في القدس ويتوجهون في اليوم الثالث بعد أسبوع الآلام إلى نهر الأردن حيث يستحمون

يمتنع الأقباط كلّهم عن أكل لحم الخنزير ولا يعود امتناعهم إلى تحريمه ولكن ـ كما يقولون ـ بسبب قذارة هذا الحيوان . ويُعزى امتناعهم أغلب الظن إلى أسلافهم الأوثان . وهم يأكلون لحم الخنزير البري ويحرّمون بالمقابل تناول لحم الجمل ولا يوردون سبباً وجيهاً لتحريمه على الأرجـح سوى أن المسلمين يأكلونه ويمتنع الأقباط عن أكل لحم الحيوانـات المخنوقـة وعن الدم تـطبيقاً لأوامر الرسل الموجهة إلى المهتدين (أنظر أعمال الرسل/الفصل الخامس عشر / ٢٠ ـ ٢٩).

يدفع الأقباط البالغون من الذكور « الجزية » إلى جانب « الفِرْضة » التي

يدفعونها مع سكان مصر المسلمين . والجزية ثلاثة أنواع : يدفع كل واحد من أبناء الطبقة الميسورة في القاهرة وغيرها من المدن الكبيرة ثلاثة وستين قرشاً؛ ويدفع أبناء الطبقة المتوسطة ثمانية عشر قرشاً وأمّا الطبقة الأكثر فقراً فلا تتعدى الجزية التسعة قروش ؛ ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الضريبة تُحسب في مصر حسب العائلات وليس حسب الأفراد . لا تختلف الفرضة بين الأقباط والمسلمين ـ وهي تشكل الجزء الثاني عشر من راتب الرجل السنوي أو ربحه إذا كان احتساب ذلك مؤكداً.

يحظى الأقباط اليوم بمرتبة عالية تختلف عن وضعهم في الماضي عندما كانوا مكروهين وفي مراتب وضيعة ، وقد وصل بعضهم إلى مصاف البكوات فاستحق الواحد منهم لقب البيه . ولم يكن مسموحاً للأقباط أو غيرهم من النصارى الشرقيين أو اليهود قبل وصول «محمد علي» إلى السلطة بامتطاء الأحصنة في مصر ، لكن هذا الخطر رُفع في السنوات الماضية . ولم يمضِ وقت طويل حتى اشتكى مسلمو دمشق المشهورون بتعصبهم وتشددهم إلى الفاتح إبراهيم باشا للسماح للنصارى في مدينتهم بامتطاء الأحصنة ـ وتذرعوا متحمسين متقدين بأنّه ما عاد المسلمون يتمتعون بحظوة تمايزهم عن الكافرين . وأتاهم جواب الباشا : « دعوا المسلمين يستمرون في تفاخرهم على النصارى إن هم رغبوا في ذلك ـ دعوهم يركبون الجمال في الشوارع فلا يحذو النصارى حذوهم » . يتمتع الأقباط بحصانة يحسدهم عليها معظم المسلمين : فهم لا يؤدون الخدمة العسكرية ؛ إذ أنّ الأمير المسلم لن يكرّم النصراني فيقوده لخوض الحرب ضد أعداء المسلمين .

تتميز عادات الأقباط العائلية اليومية بأنّها شرقية في الصميم تشابه عادات مواطنيهم المسلمين . فهم يمضون ساعات فراغهم الطويلة يتمتعون بتدخين البيبة وارتشاف القهوة. كما لا تختلف وجبات طعامهم ولا طريقتهم في الأكل عن المسلمين ، ولكنهم يفرطون في انغماسهم في شرب الخمر طوال ساعات النهار .

لا تسمح الكنيسة للأقباط بالزواج بأشخاص من خارج طائفتهم ومذهبهم

وحالات التزواج نادرة . فإذا رغب القبطي في إبرام مثل عقد الزواج هذا الذي يجعله منبوذاً في عيون المتشددين من أبناء طائفته، يتوجه عادة إلى كاهن الطائفة التي تنتمي إليها زوجته ؛ وفي حال رفض طلبه ـ وهـذا ما يحصـل عادة إلاّ إن وافق الرجل على تبني معتقد زوجته ـ يُزوجه القاضي بواسط عقد مدني . ولمّا كانت الكنيسة لا تعترف بمثل هذا الزواج ، فيمكن حلّه في أي وقت .

إذا رغب القبطي بالزواج حسب العادات والأعراف الشائعة ؛ يلجأ ـ كما المسلم ـ إلى إحدى قريباته أو غيرها من النساء لتبحث له عن شريكه حياة مناسبة . وتمنعه التقاليد من إلقاء نظرة على قسمات محيًا زوجة المستقبل إلاّ في حالات نادرة أو كانت الفتاة قاصراً فيعيِّن أبوها أو أمها أو أقرب أقربائها من الذكور وكيلاً عنها لإجراء ترتيبات الزواج اللازمة ؛ وإن كانت راشدة ولم يكن لها أب أو أم فتعيِّن وكيلها بنفسها كما أن للعريس وكيله الخاص . يرتب الفريقان عقد الزواج ويناقشان أمور منزلية خاصة بحضور الكاهن . ويدفع العريس ثلثي المهر مقدماً في هذه المناسبة ويحتفظ بالثلث الباقي . فإن مات زوجها تطالب الزوجة بباقي المهر من ملكيته ؛ وفي حال وفاتها قبله يطالب أنسباؤها بهذه الحصة عند موتها . ولمّا ينتهي الطرفان من إبرام عقد الزواج يردّد كل الحاضرين صلاة الرب ثلاث مرات على أن يبدأ الكاهن هذه الصلاة .

تستمر احتفالات الزواج بين الطبقتين الميسورة والمتوسطة إن كانت العروس بتولاً طيلة ثمانية أيام . ويعرّفون مدة الإحتفالات بعبارة fête الفرنسية تعبيراً عن طولها وأفراحها

يعتبر الأقباط الليلة السابقة ليوم الأحد (والتي يعرّفونها ـ كما المسلمين ـ بليلة الأحد) أكثر أيام الأسبوع ملاءمة لإتمام مراسم الزواج ؛ ويتزوج معظم الأقباط في تلك الليلة. وتبدأ احتفالات الزواج يوم الثلاثاء السابق عندما يقوم كلّ من العريس وأهل العروس بدعوة أصدقائهما . ويلفت انتباهنا في الإحتفالات التي تقام بهذه المناسبة وفي الأيام التي تعقب احتفالات الزواج تقليد غريب يذكرنا بتقليد عرفه الرومان. إذ يعدّ الطباخ كرتين مجوّفتين من السكر ويجعل ثقباً

في كعب كل واحدة منهما ، ثم يأخذ حمامتين حيّتين ويربط الأجراس إلى جناحيهما ويدور بهما دوراناً سريعاً في الهواء حتّى تصاب الحمامتان المسكينتان بدوار فيضعهما في الكرتين المذكورتين ويضع كل واحدة في الكرتين فوق طبق ويقدمهما للضيوف . وعندما تستفيق الحمامتان من دورانهما يقوم بعضهم بكسر الكرتين فتطير الحمامتان في الغرفة وهما ترنّان بأجراسهما الصغيرة ؛ فإن لم تحلّقا على الفور ، يدفعهم بعض الحاضرين إلى الإرتفاع وإلّا تطايروا شراً من عدم تحليقهما . وتشنف الموسيقى آذان الحاضرين عادة في ليالي هذه الإحتفالات ويمضي الأربعاء في تحضير لوازم العرس والإحتفالات

تتوجه العروس في بعد ظهر نهار الخميس إلى الحمّام يرافقها لفيف من قريباتها وصديقاتها وتصحب الموسيقى خطواتها ولكنها لا تسير تحت الظلة ولا يُستثنى يوم الجمعة من التحضيرات للعرس وهو اليوم المخصص لتحنية العروس .

ترسل عائلة العرس صباح يوم السبت مجموعتي ثياب للعريس والعروس تضمّان الأغراض نفسها (خاصة قميصاً من الحرير والقطن وسروالين وشريطاً مطرزاً للسراويل ومنديلين مطرّزين بالذهب مع كيس تبغ مزخرف بالطريقة عينها) إلى بيت العريس . وتتوجه سيدة عجوز من عائلة العروس إلى منزل العريس للإشراف على التحضيرات ويصحب الإشبين وعدد من أصدقائه العريس إلى الحمام

وفي الليلة التالية بعد حوالي الساعتين من المغيب تنطلق العروس بصحبة صديقاتها وقريباتها إلى منزل العريس يحيط بها المزيكاتيون من كل جانب ويحمل لها العديد من الأشخاص المشاعل والشموع . وتشابه زفة الأقباط زفة العروس المسلمة ، والفرق الوحيد عدم سير عروس الأقباط تحت الظلة . وتظلّل العروس بشال مزدان بحلى مثبتة إلى الجزء الذي يغطي وجهها ورأسها إضافة إلى قطع معدنية تزين جزء الشال الذي يغطي صدرها . يسير موكب العروس سيراً بطيئاً يستمر نحو الساعتين . ويكرّم العريس ضيوفه في منزله

فيذبح على شرفهم عجلاً أو خروفاً في تلك الليلة أمام باب المنزل لتخطو العروس فوق دمه . ولا يقتصر هذا النوع من الإحتفال على القاهرة بل يشمل العديد من المدن الكبيرة .

ترتاح العروس ومن معها حوالي الساعتين في منزل العريس فيشربون المرطبات وينطلقون بعدها إلى الكنيسة . أما العريس فيتوجه إلى الكنيسة مع أصدقائه مشكلاً فريقاً آخر دون أن تصحبه الموسيقى . وترفع الصلوات الطويلة في الكنيسة حيث يجلس الرجال والنساء في صفوف متفرقة يليها قربان الرب المقدس ويتناول الكاهن الخاتمين ويباركهما ويعيدهما ثم يتوّج رأس العروسين بإكليلين أثناء الصلاة ويسدل وشاحاً فوق كتف العريس ويُعرف هذا الإحتفال بالتكليل . يعود الإكليلان إلى الكنيسة ينزعهما العروسان عن رأسيهما قبل مغادرتهما الكنيسة ؛ وقد ينطلق العريس واضعاً الوشاح إلى منزله حيث يقوم أحد الكهنة بانتزاعه. يترأس البطريرك عادة أعراس الطبقة الغنية في العاصمة. وتستمر الإحتفالات في الكنيسة عامة حتى قبيل انبلاج الفجر ؛ بعد ذلك يعود الفريقان (أهل العريس وأهل العروس) إلى منزل العريس . وانطلاقاً من احترامهما للقربان المقدس الذي ربط حياتهما بنعمة الزواج المقدسة يحافظ العروسان على تعهد ديني قطعاه فلا يقربان من بعضهما البعض حتى الليلة التالية (التي تسبق الإثنين) أو حتى بعيد انسدال الليل .

يقيم والد العروس حفل عشاء في منزل العريس نهار الإثنين فتتصدر المائدة أطباق الأرز والحليب والطيور المسلوقة . وبعد العشاء ينطلق العريس وأشبينه لدعوة أصدقائه إلى مأدبة كبيرة في الليلة التالية تكون خاتمة احتفالات الزواج .

تلك هي الإحتفالات التي تشهدها عامة زيجات البتولات القبطيات . وقد يقنع البطريرك أو الأسقف أو الكاهن المسؤول عن إتمام العرس الفريقين بعدم إنفاق أموالهما في الزفة وإقامة المآدب المتكررة بل تخصيصها لإسعاف الفقراء ورجال الكهنة ، فيتم إبرام الزواج ببساطة في حلقة خاصة . أمّا الأرملة فلا

بهرجة أو زينة أو زفة في عرسها بعكس البتول من بنات الطبقة الفقيرة التي تكلّل أحياناً بزفة؛ ولكنّها تتوجه إلى الحمام مع بعض صديقاتها وقريباتهـا اللواتي يعبّرن عن فرحتهن بإطلاق الزغاريد على نغمات الآلات الموسيقية. وتتوجه إلى منزل العريس حيث يزوجها الكاهن علماً أن نفقات إضاءة الكنيسة تحضّراً للعرس تقع على عاتق العريس . وقد يتزوج بعض الأقباط الذين لا يملكون الجاه والمـال بطريقة أكثر بساطة من الطريقة السابقة وينبغي على العزوسين الحصول على إذن للزواج من البطريرك نفسه حتى يقوم أحد رجال الكهنوت من طائفتهما بتزويجهما ولا يقبل هذا الشخص الطامع بإعطائهما إذن الزواج بأقل من مئة قرش وقد يطلب منهما مبلغاً مماثلاً من الريالات (ويساوي كل ريال قرشين وربع القرش). وهكذا يلجأ الفريقان إلى القاضي الذي يعطيهما الإذن فلا يدفعان له أكثر من قرشين .

وإذا التزمت العروس بقواعد الآداب أو « الإتيكيت » فلا تخرج من المنزل حتى لزيارة عائلتها إلى أن تضع مولودها الأول أو حتى انقضاء عام على زواجها في حال لم تظهر على بوادر الحمل ويزورها والدها ووالدتها عادة بعد فترة احتباسها هذه

لا يتم الطلاق عادة إلا إذا ثبتت حالة الزنا على الزوجة . وقد ينفصل الزوجان إن ارتكبت الزوجة سرقة أو جريمة شائنة ؛ ولكن لا يسمح لأي منهما عند الإنفصال بالزواج ثانية علماً أن باستطاعتهما الرجوع إلى بعضهما البعض .

والملفت في طبائع الأقباط تعصّبهم الشديد وهم يبغضون سائر النصارى بغضاً كبيراً قد يفوق المقت الذي يكنّه المسلمون لغير المهتدين إلى الإسلام ويعتبرهم المسلمون أكثر اقتراباً إلى دينهم من النصارى، ولا أطلق كلامي على عواهنه إذ أن العديد منهم اهتدوا إلى دين الإسلام في فترات تاريخية معروفة ـ وإن ليس دائماً ـ نتيجة للإضطهاد الذي لحق بهم والأقباط عنيدون في طبائعهم عامة شديدو البخل مراؤون مقيتون ومتملقون مستبدون حسب الظروف . وأعزو هذا الوصف إلى صديقي القبطي الذي أمدّني بالمعلومات

الـوافية عن عـادات أبناء طـائفته . ويعتـرف صديقي القبـطي بـأنهم جـاهلون مخادعون خائنون لاهثون وراء المكاسب الدنيوية وملذاتها ؛ وهو يعتبر البطريرك (أو « البطرك ») طاغياً ومحرّضاً على الإدلاء بشهادات كاذبة. وقد أكد لي رؤية الكهنـة والرهبـان في القاهـرة يتوسلون كـل مساء ويـدقون أبـواب منازل أبنـاء أبرشيتهم ومعارفهم فيسألونهم إقراضهم أموالاً لا يعيدون دفعها قط وهم يؤمّنون زجاجات النبيذ ـ إن كان ممكناً ـ حيثما يحطّون الرّحال .

يعمل بعض الأقباط كـأمناء سـر أو محاسبين وتعـرف كل قـرية متـوسطة المساحة « معلّمـاً » يحفظ سجل الضـرائب . تختلف كتابـة الأقباط عن كتـابة المسلمين والنصارى المقيمين في مصر ، ومعظمهم في القاهـرة محاسبـون أو تجار. يُستخدم المحاسبون الأقباط في مكاتب الحكومة، أمّا التجار فهم صـائغو ذهب وفضـة ومهنـدسـون وبنـاؤون ونجـارون وهـم أكثـر مهـارة من المسلمين أمثـالهم . ويشتغـل الأقبـاط في القـرى ـ كمـا الفلاحين المسلمين في أعمـال الزراعة .

تشبه مـراسم الجنازة عند الأقبـاط كثيراً مـراسـم الجنازة عنـد المسلمين ـ ينقل الجثمان في تابوت إلى مثواه الأخير وتمشي وراءه النساء يتنحبن ويولولن كمـا المسلمات في هـذه المناسبـة دون أن يسبقهن المـرتلون . ويستـأجـرون الناحبات الباكيات للندب في منزل الميت طوال ثلاثة أيام في موته (وإن كانت هـذه العادة مستهجنـة وهي من عادات الأوثـان) ؛ ويعـدن ذرف دمـوعهن في اليومين السابع والرابع عشر بعد موته وأحياناً بعد عـدة أسابيـع . يزور الأقبـاط رجالاً ونساءاً أضرحة موتاهم بصـورة منتظمـة ثلاث مـرات في السـنة تحـديداً في عيد الميلاد وعيد الغطاس وعيد القيامة فيتوجهون إلى المدفن عشية كل عيد من هـذه الأعياد حيث يمضـون ليلتهم وهم يملكون منـازل خاصـة بهم في المـدافن لاستقبالهم في مثل هذه المناسبات ؛ وتمضي النساء ليلتهن في حجرات المنزل العلوية والرجال في الحجرات السفلية . ويذبحون في اليوم التالي جامـوساً أو خروفاً إن كانت إمكانياتهم المادية تسمح لهم بذلك، فيـوزّعون لحم الأضحيـة والخبز على الفقراء والمساكين الذين يتجمعون أو يكتفون بـالخبز وحـده . ولا

يمكن اعتبار هذا العمل الذي يشبه « الكفّارة » التي يقدّمها المسلمون عند دفن موتاهم تكفيراً عن خطايا ميتهم وآثامه فهي ترقى على الأرجح إلى عادة تقديم تضحية تكفيرية قديمة وهي تعتبر بمثابة صدقة . ويقفل المتفجعون عائدين إلى منازلهم عندما ينتهون من زيارة المدفن ويزعمون أنهم يزورون المقابر لمجرد التفكر الديني فيخلّدون بذلك عادة قديمة يصعب عليهم الإقلاع عنها وإن كانوا لا يستطيعون إعطاء سبب وافٍ لاتّباعها في مثل هذه المناسبات .

وأختم حديثي عن الأقباط بعرض سريع لتاريخهم خلال الحكم الإسلامي إستناداً إلى كتاب « المقريزي » الشهير حول مصر وعاصمتها

عرف الأقباط بعد نحو سبع سنوات من فتح العرب لمصر معاناة واضطهاداً كبيرين على الرغم من الإمتيازات التي منحت لهم في البدء ممّا حدا بالعديد منهم إلى حمل السلاح في محاولة للدفاع عن حقوقهم . لكن العرب سحقوا مقاومتهم بعد وقوع مجزرة كبيرة. ولقد فُرض على الرهبان للمرة الأولى دفع جزية سنوية قدرها دينار لكل راهب . وكان جامع هذه الضريبة يسم يد كل راهب يلقاه بالحديد ثم يعمد إلى قطع يد كل واحد من الرهبان لا يرى العلامة الموسومة على يده . كما كان يجبي عشرة دنانير من كل نصراني لم يكن يحمل بطاقة من الحكومة تؤكد أنه دفع الجزية المفروضة عليه . ونتيجة لهذا القرار عثر جامع الجزية على الكثير من الرهبان غير موسومين بالعلامة الحديدية ، فقُطعت رؤوس بعضهم وضُرب بعضهم الآخر ضرباً مبرحاً حتى مات من هول الكدمات واللطمات وهُدّمت كنائسهم ومُزقت صور قدّيسيهم وأُتلفت صلبانهم . ولقد وقع ذلك في العام ١٠٤ للهجرة (٧٢٢ ـ ٧٢٣ للميلاد) في نهاية حكم الخليفة « يزيد بن عبد الملك». وبعد مرور سنوات قليلة أصدر حاكم مصر « ابن صفوان » خلال فترة حكم خليفة هذا الأمير (الخليفة هشام) أمراً يقضي بوسم يد كل قبطي بختم حديدي يحمل صورة أسد ممّا أدى إلى زيادة بؤسهم وشقائهم . فثار العديد منهم الذين كانوا يسكنون في الأرياف ولجأوا إلى قوة السلاح فلم يفلحوا فلحقهم اضطهاد كبير .

كانت كنائس مصر كلّها ابتداءاً من فترة الفتح العربي وحتى حكم الخليفة هشام في يد اليعاقبة (أو جميع الأقباط تقريباً)، فأرسلوا أساقفتهم إلى النوبيين الذين ما لبثوا أن تخلّوا عن المعتقد المالكي وتبنوا معتقد اليعاقبة . لكن المالكيين استعادوا بعد إغداقهم الهدايا على الخليفة سيطرتهم على تلك الكنائس التي كانت لهم في الماضي . ولقد غادت هذه الكنائس إلى اليعاقبة ؛ وكانت تنتقل من طائفة إلى أخرى فكانت تشتريها هذه الطائفة أو تلك بالهدايا أو الخدمات التي تقدّمها إلى الحكومة .

قد يمل قارئي من تفصيل كل المشاكل التي عانى منها الأقباط بسبب طغيان الأمراء المسلمين . ويمكننا الإشارة إلى بعض النقاط المميزة في تاريخ سلسلة الإضطهادات التي رزحوا تحت عبئها في أوائل السيطرة العربية . ولا بد من لفت نظر قارئي إلى أن الأقباط يملكون روح المخادعة الغالبة التي تجعلهم شعباً يصعب حكمه والسيطرة عليه . كما ذاق الأقباط الإضطهاد القاسي من جراء حماقتهم وإن كانوا غالباً ضحايا الإضطهاد الجائر في ظل حكّام طغاة وتحت تأثير متعصبين متشددين[1]

وفي العام ٢٣٥ للهجرة (٨٤٩ ـ ٨٥٠ للميلاد) أصدر الخليفة المتوكل أمراً يقضي بإجراء تمييزات مهينة في لباس الأقباط : إذ كان الرجل مجبراً على ارتداء عباءة واقية للرأس والوجه معاً وغيرها من أنواع الثياب المتميزة وكانت المرأة تلجأ إلى ثوب من اللون نفسه ؛ وكانا مجبرين على رفع صور خشبية للشياطين على أبواب منازلهم .

أمّا أبرز ألوان الإضطهاد وأقساها والتي كان سببها اعتزازهم وإظهارهم ثرواتهم وغناهم ومعاملة المسلمين معاملة محتقرة مزدرئة فذاقوا منها الأمرين

---

(١) لا بد من الإشارة إلى أن حالات الإضطهاد المشار إليها تشكل حالات استثنائية بالنسبة إلى روح التسامح العام التي أظهرها المسلمون. كما أن الأقباط الذين دخلوا دين الإسلام عن طريق الإضطهاد قليلون بالمقارنة مع المهتدين إلى الإسلام بملء إرادتهم وقد دفعهم إلى ذلك حبهم لنساء مسلمات .

خلال حكم الخليفة الحاكم الذي وصل إلى الخلافة في العام ٣٨٦ للهجرة (٩٩٦ ـ ٩٩٧ للميلاد) وقُتل في العام ٤٤١ منها . ومن الأعمال المجحفة الثانوية التي أنزلها عليهم إجبارهم على لبس الصليب الخشبي الذين يزن حوالي الخمسة باوندات في رقابهم إضافة إلى الأثواب والعمامات من اللون الأسود الداكن . ومن الممكن أن تكون هذه العادة المفروضة عليهم السبب في اعتماد العديد من النصارى اليوم العمامة السوداء . ولمّا كانت أثواب الخلفاء في مصر وأعلامهم بيضاء اللون وكان الأسود اللون الذي ميز أعداءهم العباسيين اعتبروا هذا اللون الأخير أكثر الألوان تناسباً مع أثواب الأقباط المنبوذين في تعبيره عن كرههم لهم. وفي الوقت الذي كان فيه الأقباط مجبرين على تمييز أنفسهم ، كان مفروضاً على اليهود تعليق قطعة خشب دائرية من نفس وزن صليب النصارى بالطريقة عينها. وصدرت الأوامر بنهب كل الكنائس وتهديمها ولقد شيدت بالفعل الجوامع مكان العديد منها كما صدر أخيراً أمر يقضي بإبعاد كل نصارى مصر واليهود إلى اليونان . لكن حبهم الكبير لوطنهم الأم رغم كل مآسيهم وكرههم العبثي الشديد ـ كما معظم الطوائف ـ لكل من يختلف عنهم ولو اختلافاً بسيطاً في ايمانه دفعهم إلى التجمهر حول قصر الخليفة الكبير والتوسل إليه فنجحوا في الحصول على إبطال قرار الإبعاد . ولقد دخل العديد من الأقباط خلال هذه الفترة وخلال فترات الإضطهاد الأخرى في دين الإسلام

وقع في شهر رجب من العام ٧٠٠ للهجرة (١٣٠١ للميلاد) حدث ميّز الأقباط للمرة الأولى ـ على حد معرفتي ـ بالعمامة الزرقاء التي يعتمرونها اليوم ومفاد الحادثة أن سفيراً مغربياً كان في طريقه إلى قلعة القاهرة فرأى رجلاً يرتدي ثياباً فاخرة ويعتمر عمامة بيضاء ويركب فرساً وحوله العديد من الفقراء يكرّمونه ويبجّلونه ويسألونه حسنة ولا يتوانون حتى عن تقبيل قدميه ؛ وكان الرجل المبجّل يبعدهم وينهرهم ويطلب من خدمه إبعادهم . وعلم المغربي أن هذا الرجل نصراني فحمق أشد الحمق وكان على وشك الهجوم عليه ؛ لكنّه تمالك نفسه وصعد إلى الديوان في القلعة وروى الحادثة لبعض الأمراء والدمع يترقرق في عينيه وقلبه يتفطر أسىً ولوعة على المسلمين الذين كان النصراني ينهرهم

واستدعي إثر هذه الحادثة كبار النصارى واليهود إلى الديوان وصدرت الأوامر القاضية بأن يعتمر النصارى عمامات زرقاء ويلفوا خصورهم بأحزمة بينما يعتمر اليهود عمامات صفراء على أن لا يمتطي أي واحد من جماعتيهما حصاناً أو بغلاً . وفضَّل ـ كما تقول الرواية ـ العديد من النصارى الدخول في دين الإسلام بدلاً من اعتمار العمامة الزرقاء .

حدث هام آخر وقع نهار الجمعة في التاسع من الربيع الأخير من العام ٧٢١ للهجرة (١٣٢١ للميلاد) خلال حكم محمد ابن قلاوون. إذ تدافع بعض المسلمين المتعصبين إلى تقويض كل الكنائس الرئيسية في مصر من أسوان وحتى المتوسط ويبلغ عددها ستين كنيسة تقع إحدى عشرة كنيسة منها في العاصمة وجوارها. ولقد حصل هذا التدمير خلال فترة صلاة الجمعة عند الظهر، إذ هبّ رجل انتابته حالة سعر كبيرة عند انتهاء السلطان وأفراد حاشيته من الصلاة في جامع القلعة يصرخ في حشد المصلين : « هدّموا الكنيسة في القلعة ». وبدوره قام فقير في جامع الأزهر الكبير وقد ارتعش بدنه يصرخ بين جموع المصلين قبل صعود الخطيب إلى المنبر: «هدّموا كنائس الكُفّار! الله أكبر! الله ينصر ويساعد!» ثم هز نفسه وصرخ: «دُكّوها دكّاً! دُكّوها دكّاً» واختلفت آراء المصلين فبعضهم اعتبر هذا الفقير مجنوناً وبعضهم رأى في الأمر إشارة إلى حدث ما». وكانت دهشتهم كبيرة عندما خرجوا من الجامع فوجدوا أنّ الأمر الذي حثّوا عليه قد بدأ تنفيذه فعلاً؛ فلقد تدافعت أفواج الناس في الشوارع تهدم الكنائس فتجعلها كُوماً كُوماً وهدّد السلطان بمجزرة كبيرة ينزلها بسكان القاهرة (والتي تعرف « بمصر ») والفسطاط (أو مصر القديمة) لهذا العمل الوحشي وانتهاك الحرمات المقدسة ، لكنّه تراجع عن قراره عندما رأى ردّ النصارى الإنتقامي. فبعد أن امتنعوا عن تنفيذ خطتهم طوال شهر حتى لا يجعلوا أنفسهم عرضة للشكوك أضرموا النار في أيام مختلفة في كثير من الجوامع ومنازل الأمراء وبعض المنازل الخاصة في القاهرة والفسطاط . وتم توقيف العديد من مضرمي النار وأُحرق بعضهم حيّاً ؛ كذلك أنزلت عقوبة الموت بعدد من المسلمين شنقاً في الشارع الرئيسي المؤدي من بوابة مدينة القاهرة الجنوبية إلى

القلعة لمجرّد شتمهم أحد الأمراء الذي اتهموه بدفاعه عن النصارى رغم عدم وجود أي دليل يثبت جرمهم هذا . فلقد أوقفوا دون حسن تمييز ليكفرّوا عن عملهم وليكونوا مثالاً لمواطنيهم . لكن السلطان اضطر لاحقاً بفعل التذمر الغاضب العارم إلى السماح للمسلمين من أتباعه بنهب كل نصراني يلقونه صدفة وقتله . وكان النصارى عادوا في تلك الفترة إلى اعتماد العمامة البيضاء ؛ وأعلن السلطان أن بإمكان كل من يرى أحد أبناء هذه الطائفة معتمراً عمامة بيضاء أو ممتطياً حصانه نهب هذا الشخص وقتله ؛ لذا من الضروري اعتمار العمامة الزرقاء وعدم امتطاء الأحصنة أو البغال والاكتفاء بالحمير شرط أن يديروا وجوههم صوب ذنب الحيوان ؛ كما لا يحق لواحدهم دخول الحمام إلاّ إذا عُلّق جرس إلى رقبته . ومُنع الأمراء في الوقت نفسه من تعيين النصارى في خدمتهم وطُرد كل من كان منهم يخدم الحكومة من مناصبهم .

وبعد طول معاناة واضطهاد دخل عدد كبير من النصارى في مصر العليا والسفلى في العام ٧٥٥ للهجرة (١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ للميلاد) في دين الإسلام وقد بلغ عدد المهتدين الجدد الذين تخلوا عن دينهم في يوم واحد في مدينة قليوب وحدها أربعمائة وخمسين شخصاً . ولقد جرى تهديم معظم كنائس مصر العليا (الصعيد) في هذا الوقت وشيّدت مكانها الجوامع

الفصل الثلاثون

يهود مصر

يشكل اليهود في أرض شتاتهم (بخلاف أية مجموعة أشخاص أخرى تعيش في بلد لم ترثه عن أسلافها أو تغزه) أفراداً دائمين للمجموعة التي يعيشون بينها ولذا آرتأيتُ في هذا الفصل عرضاً سريعاً عن يهود مصر .

يصل عدد اليهود القاطنين في مصر إلى خمسة آلاف يهودي تقريباً يسكن معظمهم في أحد أحيائها الفقيرة القذرة المنغلقة المتقاطعة أزقة ضيقة بشكل لا يسمح لشخصين بالمرور فيها معاً .

لا يختلف اليهود الشرقيون في سمات وجوههم العامة كثيراً عن أبناء الشرق الآخرين بالمقارنة مع اليهود في البلدان الأوروبية والمجموعات البشرية التي يعيشون بينها . يتميز يهود مصر عامة بعيون متقرّحة وسحنة متفخة ـ والسبب على الأرجح إقبالهم الكبير على إدخال زيت السمسم إلى ألوان طعامهم . وهم قذرو الجسم والملبس عامة ويشابه لون عماماتهم عمامات النصارى وتغطي نساؤهم وجوههن كالمصريات ويلبسن زيهن بين العامة .

بنى اليهود ثمانية معابد لهم في حيهم القاهري وهم يتمتعون بحرية ممارسة شعائرهم الدينية ولا تضيّق الحكومة المصرية عليهم الخناق كما في سائر بلدان السلطنة العثمانية . ويدفعون المال إلى المحتسب في القاهرة حتى لا يزورهم في حيهم كذلك الحال بالنسبة إلى الوالي طوال مدة ولايته . تسمح الحكومة لليهود ببيع السلع الغذائية بأسعار أغلى من سائر بائعي العاصمة

الآخرين، لذا يخزنون البضائع في محلّاتهم خاصة الفاكهة ويختارونها من أجود أنواعها بالمقارنة مع الأصناف التي تمتلىء بها المحلات في مناطق العاصمة الأخرى. يدفع اليهود الجزية كالأقباط وهم مثلهم معفيون من الخدمة العسكرية.

يمقت المسلمون اليهود مقتاً شديداً عامة ويُقال إن في نفوسهم كرهاً مترسخاً للمسلمين وديانتهم أكثر من أي شعب آخر وقد ورد في القرآن : ﴿ لتجدَنَّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنَّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنّهم لا يستكبرون ﴾ (سورة المائدة /٨٢) . ولمّا ذكرت لأحد أصدقائي المسلمين هذه الميزة في شخصية اليهودي أكدّ لي كدليل على كلامي حادثة جرت منذ بضعة أيام وقال : « كان أحد اليهود ماراً في صباح يوم باكر من الأسبوع الماضي أمام مقهى رجل مسلم من معارفه يدعى محمود . فرأى اليهودي رجلاً واقفاً أمام باب المقهى وظن أنه سيد المحل (وكان الوقت غسقاً) ، فألقى عليه التحية قائلاً : « صباح الخير يا شيخ محمد » ، فردّ عليه الواقف مزمجراً معنفاً لإلقائه التحية وهو اليهودي من أبناء طائفته بأحد أكثر الأسماء التي يتلفظ بها اليهودي بشاعة . واقتيد اليهودي المذنب أمام حاخامه الذي حكم عليه بالضرب المبرح للتهمة المزعومة بدلاً من أن يعلن أن المذنب تفوّه بهذا الاسم عن غير قصد » . ومن الأقوال الشائعة بين مسلمي هذه البلاد : « فلان يكرهني كرهه اليهود » ولا نعجب أن يكون المسلمون يكرهون اليهود أكثر بكثير من النصارى وكان اليهود حتى وقت قريب يُدفعون دفعاً بالمناكب في شوارع القاهرة ويُضربون أحياناً إن هم مرّوا عن يمين أحد المسلمين. ولا يجرؤ اليهود اليوم ـ وإن كانوا يلاقون آضطهاداً أقل ـ على التلفظ بكلمة إجحاف عندما يشتمهم أو يضربهم عربي أو تركي وضيع من غير حق ؛ وقد أنزلت عقوبة الموت بأكثر من يهودي بعد أن وجهت إليهم إتهامات باطلة مغرضة لتلفّظهم بكلمات تقلّل من احترام القرآن الكريم أو الرسول ﷺ . وتسمع العربي يسيء معاملة حماره المنهوك فيكيل إليه النعوت المحقّرة ويخلص مضفياً على حماره صفة « اليهودي »

لا يتوانى البعض عن التضحية بأحد اليهود إنقاذاً لحياة مسلم كما في القصة التالية : « قام أحد اليهود ذات يوم بصرف كمية من المال من صيرفي مسلم ، عبارة عن قطع نقدية تركية تعرف « بالعدلية » تقدر الواحدة منها بستة عشر قرشاً؛ ودفع الجندي هذا المال إلى صاحب دكان مقابل أغراض اشتراها منه . لكن صاحب الدكان رفض تقدير العدلية الواحدة بأكثر من خمسة عشر قرشاً متذرعاً بأن الباشا أصدر أوامره منذ أيام بعدم تجاوز قيمة هذا النقد الستة عشر قرشاً. وأعاد الجندي العدليات إلى الصيرفي وطلب منه إعطاءه قرشاً إضافياً لكل واحد منها ، فرفض الصيرفي . فقدم التركي آحتجاجاً للباشا نفسه الذي آستشاط غيظاً لعصيان أوامره فأرسل يطلب الصيرفي الذي آعترف بخطئه وحاول جاهداً تلطيف الأمر مؤكداً أن كل صيرفي في المدينة فعل الشيء عينه وأنّه حصل على العدليات بالمعدل نفسه . ولم يصدّقه الباشا أو أنه آعتبر ضرورياً إعطاء عبرة للعامة فأعطى إشارة بيده ملمحاً إلى قطع رأس المذنب . وتحركت عواطف مترجم المحكمة فأشفق على الصيرفي المسكين ورجا الباشا أن يوفّر حياته وقال : « لقد حذا هذا الرجل حذو كافة الصيارفة في المدينة وصادف أن تلقيت البارحة بالتحديد عدليات بالقيمة ذاتها » . فصرخ الباشا متعجباً : « ومِن مَن ؟ » أجابه المترجم : « من يهودي آعتدت عقد صفقات معه منذ سنوات » . وأحضر اليهودي أمام الباشا الذي أمر بشنقه مسامحاً الصيرفي المسلم عن فعلته . وحاول المترجم جاهداً وبكل صدق إنقاذ حياة اليهودي المسكين من قدره المحتم المشؤوم لكن الباشا كان مصراً على حكمه : فلا بد من إعطاء مثل للغير والأفضل وضع حد لحياة يهودي بدلاً من حياة مسلم مذنب. ورأيت اليهودي البائس معلقاً على نافذة نافورة ماء عامة تابعة لأحد الجوامع في الشارع الرئيسي في المدينة . وكان أحد طرفي الحبل مشدوداً إلى أحد قضبان النافذة المشبكة العلوية مما سمح له برفع نفسه ؛ وتمكن وهو المعلّق بصورة ملاصقة للنافذة من سند نفسه بواسطة قدميه إلى القضبان السفلية وكان ألمه كبيراً حاول أقرباؤه تقديم مبالغ طائلة للحصول على مغفرة الباشا ؛ وجلّ ما استطاعوا فعله جعل وجهه يستدير نحو النافذة فلا يراه المارة. وكان اليهودي شخصاً فرض

آحتزامه على جميع معارفه (باستثناء المسلمين طبعاً) وترك برحيله عـائلته في حالة بؤس شديدة ؛ ولكن مترجم المحكمة الذي كان السبب دون أن يقصد في موته وقف إلى جانبها وأمدّها بكل ما تحتاج إليه

يعيش اليهـود في مصر عـامة عيشـة منعزلـة هادئـة ؛ ونادراً ما يجـدون أشخاصاً من غير أبناء طـائفتهم يزاملونهم . ويتبـع اليهود نـظاماً غـذائياً مكلفـاً باهظاً ، إلاّ أنهم يُعتبرون أشخاصاً غير مسرفين . ويتأنق من كان غنياً منهم في ملبسـه في المنـزل لكنهم ويبـادرون إلى ارتـداء ثـوب بسيط أو حتى رث قبـل خروجهم . ويحتوي بعض منازلهم على الرغم من منـظرها الحقيـر القذر على غرف مؤثثة تأثيثاً جيداً   واليهود غير صارمين في منازلهم كما معـظم الشرقيين الأخرين بالنسبة إلى حجب نسائهم عن الرجال الغرباء أو عن رجال بلادهم على الأقل وعن الفرنجـة . وقد يـدخل الـزائر الأوروبي حجـرة تجمّعت فيها نسـاء يهوديات سافرات الوجه للسهر على خدمـة صاحب المنـزل . وتسود مثـل هذه العادة بين النصارى السـوريين المقيمين في القاهـرة . وقد يعمـد بعضهم إلى إقامة علاقة غرامية سرية مع اليهوديات ولكننا لا نجد محظيات بينهن. يعيش يهود الطبقات الدنيا عيشة فقر مدقع ويعيش الكثير منهم على الحسنات التي يتصدق بها أغنياء طائفتهم عليهم .

يتميز يهود مصر ببخلهم على سائر يهود البلدان الأخرى الذين لا يعانون فيها من الاضطهاد الكبير . وهم متيقظون حذرون قدر المستطاع بأن لا يجعلوا الشبهات تحوم حول غناهم وثرواتهم ؛ وقد يكون لهذا السبب بالذات أن اليهود يـظهرون بمـظهر رث بين العـامة مهملين واجهـات منازلهم الخـارجيـة . وهم متشـددون في أداء واجباتهم الـدينية ؛ كمـا أنهم يتميزون بنـزاهتهم في تنفيـذ عقودهم على الرغم من مغالاتهم في الصفقات التجارية .

يعمل العديد من اليهود المصريين عامة « صرّافين » (بمعنى مصرفيين) و « صيارفه » ويشتهرون باستقامتهم وصدقهم . وقد يزاول بعضهم مهنة الصياغة أو السمانة وقلّما نجد كبار التجار بين أغنيائهم .

الفصل الحادي والثلاثون

زينة المرأة المصرية

تتنوع حلى المرأة المصرية أشكالاً وألواناً فلا أخال صفحات هذا المؤلَف قادرة على احتواء رسومها المتعددة ؛ إلا إنني ارتأيت عرضاً سريعاً لأهم هذه الحلى حتى يرسم لها القارىء صورة في ذهنه . قد لا يثير هذا العرض إهتمام القارئين عموماً ولكنّه مفيد على الأقل للفنانين الذين يعتمدون على بنات أفكارهم في تصوير الملابس العربية وزينتها . وأتطرق في كتابي بادىء ذي بدء إلى حلى سيدات الطبقة المتوسطة

ذكرت في أحد الفصول أنّ رأسيّة المرأة مؤلفة من « الطربوش » و«الفردويّة» التي تضحى « ربطة » عند لفّها حول الطربوش . تزدان الجهة المقدمية من الربطة بالترتر الذهبي أو الفضي المرتب بطريقة غريبة ؛ والربطة من الموسلين الأسود أو الزهري أو من الكريب غير المزركش . ولقد عرضت وصفاً عاماً لأنواع الربطات المعروفة سابقاً .

تختال المصرية « بالمزاجي » على رأسها . والمزاجي من الموسلين المضلّع أسود اللون غالباً أو زهريّاً يُلف لفّات سبع فيشكّل عصابة ضيقة لا يتجاوز عرضها عرض الإصبع الواحد ولا يزيد طولها عن الخمس أقدام . يكون القسم الوسطي البالغ نحو ثلاثة عشر إنشاً مزيناً بالترتر المتراص رصّاً أو المتخذ شكل الماس أو العقدة؛ كذلك تتدلّى عند كل طرف منه حبات أخرى من الترتر من الطول نفسه محدَّدة بحاشية وشرّابات صغيرة من خيوط الحرير الملون .

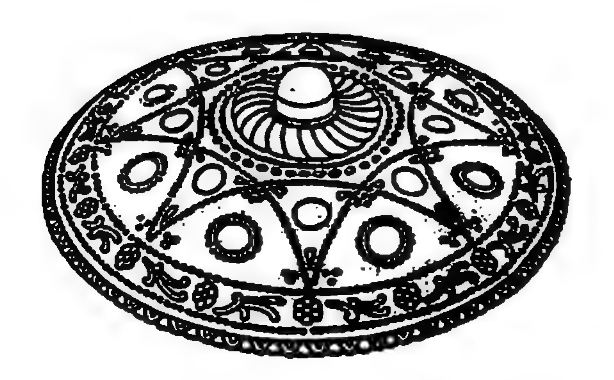
وللمـزاجي حـاشيـة ثـانيـة في بعض الأحيـان تتـدلى منـهـا شـرابـات على طـول الحـافـة السفلى من الجـزء المـزيّن في الـوسط . يلفّ المـزاجي حول الرأس ـ ويجعل قسمه الوسطي ملفوفاً فوق الجبهة أعلى حـافة الـربطة . وهو يثبّت إلى الخلف عند الجزء العلوي من الربطة وترتاح الأطراف المزينة فوق الصدر .



قرص الألماس

تعتمد المصرية في زينتها على « القرص » وهو ـ كمـا يدل عليـه اسمه ـ دائري الشكل متحدّب يبلغ قطره نحو خمسة إنشات . يخاط القرص في أعلى الطربوش وهو نوعان الأول « قرص الألمـاس » (وهو القـرص الوحيـد الذي ترتديه زوجات التجار المتوسطي الحال أو نساء الطبقة المتوسطة عامة) . يتألف القرص من الألماس المرصع بالذهب ويكـون من النقش المخرّم يمثـل ورودا وأوراقاً تجدر الملاحظة إلى أن المـاسات المـرصعة غيـر ذات قيمة وأمّـا ذهب القرص وكافة الحلى الماسية التي ترتديها المصريات فموشّب بالنحاس . يتراوح سعر قرص الألماس المتوسط الروعة والجمال بين مئة وخمسة وعشرين ومئة وخمسين جنيهاً استرلينياً ، ونادراً ما تدخل الفضة في تركيبـه . وأعتقد أن

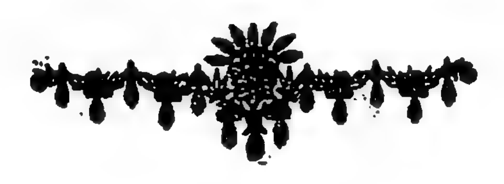
الأقراص الذهبيـة تعكس على الطربـوش غنىً أكبر عنـدما تكـون مشدودة إلى الطربوش الأحمر وإن كان ذلك يتنافى عامة وذوقنا الغربي . قد ترتدي زوجات التجار البسيطي الحال أحياناً قرص الألماس ؛ فهن مولعات بهذا الحجر الكريم ويبذلن قصارى جهدهن لتأمين بعضه وإن كان من النوع السيء . والقرص ثقيل الوزن يصعب آرتداؤه في البدء ؛ كذلك تشكو النساء اللواتي درجن على عادة آرتـدائه من صـداع في رؤوسهن عندمـا ينزعنـه : لذا يحفـظنـه ليـلاً نهـاراً ؛ ويخصص بعضهن قرصاً أقل قيمة عند خـلودهن للنوم . تتعدّد أنواع الأقراص التي تلجـأ إليهـا النسـاء ؛ إذ يحتفظ بعضهن بـواحـد للباسهن اليومي العـادي ويخصصن آخر للمناسبات الخاصة أكبر حجماً وأجمل منظراً ويرتحن في ثالث مساءاً يغططن معـه في نوم عميق أمّـا النوع الثـاني من القرص فهـو « قرص الذهب (« أو قرص الدَّهب » بالعامية المصرية) ، عبـارة عن صفيحة محـدبة مرصعة بالذهب المزخرف بنقوش نافرة رقيقة الحجم تزينها في الوسط حبة زمرد زائفة (قطعة زجاجية خضراء) وتغيب عنها السطيحات . نتبيّن من خلال هـذا الرسم أن حبات الزمرد أو الياقوت غيـر مقطعـة إلى سطيحات وإلاّ فهي زائفة. يُحشى قرص الذهب العادي بطبقة سميكة من الشمع مغطاة بقطعة من الورق ، وترتدي هذا القرص عامة النساء اللواتي لا تتوفر لهنَّ إمكانية شراء الماس وحتى بعض الخادمات .



قرص الذهب

تزين المصرية رأسها « بالقُصّه » التي تبلغ نحو ثمانية إنشات طولاً . وهي مؤلفة من الماس المرصع بالذهب وأحياناً من حبات الياقوت والزمرد واللآلىء ؛ وللقُصّه حبات ألماس أو زمرد متدلية منها . تجعل القُصة في مقدم الربطة وهي معلقة بواسطة عُقيفات في الخلف . ولقد شاهدتُ الكثير من القُصّات الماسية المرصعة بالفضة بدلاً من الذهب . توضع القصة عامة على رأس العروس كما القرص فوق شالها الذي يغطي وجهها وتستخدم هذه الحلى كذلك لتزيين نعش المرأة . والقُصّة والقرص حليتا نساء الطبقتين المتوسطة والغنية .

تضاهي « العِنَبَه » القصة زينةً ويتم وضعها بالطريقة نفسها والعنبة كبيرة الحجم تبلغ نحو خمسة عشر إنشاً طولاً وتلف أكثر من نصف الرأسية .



القُصّة

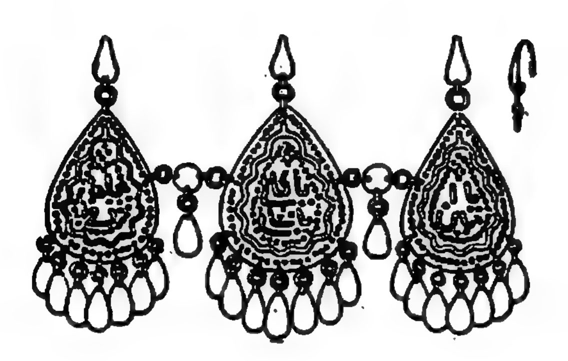
تستخدم المصرية « الشَّواطِح » (ومفردها « شاطح ») عبارة عن حليتين تتألف الواحدة منهما من ثلاثة خيوط أو أكثر من حبات اللؤلؤ ؛ والشواطح من طول القُصّة تقريباً تتوسطها حبة زمرد تجمعها في الوسط . وهي تتألف من اللآلىء مرتبة بشكل تخريم ضيق إضافة إلى حبات زمرد صغيرة أخرى. تُشد الشواطح إلى الربطة في شكل فسطونين ، شاطح في كل جهة من الرأس من طرف القُصة حتى الجزء الخلفي للرأسية ويعلق أحياناً إلى قرط الأذن .

وقد تستبدل المرأة قُصّتها وشواطحها بحلى أخرى هي التالية

ـ « الريشة » عسلوج من الماس مرصع بالذهب أو الفضة ترتديه المصرية في مقدم الرأسية أو جانبها

ـ « الهلال » : تضعه المصرية كما الريشة . وهو من الماس المرصع بالذهب أو الفضة ولا تزيد حافته الخارجية عن نصف الدائرة .

ـ « القمره » : حلية عبارة عن صفيحة ذهبية رقيقة مزخرفة بتخريم مبتكر أو بكلمات عربية . تتدلى من القمرة حوالي سبع قطع ذهبية مسطحة تُعرف بالبرق ؛ وقد تُصنع من الذهب المرصع بالماس والياقوت . تبين لنا هذه الصورة



نماذج من القمرة

ثلاث قمرات مربوطة إلى بعضها البعض تضعها المرأة على رأسيتها . تتضمن القمرة الوسطى كلمات : « يا كافي يا شافي » والقمرة على اليسار : « يا حافظ » والقمرة على اليمين : «يا أمين» . تستخدم المرأة هذه القمرات إمّا للزينة والتبرج وإمّا كتمائم تقيهنّ الشرور وتصاريف الدهر .

ـ « الساقية » : وشكلها كما يدل اسمها عليها . هي حلية دائرية مسطحة مخرّمة بالذهب ، تزينها حبات لؤلؤ صغيرة وتتوسطها حبة ماس أو غيرها من الأحجار الكريمة كما تتدلى حبات الزمرد من جزئها السفلي وهي تشبه القمرة .

ـ « عود الصليب » : عبارة عن قطعة خشبية مستديرة ودقيقة قليلاً ؛ صغيرة أكثر نحو الأطراف منه في الوسط . يُعلّق عود الصليب بحرز ذهبي مشابه في شكله ومؤلف من قطعتين تتحدان في الوسط لهما سلسلتان وعقيفة يتدلى الحرز منها إضافة إلى صف من البرق في أسفله . إنه لمن المدهش أن تلجأ

المسلمات إلى عود الصليب وأن تطلق هذا الاسم عليه ؛ ولا بد أنهن أخذن هذه العادة عن النصرانيات . قد يحل عود الصليب محل الحليتين اللتين تحدثت عنهما سابقاً أو قد تضيفه النساء إليهما

- « المِشْط » : وهو صغير ذهبي ترتديه المرأة كما الحلى الثلاث المذكورة مباشرة آنفاً أو مع أحدها تتدلى من المشط سلاسل صغيرة وعقيفة وخمس حبات برق في أسفله .

تتزين المرأة كذلك بحلية مشابهة للحلى المذكورة مؤلفة من العقيق أو البلّور الأبيض المرصع بالذهب وصف من البرق في أسفله . تتدلى هذه الحلية بواسطة سلسلتين وعقيفة . ومن الممكن أن تتخذ الحلى أشكال الزهور والفراشات تضعها المرأة على رأسيتها ؛ وهي نادراً ما تضعها لوحدها .

أمّا « الحلق » فمتنوع الأشكال والأحجام في مصر ؛ ويبين لنا الرسم التالي بعض نماذج منه . الحلق في الرقم ١ من الماس مرصع بالذهب ويتألف من حلية مدلاّة بإكليل معلق بعسلوج ؛ ويكون ظهر الفضة مطلياً بالذهب فلا يفقد بريقه بالتعرق . تجدر الملاحظة إلى أن الأقراط الممثلة في الصورة



نماذج من حلق .

مخصصة للأذن اليمنى ؛ وأمّا قرط الأذن اليُسرى فمشابه له لكن عسلوجه مقلوب . ويناسب زوج الحلق هذا سيدات الطبقة الغنية . ويشبه الحلق في الرقم ٢ الحلق في الرقم ١ إلاّ أن له حبة لؤلؤ كبيرة بدلاً من الحلية الماسية المدلاّة والإكليل كما أن ماسات العسلوج مرصعة بالذهب . ويمثل الرقم ٣ في الصورة الحلق مأخوذة من جهة جانبية ، وأمّا الحلق في الرقم ٤ فمن الذهب والماس مثقوب في وسطه مع ماسة صغيرة فوق الزمردة . يتم ثقب حبات الزمرد في مصر عامة لكنّها تتلف بهذه الطريقة لعدم تقطيعها إلى سطيحات . والحلق في الرقم ٥ ذهبي تزيّنه حبة ياقوت في وسطه . تُثبّت حبة الياقوت في قالب تخريمي دقيق تحيط به خمس عشرة كرة صغيرة ذهبية وتتدلى من الكرات السبع السفلية حبات البرق الدائرية

يندرج « العقد » في قائمة الحلى التي تمتلكها المصرية وهو على آختلاف أشكاله متشابه في الخصائص التالية : إذ لا تزيد أولاً حبّات العقد مجموعة عن عشرة إنشات طولاً فلا تطوّق الرقبة في حال شدّه وهذا مالا تفعله المصرية مطلقاً يمتد الحبل نحو سبعة إنشات متجاوزاً كل طرف في مجموع الحبات ؛ وبين الأطراف مسافة ثلاثة إنشات أو ما يزيد عند ربط العقد حسب الطريقة المألوفة وتحجب خصلات الشعر المنسدلة هذه الأجزاء في الحبل . أمّا الخاصة الثانية فهي وجود حبة أو غيرها من حلى الزينة في الوسط (ثلاث أو خمس أو سبع منها) تختلف حجماً وشكلاً أو لوناً عن الحبات الأخرى . يكون العقد الذي ترتديه النساء مرصعاً بحبات الماس أو اللؤلؤ . وتظهر لنا الصورة عقداً من الماس مرصعاً بالذهب . كما أورد في الرسم صورة جانبية (أ) وأخرى

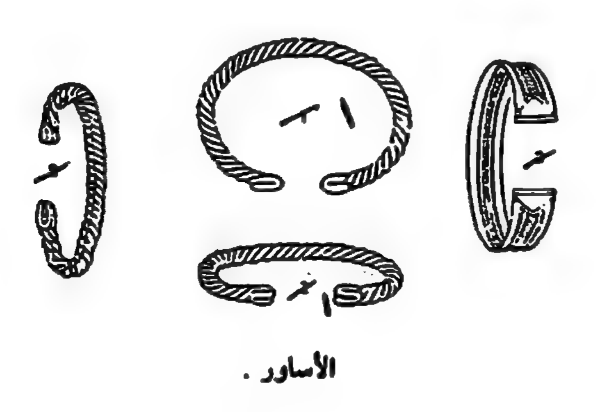


العقد

خلفية (ب) لأحد ملحقات هذا العقد . تطوّق المصرية رقبتها كذلك « بالقلّادة » وهي عقد طويل يصل إلى منطقة الحزام مرصع بالماس أو غيره من الأحجار الكريمة . قد تصنع المرأة عقداً طويلاً من ذات النوع بالنّشار المعدني اللمّاع (الترتر) الفينيسي أو بواسطة القطع المعدنية الذهبية المصرية أو التركية .

لا تختلف « خواتم » المرأة المصرية عن الغربية كثيراً إلّا أن عملها لا ينم عن براعة كبيرة في صنعها كما أن الجواهر التي ترصعها من النوع السيء . وإذا غاب الحجر من الخاتم يتحول هذا الأخير إلى « دِبْلَه » .

تشمر المصرية عن « أساور » جميلة الشكل في معصمها . والأساور من الماس أو من الأحجار الكريمة المرصعة بالذهب أو باللآلىء أو بالذهب وحده . وأشهرها ممثّل في الرسم أدناه . يعتبر الإسوار في الرقم ١ من أشهر أنواع



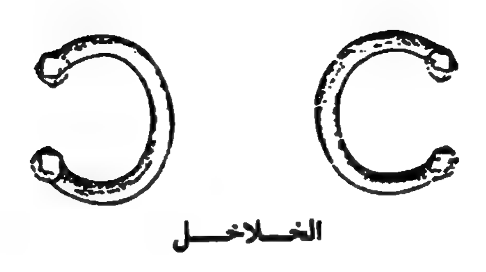
الأساور .

الأساور وهو من الذهب الملفوف . أمّا الإسوار في الرقم ٢ فمن الذهب الملفوف كذلك لكن طريقة لفه غير رائجة كما الإسوار الأوّل . والإسوار رقم ٣ من الذهب أيضاً ؛ وتكون هذه الأساور الذهبية مفتوحة قليلاً حتى تستطيع المرأة انتزاعها من معصمها بسهولة ؛ وهي من الذهب الفينيسي الخالص عامة القابل للإلتواء .

ننتقل الآن إلى حلى الشعر تاج رأس المصرية . ذكرت سابقاً أن شعر الرأس

كله بأستثناء قسم بسيط منه فوق الجبهة والصدغين مرتب في جدائل وضفائر تنسدل على الظهر وتتراوح الضفائر بين إحدى عشرة وخمس وعشرين ضفيرة وترية العدد دائماً . وتعتبر المرأة أن إحدى عشرة ضفيرة غير كافية ؛ والشائع أن تعقص شعرها بين ثلاث عشرة وخمس عشرة ضفيرة . كذلك تعقص مع الشعر ثلاثة أضعاف عدد الحبال الحريرية السوداء (ثلاثة حبال لكل ضفيرة تتحد في أعلى الرأس) وهي تتراوح بين ستة عشر وثمانية عشر إنشاً طولاً وتعقص مع الشعر في زبع الطول أو تعقد بـرباط أو عصبة من الحرير الأسود يلف حول الرأس ؛ وهي تتدلى في هذه الحالة منفصلة عن ضفائر الشعر فتحجبها ـ تعرف هذه الحبال «الخيطان» وهي تشكل مع مجموعة من الحلى الذهبية « الصُّفة » . تعلّق إلى كل حبل باستثناء الطرف العلوي وحتى نحو الربع أو الثلث من طوله تسع حبات « برق » ذهبية مسطحة . تتشابه حبات البرق كلّها وتبعد الواحدة عن الأخرى نحو الإنش ؛ وتكون حبات كل خيط مرتبة بهذا الشكل فلا تلتقي مع حبات الخيوط الأخرى. ونجد عند طرف كل طرف « ماسورة » ذهبية صغيرة تمتد نحو ثلاثة أثمان الإنش أو « حبه » ذهبية في شكل مكعب أقتطع جزء منه في كل زاوية من زواياه. ويقع أدنى الماسورة أو الحبة خاتم صغير تتدلى منه عامة قطعة معدنية تُعرف « بالرُّبع فندقلي» يزيد قطرها عن نصف إنش تقريباً هذا هو وصف « الصّفة » عامة ؛ وتفضل المصريات الحبة على الماسورة و « الكُمِتْرَى » الذهبية المسطحة على « الرُّبع فندقلي » وهي ذات أشكال ناعمة . تعتبر « الشُّفْتِيشَة » ذات الشكل التخريمي من الحلى البديلة للقطعة الذهبية وتزينها حبة لؤلؤ في الوسط . وقد تستبدل بعض السيدات القطعة المعدنية الذهبية بشرابة صغيرة من اللؤلؤ أو يعلقن حبات اللؤلؤ والزمرد بشكل متعاقب في أسفل الحبال الثلاثية ويثبتن حبة لؤلؤ إلى كل حبة برق ـ وتعرف الصّفة المرتبة باللآلىء بـ « صفّة لولي » . تثبّت كذلك الكريّات المرجانية كما اللآلىء . ويبدو أن الصفّة ذات الثلاث عشرة ضفيرة مؤلفة من ٣٩ خيطاً و ٣٥١ حبة برق و ٣٩ ماسورة أو حبة و ٣٩ قطعة ذهبية أو غيرها من الحلى ؛ بينما تضم الصفّة ذات الخمس وعشرين ضفيرة نسبة إثنتي عشرة حبة برق في كل خيط أي ما لا يقل

عن الـ ٩٠٠ حبة برق إضافة إلى خمس وسبعين حبة من اللواحق الأخرى . ووحدها الصّفة من مجموع الحلى التي تتزين بها المرأة المصرية تستحوذ على إعجابي ؛ فللبرق اللمّاع ووقعه الرّنان عندما تتبختر المصرية أثر محبب خاص في النفس .

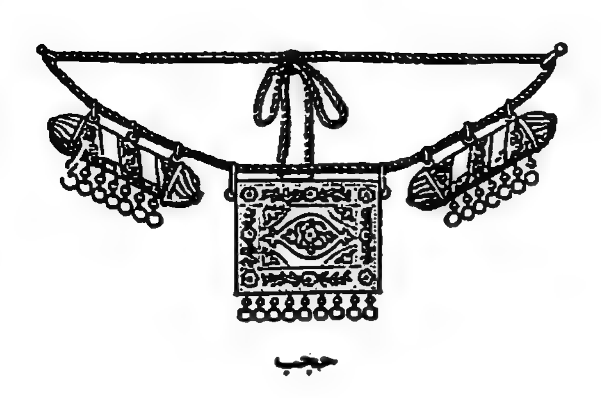


الخلاخل

تختال المرأة « بخلاخلها » الذهبية أو الفضية ؛ وهي متمثلة في الرسم أعلاه ولكنها نماذج غير مألوفة كثيراً بين المصريات كما في السابق . والخلاخل ثقيلة الوزن ويضرب بعضها ببعض عند المسير فتحدث صوتاً رناناً ؛ وتسمع المصريين ينشدون الخلخال في أغانيهم فتقول إحداها : « رنة خلخاك أخذت عقلي » ونشير إلى أن « أشعيا » يتحدث في نبوءته عن هذه الخلاخل والصوت الذي تحدثه في التوراة إذ يقول : « ويجلجلن بخلاخل أقدامهن » .

لا ننسى « الحجاب » الذي تضمه المصرية إلى مجموعة حلاها . ولقد تحدثت عن الحجاب في الفصل الحادي عشر من الكتاب : فهو مغطى بقماش شمعي يحميه من التلوث العرضي أو التلف بسبب الرطوبة ويجعل في غلاف ذهبي أو فضي مربوط بخيط حريري أو سلسلة فيعلق عادة في الجهة اليمنى أعلى منطقة الحزام ؛ ويتم تمرير الخيط أو السلسلة فوق الكتف اليسرى . وقد يتضمن هذا الغلاف نقوشاً عربية كـ « ما شاء الله » أو « يا قاضيَ الحاجات » . وأورد في ما يلي رسماً لثلاثة حجب ذهبية مربوطة بخيط تلبسها حاملتها معاً . يحتوي حجاب الوسط في الصورة على غلاف مسطح رقيق فيه ورقة مطوية تبلغ سماكته نحو ثلث الإنش ؛ أمّا الحجابان الآخران فعبارة عن غلافين

أسطواني الشكل يضمان حلى درجية ويزدان كل حجاب بصف من حبات البرق في نهايته . ترتدي النساء كما الأطفال الحجب من هذا النوع أو ذات الشكل المثلث ؛ ويُعلّق الحجاب المثلث إلى رأسية الطفل .



حجب

لا بد من وقفة مع حلى نساء الطبقات الدنيا. وتجدر الإشارة إلى أنّ رأسية نساء هذه الطبقات ـ باستثناء نساء القرى الفقيرات تشتمل على عصبة ؛ ويلجأ بعضهن إلى الطربوش والفرودية بدلاً من هذه الأخيرة . وقد يضعن خيطاً من الترتر الفينيسي ـ « الشّدة » ـ في الجهة الأمامية للعصبة أو الربطة . ويزيّن الطربوش أحياناً بالقرص الذهبي والفرودية إضافة إلى حلى أخرى وصفتها سابقاً كالقمرة الذهبية والساقية والمشط .

تتعدد أشكال « الحلق » وبعضه ذهبي مرصع بأحجار كريمة ، وأكثر أنواعه ذيوعاً الحلق المصنوع من النحاس ؛ وتزين هذا الحلق حبات خرز ملونة مثبتة إليه ؛ أمّا الحلق الفضي فغير شائع آستعماله كثيراً .

تعلق بعض مصريات الطبقات الدنيا في القاهرة « الخِزام » (أو « الخُزام » وهي العبارة الأكثر شيوعاً) في أنوفهن كذلك تفعل العديدات من نساء القرى في منطقتي الصعيد والدلتا . والخُزام نحاسي يتراوح قطره بين إنش وإنش ونصف الإنش وهو يضم نحو ثلاث خرزات زجاجية ملونة حمراء وزرقاء

عامة معلقة إليه . يمرّ الخزام عبر المنخر الأيمن ويتدلى جزء منه أمام الفم ممّا يضطر واضعته إلى رفعه بيد واحدة عندما تضع أي شيء في فمها ؛ ويكون



الخُزام (أو حلقة الأنف)

الخزام من الذهب وترقى عادة وضعه إلى أيام إبراهيم(*) وهو مذكور في نبوءة أشعيا في الفصل الثالث /آية ٢١ حيث يعرّف الخزام « بأخراص الأنوف » . وقد لا يعتبر من لم يألف نظره الخزام هذا الأخير حلية تزيينية جمالية .

أمّا « العقد » فمشابه لمجموعة العقود التي ذكرتها بالنسبة إلى أبناء الطبقة الميسورة . ولقد تحدثت عن « اللّبه » و « الشعير » اللتين ترتديهما نساء الطبقات الدنيا بيد أن عقودهن تتألف من خرزات زجاجية ملونة ـ في خيط واحد أو مجموعة خيوط مع خرزة أكبر حجماً في الوسط أو أنّها مصنوعة في شكل شبكة . والمرأة المصرية مولعة بالحلى ، وهي غالباً ما تطوّق رقبتها بثلاثة عقود تقريباً زهيدة الثمن لا يتجاوز ثمن الواحد منها بنساً إنكليزياً . تتألف بعض العقود من خرزات كبيرة من الكهرمان الشفاف . كما تلف العديدات رقابهن « بطوق » من الفضة أو النحاس أو البيوتر (أشابه معدنية مقوّمها الأساسي القصدير) . ولا تتوانى الفتيات الصغيرات عن وضع هذا « الطوق » حلية يتغندرن بها . تكون الأطواق الأصغر حجماً من الحديد أحياناً .

(*) أنظر سفر التكوين في التوراة (الفصل الرابع والعشرون / آية ٤٧) : ﴿ فجعلتُ الخُرص في أنفها والسوارين في يديها ﴾ .

تعتمد المصرية في زينتها على الخواتم في أصابعها ، وهي نحاسية أو فضية ويمكن شراء الخواتم النحاسية المرصعة بقطع الزجاج الملون من أسواق القاهرة بثمن زهيد جداً لا يتجاوز ربع بنس إنكليزي. وقد لا تكتفي المصرية بخاتم واحد منها فتزين أصابعها بخاتمين أو ثلاثة أو أكثر .

تتعدد أشكال « الأساور » في يد المصرية بنت الطبقة الدنيا . والأساور فضية في بعضها ، نحاسية أو قصديرية في بعضها الآخر ، وهي تتخذ شكل الأساور الذهبية التي عرّجت على وصفها . أمّا الأساور النحاسية فأكثرها شيوعاً نجد كذلك الأساور المؤلفة من خرزات كهرمانية كبيرة أو من العظم . و « الغُويشات » أهمّها انتشاراً وهي من الزجاج الملون غير الشفاف الأزرق أو الأخضر أو المرقش ؛ وتزيّن الغويشات وأساور العظم يد المرأة المصرية فتغطّيها .

تحذو بعض نساء الطبقات الدنيا حذو سيداتهن في عقص شعرهن ضفائر ولفّها بالخيوط الذهبية السوداء التي تلجأ إليها السيدات . والعادة المتبعة بين هؤلاء تقسيم شعرهن إلى غديرتين تنسدلان وراء الظهر وعقص ثلاثة خيوط حريرية حمراء مع كل غديرة منهما ولف الواحدة بشرابة طويلة عند طرفها مما يجبرهن الى إبعاد الشرابات قبل جلوسهن ، وتعرف هذه اللواحق « بالعقوص » .

تجلجل زوجات بعض الفلاحين وشيوخ القرى الأغنياء بالخلاخل الفضية الثقيلة في أقدامهن كما يضع العديد من الأولاد الخلاخل الحديدية في أرجلهم . وكانت العادة الشائعة بين العرب أن تطوق فتياتهم خيطاً من الأجراس في أرجلهن . وصادفت في الواقع بعض الفتيات الصغيرات في القاهرة يتجولن في شوارعها والأجراس الصغيرة تتدلى من خلاخلهن . وقد يكون أشعيا قد ألمح في نبوءته إلى صوت الخلاخل هذه بدلاً من الخلخال العادي البسيط حسب ما ورد في التوراة في الفصل الثالث/آية ١٦ : « ويجلجلن بخلاخل أقدامهن »

المقاييس والموازين المصرية

يستحيل عليّ أن أقدم بياناً مفصّلاً دقيقاً عن المقاييس والموازين المصرية ، فأنا لم أفلح بعد بحث دقيق في إيجاد نموذجين من ذات فئة وحدة الموازين والمقاييس يتوافقان مع بعضهما البعض ، فيأتي الفرق في الموازين كبيراً جداً ؛ وأما الموازين التي أوردتها وأعطيت حدّيها الأدنى والأقصى ، فيمكننا الأخذ بالحد الأدنى منها والذي يقارب المعدل الأصلي الصحيح . ونشير إلى أن التاجر المصري وخوفاً من « المحتسب » يعتمد موازين ومقاييس تتجاوز بعض الشيء المقاييس والموازين الحقيقية رغم صدورها من جانب الحكومة التي تتوخى الدقة في ضبط هذه الوحدات خلال عمليات الشراء وتستخدم دون شك وحدات أكثر دقة في صفقات البيع .

مقاييس الطول والأراضي

الفتر : المسافة ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحتها .

الشبر : المسافة ما بين طرف الإبهام وطرف الخنصر ممتدّين .

الدراع البلدي يستخدم لقياس الكتان المصنوع في مصر والذي يوازي ٢٢ إنشاً وثلثي الإنش .

الدراع الهندازي : يستخدم خاصة لقياس البضائع الهندية ويوازي نحو ٢٥ إنشاً

الذراع الإسطمبولي : يستخدم لقياس القماش الأوروبي ويوازي نحو ٢٦ إنشاً ونصف الإنش .

الفدّان : وهو أهم وحداتِ قياس مساحة الأرض . كان لسنوات خلت يوازي إكراً إنكليزياً وعشر الإكر . وأمّا اليوم فلا يساوي إكراً واحداً . يقسم الفدان إلى قراريط (والقيراط جزء من أربعة وعشرين من أجزاء الشيء). يتألف الفدان من ٣٣٣ قصبة مربعة وثلث القصبة . كانت القصبة في الماضي تساوي ٢٤ قبضة وهي اليوم تساوي ٢٢ فقط . والقبضة هي جمع كف الرجل مع جعل الإبهام مرفوعاً وتساوي ستة إنشات وربع الإنش .

المَلْكة : (الفرسخ)، وهي تساوي المسافة بين قريتين ؛ وتختلف في منطقة الدلتا والصعيد كما كانت الحال بالنسبة إلى الشؤنس القديم الذي يساويه تقريباً .

تقدّر الملكة في الدلتا بمسافة ساعة (بين ٢ ١/٢ و ٣ أميال)، وبساعة ونصف الساعة في الصعيد (بين ٣ ٣/٤ و ٤ ١/٢ أو أكثر).

مكاييل الحنطة

الأردبة : تساوي نحو خمس وحدات من مقياس البوشل الإنكليزي (مكيال خاص للحبوب).

الويبة : تساوي سدس الأردبة .

الربع : تساوي ربع الويبة .

الموازين

القمحة : تساوي الجزء الرابع والستين من الدرهم أي ربع القيراط وما يعادل ثلاثة أرباع الحبة الإنكليزية .

الحبّة : تساوي الجزء الثامن والأربعين من الدرهم أي ثلث القيراط وما يعادل $\frac{127}{128}$ من الحبة الإنكليزية .

القيراط : يوازي أربع قمحات أو ثلاث حبات وهو يساوي الجزء الرابع والعشرين من المثقال أو بين $\frac{١٢٥}{١٢٨}$ ٢ إلى ٣ حبات إنكليزية .

الدرهم : يتراوح بين $\frac{٥}{٨}$٤٧ إلى ٤٨ حبة إنكليزية .

المثقال : يساوي درهم ونصف الدرهم ويتراوح بين $\frac{٧}{١٦}$ ٧١ و ٧٢ حبة إنكليزية .

الأوقية (أو الوقية) : تساوي ١٢ درهماً أو الجزء الثاني عشر من الرطل ؛ وتتراوح ما بين $\frac{١}{٢}$٥٧١ و ٥٧٦ حبة إنكليزية .

الرطل : يساوي ١٤٤ درهماً أو اثنتي عشرة أوقية .

الأوقة (أو الوقة) : تساوي ٤٠٠ درهم (أي رطلين وسبع أتساع) .

القنطار : يساوي مئة رطل .

لائحة بأهم الصور التوضيحية التزيينية

المحتويات